من مطبوعات دار المعلمين العالية

مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة

الجزء الثاني

حضارة

وادي النيل

جزيرة العرب وبلاد الشام - بعض الحضارات والامم القديمة -
بلاد ايران والاسكندر والسلوقيون - اليونان والرومان

تأليف

طه باقر

معاون مدير الآثار القديمة العام

(الطبعة الثانية منقحة)

شركة التجارة والطباعة المحدودة

١٩٥٦ م — ١٣٧٥ هـ

مطبوعات دار المعلمين العالية

مقدمة
في تاريخ الحضارات القديمة

الجزء الثاني

حضارة

وادي النيل

جزيرة العرب وبلاد الشام - بعض الحضارات والامم القديمة -
بلاد ايران والاسكندر والسلوقيون - اليونان والرومان

تأليف

طه باقر

معاون مدير الآثار القديمة العام

(الطبعة الثانية منقحة)

شركة التجارة والطباعة المحدودة

شارع الملك فيصل ٣/١ - الكرخ - بغداد

١٩٥٦ م — ١٣٧٥ هـ

مقدمة الجزء الثاني

ليس لدى ما أضيفه هنا الى ما ذكرته في مقدمة الطبعة الثانية المثبتة في الجزء الاول من هذا الكتاب سوى التنويه مرة أخرى بالاضافات والتنقيحات الاساسية التي أدخلتها على الجزء الثاني بحيث يبدو بالمقارنة مع الطبعة الاولى كتابا جديدا في فصوله وعرضه . وثمت ملاحظة أخرى يحسن التنويه بها تلك هي ما قد يبدو على الكتاب بجزئيه من التطويل والاسهاب فوق ما يتحمله منهج سنة واحدة من تأريخ الحضارات القديمة كما هو المتبع في كلية دار المعلمين العالية ، ولكنني لم ألتزم بمنهج مدرسي معين وانما راعيت قبل كل شيء أن يكون كتابي مقدمة شاملة في التعريف بالحضارات والمدنيات القديمة ليكون مرجعا أساسيا في الموضوع يتصرف بمادته من يدرس الموضوع من ناحية الاسهاب والايجاز والحذف أو التوسع بالاستعانة بالمراجع الاساسية التي أثبتها في نهاية البحوث الرئيسية .

ولا بد لي في نهاية هذه الملاحظات الموجزة أن أكرر ما سبق لي أن ذكرته من أملي بأن سيسد هذا الكتاب حاجة ماسة في المكتبة العربية لانتفاء وجود كتاب حديث في الموضوع في اللغات الاجنبية أو في العربية .

بغداد ١٩٥٦ طه باقر

فهرست الجزء الثانى

١ – القسم الاول

حضارة وادى النيل

بعض الاوجه المختلفة من حضارة مصر

٢ – القسم الثانى

تاريخ الجزيرة العربية وبلاد الشام

٣ ـ القسـم الثالث

القسم الرابع : بلاد ايران

العيلاميون ـ الفرس الاخمينيون ـ الاسكندر والسلوقيون ـ الفرثيون ـ الساسانيون

٥ ـ القسم الخامس : اليونان والرومان

الجزء الثانى

القسم الاول

حضارة

وادي النيل

الفصل العشرون

عصور ماقبل التاريخ وبداية الحضارة المصرية

١ـ مقدمة فى جغرافية وادى النيل

لكى نفهم قصة الحضارة فى وادى النيل وسير تأريخها من نشوئها وتطورها وادوارها ينبغى لنا ان نلم بابرز الخصائص المميزة لمسرح حوادث تلك الحضارة مما كان له اثر بارز فى طبع تلك الحضارات بميزاتها ومقوماتها الخاصة • ولما كان الغرض من هذه المقدمة الجغرافية الاستعانة بها لفهم حوادث التأريخ المصرى القديم فسنكتفى من جغرافية وادى النيل بالامور البارزة الموضحة لتلك الحوادث •

تقع مصر [١] فى الجانب الشمالى الشرقى من قارة افريقية ، وان ابرز

---

(١)اسم بلاد مصر فى اللغات الاوربية (Egypt) ماخوذ من اسمها باللاتينية (Aegyptus) المشتق بدوره من الاسم اليونانى (Aiguptos) الذى يرجع ان اصله من احد اسماء مدينة «منفس» القديمة «حت-كا- فتاح» (Het-Ka-Ptah) (ويلفظ آيكو فتاح) ويعنى (معبد «كا» العائد الى الاله فتاح) ، ومن هذه الصيغ اشتق اسم «قبط» • اما الاسم الشائع عند المصريين القدماء فكان اسم «قيم» او «قيمى» (وبالقبطى خم ، خيمى) ويعنى الارض السوداء اى السواد اشارة الى لون تربة وادى النيل الخصبة ، وهناك اسم آخر شائع لدى قدماء المصريين هو «تو - ميرى» (To-Mere) اوتاميرى ومعناه ارض الفيضان •

اما الاسم «مصر» فالمرجح كثيرا انه اسم سامى ويعنى ماتعنيه الكلمة العربية «مصر» ، وقد ورد هذا الاسم بصيغة «مصر» بضم الميم والصاد وبصيغة «مصرى» فى الوثائق الاشورية وفى رسائل العمارنة الشهيرة انظر (Pritchard, **Ancient Near Eastern Texts**, 294).

وورد فى الآداب السامية الاخرى ولاسيما التوراة بصيغة التثنية «مصرايم» (سفر التكوين ٥ : ١١) اشارة الى قسمى البلاد السفلى والعلوى ، ويرى البعض ان هذه الصيغة من اسم «مصرايم» بن حام كما جاء فى التوراة (سفر التكوين ٦:١ ، ١٣ وسفر الايام الاول ١١:١) ، ولعل صيغة =

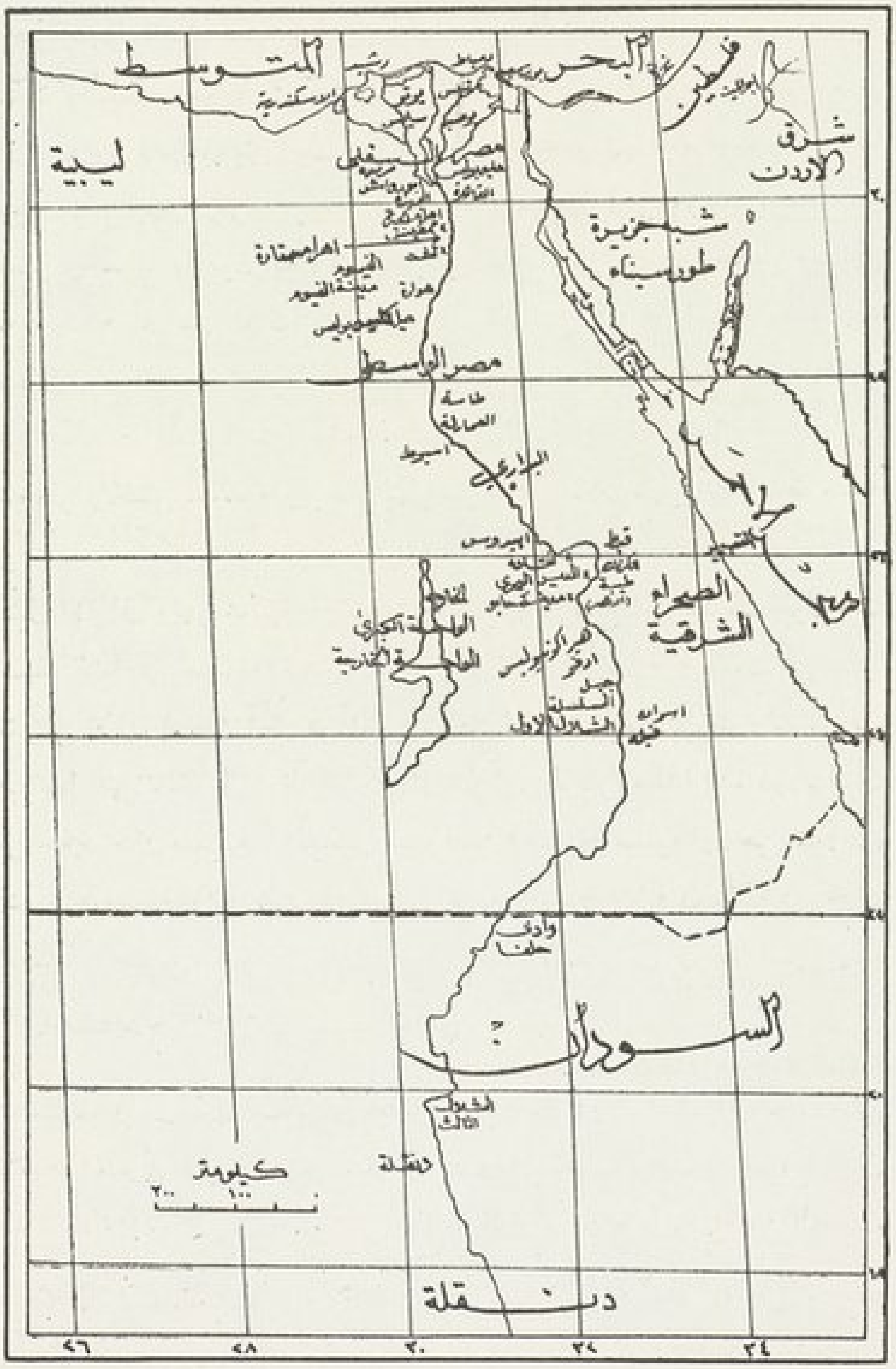
مايميز مصر ، في جغرافيتها وتأريخها ، نهرها العظيم «النيل» [١] مصدر الحياة والخصب بحيث يصح القول مع هيرودوتس المأثور «ان مصر هبة النيل» ، اذ لولاه لاصبحت مصر صحراء جرداء ، فهي قطر عديم المطر بوجه اساسي ، فيكون النيل وما على جانبيه من الاراضي الضيقة بلاد مصر التي يمكن فيها الحياة والعيش وهي شقة خضراء ضيقة يكون فيها الحد الفاصل بين الحياة والزرع وبين الصحراء وعدم الحياة حدا واضحا وبونا صارخا بين «المزروع» والصحراء ٠ وقد عمل ضيق هذه الشقة الخضراء على تكاثف قرى الفلاحين ، وجعل القرية تكون لصق القرية اقتصادا بالاراضي القابلة للزراعة ٠ ولكن اذا مابذلت العناية المقتضية فان هذه الاراضي تدر على سكان مصر خيرات زراعية عميمة ٠ ومع ذلك فلان الارض الزراعية الخصبة محصورة في وادي نهر النيل فان مايمكن زراعته من المملكة المصرية لايتعدى زهاء ٣٫٥ ٠/٠ (نحو ١/٣٠ من الارض) من مساحة هذه المملكة ، وما بقي من الاراضي (٩٦٫٥ ٠/٠) بادية جرداء غير قابلة للسكنى ، ويعيش الآن نحو ٩٩ ٠/٠ من سكان مصر على هذا الجزء الصغير من الاراضي القابلة للزراعة ، وعلى هذا فتكون كثافة السكان

= «مصرايم» السامية كما وردت في التوراة ترجمة لكلمة «تاوي» احد اسماء مصر القديمة التي تعني «الارضين» (ولعل ذلك اشارة الى مصر السفلى ومصر العليا) (حول ذلك راجع :ـ (١) The British Museum Guide, 4

(٢) مجلة المقتطف عدد يونيو ١٩٤٢)٠

(١) كلمة النيل ليست من أصل مصري قديم ٠ والمرجح كثيرا انها من الكلمات السامية القديمة المشتقة من «نهر» او «نهل» او «نخل» (بابدال الراء لاما) فصارت الكلمة الثانية بصيغة «نيل» ومنها الكلمة اليونانية (Neilos) واللاتينية (Nilus) ٠ اما المصريون القدماء فقد سموا نهر النيل وكذلك الاله الخاص بنهر النيل باسم «حعف» او «حعفي» ، وفي الازمان المتأخرة صار يلفظ بهيئة (هوفي واوفي وحوفي) ولا يعلم معنى هذا الاسم المصري القديم ، وقد اله النيل ونظمت في تمجيده التراتيل الدينية وخصصت له بعض الاعياد الدينية ٠

٥


البحر المتوسط
ليبية
فلسطين
شرق الاردن
شبه جزيرة طور سيناء
مصر السفلى
مصر الوسطى
اسيوط
الصحراء الشرقية
وادي حلفا
السودان
دنقلة
دنقلة
كيلومتر
١٠٠
٢٠٠
٢٦
٢٨
٣٠
٣٢
٣٤

في مصر الآن على اشدها [١] . هذا ولا نعلم بوجه التأكيد عدد سكان مصر القديمة ، ولعله كان نحو عشر السكان الحاليين .

ولعلم اهم مايميز النيل مما كان له اثر عظيم فى حياة مصر وتاريخها فيضان هذا النهر وموعد فيضانه ، فعلى هذا الفيضان وعلى موعده تعتمد حياة مصر وخصبها . يكون النيل فى مصر فى نهاية شهر أيار على أخفض مستوى له ، ولكنه يبدأ فى خلال شهر حزيران بالارتفاع فيما بين القاهرة واسوان ، وتظهر عند ذاك كمية من الماء الاخضر يظن ان سبب خضرتها مايحمله النهر من الكميات الكبيرة من نوع الحشائش المائية الدقيقة (Algae) التى تتحجر وتختفى بعدئذ . ويرتفع النهر سريعا فى خلال شهر آب وتتخذ مياهه لوناً أحمر كدراً بسبب التربة الغرينية العالقة بها التى يحملها الى نهر النيل النيل الازرق ونهر عطبرة . وتستمر مياه النيل بالارتفاع الى منتصف ايلول حيث تستقر ثابتة فى مستواها زهاء اسبوعين أو ثلاثة اسابيع . ويحدث فى شهر تشرين الاول ارتفاع آخر فى النهر ، ومن ثم تبدأ المياه بالهبوط وتستمر فى هبوطها حتى تصل الى أوطأ مستوى لها فى أيار القادم وهكذا تبدأ دورة النيل من جديد . ان سبب هذا الفيضان معروف . وكان «ارسطو» اول من اشار الى السبب الحقيقى وانه متأت من امطار الربيع وامطار بداية الصيف فى جبال الحبشة وجنوبى السودان حيث تدخل هذه الامطار الى روافد النيل بهيئة تيارات وسيول عنيفة .

فيبدو ان النيل منتظم فى فيضانه بحيث ان دورة النيل قد اتخذت فى التقويم المصرى على ما سنبين فيما بعد ، ومع انتظام هـذا الفيضان فان الفائدة منه لاتتم اذا لم يحافظ على مياه الفيضان اذ انها وما تحمله من الخصب تذهب عبثا مع النيل الى البحر ، وان معظم الفلاحين فى مصر يسقون فى

---

(١) اكثر من ١٢٠٠ نفس فى الميل المربع بالمقارنة مع بلجيكة (٩٠٠ فى الميل المربع) التى تعد اشد الاقطار الاوربية فى كثافة السكان
(J.A. Wilson, **The Burden of Egypt; Before Philosophy**).

الربيع من الآبار • ومما يقال فى النيل وفيضانه انه على الرغم من انه اقل عنفا من نهر دجلة مثلا واكثر انتظاما منه فى فيظانه الا انه قد يكون متقلبا من حيث الزيادة والنقصان فى كمية فيظانه ، ففى حالة الزيادة فوق المعتاد يكون التدمير والتخريب وفى النقصان القحط والمجاعة ، والفرق بين الحالين بضع «انجات» من ناحية الزيادة او النقصان (١) ، ولذلك لزم السهر واليقظة فى حالة الارتفاع العالى المخرب ، فـلا عجـب اذا ماوجـدنا المصريـين القدماء يقدسون النيل ويجعلونه الها من آلهتهم خصوه بالتمجيد ونظموا له التراتيل الدينية(٢) كما انهم خصصوا لعبادته عيدين مهمين ، كان الاول منهما يقع فى حزيران واسمه «ليلة الدمعة» ، حيث اعتقدوا ان الالهة «ايسيس» ناحت وبكت على جثمان زوجها «اوسيريس» الميت ، وسقطت دموعها فى النهر وسببت ارتفاع مياهه ، وقد استمر هذا العيد الوثنى فى مصر الى العصور الحديثـة ، حيث يعـرف بليلـة النقطـة اذ اعتقـدوا ان نقطـة ماء تقع بمعجزة فى النيـل وتسبب ارتفاعه • وكانوا يحتفلون بالعيـد

---

(١)ولتوضيح ذلك نقول انه قبل بناء خزان اسوان كان ارتفاع النيل فى الشلال الاول اذا بلغ مقدار ٢٥ او ٢٦ قدما فوق الصفر (Zero - datum) فيكون ارتفاعا مفيدا ملائما يسهل ضبطه ويكفى لارواء مساحـات كافيـة لانتاج غلة حسنة ، واذا كان ارتفاعه بنحو (٣٠) «انجا» تحت ذلك المستوى المعدل المعتاد فانه لايساعد على انماء غلة ملائمة بل تكون سنة قاسية ، واذا بلغ الانخفاض (٦٠) انجا (٨٠/٠٠عن المعـدل) كـان معنـى ذلك القحط والمجاعة ، والواقع ان قصة السنين السبع العجاف قد حدثت فى تاريخ مصر اكثر من مرة مثل المجاعة التى حلت فى عام ١٠٦٦ـ١٠٧٢ للميلاد وقصة السنين العجاف المذكورة فى التوراة (سفر التكوين ٤١) ، والمجاعة التى حلت فى عهد قديم جدا يرجح ان يكون فى زمن السلالة الثالثة المصريـة (فى عهد الملك زوسر)• اما اذا ارتفع النيل بمقدار (٣٠) قدما (اى نحو ٢٠/٠٠)فوق المستوى المعدل فان النهر يجرف السدود والضفاف ويخرب القرى انظر : ــ

(Wilson, **The Burden of Egypt**, 10—11)

(٢) انظر الترتيلة الخاصة بالاله النيل فى :ــ

British Museum Guide, 10.

Ancient Near Eastern Texts.

الثانى فى حدود منتصف آب وله ما يضاهيه فى مصر حديثا فيما يسمى «بكسر السد» (قطع السد) حيث يبنى سد من التراب ارتفاعه نحو ٢٣ قدما فى خليج القنال واذا مابلغ مستوى النيل اعلاه يزال القسم الاعلى من السد وقت شروق الشمس ثم يحدر قارب من فوق السد المكسور (١)

واشتق المصريون القدماء من ملاحظتهم لنيلهم المهم من عودة ولادته السنوية ودورة الشمس اليومية من غروب و«ولادة» جديدة (شروق) تصوراتهم الاساسية عن الكون والخليقة (على ماسنفصله فى مبحث الديانة) ، وان اطراد فيضان النيل بوجه نسبى وعزلة مصر الجغرافية جعلتهم يتصورون مصر على انها مركز الكون ، وان الحياة أو بالاحرى عودة الحياة لهى المتغلبة على الموت، واتخذوا من بيئتهم التى على رأسها النيل الصورة الانموذجية لما ينبغى أن تكون عليه البيئات الاخرى وانهارها . فمثلا نجدهم يستعملون نفس الكلمة التى تعنى «الاتجاه شمالا» فى معنى «اتجه مع التيار» (اى اتجاه النهر) ولكلمة الجنوب او الاتجاه الى الجنوب كلمة «اتجه ضد التيار» ، ولما تعرفوا على نهر مثل الفرات الذى يجرى الى الجنوب ، استغربوا امره فاعتبروه النهر الشاذ الذى يجرى مع تيار النهر فى اتجاهه ضد التيار اى انه نهر معكوس او مقلوب . ونجد أثر النيل ايضا فى عقائد المصريين فى عالم ما بعد الموت ، ففى الملاحة فى النيل تضع السفن المنحدرة الى الجنوب الاشرعة ليساعد سيرها الريح الآتى من الشمال حيث يسيرها عكس التيار وبالقياس الى ذلك جرى المصريون القدماء على وضع قاربين فى قبور موتاهم للملاحة فى العالم الآخر ، أحدهما مرفوع الشراع للرحلة صوب الجنوب والاخر مخفوض الشراع للرحلة مع التيار صوب الشمال .

ومن الميزات البارزة فى جغرافية مصر عزلتها الجغرافية حيث تكاد تكون اقليما مقفولا يشبه الانبوب المختوم المعزول من الخارج فالى الشرق

---

(١) **British Museum Guide,** (1930) 12—13.

والغرب من الوادي توجد صحارى منيعة صعبة لايمكن عبورها الا للقوافل الصغيرة من التجار ، ولكنها تكون موانع حاجزة للجماعات الكبيرة التي تريد اقتحام البلاد بالقوة ، كما توجد الى جهة الشمال صحراء سيناء التي كانت تحجز مصر نوعاً من الاتصال بقارة آسية، أما الساحل الليبي فلم يكن صالحاً لغير تنقل الرعاة تنقلا سلميا ، وكان يقتضي للاتصالات البرية شرقا وغربا زهاء ٥ ايام الى ٨ ايام من السير في الصحراء – من سيناء الى فلسطين ومن وادي حمامات الى البحر الاحمر أو الى أقرب الواحات الغربية ، والبحر في الشمال لايمكن ان يعبره الى مصر الا قوة بحرية تعتمد على السفن الكثيرة وبمقياس كبير • والى جهة الجنوب توجد حواجز مانعة ايضا ، فمع انه من الممكن عبور الشلال الاول بالسفن الا ان الوضع الى جنوبه صعب حيث تضيق الارض على جانبي النيل من جهة الصحراء ، كما ان الزراعة تكون متعذرة بين الشلال الاول والثالث ، ومع ان الارض تتسع الى الجنوب من هذا الشلال وتنبت فيها الحقول الواسعة الا أن هذا الشلال وكذلك الشلال الثاني والصحارى النوبية تكون موانع صعبة العبور شمالا او جنوبا ، بحيث تستطيع اية حكومة ولو كانت ضعيفة ان تصد اي هجوم يقع على مصر بالقوة من هذا الجانب ولكن هذا لايعني أن مصر قد سلمت بالمرة من غزوات الاجانب ، الا ان هذه الغزوات كانت قليلة بالنسبة الى تأريخ مصر الطويل وبالمقارنة مع مواطن الحضارات القديمة مثل العراق وبلاد سورية • واذا أضفنا الى هذه العزلة الضمان الذي كان يشعر به المصريون القدماء نوعا ما بالنسبة الى توفر مياه الارواء بالنيل وانتظام دورته بوجه معتاد ، وضمان العيش في بيئة اقل عنفا وتقلبا من بيئة وادي الرافدين اتضح لنا ماسنلاحظه من بعض الاوجه البارزة في حضارة مصر القديمة ، كاعتدادها بالنفس وبما انجزته من السيطرة على مياه الارواء وعلى مواردها الطبيعية وشعورها بالحماية والطمأنينة حتى انها جعلت رأس المجتمع الها ، كما ان ما ورد فيها من اساطير وقصص عن الخليقة تمتاز بالهدوء وعدم العنف بالمقارنة مع مايضاهيها في حضارة

وادى الرافدين ، كما مر بنا فى الجزء الاول ، ولعله من الممكن تفسير مظاهر أخرى فى حضارة مصر على ضوء خصائصها الجغرافية كعقائدها فيما بعد الموت وما امتازت به من الشعور الوطنى ونظرتها المترفعة الى البشر الآخرين من غير المصريين واحتقارها وكرهها للاجانب ، على ما سيتضح لنا ذلك وغيره فيما بعد •

ومع ان وادى النيل يشترك بنهر واحد الا انه ليس وحدة من الناحية الطبيعية ، فتنقسم بلاد مصر بوجه عام الى قسمين جغرافيين متميزين القسم العلوى (ارض الصعيد) والقسم السفلى (الدلتا البحرية) ، وكان هذان القسمان واضحين من الناحية الطبيعية والاجتماعية من حيث السكان والعادات واساليب العيش • فالقسم العلوى هو الجنوب (تو-ريس بالمصرية القديمة) وكان حده الشمالى قرب القاهرة الآن ، والقسم الشمالى (تو-ميحت) هو مصر السفلى اى الدلتا وحده الجنوبى الى القاهرة • والدلتا مثلثة الشكل تسقيها فروع النيل والترع المتشعبة منها ، وعرض الدلتا نحو ٢٠٠ ميل وطولها نحو ١٠٠ ميل (وكان الفرع الشرقى للنيل يدعى قديما باسم «تانتى» والغربى طانوبى ، ولكن الدلتا الحالية محصورة بين فرع دمياط شرقاً وفرع رشيد غرباً)• والدلتا ارض غرينية رسوبية تكونت بفعل الترسبات النهرية • أما ارض الصعيد فخصبة جدا ولكنها عبارة عن شقة ضيقة لايزيد عرضها فى جانبى النيل على ١٠ أميال ،ويحد وادى النيل غرباوشرقا سلسلةتلال حجرية يتراوح علوها بين ٣٠٠و١٠٠٠ قدم وتكون هذه بهيئة جدران حجرية يقوم فوقها نجد صحراء بلاد العرب والصحراء الليبية • ومع ان هذين الجدارين يكونان حاجزين منيعين الا انه ينفذ من كل منهما فى عدة مواضع فتحات كانت بالاصل مجارى سيول وانهار كانت تصب فى النيل وتأتى من كلا النجدين فى الازمان الممطرة فى العصور الجليدية [١] ، ولكنها اصبحت

(١)انظر الجزء الاول الفصل الثانى

فى العصور التالية مداخل الى وادى النيل للقوافل الآتية من سواحل البحر الاحمر او من سلسلة الواحات الكائنة فى الارض المنخفضة المحاذية لمجرى النيل من جهة الغرب

هذا وقد كنا ذكرنا ان معظم مصر الآن قطر عديم المطر تقريبا ولكن الاحوال الجغرافية كانت تختلف تمام الاختلاف فى العصر الجيولوجى المسمى «بلايستوسين» الذى حدثت فيه العصور الجليدية فى اوربة . وكان يقابل هذه العصور الجليدية عصور ممطرة فى معظم انحاء الشرق الادنى ، حيث كانت المياه وافرة فى مصر وتملأ مجارى المياه اليابسة الآن ، وكانت النباتات والحيوانات كثيرة فى مناطق الصحارى ، (١) وسنتطرق فى بحثنا عن العصور الحجرية فى مصر الى آثار الصيادين التى تركوها فى ضفاف النيل • وبعد ان حل الجفاف منذ نهاية العصور الجليدية (ونهاية العصور الحجرية القديمة) التجأ صيادو العصر الحجرى القديم من جانبى وادى النيل الى قرب النهر واخذوا فى زرع الارض وتدجين الحيوان فى العصر التالى • وكانت البيئة الطبيعية التى التجأ اليها الانسان بيئة وحشية قبل ان تعمل يد الانسان على ترويضها وتدجينها ، فكانت معظمها غابات واحراشا نهرية واهوار قصب • وقبل ان يجفف الانسان الاهوار كان قد اصطيد هو نفسه بين الصحراء التى هرب منها وبين احراش النيل ومستنقعاته ، فعمل الانسان على تجفيف الاهوار وتطهير الغابات وتنظيم مياه الارواء ولعل هذا الجهد قد شغل الوفا كثيرة من السنين واستغرق معظم عصور ماقبل التأريخ • وعلى كل فلم تكن البيئة التى نشأت فيها الحضارة المصرية بيئة سهلة فى مبدأ الامر كما قد يتبادر الى الذهن ، ولكن اصبحت مروضة بعد أن عملت فيها يد الانسان وجهوده •

ومن الامور البارزة التى تفيدنا معرفتها فى فهم بعض النواحى الخاصة

---

(١) حول مناخ مصر وحيواناتها ونباتاتها فى عصور ماقبل التأريخ انظر :ـ
Newberry, **Egypt as a Field for Anthropological Research** 1924; K.S. Sandford in AJSL, XLVIII (1932), 70

من حضارة وادى النيل حالة آثارها الباقية • فكثيرا ماتوصف هذه الحضارة بانها حضارة الموت والموتى لان معظم الاثار التى خلفتها لنا وكانت مصادر معرفتنا بها قد عثر عليها فى القبور سواء ماكان منها القبور الملكية والمعابد الخاصة بها او في قبور عامة الشعب • وثمت سبب مهم لبقاء آثار القبور وكثرتها عدا سبب اهتمام المصريين القدماء بالحياة الاخرى ، ذلك هو ان البشر الذين استوطنوا وادى النيل الضيق قد اتخذوا حافة الصحراء لدفن موتاهم وايداع مايحتاجون اليه فى العالم الاخر فى قبورهم فى حين أنهم اقتصروا فى الاراضى الزراعية العزيزة على الزرع والسكنى فسلمت بذلك قبورهم والاثار التى اودعوها فيها بسبب جفاف حافة الصحراء، أما الآثار الاخرى التى يحتمل انها تركت فى بيوت السكنى فقد أصابها البلى بسبب عامل التربة ، كما ان معظم آثار الحضارة المصرية قد جائنا من مصر العليا ذات الرمال الجافة المحافظة على الاثار ، فى حين ان آثار مصر السفلى (الدلتا) تكاد تكون معدومة ومصادر تأريخها مأخوذة من مصر العليا • (١)

واذا قارنا بين بيئة وادى النيل وبين بيئة وادى الرافدين من ناحية توفر بعض المواد المهمة المستعملة فى الحضارة الفينا ان مصر كانت أحسن وضعا فى هذه الناحية ففيها الحجارة الفاخرة التى مكنتها من اشادة مآثر مهمة من الحجر كالاهرام والمعابد والمنحوتات كما ان بعض المواد الاخرى كالاخشاب وجملة معادن مهمة مثل النحاس والذهب كانت فى متناول يدها فى الجهات القريبة مثل طور سيناء والحبشة والسودان ونوبية • هذا وقد سبق ان لاحظنا فقر القسم الجنوبى من العراق من ناحية مواد البناء الاولية ، وهو القسم الذى تكونت فيه اولى حضارة ناضجة •

وسنذكر بعض الملاحظات المفيدة عن سكان وادى النيل مما سيعيننا على فهم اصلهم وعلاقتهم بأقوام الشرق الادنى ونكتفى فى هذه المقدمة الآن

J.A. Wilson, **The Burden of Egypt**, 15—16.

بالتنويه بان سكان مصر هم بالدرجة الاولى من اصل افريقى مثل الجماعات «السمر» التى تقطن القسم الشمالى الشرقى من قارة افريقية ، وهم من الحاميين القريبين من الاقوام السامية ، وتوجد عناصر ايضا من الاقوام الجنوبية كالاحباش والزنج والنبط ، والغالب عليهم بوجه عام عرق البحر المتوسط • وقد سبق ان نوهنا فى الجزء الاول من هذه البحوث فى كلامنا على الساميين ان هجرة سامية مهمة قد دخلت مصر فى الالف الرابع واختلطت بالسكان الاصليين وتكون من ذلك المصريون كما نعرفهم فى التاريخ • كما يجدر التنويه بالشبه الكبير الموجود بين مجموعة اللغات السامية واللغات الحامية ولكن مع ذلك فان اللغة المصرية القديمة لم تكن من اللغات السامية بل الرأى الراجح ان كتلة اللغات الحامية وكتلة اللغات السامية كانتا فى اصلهما البعيد من عائلة لغويةواحدة ، ولكن اللغة المصريةالقديمة انفصلت عن كتلة اللغات السامية قبل تطور المجموعتين اللغويتين ونضجهما فى الادوار التأريخية • والذى يبدو ان اللغة المصرية القديمة قد تم نموها ونضجها «فتثبتت» فى عهد قديم جدا ولكن اللغات السامية سارت فى تطورها وتغيرها اكثر وابعد مما طرأ على اللغة المصرية القديمة •

٢ـ مصادر معرفتنا بالحضارة المصرية وضبط ادوارها

يرجع الفضل فى معرفتنا بالحضارة المصرية القديمة التى ازدهرت فى وادى النيل الى التحريات والتنقيبات الآثارية التى قام بها العلماء فى مواطن الحضارة فى مصر منذ منتصف القرن الماضى • وقد سبق طور التنقيبات الآثارية ، كما فى العراق ، طور تعرف فيه الغرب على آثار مصر من السياح وهواة الآثار وسراقها ، حيث انتقلت عنهم الى الغرب مجموعات مهمة من آثار حضارة وادى النيل ، ويمتد هذا العهد الى ازمان طويلة الى العهود اليونانية والرومانية ، حيث جرى كثير من اباطرة الرومان على نقل المسلات الفرعونية الى رومة وغيرها من مدن ايطالية • وقد صاحب التنقيبات عن الآثار المصرية واستخراجها البحوث العلمية الواسعة فى درسها وفهمها ،

ومن ذلك الجهود العلمية التى بذلت فى حل رموز الخط الهيروغليفى (وسنذكر كيفية ذلك فى موضع آخر) • ومما يقال فى الآثار المصرية أن البحث فيها بدأ قبل البحث فى آثار وادى الرافدين ، فنشأت فى مصر طرق البحث والتنقيب العلمية قبل مواطن الحضارات الاخرى فى الشرق ، وكان من اسباب ذلك طبيعة الآثار المصرية نفسها من كونها بقيت معظمها سالمة محفوظة والكثير منها بقى شاخصا يجلب اليه الانظار كالمسلات والاهرام ومعابد القبور الكبيرة ، كما انه كان لمناخ مصر الجاف دخل كبير فى المحافظة على الآثار المطمورة مما جعل عمل المنقبين مضمونا فى عثورهم على الاثار القيمة • وقد سبق ان المحنا الى ان البحث العلمى عن آثار الحضارات القديمة قد سبقه طور لم يعن فيه بطرق التنقيبات المنتظمة وانما كان الهم محصورا فى نبش القبور واستخراج الآثار قصد بيعها وتهريبها خارج مصر، فاوقع ذلك اضرارا جسيمة فى تراث حضارة وادى النيل ، ولكن الوطأة خفت منذ ان تأسس المتحف المصرى اولا فى «بولاق» (فى ضواحى القاهرة) ثم فى القاهرة عام ١٨٥٨ فاخذت آثار مصر القديمة تودع فى مواضعها اللائقة بها منذ ذلك الحين • ونذكر من اوائل الباحثين المؤسسين لعلم المصريات (البحث فى الاثار المصرية) العالم الآثارى «شامبليون» الذى شرع فى حل رموز الخط الهيروغليفى منذ عام ١٨٢١ ، ونذكر ايضا المنقب الشهير «فلندرز بترى» الذى يعد مؤسس طريقة البحث العلمية ولاسيما من ناحية ضبط ادوار الاثار • وقد تابعت بحوث العلماء الاخرين فى الحقول والنواحى المختلفة من حضارة وادى النيل ، ونخص منها ضبط تسلسل ادوارها وكتابتها ومعرفة ادوارها القديمة ولاسيما عصور ماقبل التأريخ فيها واصولها واسسها الممتدة الى العصور الحجرية مما سنوجزه فى الصفحات الاتية •

وقد ساعدتنا الوثائق المكتوبة التى خلفها لنا المصريون القدماء على ضبط ادوار التأريخ فى حضارة وادى النيل • واشهر مانذكر من هذه الوثائق التأريخية المدونة اثبات سلالات الملوك المصريين التى جمعها الكاهن المصرى

«منيثو» حيث الفها باليونانية فى عهد البطالمة (البطالسة) فى مصر فى القرن الثالث ق ٠ م (فى عهد بطليموس فيلادلفوس) ٠ وجاءتنا ايضا اجزاء من تواريخ الفها المصريون القدماء على هيئة اثبات ملوك وحوليات باخبار الملوك ومن بين ذلك الوثيقة الشهيرة المعروفة باسم «بردية تورين» (نسبة الى موضع حفظها فى ايطالية) التى ترجع فى زمن تدوينها الى حدود ١٣٠٠ق٠م وهى تتضمن بحالتها الكاملة ، اسماء نحو ٣٠٠ ملك مع اطوال حكمهم بالسنين والاشهر والايام ، وجائتنا ايضا اثبات اخرى باسماء الملوك من بينها وثيقة قديمة جدا منقوشة على الحجر وتعرف باسم حجر «بالرمو» حيث يرجع اصلها الى حدود ٢٧٠٠ ق ٠ م ، هذا بالاضافة الى حوليات الملوك المختلفة ونقوشهم التأريخية فى جدران المعابد والقبور ٠ وقد استطاع الباحثون بمثل هذه الوثائق واشباهها من تعيين تأريخ الآثار المصرية وادوارها منذ بداية الالف الثالث ق٠م فما بعد ، اى منذ بداية العهد التأريخى الذى يبدأ بظهور المملكة المصريةالتى وحدها«منا»وهو الذى يعزى اليه تأسيس اول سلالةمصرية حكمت على القطر المصرى ٠ اما ماقبل هذا العهد اى عصور ماقبل التأريخ فقد استطاع العلماء من تعيين ازمانها بوجه التقريب من دراساتهم للآثار الممثلة للادوار المختلفة ومضاهاتها مع غيرها من آثار الشرق الادنى كما استعين مؤخرا بطريقة خاصة بالاشعاع الذرى مما ذكرناه فى مقدمة الجزء الاول،وهى الطريقة المعروفةباسم(C14)،ومما ساعدناعلى ضبط الادوار التأريخية طريقةالتقويم المصرى حيث ابتدعوا طريقة صحيحة موافقةللسنةالشمسية تقريبا (انظر بحث ذلك فى موضع آخر) ، كما انهم الفوا ايضاً اثباتاً باسماء السنين بالنسبة الى الحوادث المؤرخ بها ، كما كان الحال عليه فى العراق القديم

لقد قسم المؤرخ «منيثو» الذى ذكرناه سابقا فراعنة مصر والسلالات التى حكمت منذ اول سلالة الى نهاية التأريخ المصرى الى ٣١ سلالة وقد اتبع تقسيمه جميع الباحثين المحدثين ولكن لما كانت نهاية كل سلالة لاتتميز على الدوام بتغييرات سياسية بارزة وبتطورات حضارية او فنية مميزة

فقد ارتأى الباحثون فى التأريخ المصرى تقسيم تأريخ مصر القديم الى ثلاثة عصور كبرى تميز باكثر من وجه واحد من النواحى السياسية والفنية والاجتماعية ، والمتفق عليه ان هناك ثلاثة عصور كبرى رئيسية مع فترات اضطراب سياسى تفصل مابين بعضها ، وهى عصر المملكة القديمة وعصر المملكة الوسطى وعصر المملكة الحديثة (ويشمل هذا العهد الامبراطورية المصرية) واذا ادمجنا مع هذه العصور التأريخية عصور ماقبل التأريخ فتحصل لدينا الادوار المميزة لتأريخ مصر القديمة منذ اقدم عصور ماقبل التأريخ على الوجه الآتى : ـ

اولا ـ عصور ماقبل التاريخ

ا ـ العصور الحجرية القديمة : وادى حلفا ، العباسية ، السبيل

ب ـ العصر الحجرى الحديث (المتأخر) ـ «طاسة» ، «الفيوم» ، «مرمدة»

جـ العصر الحجرى المعدنى :ـ «البدارى» ، «الامارى» ، (نقادة الاولى) «الجرزى» (نقادة الثانية)

ثانيا ـ عصر المملكة القديمة : ـ

أ ـ بداية السلالات (٣١٠٠ـ٢٧٨٠ ق • م) السلالة الاولى والسلالة الثانية

ب ـ عصر الاهرام (٢٧٨٠ـ٢٢٧٠ ق • م) (السلالات ٣ـ٦)

ثالثا ـ عصرالنبلاءوامراء الاقطاع (الفترة المظلمة الاولى) (٢٢٧٠ـ٢١٠٠ ق•م) ويشمل السلالات من ٧الى ١٠

رابعا ـ عصر المملكة الوسطى (٢١٠٠ـ١٧٨٨ ق • م) ويشمل السلالتين الحادية عشرة والثانية عشرة

خامسا ـ عصر الهكسوس (الفترة المظلمة الثانية) (١٧٨٨ـ١٥٧٣ ق • م) ويشمل السلالات ١٣ الى ١٧

سادسا ـ عصر المملكة الحديثة (عهد الامبراطورية) (١٥٧٣ـ١٠٨٥ ق٠م) ويشمل السلالة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والسلالة العشرين

سابعا ـ عصر المملكة الاخيرة (عهد الضعف والتدهور) (١٠٩٠ـ٦٦٣ ق٠م) ويشمل السلالات الحادية والعشرين والثانية والعشرين والثالثة والعشرين والرابعة والعشرين والخامسة والعشرين

ثامنا ـ فترة انتعاش (٦٦٣ـ٥٢٥ق٠م) ويشمل السلالة السادسة والعشرين

تاسعا ـ العهد الفارسي الاخميني (٥٢٥ـ٣٣٢ق٠م) من عهد قمبيز الى دارا الثالث (ويشمل السلالات ٢٧ـ٣١)

عاشرا ـ الاغريق والعهد الهلنستي (البطالسة) (٣٣٢ـ٣٠ق٠م)

احد عشر ـ العهد الروماني ٣٠ق٠م ـ ٦٣٩ب٠م (الفتح العربي)

٣ ـ العصور الحجرية

العصر الحجرى القديم :ـ

تمتد بداية القصة عن حضارة وادى النيل الى فجر الحياة البشرية فى هذه الكرة الارضية حيث بدأ استيطان الانسان الاول فى وادى النيل منذ اقدم عصور ماقبل التأريخ ، اى العصور التى اطلقنا عليها اسم العصور الحجرية القديمة • فبعد تكوين نهر النيل فى الدهور الجيولوجية البعيدة واتخاذه شكله الحالى فى العهد الجيولوجى المسمى « بليوسين » (Pliocene) كانت الاحوال المناخية تختلف تمام الاختلاف عما هى عليه الآن ، فقد كانت افريقية ومعظم اجزاء الشرق الادنى القاحلة الآن تتمتع بامطار كثيرة غزيرة وكانت العصور الممطرة (Pluvial Period) تحل ابان العصور الجليدية فى اوربة ، اما فى الفترات الجليدية فكانت تحدث ازمان جفاف • وكانت حياة الحيوان والنبات مزدهرة فى شمالى افريقية وفى منطقة الصحارى وقد وجدت آثار الانسان الصياد هنا ، وكثيرا ماكان الصيادون يترددون على

النجاد المرتفعة في وادي النيل وقد وجدت آثارهم في شرفات نهر النيل . وتمثل لنا هذه الشرفات أي الشطئآن (Terraces) العصور الممطرة وعصور الجفاف التي ذكرناها ، اذ هي عبارة عن شطئآن النيل القديمة متسلسلة من الاعلى وتقلصت بالتدريج الى عقيق النهر الحالي (١) ، وقد درست هذه الشطئآن المختلفة من الناحية الجيولوجية والاثرية فوجد للنيل ثمانية شطئآن قديمة تبتدىء من مرتفعات حجارة الكلس العالية الى عقيق النهر الحالي ، هذا ولم يجد المتحرون في الشطئآن الاربعة الاولى آثارا لاستيطان الانسان الا في الشاطىء الخامس (الشرفة الخامسة) وتمثل لنا هذه المرحلة بداية قصة الانسان في وادي النيل من اول اطوار العصر الحجري القديم حيث وجدت ادوات الحجارة كالفؤوس اليدوية من الدور المعروف باسم الدور «الشيلي» (٢) وقد خلف لنا الانسان بعض عظامه وهكذا تستمر آثار الانسان في الشواطىء التالية ، حيث نجد في الشاطىء السادس ادوات الحجارة الشبيهة بادوات الحجر من العهد الاشولي في اوربة ، وفي الشاطئين التالين وجدت آثار من العصر الحجري القديم احدث عهدا شبيهة بما يعرف في اوربة باسم الدور «اللفالوازي» (Levalloisian) والمستيري (Mousterian) ومن بعد هذا الدور يأتي عقيق النيل الحالي (٣) .

---

(١) ان هذه الظاهرة قد لوحظت في جملة انهار ، وتختلف عدد الشرفات باختلاف الانهار ، واذا كان العدد المطرد يلزم ان يكون اربع شرفات تطابق العصور الجليدية الاربعة في اوربة فان لبعض الانهار شرفات ثانوية تمثل ادوارا ممطرة ثانوية وعهود جفاف ثانوية . هذا ولم تدرس وديان الانهار في العراق دراسة جيولوجية وافية من هذه الناحية واذا كانت قد درست دراسة خاصة الا انه لم ينشر شيء عن نتائج هذه الدراسة ، ولكن المشاهدات الشخصية واتصالاتي الشخصية ببعض الجيولوجيين الاجانب اوقفتني على وجود مثل هذه الشرفات في وادي دجلة والزاب الاعلى والاسفل والفرات في سورية ، ويبلغ معدل هذه الشرفات الرئيسية اربعة .

(٢) انظر الجزء الاول ص٣٤ حول الادوار الخاصة بالعصر الحجري القديم

(٣) لقد قام بهذا التحريات المعهد الشرقي في جامعة شيكاغو (١٩٢٩ =

ووجدت حديثاً أدوات وآلات حجرية من الصنف الثاني من العصر الحجري القديم في موضع يسمى «سبيل» شمال جبل سلسلة بقليل وكذلك قــرب الفيوم(١) . ومما يقال عن العصور الحجرية القديمة في وادي النيل ان آثارها وادوارها معروفة معرفة اكثر مما عليه الحال في العراق القديم ، لكثرة التحريات والبحوث التي تمت في هذا الباب . هذا وقد سبق أن قلنا ان شمالي افريقية وجنوبي غربي آسية (مثل بلاد سورية وكردستان) كانت في العصور الجليدية في اوربة تمتع بخصب ووفرة امطار مما جعلها مكتظة بالنبات والحيوان والانسان ، حيث وجدت آثار انسان العصر الحجري القديم مما تضاهي الادوات الموستيرية في اوربة ، ولكنها احسن منها صنعا ، وقد قرنت هذه الادوات ولاسيما في مراكش(٢) وافريقية الشمالية مع نوع من الانسان يعود الى نوع النياندرتال ، وبالنظر لوجود ادوات العصر الحجري القديم من النصف الثاني منه في مصر وفي شمالي افريقية فيستنتج من ذلك وجود نوع الانسان الحديث ايضا

العصر الحجري الحديث :ـ

لقد سبق ان نوهنا بحدوث عهد الجفاف في نهاية العصر الحجري القديم في المناطق التي كانت مأهولة بالحيوان والنبات في البوادي المجاورة للنيل ، كما ذكرنا تردد صيادي العصر الحجري القديم على شطآن وادي

= ١٩٣٠) وكذلك قام بتحريات اخرى عن آثار العصر الحجري القديم انظر :ـ
(1) K.S. Sandford in AJSL, XLVIII (1932), 170 ff.
(2) ...., **Palaeolithic Man and the Nile Valley in Upper and Middle Egypt** (Oriental Institute Publications, vol. XVIII).

(١) انظر
Vignard, in **Bullt. Inst. Franc. Caire**, XXII; Huzayyin in AJA (American Journal of Archeology), LI (1947).

(٢) انظر
(1) Childe, **New Light on the Most Ancient East** (1952) 16 ff.
(2) **Howe and Movius, "A Stone Age Cave Site in Tangier", Peabody Museum Papers**, XXVIII, (1947).

النيل ، ولما ازداد الجفاف فى افريقية وفى وادى النيل[١] التجأت جماعات أخرى من أهل العصر الحجرى القديم الى ضفاف النيل ذات المياه الدائمة والى الواحات القريبة فتحفز الانسان فى هذه الاحوال الجديدة على الانتقال من طور الصيد وجمع القوت الى طور الفلح والزراعة وتدجين الحيوان أى أنتقل الى الطور الذى دعوناه باسم «انتاج القوت»، وكانت الاحوال مواتية لحدوث ذلك الانقلاب الخطير فى حياة سكان وادى النيل الاقدمين، فالى عامل تحدى الجفاف وتحفيزه الانسان على حل الازمة الراهنة ، فقد كانت تنبت فى حدود الوادى الاعشاب الكثيرة البرية ، ولاسيما الحنطة البرية والشعير البرى ، يضاف الى ذلك خصب الوادى وانتظام فيضان النيل

لقد أسفرت التحريات الآثارية فى مواطن الانسان فى هذا العهد عن اكتشاف جملة مواضع فى وادى النيل تمثل اطوار العصر الحجرى الحديث مما تمثل لنا أدوار التدرج والتقدم الى عهد الحضارة فمن هذه المواضع الممثلة لمرحلة انتقال الانسان الى عهد الزراعة الموضع المعروف باسم «طاسة» (او دير طاسة) القريب من «بداري» ومن ضفة النيل الشرقية[٢] حيث ثبت ان المستوطنين فى هذا الموضع عرفوا زراعة الحنطة والشعير ، كما وجدت حبوبهما فى بيوت مستوطنهم ، كما انهم استعملوا رحى الحجر البسيطة لطحنها . هذا ولا يعلم بوجه التأكيد كيف كانوا يروون مزارعهم أمن نهر النيل ام من وديان الانهار الصابة فيه ، كما لا يعرف ايضا هل عرفوا تدجين الحيوان بمقياس واسع ، ولكن وجدت فى مقارهم عظام غنم ومعز . والذى لاشك فيه ان هؤلاء الفلاحين القدامى لم تكن زراعتهم بمقياس واسع وانما كما ذكرنا كانوا ينتجون قوتهم فقط ، كما لم

---

(١) انظر
S.A. Huzzain, **The Place of Egypt in Prehistory,** 1941.

(٢) Brunton, **Mostagedda,** (1937), 26 ff.

بوطد استقرارهم واستيطانهم كما يشير الى ذلك تبعثر القبور • وقد بقى صيد الحيوان والسمك قوتا اساسيا عند هؤلاء «الطاسيين» • ومن عدتهم انهم عرفوا صنع اوانى الفخار ، ولكنها كانت خشنة الصنع ساذجة ، وقد وجدت آثار ضئيلة من نسيج الكتان ، ولكننا لانعرف هيئة لباسهم ، وقد استعملوا الخرز والمحار والصدف للزينة •

ومن المستوطنات الممثلة للعصر الحجرى الحديث فى وادى النيل مستوطن وجد فى الفيوم[١] الممتد على طوال حافة البحيرة الجافة المعروفة باسم الفيوم التى كانت تملؤها المياه فيما مضى • وقد ثبت ان اهل هذا المستوطن زرعوا الحبوب بصورة اكثر انتظاما من اهل المستوطن الاول ، وزرعوا القنب ، وكانوا يحصدون غلتهم بمناجل مصنوعة من الصوان المسنن المثبتة بالخشب ويخزنونها فى حفر فى الارض ، كما استعملوا الرحى لطحن الحبوب ، ودجنوا جملة حيوانات منها الخنزير والماشية والغنم والماعز ، وظلوا يمارسون صيد الحيوان والسمك،واستعملوا القوس والسهم والفؤس الحجرية ، واستمرواعلى صناعة اوانى الفخاركما فى العهد السابق، واستعملوا الخرز والصدف والمحار زينة وحلية ، وقد جلبوا المحار من سواحل البحر الاحمر والبحر المتوسط •

ووجد طور ثالث من طور العصر الحجرى المتأخر اطلق عليه اسم «مرمدة» فى الحافة الغربية من الدلتا[٢] ، ويشغل هذا المستوطن طنفا رمليا يبعد الآن كيلومترين غربى فرع رشيد ومساحته نحو (٦٠٠ × ٤٠٠م) ، وقد وجدت فيه آثار اكواخ من الطين والحصر ، وقد تحسن بناؤها بمرور

---

(١) Caton-Thompson, **The Desert Fayum** (London, 1934); Childe, **Op. Cit.**, p. 35 ff.

(٢) لقد حفرت هذا الموضع بعثة آثار نمساوية•انظر التقارير المنشورة فى :
Anzeigerd. Akad. d. Wiss. Wien, Phil. - hist. (1929 — 1940)
المشار اليها Childe, **Op. Cit.**, P. 36.

الازمان ولاسيما تحسن بناء جدرانها من الطين السميك ، وقد استمرت عدة المهدين السابقين كزراعة الحبوب وطريقة حصدها بمناجل الصــوان ، واستمرت نفس الحيوانات فى الاستعمال وصيدها بالقوس والسهم ، وتحسنت صناعة الفخار نوعا ما ، حيث لونت بألوان حمر وسود ، ووجدت مغازل تدل على الحياكة ، واستمر سكان هذا الموضع على استعمال الزينة واضافوا اليها حلية متخذة من العاج ومن عظام ناب الخنزير • وقد وجدت القبور فى داخل بيوت السكنى ولكن لم توجد فى داخلها الادوات العائدة الى الاموات وقد فسر ذلك بأن أشباح الموتى كان باستطاعتها التزود من زاد الاحياء على عكس ماذا كانت القبور خارج بيوت السكنى • وقد وجد المنقبون حديثا موضعا رابعا يمثل طورا رابعا ايضا من العصر الحديث فى وادى النيــل حيث عثر على قرية من قرى هذا العصر قرب حلوان فى موضع يدعــــى «العومارى» (١) الذى يقع بنحو ٧ كيلومترات من ضفة النيل الشرقيــــة ، ويشبه فى عدته ماوجد فى «مرمدة» • ومما يقال فى العصر الحجــــرى الحديث فى وادى النيل ان اطواره وآثاره غير مستمرة فى مصر السفلى ، بخلاف ماعليه الحال فى مصر الوسطى والعليا حيث الاطوار الآثارية مستمرة من الدور « الطاسى» فما بعد ، واســـــتمرت الى الاطوار التى سنذكرها تحت اطوار العصر الحجرى المعدنى

العصر الحجرى المعدنى

لقد سبق ان ذكرنا (٢) اهم خصائص هذه العهد الذى اصطلحنا على تسميته ايضا باسم فجر الحضارة لانه كان مقدمة تمهيدية لظهور الحضارة الناضجة ، كما نوهنا بتشابه اطواره فى مراكز الحضارات القديمة ، واهم مافى ذلك توطد الحياة المستقرة واتساع الزراعة والقرى ومعرفة التعدين

---

(٢)عثر على هذا الطور فى عام١٩٤٢ انظر : ـ
Annals du service des Antiquités de l'Egypt (Cairo, 1948).

(٢)انظر الميزات العامة لهذا العهد الحضارى فى الفصل الثالث من الجزء الاول

وصنع الادوات المعدنية ولاسيما النحاس ، وظهور طلائع الدويلات والوحدات السياسية في دول المدن التي اتخذت بعدئذ وكونت مملكة القطر في العهود التالية •

وقد وجد المنقبون في وادي النيل آثار قرى متعددة تمثل ادوار هذا العهد حيث يميز كل دور بآثاره المماثلة واشكال أوانيه الفخارية واطرزة زخرفتها وقد سميت هذه الادوار كما في العراق بالاسماء الحديثة للمواضع التي نقب فيها أول مرة ووجدت فيها الآثار المميزة لكل دور •

فيعرف اقدم ادوار هذا العهد باسم الطور «البداري» لان آثاره (١) وجدت لاول مرة في مواضع ومقابر قرب الموضع المسمى «بداري» في مصر الوسطى ، ويمكن اعتبار هذا الدور تطورا من العهد الحجري الحديث ولاسيما الطور «الطاسي» ووجدت آثاره ايضا منتشرة في بقاع متعددة من مصر العليا • ونذكر ابرز مايميز هذا الدور تاركين التفصيلات الفنية ، فاول مايجلب انتباه الدارس لآثاره كثرة المواد المستوردة بالتجارة الخارجية ولاسيما من جهات طور سيناء ونوبيه ولعله من سورية • ونجد لاول مرة أيضاً أن سكان وادي النيل عرفوا معدن النحاس ولكنها كانت معرفة بدائية أولية • وتشير نماذج القوارب المصغرة من الفخار الى معرفة بالملاحة • ونلاحظ ايضا تقدما محسوسا في صناعة الاواني الفخارية ولاسيما الاواني المودعة في القبور مع الموتى ، كما انهم بدأوا يزوقون هذه الاواني وينقشونها ، وصنعوا من العاج ومن الطين المطبوخ دمى طين تمثل نساء يرجح انها نوع من آلهات مما يعرف بالآلهة ــ الام •

لقد اعقب الدور البداري ادوار أخرى من العصر الحجري المعدني دعيت بالترتيب الآتي « الاماري » و « الجرزي» (وقد سميا أيضاً باسم دور

---

(١) Brunton & C. Thompson, **The Badarian Civilization** (1928); Childe, **Op. Cit.**, 42 ff.

«نقادة» الاول والثاني)[١] • والمرجح ان الدور «الاماري» الذي وجد ممثلا في مواضع في مصر العليا قد تطور عن الطور السابق «البداري» كما ان سكان وادي النيل في هذا العهد قد بدأوا في زراعة الري المنتظمة في وادي النيل وتركوا زراعة وديان الصحراء ، وبعبارة أخرى اتسعت الزراعة في هذا العهد مما أدى الى اتساع المستوطنات وتكاثر السكان ، كما ان القرى أخذت تصبح مدنا صغيرة مسورة•ويرى كثير من الباحثين ان هذه القرى اتخذت نظام الطوطمية حيث كان لكل قبيلة او قرية حيوانها المتخذ طوطما ، وقد وجدت بعض الحيوانات منقوشة على اواني الفخار مثل التمساح والعقرب وحيوانات أخرى وقد فسرت بانها تشير الى نظام «الطوطم»[٢] كما يلاحظ التخصص واتساع التجارة ايضا ، وعرفت صناعة السفن من البردي • اعتنى الناس في رسوم الدفن مما يدل على تطور المعتقدات الدينية حيث جهزت القبور بالاثاث وبالادوات الضرورية • وتنوعت زخرفة الاواني الفخارية واستعمل الحجر لنحت الاوعية ، واستمر الناس في تفننهم بالزينة ولاسيمًا استعمال «كحل» العيون ، ومارسوا الوشم ، والقلائد من قشور بيض النعام وحجر العقيق والحجر الاخضر[٣]

ومما يقال عن الطور «الجرزي» انه تم فيه تقدم اساسي في الحياة الاقتصادية ، حيث انتشرت المخترعات الصناعية واتسعت التجارة الخارجية

---

(١) لقد وضع الباحثون دورا ثالثا يعقب الدور الجرزي سموه باسم الطور السميني (Semainian) ودعوه باسم دور نقاده الثالث ولكن البحث الحديث ابان بانه لامجال لاضافة هذا العهد الجديد من الناحية الاثرية انظر Helene J. Kantor, "Gerzean or Semainian" in JNES. III (1944), 110 ff. ; Childe, **Op. Cit.,** 99.

كما وجد موضع آخر جنوبي القاهرة بقليل يدعى «معادي» لايعلم مكان دوره بالنسبة الى الدور الجرزي في مصر العليا ولعله يضاهيه في الزمن ويعقبه قليلا (Childe, **Op. Cit.,** 75).

(٢) انظر تعريف الطوطم في الجزء الاول الص ٢٢٤

(٣) انظر Childe, **Op. Cit.,** 50 ff.

والاتصالات الثقافية التى سنذكرها فيما بعد • واذا كان الطور الامارى السابق يتميز بالانتاج الخليط من الزراعة والصيد (جمع القوت) فقد اصبحت الزراعة فى العهد الجرزى اساس الحياة الاقتصادية لجماهير الفلاحين ، كما انها استندت الى الارواء ، وتحسن بناء بيوت السكنى ، وظهرت فى هذا العهد على أسس القرى السابقة المدن الصغيرة مثل «نقادة» و«هيراكو نبوليس» ، كما ان استعمال النحاس بكثرة استلزم استمرار الاتصال بمصادر خامه فى الصحراء الشرقية وفى سيناء ، والى جانب السفن استعملوا بعض الحيوانات للحمل كالحمير بوجه خاص • وقد ازداد استغلال وادى النيل من ناحية امكانياته الاقتصادية ، كما كثرت الحاصلات الزراعية فوق حاجة الفلاحين الاستهلاكية لاعالة طبقات الصناع واهل الاختصاص والتجار ، وقد ادى كل ذلك الى ازدياد الثروة ، كما يتضح ذلك من بقايا هذا العهد ولاسيما ماوجد فى المقابر • ومن الامور المهمة التى يجدر ذكرها عن اواخر العصر الحجرى المعدنى ظهور المدن واوائل الحكام فى كل من مصر العليا والسفلى وكانوا يحكمون فى دويلات وامارات مستقلة بعضها عن بعض ، وظهرت طلائع الكتابة الهيروغليفية الصورية التى استعملت لتدوين الشؤون الملكية بوجه خاص فى عهد السلالة الاولى التى تبدأ بقيام العصور التأريخية وظهور الحضارة الناضجة •

وقبل ان نترك الكلام على اواخر العصر الحجرى المعدنى نذكر ماأسفر عنه البحث الحديث من وجود صلات حضارية بين مصر وبين مواطن الحضارات الاخرى فى الشرق الادنى وبوجه خاص صلاتها مع حضارة وادى الرافدين فى العهد الجرزى وفى عهد السلالات الاولى •

لقد تناول الباحثون المختصون العلاقات الثقافية بين مصر والعراق فى

الزمان تكوين حضارتيهما وكتبوا فى ذلك بحوثا مسهبة .[١] وموجز القول فى هذه الصلات انه لم يجد الباحثون من حضارة وادى الرافدين ما يمكن ان يكون من اصل مصرى ، ولكنهم وجدوا فى حضارة مصر وبوجه خاص من العهد الجرزى وعهد السلالات الاولى جملة عناصر حضارية خاصة بحضارة وادى الرافدين ، وبالنسبة الى العهود التى درسناها فى حضارة وادى الرافدين يرجع زمن هذه التأثيرات الى العهد الذى سميناه بالعهد الشبيه بالكتابى او التأريخى (طورى الوركاء وجمدة نصر) ، حيث انتشرت التأثيرات الحضارية من وادى الرافدين فى معظم اجزاء الشرق الادنى ، وقد وجد ان معظم هذه العناصر المقتبسة من حضارة وادى الرافدين كان وجودها موقتا غير دائمى فى حضارة مصر[٢] باستثناء عنصرين تمثلتهما هذه

---

(١) انظر المراجع الاساسية الآتية :ـ

(1) H. J. Kantor, "Further Evidence for Early Mesopotamian Relation with Egypt" in **JNES,** XI, (1952), 239 ff.

(2) Frankfort in **AJSL.** LVIII (1941), 354 ff.; **The Birth of Civilization in the Near East** (1951).

(3) Scharff in **Der Alte Orient,** XLI (1941).

(4) J. A. Wilson, **The Burden of Egypt** (1950).

(5) Childe, **New Light on the Most Ancient East** (1952), 66, 72—73, 79, 100.

(٢) واذا كان خارج نطاق هذا الكتاب البحث فى هذه العناصر الحضارية المقتبسة فاننا نكتفى فى تعدادها ففى العهد «الجرزى» نفسه نجد العناصر الثقافية الآتية المماثلة لما فى حضارة وادى الرافدين : (١) طراز خاص فى الاوانى (٢) الخواتم الاسطوانية والى ذلك اضيفت فى أواخر العهد الجرزى وفى بداية عهد السلالات العناصر الآتية (٣) نوع من السفن الاجنبية عن حضارة وادى النيل (٤) طراز لباس الابطال المصورين على الآثار (٥) نوع من الكلاب (٦) استعمال رؤوس الدبابيس الحجر الخاصة بحضارة وادى الرافدين (Mace-heads) (٧) اطرزة فنية خاصة فى تمثيل الاشخاص والحيوانات وكيفية جمعها (كما يتجلى ذلك فى الاثر المشهور المسمى بسكين جبل العرق) . وفى عهد السلالة الاولى نجد التأثيرات واضحة فى (٨) طراز العمارة فى ابنية الآجر مما أشرنا اليه فى المتن ويتضح ذلك جليا فى المصاطب التى كانت قبور ملوك السلالة الاولى (٩) جملة أشكال =



نموذج من الكتابة المصرية فى طورها الصورى الرمزى ٠ حيث يرمز الصقر الى الملك ساحبا راس انسان بحبل وتوجد خلف راســه ست ورقات من «اللوتس» تقوم كل ورقة منها لرقم ١٠٠٠ ٠ ويوجد تحت الصورة شكل مستطيل فوقه آلة الخطـاف أو الحربة ومعنى الصورة باكملها «ان الملك الصقر قد أسر ٦٠٠٠ رجل من أرض بحيرة الخطاف أو الحربة» ٠

الحضارة وهما طراز خاص فى فن العمارة يمتاز بالحزوز فى الجــدران على هيئة طلعات ودخلات وهو طراز خاص بعمارة وادى الرافدين القديمة ، والعنصر الآخر استعمال الاختام الاسطوانية التى كانت تستورد فى مبدأ الامر من العراق ولكن اخذ المصريون القدماء يصنعونها فى الفترة التى اعقبت عصر المملكة القديمة على الرغم من ان الخواتم التى بهيئة «الجعلان» (Scarab) اصبحت فى عهد المملكة الوسطى النوع الشائع المألوف من الخواتم الاسطوانية ، وهناك عنصر ثالث يحتمل انه ظل جزءا مهما فى حضارة وادى النيل ، ذلك هو احتمال تأثر المصريــين القدمــاء فى الخط المسمارى الصورى وأخذهم منه الحافز على ايجاد خطهم الهيروغليفى الخاص ٠ اما كيفية انتشار هذه العناصر وهل حصلت بالتجارة والاتصال المباشر او بالغزو فلا نعلم بوجه التأكيد ٠

= خاصة من أوانى الفخار (١٠) استعمال العلامات الكتابية الصورية استعمالا صوتيـــا

انظر حول ذلك بوجه خاص : —

(1) Childe, **Op. Cit.,** 100—101.

(2) Frankfort, **The Birth of Civilization,** P. 109.

الفصل الحادي والعشرون

المملكة القديمة وعصر الاهرام

بداية عهد السلالات

لقد سبق أن نوهنا بتقسيم تأريخ وادي النيل منذ ظهور اولى السلالات الحاكمة الى عصور كبرى او ادوار رئيسية اقدمها يعرف باسم عصر المملكة القديمة الذي يقسم بدوره الى عهدين يطلق على اولهما واقدمهما اسم بداية السلالات الذي يتضمن بوجه عام السلالة الاولى والثانية ومن الباحثين من يدرج السلالة الثالثة في هذا الطور ايضا • اما الطور الثاني من عهد المملكة القديمة فيطلق عليه اسم عصر الاهرام (٢٧٨٠-٢٢٧٠ق٠م) ويشمل السلالات الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة ، اذا لم تلحق السلالة الثالثة بالطور الاول (اي طور بداية السلالات) • وسنوجز الكلام على خصائص كل من هذين العهدين المهمين في تأريخ حضارة وادي النيل

وقبل ان نذكر ما نعرفه عن اولى السلالات الحاكمة التي تم في عهدها اول توحيد لمصر في مملكة واحدة نقول شيئا موجزا عما نعرفه عن الاحوال السياسية في وادي النيل قبيل توحيد المملكة المصرية الذي تعزوه المأثر الى السلالة الاولى ، وبوجه خاص الى مؤسسها «مناء المأثور

فقبل ان يتم هذا التوحيد المأثور بدأت الحياة السياسية في مصر في فجر التأريخ بهيئة امارات ودويلات مدن كثيرة منتشرة في كل من مصر العليا والسفلى • وقد عرفت هذه الاجزاء السياسية في العصور التالية باسم الولايات او الاقاليم او بالمصطلح اليوناني «نومي أو نوموس» (nome, nomus) • هذا ولا يعلم عدد هذه الوحدات الاقليمية قبل ان يوحد «مناء القطر في مملكة واحدة ، ولكن الظاهر ان عددها عندما وحد البلاد كان نحو ٤٢ «نوماء

(٢٢ واحدامنها فى مصر العليا ، و٢٠ فى مصر السفلى) ، وكان لكل ولايةدياناتها الخاصة والهها أو آلهتها الخاصة ورمزها الدينى والسياسى • ومما لا شك فيه ان تكون تلك الولايات او الدويلات فى حروب بعضها مع بعض للسيطرة ، وظلت كذلك حتى تقلص عدد الولايات الحاكمة بالفتح والضم وصارت قبيل السلالة الاولى مملكتين منفصلتين ، مملكة جنوبية فى مصر العليا تمتد من اسوان الى قرب «منفس» ، والثانية تشمل باقى مصر فى مصر السفلى (اى المملكة الشمالية) ويضمن ذلك الدلتا وكانت عاصمة مصر العليا ، اى عاصمة المملكة الجنوبية ، فى الموضع المسمى « هيراكو نبوليس » (واسمها المصرى القديم « نخين » أو نخيت) • وعاصمة مملكة الشمال (المملة السفلى) فى المدينة المسماة «بوتو» فى الدلتا • وقد وردت أسماء جملة ملوك من مملكة الشمال فى المسلة المعروفة باسم مسلة «بالرمو» ، والظاهر ان سكان هذه المملكة من الساميين والليبيين كما يرجح ان تكون اكثر تقدما فى الحضارة من مملكة الجنوب وكان رمز مملكة الشمال «الحية» ورمز مملكة الجنوب «النحلة» وعندما تم توحيد هاتين المملكتين فى مملكة واحدة اتخذ اول ملك لقبى المملكتين واتحد رمزاهما ايضا

السلالة الاولى :ـ

وبعد ازمان لا يعلم طولها ظهر ملك قوى من مملكة الجنوب ونجح فى ضم مملكة الشمال وتوحيد المملكتين فى مملكة متحدة لقب ملوكها انفسهم بملك «مصر العليا والسفلى» • وتنسب المآثر هذا التوحيد السياسى الى اول ملك من السلالة الاولى الذى سمى «مناء» (وبالصيغة اليونانية منيس) ، والواقع التأريخى عن هذا الملك غير معروف ، ولكنه يبدو أنه كان شخصية مركبة يدخل فيها لا اقل من ثلاثة ملوك وهم الملك الملقب بالعقرب والملك نارمر و«عحا» (اى المحارب) الذين تم فى عهد حكمهم غزو الشمال وضمه الى مملكة الجنوب ولا يعلم من منهم «مناء» المخصوص ، وقد ذكرت اثبات سلالات الملوك اسماء ملوك آخرين لهذه السلالة ووجدت لبعضهم اثار خاصة وقبورهم

الخـــاصة ، تذكر من هذه بوجه خاص اللـــوح الخـــاص بالملك «نارمر» (نعرمر) (١) ٠

وتروى المآثر المصرية المتأخرة ايضا أن مدينة «منفس» قد بنيت فى موضع استحصله من النيل الملك «منا» مؤسس السلالة الاولى المأثور بسده النيل وتحويل مجراه الاصلى الى الشرق ٠ ومهما كانت صحة تفاصيل هذه المآثر فالذى لاشك فيه أن احد ملوك السلالة الاولى الملقب بلقب «منا» (او منى أى الثابت) هو الذى أسس «منفس» لان الآثار الخاصة بالسلالة الاولى تكثر فى جوار المدينة ولم يعثر بعد على آثار مما قبل ذلك العهد (٢) ، هذا لا يعلم بوجه التأكيد هل اختار مؤسس «منفس» هذه المدينة لتكون عاصمة المملكة الموحدة او انها اختيرت لتكون مجرد حصن بالنظر لموقعها المسيطر على المملكتين ثم صارت عاصمة البلاد للسبب المذكور اى بالنظر الى موقعها الجغرافى حيث تقع تقريبا فى الحد الفاصل بين مصر العليا والسفلى ، وكان هذا فى الواقع اختيارا موفقا لتوطيد الاتحاد السياسى المنجز حديثا ولسهولة ادارة المملكتين ٠ ولكن مع هذا التوحيد واستمراره فى عهد السلالات القوية الا ان حقيقة ان مصر كانت مقسمة الى جزئين او مملكتين متميزتين لم تختف من الوجود فى العهود التالية ، حتى انه كان من الالقاب الرسمية المهمة للفراعنة لقب ملك «مصر السفلى والعليا» ٠ ومع اننا نجهل أساليب الادارة التى اتبعها ملوك السلالة الاولى فى ادارة المملكة الا أن المرجح كثيرا أنهـــم اتبعوا الادارة المركزية والسلطة المطلقة ٠ وقد وجد فى التنقيبـــات التى اجريت حديثا فى المقابر الكائنة فى صقارة عدد كبير من قبور الموظفيـــن والحجاب والتابعين لبلاط الملك فى عهد السلالتين الاولين ، مما يشير الى أن الفرعون كان يتبعه ويساعده فى حكومته المركزية عدد كبير من الموظفين

(١) انظر The British Museum Guide, (1930), 279 ff.
(٢) انظـــر Edwards, The Pyramids of Egypt, 17 ff.

المربوطين بالبلاط . ومع ان الاقاليم السابقة (النومات) قد توحدت الآن في حكومة مركزية الا أن ملوك هذه السلالة قد سمحوا لها بالمحافظة على كياناتها ، ولكنهم عينوا حكاما يديرونها من قبلهم ، وكان مثل هؤلاء يحكمون بالتعيين وظل الحال في عهد السلالات التالية ، ولكن وظيفتهم صارت بالتدريج وراثية خاصة بأسر معينة ، وهكذا نشأت في مصر القديمة منذفجر التأريخ طبقة خاصة من حكام الاقاليم اخذت تهدد سلطان الفرعون (١) بعد ضعف المملكة القديمة حتى استقل هؤلاء في اقاليمهم في نهاية السلالة السادسة (اي في نهاية عصر الاهرام) .

واشتهر عهد السلالة الاولى بان حكام مصر منذ هذا العهد او مقبل ذلك بقليل بدأوا يفكرون بطريقة للدفن تضمن عدم تلف قبورهم وتخريبها فبنوا فوق حفرة الدفن بناء ظاهرا فوق الارض مشيدا من اللبن وقد عرف هذا النوع من القبور باسم «المصطبة» ، وقد وجدت نماذج من هذه القبور في صقارة بعضها يرجع الى بعض ملوك السلالة الاولى مثل «اخاء» ، وكانت العادة ان يزينوا خارج بناء المصطبة بطراز عماري من «الطلعات» و«الدخلات» على غرار طراز العمارة في حضارة العراق القديم مما المحنا اليه سابقا

السلالتان الثانية والثالثة

لقد وردت في اثبات سلالات الملوك اسماء جملة ملوك خصصوا الى السلالة الثانية ، ووجدت لبعضهم آثار فيها نقوش كتابة مثل «خع ـ سخموي» و«رع ـ نيب» الخ ، وطرأ تطور في طريقة الدفن الملكية في عهدهذه

---

(١) معنى كلمة فرعون (فير ـ عو) المصرية (البيت العظيم) وكان اقدم ذكر لهذا المصطلح في النصوص المصرية من عهد خفرع (السلالة الرابعة) (دليل المتحف البريطاني ١٩٣٠ الص ٢٩٢) ولكن كان هذا اللقب يشير الى القصر ولم يستعمل لقبا للملك بصورة رسمية الا في عهد السلالة الثامنة عشرة (عهد الامبراطورية)

(Wilson, **The Burden of Egypt**, 102)

السلالة ،فان القبر مع بقائه بهيئة مصطبة الا ان البناء الظاهرى فوق حفرة الدفن صار سلدا غير مجوف (اى لايتكون من بناء من حجرات كما كان الحال عليه في عهد السلالة الاولى) وانما كانوا يملأون داخل المصطبة باللبن وكسر الحجارة ويغلف وجهها بالاجر ، ولكنهم وسعوا من حفرة الدفن تحت المصطبة بحيث صارت تحتوى على جملة حجرات لخزن الاثاث والاشياء التى كانت تودع فيما مضى فى حجرات البناء المجوف الظاهر فى قبور السلالة الاولى ، اما ملوك السلالة الثالثة فانهم بدأوا يستعملون الحجر فى قبورهم ، وقام احد ملوك هذه السلالة المسمى «زوسر» بناء جديد هو الهرم المدرج الذى تطور عن المصطبة وتطور عن هذا الهرم المدرج الهرم الصحيح الذى كان اول ماظهر فى عهد السلالة الرابعة ، اى فى عصر الاهرام الذى سنذكره فى موضع آخر • ويعزى الى عهد السلالتين الثانية او الثالثة اصل التقويم الرسمى

وتشير مأجريات الاحوال التأريخية الى ان الوحدة السياسية التى انجزتها السلالة الاولى لم تكن موطدة دائمية وظل النزاع بين الجنوب والشمال مستمرا فى عهد السلالة الثانية الى ان استطاع احد ملوك السلالة الثالثة من غزو الشمال (واصله من مصر العليا) واسمه «خع ـ سخموى» ويبدو ان هذا استمر فى الحكم من منفس ، وكان ابنه المسمى «زوسر» (اى المقدس) اعظم ملوك السلالة الثالثة ، وقد سبق ان قلنا انه اشتهر ببناء اول هرم مدرج فى تأريخ مصر فى صقارة وسيأتى وصفه فى موضع آخر • وقد وجدت فى ذلك الهرم آثار نفيسة من الفن المصرى • واشتهر فى عهد هذا الملك معمار اسمه «يمحاتب» (او امحوتب) تعزو اليه المآثر بناء الهرم المدرج كما عزت اليه المآثر المتأخرة انه كان مؤلفا وساحرا وطبيبا •

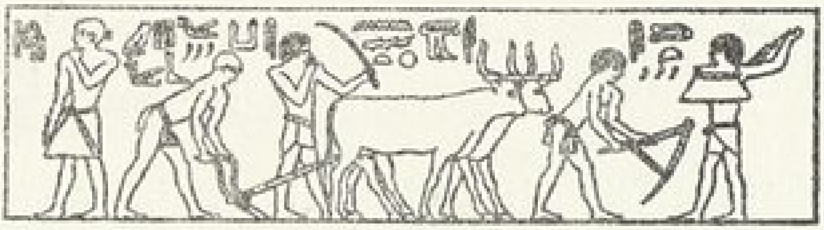
وفى وسعنا ان نجعل عهد السلالة الثالثة عهد الوحدة السياسية الموطدة التى شملت جميع القطر المصرى ، واستمرت هذه الوحدة بمقياس اوسع

وتوطدت اكثر فى عهد يعد من اعظم العصور المصرية ، الا وهو عصر الاهرام الذى سنأخذ بعض الامور المفيدة

عصر الاهرام

وهو العصر الذى سبق ان عرفناه بالنسبة الى السلالات الحاكمة والى زمنه التأريخى بانه العهد المبتدأ بالسلالة الثالثة او الرابعة والمنتهى بنهاية السلالة السادسة ، وقد سبق أن رأينا كيف كانت الاوضاع السياسية فى عهد السلالة الثالثة حيث تم فى عهدها اعادة توحيد البلاد بغزو قام به احد ملوك هذه السلالة فتوطدت الوحدة السياسية فى عصر الاهرام ، واذا اعتبرنا الهرم المدرج الذى شيده «زوسر» احد ملوك السلالة الثالثة من الاهرام ، فبامكاننا دمج هذ السلالة فى عصر الاهرام ، ولكن الاهـــرام الصحيحـــة الضخمة التى اشتهرت بها مصر لم تبدأ الا فى عهد السلالة الرابعة ، وهذا هو سبب تسمية هذا العهد بعصر الاهرام ، لان ملوك هذا العهد وملكاته ، باستثناءات قليلة ، قد دفنوا فى قبور تقوم فوقها ابنية عالية شاهقة هى الاهرام. اما فى العصور الاخرى غير عصر الاهرام فان غير واحد من ملوكها قـــد شيدوا اهراما ايضا ولكن مثل هذه الاهرام قد خوّلت من ناحية الحجم واصبحت مجرد عادة تقليدية تقام قرب القبور ، وليس لها تلك الميـــزات الخاصة باهرام عصر الاهرام ، كما انها فقدت الكثير من المغزى الدينى ، واصبحت الى جانب صغر حجومها مجرد رموز او بمثابة شواهد قبور ، ولذلك خص العهد الذى نتكلم عنه الآن باسم «عصر الاهرام» .

ومما يقال فى عهد المملكة القديمة بوجه عام وعصر الاهرام بوجـــه خاص أنه كان عهد ازدهار الحضارة المصرية وعنفوانها وعهد نضجها ايضا كما انه كان عهد توطيد الوحدة السياسية والنمو السياســـى والسلطـــان المركزى وسلطة الملوك المطلقة ، وان اساس الحكم كان يقـــوم على حكـــم



صورة تمثل حرث الحقل وبذره في عصر الاهرام
وجدت مصورة في جدران قبر احد النبلاء

«الملك الاله» ، والواقع من الامر ان اساس الفكرة من بناء الهرم «ألوهية الملك» ، وكان يخدمه النبلاء واشراف المملكة وكبار الموظفين حيث ينالون السعادة في عالم مابعد الموت من جراء هذه الخدمة ، ويخدم طبقة النبلاء الطبقات الدنيا من فلاحين وصناع وغيرهم ، ويصيرون كذلك خداما سعداء لهم في عالم ما بعد الموت • وقبل ان نذكر شيئا عن الاهرام والميزات البارزة في حضارة مصر في هذا العهد نوجز ابرز الامور المهمة عن السلالات الحاكمة في هذا العهد •

السلالة الرابعة : ـ

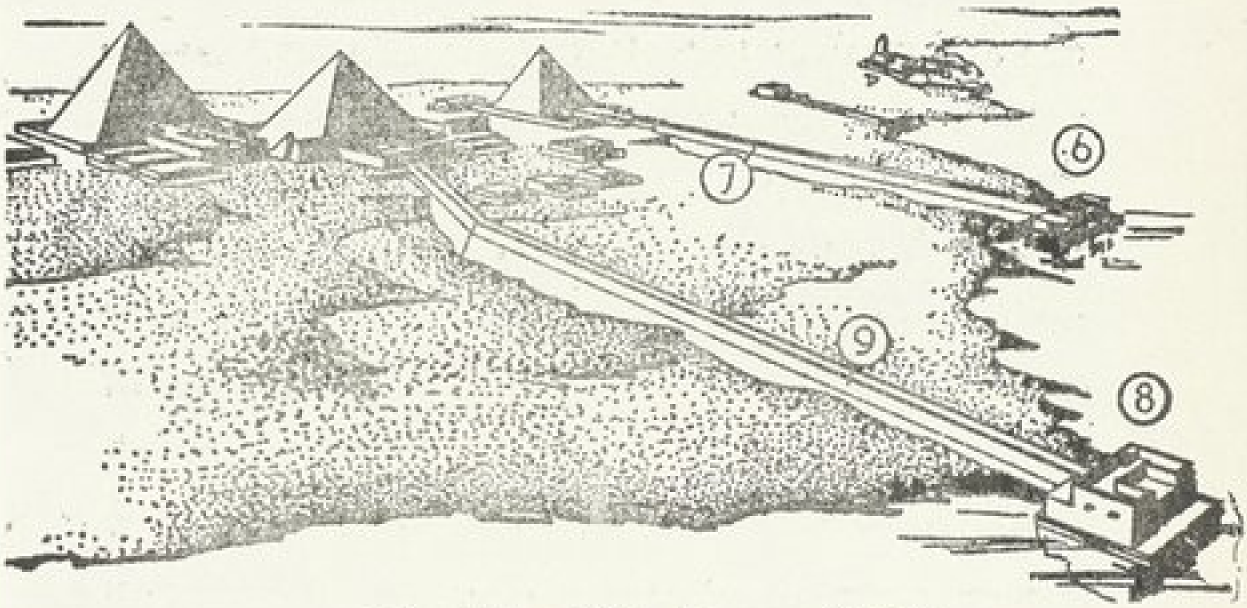
تبدأ السلالة الرابعة بحكم ملك من مشاهير ملوك هذا العهد هو «سنفرع» ، وكان هذا الملك أول من استعمل ماشتهر في تأريخ مصر باسم «الخرطوش» (Cartouche) (١) وهو عبارة عن ختم الملك المتضمن اسم الملك ولقبه، وقدغزا «سنفرع» طور سيناء ونحت نحتا بارزا في الحجر هناك كما أنه غزا نوبية الى الجنوب من اسوان واسر جماعات كبيرة ، وهوالاقليم الذي كان «زوسر» من ملوك السلالة الثالثة قد غزاه ويرجح ان «سنفرع» قد دفن في الهرم الكائن في «ميدوم» المسمى بالهرم المدرج اذ انه هرم مدرج مكون من ثلاث طبقات كما انه بنى هرما في «دهشور» • واعقب «سنفرع» الملك الشهير «خوفو» الذي كان اعظم ملوك السلالة الرابعة ،

(١) يرجح انشكل الخرطوش المستطيل مأخوذ من شكل الختم الاسطواني الخاص بحضارة وادي الرافدين

ويخصص له هيرودوتس حكما دام (٦٣) سنة ، ولكن المرجح انه لم يحكم اكثر من ٢٣ سنة ولعله كان مثل سنفرع محاربا كبيرا كما وجد له نصب منحوت فى طور سيناء ، ولكن شهرته الاساسية أتت من كونه اعظم بناء خلد شهرته الهرم الاكبر طوال الوف من السنين • وخلفه فى الحكم ابنه الشهير «خفرع» الذى اشتهر ايضا فى بناء ثانى الهرمين الكبيرين فى الجيزة وقد سبق ان نوهنا بانه يرجع الى عهد هذا الملك اقدم الاشارات الى لقب «الفرعون» (البيت العظيم) على الرغم من انه لم يستعمل لقبا رسميا للملوك الا فى عهد الاسرة الثامنة عشرة كما اشرنا الى ذلك من قبل • وقد بلغ فن النحت فى عهد السلالة الرابعة بوجه عام وفى عهد خفرع بوجه عام الذروة فى الرفعة كما يدل على ذلك تمثال هذا الملك المنحوت من حجر الديوريت الموجود فى متحف القاهرة حيث وجد بالاصل فى معبد «ابى الهول» الذى هو أيضا تمثال للملك بهيئة رأس بشر وجسم أسد[1] وجاءتنا قطع فنية نفيسة أخرى مثل تمثال «شيخ البلد المشهور» • ولقد حكم خفرع ٥٦ عاما بحسب هيرودوتس وخلفه فى العرش «منكورع» الذى حكم زهاء ٢٠ عاما على الرغم من عزو الاغريق اليه حكما طويلا • واشتهر هذا الملك بكونه بانى الهرم

---

(١) لايعلم اصل هذا النوع من التمثيل الخاص بابى الهول (Sphinx) والذى تجدر ملاحظته عن هذه الانواع الخاصة بمصر انها على العموم من نوع ابى الهول المذكر ، وقد صنعت فى سورية وبلاد اليونان مثل هذه المنحوتات المركبة التى كانت تمثل نساء باجسام الحيوانات (الاسود) وهى مجنحة على الغالب ، وهناك اسطورة طريفة عن ابى الهول اليوناني (او ام الهول)، اذ عرف باللغز الشهير بلغز «ابى الهول (The Riddle of the Sphinx) وكان هذا لغزا مهلكا وضعته تلك المخلوقة الخاصة بطيبة (فى اليونان) لمن يمر بها من الناس فمن لم يحله قتلته • وقد حزره الملك «اوديب» فانتحرت «ام الهول» وصار «اوديب» ملكا • اما اللغز فهو على الوجه الاتى : «ماذلك المخلوق الذى يمشى على اربع فى الصباح وعلى قدمين فى الظهر وعلى ثلاثة اقدام فى المساء ؟» وجواب اللغز «الانسان» فهو يمشى فى طفولته على اربع (قدميه ويديه) ثم على قدميه لما يشب وعلى ثلاثة حين يشيخ • على قدميه وعلى عكازته !



اهرام ابو صير على ما كانت عليه فى الاصل
فى عهد السلالة الخامسة

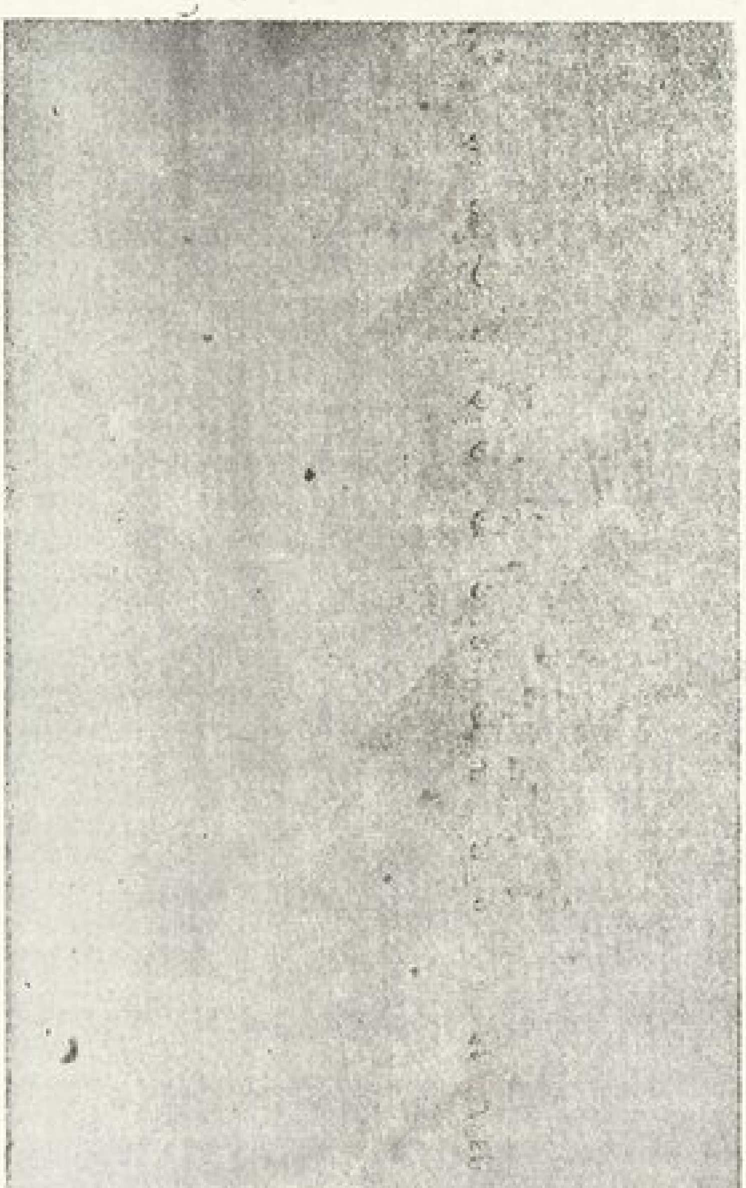
الثالث فى الجيزة الذى يبلغ ارتفاعه نحو ٢١٥ قدما ، وينبغى ان تكون المحاولة التى جرت فى زمن الخليفة المأمون لحفر الهرم قد كانت فى هذا الهرم • وكان آخر ملوك السلالة الرابعة «شيبسيسكاف» ، وقد بدأت فى اواخر عهد هذه السلالة اهمية عبادة الاله «رع» تطغى على عبادة الفرعون بتدخل كهنةالاله رع فىهليوبوليس (مدينة عون المذكورة فىالتوراة) حتىانه ليقال ان اصل ملوك السلالة الخامسة كانوا من زوجة كاهن من كهان الاله «رع» ولدته من هذا الاله بمعجزة الهية •

السلالة الخامسة :ـ

اما اول ملوك السلالة الخامسة المسمى «يوسر كاف» فيرجح كثيرا انه جاء الى العرش بنتيجة ثورة قام بها ، والمرجح ايضا ، كما المحنا الى ذلك ، انه كان الكاهن الاعلى للاله «رع» • وقد حدث فى عهد هذا الملك تبدل مهم فى مركز عبادة هذا الاله حيث صارت هى السائدة فى البلاد ، كما ان هذا الاله قد طغى على الاله الفرعون الذى صار مجرد «ابن رع»وهو لقب رسمى تسمى به الفرعون منذ السلالة الخامسة • وهذه نقطة مهمة فى

تأريخ مصر القديمةاذتشيرالى تبدل مركزالفرعون ،فبعد ان كانالفرعونالاله العظيم صار الاله الشمس مركز الكون ، ويمكن الوقوف على هذا التبدل بمقارنة حجوم الاهرام مع سعة «قوارب الشمس» التى كانت تحفر بالقرب من الهرم لاستعمال الفرعون المتوفى فى سفره مع الاله الشمس • فقدكانت هذه صغيرة الحجم يطغى عليها حجم الهرم فى عهد السلالة الرابعةولكن بدأ الوضع ينعكس منذ السلالة الخامسة • وكذلك صار يبالغ فى حجم المسلات الخاصة بالاله «رع» بالنسبة الى حجم الهرم الخاص بالفرعون • وقد بنى «يوسر كاف» له هرما فى «ابو صير» كما فعل ذلك بعض الملوك الاخرين من هذه السلالة والى ذلك بنى كل منهم معبدا خاصا للاله الشمس «رع» [١] • ومما يقال فى الحضارة المصرية فى عهد هذه السلالةانها لم تكن لتمتاز عما كانت عليه فى عهدالسلالة الرابعةباستثناء ماذكرنا من التبدل الدينى فى بروز اهمية عبادة الاله «رع» وكذلك بداية تضاؤل سلطة الفرعون السياسية • ومن ناحية الفن سارت السلالة الخامسة على مآثر السلالة السابقة ووصل الفن الى ذروته•وقد اشتهرت السلالةالخامسة بمقابرملوكها الهرميةفىأبو صيرجنوبالجيزة(أنظرش٣٦)،ولكن لايمكنمقارنة حجومها ولا جودة بنائها باهرام ملوك السلالة الرابعة ، واشتهرت من اهرام السلالة الخامسة ثلاثة اهرام خصصت لقبور الملوك الثلاثة وهم «سحورع» و«نفير ير كارع» و«نيسور ـ رع» ، وقد امدتنا المعابد المخصصة لعبادةالفرعون الملحقة بهذه الاهرام بنتائج مهمة عن الحضارة المصرية وفنها فى عهد المملكة القديمة ، ولاسيماالمنحوتات البارزةفى جدران هذه المعابدالتىتعداقدم منحوتات بارزة فى تأريخ الفن المصرى القديم ، وقد سجلت لنا هذه المنحوتات

(١) ابرز شيىء فى هذه المعابد الشمسية «المسلات» (Obelisk) حيث تقام مسلة قائمة وحدها فوق دكة تشبه المصطبة ، وقد خصصت كهانة هذه المعابد الى طبقة خاصة من الشرفاء والنبلاء • واحسن نماذج ممثلة لمثل هذه المعابد مما بقى محفوظا المعبد الموجود فى الموضع المعروف باسم «ابو غراب»بينالجيزةوابوصيروهوالمعبدالذى بناهالفرعون نيسور ـ رع



صورة اهرام الجيزة مأخوذة بالطائرة (من الجو)

حوادث مهمة فى حياة هؤلاء الفراعنة[١] . وكان «اوناس» أو «اونيس» آخر ملوك السلالة الخامسة ، وقد اشتهر ببنائه هرما له فى صقارة وقد كان اول من اوجد عادة نقش الجدران الداخلية للقبر بكتابات دينية ، وقد نقلت مثل هذه الصور فى اهرام السلالة السادسة ، وهى عبارة عن مجموعة من الادعية والتعاويذ السحرية والرقى لجلب السعادة والسلامة لروح الفرعون فى العالم الثانى ، وقد صارت هذه اساس مايعرف فى تأريخ مصر باسم «كتاب الاموات» ، وتوقفنا تلك «النصوص الهرمية» ومنحوتات المعابد الملحقة بالاهرام ايضا على اشياء مهمة عن الحياة المصرية القديمة ومن ذلك الحياة الدينية والا لهة المعبودة حيث نجد معظم آلهة مصر قد عبدت فى ذلك العهد

السلالة السادسة : —

وأعقب «اوناس» الملك «تيتى» او «تيتا» مؤسس السلالة السادسة التى كان اصل ملوكها من «منفس» ، وقد بنى له قبرا هرميا فى صقارة وزود جدران حجراته الداخلية بالنصوص السحرية من التعاويذ والرقى ، وكذلك اتبع هذه العادة ملوك السلالة السادسة الذين اعقبوه ، واشهر هؤلاء واعظمهم ببى الاول (مرى-رع) لما قام به من اعمال وانجازات كبيرة كاستغلاله لمورد حجر «الغرانيت» فى اسوان وتثبيت سلطانه فى سيناء ، وازدهرت فى عهده التجارة والصناعة بتشجيعه ، كما انه ارسل حملة حربية لاخضاع القبائل القاطنة فى الصحراء الشرقية . وخلفه فى الحكم احد ابنائه ثم ابنه الثانى «ببى» الثانى «نفير-كا-رع» المشهور بطول حكمه حيث يروى هيرودوتس انه حكم زهاء (٩٠) عاما اذ حكم وهو فى سن السادسة ومات وعمره زهاء القرن الواحد ، وبمماته فى حدود عام ٢١٨٠ق٠م انتهت السلالة السادسة فكانت نهاية العهد الذى سميناه بعهد المملكة القديمة وعصر الاهرام ، وبدأ عهد من الفوضى السياسية سنوجز اهم مافيه فى موضع

---

(١) يوجد وصف موجز لنتائج التنقيبات التى قام بها الالمان فى المرجع السهل الاتى : —
H.R. Hall, **The Ancient History of the Near East** (1936), 131.

آخر . ومع ان «بيبى» كان من أعاظم هذا العهد وكانت مصر فى عهده فى ازدهار ظاهر من جراء نشاط هذا العاهل الا ان عوامل أخرى كانت تفعل فعلها فى انهيار البناء السياسى للملكة القديمة . ولكى نكشف بعض هذه العوامل نوجز ماسبق أن نوهنا به عن الاسس التى قامت عليها المملكة القديمة. فكانت هذه المملكة تقوم على سلطة ملك مطلق السلطان كان هو الدولة ، اما اعيان المملكة ونبلاؤها فلم يكونوا سوى حاشية الملك وخدامه فى البلاط حيث كانوا يعيشون حواليه واذا ماتوا دفنوا قربه لينالوا حظوة السعادة فى العالم الآخر باستمرارهم فى خدمة سيدهم أو «الملك الاله» فى ذلك العالم . وكان هذا الملك الاله يملك مصر وما فيها ، واذا تعذرت عليه ادارة أملاكه جميعها بنفسه فانه كان يعين فى ادارة اقاليم المملكة وكلاء عنه يديرون املاكه له ويجبون له غلاتها ، كما تدل على ذلك اسماء الموظفين الذين كان يعينهم الفرعون مثل لقب «حامل اختام الملك» و«ناظر اشغال الملك» و«مدير املاك القصر» الى غير ذلك من عناوين الموظفين فى عهد المملكة القديمة . وكذلك يقال بالنسبة الى ولاة الاقاليم الذين لم تكن وظائفهم وراثية اقطاعية على مايرجح . هذا وقد سبق ان المحنا الى ظهور عناصر اخرى من المجتمع نازعت سلطة الملك الاله ، وهم طبقة كهنة الاله «رع» فى هليوبوليس ، والذى لامراء فيه ان عادة بناء الاهرام الهائلة منذ السلالة الرابعة قدعملت ايضا على تضاؤل سلطان الفرعون وانتقال السلطة المركزية الى اللامركزية فى ولاة الاقاليم ، فان هذه المشاريع غير الاقتصادية التى لاتدر على المملكة بشيء وتخصيص واردات هائلة لبنائها والوقف عليها لعبادة الفرعون المتوفى، كل ذلك عمل على استنزاف موارد الدولة وصرف الثروة التى حصل عليها المصريون القدماء من استغلالهم لبيئتهم الطبيعية والسيطرة على مواردها منذ السلالات السابقة لعصر الاهرام ، ولكن بذرت هذه الموارد والقابليات الفنية على مشاريع غير مدرة . ومما لاشك فيه ان يكون النبلاء اول من شعر بوطأة هذه الاعباء الفادحة ، واذا كانوا فى عهود السلالات القوية عالة على الملك فى عيشهم الا انهم اخذوا يستقلون بالتدريج فى كفائتهم الاقتصادية واستقلالهم

الذاتي ، واذا كان الاحتياطي من الثروة القومية قد بذره ملوك عصر الاهرام فانهم الى ذلك لم يوجدوا موردا مدرا آخر ، واذا أضفنا الى ذلك تناقص موارد التجارة الخارجية (١) ادركنا اسباب انهيار البناء السياسي للمملكة القديمة . ويتجلى ذلك في تبدل علاقة النبلاء في اواخر هذا العهد مع الفراعنة ، فبدلا من عيش هؤلاء في بلاط الفرعون وخدمتهم له ، وبدلا من اتخاذ مقابرهم قرب اهرام اسيادهم ، استقل معظمهم في اقطاعياتهم وبنوا لهم قبورا خاصة في املاكهم ، فكانت مادعوناه في تأريخ مصر باسم الفترة المظلمة الاولى التي سنلخص احوالها السياسية فيما بعد

وعلى ذكر التجارة ننوه بأمر مهم عن واسطة التعامل التجاري في عهد المملكة القديمة ، فقد كان النشاط التجاري والمعاملات التجارية المختلفة تتم بالدرجة الاولى بطريق المقايضة العينية ، واستعملت المعادن ايضا بهيئة قطع ذات وزن معين واسطة للتعامل ، اما النقود المسكوكة فلم تعرف في مصر الا في العهود المتأخرة جدا (منذ عهد البطالسة) . وقد كانت الحكومة الفرعونية تقوم باحصاء مالي سنوي او نصف سنوي اي احصاء رسمي للاراضي والماشية والحبوب والمعادن الثمينة وانواع الاموال الاخرى وعلى أساس هذه التقديرات كان يجري دفع الضرائب عينا الى البلاط الفرعوني

الاهرام

نتوقف قليلا عن تتبع احوال المملكة المصرية في الفترة المظلمة التي

---

(١) كانت تجارة مصر الخارجية في هذه العهد متمركزة في وادي النيل بالدرجة الاولى وفي ليبية والسودان وطور سيناء لاستغلال مناجم النحاس . وكثيرا ماكانوا يرسلون البعوث الحربية ولكن كانت لغرض التجارة ولم تكن لغرض الضم السياسي ، اما في بلاد الشام فكانت تجارة مصر ونفوذها السياسي محصورين في الساحل اللبناني ، وكانت جبيل المستعمرة التجارية الوحيدة ، ولعل جماعة من التجار المصريين كانت تقيم هناك كما يدل على ذلك وجود معبد مصري فيها . وباستثناء هذا الموضع اللبناني لم يتغلغل النفوذ السياسي والتجاري والثقافي في بلاد الشام كما صار عليه في عهد المملكة الوسطى واكثر من ذلك في عهد الامبراطورية

اعقبت عصر الاهرام لنذكر بعض الامثلة الموجزة عن هذه الاهرام التي اشتهرت بها حضارة مصر وتخلدت بها بين الحضارات القديمة وكانت من العوامل المهمة التي عملت على انهيار المملكة المهمة . لقد اتضح لنا من تعريف عصر الاهرام ان الاهرام كانت قبورا للملوك المصريين من ذلك العصر ، واشهر هذه الاهرام اهرام السلالة الرابعة الواقعة في الجيزة في ضفة النيل الغربية بنحو ٥ أميال من النهر حيث الهرمان العظيمان ، هرم خوفو وخفرع (جنوب غربي القاهرة بأميال قليلة وقرب العاصمة منفس) ، وتلي هذه الاهرام في الحجم وجودة البناء وضخامته اهرام السلالة الخامسة التي يقع بعضها في موضع ابو صير وبعضها في صقارة حيث توجد اهرام السلالة السادسة . وتوجد مجموعات اخرى من الاهرام الصغيرة من عصر الاهرام كانت قبورا للامراء والنبلاء التابعين للفرعون . اما الاهرام من العصور الاخرى فهي وان استمرت في اشكالها الا ان فقدت وظيفتها وصارت كما قلنا رموزا او شواهد قبور تبنى قرب معبد القبر .

وكان الدافع لتشييد هذه الابنية الضخمة اعتقاد المصريين القدماء بوجود حياة اخرى بعد الموت ولاسيما رجوع الروح الى الجسم ولكن كان ذلك يتوقف على بقاء الجسم سالما في القبر غير معبوث به ، ولذلك بالغ فراعنة عصر الاهرام في ذلك ، وبالنظر الى ثرواتهم الطائلة فقد بنوا هذه الابنية التذكارية الهائلة حيث اخفوا تحتها اجسادهم المحنطة ومعها الاثاث الفاخرة والحلي النفيسة والحقوا بها المعابد الفخمة لعبادة الفرعون المتوفى وتقديم القرابين له . ولنصف الآن هرما انموذجيا من اهرام الجيزة حيث الهرم الاكبر لخوفو وهرم الفرعون خفرع وهرم منكورع اشهر ملوك السلالة الرابعة . فالهرم بناء صلد من الحجر مربع القاعدة هرمي الشكل ، مشيد من الحجارة الضخمة . وكانت في مصر قبل زمن خوفو انواع من الاهرام تختلف عن الهرم الصحيح الذي ظهر منذ عهد السلالة الرابعة ، فكانت الاهـــرام المدرجة والمموجة ، ولكن الملك خوفو بن «سنفرع» بدأ ببناء اول هرم

صحيح واعظم هرم اشتهرت به مصر ، ولعله تأثر بالاهرام التى شيدها أبوه فى «ميدوم» و«دهشور» • فاختار نجدا يقع فى حافة الصحراء يبعد بنحو ٥ أميال غربى الجيزة وشيد فيها هرمه الاكبر ، واتبعه من بعد ذلك ملكان وهما خفرع ومنكورع فبنيا هرميهما الى الجنوب من هرم خوفو بقليل • لقد بنى الهرم الاكبر بالحجارة الضخمة حيث تزن الحجرة الواحدة معدل الطنين ونصف الطن ، وقدرت الحجارة بنحو ٢٫٣٠٠٫٠٠٠ حجرة ويبلغ طول ضلع قاعدته ٧٥٥ قدما [١] وارتفاعه نحو ٥٠٠ قدم ، ويشغل مساحة من الارض تبلغ نحو (١٢٫٥) ايكرا • وقد تفنن الكتاب والعلماء الذين زاروا الهرم من مختلف العصور فى تقدير كمية الحجارة المستعملة فى بناء الهرم الاكبر ، فحسب بعضهم حسابا طريفا هوانه لو قطعت الحجارة المشيد بها هذا الهرم وجعلت بحجم قدم مكعب ووضعت جنبا الى جنب لامتدت مسافة تبلغ ثلثى محيط الارض فى خط الاستواء ، ونسب تقدير مماثل الى نابليون فى اثناء حملته الشهيرة على مصر اذ يروى انه قال لبعض قواده الذين تسلقوا الهرم (ولم يتسلقه هو) بعد نزولهم انه حسب ان احجار الاهرام الثلاثة لتكفى لبناء جدار علوه (١٠) أقدام وثخنه قدم واحد ، يحيط بجميع فرنسة ، ويروى ايضا ان العلماء الرياضيين الذين صحبوا الحملة قد اقروه على حسابه [٢] • ويمكننا عد الاهرام ، ولاسيما الهرم الاكبر ، اكثر الابنية القديمة التى كثر قياسها ودرسها منذ حملة نابليون الى التحريات الآثارية الحديثة • ومع ان الهرم الاكبر يبدو لو نظر اليه المرء من بعيد سالما الا انه بالفحص القريب يظهر انه قاسى كثيرا من قالعى الاحجار من مختلف العصور ، فقد ازيلت جملة

---

(١) بموجب القياسات الحديثة التى قامت بها مصلحة المساحة المصرية (Survey of Egypt, Paper, No. 39, 1952).

تبلغ اضلاع القاعدة الاصلية بصورة مضبوطة الابعاد الاتية : ــ الجانب الشمالى ٧٥٥٫٤٣ قدما ، والجانب الجنوبى ٧٥٦٫٠٨ قدما والجانب الشرقى ٧٥٥٫٨٨ قدما والجانب الغربى ٧٥٥٫٧٧ قدما • وتتجه هذه الاضلاع الى الجهات الاربع الاصلية اتجاها صحيحا والخطأ فيها ضئيل جدا

(٢) أنظر (Edwards, The Pyramids (1947), 86)

سلفات من قمته كما حدثت بعض التخريبات فى جوانبه ، ويوجد ثقب كبير فى الوجه الشمالى أسفل الهرم •

اجزاء الهـــرم : ـ

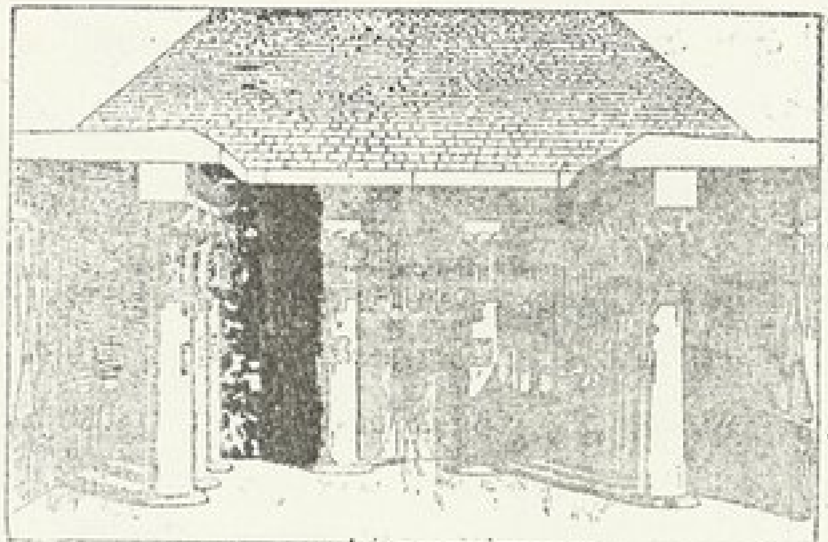
يتألف الهرم بصفته لحدا للفرعون المتوفى من جملة اجزاء عمارية بعضها مخفية تحت الهرم وفى باطنه وبعضها على هيئة معابد متصلة به لعبادة الفرعون واقامة الشعائر الخاصة بذلك • ولنصف هذه الاجزاء المختلفـــة بايجاز • ففى الجانب الشرقى من الهرم بنى معبد مهيب فخم زين بالمنحوتات والنقوش وصفوف العمد المزخرفة البديعة (انظر الصورة فى ص ٤٥) وهذا هو المعبد الذى شيد لعبادة «الملك الاله» بعد مماته ولتقديم مايحتاج اليه من القرابين[١] • ويوجد فى جهة الشمال والجنوب من هذا المعبد حفرتان كبيرتان محفورتان فى الارض الحجرية كما وجدت آثار حفرة اخرى قرب المعبد ، وجعلت هذه الحفر على هيئة سفن ولعلها كانت مبطنة ومسقفة بالخشب الذى بلى ولم يبق منه شيىء ، والغرض من هذه السفن الرمزية ان الفرعون الميت يستعملها فى سفرته فى العالم الثانى فى مرافقته للاله الشمس فى رحلته اليومية فى السماء[٢] ، كما ان هناك اعتقادا آخر لحاجة هذه السفن فى حج الملك المتوفى الى مقـــام اوسيريس المقدس فى أبو صير •

ولما كان الهرم والمعبد المشيد لصقه قد بنيا فى النجد بعيدين عن المدينة الملكية الواقعة فى الوادى الى الشرق من الهرم لذلك وصلوا بين الهرم ومعبده وبين جوار المدينة الملكية برواق (Couseway) او ممر مهيب طويل بنى من الحجارة ، وبنوا فى نهاية هذا الممر قرب المدينة الملكية معبدا آخر يجدر أن نسميه باسم «معبد الوادى» (انظر الصورة ص ٣٦) وكان هذا

---

(١) ويسمى هذا المعبد فى الكتب الحديثة باسم «المعبد الجنائزى» (Mortuary Temple)

(٢) يشار الى الاكتشاف الجديد الذى عثر عليه فى منطقة الاهرام لسفينة الشمس فى عام ١٩٥٤



ساحة المعبد المشيد لصق الهرم كما كانت عليه في الاصل
وهى ترينا صفوف الاعمدة المهيبة (من عصر الاهرام)

المعبد ايضا بناء ضخما جميلا شيد من حجر الغرانيت . وقد شيد ايضا لعبادة الملك الملحود ، وزين بتماثيل نفيسة ضخمة .

ويصف هيرودوتس «الممر» بانه كان مشيدا من الحجر الصقيل المنحوت بمنحوتات مختلفة . وقد شك الباحثون فى صحة هذا القول الان التحريات الحديثة أثبتت وجود آثار من هذه المنحوتات[١] وكانت بعض هذه الممرات مسقفة . وبامكان الزائر لاهرام الجيزة الآن أن يشاهد فى جانب «معبد الوادى» العائد الى هرم الملك «خفرع» تمثالا ضخما يمثل خفرع نفسه هو «ابو الهول» الشهير الذى يمثل الملك بجسم اسد رابض ورأس انسان هو رأس «خفرع» نفسه . ويعد ابو الهول نفسه اضخم تمثال صنعته يد الانسان القديم ، فان علو رأسه وحده يبلغ (٦٥) قدما وطول جسمه حوالى ١٨٧ قدما وعرض وجهه ١٤ قدما وعلى رأسه اللباس الملكى الرسمى كما توجد فى ناصيته شارات ملكية اخرى . ومع أن وجه ابى الهول «مشوه» [٢] الا انه لايزال يشبه وجه خفرع شبها كبيرا بالقياس الى

(١) Edwards, **Op. Cit.,** **102.**

(٢) وقد حدث هذا التشويه من جراء كسر انفه ولحيته بطلقة مدفع فى عهد المماليك .

تمثيله فى المنحوتات الاخرى • ويشاهد الزائر الآن بين الكفين الاماميين صفيحة من الحجر كبيرة منقوشة بكتابة هيروغليفية فيها سجل طريف لحلم رآه الفرعون طوطمس الرابع من السلالة الثامنة عشرة فيذكر النقش ان الملك لما كان اميرا قبل اعتلائه العرش كان فى رحلة صيد فمر عندأبى الهول واستـــراح فى ظله فى الظهيرة ، فظهر له ابو الهول فى الحلم (وكانوا يعدون ابا الهول تجسيدا للاله الشمس فى زمن طوطمس) ووعده باعطائه تاجى مصر اذا هو ازاح عنه الرمال التى كانت تغطى جسمه • ومما يؤسف له ان نهاية النقش الكتابى مخرومة مزالة ، ولكن باستطاعتنا ان نحزر ان رغبة الاله «ابى الهول» قد حققها الملك كما انه جازى الامير باعطائه تاجى مصر • ولعل طوطمس اصلح ايضا من شأن التمثال ، ولا تزال صيانته والمحافظة عليه مستمرتين فى العصر الحاضر

ومن اجزاء الهرم المهمة القسم المخصص لجثمان الملك تحت الهرم • واذا كان ليس فى وسعنا وصف الاروقة والممرات المشيدة داخل الهرم وصفامفصلافاننا نكتفي بالقول بان العادة كانت أنهم يتركون مدخلا الى هذه الابنية الداخلية فى احد اوجه الهرم ، ففى هرم خوفو مثلا يكون المدخل فى الوجه الشمالى بارتفاع ٥٥ قدما عن مستوى الارض وينحدر من المدخل رواق عرضه ٣ اقدام وخمسة انجات وينحدر فى بطن الهرم ثم يخترق الارض الحجرية وبعد مسافة نحو ٣٤٥ قدما من المدخل يستمر الرواق افقيا ثم ينتهى بمجموعة من الحجرات والدهاليز ، وقد خصصوا احدى هـــذه الحجرات لتضم تابوت الملك المدفون وخصص بعضها لايداع اثاثه • [١] ومن الملاحظات المهمة عن مجموعة الاهرام فى الجيزة ان احسن نموذج للهرم المصرى بكامل اجزائه التى وصفناها هوهرم «خفرع» حيث بقيت معظم اجزائه سالمة مثل المعبد المبنى لصق الهرم والممر ومعبد الوادى • ولان هذا الهرم

---

(١) حول ايجاز وصف هذه الابنية الداخلية انظر المرجع السهل الاتى
Edwards, **The Pyramids of Egypt** (1947).

مرتفع عن الارض اكثر من هرم «خوفو» فيبدو اعلى منه ، ولكن الواقع انه اوطأ منه بحاله الحاضرة بنحو ٣ اقدام (ارتفاعه الحالى ٤٤٧٫٥ قدما) ، ويشغل مساحة قدرها ٦٩٠ قدما مربعا . ويختلف فى ترتيب اروقته وحجراته الداخلية عن الهرم الاكبر . ويقرب هذا الهرم الهرم الثالث من اهرام الجيزة العائد الى «منكورع» الذى يشغل مساحة اقل من نصف مساحة الهرم الاكبر وعلوه الآن زهاء ٢٠٤ أقدام (وعلوه الاصلى نحو ٢١٨ قدما) وتوجد قربه (الى الجنوب منه) ثلاثة اهرام صغيرة غير كاملة لايعلم اصحابها بوجه التأكيد .

ملاحظة عن بناء الاهرام وتطورها

١ ـ لقد اشرنا فيما سبق الى ان الاهرام نشأت من العقائد المصرية القديمة فيما بعد الموت التى جعلت المصريين القدماء يهتمون بالموت وبالقبور الخاصة بهم منذ اقدم عصور ماقبل التأريخ اكثر من اهتمامهم ببيوت السكنى ، حتى ان معظم الآثار النفيسة التى تزين المتاحف العالمية الآن مصدرها من القبور بالدرجة الاولى ، لان القبور هى التى بقيت سالمة وقد زودتنا بنماذج منها خلال ثلاثة الاف عام عدا الاهرام ، فى حين انه لم يسلم من بيوت السكنى سوى القليل . وان عواصم شهيرة معظمة قد اختفت تقريبا ولم تترك لها سوى اثار ضئيلة ، ولم يبق من قصور الفراعنة الذين شادوا الاهرام اثر ما ، بحيث اننا لانعرف هل بنيت فى منفس او فى مواضع قريبة من الاهرام ، والسبب فى ذلك أنهم لم يهتموا فى مادة بنائها مثل اختيار مادة بناء قبورهم ، فكلها شيدت باللبن والخشب . وقد يبدو غريبا متناقضا ان قطرا غنيا بالحجارة مثل مصر قد عاش حكامه فى ابنية مشيدة بمادة فقيرة دون المادة المتينة التى استعملوها فى قبورهم الهرمية وغير الهرمية . ويزول استغرابنا هذا لو نحن وقفنا على وجهة نظر المصريين القدماء . فقد كان الغرض من بناء بيت السكنى او القصر ان يدوم عددا محدودا من السنين ومن الممكن تجديد بنائه او اقامة بناء آخر بدله ، ولكن كان الغرض من القبر الذى سموه بالحصن او بالبيت الابدى ان يدوم الى الأبد .

والعادة ان بناء القبر الخاص بالشخص كان يتم وهو على قيد الحياة ، وكانوا فى حالة موته قبل اكمال قبره يختصرون فى مخططه لسرعة اتمامه ، وكان المصريون يخصصون من أموالهم قدرا مهما لشؤون ما بعد الموت •

٢ ـ ولما كنا سنذكر عقائد مابعد الموت عند المصريين فى بحث خاص بحضارة وادى النيل فاننا نكتفى هنا بذكر ايجاز هذه العقائد مما يوضح الموضوع الذى بين أيدينا • فباستثناء الملك الاله الذى يكون بعد الموت بصحبة الآلهة ويتخلد فى السماء مع الاله « رع » فان البشر العاديين لم يكن بمستطاعهم ان يصيروا الى هذا المصير السعيد • فكان اعتقاد المصريين فى البشر ان الانسان مكون من عنصرين متميزين من جسم وروح ، واذا مامات الشخص ظل جسمه فى القبر اما روحه فتأخذ وجودا مستقلا ، ولكن يعتمد هذا الوجود المستقل على المحافظة على الجسم المادى سالما ، ومن هنا منشأ العناية الفائقة بالمحافظة على الجسم ونشوء التحنيط ، اى العناية الشديدة بحفظ الجسم فى قبور محكمة تمنع العبث بالجسم والمحافظة على هذا الجسم من البلى بالتحنيط •

وعلى ضوء هذه العقائد التى أوجزناها نستطيع أن ندرك الغرض وراء الاهرام بصفتها قبورا خاصة ونفهم ايضا العناية ببناء انواع القبور الملكية الاخرى •

٣ ـ كان سكان وادى النيل فى عصور ماقبل السلالات (ماقبل التأريخ) يدفنون موتاهم فى حفر مستطيلة او بيضوية تحفر فى الاراضى الجافة ، فى الرمال ، ويضعون مع الميت مايحتاج اليه الجسم ، ويحفون القبر بدفنه ، ولكن هذه الطريقة غير مضمونة للمحافظة على الجسم ، وبعد تمكن معتقدات ما بعد الموت منذ بداية عهد السلالات تلافى الامراء الحاكمون والنبلاء هذا الخطر ، اى خطر تلف اجسامهم وتخريب قبورهم ونبشها بان بنوا فوق حفرة الدفن بناء ظاهرا فوق الارض مبنية من اللبن مما يعرف فى تأريخ آثار مصر

باسم «المصطبة» التى تخفى تحتها حفرة الدفن المستطيلة المسقفة والمقسمة بقواطع الى عدة اجزاء يودع فى احدها الجسم وهو موضوع فى تابوت من الخشب وتوضع فى الاجزاء الاخرى الحاجيات الخاصة بالملك أو الامير . اما المصطبة الظاهرة فوق هذه الحفرة فكان يبنى فى داخلها جملة حجرات لخزن جرار الخمر واوانى الطعام واللوازم الاخرى ، وقد سبق ان اشرنا الى ان هذه المصاطب كانت تزين من الخارج بطراز من العمارة يضاهى الاطرزة العمارية فى حضارة وادى الرافدين مما يعرف «بالطلعات» «والدخلات» (Buttresses & recesses) ، وهذه هى انواع القبور الملكية التى وجدت من عهد السلالة الاولى .

٤ ـ وحدث تطور آخر فى مثل هذه القبور «المصطبية» فى قبور حكام السلالتين الثانية والثالثة . فمع ان شكل القبر الخارجى بقى على هيئة المصطبة الا ان بناء المصطبة صار صلدا غير مجوف اى ليس فيه حجرات داخل المصطبة كما فى قبور السلالة الاولى ، وانما صاروا يملاءون داخل المصطبة باللبن (الآجر) ولكنهم وسعوا من مرافق الحفرة التحتية بحيث اصبحت مكونة من صالة وعدة حجرات وصار يخزن فيها الاشياء اللازمة ، وكانت هذه الحجرات الداخلية تحفر فى الارض الحجرية ، وتتصل بالخارج (بسطح الارض) بمنحدر عمودى مكون من سلالم ويسد موضع الاتصال بصفيحة ثقيلة من الحجر كما كانوا يعملون على اخفاء المدخل . وظلت مثل هذه القبور المصطبية فى الاستعمال مع بعض التحسينات فى عهد السلالة الرابعة والخامسة والسادسة تستعمل للنبلاء والأشراف وذوى اليسار . أما الفراعنة فقد ابتنوا الاهرام كما سبق أن عرفنا . وأدخلت فى القبور أشياء جديدة منها دفن تمثال يمثل الميت مع تماثيل أسرته وكتابتها باسمائهم ، كما انهم صاروا يزينون جدران الحجر الداخلية المخصصة لوضع

القرابين والاثاث بمنحوتات بارزة وبنقوش عرفتنا بحياة المدفونين اليومية وباهم النواحى فى حضارة مصر القديمة

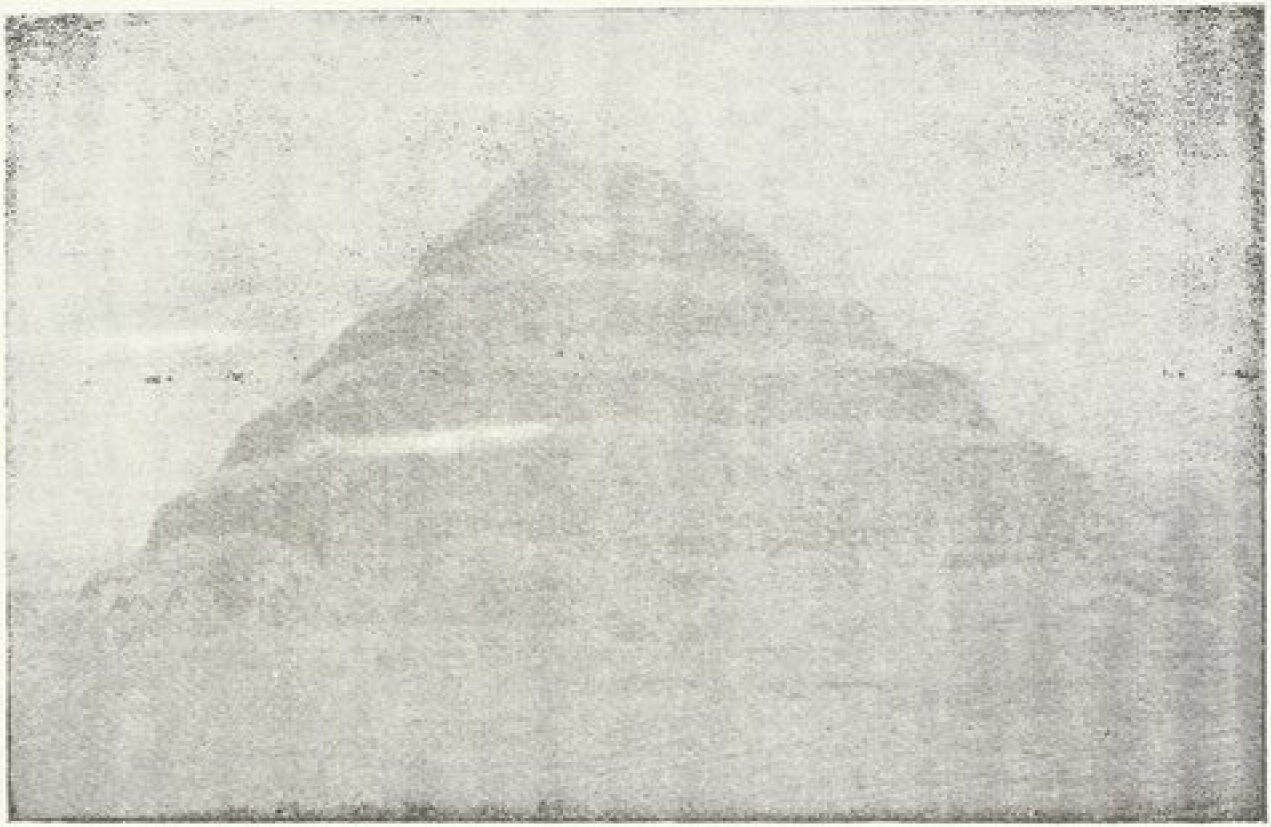
٥ ـ وحصل تطورمهم آخر فىفن بناء القبور قبلظهور الهرم الصحيح فى عهد السلالة الرابعة ، ذلك هو ظهور ما يعرف بالهرم المدرج (Step Pyramid) فىعهد السلالة الثالثة ، وهو عبارة عنهرم مؤلف منعدة طبقات او مصاطب قد يرتفع الى ست طبقات غير متساوية الارتفاع ويشبه الزقورة (الصرح المدرج) فى شكله الظاهرى ، وكانت هذه الطبقات المؤلفة للهرم المدرج تقوم فوق حفرة الدفن المكونة ايضا فى داخل الارض منعدة اجزاء • وكان اول من شيد مثل هذه الاهرام الملك «زوسر» من السلالة الثالثة وتنسب المآثر بناءه الى معمار شهير اسمه «امحوتب» كما المحنا الى ذلك من قبل ، وقد شيده فى موضع مرتفع من الارض فى صقارة يطل على «منفس» ويشغل مساحة (٥٩٧) ياردة من الشمال الى الجنوب و(٣٠٤) ياردات من الشرق الى الغرب ،ويتألف من ست طبقات وارتفاعه ٢٠٤ اقدام وقاعدته ٤١١ قدما (من الشرق الى الغرب) و٣٥٨ قدما (من الشمال الى الجنوب) والحق بالهرم ايضا معبد خارجي فى الجانب الجنوبى منه ، وكان يحيط به سور ارتفاعه نحو ٣٣ قدما ومحيطه نحو ميل واحد [١] • ويعد الهرم المدرج الذى استعمل فيه الحجر لاول مرة ، من اهم المآثر البنائية التى شادها المصريون القدماء ، حتى ان معمار هرم «زوسر» قد اله ، على ما بينا ، كما ان طريقة هذه العمارة لا سابقة لها فى تأريخ مصر •

---

(١) يرجح كثيرا ان «زوسر» قد دفن داخل هرمه المدرج ، ولكنه مع ذلك ابتنى له قبرا آخر قريبا من الهرم ، والجدير بالذكر بهذا الصدد ان غير واحد من ملوك المصريين القدماء قد جرى على بناء اكثر من قبر واحد لاخفاء محل الدفن الحقيقى •

٦ ـ قبل ان يشيد ملوك مصر الهرم الصحيح في عهد «خوفو» فى زمن السلالة الرابعة بنيت فى مصر مالا يقل عن اربعة قبور هرمية بالاضافة الى هرم «زوسر» المدرج الذى وصفناه ، اثنان منهما يقعان فى الموضع المعروف بزاوية العريان ، ومع ان شكلهما غير واضح تماما الا ان المرجح ان يكونا من نوع الهرم المدرج ، وبنى الثالث فى الموضع المعروف باسم «دهشور» ، وهذا ايضا غير واضح ، ولكن المرجح كثير انه نوع جديد من الاهرام دعى بعدئذ باسم الهرم المعوج (Bent Pyramid) او الهرم المزيف او المثلوم حيث يبدو معوجا مائلا الى الداخل بهيئة فجائية بدلا من ان يستمر فى الارتفاع الى ان يصل الى علوه المحسوب ويكون هرما صحيحا • وليس هناك من تفسير واضح لهذه الظاهرة ، الا انه ارتأى غير واحد من الباحثين ان هذا الاعوجاج انما نشأ من اختصار ارتفاعه بعد بدأة بنائه وبلوغه فوق منتصف ارتفاعه بقليل ، فاضطر بناؤه الى اختصار ارتفاعه باماله امالة فجائية الى الداخل بدلا من تدرجه فى الارتفاع ، ذلك التدرج الذى لو ساروا فيه الى النهاية لنتج عندهم هرم صحيح • ويعتبر الهرم المعوج فى اجزائه ومرافقه المختلفة اصل الاهرام الصحيحة من حيث احتوائها على الهرم نفسه القائم فى داخل سور وعلى المعبد المبنى لصق الهرم ومعبد الوادى والممر ، والدهاليز والاروقة والحجرات داخل الهرم •

وعلى ضوء هذا الاستعراض الموجز لانواع القبور التى ظهرت فى مصر منذ عصور ماقبل التأريخ يتضح لنا ان المراحل السابقة لبناء الاهرام يمكننا ايجازها على الوجه الاتى : ـ (١) قبور المصاطب بكلا نوعيها (قبور ملوك السلالات الثلاث الاولى) (٢) قبور الاهرام المدرجة (منذ السلالة الثالثة) (٣) قبور الاهرام المعوجة (السلالة الثالثة) (٤) قبور الاهرام



الهرم المدرج (Step Pyramid) فى صقارة

الصحيحة (اهرام السلالات الرابعة والخامسة والسادسة) • واتماما للفائدة نقول ان قبور الملوك مما بعد عصر الاهرام لم تعد اهراما على الرغم من ان بعض ملوكهم بنوا الاهرام قرب مقابرهم بصورة مصغرة رمزية ، كما في اهرام السلالة الثانية عشرة المشيدة في «لشت» • ونشأت عادة طريقة جديدة في بناء القبور الملكية في عهد السلالة الثامنة عشرة ، حيث اعتاد ملوكها على اقامـة اهرام رمزية قرب مقـامات (قبر خال Centaph) ولـكن القبر الحقيقي كانوا يقيمونه في موضع آخر كما فعل احموسـة مؤسس تلـك السلالة • وكف الملوك الآخرون من هذه السلالة عن اتباع هذه العادة تجنبا للعبث بقبورهم ، فشيدوا المعابد الخاصة بقبورهم في وادي النيل ، ثم كانوا ينتخبون المرتفعات الحجرية الغربية لحفر حفر قبورهم لكي يبقى موضع القبر الحقيقي سرا لايعرفه غير من بناه ، اي عدد قليل من الموظفيـن الرسميين وافراد الاسرة الملكية ، وبهذا الوجه تكونت مقبرة ملكية مهمة في الموضع الذي صار يعرف باسم «وادي الملوك» ، وهو واد يوازي ويحاذي النيل خلف «الدير البحري» • ويصف أنا المعمار الذي شيد اول نوع من هذه القبور سرية موضع القبر بقوله : «لقد اشرفت على حفر قبر جلالته (ويقصد قبر طوطمس الاول) وحدي فلم ير أحد ولم يسمع أحد» • ولكن لم يكن ليدور بخلد طوطمس الاول ولا بخلد معماره الذي اشرف على الحفر ان الوادي المنعزل الذي اختاره قد صار فيما بعد مقبرة عامة للفراعنة طوال اجيال كثيرة ، فانكشف سرها ووقعت فيها السرقات ، ولم يسلم من بيـن نحو ستين قبرا ملكيا في ذلك الوادي الا قبر «توت عنخ امون» الشهيـر الذي ادهش العالم الحديث بما احتواه من كنوز ، وقد كان سبب ذلك من صدفة حسنة ذلك ان رعمسيس السادس حفر قبره في المنحدر الجبلي فوق حفرة قبر «توت عنخ امون» مباشرة مما جعل مدخل قبره ينسـد بانقاض الحجارة المتساقطة من القبر الذي فوقه •

كيفية بنـاء الاهرام :ـ

٧ ـ اما عن كيفية بناء الاهرام فلا يوجد من بين سجلات مصـر

وآثارها الكتابية ما يكشف لنا عن الاساليب التى اتبعها قدماء المصريين فى بناء اهرامهم ، ولكن فحص هذه البنايات وتحريها فى الازمان الحديثة ومعرفتنا بالمستوى الذى بلغته حضارة وادى النيل فى الاساليب الفنية الصناعية مكنت الباحثين المحدثين من معرفة الاصول الاساسية فى ذلك ، واذا كان خارج موضوع مثل هذا الكتاب المدرسي الدخول فى التفاصيل الفنية المعمارية (١) فاننا نوجز بعض الامور العامة المفيدة : ـ

أ ـ ومن ذلك انتخاب الموضع الصالح للهرم ، كوجوب كونه غرب النهر (اى فى جهة مغرب الشمس) ، ولزوم كونه فوق النهر ولكن غير بعيد عن ضفته الغربية ، كما يلزم ان تكون طبقات الحجارة الارضية خالية من العيوب ، قوية لا تنهار تحت ثقل الهرم • ويلزم أيضا أن يكون غير بعيد عن موضع المدينة الملكية (العاصمة) ولعله قريبا من قصر الملك ايضا الذى يرجح انه كان يشيد خارج العاصمة ، فنجد مثلا ان مواضع الاهرام التى اختارها فراعنة المملكة القديمة (صقارة وابو صير) تقع قريبا من العاصمة منفس الى مدى الرؤية تقريبا ، ويقع موضع «دهشور» بنحو خمسة اميال الى الجنوب • وكان موضع الهرم قرب النهر امرا مهما بالنظر الى الحاجة الى نقل الكميات الكبيرة من الحجارة •

ب ـ وبعد ان يتم اختيار الموضع الصالح يبدأ المعمارون بتهيئته كازالة الطبقة الثخينة من الرمال والحصى لكى يكون الهرم قائما على اسس متينة من الارض الحجرية الصلدة ، ثم يسوون الارض ، وقد ابدع بناة الاهرام

---

(١) نحيل القارىء الذى يريد الوقوف على مثل هذه التفاصيل الى مرجع سهل استشهدنا به هو
(Edwards, **The Pyramids of Egypt**)

والمراجع الموسعة الاتية : ـ
(1) Flinders Petrie, **The Pyramids and Temples of Gizeh.**
(2) Vyse & Perring, **The Pyramids of Gizeh (3 vols.)**

فى عملية التسوية (levelling) بحيث ان ارضية الهرم الاكبر ليس فيها من خطأ بالنسبة الى المستوى الافقى الا بنحو ٥ر٠ «انج» [١]

جـ - ثم تأتى عملية تربيع القاعدة وجعلها مربعا صحيحا ذا زوايا قائمة مضبوطة ، وبحيث يكون كل ضلع من اضلاع القاعدة باتجاه جهة من الجهات الاربع الاصلية • وكانت النتيجة مضبوطة مدهشة ، فلم يكن الفرق بين اطول ضلع واقصر ضلع سوى ٨ انجات (وهذا خطأ ضئيل فى الواقع بالنسبة الى طول ضلع يبلغ ٩٠٠٠ انجا) ، وقد استنتج الباحثون المحدثون ان ضبط توجيه الاضلاع الى الجهات الاربع الاصلية قد تم بواسطة رصد بعض الاجرام السماوية [٢] بالنظر لان البوصلة المغناطيسية لم تكن معروفة فى ذلك العهد • وكانت النتيجة مضبوطة ايضا بخطأ قليل (خطأ مقداره ٦َ ٢ ٥َ فى الهرم الاكبر فى اتجاه الضلعين الشرقى والغربى) •

د - ونذكر قضية تهيئة حجارة البناء من ضفة النيل الشرقية من موضع صالح للحجارة الجيدة فى جبل المقطم • وكان هذا يتطلب استخدام حشود من العمال ، وقد ترك لنا جماعات العمال هنا اسماءهم مرسومة فى كتل الحجارة • كما ان جماعات اخرى من العمال كان يقتضى استخدامها فى استخراج حجر الغرانيت فى اسوان البعيدة لاستعمالها فى الاعمدة واسكفات الابواب والعوارض وللنواويس ايضا • واستخدم العمال فى قطع الحجارة الادوات النحاسية كالازاميل والمناشير والاوتاد ، وقد عرف المصريون فى عهد المملكة القديمة كيف يقوون النحاس بخلطه بالقصدير ، اى عرفوا صنع البرونز • ونذكر ايضا قضية نقل هذه الاحجار الى موضع بناء الهرم ، وهذه قضية لايستهان بها بالنظر لحجومها الكبيرة وكثرتها الهائلة

---

(١) حول انجاز هذه العملية بطريقة غمر ارضية الهرم بالمياه انظر المرجع المذكور فى الهامش رقم (٢) أى المرجع :-

(٢) Edwards, **Op. Cit.**, 210.

هـ - واذا ماتهيأت مواد البناء اللازمة وجلبت الى موضع بناء الهرم فتبقى ايضا مشكلة اساسية هي رفع مثل هذه الاحجار الضخمة (التى قلنا ان الواحدة منها تزن معدل الطنين ونصف الطن فى الهرم الاكبر) • وبالنظر لتعذر معرفة المصريين بالآلات التى تشتغل على مبدأ البكرات فالمحتمل ان طريقة الرفع التى ابتكرها بناة الاهرام تدور على مبدأ المنحدرات (ramp) المكونة من الآجر والتراب ،حيث كانوا يعلونها منحدرة الى الاعلى من مستوى الارض الى الارتفاع المطلوب ، وبعد اكمال البناء ترفع مثل هذه المنحدرات وبالامكان رفع الاحجار الكبيرة وايصالها الى اعلى ارتفاع من المنحدر بواسطة الزلاجة (sledge) ، كما استعملوا العتلات لرفع الحجرة ووضعها وضعا متقنا فى الموضع المراد بناؤها فيه [١] •

ولابد ان تنوه هنا بمبلغ الجهود الهائلة التى صرفت على بناء الاهرام بحيث انها تركت أثرا بالغا فى ذاكرة الاجيال المتأخرة فيروى لنا هيرودوتس[٢] مثلا ان بناء الهرم الاكبر فى الجيزة قد تطلب تشغيل مائة الف عامل ، واستمر العمل فيه مدة عشرين عاما ، وان كل مائة الف عامل كانوا يشتغلون ثلاثة اشهر فى العام لنقل الحجارة فقط ، وكان هناك جماعات اخرى من العمال الماهرين فى بناء الهرم ، ناهيك عن الفنانين الذين نحتوا التماثيل والمنحوتات الاخرى والصناع الماهرين الاخرين الذين صنعوا الاثاث الفاخرة وزينوا المعابد الملحقة بالهرم بالنقوش والرسوم ، كذلك نذكر مهارة الصاغة والجوهريين • فاذا علمنا ذلك ادركنا لماذا جعل غير واحد من المؤرخين بناء الاهرام سببا رئيسيا من أسباب تدهور المملكة القديمة وقيام دور من الفوضى السياسية والاجتماعية •

---

(١) انظر
A. Lucas, **Ancient Egyptian Materials and Industries** (1934).

(٢) (Herodotus, Bk. II, 124).

٨ ـ لقد سمى المصريون القدماء الهرم باسم «مير» (Mer) وهى كلمة لايعلم معناه بالضبط . اما الاسم المتداول فى اللغـــات الاوربيـــة اى (Pyramid) فمأخوذ من الكلمة اليونانية (Pyramis) وجمعها (Pyramides) ، وهى كلمة قيلت فى اصلها جملة تفاسير ترجع الى كلمات مصرية قديمة ، من بين ذلك مصطلح رياضى هندسى لفظه بالمصرية القديمة «بيرـايموس» (Per-em-us) التى اطلقها الرياضيون المصريون القدماء على الارتفاع العمودى للهرم [١] ، وقد يجوز ان لاتكون هناك علاقة اشتقاقية بين هذه الكلمة وبين الكلمة اليونانية «بيرميس» .

اما لماذا اختار فراعنة مصر شكل البناء المقام فوق قبورهم بهيئة هرمية صحيحة وعدلوا عن شكل الهرم المدرج ففى تفسير ذلك عدة آراء ، منها ان شكل الهرم مقدس ، اذ انه رمز الاله الشمس كما يقوم فى المحـــراب المقدس فى معبد هذا الاله فى «هليوبوليس» وان هذا الرمز الهرمى يمثل اشعة الشمس المنبعثة من مصدرها [٢] ، وتصف لنا «النصوص الهرمية»صعود الملك الى الســـماء بانه يحمـل على اشـــعة الشمس ، فيكـــون الهرم واسطة اتصال الفرعون بالسماء وارتقائه اليها ، كما ان بعض الباحثين ذهبوا فى معنى كلمة الهرم المصرية «مير» انها تعنى موضع «الصعود» او المعراج الى السماء [٣] ، وانفكرة العلو والاتصال بواسطةبناء مرتفع بالآ لهةفىالسماء فكرة مألوفة فى حضارات الشرق القديم ، ومن ذلك فكرة الصرح المدرج (الزقورة) فى حضارة وادى الرافدين ، ولعل بعض اسماء الزقورات مثل اسم زقورة «سبار» (بيت سلم الســـماء البهية) تفســـر لنا معنى اســـم

---

(١) كما ورد هذا المصطلح فى مؤلف مصرى فى الهندسة فيما يعرف باسم «بردية رند» (The Rhind Papyrus) انظر الكلام عـــلى العلوم فى حضارة وادى النيل فى هذا الكتاب

(٢) Breasted, **The Development of Religion and Thought in Egypt** (1912), P. 72.

(٣) Edwards, **Op. Cit.**, 237.

الهرم المقترح اى «موضع الصعود» (الى السماء) او واسطة الاتصال بين الارض والسماء . ومن الباحثين من رأى ان شكل الهرم يرمز الى شكل الموضع الذى تمت فيه الخليقة بحسب الاساطير المصرية ، حيث كان ذلك فوق «ربوة» او «تل» وجد فوقه الاله الخالق «اتوم»

الفصل الثانى والعشرون

عهد المملكة الوسطى

نهاية عصر الاهرام وفترة الاقطاع المظلمة

دام عصر الاهرام ، كما بينا سابقا ، زهاء خمسة قرون (٢٧٨٠-٢٢٧٠) كانت المملكة المصرية فى خلاله ، كما رأينا ، موحدة تدور ادارتها على سلطة الفراعنة المركزية ، يساعدهم موظفو البلاط . وكانت طبقة النبلاء والامراء كذلك تقوم عليها ادارة الدولة ، وهى متعلقة بالفرعون والعرش . وتعيش فى قصورها بجوار بلاط الملك ، واذا مات النبلاء دفنوا حول قبر ملكهم اى حول الهرم الكبير رمز تعلقهم بالملك فى الحياة الاخرى . وكان النبلاء والامراء يحكمون المملكة خارج العاصمة ويعين الملك منهم من يعتمد عليه . فكانت وظائف هؤلاء النبلاء فى بادىء الامر غير وراثية وسلطتهم مستمدة من سلطة الملك . ولكن النبلاء استقلوا فى اواخر عصر الاهرام فانتقلت المملكة من حكومة ذات سلطة مركزية بيد الملك ووزرائه وموظفيه الى حكومة لامركزية استقل فيها حكام المقاطعات من النبلاء باقاليمهم وقد ادى ضعف الفراعنة الى ترك هؤلاء النبلاء وشأنهم فعاد الحال فى مصر الى ماكان عليه قبل عصر الاهرام ، يوم كان القطر مجزءا الى دويلات ولعل ماأصاب موارد الدولة من الارهاق وتشييد الاهرام الكثيـــرة وتخصيص جهـــود المنتجين على صرف تلك الموارد على عبادة الملوك والامراء المتوفين قد شل من حيوية المصريين واضعفهم حتى انه لم تنته السلالة السادسة الا والبلاد فى فوضى ضاربة بحيث اهملت الزراعة فحدثت المجاعات . فحل عهدمظلم دام زهاء ١٧٠ عام ، وشمل حكم اربع سلالات ، من السلالة السابعة الى

العاشرة (٢٢٧٠ - ٢١٠٠ ق٠م) ، تجزأت فيه البلاد الى أقاليم ودويلات يحكم فيها امراء مستقلون اما الملوك الذين كانوا فى هذا العهد فكانوا بالخيال أشبه منهم بالحقيقة وليس لهم سوى الاسم ، ولم يقتصر امراء الاقطاع على الاستقلال عن الفراعنة ، بل صار كل منهم بمثابة فرعون فى مملكته الصغيرة، وقد ذكر «مينو» سلالتين حكمتا فى «منفس» كان ملوكها قصيرى الحكم وهما السلالة السابعة والثامنة وكانت سلطتهما محلية محصورة فى اقليم منفس • وتحسن الوضع قليلا فى عهد السلالة التاسعة والعاشرة ولكنهما لم تستطيعا من بسط سلطانهما على جميع القطر • وقد كان هؤلاء النبلاء فى حروب مستمرة فيما بينهم حيث كانت المدن تحترب لبسط سلطانها على سائر القطر ، وقد استطاعت احدى هذه المدن وهى مدينة «طيبة» ان تخضع فى آخر الامر معظم المدن وتبسط سلطانها على سائر القطر المصرى • فقام فيها سلسلة من الملوك حكمت جميع البلاد وضمتها فى مملكة واحدة • فبدأ عهد جديد فى تأريخ مصر القديم عرف بعهد المملكة الوسطى (٢١٠٠-١٧٨٨) وهى المملكة الموحدة القوية بعد المملكة القديمة فى عصر الاهرام • وازدهرت فى هذا العهد سلالتان اشتهرتا فى تأريخ مصر ، وهما السلالتان الحادية عشرة والثانية عشرة ويعاصر هذا العهد سلالة اور الثالثة والعهد البابلى القديم فى العراق • وتعاصر السلالة الثانية عشرة سلالة بابل الاولى بوجه خاص • وقد خلفت لنا السلالة الثانية عشرة آثارا جليلة ولاسيما فى المعابد الشهيرة المشيدة للاله «أمون» فى «الكرنك» وللاله «رع» فى مدينة الشمس (هليوبوليس) • وقد استأنفت مصر فى عهد المملكة الوسطى ،ولاسيما فى عهد السلالة الثانية عشرة ، علاقاتها مع العالم الخارجى حيث ارسل الفراعنة حملات وبعثات تجارية الى «ليبية» لجلب الاحجار والى طور سيناء لجلب بعض الاحجار الكريمة مثل الزبرجد والفيروز والى غابات سورية ولبنان لجلب الاخشاب والى الجنوب لجلب الذهب وقد وجدت فى جزيرة كريت (اقريطش) اثار من اوانى الفخار تضاهى ما يماثلها من الاثار المصرية

في عهد السلالة الثانية عشرة • وقد تمكن النفوذ السياسي والثقافي في سورية ولاسيما في البلاد الساحلية • وقد اعقب ذلك النفوذ السياسي والثقافي البابلي في عهد سلالة بابل الاولى • وقد التقى نفوذ الحضارتين المصرية والعراقية عند مدن سورية الساحلية مثل جبيل واوغاريت بدون ان يحدث بين الحضارتين تصادم مسلح • ومن الاشياء الطريفة التي اظهرها البحث الحديث ان ملك سوريا اسمه حمورابي ايضا كان يعاصر حمورابي البابلي وقد كان بين الاثنين حلف وصلات طيبة • وكانت مملكة حمورابي السوري تسمى «يمخد» وعاصمتها في حلب •

وفيما كان عالم الشرق الادنى ينعم بالاستقرار في زمن السلالة الثانية عشرة المصرية وسلالة حمورابي في بابل كانت براري «اوراسية» (اوربة ـ آسية) تموج بالكتل البشرية الهمجية وتدفع بهيئة موجات الى الشرق الادنى مركز العالم المتمدن آنذاك فاحدثت فيه الارتباك والفوضى ، واستوطنت فيه اقوام جديدة كالحثيين الذين حلوا في الاناضول وشمالي سورية والكشيين في العراق بعد سلالة حمورابي والهكسوس الذين قضوا على المملكة الوسطى ، وظهر بعد حين الى عالم السياسة الدولية الآشوريون ، وسنأخذ شيئا موجزا عن الحالة في مصر في عهد الهكسوس وما اعقبه من نشوء الامبراطورية المصرية •

شيء عن الحضارة المصرية في عهد المملكة الوسطى

رأينا فيما سبق كيف انتهى عهد النبلاء بقيام سلالة طيبة ، وهي السلالة الحادية عشرة التي بدأت عهد المملكة الوسطى • وبعد حروب كثيرة مع دويلات النبلاء قبلت جميع مصر زعامة طيبة •

وعلى الرغم من جهلنا بامور كثيرة عن السلالة الحادية عشرة ولاسيما امر ملوكها وتسلسلهم الزمني فقد جاءنا من احد ملوك هذه السلالة معبد خصص لعبادته بعد موته في «الدير البحري» في المقبرة الغربية قبال طيبة

وقد افادتنا المنحوتات التى وجدت فى هذا المعبد فوائد جليلة عن الفن المصرى فى زمن المملكة الوسطى ، ونشاهد فيها تقليدا موفقا لفن عصر الاهرام ولاسيما من زمن السلالتين الخامسة والسادسة • ولكن كان الفن المصرى فى بداية السلالة الحادية عشرة يظهر عليه طابع السذاجة ، بيد أنه اخذ فى التحسن بمرور الزمن • ومن الطريف ذكره بهذا الصدد اننا نعرف بعض الفنانين من هذا العهد فقد اخبرنا احدهم المسمى «مرتسين» فى مسلته التى خلفها من بعد موته شيئاً عن حياته اذ يقول : « لقد كنت فناناً ماهراً فى فنى • اننى اعرف فنى واعرف كيف امثل الصور والاوضاع التى تمثل الحركة من ذهاب واياب ، بحيث يكون كل عضو وجارحة فى موضعه الصحيح • واعرف كيف امثل صورة انسان كانه يمشى وصورة عرية المرأة •• الخ»

وازدهرت الحياة فى عهد السلالة الثانية عشرة • وقد عرف ملوك هذه السلالة باحد اسمين «امينمحيت» و«سنوسرت» وقد قدس ملوك هذه السلالة الاله «امون» اله طيبة وكذلك الاله «سيبك» وهو الاله الذى يمثله التمساح الخاص بالفيوم وتمتاز السلالة الثانية عشرة عن السلالة السابقة بكثرة معلوماتنا التأريخية عن عهود ملوكها واسمائهم واعمالهم ، وقدحكمت زهاء القرنين من الزمان • ومما يقال عن عهد هذه السلالة انه كان عهد سلم ورخاء واتحاد فى القطر المصرى بالنسبة الى العصور التى سبقته • وقد عمل ملوكها على تحديد حدود الولايات وتحديد سلطات النبلاء • وقد وضع بعض ملوكها الاقوياء أسس الادارة والحكومة القوية التى سنشاهدها فى أيام الامبراطورية • ولم يسر ملوك السلالة الثانية على خطأ ملوك السلالة الحادية عشرة بجعل العاصمة طيبة حيث يصعب ادارة الدولة فيها بل نقلوا العاصمة الى الشمال ولا يعلم موضعها بالضبط •

وبوسعنا أن نفهم مقدار الثروة والقوة التى تمتع بها ملوك السلالـــة

الثانية عشرة من الابنية والعمارات التي خلفها هؤلاء الملوك ولاسيما في المعابد المخصصة للاله «أمين» او «امون» في الكرنك وللاله «رع» في هليوبوليس ومعابد آلهة اخرى مثل معبد الاله «حيرشوف» في هيراكليوبوليس • وشيد الملك «سنوسرت» الاول أولى المسلات العظيمة في مصر ازاء معبد «هليوبوليس» وشيد «امينمحيت» الثالث معبدا فخما كثير المرافق ، وهذا هو المعبد الذي دهش له هيردوتس في «هواره» ووصفه «ديودور» و«سترابو» و«بليني» • وقد شيده الملك ازاء هرمه في «هواره» ليكون معبداً لعبادته عند دفنه في الهرم •

ومما يقال عن الفن في عهد السلالة الثانية عشرة انه وصل الذروة ولاسيما في العهد الاخير من ايامها ، وامتاز بالواقعية ومحاكاة الطبيعة ، ولم يصل الفن المصري الى مثل هذا التطور الا في زمن الملك المصري أخناتون من عهد الامبراطورية • وبلغ الفنانون مهارة ودقة وذوقا راقيا ، وكانوا في في التناسب يشبهون فناني الاغريق •

وامتاز عهد المملكة الوسطى عن المملكة القديمة بظهور بعض الآلهة الجديدة منهم «أمين» (أمون) ، وكان هذا هو الاله الحامي الخاص بامراء طيبة • وقد طوبق مع الاله «رع» في بداية عهد السلالة الثانية عشرة ، وهو الاله القديم الخاص بملوك «منفس» في عهد المملكة القديمة • وكذلك عبد الاله المسمى «سيك» الذي يمثل بالتمساح ، وهو الاله الخاص بالفيوم وشاعت عبادة الاله «اوسيريس» وعظم شأنه وصار اله عالم الاموات وسيد هذا العالم وسوف تتطرق مرة ثانية الى عبادة الاله «اوسيريس» وعلاقته بالاله الشمس «رع» •

وسنشير الى بعض الامور المهمة في تطور الحضارة المصرية في هذا العهد ولا سيما في حقل الآداب والفن والاتجاهات الاجتماعية ، كنشوء

الاتجاه الجديد فى العدالة الاجتماعية بالنسبة الى الناس الاعتياديين كما ينعكس فى ادب هذا العهد مما سنذكره فى مبحث الحضارة [١]

الهكســـوس :

اصل الهكسوس [٢] ومهدهم من القضايا التى لاتزال موضع خلاف بين المؤرخين ولعل أسلم الافتراضات انهم كانوا خليطا «فاضوا من بودقة انصهار الشعوب» من شرقى البحر المتوسط على الحافة وانجرفوا بعدئذ الى مصر وانهم عندما جاؤا الى مصر كان كثير منهم يتكلم احدى اللغات السامية الغربية • وقد كان الهكسوس بوجه عام نتيجة عن هجرات الاقوام العامة فى الالف الثانى ق•م من برارى آسية الوسطى واوربة ومن ذلك مجىء موجات الى جهات الشرق الادنى ، وكان من جملة هؤلاء الاقوام الهكسوس الذين غزوا سورية وفلسطين وكونوا هناك دولة وقتية وقد اختلطوا هنا بالساميين والتحق بجمعهم كثير من الساميين عندما غزوا مصر فكان العنصر المركزى فيهم من الكنعانيين والاموريين وهذا ماجعل المصريين القدماء يسمونهـــم بالهكسوس (ويعنى ذلك الامراء البدو أو امراء الصحراء) وسماهم الكاهن المصرى «منيتو» ، الذى عاش وكتب تأريخه المشهور فى حدود ٢٨٠ ق•م• بالملوك الرعاة وبالفينيقيين وبالعرب ايضا • وسبب ذلك يرجع كما قلنا الى مدة بقائهم فى ديار الشام والتحاق جماعات كثيرة من الساميين بهم واختلاطهم انفسهم بالساميين فى اثناء بقائهم هناك واستعدادهم لغزو مصر • وقد اتخذوا فى الواقع سورية وفلسطين قاعدة غزوا منها مصر وقد شملت ثقافة الهكسوس فى بلاد الشام القرنين الثامن عشر والسابع عشر ق•م وتركوا فيها آثار حصونهم الخاصة كما وجدت فى الموضع القديم المسمى «قطنا» الذى يرجح انه كان عاصمتهم فى بلاد الشام ، وكذلك فى «قاديشا» و«اريحا» فى فلسطين •وتميز

---

(١) انظـــر Ancient Near Eastern Texts, 7, 407.

(٢) اصل اسمهم من المصطلح المصرى «هيكوشوسويت» (heku shoswet) الذى يعنى حكام البلاد الاجنبية

حكمهم في سورية بالنظام الاقطاعي العسكري • وقد كانت المملكة المصرية الوسطى آنذاك تسير الى التدهور بسبب النزاع الداخلي بين النبلاء والامراء ولاسيما النزاع الحاد بين الشمال والجنوب ، اى بين مصر العليا ومصر السفلى ، فانتهز الهكسوس فرصة الضعف هذه وغزوا مصر السفلى ولاسيما الدلتا وثبتوا سلطانهم فيها حيث ابتنوا عاصمة جديدة هناك • واستمروا يحكمون مصر زهاء القرنين اى من عام ١٧٨٨ حتى ١٥٨٠ ق٠م٠ وكان الهكسوس دون البلاد التى فتحوها حضارة فاقتبسوا الحضارة المصرية واصبح ملوكهم فراعنة مثل ملوك مصر • وقد ادخلوا الى مصر بعض الاشياء الجديدة المهمة مثل استعمال الخيل للركوب والعربات الحربية التى تجرها الخيول مما ساعدهم على الفتح والقضاء على مقاومة المصريين• ويشير استعمالهم الخيل للركوب الى علاقتهم بالاقوام الهندية الاوربية التى جاءت منها موجات الى أجزاء الشرق الادنى فى حدود هذا العهد وكان للخيل عند الهكسوس مقام رفيع • وقد ادخل الهكسوس الى مصر ايضا السيف «المقوس» المصنوع من الحديد والقوس المركب ، وهو القوس الذى ظهر لاول مرة فى العراق فى عهد السلالة الاكدية ، وقد أدخلت تحسينات مهمة فى فن التعدين • ومما يقال فى عهد الهكسوس فى مصر ان شرهم فيها مبالغ فيه • فبالاضافة الى الاشياء الجديدة التى أدخلوها الى مصر ترجع الى عهدهم طائفة مهمة من التآليف العلمية التى كانت نسخا عن أصول أقدم ، ولكنها دونت فى هذا العهد ، كما ان جزءا مهما من معرفتنا بالرياضيات المصرية مستمد من نصوص عهد الهكسوس فى مصر • والمرجح كثيرا ان سكنى بعض الاسرائيليين فى مصر وقصة «يوسف» كما جاءت فى التوراة ترجع الى عهد الهكسوس ايضا •

لم تعم سلطة الهكسوس مصر جميعها وانما انحصرت بالدرجة الاولى فى الدلتا فى موضع يسمى «افاريس» التى سميت ايضا باسم «تنيس»

وموضعها الآن في «صان الحجر» • وكانت مصر العليا على شيء من الاستقلال فقد حكم في العاصمة المقدسة «طيبة» امراء مصريون مستقلون كانوا يشعرون بوطأة الحكم الاجنبي ويعدون العدة للقضاء على الاجانب وتحرير البلاد من ملوك الهكسوس • فثار عليهم نبلاء من أواخر السلالة السابعة عشرة واستمرت الحرب سجالا بين الطرفين زهاء نصف قرن حتى تم طردهم من البلاد نهائيا وتحرير مصر منهم على يد القائد المشهور «احموسة» الذي كون سلالة جديدة هي السلالة الثامنة عشرة • فابتدأ عهد جديد في تأريخ مصر هو عهد الامبراطورية •

عهد الامبراطورية

لقد خلقت حرب التحرير التي شنها المصريون على الهكسوس روحا قوية في مصر في الوطنية والانتاج • فلم يكتف ملوك السلالة الثامنة عشرة بطرد الاجانب من مصر بل لاحقوا فلولهم الى سورية وحاربوهم هناك في مقرهم القديم الذي غزوا منه مصر • فاستطاع احد ملوك السلالة الثامنة عشرة وهو «طوطمس» الثالث (١٥٠٦-١٤٦١ ق•م) ان يقضي على قوة الهكسوس قضاء نهائيا في بلاد الشام في معركة كبرى وقعت في «مجدو» (١٤٧٨ق•م•) فثبت النفوذ المصري هناك وتكونت الامبراطورية المصرية في سورية ، ومن مشاهير فراعنة هذه السلالة «امنحوتب» الثالث الذي حكم حكما طويلا مزدهرا شمل امبراطورية واسعة •

يعد هذا العهد الجديد من العصور المهمة في تأريخ مصر من حيث القوة والبأس والثروة ، وقد دامت الامبراطورية زهاء خمسة قرون (١٥٨٠-١٠٨٥ ق•م) من قيام الملك «احموسة» الاول وتكوينه السلالة الثامنة عشرة الى مجيء الفرعون «حاريحور» او «هاريهور» • وقد شملت الامبراطورية عهد ثلاث سلالات وهي الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرون • ولكن دب الانحلال والتفسخ في الامبراطورية منذ نهاية السلالة التاسعة عشرة

التى اسسها «رعمسيس» الاول ، وتضى ابنه وخلفه «سيتى» الاول معظم حكمه فى الحروب فى آسية الغربية ، وخلفه رعمسيس الثانى المشهور الذى دخل مع الحثيين فى حرب طويلة وانعقدت فى النهاية معاهدة السلم بين الجانبين • وخلف لنا آثارا مهمة عنه كالتماثيل والعمارات • وانحطت مصر فى أواخر السلالة التاسعة عشرة ، ولكن رعمسيس الثالث مؤسس السلالة العشرين أعاد الى مصر قوتها نوعا ما واشتهر بانتصار حربى أحرزه على مجموعات كبيرة خليطة من الاقوام الاسيوية ومن فلول الايجيين حيث هاجموا سواحل مصر من البحر ، ولكن سرعان ماانهارت سلطة مصر بعد موت هذا العاهل ، وانتهى العهد الجديد بعود الانقسام فى المملكة المصرية الى مملكة فى الجنوب عاصمتها «طيبة» واخرى فى الدلتا عاصمتها «تنيس» وتقلص النفوذ المصرى فى نهاية السلالة التاسعة عشرة فى البلاد الشامية وزال نهائيا وحل محله سلطان الاشوريين الذين تفردوا بالسلطة على جميع الشرق الادنى • ولم تسلم مصر من هذا التدهور فانكمشت فى داخل بلادها واستمر الضعف فيها حتى آل الامر الى ان غزاها الملوك الاشوريون فى القرن السابع ق•م• وحل فى البلاد بعض الانتعاش بعد زوال الاشوريين ، ولكن مصر القديمة لم تستطع أن ترجع سالف عزها • وغزاها الفرس فى عهد «قمبيز» خليفة «كورش» وسنوجز العهود المتأخرة فى تأريخ مصر فيما بعد •

العلاقات الدولية بين ممالك الشرق الادنى

فى عهد الامبراطورية المصرية (١٥٨٠ – ١٠٨٥ ق• م•)

لقد سبق أن ذكرنا (الجزء الاول) ان الكشيين اندمجوا بالبابليين فى العراق وطغت عليهم الحضارة البابلية واسسوا سلالة دامت نيفا وخمسة قرون • اما فى مصر فبعد ان حكم الهكسوس فى الدلتا زهاء القرنين ثار عليهم آخر نبلاء السلالة السابعة عشرة وتم طردهم وتحرير البلاد منهم بقيام السلالة الثامنة عشرة كما بينا من قبل • ولكن لم يكتف ملوك هذه السلالة بطردهم بل لا حقوهم الى

فلسطين وسورية التى منها غزا الهكسوس البلاد المصرية • فنتج ذلك تكوين الامبراطورية المصرية • وبدأ طور جديد فى تأريخ الشرق الادنى انمحت فيه الحواجز فى العالم القديم واتصلت الشعوب بعضها ببعض ودخلت فى علاقات مباشرة وتكونت بين الدول صلات دبلوماسية هى الاولى من نوعها فى تأريخ العلاقات الدولية ودخلت الحضارة فى طور عالمى فى أكثر مظاهرها وأوجهها • وتتميز العلاقات فى هذا العهد الى سعتها وشمولها بكثرة النصوص والوثائق التأريخية مما جاءنا من السجلات الرسمية الملوكية ولاسيما من مصر ومن عاصمة الحثيين «حاتوشاش» • وقد اشتهرت الرسائل الرسمية التى عثر عليها فى «تل العمرانة» عاصمة الفرعون «اخناتون» شهرة عظيمة بحيث أطلق اسم «العمرانة» على قسم من هذا العهد التأريخى •

ان اتساع العلاقات بين دول الشرق الادنى فى هذا العهد (عهد الامبراطورية المصرية) يجعل من المتعذر تفصيل القول فى أوجهها المختلفة ولاسيما الاوجه السياسية والثقافية ، لذلك نجتزىء هنا بذكر ابرز تلك الاوجه •

فاولا اتصفت العلاقات السياسية والحربية بتوازن القوى الدولية فى النزاع بين المصريين والحثيين والميتانيين والآشوريين للمسيطرة على الشرق الادنى ثم انحصر النزاع بين الآشوريين والبابليين والآراميين بعد ضعف المملكة المصرية وزوال الحثيين والميتانيين من ميدان النزاع • ونتج من تلك العلاقات المتشابكة المعاهدات والمحالفات والعلاقات « الدبلوماسية » الواسعة مما لم نعرف له مثيلا فى تأريخ الشرق القديم فيما قبل هذا العهد • وثانيا نتجت هذه الصلات المباشرة الواسعة اتصال حضارات الشرق القديم بعضها ببعض اتصالا قويا جديدا فاثرت بعضها فى بعض تأثيرا متبادلا جعلها تدخل فى طور اصح مايتميز به الوحدة فى الحضارة : فى الفن وفى العادات والمعتقدات وحتى فى اللباس والازياء وقد استعمل الناس لغة واحدة هى اللغة البابلية بالخط المسمارى فى معاملاتهم التجارية والملوك

في تثبيت علاقاتهم السياسية وفي تدوين مراسلاتهم . وهذا يشير بلا اقل ريب الى مبلغ تغلغل حضارة العراق القديم في جميع الشرق الادنى لان استعمال اللغة البابلية لغة الدبلوماسية العالمية لايمكن تفسيره بنفوذ البابليين السياسي او الحربي في هذا العهد الذي حكم فيه العراق الكشيون وهم دون ملوك مصر وملوك الحثيين في القوة العسكرية .

وبلغ أمر الاتصال بين الشعوب والدول من الشدة بحيث ذاعت المعتقدات الدينية فكانت تماثيل الآلهة يتبادل ارسالها ملوك ذلك الزمان . فمن الحوادث الطريفة في هذا الصدد أن الملك المصري «أمنوفس» أو «أمنحوتب» الثالث مرض مرة فأرسل اليه الملك الميتاني «تشراتا» تمثال الالهة الاشورية «عشتار» من نينوى لتشفيه من مرضه وكان يصحب هذا التمثال على مايرجح أطباء آشوريون . وأرسل الملك البابلي مرة طبيبا وراقيا (عرافا) الى الملك الحثي . وكان اطباء مصر الذين اشتهروا بحذقهم يزورون «بلاطات» الملوك في الشرق الادنى .

ولنأخذ نموذجا مختصرا من المخاطبات الدبلوماسية بين ملوك ذلك الزمان ، من احدى رسائل «العمرانة» وهي الرسالة التي كتبها الملك البابلي الكشي «بورنابورياش» الى فرعون مصر «امنوفس» الرابع (اى اخناتون) وهذه ترجمتها : ـ

«الى (نفخوريريا) [1] ملك مصر

«هكذا يقول بورنابورياش ، ملك بابل ، اخوك .

«إنني بخير ، فعسى أن تكون أنت وبيتك ، وزوجاتك وأولادك ونبلاؤك وخيلك وعرباتك بأحسن حال .

---

(١) وهو اسم امنوفس الرابع الذي ينطق باللسان المصري القديم «نفر ـ خفيرو ـ رع»

«منذ أن عقد أبى وأبوك الود فيما بينهما كانا يتهاديان أنفس الهدايا ولم يمنع أحدهما ما كان يطلبه الآخر مهما عز وغلا .

«والآن لقد أهدى الى أخى «منين»[١] من الذهب . فوددت لو أنك أرسلت الى ذهبا بقدر ماكان يهديه أبوك . واذا كان لابد من تقليل المقدار فارسل الى نصف ماكان يرسله أبوك . فلم أرسلت «منين» من الذهب فقط ؟ انني الآن باذل جهدا كبيرا فى بناء المعبد . وقد تعهدت العمل بقوة وسوف انجزه بالدقة فارسل الى قدرا كبيرا من الذهب . واذا رغبت فى شيء فى بلادى مهما كان فابعث رسلك يأتوك به .

«فى عهد أبى «كوريكالزو» أرسل اليه الكنعانيون يقولون «لنذهب الى حدود مصر ولنغزها جميعنا وسوف نعقد معك حلفا» . أما أبى فقد اجاب على هذه الرسالة قائلا : «كفوا عما تنشدونه من الحلف . اذا كنتم أعداء ملك مصر ، أخى ، فليكن الحلف فيما بينكم . ولكن لتحذروا جانبى . اذ لما كان ملك مصر حليفى فمن ذا الذى يصدنى عن أن أغزوكم ؟ » .

«وهكذا فلاجل ابيك لم يسمع أبى مقالتهم . أما مايخص بعض الاشوريين من اتباعى (كذا) ألم اخبرك برسالة فى شأنهم ؟ فلم دخلوا بلادك ؟ وبما انك تحبنى فيقيننى انك لن تدخل معهم فى شيء وانك ستعمل على احباط جهودهم وسعايتهم

و(بالختام) لقد ارسلت اليك هدية ، ثلاثة «منات» من اللازورد وعشرة أفراس لخمس عربات من الخشب» .

ان هذه الرسالة جزء من قصة طويلة فى تأريخ العلاقات السياسية بين اقطار الشرق الادنى . ولعل احسن سبيل لفهم فحواها تقسيمها الى فصلين يؤلفان حقبتين فى تأريخ تلك العلاقات . اما الفصل الاول فيبدأ بتكوين

---

(١) يزن «المناء البابلى نحو نصف كيلو غرام من اوزان الزمن الحاضر .

الامبراطورية المصرية منذ السلالة الثامنة عشرة (فى القرن السادس عشر ق.م) . وينتهى بزوال تلك الامبراطورية بعد عهد «رعمسيس» الثالث (وهو آخر عاهل قوى فى السلالة العشرين) فى نهاية القرن الحادى عشر ق.م . ويبدأ الفصل الثانى بزوال الامبراطورية المصرية فى بداية السلالة الواحدة والعشرين (فى حدود ١٠٨٥ق.م) . ويتميز هذا العهد بضعف المملكة المصرية وتعاظم الاشوريين وسيطرتهم على الشرق منذ زمن «شيلمنصر» الاول (القرن الثالث عشر ق . م) و (تجلا ثبليزر) الاول (فى حدود ١١٥٠ ق . م) . وقد انتهى بالنزاع المسلح بين الآشوريين والمصريين فى القرن السابع ق.م. ولعل الفصل الاول امتع قصة فى التأريخ البشرى واطرف حقبة فى العلاقات الدولية فى العالم المتمدن آنذاك.

فعندما تكونت الامبراطورية المصرية فى البلاد الشامية انحصر النزاع الحربى فى بادىء الامر بين فراعنة السلالة الثامنة عشرة من جهة وبين الامراء الشاميين وملوك الحثيين من الجهة الثانية . ولم تكن دول الشرق الادنى الاخرى فى هذا الطور على قدر كبير من القوة السياسية فلم تدخل فى المراحل الاولى من هذا النزاع الدولى . فالملوك الكشيون فى العراق كانوا ضعفاء بالنسبة الى المصريين والى الحثيين ولعل ذلك جعلهم يلتزمون الحياد من جهة ويركنون الى صداقة الملوك الفراعنة على الدوام ، وكذلك كانوا مع الملوك الحثيين وكان الاشوريون فى بدء قوتهم السياسية يتربصون الفرص ويعدون العدة للدخول فى النزاع المسلح . وحانت للحثيين أحوال مناسبة فى نهاية حكم «امنوفس» الثالث فى حدود (١٣٩٠ أو ١٣٨٠ ق.م) حيث خلفه على العرش المصرى (امنوفس) الرابع (اخناتون) الذى شغلته ثورته الدينية عن شؤون الملك فى الداخل وفى الخارج . ولكن اعتلى العرش الحثى ملك هو (شوبيلوليوما) كان على جانب كبير من المقدرة والدهاء . وكان فى الشرق الادنى فى هذا العهد دولة صغيرة تدعى دولة (ميتانى) عرفها المصريون باسم (نهارين) فى شمال العراق بجوار الآشوريين. وكانت هذه الدولة بمثابة «دولة حاجزة» ومفتاح النزاع والتنافس بين مصر

والحثيين على بلاد الشام • وانضم الى الدول المتنافسة الاشوريون الذين كانوا يخشون ضغط الدولة الميتانية وتوسعها على حسابهم • وقد رأت مصر تجاه خطر الحثيين والآشوريين ان تكسب صداقة الدولة الميتانية فكانت بين الطرفين مصاهرات سياسية • ولكن ذلك لم يخلص الميتانيين من تدخل الحثيين والآشوريين • ففرض الحثيون أولا حمايتهم على «ميتاني» بعد انقسام في البيت المالك فيها ثم قضى عليها الاشوريون عندما صفا لهم الجو السياسي بعد الحثيين •

بدأ الملك الحثي «شوبيلوليوما» نزاعه مع مصر على سيادة البلاد السورية باثارة المعارضين من امراء سورية للنفوذ المصري • ثم بدأت من بعد ذلك بين الطرفين حروب ومعارك دامت زهاء القرن الواحد (١٣٨٠-١٢٧٨ق٠م) آخرها المعركة المشهورة التي وقعت في «قاديش» في سورية بين (رعمسيس) الثاني والحثيين مع أحلافهم من الامراء السوريين ، وعلى الرغم من ان المعركة لم تكن حاسمة فان الاعياء الذي اصاب الجانبين وخوف الحثيين من خطر التوسع الاشوري الذي داهمهم في زمن (شيلمنصر) الاول، كل ذلك عمل على وقف النزاع المسلح وعقد معاهدة[١] بين رعمسيس

(١) انظر حول وثيقة المعاهدة في

W. M. **Mueller, Der Bundnisvertrag Ramses II und des Chetiterkoenigs.**

وفي ترجمة «مصر في العصور القديمة لادولف ارمان وهرمان رانكه» ٦١٦ فما بعد وكذلك احدث ترجمة لها في الاصل البابلي والنسخة المصرية في **Ancient Near Eastern Texts, 199 ff.**

وكانت هذه المعاهدة قد كتبت بالاصل بالبابلية **والخط المسماري** في لوحة من الفضة ولها نسخة مترجمة الى المصرية حيث نقشت في جدران معبد امون في الكرنك ووجدت النسخة الحثية في بوغاز كوي • وتبدأ المعاهدة بالقاب الملكين المتعاهدين ثم المقدمة وخلاصة العلاقات بين البلدين الى زمن ابرام المعاهدة ، ثم احلال السلم بين المملكتين وعدم الاعتداء من الجانبين وذكر فيها الدفاع والمساعدة التي يجب ان يسديها أحد الطرفين الى الآخر ، وفيها مواد في تبادل تسليم المجرمين والثائرين من أحد **الجانبين الى الآخر •**

الثاني والملك الحثي (حاتوسيل) (في حدود ١٢٧٨ق٠م) تنطوي على احلال الصداقة وعدم الاعتداء بين المصريين والحثيين وقد تزوج على اثرها الفرعون المصري باميرة حثية وكان من نتائج وقف النزاع بين مصر والحثيين عود العلاقات السلمية في الشرق الادنى فكانت فترة هدوء وسلام ، واعترفت المعاهدة بالسيادة الحثية على سورية وشمالي فينيقية والسيادة المصرية على فلسطين وفينيقية الجنوبية

ولكن لم يدم هذا السلم امدا طويلا اذ حل اضطراب جديد في الشرق الادنى مبعثه من الخارج بنتيجة هجرات الاقوام (الهندية ـ الاوربية) التي ازاحت موجات اخرى من الاقوام ودفعت بهم الى اقطار الشرق الادنى ٠ فقد ازاحت القبائل الاغريقية الايجيين من مواطنهم في جزر بحر ايجة واندفعت فلول من هؤلاء الايجيين الى الشرق الادنى الى سورية وفلسطين فغزت بعض المدن الفينيقية في الساحل مثل جبيل وأوغاريت (رأس شمرة الآن) وهدد قسم منهم الحدود المصرية مما اضطر رعمسيس الثالث (أول ملوك السلالة العشرين كما نوهنا بذلك من قبل) الى الاشتباك معهم بمعارك برية وبحرية لدرء الخطر عن أبواب مصر ٠ ومن النتائج الخطيرة لتلك الهجرات تحطيم المملكة الحثية وازالتها من الوجود (في حدود ١٢٠٠) وتمكن قسم من فلول الايجيين ، وهم الفلسطينيون المذكورون في العهد القديم ، من تأسيس دويلات في بعض مدن الشام الساحلية كغزة وعسقلون وغيرهما واشتق اسم «فلسطين» من اسم هذه القبيلة ، ومما زاد في اضطراب الاحوال قبل هذا الزمن مجيء هجرات أخرى من الساميين وهم الآراميون والعبرانيون ٠ وقد بدأ الآراميون يثبتون اقدامهم في ربوع الشرق الادنى ودخلوا في نزاع رهيب عنيف مع الآشوريين شغل طوال القرنين الحادي عشر والعاشر وقد كاد يقضي على كيان الآشوريين كما ذكرنا ذلك من قبل ٠



طوطمس الثالث (١٤٩٠ ـ ١٤٣٦ ق ٠ م) الذى كان أعظم ملوك الامبراطورية (السلالة الثامنة عشرة)

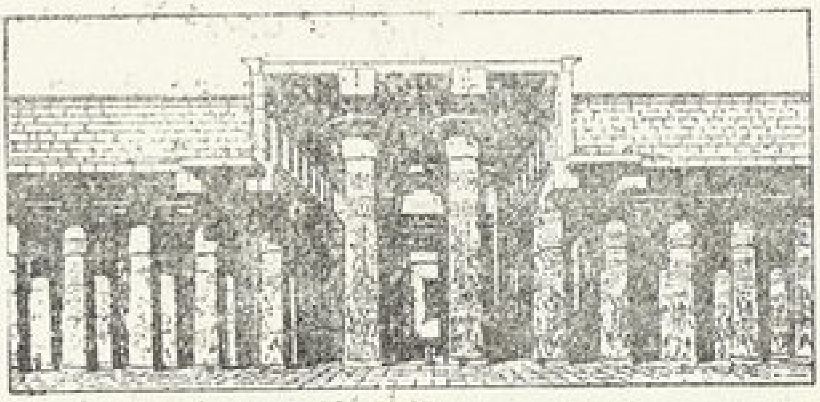
والى هنا نكون قد بدأنا فى الفصل الثانى من قصة العلاقات بين أقطار الشرق الادنى ، وقد سبق ان ذكرنا ان هـذا الفصل يبدأ بـزوال الامبراطورية المصرية فى عهد السلالة الواحدة والعشرين (فى حـدود ١٠٨٥ق٠م) وقد صفا الجو للآشوريين الذين بدأوا بتعاظمهم الحربى وفرض سيطرتهم على الشرق الادنى منذ القرن الثالث عشر ق٠م ٠ ولم يتصد لتحديهم من شعوب العالم القديم بعد ضعف المملكة المصرية وزوال المملكة الحثية الا الآراميون الذين ألفوا دويلات ومدنا مزدهرة فى شمال العراق وفى سورية وهددوا كيان الآشوريين فكانت بين الطرفين حروب طاحنة دامت طوال القرن الحادى عشر والعاشر ولم يستطع الآشوريون رغم جهازهم الحربى الرهيب من كسر مقاومة الدويلات السورية الا فى النصف الثانى من القرن التاسع ق ٠ م ٠

أما المملكة المصرية فانها مع الضعف الذى حل فيها وانكماشها فى داخل بلادها لم تنفض يديها من مشاكل الشرق الادنى بالمرة ٠ فقد كانت تلتزم جانب الدويلات السورية الآرامية فى النزاع بينها وبين الآشوريين ٠ فالى ارسالها الجيوش فى بعض الاحايين لمساعدة هذه الدويلات فى مقاومتها الآشوريين كانت كثيرا ماتحرضها على الثورة للتخلص من الحكم الآشورى

القاسى مما حدا بالآشوريين فى آخر عهدهم الى الركون الى مغامرة حربية، هى غزو مصر فى زمن الملكين الآشوريين «اسر حدون» و«آشور بانيبال» فى القرن السابع ق.م فى زمن السلالة المصرية الخامسة والعشرين . وبالرغم من أن هذا الغزو لم يحقق غاية الآشوريين من ادماج مصر الى الامبراطورية الآشورية زمنا طويلا فان مجرى الحوادث يشير الى تكوين طور جديد فى العلاقات المصرية الاشورية يتميز بالصداقة التى تكونت فى أواخر أيام الآشوريين . اذ يحدثنا التأريخ ان بعض فراعنة مصر (من السلالة السادسة والعشرين) قد ساعد الآشوريين فى حروبهم مع الكلدانيين والماذيين ومع هذا فان هذه المساعدة لم تخلص نينوى من المصير المحزن عندما ضربها الماذيون والكلدانيون فى العام ٦١٢ ق.م .

حضارة مصر فى عهد الامبراطورية : ـ

استمرت العاصمة المقدسة (طيبة) فى زعامتها على القطر المصرى بعد نشوء الامبراطورية فيها ، حيث صارت عاصمة الامبراطورية . ونستطيع من المآثر الفخمة التى خلفها لنا فراعنة هذا العهد فى طيبة أن تستخرج معلومات ثمينة عن حضارة مصر القديمة فى عهد الامبراطورية . ومن مآثر هذا العهد المعابد الفخمة فى (الكرنك) وكذلك المقابر الواسعة المبنية فى الجانبين الغربى والشرقى فى المدينة . فلو ساعدك الحظ بزيارة لمصر فلا تنس أن تأخذ القطار الصاعد صوب الجنوب ، وبعد ان يسير بك مسافة تزيد على ٤٠٠ ميل جنوبى القاهرة تلمح الآثار الشامخة من العمد المرتفعة التى تطلع عليك من بين اشجار النخيل فى الجهة الشرقية من النهر حيث موضع معبد الكرنك العظيم . وستجد ان هذا المعبد من ابدع ماشيدته الحضارات القديمة ، وقد زينت جدران المعبد بمنحوتات كثيرة كبيرة تمثل بالنحت البارز مشاهد الحروب التى خاضها فراعنة الامبراطورية فى آسية ولاسيما فى بلاد الشام ، وتطغى صورة الفرعون التى بولغ فى حجمها على مشاهد تلك الحروب ، فنراه وهو فى عربته الحربية التى تجرها الخيول



صورة ترينا القاعة الكبرى ذات الاعمدة فى معبد الكرنك ، فى طيبة القديمة ـ وهو اعظم بناء فى عهد الامبراطورية المصرية

يفرق جموع الاعداء • والعربة والخيول من المشاهد التى لايمكن ان نراها فى مآثر الادوار التى سبقت عهد الامبراطورية ، لان المصريين لم يعرفوها الا بعد عهد الهكسوس • والى التحسن فى آلات الحرب فى عهد الامبراطورية تغير نظام الجيش حيث اوجد الفراعنة نظام الجيش القائم قوامه النبالة والعربات الحربية والخيالة ، وكان كثير من فراعنة هذا العهد قوادا عسكريين اتقنوا فنون الحرب وقادوا الجيوش بانفسهم •

وفى وسعنا أن ندرك من زيارتنا للمعابد والقبور فى طيبة مبلغ الثروات الكثيرة التى جناها الفراعنة من فتوحهم الخارجية فى آسية وفى البلدان الواقعة جنوب مصر • والواقع ان فصلا جديدا فى تاريخ العمارة الفخمة والفنون قد افتتح فى عهد الامبراطورية ففى قاعات معبد الكرنك شيد الفنانون افخم صفوف من الاعمدة عرفتها الحضارات القديمة • ويبلغ ارتفاع بعضها وهى الاعمدة الوسطى (٦٩) قدما وتبلغ سعة تيجان الاعمدة بحيث (يستطيع مائة رجل أن يقف عليها وهم متراصفون) كما يقول المؤرخ (بريستد) • ويستطيع الزائر أن يشاهد بالاضافة الى هذه العمد فى معابد الكرنك صفوف المسلات والتماثيل الضخمة التي تمثل فراعنة عهد الامبراطورية ، ويشاهد كذلك صفوفا من تماثيل الحيوانات وبخاصة (الخراف) وهى تمتد من معبد الكرنك الى النيل •

ويرجع الفضل في الروعة التى نشاهدها فى العمارة المصرية الى النحات والرسام ، فقد زوقت تيجان الاعمدة بالوان زاهية لتكون التيجان مشابهة للاشجار التى تمثلها • ولونت مشاهد الحروب والقتال التى نحتت على جدران المعبد بألوان زاهية براقة • وقد تبلغ ضخامة تماثيل الفراعنة المنصوبة امام المعابد مبلغا بحيث تعلو على ابراج المعبد نفسه • واستطاع النحاتون ان ينحتوا مثل هذه التماثيل الضخمة من حجرة كبيرة مكونة من قطعة واحدة • وقد يبلغ ارتفاع بعضها ثمانين او تسعين قدما وزنته قد تبلغ المائة طن • ونشاهد فى الجانب الغربى من طيبة بعض هذه التماثيل الضخمة ولا سيما تمثال الملك «امنوفس» الثالث الذى كان من أعاظم ملوك السلالة الثامنة عشرة • ونشاهد فى الجانب الغربى كذلك مئات من معابد القبور وقد قطعت وحفرت فى الحجر وهى تعود الى مقابر كبار رجال الامبراطورية من القواد والنبلاء والفنانين • وقد دونت فى بعض المعابد اسماء اصحابها ولمح من تأريخ حياتهم • فنقرأ مثلا قصة ذلك القائد الذى خلص حياة الفرعون «طوطمس الثالث» عندما كان يصطاد الفيلة فى آسية (فى الفرات الاعلى) وذلك بان قطع خرطوم الفيل الذى أوشك أن يقضى على الملك • ونقرأ فى قبر آخر قصة القائد الذى فتح مدينة «يافا» فى فلسطين على حين غرة بان خبأ رجاله فى صناديق محملة على الحمير وادخلهم الى المدينة بصفتهم بضاعة تجارية وهى قصة تذكرنا بقصة «على بابا والاربعين حرامى» فى الف ليلة وليلة ، وقصة الزباء العربية •

وقد دفع المصريين اعتقادهم بالحياة الاخرى بعد الموت ، كما ذكرنا فيما سبق ، الى ايداع أنفس الاثاث والادوات فى قبور الموتى • وهذا مانجده فى قبور العظماء فى الجانب الغربى من طيبة ، اذ وجد المنقبون فيها أثاثا ورياشا تعد على جانب عظيم من الروعة الفنية وتشهد بما بلغه الفن المصرى من الرفعة والبذخ والاناقة فى عهد الامبراطورية • ونستطيع بدراسة هذه المقابر أن نقف على تطور الديانة المصرية منذ عهد الاهرام •



نحت ضخم يمثل رعمسيس الثانى (١٣٠١ ــ ١٢٣٤ ق ٠ م) من السلالة التاسعة عشرة ، نحت فى وجه الحجارة الشاهقة فى «أبو سمبل» (فى نوبية من الجانب المصرى) ، ويزين التمثال البالغ ارتفاعه زهاء ٧٥ قدما واجهة المعبد الخاص بذلك الفرعون

فنجد فى عصر الامبراطورية فكرة البعث والقيامة والحساب فيما بعد الموت اوضح مما كانت عليه فى عهد الاهرام • وكان الاله الذى يحاسب الموتى هو «اوسيريس» القاضى العظيم • فباستطاعة الرجل الصالح أن ينال الخلود فيما بعد الموت ولكن كانت روحه توزن فى ميزان يوضع فى احدى كفتيها

رمز العدل والصدق وفي الكفة الاخرى قلبه (أنظر الصورة فى ص ٩٨) • وكانوا يضعون فى قبر الميت لفة من ورق البردى المكتوب بادعية وصلوات ورقى لتساعد الميت فى العالم الآخر وكانوا يضعون مع هذا الكتاب الذى يدعى «كتاب الاموات» صورة تمثل الحساب بوزن النفس ، فصار الخلود ليس ببناء الاهرام فحسب بل بالاعمال الصالحة التى يقوم بها البشر فى هذه الحياة ، وسنطرق هذا الموضوع فى مكان آخر •

وحدثت فى عهد الامبراطورية ، بعد مضى مايقرب من القرنين ، ثورة دينية فى مصر تعد على قدر عظيم من الاهمية فى تأريخ البشر وقد قام بهذه الثورة الفرعون المصرى «امنحوتب» او «امنوفس» الرابع الذى عرف باسم اخناتون • فقد اعتقد هذا الملك باله واحد لا اله غيره ، وهو الاله الذى تصور أن قرص الشمس مظهر من مظاهره وبلغ من تحمس هذا الملك لدينه الجديد مبلغا جعله يناوىء الآلهة الاخرى ويحاول القضاء على عبادتها وحمل الناس على قصر العبادة على ذلك الاله الواحد الذى سماه «اتون» • واراد أن يفرض عبادته على جميع انحاء الامبراطورية • وقد عمد على سد المعابد الخاصة بالآلهة الاخرى واقصاء كهنتها ومحو أسماء الآلهة • وقد وجه غضبه بالدرجة الاولى على الاله (أمين) (امون) ، اله طيبة العظيم الذى شيدَ لعبادته معبد الكرنك الفخم ، ولكرهه لهذا الاله ولان اسمه يدخل فى تركيب اسمه (اى أمين ــ حوتب ومعناه أمين ــ يستقر) عمد الى تغيير اسمه الى (اخناتون ، ومعناه : اتون راض) وهجر اخناتون العاصمة المقدسة طيبة وابتنى له عاصمة جديدة فى موضع العمرانة الآن وسماها (أخت ــ اتون) (اى افق الشمس) ، ونقل اليها مقر العاصمة واعمال الحكومة • وقد وجدت فى هذه العاصمة السجلات الملكية الشهيرة ومن بينها الرسائل المرسلة اليه والى ابيه من ملوك الشرق الادنى وحكام الامبراطورية فى بلاد الشام ، وهى مدونة بالخط المسمارى واللغة البابلية كما اشرنا الى ذلك فى بحث العلاقات الدولية فى زمن الامبراطورية • ووجد فى هذه العاصمة كذلك نماذج جميلة

من المنحوتات وفيها روح جديدة من التمثيل الواقعي والانطلاق من القيود القديمة فكأن هذه الثورة الدينية قد نفخت في الفن روحا جديدة .

وثورة اخناتون الدينية في الواقع تعد الاولى من نوعها في تأريخ الاديان البشرية ، وهي بروحها توحيد خالص وتجريد لتصور البشر عن هذا الاله . والذي لاشك فيه ان لهذه الثورة الدينية علاقة وثقى بالديانة العبرانية ولاسيما فكرة التوحيد وتجريد فكرة الله من شائبة التشبيه والتمثيل التي كانت عليها معظم الحضارات القديمة . وقد ذهب البعض الى ان العبرانيين قد أخذوا عبادة اخناتون وان موسى نفسه هو مصري من أتباع هذه الديانة الجديدة[1] . ونحن لا يسعنا أن نسهب القول في العوامل التي ادت الى هذه العقيدة التي تعد ثورة في تأريخ البشر ، ولعل لنشوء الامبراطورية علاقة بايحاء هذه الفكرة الى هذا الملك او النبي الجديد فقد اعتقد بان هذا الاله الاوحد قد خلق جميع الخلق والبشر باختلاف اشكالهم والوانهم ، وقد تصوره هذا الملك بانه اله رحيم عادل يشمل بعطفه ورحمته جميع المخلوقات . وقد ألف لعبادته وتمجيده صلوات وأدعية هي من أصفى أنواع التوحيد والتجريد ، لانها تمثل مبدأ الوحدانية تمثيلا صادقا .

سببت هذه الثورة الدينية ارتباكا في داخل مصر وضعفا في اجزاء الامبراطورية ، وقد سبق ان لخصنا ذلك في بحث العلاقات الدولية في عهد الامبراطورية . وبعد أن مات اخناتون قضي على ديانته ورجعت مصر الى دياناتها الوثنية ، ولكن الضعف استمر في انحاء الامبراطورية والى ذلك كانت الامبراطورية الحثية التي نازعت المصريين السلطة على بلاد الشام في اوج قوتها (راجع بحث العلاقات الدولية) ، وعلى الرغم من نجاح ملوك السلالة التاسعة عشرة في ارجاع قسم من قوة الامبراطورية الا أن النزاع مع الحثيين قد انهك قوى الدولة المصرية ، فعقدت بين الطرفين معاهدة

(1) Sigmund Freud, **Moses and Monotheism** (London 1940).

صداقة وعدم اعتداء ، وما أن تخلصت الدولة المصرية من الخطر الحثى حتى جابهت خطرا اعظم وهو نشوء الدولة الاشورية وبداية تعاظم قوتها منذ القرن الثانى عشر ق٠م (راجع بحث الاشوريين) ٠

احوال الدولة المصرية بعد الامبراطورية : ـ

بدأ الانهيار والتفسخ فى الامبراطورية المصرية فى ايام السلالة الواحدة والعشرين التى كان مركزها فى الدلتا ، كما ألمحنا الى ذلك فيما سبق ٠ وقد بدأ فى عهد هذه السلالة نفوذ الليبيين فى المملكة المصرية ، حتى أنهم اسسوا سلالة منهم هى السلالة الثانية والعشرون (٩٥٠ق٠م) كما تدل على ذلك أسماؤهم وأنسابهم واشتهرت هذه السلالة بحكم الفرعون القوى «شيشنك» وهو «شيشك» الوارد فى التوراة الذى تدخل فى شؤون المملكة الاسرائيلية من بعد موت سليمان ، ومما يشير الى تدهور الوضع ان ملوكا منافسين لهذه السلالة كانوا يحكمون فى البلاد ٠ ودخل الامراء والنبلاء فى نزاع وحروب فيما بينهم، وكانت السلالة التى حكمت من بعد ذلك أى السلالة الثالثة والعشرون على درجة من الضعف بحيث لم تستطع أن تسيطر على هؤلاء ٠ ومما زاد فى الطين بلة أن مملكة منفصلة قد تأسست فى نوبية يرجح أن يكون مؤسسها زعيما من «ليبية» فازدادت الفوضى والنزاع بين الدويلات والاسر الحاكمة ، واستمر سوء الوضع فى عهد السلالة الرابعة والعشرين التى لم تتألف الا من ملك واحد ، وامتاز عهد السلالة الخامسة والعشرين بتمكين حكم الاحباش وحصل اتحاد فى البلاد ، اى اصبحت الحبشة ومصر تحت حكم سلالة واحدة من الحبشة وبدت على البلاد بوادر القوة والانتعاش ، ولكن صادف ذلك بلوغ الامبراطورية الاشورية ذروة قوتها واتساعها ، فبدأ الخطر على مصر يهدد كيانها ، ولما لم يسع ملوك مصر الدخول فى النزاع المباشر مع الاشوريين فانهم صاروا يساعدون بلادسورية فى كفاحها ضد سلطان الملوك الاشوريين، من سرجون وسنحاريب ٠واشتهر من

ملوك هذه السلالة (ترهاقة) أو «طهراقاء»[1] الحبشي الذي أبدى عزما في مقاومة اندفاع الاشوريين ، ولكن اسر حدون الاشوري دمر جيشه في ٦٧١ ق٠م في حدود مصر ، واستولى على منفس وأخذ غنائم كثيرة ، ويبدو أن من جملة الاسباب لتخادل الدفاع ضد الاشوريين وجود جماعات كبيرة في مصر تبغض حكم الاحباش ولاسيما في القسم الشمالي من القطر ، ولكن ترهاقة بذل الجهود لمصافاة اعدائه وجلبهم الى جانبه في اثناء استعداده لطرد الاشوريين ٠ بيد أن الاشوريين قاموا بمناورة بارعة لاحباط مشروعه ، بان عينوا في ادارة حكم البلاد وفي جباية الضرائب امراء من اهل البلاد ، ومع ذلك فان ترهاقة كان حاكما من الطراز الاول ، فبعد ان ترك اسر حدون مصر بزمن قليل انقض ترهاقة على الحاميات الاشورية وأوقع فيها السيف ٠ ولكن «آشور بانيبال» الذي خلف اسر حدون أوقع الهزيمة في جيش ترهاقة وأعاد حكم الاشوريين في مصر ، وجعل الملك الاشوري على رأس حكومة مصر الملك المصري (نيخو) المعادي للحكم الحبشي ، ولكن مصر العليا ظلت موالية لترهاقة الحبشي ، وقد استطاع ابنه أن يثور ويحاصر منفس ولعله قتل (نيخو) الصنيعة الاشورية ، فعاد الكرة «آشور بانيبال» وطرد الملك الحبشي ولاحقه الى مصر العليا ودمر مدينة طيبة ٠ وخلف نيخو ابنه (بسماتيك) (٦٦٤-٦١٠ق٠م) وكان تابعا للاشوريين في حكم مصر ٠ ولكن صادف حكم هذا الملك انهيار الامبراطورية الاشورية وصادف عهد تدمير نينوى فاستطاع أن يؤسس حكما ازدهرت فيه المملكة المصرية ، وقويت ووسع سلطانها الى مصر العليا ولم يكد يمضي على حكمه عشر سنين ، وقد ظل مخلصا في ولائه للاشوريين حتى انه ارسل جيشا في اواخر حكمه لمساعدة الآشوريين في دفاعهم ضد الماذيين والبابليين ٠ وخلف بسماتيك ابنه المسمى (نيخو) (٦١٠ - ٥٩٤ق٠م) ، وقد رأينا هذا الملك يرسل بعد سقوط الدولة الاشورية جيشا لاستعادة البلاد السورية الى مصر ، فلم يجد الا مقاومة طفيفة

---

(١) انظر خبر اكتشاف أجزاء من تماثيل فرعونية في نينوى تعود الى هذا الملك (الجزء الاول الص ١٩٦) ٠

من ملك (يهوذا) الذى اندحر وقتل فى المعركة ، فسار نيخو الى الفرات ، فلاقاه فى كركميش ولى العهد البابلى نبوخذ نصر الثانى الذى أرسله أبوه (نبوبولاسر) لصد الجيش المصرى ، فاندحر هذا الجيش ، وكادت تكون الكارثة اعظم لو لم يرجع نبوخذ نصر على اثر سماعه بموت ابيه وتوليه العرش • وقد أعقب (نيخو) ملكان هما بسماتيك و(حوفرا) أو (افريز) ، وقد حرض الاخير مملكة يهوذا على الثورة ضد سلطان البابليين فى عهد «نبوخذ نصر» الثانى ، فكانت النتيجة تدمير المملكة اليهودية والفتك باليهود ونقلهم اسرى الى بابل ، كما ذكرنا ذلك من قبل (راجع الفصل الخاص بالعهد البابلى الاخير ، وكذلك الكلام عن العبرانيين) • ومن ملوك هذا العهد فى مصر (أماسيس) الثانى (٥٧٠–٥٢٥ق•م) ، ومما يذكر عنه انه انظم الى اعداء الملك الفارسى (كورش) • ولكنه لحسن حظه لم ير بعينه انتقام الفرس منه ،اذ ان (قمبيز)غزا مصر بعد موته بتسعة اشهر (٥٢٥ق•م) •

وقد ابدى قمبيز فى بادىء أمره تساهلا فى حكم مصر فقد احترم ديانة البلاد ، ولكنه غير هذه السياسة تغييرا تاما ولاسيما بعد حملته الفاشلة الى الجبشة فسحق البلاد ودمرها وارتكب الفظائع • ولكن دارا الثانى ابدى تساهلا وصالح السكان حتى انه بنى معبدا لامون فى الواحة الكبرى (واحة سيوا) ، وعلى الرغم من الضرائب الفادحة فان ولاية مصر ازدهرت نوعا ما فى عهد دارا ، ولكن بعد كارثة (مرائون) ثارت مصر فاخمد الثورة احشويرش بالشدة •وقد استمر العهد الفارسى حتى٣٣٢ق•م حيث فتح البلاد الاسكندر الكبير بعد موقعة (ايسوس) الشهيرة وبعد فتح فينيقية• وكان فتح الاسكندر بدون أى مقاومة لانه لم يكن عند الوالى الفارسى قوة يعتد بها • ومما يؤثر عن الاسكندر احترامه لديانة البلاد وتقاليدها ، وقد زار معبد الاله أمون وأسس الاسكندرية • وقد أعلن (كهنة) الاله «أمون» ان الاسكندر (ابنه) ، متبعين فى ذلك سنة الملوك المصريين •

وعند إقسام امبراطورية الاسكندر فى عام ٣٢٣ق٠م٠ صارت مصر حصة (بطليموس) بن(لاجوس)مؤسس سلالة(البطالسة أو البطالمة) في مصر،وقد امتاز عهدهم بكثرة الضرائب وفداحتها ، وقد اصطبغت مصر بالصبغة اليونانية ، كما ان الحضارة المصرية قد اثرت في الحضارة اليونانية فنشأ من تفاعل حضارات الشرق ولاسيما حضارة مصر وحضارة العراق حضارة خليطة هي (الهلنستية) التي سنأخذ موجزا عنها في موضع آخر من هذا الكتاب ٠ ومما يجدر ذكره عن عهود البطالسة فى مصر التنويه بازدهار العلوم والتجربات والبحوث العلمية حيث صارت الاسكندرية مركزا مهما لهذه البحوث ومحطا لمشاهير العلماء ، فقد اولع «بطليموس» الاول مؤسس السلالة في مصر ، فى تشجيع العلم والعلماء وصرف فى سبيل ذلك الاموال الطائلة ٠ فاسس «متحف الاسكندرية» الشهير حيث كان اكاديمية للبحوث العلمية ، واستمر الولع فى العلوم فى عهد بطليموس الثانى ، بحيث يصح القول ان الولع فى البحث العلمى ممثلا بمتحف الاسكندرية ، لم يعرفه البشر مرة أخرى الا منذ القرن السادس عشر للميلاد ٠ وتأسست فى عهد بطليموس الاول أيضا « مكتبة الاسكندرية » الشهيرة فى استنساخ الكتب المهمة وحوت مكتبتها من هذه النفائس ما جعلها تشتهر فى تأريخ تطور الفكر الانسانى (١) ولكن مما يؤسف له ان هذا البحث العلمى لم يستمر طويلا

---

(١) حول هذه المكتبة الشهيرة انظر

E. A. Parson, **The Alexanderian Library, A Glory of the Hellenic World** (1952) ; **Antiquity,** II (1928), 196 ff.

وقد احترقت هذه المكتبة وياللاسف فى اثناء الحروب فى زمن يوليوس قيصر فى عام ٤٨ ق ٠ م ، كما ان المكتبة الثانية التى نشات من بعدها قد أحرقها الامبراطور ثيودوسيوس فى عام ٣٨٩ للميلاد ولكن نسب حرقها الى ايعاز للخليفة عمر الى واليه على مصر ، غير أن البحث الحديث أثبت بطلان هذ الرواية الاسطورية انظر حول ذلك : ــ

(1) P.K. Hitti, **History of the Arabs** (1937), 166 ff.

(2) Butler, **The Arab Conquest of Egypt.**

الذى نقله الى العربية محمد فريد ابو حديد (القاهرة ١٩٣٣)

لان معهد الاسكندرية (المتحف) كان مؤسسة ملكية يمولها الملك ، فسارت الامور على خير مايرام فى عهد بطليموس الاول الذى كان تلميذا لارسطو واخذ عنه شغفه بالبحث ، ولكن البطالسة من بعد بطليموس الثانى لم يهتموا كثيرا بتشجيع العلماء • وسيتبين مما سنذكره من مشاهير العلماء الذين أموا معهد الاسكندرية مقام هذا المعهد وأثره فى تأريخ العلوم ، فمن هؤلاء المشاهير اقليدس (Euclid) الرياضى الشهير فى بداية القـرن الثالث ق • م و«اراتوستينيز» (Eratosthenes) الذى قاس محيط الارض ووصل الى نتيجة قريبة جدا من المقدار الحقيقـى و«ابولونيوس» (Apollonius) الذى الف فى الرياضيات واشتهر ببحثه الخاص فى المقاطع المخروطية (Conic sections) و«هبارخوس» (Hipparchus) الفلكى المشهور الذى كان أول من رسم خارطة للاجرام السماوية و«هيرون» (Heron) الرياضى المشهور بالجبر وبتطبيقه العلوم على الاختراعـات الميكانيكية حيث اخترع أول ماكنة للبخار كما ان «ارخميدس» قد جاء من « سرقوسة » ليدرس فى متحف الاسـكندرية ، وكان يراسـل علماءها الدائميين •

ودام عهد البطالسة فى مصر الى ٣٠ ق•م ،حيث فتح ('وغسطس)الرومانى مصر فى ذلك العام ، فحل العهد الرومانى • ومما يقال فى هذا العهد ان نظام الادارة فى عهد البطالسة قد ظل معمولا به ولكن الموظفين الـرومان أخذوا يشغلون المناصب العليا بالتدريج • وقد اعتمدت رومة على مصر فى تجهيزها بالحبوب بحيث كان مصدر غذائها الرئيسى من هناك ولذلك عنى الاباطرة الرومان عناية كبيرة فى ضبط حكم هذا الاقليم وضمان عـدم القيام بالثورات من جانب الحكام الرومان ، اذ كان معنى ذلك احلال المجاعة فى رومة • وقد تدهورت البلاد فى العهود الاخيرة بسبب التجاء الرومان الى حكم البلاد حكما عسكريا صرفا ، وبسبب تقريب الرومان الجاليـات الاغريقية ولاسيما سكان الاسكندرية الذين كانوا اجانب عن البـلاد ولا

يمثلونها ، وقد ساء الوضع فى عهود الاباطرة الضعفاء حيث تعرضت البلاد الى هجمات البدو وتخريبهم ، وعم فساد الادارة ، فانقذت البلاد بالفتح العربى على يد القائد المشهور عمرو بن العاص فى عام ٦٣٩ للميلاد فى زمن الخليفة عمر وبذلك بدأ عهد جديد انطوت فيه الصحائف الاخيرة التى تميزت بالتدهور والانحطاط ، ودخلت مصر فى حظيرة الحضارة العربية الاسلامية وقد ساهمت فى بناء تلك الحضارة مع من ساهم من اقطار الشرق الادنى .

بعض الاوجه المختلفة من حضارة مصر

الفصل الثالث والعشرون
الديانة

١ ـ الآلهة واصلها

مع كثرة مصادرنا عن الديانة المصرية او لعله بسبب كثرة هذه المصادر وتضارب وجهات نظرها لايزال كثير من اوجه الديانة المصرية غامضا لدينا، ولا سيما قضية أصل الآلهة وعلاقاتها بعضها ببعض وصفاتها ووظائفها ، واختلاف ذلك بحسب عصور الحضارة المصرية المتطاولة .

ومن الامور العامة التي تميز هذه الديانة من ناحية آلهتها تعدد هذه الآلهة وكثرتها الساحقة على نحو ما رأينا في ديانة حضارة وادي الرافدين مما سميناه بمبدأ الشرك أو تعدد الآلهة فلم يصل تطور الديانة في حضارة وادي النيل الى فكرة التوحيد ، اللهم الا في عهد الفرعون الشاذ «اخناتون» الذي ذكرنا خبر «وحدانيته» في موضع سابق ، ولكن كانت هذه فكرة يصح ان نسميها «جهيضة» اذ انها ماتت بموت صاحبها وعادت مصر الى ديانتها الوثنية السابقة . كما ان مراكز الالهة كانت تتغير في أهميتها مع التبدلات السياسية ، بالنسبة الى السلالات المختلفة ومراكز حكمها . وكثيرا ما عمد الكهنة أيضا الى التوفيق بين وظائف الآلهة ومطابقتها بعضها ببعض فتندمج بهذا الوجه جملة آلهة (وقد يبلغ عددها اكثر من الثلاثة) في اله واحد يتركب اسمه من اسماء هذه الالهة مثل «اتوم ـ رع» ، ولكن مع ذلك لم يصل القوم الى فكرة التوحيد الخالصة وانما يصح ان نطلق على مثل هذه المحاولات مصطلح «التفريد» (Henotheism) . كما ان هؤلاء الكهنة كانوا المنظمين للمعتقدات الدينية وفق لاهوت رسمي ، وبامكاننا

ارجاع نمو الديانة الرسمية وتثبيتها الى عصر الاهرام ، حيث نشأت هذه الديانة الرسمية من عبادة معبد مهم فى «هليوبوليس» (مدينة الشمس وسماها المصريون القدماء القدماء باسم عون ، وهكذا وردت فى التوراة) وكانت هذه مركز عبادة عبادة الاله الشمس .

والمتفق عليه من جهة أصل هذه الآلهة الكثيرة انها فى أصلها من القوى الطبيعية المهمة التى كانت ذات اثر مهم فى حياة سكان وادى النيل الاقدمين حيث جسموا وشخصوا هذه القوى بعدئذ وعبدوها على هيئة آلهة اهم ماتتصف به صفة التشبيه اى انها كالبشر من ناحية الصفات الروحية والجسمية ولكنها اعلى واسمى من الانسان وبيدها القدرة ومصير الكون والطبيعة والانسان ، كما انها تتصف بالخلود بوجه عام . وقد حلل البحاثة «فرنكفورت»[١] القوى الطبيعية المهمة التى كانت أصل الآلهة المصرية وارجعها الى ثلاثة مصادر رئيسية :ـ (١) القوى المستمدة من الشمس (٢) القوى المستمدة من الارض (٣) القوى المستمدة من ذلك الصنف من الحيوانات التى كانت أهم مورد اقتصادى فى حياة البشر الاولين ولا سيما الانعام والماشية . وقبل أن نعدد أهم الآلهة المشتقة من كل مصدر من هذه المصادر الثلاثة نشير هنا الى ان هذه القوى والآلهة المشتقة منها كثيرا ماتتداخل فى مظاهرها ووظائفها ، مثل تداخل مظاهر قوى الشمس بالقوى المستمدة من الارض والحيوانات كالاشارة الى الشمس او الى الاله الشمس بانه «العجل الذهبى المحمول على البقرة السماوية» ووصف «خفرع» (وهو من اسماء الاله الشمس) بانه «العجل او الخنفساء التى تظهر من الارض او التراب» .

الآلهة الشمسية

عبد المصريون الاقدمون الاله الشمس بأشكال وأسماء

---

(١) انظر المرجع المهم الذى وضعه الباحث المذكور :

H. Frankfort, **Kingship and the Gods,** ch. 12

وانظر ايضا

Wilson, **Before Philosophy,** 43, ff.)

متعددة ، وقد سبق أن ذكرنا ان عبادته الرسمية نشأت ونمت فى معبد مدينة الشمس «هليوبوليس» وبين كهنته ، وكان من أسمائه التى اشتهر بها «رع» و«اتوم»ومعنى الاسم الثانى«الكل» ،ولعل هذين الاسمين يمثلان الهين منفصلين على مايرى بعض الباحثين . وعرف الاله الشمس أيضا باسم «خفرى»أو خفرع و«هور اختى» (أى هورس الافق) . وقد جعل كهنة هليوبوليس فروقا بين هذه الاشكال من الآلهة الشمسية فجعلوا «خفرع» مثلا مظهر الاله الشمس وهو فى الصباح و«رع–اتوم» الاله الشمس وهو فى المساء . اى ان كهنة الديانة القديمة قد جعلوا الاله الشمس مركبا ذا أوجه ومظاهر كثيرة ، وقد اشتقت صفاته وميزاته المختلفة من الآلهة الشمسية المحلية المختلفة التى كانت منفصلة متميزة ثم وحدت فى اله شمسى واحد هو «رع» الخاص بهليوبوليس عند نشوء الديانة الرسمية ، ولذلك نجد فى صفات الاله الشمس تصورات مختلفة ، فتصوروا ان الاله الشمس فى سيره عبر الارض يسير بقارب الشمس عبر الارض ، وكذلك اعتقدوا ان القمر والكواكب تسير فى السماء فى سفن ايضا . وبموجب معتقدات اخرى يحمل الاله الشمس فى سيره السماوى على جناحين كالطير ، وهذا المعتقد يقترن بشكل الاله الذى قلنا ان اسمه «هور اختى» فتصوروه بهيئة «صقر» . ومن التصورات الطريفة الخاصة بسير الشمس فى السماء تخيلهم لها على هيئة «جعل» (ابو الجعل) وهذا هو الاله الشمس باسمه «خفرى او خفرع» وقد اشتق المصريون القدماء هذه الصورة السمجة من الجعل وهو يدحرج «كرة القذارة» ، حيث تخرج الجعلان الصغيرة من هذه الكرة كما تنبثق الحياة من الاله الشمس الذى تصوروه على هيئة جعل هائل الحجم يدحرج الشمس ويسيرها فى الفضاء . ومن المعتقدات الخاصة بالشمس والاله الشمس ان الشمس تمضى ساعات الظلمة وهى تجتاز العالم الاسفل (الذى دعوه «دات») فى سفينة قبل ان تعود الى الظهور فوق الارض كل يوم وقت الشروق ، وتصوروا السماء مؤلفة من جسم الالهة «نوت» الممتد على

الارض بهيئة قوس هائل ، ورأسها يلامس الافق الغربي وصلبها في الافق الشرقي ، وذراعاها ورجلاه ممتدة الى ما وراء الافق ، فتبتلع هذه الالهة الشمس في كل مساء وتمر الشمس من داخل جوفها في خلال الليل حيث تولد من جديد وقت الشروق ٠

وكما سيتضح لنا في الكلام على الخليقة كان الاله الشمس اول ملك بصفته الاله الخالق ، والفرعون خليفته ، والاله الشمس بصفته الاله الخالق كان أول شيء ظهر من المياه الاولى (نون) أو «نو» فوق «تل الخليقة» ، حيث خلق رابية كانت أول ما ظهرت من اليابسة من المياه الاولى ، وعد المصريون الاله الشمس الاله الخاص بالعدل كما كان الاله الشمس في حضارة وادي الرافدين ٠ وقد جسموا العدالة وجعلوها ابنة الاله الشمس وسموها باسم «مات» وقد دعي قرص الشمس الظاهر باسم «اتون» الذي رأى فيه اخناتون مظهر الاله الواحد الذي تصوره ٠

ومن الآلهة التي أدمجت أو طوبقت مع الاله الشس الاله «امون» ، اله طيبة العظيم ، ولقب بملك الالهة ، وتصوروه يتجسد او يظهر في الكبش وقد عرفت عبادته في عهد المملكة القديمة ، واكتسب أهمية خاصة في عهد المملكة الوسطى وفي عهد الامبراطورية ٠ وسمي باندماجه مع الاله الشمس «امون-رع» ، وعد السبب الاول في الخلق وأصل الحياة ، كما عد أيضا الاله الخالق الذي كان أول من خرج من المياه الاولى (نون) أو «نو» وانه ابو الآلهة ، وبضمنهم الاله «رع» وأكمل نفسه وصار الاله الكامل «اتوم» ٠

الآلهة المشتقة من اصل حيواني :-

لاتبدو عبادة الحيوانات (Zoolatry) من جانب المصريين القدماء غريبة اذا علمنا ان الفكرة الكامنة وراءها هي ان الآلهة تتجلى أو تتجسد في الحيوانات ولذلك اتخذت أشكال الحيوانات (Theriomorphism) وتتعدد الحيوانات التي اتخذت آلهة مجسدة كفرس النهر والتمساح ، والاسد والثور والكبش والقرد الذي

رأسه رأس كلب ، والكلب والذئب وابن آوى والصقر ، والنسر ، والحمامة والجعلان الخ . كما ان الآلهة الاخرى تشبه بالحيوانات كنعت الملك «بالعجل القوى» والملكة «بالبقرة الحاملة للعجل» وينعت الاله الشمس بالعجل السماوى ، وتمثل السماء على هيئة بقرة كبيرة هائلة يمتد جسمها على طول افق السماء وتتعلق فى جسمها الاجرام السماوية . ومنشأ تقديس الحيوانات وعبادتها كما ذكر من أثرها العظيم فى حياة القوم الاقتصادية ، وهى فكرة متأصلة عن الاقوام البدائية فى القارة الافريقية . واهم مظهر لهذه العبادة فى ديانة مصر تقديس العجول وعبادتها[١]، وتمثل هذه العبادة على مايضن العبادة البدائية فى عصور ما قبل التأريخ . ونذكر من هذه العجول العجل الشهير «ابيس» (واسمه بالمصرية حعفى) ، وهو تجسيد للاله « فتاح ــ اوسيريس » فى منفس وقد عبد فى هذه المدينة ، ونعت بانه رسول الاله « فتاح » والاله «رع» وكانت مواضع عبادة العجول مراكز للعرافة والكهانة . ومن العجول الشهيرة التى عبدت العجل «منيفس» الخاص بمدينة هليوبوليس والعجل «بوخى» (بوخس) . وهناك الهة مهمة هى «هاتور» التى تصورها المصريون القدماء بهيئة بقرة ، وانها الالهة الخاصة بالجو ، وهى تشبه الالهة عشتار أيضا من كونها الهة الحب ، ومن الآلهة الحيوانية الاله « انوف » (انوبيس) وهو على هيئة ابن آوى ، حيث كان الها للاموات فى «ابيدوس» ، ونذكر أيضا الاله الكبش «خنوم» خالق الفخاريين .

الآلهة المشتقة من الارض :ــ

معظم الاقوام القديمة أدركت أثر القوى الارضية فجسمتها وعبدتها ، ولكن كلا منها تصور هذه القوى بصور وهيئات مختلفة ، فقد رأينا ان سكان وادى الرافدين رأوا فيها مبدأ الخصب وعبدوها بهيئة «الالهة الام» ، ودعوها باسماء مختلفة اشهرها الالهة عشتار . وكذلك جسم اليونان مبدأ

(١) Eberhard, **Beiträge Zur Geschichte der Stierkulte in Agypten** (Leipzig, 1938).

الخصب في الارض بهيئة الهـة أنثى • ولكن المصريين القدماء شـخصوا الارض وعبدوها بهيئة اله وليس الهة ، وكان هذا الاله من آلهتهم العظيمة ، ودعوه باسم «جيب Geb »، وباسم «فتاح» وكان الاله الاخير بحسب لاهوت الخليقة الخـاص بمدينة « منفس » هو الاله الخالق • وقد ورد في الآداب الدينية ان الغلة تنمو على اضلاع الاله «جيب» •

ومن الآلهة المهمة المتعلقة بقوى الارض الاله الشـهير « اوسيرس » (ولفظه بالمصرية اسارى) ، ولا يعلم أصل هذا الاله بالضبط ولعله من أصل أجنبي دخـل الى مصـر عن طريـق الدلتـا ، له علاقة بالاله السـومرى البابلي «تموز» ، وقد عين ملك عالم الاموات وقاضي الاموات ، كما يلقب بالملك الميت ، وأبواه « نوت » ، الالهـة السـماء و « جيب » الالـه الارض ، وابن أوسيرس الاله «هورس» الذي ولدته الالهة «ايسس» أخت اوسيرس وزوجته • ويتجسد الفرعون المتوفى بالاله «اوسيرس» اما الملك الجديد الذي يخلفه فيتجسد في الاله «هورس» • ويمثل «اوسيرس» بوجه عام الغلة والخضار ، وهو مثل الاله البابلي «تموز» يظهر ويموت مع الغلة ، كما قرن اوسيرس ايضا بالنيل وخصبه •

واذا كانت الديانة الشمسية هي السـائدة في عصر الاهرام فانهـا اضطرت الى افساح المجال الى عبادة الاله اوسيرس حيث كانت تزاحمها، وهما من اصلين مختلفين تمام الاختلاف ، فان «رع» بالدرجة الاولى الـه الاحياء الذي يمكن ان يقترن به ويتخلد معه بعض الاشخاص من ذوى الامتياز كالفراعنة مثلا من بعد مماتهم ، اما اوسيرس فكان بالدرجة الاولى اله الاموات المباركين واله عالم الاموات ، ولكن مع اختلاف هذين الالهين فانهما يشتركان بميزة مهمة هي مسألة القيامـة والعودة الى الحيـاة من بعد الموت ، فان «رع» يموت موتا موقتا في اثناء مغيب الشمس ويعود الى الحياة عند مشرقها ،وكذلك عاد اوسيرس الى الحياة من بعد مقتله ،ويعود دوما الى الحياة ايضا بصفته اله الخضار • ولكن مع هذا التشابه بين هذين الالهين الا انه

توجد فروق جوهرية فى عبادتيهما الاصليتين • أما هذه الفروق فتدور على الآمال التى تقدمها كل من الديانتين الى اتباعها فيما بعد الموت • وكما ان اوسيريس اله الجماهير فى هذه الحياة فانه كان يحكم كذلك جماهير الموتى فى عالم الارواح تحت الارض ، وبيده مصير هذه الارواح من ناحية التخفيف عنها فى عالمها الثانى • أما الاله «رع» فانه يقدم أكثر من ذلك ويبذ منافسه فى طمع الآمال • اذ انه يخلص اتباعه من الموت ويرفعهم أحياء الى السماء ، اى يصيرهم بمثابة آلهة خالدين • ولكن يكمن فى هذه النقطة جوهر الاختلاف لان هذا التأله وقف على من يستطيع ان يدفع ثمنه وهو ثمن باهض كان يرتفع على الدوام حتى اصبح الخلود «الشمسى» وقفا واحتكارا على الفرعون نفسه وحاشية بلاطه واقربائه ممن يدفع عنهم ثمن الخلود وجهاز خلودهم وعدته • وما شيدت الاهرام الا لهذه الغاية ، اى لتضمن خلود الفرعون الشخصى عن طريق الاسراف فى البناء والعمارة • ولذلك فقد انتشرت ديانة «اوسيريس» وتمكنت من سواد الشعب لانها كانت العزاء الوحيد للجماهير والامل لهم فيما بعد الموت ، وهم تحت الارهاق فيما يصيبهم فى هذه الحياة لكى يحصلوا على الخلود لاسيادهم • تمكنت ديانة «اوسيريس» بالرغم من ان الامل الذى قدمته قد يكون شيئا طفيفا لو قيس بالسكنى والخلود فى سماء الاله «رع» • وقد راع كهنة «هليو بوليس» سلطان «اوسيريس» فعمدوا الى درء هذا الخطر بوسيلة طريفة بأن ادخلوا «اوسيريس» فى شركة الاله «رع» • ومع ذلك فان «اوسيريس» استطاع بهذه الصفقة أن يأخذ أكثر مما أعطى ، فعندما دخل فى المشاركة مع عبادة الفرعون الشمسية أخذ يستحوذ على كثير من الشعائر الخاصة بالاله الشمس ، وأخذ أعظم شىء عنده وهو رفع الجماهير من البشر ، وهم أتباعه الاصليون ، الى التأله والخلود • ونجد هذا التوفيق العجيب بين الديانتين المتناقضتين فيما يسمى فى تاريخ الحضارة المصرية باسم «كتاب الاموات» ،وهو «دليل كل فرد الى الخلود» ، وقد طغت هذه الشعائر والعقائد على الحضارة المصرية طوال

ألفى عام • فقد عمت العقيدة بان الاله (رع) يريد التقوى والصلاح دون الاهرام ، ولذلك فبوسع الجماهير أن تنال الخلود الذى كان فيما مضى ذا ثمن باهض لا يستطيع دفعه الا الفرعون والطبقة الحاكمة ، وصار أوسيريس بموجب هذا التوفيق والمصالحة قاضى عالم الاموات الذى يقدر على البشر المصائر التى يستحقونها بموجب حياتهم على هذه الارض •

وبالنظر الى أهمية العبادة الاوسيرية فى الحضارة المصرية نختتم كلامنا على الآلهة المصرية بذكر بعض الاساطير التى تدور على عبادة « اوسيريس » لانها توضح لنا عقائد مهمة فى ديانة مصر القديمة •

وردت فى النصوص الدينية المصرية عدة اشارات الى الاسطورة التى قامت عليها عبادة الاله «اوسيريس» ولكن لما يأتنا نص كامل عن تلك الاسطورة الطريفة التى شاعت فى الازمنة المتأخرة وحفظت منها صورة كاملة فى كتاب «فلوطرخ» (Plutarch) المعنون « ايسيس واوسيريس» [١] التى وان اختلفت فى التفاصيل مع الروايات المصرية المتفرقة القصيرة الا انها تتفق معها فى الاسس ونوجز فيما يأتى تلك الاسطورة كما وردت فى فلوطرخ وفى النصوص المصرية : ـ

« كان اوسيريس الابن الاكبر للاله الارض « جيب » ، (Geb) وللالهة الجو أو السماء « نوت » ، وقد صار ملكا عادلا يحكم جميع الارض ، وعلم البشر الفنون والصناعات والحرف المختلفة ، فاستطاع ان يحولهم من حال الهمجية الى المدنية والحضارة • وحدث بعد مضى زمن على حكمه ان اخاه الاله «سيث» (Seth) حسده وأبغضه فقتله غيلة ويروى فلو طرخ تفصيل المؤآمرة والقتل ـ فقد اولم «سيث» لاخيه وليمة ليكرمه بعد عودته من سفر قام به ودعا الى تلك الوليمة التكريمية اثنين وسبعين

---

(١) Plutarch, **De Iside et Osiride.**

من أصدقائه • وقد أحضر «سيث» صندوقا مصنوعا صنعا عجيبا وقدمه الى الضيوف على أن يهديه الى من يدخل فى داخله ويكون مطابقا ملائما لحجمه ، وبموجب ما بيت سابقا جرب جملة ضيوف الدخول فى الصندوق ولكن لم يلائم حجم أى واحد منهم وأخيرا دخل اوسيريس فوجده بمقداره تماما ، وفيما كان لا يزال فى داخل الصندوق قتل وأغلق عليه الصندوق ورمى فى أحد مصبات النيل من فروع الدلتا ، فحمله الى البحر وطاف الصندوق فى البحر وآل به المطاف الى الرسو فى جبيل ولما علمت زوجته «ايسيس» بقتل زوجها صارت تبحث عنه فوجدته فى جبيل فى الصندوق، الذى فى داخله جثمان «اوسيريس»فأخذته وعادت به الى أهوار الدلتا وانتظرت هناولادة طفلها«هورس»،وفيما كانت منتظرة ذلك الحدث كان«سيث»يتصيد قرب الموضع فعثر على الصندوق واخرج منه الجسم وقطعه الى اربع عشرة او ست عشرة قطعة وبعثرها فى جهات مختلفة من وادى النيل فاخذت «ايسيس» تبحث عن قطع جثمان زوجها ، وكانت كلما وجدت جزءا منه دفنته فى الموضع الذى تجده فيه • فقد دفنت رأسه مثلا فى «ابيدوس» ورقبته فى هليوبوليس ، وهكذا فعلت فى الاجزاء الاخرى ماعدا «عضو التناسل» الذى رماه «سيث» فى البحر وابتلعه نوع من السمك •

وتروى صورة اخرى من الاسطورة انه بعد ان وجدت «ايسيس» جثمان «اوسيريس»امر الاله الشمس «رع» الاله «انوبيس» (الاله الذى يمثل بهيئة ابن آوى) أن يحنطه ، ثم رفرفت ايسيس بجناحيها فوق جسمه وعملت على اعادته الى الحياة ، وبعد قيامته من الموت صار ملكا على الاموات وعلى موطن الاموات • وكانت هذه صفته المميزة فى جميع العصور التأريخية، اما بقية الاسطورة كما جاءت مدونة على بردية من عهد الامبراطورية (١) فتروى لنا الصراع العنيف بين « هورس » بن « اوسيريس » وبين عمه «سيث» حيث صمم «هورس» على الثأر لابيه،واستطاع«سيث» فى القتال العنيف

(١) أنظر ترجمتها فى:
(1) **Ancient Near Eastern Texts.**
(2) Edwards, **The Pyramids of Egypt**, 25 ff.

الذى نشب بينهما أن يتلف عينى «هورس» ولكن هذا تغلب على عمه وقتلــه واعتلى عرش ابيه ،وأعيدت عينه المتلفة حيث عادها الاله «توت» وهو الاله القمر وصــادق على خلافته لابيه آلهــة مدينة «هليوبوليس» . وصار هورس المثل الاعلى لحب الابن لابيه ومضربا للامثال بالتضحية من أجله ، كما صارت عينه «الهلال»[(١)] .

طرف من العقائد والعبادات الدينية

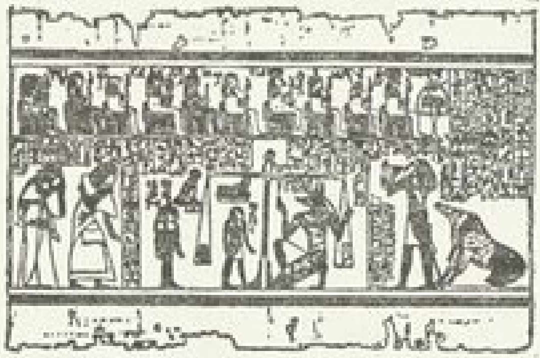
١ ـ عقائد ما بعد الموت :ـ

لقد تكررت الاشارات الخاصة بعقائد المصريين بحياة مابعد الموت وكثيرا ما أكدنا على أهمية عودة الحياة فيما بعد الموت والخلود مما طبع الحضــارة المصرية القديمة بطابع خاص هو اهتمامها المفرط بشؤون مابعد الموت ، من قبور وطرق دفن والمحافظة على الاجسام الملحودة مما تطرقنا اليه سابقا .وذكرنا أيضا علاقة بعض الآلهة بعودة الحياة والخلود ولا سيما الاله الشمس « رع » والاله «اوسيريس» ، واذ اعتقد المصريون القدماء بامكان عودة الحياة مابعد الموت ونيل الخلود فى حياة اخرى ، الا ان ذلك لم يكن عندهم من الامور الطبيعية «الاوتوماتيكية» التى تقع من بعد الموت بدون ان يقوم البشر بعمل اى شيء . بل ان الامر كان يتوقف على قيام البشر بامور «طقوسية» مهمة ، وتزويد الميت بجميع العون المادى ، كتهيئة القبر بوجه عام ، سواء كان القبر حفرة عادية أو مصطبة أو هرما على نحو ما رأينا ســابقا ، وكذلك مراعاة اصول الدفن الخاصة . وقد اعتقد المصريون القدماء منذ اقدم ازمانهم التأريخية بأن الانسان مكون من عنصرين متميزين هما الجسم والروح ، على ما بينـا من قبل ، واعتقدوا أيضا بامكان بقاء الروح حية من بعد موت الجسم الطبيعى

(١) وتوجد أسطورة طريفة عن تحريم الخنزير لكونه دنسا للآلهة . وتدور هذه الاسطورة على ان الاله رع حرم الخنزير على الآلهة واتباعهم لان «سيت» اتخذ شكل الخنزير فى قتاله مع «هورس» يوم فقأ عينه . فجعله حيوانا دنسا محرما من أجل هورس (انظر المرجع الاول فى الهامش رقم ١ الص ١٠) .

اذا حفظ الجسد سالما وجهز بما يحتاج اليه • ولا يعلم بالضبط كيف تصور المصريون الموضع الذى تذهب اليه الارواح من بعد الموت ، والمفترض انه العالم الاسفل الذى يتصل بالقبر ، لذلك دفنوا مع الميت فى القبر كل ماكان يحتاج اليه فى هذه الحياة بحسب اقتدار الميت • ولكن نشأت معتقدات مهمة عن عالم مابعد الموت اشتقت من عبادة الاله «اوسيريس»، حيث تصوروا عالم مابعد الموت «الاوسيرى» (ودعوه مملكة اوسيريس) موضعا هو المثل الاعلى للخلود ، وموضعه فى «حقل» السلام الذى هو جزء من «حقل القصب» ، وعرفه الاغريق القدماء باسم «الحقل الاليزى» (Elysian Fields) حيث موضع خلود الآلهة وموضع السعادة الابدية • وقد خصص فى هذه المملكة التى يحكم فيها اوسيريس موضع خاص للحساب والدينونة (قاعة الحساب)• حيث تحضر نفس كل انسان هناك وتوزن فى «الميزان الاعظم» بمحضر من الاله «توث» سكرتير الآلهة وكاتبها ، وقد وردت لهذا المشهد صور متعددة مثلت بهـا النفس أو الروح البشرية بالقلب حيث وضعت فى احدى كفتى الميزان ووضعت فى الكفة الثانية «ريشة» هى رمز العدالة والصلاح (مات أو معت) ، فاذا لم يرجـح وزن القلب على «الريشـة» فانه يرمى الى وحش خاص ليلتهمه (اسمه آكل الموتى) ، وهو حيوان مركب ، بعضه تمساح وبعضه اسد وبعضه فرس النهر ، واذا ماتعادل وزن القلب والريشة ، فيعلن عندئذ الالـه « توث » الى الآلهـة ، فتؤخـذ نفس الميت الى حضـرة الالـه « اوسيريس » حيث يجازى الميت بحسب ما يستحقه • ويبدو من النصوص الخاصة بهذه الامور انه قبل ان تجرى عملية وزن القلب كان الميت يمـر من «قاعة» اوسيريس وهنا يقوم «بالاعتراف» بمحضر ٤٢ قاضيا من قضاة الموتى ، والظـاهر ان كل واحـد من هؤلاء يستنطق الميت عما اذا كان قد ارتكب اثما معينا فيجيب الميت بأجوبة سالبة أى انه لم يرتكب الذنوب المعينة (كما جاء فى «كتاب الاموات»)[١] ، وكان هناك عقاب وثواب ، فالثواب كان فى

(١) (أنظر **The Book of the Dead,** ch. CXXV
Ancient Near Eastern Texts (1950), 34 ff.



مشهد يمثل حساب الموتى فى عالم ما بعد الموت حيث الميزان التى توزن بها روح الميت وأعماله فى كفة مقابل رمز العدل والصلاح · لاحظ الاله الممثل بهيئة ابن آوى الموكل بالوزن (وهو الاله انوبيس) وكذلك الوحش الموجود فى الجهة اليمنى وهو منتظر نتيجة الوزن ليلتهم الميت اذا وجد ناقصا فى الميزان · ويوجد فى الحقل الاعلى من الصورة مجلس الآلهة الموكلين باستنطاق الميت عما ارتكبه من الخطايا والذنوب

منح الخلود والسعادة الابدية فى مملكة اوسيريس السعيدة ، اما العقاب ، فكان بطريق افناء الروح وليس بالعذاب الابدى ·

ولان عبادة الاله «اوسيريس» تمركزت فى ابيدوس فأصبح هذا الموضع ذا أهمية خاصة فى عقائد ما بعد الموت ، فتروى لنا الآثار المصرية ان رأس الاله اوسيريس قد دفن فى « ابيدوس » ، وبحسب رواية أخرى أن « ايسيس » دفنت جميع جسمه هناك ، فكانوا يقيمون فى « ابيدوس » كل عام رسوما دينية من بينها تمثيل ما قاساه الاله فى موته ثم قيامته وعودته الى الحياة · وكان يحج الى موضع «ابيدوس» جمع غفير من جميع أنحاء مصر ، وقد وجد الموضع مملوءا بكسر الفخار التى هى بقايا ما كان يقدمه الحجاج من قرابين للاله · وكان الحج الى «ابيدوس» ضروريا للبشر أيضا فيما بعد الموت ، ولذلك نشأت العادة من بعد عهد المملكة القديمة ان المصريين صاروا يجهزون

موتاهم بقوارب يدفنونها مع الميت مع اللوازم الاخرى التى يحتاج اليها ، ليتمكن الميت من السفر والحج الى «ابيدوس» • ونشأت عادة اخرى ايضا منذ عهد المملكة الوسطى فى قيام الافراد المتمكنين بتشييد قبور خالية لهم او مقامات (Cenotaph) فى «ابيدوس» لتتمكن أرواحهم من العيش بجوار مقام « اوسيريس » وتشترك بالمراسيم السنوية الخاصة به • فمثلا شيد «سنو سرت» الثالث أعظم ملوك المملكة الوسطى مقاما له فى ابيدوس ، ولكن جثمانه دفن فى لحده فى «دهشور» ، وكان من لم يستطع اقامة «مقام» له يقيم شاهد قبر له قرب مزار اوسيريس ، وكانوا ينحتون مثل هذه الشواهد بنحت بارز ويكتبونها باسمائهم •

واعتقد المصريون القدماء بالسحر واثره العظيم فى هذه الحياة وما بعد الحياة ، فاعتمدوا عليه فى شؤونهم حتى انهم اعتقدوا ان الدساتير السحرية تمكنهم من التأثير حتى فى الآلهة ، وأحسن ما يوضح لنا ذلك « الكتابات السحرية» التى كانوا ينقشونها على جدران حجرات الاهرام وممراتها منذ عهد السلالة الخامسة والسادسة • كما نشأت عادة وضع اسم الاله «اوسيريس» بهيئة لقب قبل اسم الميت لتحويل الميت الى مادة الاله من حيث امكان القيامة والحياة بعد الموت ، او حتى لتأليه الميت • فكان الفرعون فى اثناء الحياة يطابق ويعادل بالاله«هورس»بن «اوسيريس» ، وعندالموت يصير اوسيريس، ويصير ابن الملك الذى يعتلى العرش فى مكان ابيه الميت الاله «هورس» • ثم توسعوا فى هذا الامتياز ، وجعلوه يشمل اعضاء الاسرة المالكة ، ثم صفوة مختارة خارج دائرة العائلة المالكة ، واخيرا صار الاتصال باوسيريس من حق جميع الناس • ولكن الفرعون يتحد مع الا لهة فى السماء ويصير الها مثلهم • هذا وقد سبق أن نوهنا بان العنصر غير المادى من الانسان يأخذ وجودا مستقلا وقد سموا هذا العنصر بمصطلح تصعب ترجمته هو «با» ، (ولعله يعنى النفس او الروح) وكانوا يكتبون هذا الرمز فى الخط الهيروغليفى القديم بصورة «لقلق» ، ثم مثلوه بعدئذ بهيئة طير جسمه جسم انسان ملتح وامامه

سراج ضوء • وقد تصوروا النجوم بانها عدد لا يحصى من (البا ت) (جمع با) مضاءة بسرج من النور • ومع انفصال (البا) عن الجسم المــــادى الا ان استمرار وجوده كان يتوقف على المحافظة على الجسم ، ومن هذا منشأ فن التحنيط •
واعتقد المصريون القدماء بعنصر او ماهية اخرى غير مادية علاوة على عنصر «البا» ، وكان ذا خطورة ايضا فى ضمان حياة مابعد الموت ، وبوجه خاص فى خلود الفرعون وقد سموا هذه الماهية باسم «كا» ، ورمزوا لها بهيئة انسان ملتح متوج بتاج مؤلف من ذراعين مرفوعين وملتويين عند المرفق ، ويمثل احيانا بهذين الذراعين فقط دون الشكل البشرى • ويجيء هذا العنصر الى الوجود منذ ولادة الشخص ويبقى معه من بعد الموت ، وعقيدة وجود «الكا» واضحة بوجه خاص بالنسبة الى الملك ، وقد اختلف فى تفسيرها الباحثون فمنهم من يرى انه يمثل «شخصية» المرء الثانية او انه يمثل «القوة» الحيوية فى الانسان ، تلك القوة الغامضة التى تميز الحى من غير الحى ، ورأى آخرون انه بمثابة الملاك الحارس •

التحنيط

لقد سبق ان نوهنا بالتحنيط بانه ابتدع بنتيجة عقيدة المصريين القدماء بحياة مابعد الموت وضمان هذه الحياة بالمحافظة على الجسم فى القبر سالما محفوظا غير معبوث به • وبما اننا تكلمنا بعض الشيء على القبور وعنايتهم الفائقة بها فننوه أيضا بالطريقة الاخرى التى ابتدعوها للمحافظة على هيكل الجسم من البلى بالتحنيط ، والتحنيط مصطلح عام يعنى المحافظة على الجسم (١) أما الجسم المعالج بالتحنيط فيطلق عليه مصطلح «مومياء» (٢) ، واختلفت أساليب التحنيط الفنية عندهم من عهد الى عهد بل من سلالة الى اخرى كمـــا

---

(١) (Embalming) (من Embalm) أى حافظ على الجسم من البلى بطرق التحنيط المختلفة •

(٢) أى مصطلح (mummy) ومنه (mummification) المشتق فى أصله من الكلمة العربية (أو بالاحرى المستعربة) « مومياء » أى الزفت والقير لاستعماله فى طرق التحنيط (من « موم » الفارسية التى تعنى الشمع) •

انه لا تزال هناك جملةأمور فى هذهالطرق لم يتوصل البحث الحديث الى حلها حلا نهائيا ، ولكن الذى يمكن قوله بوجه عام ان المصريين استعملوا جملة طرق وعدة مواد حافظة للمحافظة على الجسم من البلى ، منها تجفيف الجسم وحفظه بالبهار والصموغ والنطرون والقار (الزفت) ، كما انهم فى الطرق الغالية من التحنيط كانوا يفتحون الجسم ويحشونه بالصبور بعد رفع الاحشاء الداخلية التى كانوا يحفظونها (يحنطونها) بوجه مستقل ، وفى الطرق الرخيصة المستعملة كانوا يقتصرون على عمليات التجفيف بالاملاح أو بالاملاح مع القير وفى الازمان القديمة جدا كانوا يتركون الاجسام لتجف بصورة طبيعية واستعملوا الملح والصودا فى عهد المملكة الوسطى واضيف «المر والبهار» فى عهد السلالة الثامنة عشرة ، اما استعمال القير فانه لم يستعمل فى التحنيط بمقياس كبير قبل السلالة الواحد والعشرين (فى حدود ٩٠٠ ق٠م) ٠ ودعى المصريون القدماء الجسم المحنط الملفوف والمعصب بالكتان باسم «قس» (بفتح القاف) الذى صار بالقبطية بصيغة «كوس» ٠

واذا مارجعنا الى النصوص المصرية [١] فهى لاتزودنا باشياء مفصلة عن الطرق التى استخدمها المصريون القدماء فى التحنيط ، ولكن الكتاب الرومان واليونان (الكتاب الكلاسيكين) وصفوا لنا طرق التحنيط بالتفصيل نوعاما ، وقد ظهر ان رواياتهم صحيحة بوجه عام كما أثبت ذلك الاجسام المحنطة (المومامى جمع موميا) التى وجدت وفحصت ٠ فيروى لنا هيرودوتس مثلا ان الكاهن الخاص بفتح «البطن» يستعمل فى هذه العملية الحجر الحاد المسمى «بالحجر الحبشى» وبعد أن يشق البطن يرمى «حجره أو سكينه» ويفر هاربا لايلوى على شىء ، ولعل سبب استعمال الحجر اعتبار المصريين للمعدن بانه شىء نجس فى هذه العملية كما ان هرب الكاهن يشير الى تخوف القوم وتهيبهم من فتح الجسم الانسانى ٠

---

(١) انظر The British Museum Guide, 228 ff. الذى اعتمدنا عليه فى هذا الموجز ٠

وبحسب ما روى هيرودوتس أيضا[١] كانت ثلاث طرق للتحنيط مستعملة في زمنه • فبموجب الطريقة الاولى ، وهي اغلى الطرق وادقها ، كانوا يشقون البطن في الجانب «بالحجر الحبشي» ثم ترفع الاحشاء الداخلية والدماغ[٢] من الجسم الذي ينظف ويغسل بعناية بخمر التمر ثم يرش عليه دقيق البهار ، ثم يملاء تجويف الرأس والجسم بالمر المسحوق والقاشيا وبهارات اخرى ثم يخاط الشق المحدث في البطن الذي احدث لاستخراج الاحشاء منه • ثم يهيأ حوض من محلول الملح او محلول الصودا وينقع فيه الجسم الذي هيأ بالخطوات الاولى زهاء سبعين يوما • ثم يؤخذ بعد نهاية هذه المدة من المحلول ويجفف ويمسح ويدهن بمراهم ذات روائحعطرية• اما في الطريقة الثانية فكانت الاحشاء تزال بواسطة دهن الارز وكاناللحم يذاب ويزال عن العظام باستعمال محلول الصودا ، بحيث انه«المومياءالمحنطة على هذا الوجه لايبقى منها سوى العظم والجلد • واقتصروا في الطريقة الثالثة على الموتى من الفقراء وكان الجسم بموجبها ينقع بمحلول الصودا مدة سبعين يوما ثم يسلم الى اقربائه •

ويروي لنا «ديودورس» (او ديودور) (الذي عاش في حدود ٤٠ ق•م) ان طرق التحنيط عند المصريين ثلاثة ، وكانت الطريقة الاولى

---

(١) (الترجمة الانجليزية من قبل رولنصن)
Herodotus, Bk. II, 85

(٢) ان هيرودتس وديودورس لا يخبراننا بشيء عما كان يصنع بالاحشاء والدماغ الا أننا نعرف انها كانت تنظف وتلف بالكتان مع مساحيق البهار الحافظة والملح وكانت توضع في أربع جرار مصنوعة من الحجر اما من حجر الرخام أو الكلس أو من الفخار ، وكانت كل جرة تخصص الى أحد أبناء الاله « هورس » الاربعة أو أبناء أوسيريس ، الذين كانوا أيضا آلهة الجهات الاربع الاصلية • وصارت هذه الجرار من بعد السلالة الثانية عشرة تغطى بغطاء مصنوع على هيئة رأس الاله الخاص ، أما ما قبل ذلك فكانت هذه الاغطية بهيئة رؤوس آدمية • وترجع عادة تحنيط الجوارح الداخلية منفصلة عن الجسم الى عهد السلالة السادسة وذكرت عادة تخصيصها الى الآلهة الاربعة في كتابات ملوك السلالة الخامسة والسادسة •

تكلف «وزنة من الفضة» (Talent) أى نحو ٢٥٠ دينارا والثانية تكلف زهاء (٦٠) دينارا ، والثالثة قليلة النفقات جدا •

وكانت المدة الفاصلة بين موت الشخص ودفنه تختلف فى طولها فيؤخذ من الكتابات المصرية القديمة انه فى حالة خاصة استغرق التحنيط ١٦ يوما وعملية تعصيب الجسم ولفه بالكتان ٣٥ يوما والدفن ٧٠ يوما ، فيكون مجموع المدة الفاصلة ١٢١ يوما • وفى حالة اخرى استغرقت عملية التحنيط ٦٦ يوما وتهيئة الدفن ٤ ايام والدفن ٢٦ يوما • وتروي لنا التوراة (سفر التكوين ٣) ان تحنيط «يعقوب» استغرق ٤٠ يوما ولكن مدة اقامة المأتم والحزن استغرقت (٧٠) يوما •

ولم يقتصر التحنيط على الملوك والناس الآخرين بل ان المصريين القدماء حنطوا اجسام بعض الحيوانات المقدسة كالقطط والصقور والقردة والكباش والعجول والتماسيح ، واتبعوا فى ذلك نفس الطرق المتبعة فى تحنيط الآدميين •

وبعد أن اوجزنا هذه الاشياء عن التحنيط نقدم عرضا موجزا عن تأريخ نشوء التحنيط عند قدماء المصريين • فالى المعتقدات الدينية الخاصة بعودة الحياة فيما بعد الموت ولا سيما العقائد المشتقة من عبادة الاله اوسيريس[1] يلزم أن يضيف المؤرخ عامل البيئة الجغرافية الجافة المساعدة على حفظ الأجسام بصورة طبيعية ، مما عمل

---

(١) لقد سبق ذكر أسطورة موت أوسيريس وكيف ان جسمه المقطع قد أعيد الى سابق وضعه بالطرق السحرية (بحسب احدى روايات الاسطورة) حيث قامت بذلك « ايسيس » وأعوان ابنه (هوروس) ، ثم حنط جسمه وحفظ من البلى ، وبالقياس الى ذلك استنتج المصريون القدماء امكان حفظ أجسامهم من البلى بالتجارب المختلفة التى قاموا بها فى التحنيط ، ومما لا شك فيه ان الذى ساعدهم على محاولة هذه التجارب ما كانوا يشاهدونه من أن الجسم الذى يدفن فى الرمال فى التربة الجافة يجف جفافا طبيعيا ويبقى محافظا على هيئته •

على نشوء فن التحنيط عند قدماء المصريين • فقبل نشوء فن التحنيط المعقد اعتاد المصريون القدماء قبل عهد السلالات ان يجففوا اجسام موتاهم في الشمس ثم يدفنونها ، وكانوا يلفونها في بعض الحالات بجلود بعض الحيوانات أو بحصر من القصب • وبعد عهد السلالات بقليل حين نشأت العقائد الخاصة بالاله اوسيريس ونضجت ابتدأ المصريون في محاولاتهم وتجاربهم في فن التحنيط • وتشير اقدم الاجسام المحفوظة التي جاءتنا من هذا العهد الى انهم كانوا يرفعون الاحشاء الداخلية ثم يجففون الجسم بالشمس أو يملحونه • ثم صاروا يلفون الجسم بالعصائب ولا سيما أجسام الملوك • ومما لا شك فيه ان المحافظة على أجسام الملوك بالتحنيط قد بدأت في زمن قديم من عهد السلالات ، ويرجح أن يكون ذلك في عهد السلالة الثانية • ولكن أحسن «مومياء» سالمة محفوظة هي التي جاءتنا من عهد السلالة الخامسة • وتوجد بقايا من «مومياء» يظن انها تعود الى الملك «منكورع» (من فراعنة السلالة الرابعة) ولكن صحة ذلك مشكوك فيها• وكثرت «الموامي» من عهد السلالة الحادية عشرة ، واقتصرت معالجتها على النطرون (صودا قوية) ، وكذلك كثرت الاجسام المحنطة في عهد السلالة الثانية عشرة • ولم تظهر عادة رفع الدماغ الا في عهد السلالة الثامنة عشر، واستعملت في هذا العهد البهارات والراتنج (resin) كما تفننوا في العصائب • ومما يقال في هذا العهد ان نماذج التحنيط منه كثيرة وهي في حفظ جيد • وفي نهاية السلالة الثامنة عشرة صاروا يحشون الجسم بكميات كبيرة من المواد الراتنجية بحيث تبدو الجثة غير ظامرة وكأنها الشخص الحي ، كما ان محاجر العيون كانت تحشى بالكتان وتطبق عليه الاجفان ولعل أحسن «مومياء» من هذا الطراز مومياء جد الملك «اخناتون» ومومياء الملك «سيتي الاول» (وكلاهما في متحف القاهرة) • وفي عهد السلالة الواحد والعشرين اطرد استعمال الضماد لتحشية الجسم واستعملت لهذا الغرض جملة مواد متنوعة كالكتان والراتنج ونشارة الخشب • وكان القلب يترك في داخل الجسم في هذا العهد ومثل ذلك يقال بالنسبة لبعض الاحشاء الاخرى،

وكثيرا ما كانت «الموميا» ، تلون وتصبغ لتضاهى الجسم الانسانى وهو حى•

ومما يقال فى العهود الاخرى المتأخرة ان فن التحنيط انحط فيها ، ووجدت اجسام اقتصر فى تحنيطها على حشوها بالقير • وفى العهود الرومانية عثر على بعض الاجسام المحنطة تحنيطا جيدا ، واستمر المصريون فى ممارسة عادة التحنيط حتى فى العهود المسيحية بعد تحولهم الى المسيحية ولكن هذه الممارسة بطلت من الاستعمال تقريبا فى نهاية القرن الرابع للميلاد من جراء أثر العقيدة المسيحية ، ومع موت هذه العادة استمر الناس فى دفن الميت مع البهار وبعض المواد الحافظة ، مما جعل كثيرا من الاجسام فى العهد القبطى تبقى محفوظة لا سيما اذا كان الدفن فى مواضع جافة • كما انه لا يستبعد أن تكون عادة «غسل» الميت المتبعة الآن من تراث التحنيط المصرى القديم •وعلى ذكر تراث هذا التحنيط ننوه بأمر مهم هو ما أفاده الطب الحديث من الاجسام المحنطة التى وصلت الينا سالمة حيث امكن بدرسها معرفة تأريخ جملة امراض مهمة مثل مرض الحصاة (calculi) ومرض البلهارزيا (Bilharzia) والامراض الشريانية (Arterial diseases) ومرض التدرن (Tuberculosis) والتهاب المفاصل (Arthiritis) وجملة أمراض أخرى تخص العظام[١] •

وننهى بحثنا عن التحنيط عند قدماء المصريين بذكر شىء مهم متمم لطرق حفظ الجسم عندهم ذلك هو انواع التوابيت المستعملة لذلك الغرض• فمن ناحية التطور التأريخى كان المصريون فى العصور القديمة جدا يدفنون موتاهم بتكفين الجسم بحصير أو جلد أو نسيج وايداعه فى الحفرة بهيئة مقلصة ، واستعملوا السلال بعدئذ وظهر استعمال الصندوق الخشبى فى عهد السلالة الاولى وكان أصل التابوت ، وحصل بعض التطور فى صناديق التوابيت فى عهد السلالتين الثالثة والرابعة من ناحية الصنع وزخرفتها بحيث

---

(١) أنظر المرجع الآتى
The Legacy of Egypt (1942), 196 f.

تظهر وكأنها بيت سكني ذو باب وشبابيك وستائر وقلدت مثل هذه الصناديق في نواويس الحجر • وكثرت الصناديق والتوابيت منذ عهد السلالة السادسة الى السلالة الثانية عشرة ، وتفننوا في صنعها من الاخشاب الثمينة كخشب الارز ، وتلوين خارجها وزخرفته بأسماء أصحابها ونقشه بأدعية وصلوات الى آلهة الاموات والى اطفال هورس الاربعة حيث رتبت مثل هذه الكتابات بحقول متوازية منتظمة ، كما رسمت في داخله خرائط طريفة للعالم الاسفل (العالم الاخر) واودعت تعاويذ سحرية لارشاد الميت والمحافظة عليه من اخطار ذلك العالم ، كما كانوا يرسمون في خارج التابوت صورة بيت مختصرة وعينين كبيرتين وصور لرأس الميت وعينيه • وكان الجسم المودع داخل التابوت يغطى جزئيا بقناع (من قطع الكتان المصمغة معا والمغطاة بالبورق) وكان هذا القناع يعمل بهيئة الرأس والكتفين ويلون ويذهب • وكان يودع مع التابوت بالاضافة الى المقتنيات الشخصية كالاسلحة والمرايا عدد كبير من النماذج المصغرة الملونة التي تمثل البيوت واهراء الغلة والعمال والصناع الممثلين وهم ماضون في عملهم والخدم وهم يحملون الطعام والقوارب المصغرة بأشرعتها ومجاذيفها • ان هذه الاشياء المصغرة على قدر كبير من الاهمية اذ انها توقفنا على نواح مهمة متعددة من حضارة وادي النيل ، سواء كان ذلك من ناحية الاشياء التي استعملها المصريون القدماء أو من ناحية أشكالهم وهيئاتهم ، كما ان ما وجد في المقابر المصرية من ملكية واعتيادية تكاد تكون المصدر الوحيد لمعرفتنا بحضارة مصر القديمة •

بعض الاساطير الدائرة حول اصل الالهة والاشياء

١ ـ الكون (السماء والارض)

من الصعب تحديد صورة واحدة مطردة عن الكون واصل الاشياء والآلهة (Cosmology) عند المصريين القدماء ، وهذا أمر متوقع بالنسبة الى عقائد شغلت من الزمن زهاء (٣٠٠٠) عام من عصور التأريخ بالاضافة

الى بقايا متحدرة من عصور ما قبل التأريخ • فينتظر من هذا التأريخ المتطاول ان يحدث تغيرا وتبدلا في مثل هذه الآراء ، كما ان المصريين القدماء لم يخلفوا لنا دساتير أو عقائد مطردة، وانما الذي عندنا صور مختلفة لا يضيرها أو يقلل من قيمتها ان تكون متناقضة كثيرا او قليلا عند المصريين القدماء • ولنضرب لذلك مثلا في تصورهم للسماء وكيفية استنادها ، فهناك صورتان مختلفتان ، صورة تمثل لنا السماء وقد رفعها وسندها الاله الهواء «شو» ، وصورة اخرى ترينا السماء مقامة على اربعة عمد [1] •

وقد تصور المصريون الارض على هيئة صحن او «ماعون» منبسط ذي حافة مظلمة • فقعر هذا الصحن أرض مصر الغرينية المستوية ، أما الحافة المظلمة فهي سفوح الاراضي الجبلية التي تكون البلدان الاجنبية • ان هذا الصحن عائم في المياه • وتوجد مياه سفلى (وهي المياه الاولى) الى أسفل الماء الظاهر • وتدعى هذه المياه السفلى باسم « نون » ، وبحسب بعض العقائد المصرية كانت هذه هي المياه الاولى هي التي ظهرت منها الحياة بجميع أشكالها ، وأول ما ظهر منها الآلهة على سيتضح فيما بعد • ولا تزال هذه المياه مصدر الحياة ، لان الشمس تولد ولادة جديدة كل يوم منها ، كما ان النيل ينبع من الينابيع التي تغذيها هذه المياه السفلى • والمياه السفلى تحيط بالارض ايضا •

ويعلو فوق الارض صحن السماء الذي هو مثل صحن الارض الا انه بهيئة مقلوبة ، والسماء تحدد النهاية البعيدة للكون • وتصوروا سماء سفلى تحت الارض تحدد نهاية الارض السفلى • وقد سبق ان ذكرنا كيفية اسناد السماء باعمدة اربعة موضوعة في الجهات الاربع ، ورأى المصريون في هذا الاسناد للسماء انه مضمون أكثر من سند الاله الهواء « شو » لها ، ووظيفة هذا الاله أن يقف ثابتا على الارض ويحمل السماء كما جاء في النصوص الهرمية • وقد جسدوا السماء بهيئة الهة دعوها باسم «نوت» وتمثل هذه وهي منحنية على الارض حيث تلامس اصابع يديها ورجليها الارض

---

(1) J. A. Wilson, **Before Philosophy** (1951), 51 ff.

وتزين الشمس والقمر والكواكب النيرة جسمها • وهذه صورة ثالثة لكيفية استناد السماء أى ان هذه الالهة السماء هى التى تسند جسمها وانها علاوة على ذلك يساعدها الاله الهواء فى ذلك وقد يمثلون القبة السماوية أيضا على هيئة بطن بقرة سماوية هائلة وهى مرصعة بالنجوم والكواكب ، وهى تجر المجرة حيث تجرى سفينة الشمس (سفينة الاله الشمس) فى سيرها فى السماء • وقد خصصوا جملة من مجموعات الكواكب والهوها ، ومن ذلك مجموعة نجم القطب الشمالى حيث وصفت بانها النجوم التى لا تعرف الموت وموطن الحياة الازلية الخالدة وسموا هذا الموضع باسم «دات» الذى هو موضع الارواح الخالدة • وبانتشار العبادة الشمسية تغير موضع الارواح الخالدة من القسم الشمالى من السماء وصار فى العالم الاسفل ، وصار موضع دخول الارواح اليه من الغرب كما تدخل الشمس عندما تموت فى المساء حيث تدخل فى سيرها اليومى تحت الارض وتبعث من جديد من المشرق • وتصوروا سير الاله الشمس بانه يتم فى قاربين ، واحد لسيره النهارى وواحد لسيره الليلى تحت الارض ، وألحقوا بذلك مجموعة من الآلهة تكون فى سفينة الشمس على هيئة ملاحين • وقد يتعرض الاله الشمس فى سيره السماوى الى اخطار جسيمة ، ومن ذلك ان ثعبانا هائلا يتربص به فتنشب معركة بين الاثنين ، واذا ماتغلب هذا الثعبان على الشمس فيقع الكسوف •

وكان الاله الشمس بصفته سيد الالهة وأول ملك فى الكون كثيرا ما «يعير نفسه» الى الآلهة الاخرى لزيادة قدرتها ، ومن مظاهر هذه العقيدة نجد اسم الاله «رع» ، وهو اسمه كما عبد فى هليوبوليس ، يدخل فى أسماء الآلهة الاخرى بهيئة مركبة مثل «رع ــ اتوم» و«رع ــ هورس» وفى مواضع اخرى عرف بالاله الصقر «مونتو ــ رع» والاله التمساح «سوبيك ــ رع» والاله الكبش «خنوم ــ رع» ، كما صار «امون ــ رع» بصفته ملك الآلهة فى مدينة طيبة •

٢ ـ اساطير الخليقة

كما يتعذر أن نجد صورة واحدة مطردة من عقائد المصريين عن الكون كذلك لا يوجد رأى واحد أو اسطورة واحدة حول بداية الاشياء وانما توجد جملة آراء وأساطير مختلفة ، وكانت مثل هذه الاساطير مقبولة عند المصريين القدماء بالرغم من اختلافها وتناقضها • ومن الملاحظات المهمة التى يجدر التنويه بها ما قد يجده الباحث من تشابه وتناظر بين الروايات البابلية وبين الروايات العبرانية فيما يخص الخليقة وأصل الاشياء ، ولكن الاساطير المصرية بعيدة الشبه بكل من هذين المصدرين ، مما يدل على ان مصر كانت مستقلة منفصلة فى تطور آرائها بهذا الشأن •

وقد تصور المصريون موضع الخليقة ، أى المكان الذى جاءت فيه الآلهة والاشياء الى الوجود فى رابية هى «رابية الخليقة» او «تل الخليقة» • ولا يستبعد أن يكون أصل هذا التصور من ظاهرة فيضان النيل وانحسار المياه بعد الفيضان حيث أول ما يظهر الى الوجود الروابى الترابية وهى حاملة أولى بشائر الحياة من حياة الخضار والنبات ، وفكرة منشأ الحياة من التراب والطين فكرة شائعة بين الامم أما كيفية ظهور الحياة فوق « التل الاول » فقد رأى المصريون ان أول ما ظهر عليه فى الوجود «الاله الخالق» وهو «رع ـ اتوم» • ومن هنا منشأ تقديس المواضع المرتفعة ، وقد سبق ان ذكرنا ان من جملة الآراء فى تفسير شكل الاهرام انها ترمز الى «تل الخليقة الاول» ، حيث ظهر أول اله فوق «تل الخليقة» • أما كيفية مجىء الآلهة الى الوجود فتوجد عدة روايات ، فرواية (كما جاءت فى كتاب الاموات) تقول ان اول من ظهر الى الوجود الاله الشمس ، وقد ظهر من تلقاء نفسه أى انه هو الذى أوجد نفسه ثم عمل الى ايجاد الآلهة الاخرى ليصيروا أتباعه وكان أول ملك على الكون ، وتنص رواية أخرى على ان الالهة الاولى كانت موجودة وهى من مادة المياه الاولى ، وكان عددها ثمانية آلهة ذكر كل زوجين منها على

حدة(١) ، ويقابل هذه «الآلهة الثمانية» التى تمثل العماء والفوضى مجموعة آلهة أخرى عددها تسعة ، يرأسها الاله الشمس ، وهى عائلتـه ، واذ كانت المجموعة الاولى تمثل الفوضى والعماء فى الكون فان هذه « الآلهة التسعة » تمثل النظام فى الكون ، وهى الاله الهواء « شو » والاله الذى يمثل الرطوبة « تفنوت » و « جيب» الاله الارض والالهة « نوت » التى تمثـل السماء والاله أوسيريس وايسيس وسيث ونفتايس (زوج الاله سيث) .

ويعنى اسم الاله الشمس « اتوم » وهو الاله الخالق « كل شىء » ويعنى لا شىء أيضا ، ولا يوجد فى ذلك تناقض بالنسبـة الى أصحاب اللاهوت فى مصر القديمة فان كلمة « اتوم » تعنى « الشىء الكامل الذى انتهى صنعه» أى الشىء الذى لا يوجد سواه ولا يوجد بعده شىء وهو كل شىء» . ومن روايات أساطير الخليقة رواية تنص على ان الاله « اتوم » وهو « فى مجـده فوق تل الخليقة » بصق فظهر الاله الهواء « شو » ثم نفخ بصاقه فظهر الاله الرطوبة « تفنوت » أو انه « عطس » فظهر هذان الالهان . ثم ولد هذان الالهـان الارض والسـماء والجو ، ثم اتحـد الاله الارض (وهو الاله المذكر) مع الالهة السماء فأولدا أربعة آلهة وهم أوسيريس وزوجته ايسيس وسيث وزوجته « نفتايس » .

ومن أساطير الخليقة المهمة ما يعرف باسم «نص منفس» وهو يختلف عن الروايات الاخرى وله أهميـة خاصة . ومع ان النسـخة الموجودة منه يرجع عهدهـا الى حدود ٧٠٠ ق . م ، ولكنه كما يقول الملك الذى أمر باستنساخه ، يعود الى أزمان أقدم من التأريخ المصـرى ، فى الزمن الذى اتحدت فيه السلالات الاولى المصرية واتخذت عاصمتها فى مدينة «منفس» ، وهى

---

(١) وهى «نون» و «نونت» ويمثلان المياه السفلى .
و «هو و «هوهت» ويمثلان الامتداد المادى الذى ليس له صورة معينة .
و «كوك» و «كوكت» ويمثلان الظلام .
و «امون» و «امونت» ويمثلان المادة الاولى المختلطة (العماء) .

المدينة الخاصة بالاله «فتاح» ، وبما ان هذه المدينة لم تكن ذات شأن دينى مهم لا سيما وهى قريبة جدا من مركز عبادة الاله الشمس رع فى « هليوبوليس » (حيث لا تبعد عنها سوى ٢٥ ميلا) ، فلزم تبرير مركزها الدينى الجديد بصيرورتها عاصمة المملكة الموحدة ، فعمد كهنتها على تحوير بعض أساطير الخليقة وتخصيص دور مهم بارز الى الهها « فتاح » . ولكن الغريب فى أمر اسطورة «منفس»(١) اختلافها عن الاساطير المصرية الاخرى المألوفة حيث تكاد تتفق جميعها ، باستثناء اسطورة منفس ، على ان عملية الخلق كانت عملية مادية صرفة أى قيام اله أو آلهة معينةبعملية الخلق بصورة عملية مادية ، ولكن نجد فى هذه الوثيقة الجديدة فكرة الخلق وهى تم بوجه فلسفى أى بمجرد تفكير الالهبالخلق وارادته له ثم خروج«كلمة» الاله التى حولتفكرته الى فعل الخلق . ويرى أكثر من واحد من الباحثين شبها كبيرا بين هذه الفكرة وبين فكرة « الكلمة » (اللوجوس (Logos)) اليونانية الموجودة فى الانجيل(انجيل يوحنا): «فى البدء كان الكلمة ،والكلمة كانعندالله ،وكانالكلمة الله » . ومما يجدر ذكره عن هذه الاسطورة المصرية الخاصة بمنفس انها لا تهمل أساطير الخليقة الاخرى الشائعة وانما تدمجها برواياتها وتعللها تعليلا يكاد يكون فلسفيا . وأهم ما فى هذه الاسطورة أولا معادلة الاله « فتاح » بالاله « نون » ، أى بالمياه الاولى التى خرج منها الاله « اتوم » (الاله الشمس) ، وهو الاله الخالق بحسب الاساطير المصرية الاخرى . وهذا معناه ان الاله فتاح قد سبق فى وجوده الاله الشمس وانه هو الذى أوجده ، ثم أوجد الآلهة الاخرى وجميع الاشياء بمجرد ان أراد ذلك وقال « الكلمة » ، ثم استراح الاله « فتاح » بعد أن خلق كل شىء .

خلق الانسان :ـ

أما عن خلق الانسان فلا يوجد فى أساطيرالخليقة المصرية نص

---

(١) انظر أحدث ترجمة لها فى المرجع الآتى :ـ
Ancient Near Eastern Texts, 4 ff.

واضح عن كيفية خلق البشر بوجه واضح • فهنـــاك نصوص تسمى الاله الشمس بانه هو الذى أوجد«البشر» ، ويوجد نص آخر يقول ان الانسان خلق على صورة الاله ، ويمجد هذا النص احسان الاله الخالق لعنايته بالمخلوقات البشرية التى يسميها « ماشية الاله » ومن النصوص الخاصة بخلق الانسان ان الاله الكبش « خنوم » هو الذى خلق البشر بواسـطة دولاب الخزاف الخاص به ، وقسمت أسطورة قديمـة الجنس البشرى الى أربعة عروق أو أجنـاس وهـم جنس « الرومت » أى البشـر وهؤلاء هـم المصـريون و « العامو » وهم سكان الصحراء الشـرقية و « التميحو » وهم الليبيون و « التحيسو » وهم السود والسمر (الزنوج) فى السودان ، وقـد تكون الصنف الاول من دموع سـقطت من عين الاله « رع » التى سـقطت على أعضاء جسمه فتكون منها الرجال والنساء ، وأوجد الاله الاجناس الاخرى من جسمه بطرق غير معروفة •

وتوجد أسطورة[١] طريفة جاءتنا من عهد المملكة الوسطى وهو العهد الذى سبق أن قلنا انه يمتاز ، من جملة ما يمتاز به ، ظهور الاعتراف بالعدالة الاجتماعية وكذلك الاعتراف بحقوق النـاس العاديين ، وبموجب هـذه الاسطورة أمر الاله الخالق بتساوى البشـر بالنسبة الى ضروريات الحياة ، فقد صنع الرياح الاربعة لهم ، وجعل لهم فيضان النهر الذى يكون حق الفقير فيه مثل حق العظيم ، وانه صنع كل انسان بحيث انه يشبه أخاه الانسان ، وانه لم يصنع شرا ولكن قلوب البشر هى التى تعصى ما أمر به •

ومن الاساطير الخاصة بالبشر أسطورة تتعلق بخلاص البشر من الدمار والهلاك • فبعد أن حكم الاله «رع» الكون دهورا طويلة ، بدأ البشر يجدفون باسمه ويرتكبون الذنوب والمعاصى ، فجمع «رع» الآلهة وأخذ يشاورهم فى

(١) انظر
Ancient Near Eastern Texts, 12 ff.

الامر فكانت نتيجة الشورى أنه أرسل بين البشر «عينه» التى خلق البشر منها وهى بهيئة الالهة «هاتور» لتعمل على اهلاك البشر ، فجاءت هذه الالهة وأخذت تفتك بالبشر وهم منهزمون فى البادية ، وكون شكلا آخر لهاتور بهيئة الهة اسمها «سخمت» حيث صارت تساعد هاتور وتخوض بدماء البشر • وبعد مضى مدة من القتل والتدمير هدأ غضب الاله فأوقف قتل البشر ولكن باسلوب طريف (يكاد يكون صبيانيا) اذ انه أمر باحضار مغر أحمر خلطه بالجعة (البيرة) فصار مظهره مثل دم البشر ، وملأ منه سبع آلاف جرة ووضعها فى الحقول فى المواضع التى كانت الآلهة ماضية فى تدمير البشر ، فامتلأت الحقول بهذا السائل الاحمر ، فشربت منه وسكرت وفقدت وعيها فلم تعد ترى البشر وكفت عن تدميرهم •

والجدير بالذكر عن هذه الاسطورة ان بعض الباحثين يسميها باسطورة الطوفان ولكن الواقع لا يصح اطلاق هذا الاسم عليها ، وان أدب وادى النيل خال من أية أسطورة أو قصة عن الطوفان بخلاف ما رأيناه فى حضارة وادى الرافدين ، والسبب ما ذلك على ما نرى اعتدال فيضان النيل ، وانه حتى فى حالة الفيضان المدمر فانه لم تبلغ شدة التدمير الذى يحدثه فيضان الرافدين فى العراق •

ونختتم بحثنا عن ديانة وادى النيل والاساطير الموضحة لها بذكر أسطورة طريفة مفيدة لفهم جوانب مهمة عن عقائد المصريين فى آلهتهم وتدور هذه الاسطورة[١] على ان للآلهة العظام أسماء «سرية» تكمن فيها قدرتهم الالهية ، ولا يعرف سر هذا الاسم «الاعظم» سوى الاله الخاص به وحده • فكان للاله العظيم «رع» أسماء كثيرة ، ولكن أحدها كان سريا وكان مصدر قدرته • وملخص الاسطورة انالالهة البارعة «ايسيس» صممت على معرفةهذا

---

(١) انظر أحدث ترجمة لها فى
Ancient Near Eastern Texts (1950), 4 ff.
ويرجع تاريخ النص الى عهد السلالة التاسعة عشرة (١٣٥٠ـ١٢٠٠ق٠م)

الاسم وسرقته من الاله العظيم • وكان من عادة الاله «رع» ان يأخذ مجلسه في عرشه كل يوم بين المشرق والمغرب • وكان هذا الاله في شيخوخته ، فجمعت الالهة « ايسيس » البصاق الذى كان يبصقه الاله الشيخ وعجنته بالتربة وصنعت منه ثعبانا عظيما ووضعته فى طريق الاله الذى يسير فيه بين بلاديه (مصر العليا والسفلى) ، وفيما كان يتمشى على عادته عظه الثعبان ، فأحدثت فيه العضة ألما ممضا وصار جسمه كالنار وصار يصرخ من الالم فاجتمعت حاشيته من الآلهة التسعة وشكى لهم حاله عساهم يزيلون أله بالسحر ، وجاءت «ايسيس» مع الآلهة فسألته عن سبب ألمه فشرح لها ما حدث له من الالم المفاجىء ، فطلبت منه هذه الالهة ان يعلمها «باسمه» لتتلوه وتعمل منه سحرا يزيل آلامه ، فأخذ يعدد لها ما قام به من عمليات الخلق فى الكون ، وان اسمه «خفرى» فى الصباح و «رع» وقت الظهيرة و«اتوم» فى المساء ، ولكن آلامه لم تهدأ فقالت له «ايسيس» ان اسمه الحقيقى لم يكن من بين الاسماء التى عددها ، فاذا أخبرها به فان مفعول السم سيزول عنه • ولما ازداد مفعول السم فى جسم الاله أمر الالهة أن تقترب منه وأخذ يسرها باسمه العظيم « وهو السحر الاعظم » فأخذت ايسيس تتلوه فزال عنه الالم[1] •

الكهنـــة :

اذا استعدنا الى أذهاننا المنزلة الكبرى التى كان عليها الدين فى حضارة وادى النيل من تغلغله القوى فى حياة الدولة والشعب أدركنا مبلغ ما وصل اليه الكهنة من النفوذ والمكانة فى تلك الحضارة ، ومن الممكن القول ان وظائف الكهنة والتفرغ الى هذه الوظائف والتخصص بها لم تكن واضحة قوية فى العصور القديمة ، فكانت العادة ان أغلب الناس من ذوى المكانة فى المجتمع يشغلون الى

---

(١) ان هذه الاسطورة جاءت بهيئة رقية ضد لسع العقرب ، وتنتهى بارشاد فى كيفية استعمالها (انظر المرجع المذكور فى الهامش رقم ١ ص ١١٣) •

جانب أعمالهم ووظائفهم الاخرى منصبا كهنوتيا ، فالقضاة مثلا كانوا كهانا لاله العدل وكان الاطباء كهنة الاله «سخمت» ، كما ان كثيرا من الوظائف الكهنوتية كانت متوارثة فى الاسر النبيلة ، وكان النساء يشتركن فى الوظائف والاعمال الكهنوتية أيضا ٠

ولكن الى جانب هذه الوظائف الاضافية كانت هناك أعمال ومراسيم دينية تقتضى التفرغ لها والخدمة المستمرة من جانب رجال الدين المحترفين ، وكان كبار الكهنة ذوى مراكز عالية فى الدولة ٠ واستمرت عادة اشغال كبار الموظفين مناصب كهنوتية الى جانب وظائفهم المدنية فى عهد الدولة الوسطى ، ولكن تضاءل شأنهم وأخذت شؤون الدين تحتكر من جانب كهنة محترفين متخصصين ٠ وكان لكل معبد مجمع كهنوتى يشرف عليه من الوجهة النظرية أمير الاقليم أو حاكم الاقليم الموجود فيه ذلك المعبد ٠ وكانت هيئة الكهنة فى كل معبد متنوعة الوظائف ومختلفة فى الدرجات فمنهم الكاهن الاعلى ورئيس خزينة الاله وكاتب بيت الاله والكاهن المرتل الخ ٠

ووقع فى عهد الامبراطورية تبدل أساسى فى مركز الكهنة ، فقد ارتفع مركزهم فى الدولة وازداد عددهم وطبقاتهم وثرواتهم ازديادا كبيرا ٠ ونستطيع أن ندرك ذلك فى كهنة معبد الاله «امون» فى طيبة ، حيث صار لهؤلاء الكهنة نفوذ واسع وكان أبرز عامل فى تعاظم نفوذ الكهنة فى عهد الامبراطورية ثراؤهم المفرط الذى حصلوا عليه فى هذا العهد وكان مصدر هذا الثراء من الهدايا الجسيمة التى يقدمها الملوك الى معابد الآلهة وكانت هذه العادة موجودة منذ عهد المملكة القديمة الا أنها ازدادت فى مقياسها فى عهد الامبراطورية بالنظر الى الثروات الهائلة التى جناها الفراعنة من حروبهم وغنائمهم خارج مصر ، وكانت الهدايا لا حصر لانواعها ولكن المهم منها يتألف من الحقول والبساتين والاملاك والاحجار الكريمة والمعادن النفيسة والثروة الحيوانية الهائلة ٠ فكانت هذه الاملاك الواسعة والنفوذ المتزايد تتطلب الادارة الواسعة ، فصارت المعابد فى

الواقع تؤلف ممالك مصغرة فى ادارتها ، ولا سيما معبد امون فى طيبة فكان لهذا الاله ادارة عامة لاملاكه ودائرة خاصة للخزينة وادارة للاراضى الزراعية العائدة له وادارة لمخازن الحبوب وللماشية ، وكان لكل ادارة رئيس وكتاب وموظفون • كما انه كان للمعابد ادارة خاصة للبناء والترميم وكان للمعابد أيضا قوة عسكرية خاصة من الضباط والجنود ، والسجون والمحاكم ولنا أن نتصور عدد المبانى الملحقة بالمعابد لايواء مثل هذا العدد الهائل من الموظفين، وهكذا بمرور الأزمان استطاعت طبقات الكهنة أخذ زمام السلطة فى الدولة ولعل هذا ما حدا باخناتون الى الثورة على عبادة الآلهة القديمة ومناوئته لعبادة الاله «أمون» وكهنته ، ولكن هذا لم يفلح فى صد التيار اذ عاد مرة أخرى نفوذ الكهنة فى عهد «توت عنخ امون» ، وانتقلت السلطة الفعلية الى أيدى كبار الكهنة فى عهد السلالة الواحدة والعشرين •

المعابد :ـ

كان المعبد من مستلزمات الديانة وعبادة الآلهة فلم يكن باستطاعة المصريين القدماء أن يتصوروا الها من غير «بيت» خاص يعيش فيه ، وتقام فيه شعائره والاعياد الخاصة به ، وتقام به الصلوة وتلحق به مخازنه لادارة أملاكه • هذا وقد سبق أن نوهنا بنوع من المعابد المصرية مثل المعابد «الجنائزية» الملحقة بقبور الملوك ، سواء كانت هذه القبور بهيئة أهرام (كما فى عصر الاهرام) أو على هيئة قبور اعتيادية مما ذكرناه فيما سبق • ونذكر هنا شيئا موجزا عن المعابد التى شيدوها لعبادة الآلهة • وكان الموضع الذى يشيد فيه المعبد «مكانا مقدسا»[١] ، ويظل موضعا مقدسا تقام فيه المعابد من الادوار المختلفة فوق أسس المعابد وأنقاضها ، وهذا هو السبب فى أننا لا نعرف شيئا يعتد به عن معابد الآلهة فى عهد المملكتين القديمة والوسطى لانها كلها تقريبا قد قامت فوقها أبنية عهد الامبراطورية الضخمة الواسعة • ونذكر من أمثلة المعابد من عصر الاهرام المعابد التى شيدها ملوك السلالة

---

(١) اعتمدنا فى ايجاز هذا البحث على ترجمة كتاب «مصر والحياة المصرية القديمة» لادولف ارمان وهرمان رانكه ، الص ٣٠٢ فما بعد •

الخامسة للاله الشمس «رع» فى «هليوبوليس» وقد كشفت التنقيبات عن أحدها ، فهو يختلف فى شكله بوجه عام عن معابد الازمان التالية فمثلا لا يوجد فيه ما يميز المعابد النموذجية من هذه الازمان ، أى الحجرة المقدسة المظلمة التى يوضع فيها تمثال الاله ، وبدلا من ذلك يكون معبد الشمس قائما وسط فناء واسع يحيط به ممر من الحجر ، وكان أبرز جزء فى هذا الفناء رمز الاله الشمس الذى هو عبارة عن مسلة حجر تقوم على قاعدة عالية ،حيث توهج قمة المسلة المدببة المموهة بالذهب فى أشعة الشمس ، فكان هذا الرمز هو الذى يمثل الاله الشمس ، والهرم بموجب أحد التفاسير ليس الا رمزا لهذا الاله،ويقوم قرب هذه المسلة المقدسة «مذبح» ضخم كانت تقدم فوقه القرابين الى الاله الشمس فى الهواء الطلق ، ويقوم الى جانب المعبد شكل سفينة عظيمة كانت جدرانها من اللبن، أما هذه السفينة فكانت لغرض سير الاله الشمس فيها كل يوم فى المساء ، وكانت الجدران فى جانب الممر المفضى الى قاعدة المسلة تزين بنقوش ذات ألوان زاهية متنوعة تمثل حياة الطبيعة فى فصولها المختلفة •

والبقايا القليلة من معابد المملكة الوسطى تتفق فى أسسها مع شكل معابد عهد الامبراطورية • ولنصف الشكل العام لمعابد زمن الامبراطورية • فأولا هناك الممر أو الطريق المؤدى الى المعبد ، وكان مبلطا ويحيط به من جانبيه صفان من تماثيل أبى الهول ، ويقوم أمام المعبد صرح أو جملة صروح (Pylon) وكانت هذه عبارة عن بوابات ضخمة وترتفع مع الابراج الحجرية المحيطة بميل أو انحدار قليل • وقد أقيمت هذه الابراج للرهبة والزينة حيث جدرانها الملونة وساريات الاعلام والمسلات التى أمامها كل ذلك مما يحدث أثرا رهيبا فى تأكيد قدسية الموضع •

ويأتى من بعد الصرح مباشرة فناء (ساحة) المعبد الواسع الذى تحيط به (بوائك) ذات أعمدة ضخمة ، ويقع فى الجدار الخلفى لهذه الساحة المدخل الى قاعة مؤلفة من الاعمدة وتستمد نورها من نوافذ فى السقف • وفى

هاتين الساحتين ، أى الساحة الاولى وقاعة الاعمدة كانت تقام الاحتفالات ا.ينية الخاصة بالاله وتقدم فيهما القرابين • أما مقر الاله فكان في المقصورة الوسطى المؤلفة من ثلاث مقاصير صغيرة مظلمة تقع خلف قاعة الاعمدة وكان يودع في المقصورة الوسطى قارب الاله وتمثاله ، وخصصت المقصورتان الجانبيتان الى زوجة الاله وابنه ، وكانت هذه المقاصير الثلاث أقدس جزء فى المعبد ، وهو قدس الاقداس وقد كتب على جوانب أبوابها ان «على من يدخل المعبد أن يكون طاهرا» وقد كررت هذه العبارة أربع مرات • والعادة الغالبة أن لهذا الجزء المقدس من المعبد مدخل ثان فى الجانب الخلفى ، وتقع وراء ذلك حجرات عديدة مختلفة لخزن أدوات المعبد وحاجياته •

ان هذا الوصف الموجز لتخطيط المعابد المصرية من عهد الامبراطورية ينطبق على جميع المعابد الكبرى مثل معبد الاله امون الشهير فى الكرنك ، أما المعابد الصغرى فكانت تشبه ذلك من حيث أسس تخطيطها ، ولكن كانت تختلف فى الاختصار فى عدد الحجرات أقل مما هو موجود فى المعابد الكبرى ، وكذلك يقال فى عدد القاعات •

وكان المعبد يزين بالزخارف الملائمة لقدسية الاله المعبود فيه فاذا استثنينا نقوش الجدران الخارجية ، فان مواضيع النقوش دينية صرفة فكانت الجدران والاعمدة تغطى كلها بصور الآلهة بألوان زاهية مما تجعل ارجاء المعبد ذا مظهر رائق • ويغلب تكرار الصور كثيرا ، ومن بين المواضيع المكررة مثلا صورة الملك الذى يرتدى رداءه التقليدى ويقف بين أيدى آلهة المعبدالعظام والالهالرئيس الذى بنى له المعبدحيث يقدم له هذا الاله رمز الحياة وتباركه الآلهة الاخرى وروعى فىالكتابات أنتكون زخرفة •ومن المواضيع المعادة المكررة النقش الكتابى الذى يؤكد فيه الاله للملك بقوله «انى سأهبك سنين حتى الخلود ، وحكما على القطرين فى سرور ، وما بقيت أنا حيا فستبقى أنت حيا أيضا على الارض ، متألقا كملك للوجه القبلى وملك للوجه البحرى على عرش هورس الخاص بالاحياء ، وسيظل اسمك ما بقيت الحياة باقيا

مستمرا فى الخلود جزاء وفاقا على هذا الأثر التذكارى الجميل الكبير الطاهر المكين الجليل الذى أقمته لى حتى تحيا حياة الخلود» الخ .. ومن يقرأ مثل هذا النقش وغيره من النقوش فى جدران المعابد المصرية لا بد وانه يحسب أن المعبد قد أقيم لتمجيد الملك أكثر من تمجيد الاله ، ويؤيد هذه الفكرة أسماء المعابد التى صارت تقترن بأسماء الملوك .

الفصل الرابع والعشرون

« الادب ـ الفن ـ القانون والشريعة »

وشيء عن العلوم والمعارف

١ ـ الخط الهيروغليفي وحل رموزه

لكي يلم الدارس لحضارة وادي النيل بشيء عن آدابها المدونة وعلومها فانه يلزم عليه أن يعرف الوسائل التي دونت بها تلك الآداب والعلوم ، أي يتعرف على كتابتها لان هذه الكتابة ، مثل الخط المسماري ، تدخل في صلب فهم اللغة والحضـارة وليست من قبيل الحروف الهجـائية التي يستغنى عن معرفتهـا .

اشتهرت حضارة وادي النيل بخطها المشهور بالخط الهيروغليفي حيث يجده المرء في المآثر التي خلفتها تلك الحضارة ويحسبه نوعا من الزخرفة والزينة الصورية . ولكن الواقع ان الخط الهيروغليفي يمثل لنا أقدم الخطوط التي ابتدعتها الحضارة المصرية في تدوين شؤونها المختلفة ، وقد نشأ ذلك الخط في مصر في أواخر ما سميناه بالعهد الحجري المعدني وفي بداية عهد السلالات ، ويعزى نشوؤه ، كما رأينا في الخط المسماري ، الى الحاجات التي استتبعت نشوء الحياة المصرية في وادي النيل . ولكن هناك فرقا مهمـا بين الخط الهيروغليفي والخط المسماري من ناحية الاصل . اذ ان أصل هذا الخط غير واضح وضوح أصل الخط المسماري الذي وجدت أصوله البسيطة الاولى لما كان بهيئة صور تمثل الاشياء .

أما ما جاءنا من الخط الهيروغليفي الى حال التأريخ فلا يمثل لنا بداية هذا الخط فان أقدم نماذج جاءتنا عنه لا تمثل لنا مراحل نشوئه الاولى وانما طور نضجه وانتقـاله من الطور الصـوري المحض الى الطور الكتابي

الرمزى • ولكن على الرغم من عدم وجود نماذج من الاطوار النشوئية الاولى للخط الهيروغليفى فالمرجح عندنا ان ذلك الخط ابتدعـه المصريون القدماء أنفسهم منذ السلالات الاولى[١] من المقابر الملكية العائدة الى هذه السلالات ، وأقدم نماذج منه ما جاءنا من عهد السلالة الاولى فى النقوش المحفورة على نوع خاص من صفائح الحجر التى وجدت فى «هيراكونبوليس» الواقعة بنحو (٥٠) ميلا جنوب طيبة ، وأشهر هذه الاحجار المكتوبة ما يعرف باسم حجر «نارمر» نسبة الى «نارمر» الذى قلنا انه كان أحد ملوك السلالة الاولى ، ولعله أحد الملوك الذين أطلق عليهم اسم «مناء» مؤسس هذه السلالة وموحد المملكة المصرية المأثور •

وعلى الرغم من جهلنا بأبسط أطوار الخط الهيروغليفى فان هذا الخط ، قياسا على أقدم نماذج له ، كان أصله صوريا ، ثم تطور الى ما سميناه بالطور الرمزى أى أن العلامات الهيروغليفية صارت تقوم مقام كلمات ومعان لها علاقة بأصل العلامة الصورى ، وتطور الخط الهيروغليفى منذ أقدم الازمان التأريخية الى الطور الصوتى (ولعل ذلك بتأثير حافز الكتابة المسـمارية) حيث اسـتعملت العلامات بهيئة مقاطع لكتابة الكلمات المختلفة ، وكانت هذه الطريقة شبيهة بطريقة الكتابة الهجائية الا انها لم تكن هجائية صرفة • فمثلا خصص المصريون القدماء مجموعتين من العلامات الصوتية الشبيهة بالهجائية ، تتألف المجموعة الاولى من ٢٤ علامة قوام كل منها حرف صحيح مقرونا به أى حرف علة من حروف العلة الموجودة فى أصوات اللغة المصـرية • فمثـلا الحرف (م) يمكن أن يقرأ بهيئـة «مو» أو «ما» أو «مى» ، وينتخب حرف العلة اللائق بحسب القرينة فى كتابة الكلمات المختلفة • والمجموعة الثانية مؤلفة من نحو (٨٠) علامة هى علامات مقطعية صوتية شبيهة بالحروف الهجائية وقوام كل علامة حرفان صحيحان مقرونا بهما (فى الوسط أو فى الآخر) أى حرف

---

(١) يرى بعض الباحثين احتمال أخذ الحافز على نشوء الخط الهيروغليفى من الخط المسمارى • انظر ما ذكرناه سابقا عن الموضوع ، وانظر المرجع الآتى :ـ
(The Legacy of Egypt, P. 42).



مشهد وجد مصورا فى معبد قبر أحد النبلاء (من عصر الاهرام)، ويمثل لنا عمليات نجارية فى صنع صناديق الخشب . لاحظ أدوات النجارة والكتابة الهيروغليفية

علة[١] . وبقيت الكتابة المصرية القديمة خليطة من الكتابة الرمزية والكتابة الصوتية المقطعية (الشبيهة بالهجائية) ولم تصل الى المرحلة الهجائية الصرفة . ولكن حدث فى شكل خطها تطورات وتبدلات مهمة مما أدى الى ظهور جملة أنواع من الخطوط نوجزها على الوجه الآتى :

أنواع الخطوط المصرية

توجد ثلاثة أنواع متميزة من خطوط الكتابة فى حضارة وادى النيل هى بحسب ظهورها التأريخى: (١) الخط الهيروغليفى (Hieroglyphic) (٢) والخط الهيراطيقى (Hieratic) (٣) والخط الديموطيقى (Demotic) .

الخط الهيروغليفى :

الخط الهيروغليفى هو الخط المقدس[٢] الذى كان أقدم أنواع الخطوط المصرية القديمة وقد ظل فى الاستعمال منذ أقدم أطواره (٢٩٠٠

---

(١) ففي المقطع (Tm) مثلا يمكن قراءته بأوجه كثيرة مختلفة مثل T(a) m(a) و T(u) m(u) و T(e) m(e) و T(i) m(i) الخ . وتسمى مثل هذه العلامات بمصطلح (alphabeto—syllabic) . حول أحدث البحوث والآراء فى الكتابة الهيروغليفية راجع :ـ

Gelb, **The Study of Writing** (1952).

وانظر كذلك :ـ **The British Museum Guide** (1930).

(٢) مصطلح هيروغليفى كلمة يونانية مركبة من كلمتين كلمة «مقدس» (hieros) وكلمة حفر أو نقش على الحجر (glyphein)

ق . م) الى نحو ١٠٠ ق . م[١] ، وظل محافظا على شكله الصورى (أى شبه العلامات المستعملة بالصور) ، واستعمل لنقش المآثر والكتابات المقدسة فى المعابد والقبور والتماثيل . والعادة فى تنظيم هذا الخط انه يدون بحقول متوازية عمودية تبدأ قرائتها من اليمين، ومن الممكن كتابة الخط الهيروغليفى أيضا بهيئة معكوسة بصورة أفقية ومن اليسار الى اليمين ، وهى الطريقة المتبعة الآن عند الباحثين المحدثين (لملائمة ذلك للحروف اللاتينية) .

٢ ـ الخط الهيراطيقى :

معنى اسم هيراطيقى « كتابة أو خط الكهنة » ، ومنشوءه التأريخى من تبسيط الخط الهيروغليفى واختصاره . اذ أن القوم شعروا منذ أزمان قديمة ان الكتابة الهيروغليفية ثقيلة سمجة ، كما انها لا تصلح أن تكتب كتابة سريعة فى ورق البردى بالحبر والقلم ، لصعوبة ضبط تأدية الصور على مثل هذا الورق ، فبدأ الكتبة يحورون فى الهيروغليفية الصورية ويبسطون فيها واختصروا فيها أيضا فنشأ بمرور الازمان الخط الهيراطيقى وهو طريقة سريعة فى الكتابة ونسخية ، وكان أقدم استعمال له فى استنساخ المؤلفات الادبية فى ورق البردى منذ السلالتين الخامسة أو السادسة (فى حدود ١٩٠٠ ق . م) وظل فى الاستعمال فى كتابة بعض الشؤون المهمة كالعقود والصكوك والمصالح العامة والآداب والمعارف المختلفة . وبالامكان كتابة الخط الهيراطيقى بهيئة حقول عامودية أو بصورة أفقية من جهة اليمين على الدوام (وليس من اليسار مطلقا) .

٣ ـ الخط الديموطيقى :

معنى اسم هذا الخط «خط العوام أو الجمهور» ، ونشوؤه التأريخى من تبسيط الخط الهيراطيقى وايجازه مرحلة أبعد ، حيث بدأ الكتبة فى نهاية السلالة الثانية والعشرين وفى عهد السلالة السادسة والعشرين (٩٤٧-٦٦٣-٥٢٥ ق.م) (أى منذ القرن العاشر والتاسع ق.م) يبسطون ويختصرون فى الخط

---

(١) ظل الهيروغليفى فى الاستعمال قليلا أزمانا أخرى ، وبامكاننا تأريخ بطلان استعماله وموته نهائيا فى القرن الثالث للميلاد .

الهيراطيقي مراحل أبعد ، فأوجدوا منه علامات اصطلاحية ، حذفت منها جميع العلامات الباقية من الهيروغليفية مما ظل محافظا على شكله الصوري وحل الديموطيقي محل الهيراطيقي . والجدير بالذكر ان هيرودوتس لم يذكر من خطوط الكتابة المصرية سوى خطين وهما الخط الهيروغليفي والخط الديموطيقي ولم يذكر الخط الهيراطيقي والسبب في ذلك ان هذا االخط قد اختفى من الاستعمال في عهد «هيرودوتس» ،ولكن الهيروغليفي ظل مستعملا في المآثر المقدسة كما ذكرنا . واستعمل الخط الديموطيقي للكتابة على البردي والحجر ، وكان يكتب بهيئة أفقية ، ومن جهة اليمين ، وظل في الاستعمال الى ما بعد القرن الثالث الميلادي بقليل ،وقد بدأت الحروف الهجائية اليونانية تشيع في الاستعمال وأخذت تحل محل الخطوط القديمة الصعبة السمجة ، وكتبت بهذه الحروف اللغة القبطية (احدى لهجات المصرية المتأخرة) مع اضافة نحو ٧ علامات الى الحروف اليونانية ، فذهبت معرفة الناس بالخطوط القديمة وظلت مجهولة لدى العالم الا ان حلت رموزها في بداية القرن التاسع عشر للميلاد مما سنذكره بعد قليل .

ولكن قبل التنويه بحل رموز الكتابة في مصر القديمة نذكر شيئا عن اللغة المصرية القديمة . فمما يقال عن ذلك بوجه الايجاز ما سبق أن ذكرناه عن الشبه الكبير بين اللغة المصرية (التي هي من فروع اللغات الحامية الكبرى) وبين اللغات السامية مما جعل جماعة من الباحثين يرجعون اللغات الحامية واللغات السامية الى أصل واحد بعيد . كما ذكرنا أيضا ما طرأ على اللغات السامية من استمرار تطورها وتبدلها في حين ان اللغة المصرية القديمة كانت أقل تعرضا لمثل هذه التغييرات اذ تم نموها ونضجها في عهد قديم . واللغة المصرية معروفة لدى الباحثين بخمسة أطوار كما جاءت ممثلة في النصوص الكتابية المختلفة منذ عهد المملكة القديمة . وأول هذه اللغات (١) لغة المملكة القديمة (وهي اللغة العتيقة) (٢) ولغة عهد المملكة الوسطى وهي اللغة المصرية المأثورة (الكلاسيكية) (٣) واللغة المصرية الحديثة التي استعملت في المعاملات وشؤون الناس الاعتيادية من حدود ١٦٠٠ ق . م وفي النقوش

الكتابة من ١٣٠٠ ق ٠ م الى حدود ٨٥٠ ق ٠ م (٤) واللغة العامية الدارجة من حدود ٨٠٠ ق ٠ م الى نهاية العهد الروماني وهذه هي لغة الخط الديموطيقي ، وأوجدوا لهجة مشتقة من المصرية الحديثة في كتابات الخط الهيروغليفي من هذا العهد (٥) وظهرت من بعد عهد المسيح أيضا لهجة حديثة اعتيادية هي اللغة القبطية ، وقد بطل استعمال القبطية كلغة محكية في حدود القرن السادس عشر للميلاد ، ولكن الانجيل والصلوة عند مسيحي مصر الاقباط لا تزال بالقبطية[١] على الرغم من ان معظم الناس لا يعرفون معناها ٠

حل رموز الخط الهيروغليفي

لقد سبق أن نوهنا بان الكهنة ظلوا يمارسون الخط الهيروغليفي الى نهاية القرن الثالث للميلاد ، ولكن بطل استعماله من بعد هذا التأريخ وظل الخط مجهولا الى محاولة حل رموزه في بداية القرن التاسع عشر ٠

وقد جرت قبل ذلك في خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر محاولات عديدة من جانب الباحثين لقراءة نقوش الكتابة المصرية ، ولكن هذه المحاولات لم تسفر عن نجاح ما وظل الامر كذلك الى أن اكتشف حجر رشيد المشهور ٠

فما هذا الحجر المشهور في تأريخ الحضارة البشرية ؟ انه عبارة عن جزء من مسلة من حجر البازلت (قياسها ثلاثة أقدام وتسعة انجات في قدمين وأربعة ونصف من الانجات) وقد نقشت بأربعة عشر سطرا من الكتابة الهيروغليفية و٣٢ سطرا من الكتابة الديموطيقية و٥٤ سطرا من الكتابة اليونانية ٠ وقد عثر عليه في عام ١٧٩٨ ضابط فرنسي من المدفعية اسمه «بوسار» (Bousard) في أثناء حملة نابليون الشهيرة ، اذ وجد بالقرب من فرع رشيد من النيل ، ونقل في عام ١٧٩٩ الى القاهرة ليفحص من جانب العلماء الذين رافقوا حملة نابليون ٠ وقد أمر نابليون أن تعمل من الكتابة نسخ يزود بها العلماء المختلفون في أوربة ٠ وفي عام ١٨٠١ أخذت السلطات

---

(١) وتنقسم القبطية بدورها الى لهجات أربعة هي لهجة مصر العليا (اللهجة الصعيدية) واللهجة البحرية واللهجة الفيومية واللهجة السوهاقية ٠

البريطانية هذا الحجر وأرسلته الى بريطانيـة (فى عام ١٨٠٢) وحفظ فى المتحف البريطانى ٠

ان أول كتابة حلت رموزها فى هذا الاثر القيم هى الكتابة اليونانية فتبين ان المسلة أقيمت بقرار من مجلس كهنة مصـر المنعقد فى « منفس » لتخليد ذكرى اعتلاء بطليموس الخامس (ابيفانس) ملك مصر (من البطالسة) ، وقد تم ذلك فى عام ١٩٦ ق ٠ م ٠

وأعقب هذه الخطوة الاولى نجاح بعض الباحثين فى عام ١٨٠٢ فى حل بضعة أسطر من الكتابة الديموطيقية وتعيين بعض أسـماء الاعلام الواردة فيه ، وبعد بضع سنين (فى عام ١٨١٩) نجح بعض الباحثين فى حل جزء من رموز الكتابة الهيروغليفية فى هذا الحجر ولا سيما قراءة اسم «بطليموس» ، وكان أبرز الباحثين الناجحين فرانسوا شامليون الشهير (١٨٢٢) حيث أضاف كثيرا الى معرفة الهيروغليفية وألف فيها وفى نحوها وساعدته فى ذلك معرفته باللغة القبطية ٠ وقد ظهر مؤلفه قبيل موته (فى عام ١٨٣٢) ٠ وجاء من بعده العلماء الباحثون فاستمروا فى دراسـة الخطوط المصرية ومعرفة لغتها حتى استطعنا معرفة أهم عناصر حضارة وادى النيل ٠

ونختتم بحثنا فى الخطوط المصرية بالتنويه بمـادة الكتابة عنـد قدماء المصريين ٠ فعدة الكتابة وأدواتها تتألف من ورق البردى (البابيروس) ولوحة الالوان (Palette) وأقلام القصب والدواة ٠ وبالاضافة الى الحجر الذى استعمل فى نقش الكتابات التذكارية والكتابات المقدسة فى جدران الاهرام والمقابر والمعابد فان المادة الشائعة فى الكتابة كانت كما ذكرنا ، ورق البردى الذى كان يصنع من صيقان نبات «البابيروس» (Papyrus) [١] الذى كان ينمو فى أهوار مصر وغياضها قرب النيل ، ولا يزرع الآن فى مصر ولكنه

---

(١) واسم هذا النبات العلمى (Cyperus Papyrus) ولا يعلم أصل كلمة بابيروس ولعلها من كلمة مصرية قديمة ٠

موجود فى السودان حيث ينمو الى ارتفاع (٢٠ ـ ٢٥ قدما) • وطريقة صنع ورق البردى ان ساق النبات كان يقطع الى شرائط رقيقة وتوضع هذه جنبا الى جنب بهيئة أفقية ، ويوضع فيما بينها محلول خفيف من الصمغ وتضغط من بعد ذلك الصحائف المعمولة على هذا الوجه وتجفف ويمكن صنع لفات كبيرة من هذا الورق بوصل عدة صفائح منها • ولدينا الآن أطول لفة من البردى موجودة فى المتحف البريطانى (طولها ١٣٥ قدما وعرضها قدم واحد وخمسة انجات) •

ومما يقال في مثل هذه المادة من الكتابة انها ساعدت الكتبة المصريين على تدوين النصوص المطولة المستمرة مما كان أصل «الكتاب» ، بخلاف مادة الكتابة عند العراقيين القدماء التى لم تساعدهم فى هذا الامر ، لانه لا يمكن كتابة نص مطول فى الواح الطين بالمقارنة مع أوراق البردى ، كما ان جملة ألواح يصعب حفظها بعضها مع بعض مما جعل العراقيين القدماء ينشئون أولى دور للسجلات (Archive) فى تأريخ الحضارات •

الادب :ـ

لقد سبق أن ذكرنا شيئا موجزا عن الكتابة المصرية القديمة ، فنذكر من بعد هذا بحثا مختصرا عن الادب عند المصريين القدماء ، وقبل أن نبدأ بذلك نشير الى تراث مصر القديمة فى الحضارة اليونانية من جهة الكتابة ولعله الادب أيضا • فقد أخذ اليونان عن المصريين مواد الكتابة (أى الورق المصنوع من البردى) حتى ان اسم «الكتاب» بالاغريقية (أى بيبليوس) مشتق من المدينة الفينقية «بيبلوس» (وهى جبيل) لان مصدر الورق البردى عند الاغريق كان من هذه المدينة[١] • ويعد بعض المؤلفين من الاغريق أن مصدر الفلسفة عندهم هى مصر • واذا كان هذا الرأى لا يصمد أمام النقد ، الا انه يشير الى تأثر الاغريق بكثير من أوجه الحضارة المصرية ، ولكن نقض هذا الرأى لا يمنع أن تكون الآداب المصرية والبابلية القديمة قد حفزت الاغريق بصورة غير

(١) وهكذا اشتقاق اسم التوراة أى (Bible)

مباشرة الى ابداعهم فى حقل الادب الرفيع ، وكان الفينيقيون من جملة هـذه الطرق غير المباشرة ، والطريق المهم الآخر بلاد فلسطين التى تأثرت بالحضارة المصرية تأثرا عظيما ، ويبدو أثر ذلك فى الكتابات العبرانية المقدسـة (فى التوراة) ، وهى الكتابات التى يظهر فيها أثر الآداب المصرية القديمة ولا سيما فى باب الحكم والامثال مثل أمثال سليمان التى يوجد لاكثرها أمثال مصرية مضاهية[١] .

وأول أمر تجدر ملاحظته عن الادب المصرى القديم هو انه كان نتاجا مصريا صرفا ، نشأ ودرج فى وادى النيل ، فهو والادب القديم فى وادى الرافدين أقدم أدب للانسان ظهر فى التأريخ . ويشبه الادب المصرى القديم من ناحية نشوئه وترعرعه فى أرض مصر عناصر الحضارة الاخرى التى بذرت بذورها فى تربة وادى النيل منذ أقدم عهود التأريخ . هذا ولا يستبعد وجود نوع من الادب الشعبى كالقصص والتراتيل الدينية والشعائر وما الى ذلك قبل ظهور فن الكتابة فى مصر . ولعل أقدم نموذج أدبى مكتوب هو من نوع التراجم الشخصية (Autobiography) ويرقى هذا الفن الى عهد ملوك السلالة السادسة . وجاءت من عصر الاهرام كتابات دينية هى «النصوص الهرمية» التى كانت أشبه ما تكون بالرقى والتعاويذ الدينية ، واشتهرت فى عصر الاهرام مجاميع الامثال والحكمة وجاءتنا أسماء من حكماء هذا العهد أمثال «امحوتب» ، كما جاءتنا قطع قصيرة من القصائد الشعرية ، وهى تمتاز بالاعادة والتكرار

---

(١) انظر بوجه خاص مجموعة الحكم والامثال المصرية المعروفة باسم ارشاد (امنم اوفت) (من حدود القرن العاشر ــ السادس ق . م) ، انظر ترجمتها فى **Ancient Near Eastern Texts, 421 ff.**

ومن القصص المشهورة الموجودة فى الكتب المقدسة (التوراة والقرآن) قصة السنين السبع العجاف فى مصر . وقد نقش هذا الخبر عن هذه السنين التى حلت فى مصر فى الحجر فى بحيرة قرب الشلال الاول ، كما توجد اشارات فى النصوص الاخرى الى هذا السنين . ومع أن النقش المذكور يرجع فى تاريخه الى عهد البطالسـة الا انه ينص على ان الحادثة وقعت فى عهد السلالة الثالثة (فى زمن الملك زوسر) .

(انظر ذات المصدر الص ٣١ فما بعد)

اللذين يكونان مملين فى بعض الاحيان • وقد رأينا هذه الصفة فى الشعر البابلى ، والاعادة والتكرار من ميزات الشعر المصرى القديم حتى فى الازمان المتأخرة • ومهما يكن من أمر فانه لم تأتنا من الادب المصرى القديم من عهد المملكة القديمة الا نماذج جد قليلة • وبعد نهاية عصر الاهرام فى ختام السلالة السادسة جاءتنا نماذج مهمة من نتاج الادب القديم ، وقد وصل فن الادب درجة الارتقاء والاتساع منذ ذلك الحين ، وبلغ فى عهد المملكة الوسطى شأوا عاليا • ولعل أبلغ قطعة أدبية من عهد المملكة الوسطى هى القصة المعروفة بقصة «سينوهى» وهى قصة مصرى هرب الى فلسطين على أثر اكتشافه مؤآمرة لاغتيال الملك ، وقد وصف هربه بوصف تصويرى أخاذ • وفى القصة قطعة جميلة تصور لنا كيف استبد ببطل القصة الحنين الى وطنه عندما تقدم فى السن على الرغم مما أصابه من نجاح وثروة فى موطنه الجديد، فبث لواعجه وشجونه فى شعر حزين ما أن طرق اسماع الفرعون الا وأرسل يستدعيه الى الوطن الحبيب ، وتصف لنا القصة وصفا بارعا تشوبه العاطفة والاحاسيس عودة ذلك الغريب الى بلده وكيف استقبل فى بلاط الفرعون بحفاوة وتكريم ، وقبل ذلك تصف القصة مشهدا لطيفا مؤثرا يبدو فيه الفرعون وزوجته وبناتها الاميرات وقد أنكرن حال «سينوهى» وتبدله وهو يلبس فى وعثاء السفر لباسا أجنبيا غريبا : « قال جلالته لزوجه الملكة : أنظرى «سينوهى» ترى أنه قد جاء وكأنه آسيوى ، من نسل قوم السيتو • فصرخت صرخة كبيرة ، وصرخ الامراء الاطفال جميعا وقالوا لجلالته : حقا انه ليس هو ، ياذا الجلال والسلطان فأجاب جلالته : نعم انه هو »[١] •

ومن القصص التى جاءتنا من عهد المملكة الوسطى وتكاد تكون كاملة قصتان احداهما تشبه قصة السندباد البحرى ويمكننا أن نعنونها «الملاح التائه» والثانية «الفلاح البليغ» فتروى لنا القصة الاولى رواية ملاح تحطمت

---

(١) انظر أحدث ترجمة للقطعة فى
Ancient Near Eastern Texts, (1950), 18 ff.

سفينته فالتجأ الى جزيرة جرداء وقد لاقى فيها أهوالا وعجائب ، ومن ذلك حديثه مع ثعبان هائل الحجم • وتتلخص القصة الثانية بوصف شكاة فلاح قد سرقت منه بضاعته • وتدور هذه القصة الممتعة على فكرة العدالة الاجتماعية التى شاعت فى عهد المملكة الوسطى ، ووجوب شمولها الطبقات الوسطى والدنيا • وملخص القصة ان فلاحا كان يعيش فى «نطرون» عزم مرة على الذهاب الى المدينة فى مصر العليا ليختار بضاعة له ، فأخذ من نتاج حقله وحمله على الحمير وبدأ فى رحلته ، فلما أن بلغ فى الطريق موضعا معينا التقى برجل فى شاطىء النهر ، وكان هذا وكيل الارض الخاصة بأحد الاثرياء ، فلما رأى هذا الوكيل بضاعة الفلاح المحملة سول له الطمع والجشع سلبها • وكان بيت الوكيل يقع على طريق ضفة النهر الضيق الذى ينبغى أن يسير فيه الفلاح مع بضاعته ، وكان بعضه مزروعا بغلة الوكيل ، والجزء الآخر يحاذى النهر وقبل أن يمر الفلاح منه جلب الوكيل رداء وفرشه فى شقة الطريق غير المزروعة الضيقة • فاقترب الفلاح واجتاز الطريق ببضاعته واضطر على أن يطأ الرداء الموضوع ، فصاح به الوكيل قائلا «كيف تجرؤ أيها الفلاح على أن تطأ فراشى بحميرك ؟» • فاعتذر الفلاح وقال حسنا سأتحاشى السير فوق الفراش ، فحاد فى اتجاهه الى الشقة المزروعة المحاذية للقسم المفروش ، وعند ذلك نهره الوكيل وقال له «كيف تجرؤ على دوس زرعى ؟» • فأجابه الفلاح وقال «اننى أسير فى السبيل العام» ، وفيما كان الفلاح يحاوره اذا بأحد حميره ينهش من زرع الوكيل قبضة من الزرع ، فكان ذلك حجة للوكيل حيث أراد الاستحواذ على حمار الفلاح الذى أخذ يحتج وقال للوكيل : اننى لم أسىء اليك وانما سرت فى الطريق العام ، ولا يجوز أن تأخذ حمارى بقبضة زرع • ثم اننى أعرف مالك هذه الارض • انه الموكل بايقاع العقاب بكل سارق فى جميع هذه البلاد • فهل اسلب فى أرضه ؟» • فأخذ الوكيل هذا الجواب حجة على الفلاح متهما اياه بالطعن فى سيد الارض ، فلم يحاججه أكثر من ذلك وانما أخذ

هراوة غليظة وانهال بها ضربا مبرحا على الفلاح واغتصب منه حميره وبضاعته، فأخذ الفلاح بالبكاء والصراخ ، وعندها هدده الوكيل بأنه سيزيد من ضربه لانه يهين السيد صاحب الارض بما أحدثه من صراخ وضوضاء مزعجا بذلك «سيد الصمت والهدوء»[١] • وعندها أجاب «الفلاح البليغ : » لقد ضربتني ، وسلبت بضاعتي ، ثم تريد أن تمنعني حتى من الشكوى • يا «سيد الصمت والعدالة» أدعوك أن ترد الي بضاعتي ، فلا أبكي وأصرخ وأزعجك» •

وهكذا ظل الفلاح طوال عشرة أيام وهو يتوسل بوكيل الارض فلم يسمع شكاته • فذهب الفلاح الى مدينة «هيراكليوبوليس» ليشتكى الى سيد الارض في تلك المدينة ، فأدركه وهو عازم على القيام برحلة رسمية مع بطانته من الموظفين ، فسمح له هذا السيد على عرض شكاته على أحد هؤلاء الموظفين، فسجل شكوى على الوكيل ، ولكن الموظفين استهانوا بخطر الدعوى ، وان هذا الفلاح قد يكون من فلاحي الوكيل ، وفي هذه الحالة يمكن تسوية القضية تسوية سهلة • ولكن الفلاح أصر على الشكوى وأخذ يتكلم بحكمة وبلاغة جريئتين • والظاهر ان «السيد» الكبير أعجب بجرأة الفلاح وبلاغته فأوصل الامر الى ملك البلاد[٢] فأمر هذا الملك أن تكتب شكوى الفلاح وحججه وتقدم اليه وان تكفل معيشته حتى ينظر في أمره • فقدم الفلاح شكاته البليغة المملوءة بحكم العصر وأمثاله عن العدالة • وكانت نتيجة الحكم أن صودرت أملاك الوكيل وجرد من وظيفته وسلمت الى الفلاح البليغ[٣] •

ومن النماذج الادبية الطريفة قطع خصصت للاشادة بفن الكتابة وسمو مقام الكتبة • ومن هذه القطع نصيحة أو وصية من والد اسمه «دواف»

---

(١) المقصود بسيد الصمت هنا الاله اوسيريس ، اله الموتى ، وكان قد أقيم له مزار قرب هذا الموضع الذى جرت فيه حوادث الرواية ؛ وكان اوسيريس في الوقت نفسه اله العدل •

(٢) وكان هذا أحد الملوك الذين حكموا في الفترة المظلمة من بعد عصر الاهرام

(٣) انظر نص القصة في **Ancient Near Eastern Texts,** 407 ff.

الى ولده «خيتى» الطالب فى المدرسة وهى ترينا مركز المتعلمين فى المجتمع وأخذهم وظائف الدولة، وكان الاب عاملا فى السفن فى عهد الامبراطورية على ما يبدو . واليك نماذج من هذه النصائح الطريفة : «لقد رأيت من يضرب ، فعليك أن تقبل بكل قلبك على تعلم الكتابة ، فلا شىء يفوق الكتابة . سأعمل على جعلك تحب الكتابة أكثر من حبك لامك . انها أعظم من أى وظيفة ... لقد رأيت المعدّن وهو فى عمله بجوار فتحة فرنه . ان اصابعه لتشبه التماسيح ، انه مضنى متعب أكثر من عامل الفأس .. وهذا المشتغل بالاحجار الثمينة ، فحين ينهى صنع شىء نفيس تموت ذراعاه .. وذاك الحلاق اذ يشتغل متجولا الى الغسق . والتاجر المترحل الذى يسير بالسفينة الى الدلتا ، فاذا أنهكه التعب وأراد الراحة فان البعوض والذباب يهلكه .. والبناء الصغير وصانع اللبن ، انهما أقذر من الخنزير . ودعنى أخبرك بحال بانى الجدران . ان الالم يمض جنبيه ، وذراعاه كليلتان من العمل . ولا يغتسل الا فى كل موسم . انه تعس شديد التعاسة» .

وبعد أن يعدد الاب تعاسة أصحاب الحرف الاخرى يعيد على ولده النصح من انه ينبغى له أن يقبل على تعلم الكتابة ليصبح «كاتبا» فيستطيع أن يدخل فى سلك القضاة ، فان حرفة «الكاتب» لا تفوقها حرفة . فهو وافر العيش من بيت الملك . (Ancient Near Eastern Text, 431 ff).

وجاءنا نوع آخر من هذا الادب القديم تطغى عليه روح التشاؤم ، وتبدو فيه حيرة الانسان وجزعه من نفسه . وقد جاءتنا عن ذلك قطعة أدبية طريفة تدور على حوار بين انسان جازع من الحياة والعيش وبين «نفسه» فلما أن وجد ذلك الشخص الحياة لا تطاق فكر فى الانتحار ، وأخذ يقنع نفسه بالامر ، وكانت نفسه مترددة ، فقد وافقت فى مبدأ الامر ، ولكنها خشيت العاقبة من أن صاحبها سوف يحرم من اقامة الشعائر الخاصة بالدفن من بعده فيصيبها الهلاك من جراء ذلك ، فزينت له الانغماس فى الحياة وفى حسراتها ولذاتها، وانها ستظل ملازمة له . وتتمثل فى أقوال تلك «النفس» صائح

الحكماء الذين وصفوا هذه الحياة بالفوضى ، وان كل شيء فيها معوج لا يسير على الوجه الصحيح ، ولا تكون فيها الاشياء والامور في مواضعها الصحيحة ، ولا وجود للحرمة وللفضيلة في أي مكان • وكانت روح العصر تتطلع الى منقذ ومخلص •

واذا ما أتينا الى عهد الامبراطورية ، فان أحسن نماذج جاءتنا من هذا العهد كانت من السلالة الثامنة عشرة ، ويمثل ذلك أحسن تمثيل الاغاني والتراتيل الدينية المنسوبة الى اخناتون وهو الملك الذي قام بأعظم ثورة دينية وأول من وحد على ما بيناه سابقا ، وكان نفسه شاعرا «فنانا» ذا شعور مرهف وخيال واسع • ولنأخذ بعض القطع المختارة من «ترتيلة اتون» الشهيرة التي نظمها اخناتون ، وهي ترتيلة سامية في أفكارها ومعانيها وفي صفاء فكرة توحيدها • وقد وجد غير واحد من الباحثين تناظرا وشبها بين هذا الشعر وبين المعاني السامية الواردة في المزامير (ولا سيما المزمور الرابع بعد المائة)[١] :

« ما أبهى وأجمل شروقك في أفق السماء ـ يا «اتون» الحي يا مبدأ الحياة !

« حين تطلع في الافق الشرقي تملأ كل أرض بجمالك وجلالك »

« أنت رحيم ، عظيم ، سني مضيء ، تعلو فوق كل أرض »

« تحتضن أشعتك جميع الارضين وجميع ما صنعت »

« أنت «رع» وأنت «الكل» • أنت متسام في البعد ! ، ولكن نور أشعتك فوق الارض » •

« وحين تغرب في الافق الغربي من السماء ، يلف الظلام الارض كالموت ، وتكن المخلوقات كل في مأواه ، والظلام كالكفن ، والارض في صمت وسكون • لان الذي صنع الكل مستقر في أفقه » •

---

(١) انظر ترجمة الترتيلة والتعليق عليها في
Ancient Near Eastern Texts, 369 ff.

« وعند بزوغ الفجر ، حين تظهر فى الافق ، وحين تشرق مثل «اتون» فى النهار ، فتطرد الظلمة ، وتزهو «الارضان» فتدب الحياة والحركة ، وينهظون على أقدامهم لانك أقمتهم •• ويرفعون بأيديهم يمجدون ظهورك» •

ويستمر فى بيان كيف تدب الحياة فى جميع المخلوقات التى تكون فى غبطة وحبور فى تمجيد الخالق العظيم ، ثم ينوه بخلق الانسان وجميع الاشياء وكيف ان خلقه كثير لا يحصى محجوب عن أعيننا فلا ندرك جميعه • وانه الاله الاوحد الذى لا مثيل له فى القدرة والحول •ويصف كيف أنه أوجد نيلا فى الاعماق لاهل مصر وأوجد نيلا فى السماء للبلدان الاخرى لكى يزودهم بالماء والحياة • ثم ينوه بوحيه لاخناتون الذى يتفرد بمعرفته وحده من دون الخلق ، فهو ابنه الذى وهبه الحكمة •

والى ذلك خلف لنا المصريون القدماء من عهد الامبراطورية نماذج متنوعة من الادب القصير ، كالرسائل وقطع الانشاء القصيرة المتنوعة • وأكثر ما يجلب انتباه القارىء فيها الناحية النفسية والثقافية ، وهما الناحيتان اللتان تطغيان عليها أكثر من الادب الصرف وشاع عندهم نوع من رسائل الهجاء والسخرية التى كان يتقاذف بها الكتبة ، ومن أنواع الادب المهمة «الشعر الغنائى» ، ولا سيما شعر الغزل الرقيق ، وقد جاءتنا منه بعض النماذج الجميلة• ونوع آخر من الشعر نجد فيه روح عدم الاكتراث بالموت والترحيب به ، وتبدو عليه الروح الابيقورية ، ومبدأ «كل واشرب وكن مسرورا ، فغدا نموت» وهذا يضاهى ما ورد فى قصيدة «جلجامش» البابلية •

وبامكاننا أن نقرر بوجه الاجمال انه كان للمصريين أدب هو من أقدم الآداب العالمية ، وانه ذو مكانة سامية حتى لو قيس ووزن بمقاييس الادب العالمى على الرغم من ان النماذج التى جاءتنا قليلة جزئية ، وان قسما مما جاءنا غير كامل ، ومع ذلك فهى تمكننا من أن نكون صورة لا بأس بها عن أقدم

محاولات للانسان للتعبير عن شعوره وأحاسيسه وعلاقة ذلك بالبيئة التى يعيش فيها[١] .

الفن

لعل أول ما يجلب انتباه الباحث فى حضارة مصر القديمة ان أبرز عنصر فيها «الفن» وان هذا الفن قد بلغ مرحلة باهرة من النضج فى عهد قديم جدا من عهود الحضارة المصرية ، وهو عهد المملكة القديمة ، فقد سبق أن نوهنا بشىء عن الفن فى عصر الاهرام ، وان أصول هذا الفن مجهولة يحجبها الظلام حتى الآن ، فتبدأ معرفتنا به فى عهد المملكة القديمة وهو فى طور الازدهار ، ولكن ينبغى أن يكون قد سبقته عهود تطور فيما وراء ذلك ، مما نجهلها الآن • والامر الثانى المهم الذى تجب ملاحظته عن الفن المصرى انه لم يكن فنا جامدا ثابتا ظل على وتيرة واحدة منذ عهد ازدهاره ، كما توهم بعض الباحثين ، بل انه مرت عليه أطوار مختلفة منذ عصر الاهرام خضع فيها الى التغيير والتطور ، كما تشهد على ذلك مآثر المملكة الوسطى والآثار الفنية التى جاءتنا من عهد « العمرانة » (عهد الامبراطورية) • وقد قلبت الاكتشافات المثيرة فى قبر «توت عنخ آمون» (فى عام ١٩٢٢ ـ ١٩٢٣) تلك الآراء القديمة ، حيث زودتنا بنفائس من الفنون الفرعية ، كالصياغة والمجوهرات وغير ذلك مما القى ضوءا عظيما على الفن المصرى فى عهد السلالة الثامنة عشرة •

---

(١) لقد ترجمت أغلب القطع الادبية فى :ـ
A. Erman. **The Literature of The Ancient Egyptians** (1927)
وقام بعض الباحثين بدرس مقارن بين الآداب القديمة وعلى رأسها الادب المصرى والبابلى راجع :ـ
T. E. Peet. **A Comparative Study of the Literatures of Egypt, Palestine and Mesopotamia,** (London 1931).
وكذلك ترجمت القطع الادبية أحدث ترجمة فى المصدر الذى أشرنا اليه كثيرا وهو :ـ
Ancient Near Eastern Texts, (1950).



العمد الضخمة فى صحن القاعة الكبرى فى معبد الكرنك
من عهد الامبراطورية

ونقطة ثالثة تجلب انتباهنا حول الفن المصرى هو أن معرفتنا به وبنماذجه من أغلب عهوده مستقاة مما خلفه لنا المصريون فى القبور والمعابد الملحقة بالاهرام والقبور ، وقد دعا هذا الامر البعض الى الامر الى اعتقاد خاطىء هو أن وادى النيل كان أرض الاموات وحضارته حضارة الموتى . فالواقع ان مصدرنا الاساسى عن مظاهر الفنون من القبور والمعابد ، ولكن ذلك يدل على عناية

القوم واهتمامهم الشديد بالفنون ، والا لما شغل الفن هذه المكانة المهمة التى كان عليها الفن فى حياة الناس ، وهو أمر تعكسه لنا شعائر الدفن وما يتعلق بالقبور لان هذه القبور نسخة ثانية لهذه الحياة ، حيث أودع فيها الفراعنة والامراء والنبلاء كل ما كانوا يحتاجون اليه فى هذه الحياة ، ومن بين ذلك الصور والرسوم الزاهية التى تزين جدران المعابد الملحقة بالاهرام وفى جدران القبور مما وجد فى عهد المملكة القديمة • وهناك أمر فيه شىء من سوء الفهم لتقدير الفنون القديمة ، ولا سيما فن الرسم والتصوير عند المصريين وعند سكان وادى الرافدين وقد سبق لنا أن نوهنا به فى الفصل الخاص بالفن فى حضارة العراق ، ويدور هذا الامر على تطبيق القواعد والاصول الحديثة فى فن الرسم على تلك الفنون القديمة ، وهو أمر لو فعلناه لما استطعنا أن نقدر تلك الفنون كما ينبغى لها أن تقدر • فهناك ، كما ذكرنا ، طريقتان لرسم الاجسام وتصويرها فى السطوح المستوية • فالطريقة الاولى يصح أن نسميها بطريقة الرسم الهندسى (Geometrical) ، والثانية طريقة رسم الشىء كما ينظر اليه الرائى (فن المنظور Perspective) ، فالطريقة الثانية وهى أحدث الطريقتين تمثل الاجسام ذات الابعاد الثلاثة كما تبدو للرائى فى المكان ، أى تمثل الاجسام كما تتراءى لنا ، ولكن الطريقة الاولى ، عكس ذلك ، تمثل تلك الاجسام كما هى بحقيقتها لا كما ينظر اليها الرائى ، وسارت على الطريقة الاولى الفنون القديمة الى أن اخترع الاغريق « فن المنظور» • فاذا ما أردنا أن نجعل من أنفسنا نقادا للفنون القديمة فنصيب كبد الحقيقة فى نقدنا لتلك الفنون وجب علينا أن نجرد أذهاننا من جميع ما نعرفه عن قواعد الرسم الحديثة • ولان كثيرا من الدارسين للفنون القديمة لم يفعلوا ذلك فقد أصدروا حكما خاطئا فيما يخص الاساليب الخاصة بالرسوم المصرية القديمة • وهكذا كان الحال فى الفنون التصويرية مما خلفته لنا حضارات وادى الرافدين • ومن الملاحظات العامة التى يجدر ذكرها عن ميزات الفن ومكانته فى حضارة مصر ، ان فن العمارة أبرز فرع برعت فيه تلك الحضارة ويليه فن النحت الراقى بكلا نوعيه المجسم والنحت البارز ، أما النقش

والرسم (Painting) فكان أقل شأنا من النحت وكان يستخدم للتزويق والتجميل بالدرجة الاولى ، ونذكر من نماذج فن العمارة ، المعابد الضخمة الملحقة فى القبور والاهرام ، وفن العمد الضخمة فى «الاقصر» والكرنك من عهد السلالة الثانية عشرة وعهد الامبراطورية (انظر الشكل فى ص ١٣٦) الى السلالة الثانية والعشرين • ويصح أن نقول بالنسبة الى فن العمارة والنحت ان المصريين القدماء كانوا أعظم بنائين ونحاتين فى التاريخ وقد حدث انحطاط وتوقف فى الفترة المظلمة من بعد عصر الاهرام ولكن استأنف الفن حيويته فى عهد المملكة الوسطى ولا سيما فى زمن السلالة الثانية عشرة •

ونبدأ الآن بأخذ بعض النماذج من الفنون المصرية بحسب أدوارها منذ أقدم العهود :ـ

قبر « زوسر » :

تقوم الآن فى صقارة جدران عظيمة من حجر الرخام تحيط ببناء مقدس (مساحته ٤٩٠ × ٢٩٥ ياردة) ، وقد زينت هذه الجدران من الخارج بنوع من الزينة المعمارية من دخلات وطلعات (Recesses and Buttresses) بموجب طراز أبنية العراق القديم • ويقوم وسط البناء هرم مكون من سبع طبقات تخفى تحتها غرفة من حجر «الغرانيت» • وكان الهرم المصرى على هذا الطراز مدرجا بهيئة طبقات بخلاف الاهرام التى نشأت منذ عهد السلالة الرابعة التى لم تكن مدرجة بل كانت سطوحها ملساء • وترقد فى تلك الحجرة المذكورة «موميا» الملك العظيم «زوسر» ، من أعاظم ملوك السلالة الثالثة ، ويزودنا هذا البناء بفكرة جلية عن الفن المصرى القديم ، ولا سيما فن العمارة ، اذ أن هذا الموضع فى الواقع مدينة مكونة من قصور ومعابد فخمة تبدو عليها المهابة فى صفوف العمد الجميلة ، وقد صنعت هذه العمد بهيئة حزمة من البردى وهى ذات طراز لا يوجد ما يضاهيه فى اطرزة العمارة من الادوار التى أعقبت زمن السلالة الثالثة • ولعل أول ما يؤثر فى الداخل الى تلك

البناية ضخامة البناء والتناسب والتناسق والبساطة فى الزينة • وتشاهد بعض الاعمدة وقد زينت بخطوط محفورة على طولها (Fluted) وهو الطراز المعروف «بالدورى» فى العمارة الاغريقية • وزينت سقوف حجرة اللحد المعقودة بزخرفة من الخزف البراق ونحتت بالنحت البارز بصور من بينها صورة تمثل الملك «زوسر» وهو يقوم ببعض الشعائر الدينية • ووجد فى الحجرات قرب الهرم تمثال نفيس من الحجر للملك نفسه •

الاهــرام :ـ

لقد سبق وصف هذه الاهرام فى موضع آخر من هذا البحث فارجع اليه فلم يبق الا أن نذكر شيئا مختصرا عن الفنون التى وجدت فيها علاوة على ما ذكرناه من قبل • فقد سبق أن ذكرنا ان المعابد الملحقة بالاهرام لعبادة الفرعون الميت كانت مزينة بالمنحوتات والتصاوير مما يمثل لنا نواحى مهمة من الحضارة المصرية والحياة الاجتماعية عند المصريين القدماء • ومثل ذلك يقال فى المزارات والمعابد الخاصة المعروفة «بالمصاطب» • فنجد فى هذه البنايات مجموعات كبيرة من تماثيل الاشخاص التى تمثلهم تمثيلا واقعيا كما كانوا فى الحياة • وكان يؤم هذه التماثيل فى ابان الاعياد الدينية الكهنة وأقرباء الملك • ويقيمون لها بعض الشعائر الدينية حيث اعتقدوا ان أرواح الموتى الذين تمثلهم هذه التماثيل تحل فيها بفعل الاعمال السحرية • وقد وضعت تلك التماثيل فى حجرات صغيرة هى بمثابة سراديب يكون الاتصال بها بواسطة كوى ضيقة • وتعد بعض هذه التماثيل من القطع الفنية الممتازة فى الفن المصرى ، ومن بين ذلك تمثال الملك خفرع نفسه • وتمتاز هذه التماثيل أكثر ما تمتاز به التمثيل والتعبير الواقعى وتدل على مهارة النحاتين •

وزودتنا مقابر المملكة القديمة بأنفس النماذج من النحت البارز (Bas relief) • ومما يدهش فى المشاهد التى تمثلها هذه المنحوتات أنها لا تمثل لنا الآلهة أو الملوك أو الامراء بالدرجة الاولى بل صورا من عامة الشعب ـ كالفلاحين والصيادين وصائدى السمك والصناع والملاحين والخدم،

وقد مثلوا وهم مزدحمون أمام قبر سيدهم ليزودوه بمـا يحتاج اليه فى عالم الخلود • وبرع الفنانون فى تصوير المشاهد الطبيعية المألوفة فى وادى النيل ـ كالنهر والسفن التى تجرى فيه والبحيرات والجداول وما فيهـا من أزهار وأطيار ، وكذلك الصيد فى البادية وقد وفق الفنان توفيقا عظيما فى تصوير الحيوان والطيور وحركاتهـا ، وكذلك وفق فى الصور الآدميـة • ولكنه استعمل الطريقة الهندسية التى أشرنا اليها اذ ان فن المنظور لم يصل الفنان القديم الى معرفته •

ومن الامثلة على فن النحت بعض القطع الفنية الخالدة مثل تمثال الملك خفرع المنحوت من حجر الديوريت الذى يزين متحف القاهرة الآن وكذلك تمثال زوسر (السلالة الثالثة) وتمثال منكورع ، وتمثال «شيخ البلد» المشهور، وتمثال الكاتب (الموجود فى متحف اللوفر) •

المملكة الوسـطى :ـ

واشتهرت القبور من عهد المملكة الوسطى بما احتوت عليه من نماذج مصغرة للبيوت والسفن والمخازن والخدم والاشياء الاخرى مما كان يدفن فى القبر ليقوم مقام الاصل ، وقد نجد فى بعض الاحايين نماذج لحدائق غناء وفيها مشاهد الانس والطرب ، وكانت القوارب أكثر ما جاءنا من هذه النماذج المصغرة وهى ذات أهمية خاصة بالنسبة الى صناعة السفن فى مصر القديمة ، ونجد من بينها «الذهبية» الخاصة بالنيل والقوارب الخاصة بالحشم والخدم وقد زودت بأدوات الطبخ • ومما يقال فى الفن فى عهـد المملكة الوسطى ما سبق أن نوهنا به من انتعاش الفن وانطلاقه من قيود العرف الدينى، ذلك العرف الذى جعله جامدا فى عهد الفترة المظلمة السابقة التى أعقبت عصر الاهرام ، ونذكر من الامثلة على فن النحت فى عهد المملكة الوسطى ، ولا سيما عهـد السلالة الثانية عشرة ، بعض المنحوتات التى تمثل مشاهير ملوك هذه السلالة مثل رأس امنمحيت الثالث من حجر الديوريت الاسود وتمثـال سنوسرت الثالث الضخم • وتدهور الفن فى عهـد الهكسوس بحيث يصح القول انه زال من الوجود تقريبا •

عهـد الامبراطورية : الكرنك :-

لقد سبقت الاشارة الى معبد الكرنك فى طيبة الذى لا يضاهيه أثر فى العالم • وبوسع من يزور الكرنك زيارة فاحص أن يقف على آثار ثلاثين قرنا من التأريخ ، وبوسعه أن يقرأ أخبار أكثر من حضارة واحدة •

ونجـد فى جـدران معبـد الـكرنك وصفوف عمـده الشـامخة النفيسة فصولا من التـأريخ البشرى قد نقشت على تلك الجدران ، ونقف فيها على الكفاح بين الامبراطوريات التى قامت فى الشرق القديم وهى تتنازع على سيادة العالم القديم مثل الامبراطورية المصرية والحثية • ان كل ذلك قد خلده لنا الفنان المصرى والكاتب المصرى الذى لم يقل عن زميله فى الزخرفة الكتابية • وينبغى للزائر أن يكون على معرفة بلغة تلك الآثار الجليلة والا طغت عليه فكرة الفخامة والضخامة فيصعق بروعة ذلك التـأثير وتفوت عليه معانى تلك الفصول المدونة فى التأريخ البشرى • والضخامة والفخامة أبرز ما فى فن العمارة فى مصر القديمة • فكأن من أشـاد تلك الابنية وتصور فكرة بنائها لم يكن من البشر العاديين بل جنسـا من العماليق طول الرجل «منهم مائة قدم» ، كما قال شامبليون (ص ١٣٦) •

الدير البحرى (عهد الامبراطورية أيضا) :-

وهـذا موضـع آخر يحوى العجـائب مـن حضـارة مصـر القديمـة • وهـو فى الواقـع « أرض الامـوات » ، اذ يـكاد لا يخلو منـه شبر واحـد لـم يسـتعمل فى حفر موضـع لحـد أو يخلو من آثار النبش لسرقة الكنوز التى أودعها اولئك الناس القدامى فى قبورهم • والى ذلك فان الدير البحرى موضع معبد مهم يسمى كذلك بالدير البحرى وهو اسم دير قبطى حديث يقوم فوق خرائب المعبد القديم • وبوسعنا أن نحصل من زيارتنا لهذا المعبد على صور تتمم ما حصلنا عليه من الكرنك والاهرام فنشاهد فى هذا الموضع صفوف العمد والاروقة والاواوين والقاعات الفخمة ، مما يساعدنا

على تكوين فكرة عن الفنون فى عهد الامبراطورية • وقد أقامت الملكة «حاتشبسوت» هذا المعبد الفخم تخليدا لذكرى والدها •

ويحسن بنا أن نذكر الى جانب الدير البحرى ، المآثر المهمة الموجودة فى «أبو سمبل» حيث نجد مآثر الامبراطورية ، ومن ذلك تماثيل الآلهة الضخمة ومن بينها تمثال الملك «رعمسيس» الثانى وهو الذى أقام ذلك البناء التذكارى •

قبر توت عنخ امون :ـ

اتجه اهتمام العالم فى شتاء عام **١٩٢٢ ـ ١٩٢٣** الى « وادى الملوك » فى طيبة • فقد تحقق هنا اكتشاف فريد فى بابه ، وهو انهم وجدوا قبر الفرعون «توت عنخ آمون» سالما لم يعبث به • والذى زاد فى خطورة الاكتشاف ان الفرعون الذى عثر على قبره لم يكن من الملوك العاديين بل انه مشهور بانه خلف «اخناتون» وكان حكمه نهاية عهد «العمرانة» • ويمثل قبره عهدا بلغ فيه الفن المصرى فى عهد الامبراطورية الذروة والاوج •

ويتألف القبر الملكى الذى أثار اكتشافه رجة حماس فى العالم من أربعة حجرات وجدت ملأى بالآثار من مختلف الاصناف والاشكال ، بعضها حلى وجواهر من قصر الملك ، وبعضها نسخ عن كنوز قيمة يرجح ان الملك الذى أعقب الفرعون الميت قد احتفظ بها لنفسه وأودع بدلا منها فى قبره تلك النسخ وهناك أدوات وأشياء كثيرة صنعت بوجه خاص لتلك المناسبة ، أى لتدفن فى قبر الملك الراحل ، ومن ذلك توابيت بعضها داخل بعض ، وصنع التابوت الذى فى باطن الجميع من الذهب الخالص وهو يعد ، الى قيمته المادية ، نصرا عظيما فى فن الصياغة ، ومن النفائس التى وجدت داخل التابوت الباطنى الصندوق الذى يحتوى على جسم الملك المحنط ، وهو مصنوع من الخشب المظفور بالذهب والميناء ومعه أربعة تماثيل صغيرة تمثل آلهة هى على قدر عظيم من دقة الفن وروعته وعندما رفع غطاء الصندوق ، ظهرت أربعة

رؤوس من المرمر المنحوت الملون تمثل شخصيات ملكية ، يمكن عدها انها تمثل صورا من الملك الراحل من أدوار مختلفة من شبابه ، وقد وضعت لتغطى أحشاء الملك الميت التي أودعت في صناديق مزينة بالجواهر . هذا ولا تقتصر هذه الآثار وغيرها من الادوات والمجوهرات على اظهارها مبلغ الثروة والبذخ في عهد الامبراطورية بل تصور لنا كذلك تصويرا جليا الذروة التي وصل اليها الفن المصرى القديم[١] .

القانون والشريعة

لم يأتنا فيما قبل عهد الاسكندر الكبير من عهود الحضارة المصرية الا أشياء قليلة عن الشرائع المصرية والانظمة القضائية . وباستطاعتنا أن نقول انه لم تأتنا حتى الآن شريعة مدونة من مصر القديمة على طراز ما مر بنا من شرائع العراق . وفيما خلا الاشارات والادلة غير المباشرة عن وجود بعض المواد المكتوبة في العهود القديمة فاننا لا نعرف شيئا آخر عنها . وسبيلنا في معرفة شرائع مصر القديمة ينحصر في الوثائق القانونية . واذا ما بدأنا بعهد المملكة القديمة فاننا لا نجد الا القليل من هذه الوثائق مما حفظ بأصله في ورق البردى من ذلك العهد وأقدم وثيقة في هذا الباب حكم قضائي مدون من عهد السلالة السادسة (٢٤٢٠ - ٢٢٩٤) . وهذا يعنى ان الدلالة على وجود القانون في مصر لم تظهر الا بعد عدة قرون عن وجودها في الحضارة السومرية . ولعل ذلك يعزى الى صدفة الاكتشاف . ومن الاشارات الى القانون المصرى الوثائق التي جاءتنا من كتابات القبور والمسلات التي تشير الى وجود عقود قانونية . وتشير هذه الادلة وغيرها الى أن النظم القانونية في مصر القديمة تبدأ وهي في طور من النضج منذ أقدم عهود معرفتنا بها .

---

(١) اليك مرجعا سهل المتناول حول الفن المصرى وهو الفصل الرابع من كتاب :ـ

J. Capart **in The Legacy of Egypt** (1942)

١٤٤

شيء عن النظم القانونية

في عهد المملكة القديمة والوسطى (٣١٨٨ – ١٧٠٠ ق ٠)

كان يحكم مصر في عهد المملكة القديمة حكومة ملكية مطلقة السلطان فالفرعون كان المشرع الوحيد ومصدر القانون ٠ وقد عبد الفرعون وجعل الها تجب طاعته ، فكانت اطاعة أوامره واجبا دينيا مقدسا ٠ ولم تقتصر سلطة الفرعون على انه كان بيده السلطان المطلق على حياة رعيته وموتها ، بل انه يسيطر على جهودهم وعملهم وملكهم ٠ وكانت الارض بوجه عام ملكا للفرعون ولكن مع ذلك كانت بعض الاراضي تخضع للمعاملات القانونية الفردية وتكون ملكية الاشياء المنقولة حرة أكثر من الاراضي والعقار ، وكانت الاموال المنقولة قابلة للنقل من حوزة شخص لآخر بموجب عقد خاص ٠ ومما يميز النظم القضائية بوجه عام من ناحية الملكية أنها تكاد تحرم الهبات وتحول دون معاطاتها ٠ وهكذا فعلت شريعة حمورابي ٠ وكانت معاملات البيع والشراء تجرى وفق عقود خاصة يزكيها ثلاثة شهود ٠ وكان يشرف على العقد موظف خاص يلف «ورقة البردي» بعد كتابتها ويثبتها بالختم تحاشيا من التلاعب بها ٠ وكانت الالتزامات تشفع بقسم باسم الملك بصفته الاها ٠

وكان للدين المصري تأثير عميق في نظمهم الشرعية ومعاملاتهم القانونية ومنشأ هذا التأثير من هذه الناحية الاعتقاد بحياة أخرى بعد الموت ٠ فقد رأينا كيف كان المصريون القدماء يعنون بشؤون الموتى في قبورهم وفي تقديم القرابين والخيرات لهم ٠ ولكي يضمن الميت اجراء تلك المراسيم له وقيام ورثته أو غيرهم بتقديم القرابين كان يكتب عقدا خاصا بتنفيذ ما يحتاج اليه فيما بعد الموت ٠ ولاجل القيام بتلك الشعائر على الوجه الاكمل نشأ عند المصريين طبقة خاصة من الكهنة تقوم بتلك الالتزامات وكان الميت يخصص جزءا من أملاكه يوقفه لشؤون ما بعد الموت وقد سمى المصريون الملك الموقوف لتلك الاغراض الدينية «الملك المؤبد» ، وهذا هو الوقف الخيري في النظم القضائية في الاسلام ٠ وشبيه بذلك أيضا قانون العصور الوسطى في أوربة حيث يقوم بوظيفة ادارة الاوقاف الخيرية رئيس الدير أو بعض كهنته ٠

ومما يحسن ذكره عن النظام القانونى فى عهد المملكة القديمة والوسطى قانون الضرائب فيما يتعلق بواردات الدولة ، وفرضت الحكومة نوعا من ضريبة الاشخاص يدفعها الفرد ، وقد خلف لنا المصريون اثباتا بالعوائل فيما يتعلق بدفع تلك الضريبة الشخصية ، ويبدو منها ان الضرائب كانت تشمل جميع أفراد العائلة من جميع الاعمار •

عهد الامبراطورية والعهود التى بعدها

ان الوثائق القانونية التى جاءتنا من هذا العهد أكثر عددا من العهد السابق • فقد جاءتنا وثائق فيما يتعلق بالمحاكم والقضاة ، وكان يرأس بعض المحاكم وزير خاص • وجاءنا كذلك جزء من قانون يتعلق بالمراسيم الملكية الخاصة بالبلاط (نظام التشريفات) ، فقد ذكر فى أحد هذه الأجزاء ما ينبغى للملك أن يقوله عند تعيينه لوزيره ، ويذكر جزء آخر الانظمة الخاصة بوظائف الوزراء وواجباتهم • وجاءت فى مسلة الملك «حرمحيب» (١٣٤٩ ـ ١٣١٤ ق • م) فى الكرنك مادة قانونية أصدرها الملك بحق بعض الموظفين الذى يعملون وفق أهوائهم وتحكماتهم ، وقد فرض فيها العقوبات الصارمة • ومما يمتاز به هذا العهد النظام المركزى فى الادارة ، يدل على ذلك اشراف الوزير على أعمال كثيرة كان يشرف عليها فى عهد المملكة الوسطى بعض الموظفين • وجاءنا من عهد الامبراطورية والعهود التى أعقبته أنواع كثيرة من عقود المداينات ، والذى يدهش فيها ان الربا كان فاحشا بحيث كان يصل فى كثير من الحالات الى مائة بالمئة سنويا ، وكان الربح يضاف فى نهاية السنة الى رأس المال • وكان المدين يقدم ضمانات بالايفاء ، ومن الضمانات الطريفة أنه يتعهد فى حالة عدم الايفاء بأن يجلد مائة جلدة ، وهذا يذكرنا بالعقوبات القاسية الواردة فى القانون الآشورى التى يتعهد بموجبها المدين فى بعض الحالات بأن يضحى ابنه الاكبر الى الآلهة • ولدينا سجل طريف عن قضية جريمة وقعت فى عهد السلالة العشرين تلقى لنا ضوءا على طريقة محاكم القضاء والشرطة وكيفية تعقيب المجرمين ومحاكمتهم

في عصر رعمسيس التاسع في حدود (١١٥٦ – ١١٣٦ ق ٠ م) ، والقضية تدور على مطاردة عصابة للصوص المقابر في مدينة طيبة أي في قلب العاصمة، وكان الوزير على رأس الحكومة كما كان المعتاد في أغلب عهود التأريخ المصرى ، ويحكم باسمه فى نفس العاصمة حاكمان أحدهما أميرالقسم الشرقى ويدير القسم الغربى حاكم بوليس خاص للاشراف على مدينة الاموات وقد جاءتنا القضية مدونة بتفاصيلها[١] ٠

ولا نعرف كيف كانت عقود الزواج فى هذا العهد ، انما جرت العادة على ضمانات مالية لحماية حقوق الزوجة المالية وحماية أبنائها ٠ وكنا ذكرنا ان الزواج عند البابليين لم يكن يعد زواجا شرعيا بدون عقد ومهر ، كما أشار الى ذلك قانون حمورابى ، ولا نعلم هل كان الزواج عند المصريين يجرى على هذا النمط ٠ واذا أراد الرجل أن يتزوج بعد وفاة زوجته فعليه أن يتفق مع أبنائه من الزوجة الاولى فيعطى بموجب ذلك الثلثين من الضمان المالى للاولاد ويأخذ الزوج الثلث الباقى ٠ وكان الطلاق ممكنا بعد دفع الضمان ٠

وكانت المحاكم عادة تتألف من الوجهاء فى كل موضع واقليم ويرأسها موظف فى أثناء المحاكمة ، ويرأس مثل هذه المحاكم فى العاصمة الوزير نفسه ، وفى حالات استثنائية ، مثل المؤامرة لاغتيال الملك رعمسيس الثالث (١٢٠٤ – ١١٧٢) ، أمر الفرعون بتأليف محكمة خاصة ٠ ونشاهد فى أصول المرافعات تقدما وتطورا منذ عهد المملكة القديمة ، حيث طغى أسلوب الكشف عن الحقيقة على الاسلوب الرسمى المقتصر على البنية الرسمية ، فقد اتخذت جميع أنواع البراهين والادلة وأخذ القضاة فى نظرها ونقدها ٠ وكانت القرارات تعطى بهيئة تصريح موجز من المحكمة بان فلانا فى جانب الحق والفلان الآخر فى جانب الباطل ، ويلحق ذلك اعتراف المحكوم عليه بما يترتب عليه من نتيجة الحكم ٠

---

(١) انظرها فى كتاب «مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة» تاليف ادولف ارمان وهرمان رانكه وترجمة الدكتور عبدالمنعم أبو بكر ومحرم كمال الص ١٣٠ فما بعد ٠

ومما يلاحظ فى القانون الجنائى القسوة المتناهية فى العقوبات ، فكان التعذيب مألوفا فى باب العقوبات ، وكان يشمل فى بعض الاحايين الشهود أنفسهم ويبدو أن أنواعا غريبة من عقوبات الاعدام كانت تستعمل فى بعض الاحايين ، مثل ترك المحكوم عليه لتأكله التماسيح ، وقد يحصل بعض المحكومين على امتياز خاص بأن يسمح لهم بالانتحار ، ونسمع بعدد ممن عوقبوا بقطع أعضائهم أو بترها ثم وضعوا فى الاعمال الشاقة فى معسكرات اعتقال خاصة • ويشبه العرف القانونى المصرى شريعة حمورابى بالنسبة الى التعويض عن السرقات بدفع الشىء المسروق مضاعفا عدة مرات ، ونجد مثل هذا العرف فى أقدم القوانين الرومانية •

وبامكاننا أن نجد أمثلة للقانون الدولى فى عهد الامبراطورية[١] ، فقد مر بنا فيما سبق ذكر المعاهدة الشهيرة التى أبرمت بين الفرعون رعمسيس الثانى (١٢٩٧ ـ ١٢٣١ ق • م) وبين الملك الحثى «حاتوسيل» الثالث • وقد جاءنا نص هذه المعاهدة الدولية مدونا باللغة البابلية وبالخط المسمارى ، وهى معاهدة صلح وحلف تتضمن المساعدات العسكرية بين الطرفين المتعاهدين ، وقد اتفق الطرفان كذلك على تسليم المجرمين واللاجئين من كل بلد الى بلد الطرف الثانى •

وتأثرت مصر بالقوانين اليونانية من بعد فتوح الاسكندر فى الشرق وكذلك أثرت مصر فى تلك القوانين التى طبقت على المكدونيين الذين سيطروا على القطر ، وحدثت تغييرات فى العرف القانونى فى عهد البطالسة ، خلفاء الاسكندر فى مصر وبخاصة فى تشكيل المحاكم وفيما عدا ذلك فان ملوك البطالسة على ما يبدو لم يتدخلوا تدخلا كبيرا فى قانون مصر الخاص ، وقد أصبح القانون الجنائى فى هذا العهد أخف قسوة وأكثر انسانية من ذى قبل[٢] •

---

(١) لقد سبق أن أشرنا الى أقدم تحكيم فى النزاع بين الدويلات فى عصر فجر السلالات فى العراق القديم •

(٢) حول القوانين المصرية راجع المآخذ السهل الآتى :

The Legacy of Egypt, chap, 8.

١٤٨

شيء عن العلوم والمعارف

نشأت العلوم والمعارف فى حضارة وادى النيل ، كما كان الحال فى وادى الرافدين ، منذ أن انتقل الانسان الى طور الحضارة فى بداية الالف الثالث ، وكانت بذورها تمتد الى ما قبل ذلك الى الازمان التى تعلم فيها الانسان الزراعة وصناعة الفخار واستعمال المعادن ، وأخذت مثل هذه المعارف العملية تنضج بالتدريج ، ولما أن نشأت الكتابة واتسع استعمالها فى شؤون الحياة المختلفة منذ عصر الاهرام ، بدأ القوم فى تدوين مثل هذه المعارف ، مثل الرياضيات والطب وبعض الصناعات الكيماوية والفلك والتنجيم ، وملاحظاتهم العامة عن الحياة ، مما درسناه تحت موضوع الآداب • وقد خلف لنا المصريون مدوناتهم فى هذه المعارف من مختلف العهود ، وكانت حتى النسخ المتأخرة منها ترجع الى أصول قديمة • ولكن أكثر الوثائق العلمية وأهمها هى التى جاءتنا منذ عهد المملكة القديمة فما بعد • وقد كتبت هذه النسخ بمختلف الخطوط الثلاثة التى تطورت اليها الكتابة المصرية على ما رأينا من قبل • وكان للمعارف العلمية التى وصل اليها المصريون القدماء تراث ملحوظ فى معارف البشر عن طريق الامم القديمة التى جاءت من بعدهم كاليونان والرومان •

التقويم

بعد أن تعلم المصريون الزراعة فى شواطىء النيل احتاجوا الى ضبط مواسم الفيضان فى النيل ومواسم الزرع ، فأخذوا يجربون فى ابتداع وسائل للتقويم وقد استعملوا فى مبدأ الامر الاشهر القمرية ، ولكنهم وجدوا ان مثل هذا التقويم لا يصلح لضبط المواسم ومواعيد الزراعة التى تستند الى موعد فيضان النيل ، وبالاستجابة الى أحوال النيل الخاصة ابتدع المصريون تقويما رسميا صحيحا ، لا يختلف عن التقويم الحديث الا بتصليح قليل قام به يوليوس قيصر والبابا غريغورى • فكانت سنتهم الرسمية مكونة من اثنى عشر شهرا ، كل شهر منها ثلاثون يوما وأضافوا الى ذلك خمسة أيام كبيسة (خصوصا

للاعياد) فحصلوا بذلك على سنة مقدارها ٣٦٥ يوما • أما كيفية اكتشافهم لهذه السنة الصحيحة فمن ملاحظاتهم لفيضان النيل ، كما نوهنا بذلك ، اذ كانت دورة الزراعة المصرية يسيطر عليها فيضان النيل السنوى الذى يحدث بأوقات مطردة منتظمة مما لا يضاهيه نهر آخر • ولذلك فان ملاحظة خمسين عاما لاوقات فيضانه كانت تكفى لان تبين للمصريين القدماء ان المدة المضبوطة بين فيضان وفيضان آخر تبلغ ٣٦٥ يوما الى أقرب عدد صحيح[١] ومن كان يعرف هذه الحقيقة كان باستطاعته أن يتنبأ متى يجب أن تبدأ الدورة الزراعية • والمرجح كثيرا ان أوائل ملوك السلالة الاولى هم الذين أسسوا هذا التقويم الرسمى ووضعوه محل التقويم القمرى[٢] • وكانت السنة المصرية (ذات الـ ٣٦٥ يوما) تتألف من ثلاثة فصول ، كل فصل منهـــا مكون من أربعة أشهر • فالموسم الاول هو موسم الفيضان (واسمه بالمصرية القديمة اخيت Akhet) حيث يبدأ التقويم المصرى باليوم الاول من الشهر الاول من ارتفاع النيل ، فى حزيران (وأول شهر من الفصل شهر توث) ، وبعد أربعة أشهر ينتهى فيضان النيل فيبدأ القوم بزرع الحقول فيبدأ الفصل الثـانى ، وهو موسم «الظهور» أى بدايـة ظهور الزرع من الارض (واسمه فيرويت Peroyet) ، والموسم الثالث موسم الشح أو الحصاد (أى شح الماء واسمه بالمصرية القديمة شومو Shomu) •

وبمقارنة السنة المصرية المكونة على هذا الوجه من ٣٦٥ يوما مع السنة الشمسية الدقيقة فانها على ما نعلم تنقص عنها بمقدار ست ساعات (ربع يوم) فى كل سنة ، ويكون الخطأ المتراكم فى مدة قرن واحد ٢٥ يوما • فلا بد ان

(١) انظر O. Neugebauer in **Acta Orintalia,** XVII (1938), 169 ff. المشار اليه فى Childe, **New Light on the Most Ancient East** (1952).

(٢) ومما يقال بهذا الصدد انه كان للمصريين القدماء جملة تقاويم أخرى محلية بعضها خاص بالاعياد والطقوس الدينية • ولا يعلم بوجه التأكيد متى أوجد التقويم الرسمى المستند الى تسجيل أحوال فيضان النيل مما يستلزم معرفة بالكتابة • فهل تمت مثل هذه السجلات فى زمن «منا» موحد مصر المأثور ؟ أو هل ان هذا الملك استغل تلك السجلات فى ادخاله التقويم الرسمى ؟

يكون هذا النقص قد ظهر لقدماء المصريين بعد مائة عام على اتخاذ التقويم الرسمي واستعماله ، بحيث ان تقسيم السنة المصرية الى الفصول الثلاثة التى بناها (أى فصل الفيضان ، وفصل البذر وفصل الحصاد) ، لم تعد تطابق الواقع العملى فى الزراعة • ومع ذلك فقد ظل التقويم القديم معمولا به بسبب قوة التقاليد واستمرار المآثر • ومماجعل السلطات الرسمية لا تهتم باصلاح التقويم القديم ان موظفى الفرعون استطاعوا فى عهد المملكة القديمة أن يبتدعوا طريقة لتسيير العمليات الزراعية بحسب مواسمها المضبوطة ، فقد وجدوا ان فى خط العرض المار من منفس يكون ظهور كوكب الشعرى[١] مطابقا لبداية فيضان النيل ، فقامت الجهات الرسمية برصد الشعرى واستعملت نتائج الارصاد فى ارشاد الناس الى بداية موسم الزرع • وينطبق زمن طلوع الشعرى بالنسبة الى شروق الشمس وغروبها مع بداية السنة المصرية الرسمية فى دورة (١٤٦١) عاما ، فسميت هذه الفترة من الزمن باسم «الدورة السوثية» (Sothic cycle) ، وقد بدأت مثل هذه الدورة فى عام ١٣٩ للميلاد • وقد خلف لنا المصريون القدماء سجلات بينوا فيها العلاقة بين السنة الرسمية وبين هذه السنة النجمية التى يحددها كوكب الشعرى ، وذلك منذ عهد السلالة الثامنة عشرة ، ومن عهد الملك «سنوسرت» من السلالة الثانية عشرة • فكانت مثل هذه السجلات من جملة الطرق الموثوق بها فى تعيين تأريخ السلالة الثانية عشرة بالاستناد الى اثبات الملوك ، وقد أمكن وضع زمن هذه السلالة فى حدود ٢٠٠٠ ق • م ، واستعين بهذا التأريخ فى تعيين تواريخ العهود المصرية الاخرى •

الرياضيـــات :ـ

كانت الرياضيات ، وبالدرجة الاولى المعلومات الحسابية ، نتيجة للحاجات الاقتصادية التجارية التى تولدت بعد نشوء الحضارة فى كل من العراق ومصر ،

---

(١) (Serius) والشعرى (العبور) هى الالهة سوثيس المصرية • ويعرف ظهور الشعرى بالنسبة الى الشمس بمصطلح (Heliacal rising)

وكانت هذه أيضا العوامل التى دفعت الى اختراع الكتابة فالحاجة الى تدوين المعاملات والشؤون التجارية المتعلقة بالمعابد والمبانى العامة دعت الى توحيد الموازين والمكاييل والقياسات وابتداع طريقة للعد وقواعد لحساب المعاملات ، وكانت بداية هذه الامور فى عصور ما قبل التأريخ • ويظن ان البشر أسس طريقة عده على عدد اصابع يديه ولذلك اتخذ معظم البشر طريقة العد العشرية واستعمل المصريون الطريقة العشرية منذ زمن قديم ، لعله منذ السلالة الاولى (ولكن السومريين استعملوا الطريقة الستينية) • واتخذت علامات لتسمية الاعداد فى كل من العراق ومصر منذ أقدم الازمان • فنجد ان المصريين قد استعملوا علامة للواحد يكتبون بها الاعداد الى التسعة ثم علامة خاصة بالعشرة والمائة والالف ولعل أقدم نماذج فى مصر لهذه العلامات قد جاءتنا من زمن السلالة الاولى • واستعملت علامات خاصة قليلة لتعيين بعض الكسور مثل النصف والربع والثلث والثلثين ، ولكنهم لم يبتدعوا علامة للتعبير عن الصفر •

وبوسعنا أن ندرك نوع القضايا الرياضية التى اهتم بها المصريون القدماء من مسألة جاءتنا مدونة على ورق البردى من حدود ١٢٠٠ ق • م • ويظهر من فحوى المسألة أن السائل يتحدى رياضيا آخر ويسخر منه :ـ

« أنت تقول : أنا الكاتب الذى يصدر الاوامر الى جموع الجنود والعمال فلو طلب منك أن تحفر مخزنا • ولكنك جئت الي تستفهم منى عن مقدار الجرايات للجنود وتقول لى : «احسبها» • أنت تركت مقر وظيفتك ووقع عبء تعليمها لك علي » •

« أنت أيها الكاتب الماهر على رأس جمع • وأريد بناء منحدر طوله ٧٣٠ ذراعا وعرضه ٥٥ ذراعا وفيه ١٢٠ حفرة مملوءة بالقصب والقضبان •• وقد طلب من قواد الجيش معرفة عدد الآجر لتشييده ، ولم يستطع أحد من الكتبة أن يعرف الجواب بل انهم اعتمدوا عليك قائلين : « أنت الكاتب الماهر ، فأجبنا كم عدد الآجر الذى نحتاج اليه ؟ » •

وعلى الرغم من أن ذلك الرياضي الساخر لا يحل هذه القضية فانه بامكاننا أن نعرف منها نوع المسائل العملية التي كانت تجابه الرياضيين عند انشاء المشاريع العمرانية كاقامة الاهرام والمعابد وحفر المخازن وادارة العمال والصناع • وقد تبدو بعض هذه القضايا بسيطة وفي مقدور طلاب المدارس المبتدئين بالرياضيات ولكن يجب أن نتذكر أنه لولا الاسس التي وضعها المصريون والعراقيون الاقدمون وما خلفوه من تراث الى الاغريق وأخذنا في الزمن الحاضر عن الاغريق والعرب لما بدت لنا مثل هذه القضايا ساذجة • فالواقع ان السومريين والمصريين كانوا يجربون في حقول لم يطرقها البشر من قبل • ويبدو أن الرياضيين المصريين لم يعرفوا جداول الضرب بخلاف السومريين والبابليين الذي خلفوا لنا جداول مطولة بهذا الموضوع وكانت عمليات الضرب تجري عند رياضي المصريين باضافة المضروب الى نفسه مرات بقدر عدد المرات المراد ضربه فيها أي انها كانت تجري على أساس العد والجمع ، فاذا أرادوا ضرب ١٢ × ١٢ مثلا فانهم يفعلون ما يأتي :

	١		١٢
	٢		٢٤
×	٤	×	٤٨
×	٨	×	٩٦

١٤٤ المجموع

ففي هذه المسألة تضع ١ أمام المضروب به ، ثم ضاعف كل جهة حتى تصل في الحقل الاول على اعداد مجموعها بقدر المضروب به فتؤشر على الرقمين المطلوبين أي ٤ ، ٨ وتؤشر في الحقل الثاني على ما يقابلهما من الاعداد أي ٤٨ + ٩٦ • وفي حالة القسمة تنعكس العملية • حيث كانت تجري أيضا على أساس العد والجمع ، فلقسمة ٢٠ على ٣ مثلا يعد الحاسب ٣ حتى يصل الى ٢٠ • فلقسمة ٥٥٠ على ٩ تجري العملية كما يأتي :-

×	١	٩

١٨		٢	
٣٦	×	٤	×
٧٢	×	٨	×
١٤٤	×	١٦	×
٢٨٨	×	٣٢	×
٥٧٦	×	٦٤	×
—		—	
٥٤٩	—	٦١	

١ + ٤ + ٨ + ١٦ + ٣٢ = ٦١ ، فيكون خارج القسمة ٦١ والباقى ٥٥٠ - ٥٤٩ = ١ •

وملخص العملية أنهم يضعون واحدا فى جهة وبجانبه المقسوم عليه ، ثم يضاعفون الارقام فى الجهتين حتى يحصلوا فى الجانب الايسر على أعداد يكون مجموعها مساويا للمقسوم أو عددا يقاربه ويجمعون الاعداد فى الحقل الايمن ويكون الحاصل خارج القسمة المطلوب •

وقد كان المصريون يكتبون الكسور التى مقاماتها الواحد بوضع اشارة على البسط • وقد رأينا فيما سبق أنهم وضعوا علامات خاصة للنصف والثلث والثلثين ولكن يتعذر بموجب طريقة الكسور المصرية كتابة مثل $\frac{٢}{٥}$ أو $\frac{٧}{٣٠}$ والواقع ان المصريين لم يعرفوا الكسور المركبة فكانوا يكتبون مثل هذين الكسرين بتجزأتهما الى كسرين بسيطين مقامهما واحد فالكسر $\frac{٢}{٥}$ مثلا $\frac{١}{٣}$ + $\frac{١}{١٥}$ ، أو بحسب الطريقة المصرية ٣̄ + ١٥̄ ، والكسر $\frac{٣}{٨}$ يكتب بهيئة $\frac{١}{٤}$ + $\frac{١}{٨}$ ، وهكذا •

ومما يقال عن الرياضيات المصرية بوجه عام أن المصطلحات فيها غير مطردة دائما وتختلف باختلاف الكتابات بخلاف مصطلحات الرياضيات البابلية التى كانت أدق وأعم •

ووردت الينا من رياضى المصريين القدماء نماذج من المسائل الهندسية

المتعلقة بأخذ مساحات الحقول ، ووصل السومريون في الالف الثالث ق.م الى طريقة صحيحة لمساحة الحقول المستطيلة بضرب الطول بالارتفاع . أما في مصر فالظاهر ان الرياضيين لم يصلوا الى حل صحيح . فكانوا يأخذون مساحات الحقول المربعة حتى في زمن الامبراطورية بطريقة قوامها مجموع ضلعين متجاورين مضروبا في نصف مجموع الضلعين الآخرين . وفي حالة المثلث كانوا يضيفون أطوال ضلعين ثم ينصفون المجموع ويضربون الناتج بنصف طول الضلع الثالث . ولكنهم وصلوا من الجهة الثانية الى طريقة صحيحة لقياس حجوم الاهرام ولا سيما الناقصة المربعة القاعدة فقد خلفوا لنا من ذلك قضية مشهورة : «مثال في حساب الهرم المقطوع » لو قال لك قائل : هرم ناقص ارتفاعه ٦ أذرع و٤ أذرع للجانب الاسفل وذراعان للجانب الاعلى» : ربع(ارفع الى القوة الثانية) ٤فتحصل على١٦ أضرب٤ بـ ٢ فتحصل على ٨ . ربع ٢ فتحصل على ٤ واجمع ١٦ و ٨ و٤ فتحصل ٢٨ وخذ ⅓ الـ ٦ فتحصل على ٢ فاضرب ٢٨ بـ ٢ فتحصل على ٥٦ . فأنظر انه ٥٦ . لقد حصلت على الجواب » .

وباستطاعتنا أن نعبر عن هذه الطريقة بالمعادلة الآتية : (ح الحجم)
ح = ⅓ع (ا^٢ + اب + ب^٢) وهي المعادلة الصحيحة لحجم الهرم المقطوع ، باعتبار أن (ع) الارتفاع و (ا ، ب) طول ضلع كل من القاعدتين المربعتين السفلى والعليا . ويرجع تأريخ هذه المسألة الى ١٨٥٠ ق . م ولا يعلم كيف وصل الرياضيون المصريون الى هذا الحل العجيب . ولو صاحب طريقة الحل هذه برهان على كيفية ايجادها لكان أعظم اختراع في علم الرياضيات ، ومهما كان الحال فانه حتى الاهتداء الى هذا الدستور بطريقة عملية يدل على مقدرة عظمى في الرياضيات[١] . هذا ولا توجد دلالة مباشرة على ان الرياضيين المصريين عرفوا حجم الهرم الكامل (الحجم = ⅓ مساحة القاعدة × الارتفاع) ، وهو دستور يعزى الى ديموقريطس اليوناني (٦٤٠ ق.م) .

---

(١) انظر
E.T. Bell. **The Development of Mathematics** (1945), pp 43—44.

وقد عرف المصريون العلاقة بين محيط الدائرة وقطرها وهى التى تدعوها بالنسبة الثابتة ، ووصلوا الى قيمة تقريبية كما عرفوا دستور حجم الاسطوانة الصحيح • وليس لدينا أدلة مباشرة على ان المصريين عرفوا النسبة بين اضلاع المثلث القائم الزاوية أى نظرية فيثاغورس ، وجاءتنا حالة تشير الى معرفتهم بمبدأ المتواليات الهندسية •

والمرجح كثيرا ان الرياضيات المصرية قد وصلت الى الطور الذى نعرفها فيه فى عصر الاهرام ، وتوقفت عن النمو والاستمرار فى التجارب ، بالنظر لكفايتها للحاجيات العملية فى المستوى الذى بلغته آنذاك •

وقد لاحظ سكان مصر حركات الاجرام السماوية لحاجات الملاحة والزراعة وضبط مواسم الزرع والفيضان على نحو ما رأيناه فى وادى الرافدين • وقد نتج عن النجاح فى استطاعة الانسان أن يتنبأ عن وقوع مواسم الزرع والفيضان أن حاول الانسان استعمال هذه الاجرام السماوية فى التنبؤ بحادثات وأمور أخرى غير الزرع والفيضان ولعل ذلك منشأ التنجيم • وقد عنيت الدولة بمثل تلك الملاحظات والارصاد لاهميتها فى مصالح المملكة ، وقد دونت نتائج تلك الارصاد وخلف لنا المصريون القدماء منها نماذج كثيرة • وانحصر الفلك فى مصر فى ضبط أمور الزراعة ، وقد ذكرنا فيما سبق اهتداء المصريين القدماء الى التقويم السنوى الرسمى من تقسيمهم السنة الى اثنى عشر شهرا ، فى كل شهر ثلاثون يوما واضافة خمسة أيام كبيسة • وقد قسم المصريون كلا من النهار والليل الى اثنى عشر قسما أما البابليون فقد قسموا اليوم جميعه الى اثنى عشر قسما كل قسم يعادل ساعة مضاعفة من ساعاتنا • ولتحديد ساعات النهار استعمل كل من العراقيين والمصريين مبدأ تغير الظل بحسب أجزاء اليوم وهو مبدأ المزولة أو الساعات الشمسية • ولضبط ساعات الليل استعملوا الساعات المائية ، فقد كانوا يقيسون فى كلا القطرين الزمن الليلى بمقادير الماء التى تجرى أو تدخل فى أوعية خاصة مدرجة وكانت الاوعية المستعملة فى مصر لهذا الغرض مخروطية

الشكل ولذلك كانت القياسات الناتجة منها غير مضبوطة • وقد عرف المصريون الفروق فى أطوال الليل والنهار بالنسبة الى الفصول ، وكذلك فعل البابليون • وقد وضع أحد المصريين نسبة ١٤ : ١٢ لطول ليالى الشتاء بالنسبة الى ليالى الصيف ولذلك صنعوا ساعة مائية خاصة لقياس ساعات الليل فى جميع فصول السنة • أما الساعات المائية البابلية فكانت أسطوانية ولذلك كانت قياساتها أضبط وقد جاءتنا مسألة رياضية تتعلق بتدريج مثل هذه الاسطوانات •

وقد قسم المصريون السماء الى مناطق ودونوا اثباتا بأسماء النجوم وصنفوا النجوم الى مجموعات ولكن ذلك التصنيف لا يشبه ما هو متبع فى الوقت الحاضر ، وهو التصنيف المستند بالدرجة الاولى الى حضارة وادى الرافدين[١] ونقصد بذلك مبدأ الابراج الاثنى عشر الذى لم يعرف فى مصر قبل العهد اليونانى • ومما يؤسف له انه لما تأتنا كتابات فلكية من مصر ما عدا الرسوم والصور الموجودة على توابيت الموتى ، فلم يخلف لنا المصريون سجلا عن الكسوف والخسوف بخلاف الكتابات البابلية التى دونت لنا أطول وأقدم أزياج فى تأريخ الارصاد الفلكية • وبدلا من مبدأ الابراج الاثنى عشر (Zodaic) ، استعمل الفلكيون فى مصر المبدأ المعروف باسم (dekan) لتقسيم السنة و«الديكان» (أى العشرى) مجموعة من الكواكب أو كوكب بارز تطلع فى ساعات معينة من الليل فى خلال ٣٦ ساعة مددا متعاقبة كل مدة ذات ١٠ أيام تبدأ بطلوع «الديكان» الثانى فى الافق الشرقى ، وقد جمعوا اثباتا تمثل هذه المجموعات لتعيين الزمن فى الليل اذا علم تأريخ التقويم أى اليوم الخاص فى الشهر ، أو لتعيين «الديكان» الخاص اذا علمت الساعة المعينة فى الليل ، وبامكاننا تتبع نظام «الديكان» الى عهد السلالة الثالثة •

الطب :ــ

ومما لا شك فيه ان الحاجة لتداوى الامراض وشفائها قد نشأت عند سكان وادى النيل والرافدين منذ عصور ما قبل التأريخ ، ولا ندرى بوجه

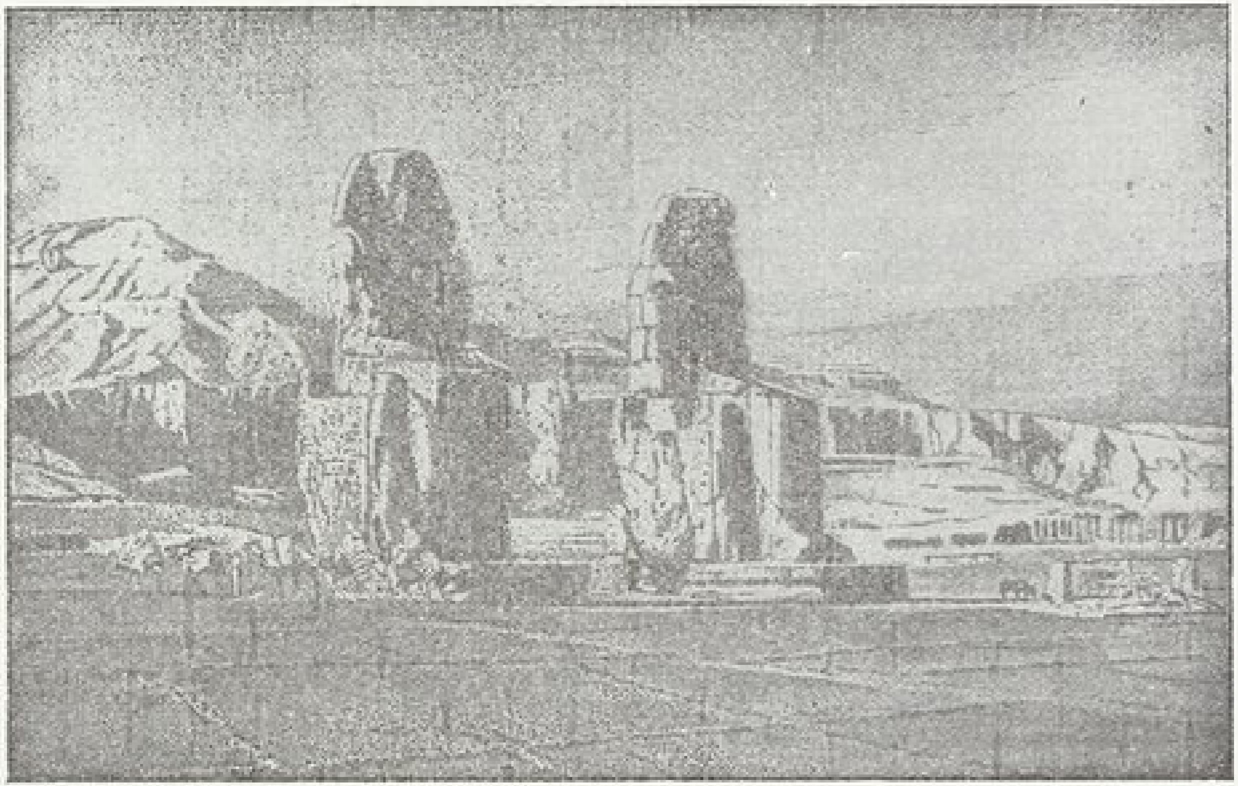
---

(١) انظر **The Legacy of Egypt** (1942), 161

التأكيد هل ان أصل الطب من السحر وما يتعلق بالطرق السحرية ، والراجح ان الطب بدأ بالتجربة مقرونة بالاعمال السحرية فقد عزوا الامراض الى الارواح والشياطين • ومما يؤيد علاقة الطب بالاعمال السحرية والطرق الروحية ان الطب في كلا القطرين (وادي النيل ووادي الرافدين) لم يستطع أن يتخلص تخلصا تاما من الرقى والتعزيم في أزمان نضجه في العصور التأريخية • ولما كان الاطباء في مصر والعراق على الغالب متطفلين في الكتابة ومن صنف الكتبة فقد دونوا لنا ملاحظاتهم وبحوثهم الطبية وجاءنا منها نماذج كثيرة • وقد ورد ذكر الكتابات الطبية في مصر في أزمان قديمة ترجع الى زمن السلالة الثالثة • وجاءتنا نماذج من هذه الكتابات الطبية المصرية فيما بعد ٢٠٠٠ ق • م أما النماذج البابلية فانها متأخرة بالنسبة الى تأريخ الكتابات المصرية الطبية ، ولكن كثيرا من هذه النماذج البابلية المتأخرة (من أواخر الالف الثاني ق • م) نسخ من كتابات أقدم منها • والجدير بالذكر ان الكتابات الطبية من كلا القطرين كانت أشبه ما تكون بكتب «الوقائع والحالات الطبية» في وقتنا هذا ولم تصلنا بعد تآليف عن التشريح ووصف الاعضاء ووظائفها • ومع ذلك فان المصريين قد اكتسبوا معرفة لا بأس بها عن الجسم الانساني من ممارستهم التحنيط ولكن الغريب في ذلك ان أسماء أعضاء الجسم الانساني مأخوذة من أسماء أعضاء الحيوان ، ولعل سبب ذلك ان تسمية هذه الاعضاء بدأت قبل معرفة التحنيط •

وقد اشتهر المصريون لدى اليونان بمعرفتهم الطبية ، والذي لا مراء فيه انهم كانوا يستحقون مثل هذه الشهرة • ولكي يدرك الطالب مصادر معرفتنا بطب المصريين القدماء ، فعليه أن يعرف ان درج البردي (لفات أوراق البردي) الخاصة بالطب المصري يمكن تقسيم محتوياتها الى صنفين : (١) مؤلفات طبية صرفة (٢) مؤلفات لاغراض سحرية وفيها وصفات طبية ،ويدخل في هذا الصنف الوصفات الطبية الشعبية • وننتخب فيما يأتي أشهر هذه الوثائق ، مما هو موجود الآن في متاحف العالم الشهيرة :ـ

(١) فأول ما نذكر النص الطبي المشهور باسم «بردية ايبرس»



تماثيل ضخمة جسيمة لاحد الفراعنة من عهد الامبراطورية ·
يبلغ علوها زهاء سبعين قدما وتزين واجهة المعبد
الموجود الى الخلف

(Ebers Papyrus) وهو أشـــهر وأطول مصـــدر طبى ، وقد وجـــد فى عام ١٨٦٢ واقتناه الشخص المنسوب اليه ، وهو الآن محفوظ فى جامعـــة «لبسك» (Leipsic) ، ومحتوياته طبيـــة وســـحرية ، وفى ظهره أمور عن التقويم ، وقد كتب فى عهد السلالة الثامنة عشرة ولكن الادلة الداخلية تشير الى أنه نسخة عن أصل أقدم بعدة قرون • وعلى كل حال فلا ينبغى لنا أن نقيسه بالتآليف اليونانية أو الحديثـــة ، وانمـــا هو مجموعة من الوصفـــات المأخوذة من عدة مصادر ولم تشخص الامراض الموصوفة اليها تلك الادوية• وذكرت فيها العقاقير ومقاديرها وكيفية استعمالها •ومن الامراض الواردة فيها أمراض خاصة بالمعدة والقلب وأوعيته ، وكذلك العلاجات الجراحية الخاصة بالمثانة ، وتتخلل الوصفات الطبية رقى وتعاويذ سحرية •

٢ ـ ويوجد نص شـــهير آخر معروف باســـم «بردية ادون سمث الجراحية»[١] • وهو الآن فى حيازة الجمعية التأريخية فى نيويورك ، وقد نشره نشرا علميا العلامة «بريستد» ، ويحتوى على مسائل جراحية فى معالجة الجروح والكسور وطرق تجبيرها ، ويحتوى هذا النص على شروح موضحة للمصطلحات الفنية الغريبة • والطريف ذكره فى هذين النصين انهما يحتويان على وصف وظائف القلب، وكيف ان القلب «يتكلم» بواسطة الاعضاء المختلفة من الجســـم الانســـانى ، فيســـتطيع الطبيب أن يجس القلب من النظر فى تلك الاعضاء ، ولا يعلم بوجه التأكيد هل هذا يدل على معرفة بالدورة الدموية، ولكن معظم الباحثين لا يميلون الى الايجاب[٢] ، ومهما كان الحال فان معرفتهم بعلاقة القلب العضوية بأعضاء الجسم وبأهميته بصفته منبع الحياة ، لهى فى حد ذاتها ذات أهمية خطيرة فى تأريخ التشريح والفسلجة •

---

(١) The Edwin Smith Papyrus

(٢) حول موجز المصادر الطبية الاخرى انظر
Wilson, **The Burden of Egypt,** 56.
The Legacy of Egypt.

الفصل الخامس والعشرون

شيء عن الدولة والمجتمع

الملك :ـ

كان الملك ، كما سبق أن نوهنا مرارا ، رأس المجتمع والدولة في مصر القديمة في جميع أدوار تأريخها ، كما وقد سبق أن رأينا أيضا ان نظام الحكم الملكي قد ظهر في وادي النيل منذ نهاية عصور ما قبل السلالات ، وتمتد جذوره الى أبعد من ذلك حيث نظام الرئاسة القبلية ومشيختها متأصل في قارة أفريقية منذ عصور ما قبل التأريخ • وتقول المآثر المصرية ان أول ملك في مصر هو الذي كان ملكا على أول سلالة في تأريخ البلاد ، أما ما قبل عهده فتروي هذه المآثر أيضا ان الحكام كانوا نوعا من الارواح الشبيهة بالآلهة ،وقد سبق هذا العهد زمن كانت الآلهة أنفسها تحكم البلاد ،وكان أول ملك في الكون وفي مصر الاله الخالق «اتوم ـ رع» حيث صار ملكا على الخليقة التي أوجدها ، وهكذا فان الملوكية عريقة في القدم وظهرت منذ الخليقة• وللمقارنة بهذا الاصل النظري للملكية في مصر القديمة كانت الصورة التي كونها سكان العراق الاقدمون مختلفة عن ذلك تمام الاختلاف ،فان الملكية لم تكن من أصل نظام الكون بل كانت طارئة نشأت بسبب الازمة التي حلت في الكون بعد مجيء الآلهة على نحو ما فصلناه في كلامنا على حضارة وادي الرافدين • واذ كانت الملكية في العراق القديم مقدسة وأصلها من الآلهة الا ان الذي كان يتقلدها من البشر كان بشرا اعتياديا وقد يقدس لانه يحمل حملا مقدسا أو وظيفة مقدسة ،ويقابل ذلك في مصر ان الذي يتقلد الملوكية من البشر كان الها نفسه ، وهذا هو جوهر الاختلاف في الاصل النظري للملوكية في كلتا الحضارتين • فالفرعون كان الها بالتجسيد (incarnate god) منذ ولايته للعهد ، واذا كان الملك في حضارة وادي الرافدين مفوضا من قبل

الآلهة ووكيلها والواسطة بين المجتمع البشري وبين الآلهة ليجعل علاقات البشر منسجمة مع القوى فوق الطبيعة ، فان الملك في حضارة مصر كان من مجمع الآلهة ، أي أنه اله نزل وتجسد في الفرعون ليحكم الناس ، ولما كان رأس المجتمع المسؤول عن ادارته الها ، فان شعور هذا المجتمع بالضمان في هذه الحياة انما هو شعور الاطمئنان • لقد عبد المجتمع الملك بصفته الها لضمان الانسجام بينه وبين القوى الطبيعية • وقد سبق أن نوهنا بتفسير هذا البون بين الحضارتين بالمقارنة بين البيئتين الجغرافيتين اللتين نشأتا فيهما ، واذ سلم سكان وادي الرافدين من عبادة الملوك وتأليههم فانهم لم يسلموا من شعور عدم الاطمئنان ازاء ما تفعله الآلهة والقوى الطبيعية • ونجد انعكاس الوهية الملك واضحة في التعبير الفني في مصر حيث الملك يمثل في المشاهد الحربية وحده على الغالب بدون جيش (كما في تمثيل صفحة الملك نارمر)[١] وفي منحوتة طوطمس الثالث في الكرنك • وعلى النقيض من ذلك تمثيل الملوك في العراق القديم وهم على رأس الجيش ، ويماثل تمثيل الفراعنة في الفن المصري تمثيل الآلهة في فن العراق القديم ، ففي المسلة الشهيرة المسماة «نصب النسور» لاياناتم ، تشاهد هذا الحاكم السومري وهو على رأس جيشه ،ولكن تشاهد في الوجه الثاني من اللوحة نفسها الاله «ننجرسو» ممثلا وحده وقد اصطاد الاعداء في شبكته المقدسة •

وتتضمن فكرة الوهية الفرعون بالتجسيد جيلين من الفراعنة • فان اعتلاء الملك الجديد للعرش يعني اندماج قوى الملك الراحل بالملك الجديد ، ويستمر الملك الميت في حكم البشر الأموات • اذ أن الملك الميت يصير بالتجسيد بمثابة الاله «اوسيريس» ، أما الملك الذي يخلف الملك الميت فيصير الاله «هورس» بن اوسيريس الذي أعقب أباه وصار ملكا أيضا ، كما ان الملك الجديد يتجسد أيضا بالاله الشمس «رع» ، أو يصير ابنه ، وهكذا تستمر

---

(١) انظر بحث ذلك في
H. Frankfort, **The Kingship and the Gods** 54;

الدورة • وكـان الفرعون يسـمى فى كثير من النصوص باسـم الالـه (نيتجير (netjer)) أو «الاله الخير الطيب» ، ولما كان الفرعون مجسدا للاله هورس ،فصار رمزه المقدس طير النسر ،وهو الحيوان الذى يرمز الى الاله هورس أو ان هذا الاله حل فيه (انظر الشكل فى ص ١٦٥) • ويرى أكثر الباحثين ان السبب فى جعل الملك يتجسد فى الاله هورس سياسى فى أصله ، فان أولى سلالة حكمت فى مصر أصلها من موطن كان يعبد فيـه الاله الصقر «هورس» • ويجوز أن يلقب الفرعون بابن أى اله من الآلهة أو ابن أية الهة • وقد صار شخص الملك بسبب ألوهيته مشحونا بالقدسية المخطرة بالنسبة الى البشـر الآخرين من ناحية الاقتراب منه ومخاطبته ، فكانوا لا ينطقون باسمه بل يشيرون اليه بصفـات التعظيـم كصـاحب الجلالة • وقد سبق أن ذكرنا أنهم صاروا يشيرون اليه فى عهد الامبراطورية (منذ السلالة الثامنة عشرة) باسم الفرعون أى «البيت العظيم» ، وهى الكنية التى أطلقت على جميع ملوك مصر • وكان أشهر ألقاب الملك منذ عهد المملكة القديمة «ابن ـ رع» وبلاد مصر «ابنة رع» ، أما كيفية نسبته بصلة البنوة الى الاله «رع» ، فهو ان أمه من البشر ولكن زوجها هو الاله «رع» الذى تجسد فى زوجها الملك لينجب ابنه الملك الجديد ، وعندما يموت الملك الحاكم يقوم الى الحياة ويتصل بأبيه الاله الشمس • وكثيرا ما وصف الفرعون بصفته الها بصفات متضادة متقابلة كالرحمة والشدة ، والعدل والعقاب ، وكذلك تكون الدولة التى يرأسـها الفرعون ، والتى هى الفرعون نفسه ، ونلاحظ ذلك فى صفات القوى الطبيعية التى ألفها المصريون القدماء كالنيل الذى يكون رحيما محسنا اذا كان منتظما فى دورة فيضانه وفى مقدار فيضانه ، ويكون جبارا شديدا ان شذ فى مقدار الفيضـان من ناحيـة القلة والكثرة على نحو ما بيناه فى كلامنا على جغرافية وادى النيل •

واستتبع ألوهية الفرعون أيضا أمور أخرى مهمـة فى حيـاة الدولة المصرية ونظامها وفى حياة الشعب • فكان الفرعون بصفته الها مطلق الحكم

والسيطرة في البلاد وفي سكانها ،حيث يملك جميع البلاد (بصورة نظرية في بعض الاحايين وبصورة عملية في أحايين أخرى) والملكية الفردية غير ممكنة الا بنتيجة منح الملك اياها للاشخاص الذين يتصرفون بها ،ويصدق ذلك أيضا على حرية الافراد الشخصية وعلى مكانتهم في المجتمع ، فكان كل ذلك رهن ارادة الملك •

كما ان الملك كان ينبوع العدالة والشريعة اذ أنها تصدر عن ارادته ومشيئته ، واذا احترم الملك من الوجهة النظرية مآثر البلاد وحقوق الناس الا انه لا يمكن أن يكون هناك عدل أو شريعة مستقلين خارج سلطة العرش وارادته• وكان الملك على الرغم من سلطته المطلقة أيضا مقيدا من الوجهة النظرية على الاقل أن يسير وفق العدل والحق ، وقد سبق أن رأينا ان المصريين جسموا العدل وجعلوه باسم الهة هي «مات» (ابنة الاله رع) التي تعنى النظام الصحيح والحق والصدق ، مما ينبغي أن يتحلى بها الملك بصفته الها ، والى هذه الصفات الواجب توفرها في الملك الاله فانه مزود أيضا بالارادة الالهية أو ما يصح ترجمته «القول الخالق» (بالمصرية القديمة «هو») ، وبالادراك والفهم (بالمصرية «سيا») ، والملك على ذلك مسؤول عن تردى الاحوال في المملكة ، ولكن بما انه اله فلا يستطيع المجتمع أن يحاسبه أو يثور ضده من الوجهة النظرية • فلم يكن هناك طريقة شرعية يبدل بها الملك الحاكم بغيره ، كما اننا لا نجد في سجلات مصر ما يشير الى ما يمكن تسميته بالثورة الشعبية على الملك الاله ، وكل ما نجده في سير التأريخ المصرى مؤامرات في البلاط بين أمراء البيت المالك أو الامراء من السلالات الملكية ، وكان يسهل للناجح منهم أن يبرر اعتلاءه العرش من الناحية الشرعية بنظرية التجسد الالهى ، وعلى هذا فلم يكن في تأريخ مصر مدعون أو غاصبون للعرش من الوجهة النظرية بخلاف ما مر بنا في حضارة وادي الرافدين •

هذا وان سلطة الملك على رعيته لا تنتهي بالموت ، فان حمايته لهم وعلاقتهم به تمتد الى العالم الآخر حيث يتجسد الملك بالاله «اوسيريس» ملك عالم الاموات ، وتوجد حالات قليلة في عهد السلالة الاولى كانت يضحى فيها

١٦٤



نحت يمثل لنا الملك «منكورع» والملكة «خاميرر نبتى» (من السلالة الرابعة)

البشر من أتباع الملك عند موته ، ولكن هذه العادة بطلت منذ عهد السلالة الرابعة[١] ، وصار قبر الملك بدلا من ذلك مركزا لقبور اتباعه من الامراء وكبار رجال الدولة ليشملهم بحمايته في العالم الآخر ولانه يحتاج الى خدمتهم في ذلك العالم • كما يجب على أفراد المجتمع الآخرين أن يعبد الفرعون الميت • ولم تقتصر سلطة الملك بصفته الها على البشر بل كانت تشمل حتى القوى الطبيعية ومن ذلك الظواهر الطبيعية التي تتوقف عليها حياة مصر مثل ضمان فيضان النيل • وقد ميزوا الملك عن البشر العاديين بالنسبة الى قدراته الخارقة حتى في مسألة العنصرين الحيويين اللذين قلنا ان المصريين القدماء جعلوهما العنصرين الروحيين المكون منهما الجسم الانساني ، حيث ان هذا الجسم مكون عدا العنصر المادي من عنصرين آخرين هما الروح «الكا» و النفس «البا»وهما مصطلحان لا يمكن ترجمتهما ترجمة دقيقة ،فيجوز أن تعني « الكا » قوة الحياة ويفسر المصريون الموت بانه شيء موقت يحدث بسبب ترك «الكا» للجسم حيث يعبرون عن ذلك بانها «استراحة» موقتة ، اذ تعود اليه من بعد الموت • ومع وجود هذين العنصرين عند سائر الناس الا انهما عند الملوك من عنصر وماهية خاصيتين • والجدير بالذكر بهذا الصدد ان المصريين لم يصوروا لنا «الكا» الخاصة بالناس العاديين من غير الملوك ، بخلاف «البا» التي كثيرا ما مثلوها على هيئة طائر ذي رأس بشري وهو حاط على بركة ماء ، فهي بحسب هذا التصور اليق أن تسمى بشبح الميت كما عند بعض الاقوام الاخرى مثل البابليين • ولكنهم صوروا لنا الـ «كا» الخاص بالملك على هيئة « قرين » يلازمه في الحياة بهيئة ملاك حارس ، ويشارك الملك فيما بعد الموت •

بعض الاحتفالات والرسوم الخاصة بالملكية

مع أن كثيرا من الرسوم والطقوس الدينية لها علاقة بالملك والملكية الا

---

(١) انظر

H. Frankfort, **Kingship and the Gods**, 6 ff.

G. A. Reisner, **The Development of the Egyptian Tomb**, 117 ff.



رأس الفرعون خفرع بانى ثانى الهرمين فى الجيزة • وجد فى معبد الوادى الخاص بهرمه ، وقد نحت من حجر صلب (حجر الديوريت) •
ويمثل الصقر الاله هورس الذى يحمى الملك ويتجسد فيه

انه هناك جملة احتفالات ورسوم خاصة بالملك نذكر منها الاحتفال بالتتويج والاحتفال الخاص المعروف باسم عيد «سيد» • أما الاحتفالات الخاصة باعلان الملك الجديد وتتويجه فيمكن الوقوف عليها من جملة مصادر مهمة أهمها المنحوتات البارزة الممثلة لمشاهد الاحتفال التى جاءتنا من عهد الامبراطورية والنصوص الكتابية الشهيرة باسم «النصوص الهرمية» (Pyramid Texts) والمصادر الخاصة بوصف تمثيلية التتويج •

وهناك نوعان من الاحتفالات الخاصة بتبوأ الملك الجديد للعرش أحدهما يخص اعلان الملك الجديد والآخر يخص تتويج هذا الملك الجديد ، والغالب ان الحادثتين أو الاحتفالين لا يقعان فى زمن واحد • فضمانا لصفة الملوكية وتأكيدا لالوهيتها وقطعا لظهور منازع من أمراء البيت المالك كان الملك وهو فى أثناء حكمه فى الحياة يعين خليفته على العرش على هيئة نائب له

أو شريك له فى الحكم (Coregent) ، وكانت هذه العادة متبعة بين جميع ملوك المملكة الوسطى وملوك الامبراطورية بحسب ما جاءنا من نصوص ، ولعل ذلك كان متبعا فى العهود القديمة أيضا • ويعقب تخليف الملك الجديد بعد موت الملك والانتهاء من مراسيم دفنه (ويستغرق ذلك زمنا طويلا) الاحتفال بالتتويج (Coronation) الذى يثبت انتقال السلطة الى الملك الجديد • وكانوا يختارون ليوم التتويج فى الغالب أما فى بداية الصيف (وهو الفصل الاول من التقويم المصرى) أو الخريف (الفصل الثانى) ، وتخصص الفترة ما بين موت الملك وتتويج الملك الجديد فى تهيئة دفن الملك وتهيئة معبده وتحنيطه ثم دفنه •وفى اليوم الذى يسبق التتويج يحتفلون بانهاء مراسيم الدفن ، وحالما يوضع الملك الراحل فى لحده يكون ذلك بعثه وقيامته وانتقاله الى ملكوت الاله الشمس • فكان الدفن عند المصريين القدماء يرادف القيامة أو الحياة الاخرى ، ويصير الملك الملحود الاله «اوسيريس» بالتجسد والملك المتوج «هورس» • وقد خلف لنا المصريون القدماء عدا الوثائق العامة المتعلقة بتعيين خليفة الملك وتتويجه وثيقة خاصة تصف لنا بصورة واقعية خلافة «سنوسرت» الاول ، من ملوك المملكة الوسطى ، وقد جاءت على هيئة احتفال أو تمثيلية كان يقوم بأدوارها الملك الذى سمى فى هذه الوثيقة بعبارة «الملك الذى سيحكم» وأمراء الاسرة المالكة وكبار الموظفين والكهنة ، وبالامكان تقسيمها الى ستة فصول يحتوى كل فصل منها على عدة مشاهد ، ويحتوى الفصل السادس منها على الاحتفال بيوم التتويج[١] •

---

(١) لقد ترجمت هذه التمثيلية بالمصطلح الانجليزى

"The Mystery Play of Succession".

« أى رواية خلافة الحكم السرية » ، ولا يسع مجال هذا الكتاب حتى ايجازها فنحيل من يريد الوقوف عليها الى أحدث المصادر والترجمات فى المرجعين الآتيين :ـ

(1) Frankfort, **Kingship and the Gods**, ch. 11.

ومن الاحتفالات المهمة الخاصة بالملك العيد المسمى بعيد «سيد» أى عيد الثلاثين (The Sed Festival) ولهذا العيد علاقة بالاله «اوسيريس» اذ المرجح ان الملك انما كان يحتفل به لكونه قد تجسد بالاله اوسيريس ، فيحتفل بحياته بهذه الصفة وهو فى قيد الحياة وفى الغالب بعد مضى ثلاثين عاما على تبوئه العرش ، ويرجع زمن ممارسة هذا العيد الى أحد ملوك السلالة الاولى القدامى المسمى «دين سيمتى» الذى يرجح أيضا انه أول ملك اعتقد فيه بتجسده بالاله «اوسيريس» حيث اتخذت عبادته أهمية خاصة فى عهد هذا الملك ، وتعزو اليه المآثر ان فصولا من «كتاب الاموات» قد دونت فى عهده ، كما وجد له لوح منقوش بكتابة هيروغليفية وصورة للملك تمثله فى حالة رقص أمام الاله «اوسيريس» ، مما يحتمل أن يكون هذا جزءا من مراسيم عيد «سيد»(١) . ومع ان اسم العيد يعنى «عيد الثلاثين» الا ان كثيرا من الملوك احتفلوا به مرات متعددة بفترات أقصر ، وخصص للاحتفال به أول شهر من الفصل الثانى المسمى «فصل الظهور» أى ظهور الخضار والحياة من بعد فيضان النيل مما يشير الى ارتباط العيد بعبادة «اوسيريس» الذى يمثل حياة الانبات والخضار بوجه عام . وكان الملك يقوم فى هذا العيد بعمل أشياء كثيرة منها اقامة معبد جديد أو اقامة مسلة من الحجر، واذا لم يشيد معبد جديد فتخصص احدى قاعات المعابد الشهيرة ، كما تخصص الهدايا للاله ، وتكون عاصمة الملك فى شغل شاغل فى التهيؤ والقيام بعمليات التطهير والتنظيف واضاءة المواضع المعدة للاحتفال ، وتحمل السفن تماثيل الآلهة من مختلف أنحاء القطر حيث يستقبلها الفرعون ورجال بلاطه، وكذلك يحضر كبار موظفى الدولة من الاقاليم .

وبعد الانتهاء من الاستعدادات وفى اليوم الاول من فصل «الظهور» يبدأ

---

(١) انظر **British Museum Guide,** 282 — 83.

وحول هذا العيد انظر

Journal of Egyptian Archeology, (1944), 30 ff.

الاحتفال الرسمي بسير موكب مهيب يمشي فيه الملك وتماثيل الآلهة وكهنتها، وتقدم القرابين الى الآلهة ، وبعد ذلك يتقدم الكهنة من الملك وهو على عرشه وهم يحملون رموز الآلهة معهم ، ويرد الملك زيارتهم بان يزور كل اله في مزاره الخاص ، ويستمر هذا التزاور المتبادل طيلة يومين • ومن بعد ذلك يقدم الى الملك كبار الدولة وأمراء السلالة المالكة خضوعهم وهو على عرشه[١] •

وقبل أن ننهي بحثنا عن الملك وننتقل الى ذكر أشياء موجزة عن الموظفين التابعين له ننوه هنا بشيء مهم يتعلق بألقاب الملك الرسمية مما له علاقة بجغرافية مصر • فقد سبق أن رأينا انقسام وادي النيل الى القسمين المتميزين الوجه البحري ، وهو الدلتا الواسعة الرقعة ، ثم الوجه القبلي مما تحت القاهرة ، المكون من شقة وادي النيل الضيقة • ومع اختلاف هذين القسمين وتميزهما بعضهما عن بعض في أوجه كثيرة الا أنهما يجب ان يؤلفا وحدة اقتصادية وسياسية لاشتراكهما في المصالح الكثيرة واعتمادهما على مصدر واحد من المياه هو النيل ، فكان من المشاكل المهمة التي اعترضت الحضارة المصرية في أثناء نموها توحيد هذين القسمين من القطر في مملكة قومية موحدة • وكانت هذه الوحدة من المظاهر المرغوبة في نظام الملكية ومقياسا لازدهار الحكم وقوته • وكان لاختراع نظام الحكم الذي يدور على فكرة «الملك الاله» أثر بالغ في توحيد هذين القسمين ، وصار من ألقاب الملك الرسمية المهمة لقب «ملك القطرين» حيث جمع في تاجه شعاري القسمين ، حيث لقب «بالسيدتين» اشارة الى جمع الالهتين الحاميتين لكل من مصر العليا والسفلى •

حكومة الفرعون

اذا كان الملك مصدر الحكم والسلطة ومنبع العدالة فمن البديهي تعذر

---

(١) انظر موجز وصف العيد وتحليل مغزاه واهميته في المرجع :—
H. Frankfort, **Kingship and the Gods,** ch. 6

قيامه بادارة شؤون الدولة جميعها ، اذ الواقع ان الملك كان بعيدا عن جزئيات ادارة المملكة والحكومة ، فكان يفوض فى ذلك كبار موظفيه وعلى رأسهم أهم موظف فى الدولة من بعد الملك ذلك هو «وزير الملك» ، ثم كبار موظفى الدولة الذين يكونون فى حالات كثيرة من أعضاء الاسرة المالكة أو ممن يمت اليها من الامراء الذين يكونون أعلى طبقة فى المجتمع ، ويكون فيهم بسبب صلتهم بالملك جزء من تلك الصفة الالهية المقدسة التى تميز الملك • وقد بلغ الحال مثلا فى عهد السلالة الرابعة ان الوزراء وكبار الكهنة كانوا من أبناء الملك أو من أبناء عمومته أو أبناء خاله الخ • ومما يقال عن طبقات المجتمع بالنسبة الى الملك ان جميع المصريين كانوا بالنسبة اليه من العوام ومن طبقة غير طبقته باستثناء أولئك الذين يجرى فى عروقهم الدم الملكى مهما بعدت صلاتهم بالاسرة المالكة • واذا كان الوزير وكبار الموظفين يساعدون الملك فى ادارة الدولة بتفويض منه الا ان الشؤون والقرارات المهمة كانت تعرض أمام الملك للبت فيها • وكان على الوزير الاول أن يمثل أمام الفرعون صباح كل يوم ليطلعه على شؤون الدولة • وكان الملك يفوض وزيره أيضا فى سماع الشكاوى التى تستأنف الى الملك بصفته منبع العدالة • ويجدر التنويه بهذه المناسبة بانه لم يكن هناك تمييز بين السلطتين التشريعية والتنفيذية لان كل السلطات مصدرها الملك • ومما يدل على سعة سلطة وزير الملك القابه المهمة مثل تسميته باسم «رئيس كبار موظفى الوجهين القبلى والبحرى»، وكان الوزير كبيرا للقضاة ومن ألقابه المهمة «ناضر جميع أشغال الملك» و «المشرف على ما تعطيه السماء وتخرجه الارض ويقدمه النيل والمدير لكل ما فى البلاد جميعها» ، ومن اختصاصاته اصدار المراسيم القانونية باسم الملك والتعيين الى وظائف الدولة ، والتصديق على وثائق الحدود بين الاملاك والاراضى •

ومما يقال فى حكومة الملك ونظام الادارة فيها انها تميز بالبيروقراطية الشديدة ، فهناك العدد الكبير من الكتبة ورؤسائهم ورتب الموظفين الآخرين، وكان من بين كبارهم حاكم الاقليم ، فقد كانت البلاد مقسمة الى ولايات ، كما

ان ادارة البلاد ظلت متميزة من ناحية تقسيمها الى القسمين الكبيرين ، الوجه القبلى والبحرى ، بحيث ان وزيرا خاصا كان يعين الى كل منهما فى بعض الاحايين • وكان حاكم الاقليم قائد الجيش الخاص باقليمه أيضا ، ويكون دولة مصغرة من ناحية الادارة والموظفين الخاصين بها • وهناك وظيفة مالية كبيرة هى «بيت الخزينة» أى ادارة المالية ، وعلى رأسها «أمين خزينة الاله» • وقد ازداد الموظفون وتضخم عددهم فى عهد المملكة الوسطى كما ازدادت عدد الوظائف والاعمال المناطة بالموظفين الكبار مما أدى الى ارباك ماكنة الدولة •

وطرأت تغييرات مهمة فى عهد الامبراطورية فى حكومة الملك وادارتها على الرغم من بقاء معظم الالقاب القديمة فى الاستعمال ، ولكن أسس الادارة وتنظيمها قد تغيرت • فمن الامور المهمة نشوء الموظفين الملكيين بدلا من الارستقراطية القديمة المكونة من النبلاء والاشراف ، كما ان ملكيات الاراضى الكبيرة انتقلت من حوزة الاسر القديمة الى التاج والى المعابد الكبرى • لقد طرأت مثل هذه التغييرات من جراء طرد الهكسوس بالحرب والاستيلاء على أملاكهم أى ان السلالة الثامنة عشرة انما قامت على أثر حرب أهلية بدلت كثيرا من الاوضاع السابقة • ولعل احموسة مؤسس هذه السلالة قد انتهز فرصة حرب التحرير فسلب أملاك النبلاء السابقين وقضى على امتيازاتهم ، ومنح قسما من أملاكهم الى الذين ساعدوه فى حربه ضد الهكسوس • واذا كنا قلنا سابقا بان مصر كانت ملك الفرعون ، فان ذلك لم يكن كله صحيحا من الوجهة النظرية الا فى عهد الامبراطورية • وبما ان الدولة الحديثة قامت بقوة السلاح فقد استتبع ذلك تعاظم شأن الجند ، كما ان الجيش صار قوة نظامية أكثر دواما وأنظم مما كان عليه فى العصور السابقة • ثم ان تأسيس الامبراطورية قد اقتضى أن يكون هناك جيش قائم وأن تؤسس الحصون والثغور وتسين فيها الحاميات مما لم يكن معروفا فى العهود السابقة بمقياس كبير • ودخل فى الجيش أيضا نظام الجند المرتزقة كالليبيين مما كان له أثر سىء فى المملكة

حيث استطاع هؤلاء بعد أزمان أن يأخذوا زمام السلطة بأيديهم • وكان الملك يشترك شخصيا فى القتال كما ترينا الصور المنقوشة على جدران المعابد من عهد الامبراطورية • وبلغت مصر أوجها فى المقدرة العسكرية فى عهد الامبراطورية وبوجه خاص فى عهد السلالتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة ، ولكن هذه السلالة الاخيرة جابهت آنذاك دولة عظمى هى الامبراطورية الحثية ودخلت معها فى حروب مضنية •

شىء عن المجتمع والحياة الاجتماعية

اذا استثنينا الملك ومعه أفراد الاسرة المالكة الذين كانوا فوق طبقات الشعب فبالامكان تقسيم المجتمع الى ثلاث طبقات ، الطبقة العليا المؤلفة من النبلاء والاشراف وكبار الموظفين والكهنة ، وكان هؤلاء بيدهم مقاليد الامور والثروة ، ويليهم طبقة يمكن تسميتها بالطبقة الوسطى وأهم أفرادها الصناع والعمال الاحرار والفلاحون الاحرار ثم تأتى جماعات الارقاء • وكانت الحروب الخارجية مصدرا مهما لجلب الحشود من المسترقين ، فيخبرنا رعمسيس الثالث انه أهدى (١١٣٠٠٠) عبدا الى المعابد المهمة فى أثناء حكمه، واذا أضفنا الى مثل هذه الحشود من الارقاء العمل القسرى الذى كان يفرضه الملوك والحكام على الطبقات الدنيا من الفلاحين والعمال فى مشاريعهم الجسيمة أدركنا مصدر العمل الغزير فى مصر القديمة •

وكانت العائلة أساس المجتمع ، والغالب فى الزواج فى مصر القديمة الاقتصار على الزوجة الشرعية الواحدة التى كانت سيدة البيت ، أما تعدد الزوجات فكان من الحالات القليلة المقصورة على العائلة المالكة وطبقة الاشراف والنبلاء ، كما ان الرجل العادى يستطيع أن يتخذ محظيات (سريات) من الجوارى والاماء ، ولكن يندر الجمع بين زوجتين شرعيتين فى آن واحد • ويبدو ان التعلق بالعائلة وتأسيس الاسرة كانت من الامور المحبية المثالية لدى المصريين القدماء • وقد جاء فى كتاب الحكمة الذى ألفه «فتاح حيتى» «ان الرجل يكون حكيما حين يؤسس لنفسه منزلا ويحب زوجته» • هذا ولم

يكن هناك سن قانونى للزواج ، فقد يكون من سن الخامسة عشرة للشبان وسن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة للبنات ، والمرجح كثيرا قياسا على العصور المتأخرة ان الزواج كان يتم بالخطبة وبالعقد الكتابى • ولم يكن المصريون القدماء يتحرجون من زواج الاخت وابنة الاخت • وقد اتبع هـذه العـادة البطالسة والرومان فى مصر ، حيث اتخذ معظم البطالسة اخواتهم زوجات لهم • وكانت هذه العادة شائعة فى العصور السابقة ولا سيما بالنسبة للملوك والآلهة ، فقد جاء فى الاساطير ان الاله «اوسيريس» والاله «سيت» قد تزوجا بأختيهما «ايسيس» و «نفتيس» ولعـل الغـاية من زواج الاخت بين الملوك الاحتفاظ بالدم الالهى النقى • وكانت الزوجة محترمة بوجه عام ، كما حضت الام أيضا بالاحترام الخاص حتى ان صورة أم الميت وليس صورة أبيه هى التى تنقش مع صورته وصورة زوجته ، وكثيرا ما نسب الميت فى شـواهد القبور الى جهة أمه وليس الى جهة أبيه ، ولعل هذه العادة من بقايا العصور القديمة •

وكان اسم الشخص ذا أهمية خاصة وموضوع اهتمام شديد ، والاسم أما أن يكون بسـيطا يدل على تيمن ، أو انه ذو مغزى دينى ، والغـالب فى الاسماء التركيب ، حيث يتكون الاسم من جملة ذات معنى على غرار الاقوام السامية كما رأينا ذلك عند البابليين ، وكثيرا ما تكون الاسماء البسيطة موجز الاسماء المركبة واختصارا لها • وبطبيعة الحال كانت تربية الطفل وتنشئته تقع على عاتق الام ، وكانت الام ترضعه مدة قد تدوم ٣ سنوات وقد يوكل الطفل الى المرضعة ومن بعد أربع سنوات يأتى دور الاب فى التربية ، والعادة ان الاطفال كانوا يعلقون فى أجسامهم التمائم والحروز لطرد الشر • واذا ما بلغ الطفل دور الصبا فاما أن يلحق بحرفة بالالتحاق بمحل صانع أومحترف أو يرسل الى الكتاتيب لتعليمه الكتابة والقراءة التى كانت من الامور الصعبة التى تستغرق وقتا طويلا ، وكان أولاد الطبقات العليا يؤخذون فى الاغلب الى البلاط ليتربوا مع أبناء الملوك • وكانت فى مصر القديمة أنواع مختلفـة من

المدارس فبعضها مدارس ملحقة بالمعابد كما توجد مدارس رسمية خاصة بأبناء الطبقات الراقية ، وكانت هناك أيضا مدارس مهنية مثل مدرسة الكتبة ومدرسة الكهنة ، ومدرسة عسكرية • وكان نظام الدراسة صارما قاسيا حيث العقوبات الجسدية ، ولكن مع ذلك بوسعنا أن نستدل من النصوص الكتابية على ولعهم بالتعليم وتقديرهم لفن الكتابة ، كما يتجلى ذلك مما ذكرناه باسم وصية «دواف بن خيتى» لابنه ، والحوافز على ذلك نيل الوظائف والمراتب العليا وليس لمجرد حب المعرفة والحكمة ، فالتعليم كان الفاصل بين الطبقة الحاكمة والطبقات المحكومة ، فتعلم فن الكتابة وصيرورة المرء كاتبا يضعانه فى أولى درجة فى سلم التوظف• وكان التعليم بوجه عام درجات، فالتعليم الابتدائى يقتصر على تعلم فن الكتابة والحساب وبعض الامور العامة ، والتعليم المتقدم يأخذ بالمرء الى الاختصاص فى المدارس الخصوصية حيث يتعلم الطب والرياضيات والسحر والكهانة ويتقن أسرار التعاليم الالهية الكهنوتية •

واذا ما أردنا أن نتكلم شيئا عن المنازل وبيوت السكنى فان معلوماتنا عنها لا تتعدى عهد الدولة الوسطى ، اذ لم يبق أثر ما لبيوت العهود السابقة ، ويصدق ذلك على المدينة المصرية • وقد كشف المنقبون عن بقايا مدينة من هذا العهد فى الموضع المعروف باسم اللاهون بمنطقة الفيوم ، وقد بناها «سنوسرت» الثانى لتكون مقرا له ، وتعرف بين الباحثين الآن باسم «كاهون» ، ولم تسكن هذه المدينة الا زهاء القرن الواحد ، وهى تشغل مساحة مقدارها ٣٥٠ × ٤٠٠ مترا مربعا ومحاطة بسور عريض من اللبن ، ولها بابان وشارع رئيسى عرضه ٨ ـ ٩ أمتار ، ويتفرع منه بزوايا قوائم دروب وطرقات فرعية على جوانبها منازل صغيرة ، وقد خصص نحو ثلاثة أرباع المدينة (قسم المدينة الشمالى) للملك ولكبار موظفيه • وعثر على أنقاض مدينة أخرى مهمة من عهد الامبراطورية عرفتنا أيضا بالمدينة المصرية وبدور السكنى فيها ، ونقصد بذلك المدينة التى شيدها اخناتون فى تل العمارنة فى مصر الوسطى (على الضفة الشرقية من النيل) فى أواخر السلالة الثامنة عشرة (١٣٧٥ـ١٣٥٠ق•م) ،

وتمتد هذه المدينة نحو سبعة كيلو مترات من الجنوب الى الشمال ونحو (١ - ½ ١ كم) من الغرب الى الشرق ، ويقوم وسط المدينة معبد الاله «اتون» العظيم ، ولعل قصر الملك كان يتصل به ، وتقع الى شماله وجنوبه منازل النبلاء وأفراد الشعب ، وكانت هذه المنازل بعضها بسيطا وبعضها كبيرا معقدا ، ولكن الظاهر ان المدينة لم تكن مقسمة الى حارات للاغنياء وحارات للفقراء ، وكان لاكثر البيوت حدائق ، وقد اشتهر المصريون القدماء بالعناية بالجنائن منذ أبعد العصور • وفيما عدا انقاض هاتين المدينتين فاننا نجهل انشاء دور السكنى وخطط المدن المصرية بالنظر لعدم اعتنائهم ببيوت السكنى وانما خصصوا أعظم الجهود الى اقامة القبور التى كانت البيوت الدائمة ولكن وجد فى مثل هذه المقابر ، ولا سيما المقابر العائدة الى عهد الامبراطورية ، نماذج طريفة لادوات المنازل والاثاث المستعملة ، كما وجدت نماذج مصغرة لبعض بيوت السكنى • واذا أضفنا الى هذه الادوات الصور الممثلة للبيوت والاثاث استطعنا أن نكون صورة لا بأس بها عن الاثاث البيتية مثل أسرة النوم الخشبية ، وكانت أسرة الاثرياء مفضضة ومذهبة ومزخرفة بالصور وكذلك الكراسى ، ولكن عامة الناس صوروا فى أكلهم وهم على الارض جالسين القرفصاء ، الا ان المقعد الخشبى شاع بين عامة الناس منذ عهد السلالة الثامنة عشرة • ولدينا أيضا صورة لا بأس بها عن ملابس الناس وأزيائهم ، حيث نجد النقب (الازر) التى تلف فى وسط الشخص فى عهد المملكة القديمة ، وقد أضيف ازار آخر فى عهد المملكة الوسطى ، كما ان الصدر صار يغطى برداء فى عهد الامبراطورية ، وقد استعملوا نسيج الكتان والصوف والجلود للملابس • وكانت الملابس كثيرا ما تزخرف • وهناك ألبسة خاصة بالاحتفالات الدينية والرسمية ، كما اختص الوزراء والكهان بلباسهم الخاص •

واذا ما تساءلنا عن أنواع المهن التى كانت تمتهنها طبقات الشعب وجب علينا أن نتكلم عن ثلاثة أسس مهمة قامت عليها حضارة وادى النيل تلك هى

الزراعة والتجارة والصناعة ، وهى الاسس المهمة التى رأيناها تميز حضارة وادى الرافدين أيضا • واذا لم يكن فى الوسع اسهاب القول فى كل من هذه العناصر الثلاثة فاننا نقتصر على ذكر أبرز الامور المهمة فى الموضوع ، ولنبدأ بالزراعــة •

ولا حاجة بنا للاسهاب فى أثر الزراعــة فى حضارة وادى النيل لانه سبق أن رأينا فى عدة مناسبات عن تاريخ مصر كيف ان الزراعة كانت المورد الاول فى حياة وادى النيل ، وقد وضعت أسسها قبل عهد نضج الحضارة ، حيث قام رواد الحضارة الاوائل لمـا جاؤا الى ضفاف النيل بازالة الاحراش والغابات وتنظيم جريان النيل ، وشق الترع والقنوات ، فعملت تلك الجهود على نمو الحضارة وتوفير القوت • ولعل أبرز ما تمتاز به الزراعة فى وادى النيل ما سبق أن ذكرناه عن خصائص نهر النيل المميزة ، ولا سيما دورة فيضانه وقلتها وكثرتها ، فلا حاجة لتكرار القول فى ذلك • وبعد انتهاء موسم الفيضان فى أواخر فصل الصيف تكون الحقول مستعدة للحرث ، حيث تفتت التربة مما على سطحها من كتل الطمى الكبيرة ، كما تحرث بالمحراث الذى تجره الثيران ، واستعملت البغال أيضا فى عهد الامبراطورية ، وكانت العادة أن يخصص شخصان لكل محراث أحدهما يضغط على مقبض المحراث ويقود الآخر الثورين • وبعد اعداد الحقل وتهيئته تبدأ عملية البذر ، وبعد البذر يقومون بعملية أخرى هى انزال الحبوب فى اثناء الارض المحروثة ، وكانت هذه العملية تتم فى العصور الاولى بواسطة الخراف حيث تسير فوق الحقل المحروث ، وكانوا يسمون هذه العمليــة «حرث الحقل مرة أخرى بواسطة الخراف» ، واستعملوا الخنازير فى عهد الامبراطورية على ما يروى لنا «هيرودوتس» ، وبعد ذلك يبدأ نمو الحبوب وظهورها ، فتبدأ عملية الحصد بالمنجل القصير ، حيث يربط المحصود على هيئة حزم تنقل بعدئذ الى موضع مخصص للدراسة • وكانوا يستخدمون الحمير فى الدراسة ، وكثيرا ما تخزن الحبوب بعد التذرية فى أهراء مبنية من الطين بهيئة مخاريط (ارتفاعها نحو

(٥) أمتار وقطرها نحو مترين) • وكانت أشهر الحبوب المزروعة الحنطة والشعير والشوفان • وبالاضافة الى الحبوب، كان في مصر جملة أنواع من الخضراوات كالبصل والخيار والبطيخ • ومن الثروة الزراعية يمكننا أن نعدد أيضا تربية الماشية ، وقد وصلت الينا عن ذلك صور كثيرة من المقابر من جميع العهود ، كالبقر والغنم والماعز • واعتنوا أيضا عناية خاصة بالدواجن من الطيور المختلفة •

وبعد أن كثر الانتاج الزراعي بالسيطرة على مياه الارواء أمكن ظهور الصناعات التي كانت بسيطة في مبدأ أمرها ، وظهرت التجارة أيضا على مقياس واسع ، وباستطاعتنا أن نقف على نتاج الصناعات المصرية فيما خلفه لنا المصريون القدماء ولا سيما في قبورهم من الاثاث والادوات المختلفة منذ أقدم عصور التأريخ • ونذكر من بين الحرف الشهيرة ما كانوا يصنعونه من نبات البردى كالقوارب والحصر والسلال والحبال والنعال ، وأهم من ذلك مادة الورق التي ذكرنا عنها شيئا فيما سبق ، ومن الصناعات المهمة أيضا الغزل والنسج من الكتان والصوف ، ولاهمية صناعة النسيج أرجعوا أصلها الى احدى الالهات المسماة «تايت» ، وعدت صناعة الملابس من أعمال النساء بوجه عام ، ولكننا نجد الى جانب ذلك صور الرجال وهم على الانوال يصنعون النسيج ، ونذكر أيضا دباغة الجلود ، وقد جاءتنا نماذج من الجلود المدبوغة• واشتهرت النجارة في مصر كما تدل على ذلك الاثاث النفيسة التي خلفها لنا المصريون القدماء في قبورهم كالعربات والكراسي والتوابيت ، وكان الخشب الجيد مفقودا في مصر ، ولذلك عمدوا على جلب الخشب الجيد من خارج مصر ولا سيما من بلاد الشام • ومن الصناعات المهمة التي توفرت موادها الخام في بلاد مصر صناعة الفخار الشهيرة ، والى جانب أواني الفخار البسيطة اشتهر الفخارون بصناعة التزجيج أو ما يعرف بالبورسلين المصري ، وكذلك صناعة الزجاج • ولا يعلم متى نشأت صناعة الزجاج ،ولكن الاواني الزجاجية الكاملة لم يبدأ انتاجها بكثرة الا منذ عهد الامبراطورية •

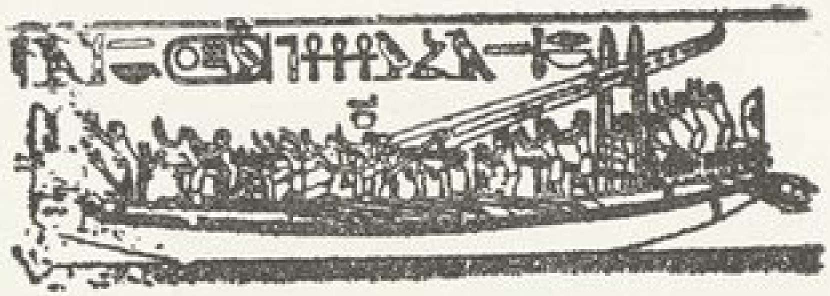


صفحة منحوتة تمثل الملك منكورع خليفة خفرع (السلالة الرابعة) مع الالهة هاتور والهة اخرى خاصة بأحد الاقاليم



كرسى من الخشب دقيق الصنع يعود الى أحد النبلاء من عهد الامبراطورية

ولم تكن بلاد مصر غنية بالمعادن ، فكانوا يبحثون عن المعادن ويستخرجونها من الاقطار القريبة من مصر ، مثل النحاس من طور سيناء ، ولصعوبة الحصول على مثل هذه البضائع بالتجارة الفردية فقد ظل التعدين طوال قرون كثيرة تحتكره الدولة، وقد سبق أن رأينا ان الحكومات كانت ترسل البعوث الخاصة لسيناء وبلاد نوبية لاستخراج النحاس • ويبدو ان صنع البرونز نشأ منذ عهد المملكة الوسطى على الرغم من استعماله قليلا فى عهد المملكة القديمة ، ولكنه لم يحل محل النحاس تماما الا فى عهد الامبراطورية • كما ان استعمال الحديد لم يبدأ بكثرة الا منذ هذا العهد • وكان الحديد يستورد بالدرجة الاولى من بلاد الحثيين • أما الذهب والفضة فقد استعملا منذ أقدم العهود ، واشتهر الصاغة بصناعاتهم الدقيقة النفيسة كما تدل على ذلك الآثار القيمة التى وجدت فى القبور • وقد خلف لنا المصريون القدماء سجلات عن مناجم الذهب وكيفية العمل بها ، حيث كانوا يرسلون البعوث الخاصة لاستخراج



صورة تمثل لنا سفينة مصرية قديمة من عصر الاهرام

الذهب في الساحل الشرقي من نوبية ، وكذلك يقال عن مناجم الاحجار ومقالعها[١] . ومما يقال عن الصناعة في مصر بوجه عام انها لتضاهي بل تفوق الصناعات الحديثة في بعض النواحي قبل اختراع الآلات البخارية والعصر الآلي . وكذلك يقال بالنسبة الى الاعمال الهندسية كما تدل على ذلك مشاريع البناء الجسيمة ومشاريع الري الكبرى ، فنذكر على سبيل المثال من بين ذلك ان الملك «سنوسرت» الثالث شيد جدارا طوله ٢٧ ميلا لجمع مياه منخفض الفيوم في بحيرة موريس ، وبذلك استطاع أن يخلص أراضي صالحة للزراعة مساحتها نحو (٢٥٠٠٠) فدانا من المستنقعات كما انه انشأ خزانا عظيما للارواء بهذه الواسطة[٢] ، كما شقت جداول كبرى بعضها يربط النيل بالبحر الاحمر ، ويقال انهم استعملوا للحفر الصناديق الخاصة للعمل في الماء[٣] وننوه أيضا ببناء السفن ولا سيما الكبيرة منها حيث بلغ حجم بعضها (١٠٠ × ٥٠ قدما) .

ان الكثير من المواد التي استعملت في الصناعات التي عددناها كانت تستورد بالتجارة الخارجية . وكان أهم جزء من التجارة الخارجية بالطرق البحرية بواسطة السفن ، وهي التجارة التي يبدو انها اختصت بأهل الدلتا . وكان

---

(١) انظر «مصر في العصور القديمة» تاليف «ادولف ارمان وزانكة» وهو الذي اعتمدنا عليه هنا .

(٢) نقلا عن

Will Durant, **The Story of Civilization;** (Diodorus, 1, 52).

(٣) مما يعرف بـ (Caisson) انظر Will Durant, **Op. Cit.,** 169.

النيل طريقا مهما للمواصلات الداخلية . وجاءتنا أخبار لا بأس بها عن السفن وأنواعها[١] حيث كانوا يستعملون الكبيرة منها للابحار بها الى سواحل سورية ، وقد سبق أن ذكرنا ان مستعمرة تجارية مصرية قد تأسست فى جبيل ، حتى انهم سموا السفينة البحرية باسم مشتق من جبيل هو «جبليا» . واستخدموا الحمير للمواصلات البرية الداخلية ، واستخدموا للمواصلات البرية القصيرة «المحفات» . والمحفة عبارة عن مقعد خشبى فوقه مظلة ويحمله من قبضاته الطويلة ستة خدم أو أكثر على أكتافهم ومعهم رجال يحملون المراوح للترفيه عن الثرى . واستخدمت العربات فى عهد الامبراطورية للسفر والحرب والصيد ، وكذلك استعملت الخيل فى هذا العهد . أما الجمل فلم يذكر أو يصور قبل العهد اليونانى فى مصر ، وقد ازدهرت التجارة الخارجية ودرت على مصر خيرات عميمة . وكان من أشهر صادراتها الحبوب والصناعات الثمينة المختلفة ، أما الواردات فمن أهمها الزيتون وزيت الزيتون والنبيذ من اليونان والساحل الليبى ، والفضة من آسية الصغرى ، والنحاس والقصدير من سيناء وقبرص وسورية الشمالية والارز من جبال لبنان ،وحجر اللازورد من فارس والمر والبهار للتحنيط من جنوبى جزيرة العرب وبلاد «البنت» والصومال . والجلود والماشية والعاج والابنوس وريش النعام والقسى من السودان . كما وجدت جملة منتوجات من بلاد بابل والهند عن طرق القوافل التى كانت تخترق الصحراء من قرب السويس أو قرب موضع القنطرة الآن ، كما سلكت التجارة البحرية فى البحر المتوسط الى بلاد الشام واليونان والجزر الايجية وفى البحر الاحمر وخليج فارس .

وكانت المعاملات التجارية تتم بالمقايضة بالدرجة الاولى ، واستعمل المصريون الاوزان والموازين ، كما انهم استعملوا قطعا من النحاس معينة الوزن للتبادل منها قطع تزن نحو (٩١) غراما تسمى «دين» واستعملوا الذهب

---

(١) انظر المرجع المذكور فى الهامش رقم (١) الص ١٨٠ .

أيضا واسطة للتعامل ، ولكن العملة المسكوكة لم تكن معروفة فى مصر الا فى القرن الرابع ق • م ، حيث ادخلت من اليونان •

مراجع مختارة

بالاضافة الى المراجع التى اثبتناها فى الهوامش يجد القارىء فى الثبت الآتى المراجع الاساسية عن تاريخ مصر ويجد فيها الاشـارات الى المراجع الاخرى حول البحوث الكثيرة المتنوعة

عن جغرافية مصر وعصور ما قبل التاريخ بوجه عام

1. Childe, **New Light on the Most Ancient East,** (1952).
2. ...., "Terminology in Egyptian Prehistory", in **Antiquity,** No. 103 (1952).
3. O. Eberhard in **Die Welt des Orient** (1952), 43, ff.
4. K. S. Sandford in AJSL, XLVIII)1932), ..., **Palaeolithic Man and the Nile Valley,** (1934).
5. S.S. Huzzayin, **The Place of Egypt in Prehistory** (1941).
6. Frankfort **The Birth of Civilization in the Ancient Near East** (1951).
7. Frankfort in AJSL, LVIII (1941), 329 ff.

حول تاريخ مصر والحضارة المصرية بوجه عام انظر احدث المراجع :ـ

8. J. A. Wilson, **The Burden of Egypt** (1951).
9. Frankfort, **Kingship and the Gods** (1951).
10. Breasted, **A History of Egypt** (1905, 1954).
11. Steindorff & Seele, **When Egypt Ruled the East** (1942)
12. **Cambridge Ancient History.**
13. Pritchard, **Ancient Near Eastern Texts** (1950).
14. Frankfort, et la, **Intelectual Adventure of Ancient Man** (1946) = **Before Philosophy** (Pelican, 1951).
15. Breasted, **Dawn of Conscience** (1933).
16. **The Legacy of Egypt.**
17. Adolf Erman, **The Literature of Ancient Egyptians** (Transl from German, 1927).
18. **E. Meyre, Geschichte des Altertum** (1926).
19. Scharff & Moortgat, **Egypten und Vorderasien.**

20. H. R. Hall, **The Ancient History of the Near East** (1936).
21. Will Durant, **The Story of Civilization** (1942).
22. I. E. S. Edwards, **The Pyramids of Egypt** (Pelican, 1947).
23. H.Frankfort, **Ancient Egyptian Religion** (1948).
24. W. S. Smith, **A History of Egyptian Sculpture and Painting in the Old Kingdom** (1946).
25. A. H. Gardiner, **Egyptian Grammar** (1927).
26. ...., **The Attitude of the Ancient Egyptians to Death and the Dead** (1935).
27. J.D.S. Pendlebury, **Tell el-Amarna** (1935).
28. A. Erman, **Die Religion der Aegypter** (1934).
29. Kurt Lange, **König Echnaton and die Amarna Zeit** (1951).
30. Knutdzon, **Die El-Amarna Tafeln.**
31. **A General Introductory Guide to the Esyptian Collections in British Museum** (1930).

٣٢ . «مصر والحياة المصرية في العصور القديمة» تاليف ادولف ارمان وهرمان رانكة ترجمة الدكتور عبدالمنعم ابو بكر ومحرم كمال .

٣٣ . «مصر» تاليف دريوتون وترجمة عباس بيومي .

٣٤ . «مصر القديمة» للدكتور سليم حسن ، تسعة مجلدات (١٩٤٠ ـ ١٩٥٢) .

القسم الثانى

تاريخ الجزيرة العربية
و
بلاد الشام

الفصل السادس والعشرون

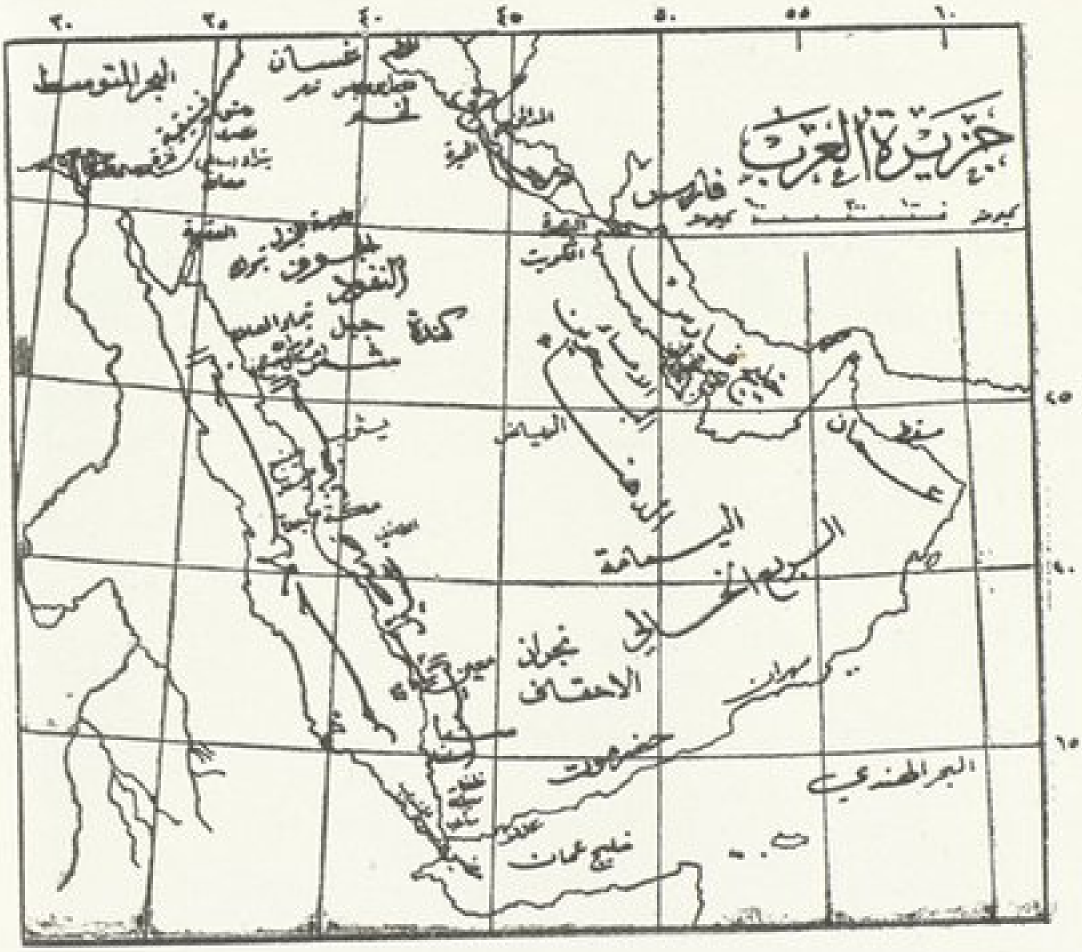
جزيرة العرب وشيء عن تأريخها القديم

سيتضح مما سنذكره عن علاقة الجزيرة بأقطار الشرق الادنى بكونها مصدر الهجرات السامية ومما سنذكره عن تأريخ الاقوام المهمة التي استوطنت بلاد الشام منذ فجر التأريخ أهمية الجزيرة العربية في تأريخ الشرق الادنى القديم ، ولما كان ليس في الامكان كتابة فصول مسهبة في تأريخ الجزيرة الماضي بالنظر لقلة المآثر ولان ذلك خارج نطاق مدى بحثنا فاننا نكتفي بما سنورده من الملاحظات الموجزة لتكون تعريفا بالموضوع لمن أراد التوسع فيه في مظانه ونبدأ بذكر ملاحظات موجزة عن اسم العرب .

كلمة عرب

تضاربت آراء المفسرين في الكلمة «عرب» وذكروا عنها آراء كثيرة لا يعدو الكثير منها أن يكون مجرد حدس بل وهم . فما هي المادة التي اشتقت منها الكلمة ، وما هو أقدم ذكر لها ؟ وهل سمى سكان الجزيرة أنفسهم عربا ومتى كان ذلك ؟

وعلى الرغم من ان علاقات مهمة قد نشأت بين سكان وادي الرافدين وبين أقسام مهمة من الجزيرة منذ أقدم الازمان ، فان أقدم ذكر على ما نعلم حتى الآن لبعض القبائل العربية باسم العرب قد جاءنا من زمن الملك الآشوري «شيلمنصر» الثالث في أخبار حربه في بلاد الشام في موقعة «القرقار» (٨٥٣ ق.م) . وكثر ورود كلمة العرب في المصادر المسمارية منذ هذا التاريخ . ومما يقال عن العرب المذكورين بهذا الاسم في تلك المصادر أنهم كانوا جلهم أو كلهم من سكان بادية الشام أي بوادي جزيرة العرب الشمالية . وجاءت تلك


جزيرة العرب
فارس
البحر المتوسط
غسان
الكويت
النفود
كندة
جبل
يثرب
الدهناء
اليمامة
الربع الخالي
نجران
الاحقاف
حضرموت
عمان
البحر الهندي
خليج عمان
٣٠
٣٥
٤٠
٤٥
٥٠
٥٥
٦٠

الكلمة بصيغ وان اختلفت الا انها تشير الى اشتقاقها من مادة واحدة ، نذكر أشهرها بالتعريب اللاتيني : Arbi و Aribi و Arubu و Urbi ، والنسبة اليها (Arbaia) او (Arbayo) باضافة ياء النسبة الآشورية المماثلة الى العربية[١] • وجاءت كلمة العرب في مواضع كثيرة من التوراة ، وجاء ذكرها بصيغة (Arabaya) في نقوش دارا في حجر «بهستون» • ومع غموض معنى الكلمة الواردة في جميع هذه المصادر الا انها تشير على الاغلب الى البدو المتنقلين ، أي سكان البوادي ، مما يدل على ان الاسم صفة مشتقة من البادية والصحراء • والمرجح كثيرا ان كلمة «عرب» مأخوذة من مادة «عرب» بمعنى «امحل» أو «اجدب» ، وهو فعل قليل الاستعمال في كثير من اللغات السامية • واستعملت صيغة (عرابة أو عربة) العبرانية اسما للارض القفراء التي يقع ضمنها البحر الميت وتمتد الى النهاية الشمالية الشرقية من البحر الاحمر • ومن الطريف ذكره بهذا الصدد ان المصريين القدماء لم يسموا بلاد العرب باسم خاص وانما نعتوها في بعض كتاباتهم بـ «ارض الله» ووصفوها بنتاج أشجارها من البهار والتوابل •

أما ورود كلمة العرب في المآثر العربية فلا نستطيع أن نبت بالزمن الذي سمي فيه العرب أنفسهم بهذه التسمية • والذي عليه كثير من الثقات هو ان بلاد العرب عرفت منذ الجاهلية[٢] باسم جزيرة العرب ، وان اسم العرب استعمل في بلاد العرب نفسها قبل ظهور الاسلام كما يستبان من الاشعار الجاهلية ، وكذلك استعمال الكلمة في القرآن الكريم • ومهما يكن من أمر فعندما أطلق العرب على بلادهم اسم «جزيرة العرب» لم يتمسكوا بالمعنى الاصطلاحي التام لكلمة الجزيرة • وتسمية العرب لاشباه الجزر

---

(١) انظر حول النصوص الواردة فيها كلمة عرب في المرجع الآتي :ـ
Reallexikon der Assyriologie, I (Araber)

(٢) الجاهلية اصطلاح غير متفق على تحديد زمنه ، ويضع بعض المؤرخين بداية العهد الجاهلي في ٥٠٠ للميلاد ودام من ٥٠٠ـ٦٢٢ للميلاد •

جزرا وردت كثيرا في كلامهم • وملخص القول ان كلمة عرب منذ ظهورها (وأقدم ما جاءنا عن ذلك من القرن التاسع ق • م) أخذ يطرد استعمالها ويتسع بالتدريج فصار في النهاية علما يطلق على سكان الجزيرة واتسع في الاستعمال بعد هجرة العرب الكبرى منذ الفتح الاسلامي فشمل معظم أقطار الشرق الادنى وصار يحمل في مفهومه عدا الأوجه القومية والعنصرية الاوجه الثقافية والحضارية •

أحوال الجزيرة في الازمان القديمة :ـ

كانت أحوال الجزيرة في الدهور الماضية تختلف اختلافا كليا من حيث وفرة المياه والخصب عما هي عليه الآن • ولما كان لتلك الاحوال الماضية وتغيرها تأثير عظيم في العلاقات بين الجزيرة وبين الاقطار المجاورة من الشرق الادنى ، وكانت ذات صلة بنشوء الحضارات الاصلية في أنحاء الشرق الادنى وبهجرات الاقوام كما مر بكم في تأريخ العراق ، فيحسن بنا أن نذكر شيئا موجزا عما وجده البحث الحديث بالنسبة الى أحوال الجزيرة الماضية وما طرأ على تلك الاحوال من تغيرات وتقلبات أساسية • فقد أجمع الباحثون على ان الجزيرة كانت خصبة كثيرة المياه والامطار في العهد الجيولوجي المسمى «البلايستوسين» وكانت كذلك حتى العصر الحجري المتأخر تقريبا • وانها كانت تختلف عن حالها الآن بل كانت من أخصب بقاع الارض وأغناها ، وقد وجد الباحثون ، ومن بينهم «فيلبي» محارا من نوع المياه العذبة وأدوات من الصوان في جزء الربع الخالي الذي مر به • ويعتقد ان تاريخ هذه الآثار يرجع الى الازمان التي كانت فيها الجزيرة تتمتع بالخصب والمياه الدائمة في عصور ما قبل التاريخ البعيدة ، في العصور الحجرية القديمة • وقد وجد فيلبي في الربع الخالي بقايا بحر واسع ، هو السهل المنخفض المسمى الآن «أبو بحر» • ويشبه بعضهم مناخ الجزيرة في الدهور الجيولوجية السابقة ولا سيما في دهر «البلايستوسين» بمناخ الهند الآن بالنسبة الى كثرة المياه والرطوبة • وذكر السياح المحدثون جملة من قيعان الانهار اليابسة في الجزء الجنوبي

من الجزيرة ، وتدل بقايا الحيوانات التي وجدت هناك على ان أصلها أفريقي وتشير الى مناخ رطب يشبه مناخ أفريقية الحار في زمن قديم جدا • ويصادف هذا الزمن المشار اليه آخر عصر جليدي في أوربة لعله قبل (٢٠ر٠٠٠) سنة عندما كانت اوربة وامريكة الشمالية تغطيها الثلوج وغير مأهولة بالانسان • فعند ذلك كانت الجزيرة تتمتع بالعصور الممطرة (Pluvial Periods) وتزدهر فيها الحياة •

ومن الامارات القوية على خصب الجزيرة ووفرة المياه فيها في الازمان الخوالي : (١) الوديان الكثيرة المنتشرة (٢) وجود قيعان بعض البحيرات والبحار المندرسة كالبحيرة اليابسة ، قرب تيماء وبقايا البحر المسمى «أبو بحر» الذي وجده فيلبي في الربع الخالي (٣) خرائب المدن الموجودة هنا وهناك في تيماء وغيرها (٤) ثم ان الرمال الكثيرة وما فيها من ترسبات الاملاح والمياه الملحة الكثيرة كل ذلك يربط أراضي الجزيرة بأحوال بحرية (٥) والى هذا كله فقد وجدت آثار العصور الحجرية في الجزيرة •

هجرات الاقوام من الجزيرة الى بقاع الشرق الادنى

لا شك في أن يكون المفتاح في تاريخ العلاقات بين الجزيرة وبين بلدان الشرق الادنى هو فيما ذكرناه سابقا من الجفاف الذي حل في الجزيرة منذ نهاية آخر العصور الجليدية وما زال في الازدياد والتغير الدوري منذ ذلك الحين • والواقع ان جميع المنطقة المحيطة بالجزيرة تقاسي الآن من قلة المطر (ومن ذلك مصر والعراق وحتى ايران) بحيث تصير الحياة عسيرة خارج مناطق الانهار والجداول أي مناطق الارواء الصناعي • فان الاعاصير الهابة من الاطلسي التي تروي الآن شمالي أوربة ووسطها لا تصل الى منطقة البحر المتوسط الا في الشتاء ، ولا تصل الى كثير من المناطق الباقية مثل منطقة الصحاري • ومع وصول شيء من الاعاصير الممطرة الى العراق وايران وحتى وادي نهر السند في الشتاء فانها لا تصل الا وقد استنزف معظم مطرها بعد أن تمر بمرتفعات سورية وفلسطين • والى ذلك التبدل الاساسي الذي حل

في مناخ الجزيرة منذ نهاية العصور الجليدية ، فانها تعرضت ولا تزال منذ ذلك الحين الى أزمان دورية من الجدب والخصب القليل • ففي حالة الجدب تثور بلاد العرب كالبركان وتقذف بأمواج من القبائل الحربية السريعة الى الاراضي التي تجاورها الى الشمال الشرقي والى الشمال والى سورية عبر الاردن والى أفريقية ، اذ مما لا شك فيه ان الساميين ساهموا كثيرا في تكوين سكان وادي النيل • والواقع ان الساميين يشبهون الحاميين من ناحية الاوصاف الجسدية وكذلك من الناحية اللغوية ، ويرى الباحثون في اصول أقوام الشرق الادنى ان هجرات مهمة من الساميين ذهبت الى مصر (في حدود الالف الرابع ق•م) فنتج منها ومن السكان الاصليين الحاميين المصريون كما نعرفهم في التاريخ •

فتكون أقدم علاقات بين الجزيرة وبين أنحاء الشرق الادنى ومن بين ذلك بلاد الرافدين هي الهجرات المستمرة التي تنزح من جزيرة العرب وتستوطن بقاع الشرق الادنى ، مدفوعة على الاغلب بدوافع الجدب والجفاف على ما بينا من قبل • وقد بدأت هذه الهجرات في أزمان موغلة في القدم ، أي منذ نهاية العصور الجليدية ونهاية العصور الحجرية القديمة • ومما لا شك فيه كان مصدر جزء كبير من المستوطنين الاوائل الذين حلوا في وادي الرافدين الاسفل من جزيرة العرب ، وقد ساهم هؤلاء مع الاقوام الآتية من الشرق والشمال في انشاء أولى الحضارات البشرية وهي الحضارة السومرية كما مر بنا من قبل • وعلى ذلك فيمتد تاريخ الهجرات البشرية الى عصور ما قبل التاريخ • فاذا قلنا مثلا ان أقدم هجرة تاريخية من الالف الرابع أو الثالث ق • م • فلا يعني أن تكون أولى الهجرات بل يعني ذلك الهجرات التي نعرف أخبارها من مآثر وادي الرافدين المدونة • ولا تزال النظرية القائلة بان جزيرة العرب مهد الساميين تحتفظ بقوتها وأرجحيتها كما ذكرنا من قبل • وبدأت هجرات الساميين المعروفة تاريخيا تطغى على الشرق الادنى منذ منتصف الالف الرابع الثالث ق • م • فأثرت في الشرق وطبعته بطابعها حتى الآن • وكانت أولى الدول المعظمة التي أنشأها الساميون في وادي الرافدين

هي الدولة الاكدية التي أسسها سرجون الاكدي في حدود ٢٤٠٠ ق • م •
وتفرد الساميون بالزعامة السياسية على الشرق الادنى منذ بداية الالف الثاني ق • م • أي بعد زوال سلالة أور الثالثة التي كانت آخر دولة للسومريين ، على ما بينا في تأريخ العراق القديم • ونزحت من الجزيرة هجرات مهمة الى بلاد الشام وكونت ثقافات ودولا خطيرة الشأن على ما سنرى في تأريخ بلاد الشام كالاموريين والكنعانيين والآراميين والعبرانيين وغيرهم •

والى هذه العلاقات المستمرة الناشئة من هجرات الاقوام من الجزيرة التي بدأت منذ أبعد عصور التاريخ ، فاننا نعرف اتصالات الجزيرة بأجزاء الشرق الادنى ولا سيما وادي الرافدين قبل أن تبدأ الاخبار المدونة ، فتنشأ العلاقات المدونة ، فقد جلب سكان وادي الرافدين من بعض أجزاء الجزيرة بعض الاحجار والمعادن منذ عصور ما قبل التاريخ ، فمن ذلك النحاس الخام من الجزء الجنوبي الشرقي من الجزيرة في عمان (مجان في المصادر المسمارية) ، وكان هذا الجزء مصدرا للنحاس في العصور التأريخية التي دونت أخبارها واستعمل العراقيون الاقدمون الحجر البركاني المعروف بالحجر الاوبزيدي ، ومصادر هذا الحجر في الشرق من جزيرة العرب ومن أرمينية ومن «ميلوس» احدى جزر «ايجة» • فتكون الجزيرة العربية على قدر عظيم من الاهمية باعتبارها مهد الساميين ، ومصدر الهجرات السامية الى الشرق الادنى ، مما كان له أثر بالغ في تأريخ أقطار الشرق الادنى القديم والحديث ، كما كانت الجزيرة مركز ثالث ديانة سامية عظمى في تاريخ الاديان ، وانبثقت منها أعظم امبراطورية من بعد تمكن هذه الديانة كما انها كانت مهد الثقافة العربية الاسلامية • وكان لمصر القديمة اتصالات مهمة بالجزيرة ولا سيما جنوبيها لجلب التوابل والبهار واللبان وما الى ذلك من المواد العطرية والصمغية التي استعملوها في معابدهم وفي التحنيط • ومن الممكن تشبيه شبه الجزيرة بوتد كبير يقع بين أقدم موطنين حضاريين وهما وادي النيل ووادي الرافدين

ومما لا شك فيه ان تكون الجزيرة العربيـة قـد تأثرت بهذين المركزين الحضاريين ، كما اتصلت الجزيرة بالهند وبحضارة وادي السند •

موجز تاريخ الجزيرة القديـم :ـ

على الرغم من قلة المآخذ والمصادر بالنسبة الى تاريخ الجزيرة التى تكاد تكون أرضا بكرا من ناحية التحريات والبحوث الآثارية فاننا سنحاول أن نوجز بعض أخبارها الماضية معتمدين بالدرجة الاولى على أخبار العلاقات التى نشأت بين الجزيرة وبين دول العراق القديمة ، وكذلك الاخبار اليونانية والرومانية ، وعلى الوثائق الاصلية التى وجدت فى بعض جهـات الجزيرة نفسها وعلى نتـائج التحريات الآثاريـة الحديثـة[1] ونبدأ من ذلك بالجزء الجنوبى الغربى ، فى بلاد معين وسبأ أى اليمن تقريبا •

الجزء الجنوبى ـ معين وسـبأ :ـ

يختلف هذا الجزء من بلاد العرب عن غيره من الاجزاء من حيث كثرة المصادر والوثائق التأريخية التى جاءتنا منه بخلاف الاجزاء الاخرى التى يكون تاريخها مستقى بالدرجة الاولى من أخبار الامم الاخرى ومن بينهـا الاشارات الواردة فى مآثر الحضارات التى قامت فى بلاد ما بين النهرين • ولكن مع كثرة النقوش الكتابية التى وجدت فى بلاد العرب السعيدة (بلاد اليمن) من مآثر الدول التى قامت هناك ، كدولة معين وسبأ فان هذا الجزء من بلاد العرب لا يزال بحاجة الى بحث الباحثين ولا سيما المنقبين ولا تقتصر أهمية ذلك على تاريخ الجزيرة وحضارتها الغابرة بل تاريخ الشـرق الادنى بأجمعه ، فقد اتصلت الدول التى قامت فى اليمن فى بلاد سومر وبابل وآشور كما اتصلت بمصر والشام والحبشة وعيلام منذ أقدم الازمان •

وعلى الرغم من رجوع تاريخ النقوش المعينية وغيرها الى بداية الالف الاول ق • م ، ولكن مما لا شك فيه ان حضارة قديمة عربية نشـأت فى

---

(١) انظر المراجع الخاصة بهذا الفصل •

اليمن ترتقى الى أبعد من هذا التاريخ ، فتحتوى تلك النقوش على اشارات مهمة الى اتصالات مع البابليين ومع الكنعانيين والاموريين يرجع تاريخها الى الالف الثانى ق • م • وقد ذهب بعض الباحثين الى احتمال قيام مملكة عربية مهمة فى بلاد معين امتدت الى الحجاز • ولعلهـا كانت فى ازدهار فى زمن الاكديين فى العراق وان «نرام ـ سين» الفاتح الاكدى المشهور قد كانت له علاقات مع هذه المملكة • ولعل أهم طريق للاتصال هو الطريق الذى يقطع بلاد العرب عن طريق مكة وجبل شمر حتى يصل الى بلاد بابل قرب بابل ، وكان هذا هو طريق الحج للمسلمين الشرقيين • وهناك شعبة لهذا الطريق شمالية من ينبع والمدينة ويتصل بالطريق الرئيسى فى جبل شمر ويحتمل ان الاتصال بين بلاد ما بين النهرين وبين بلاد اليمن كان يجرى عن طريق بحرى أطول مسافة يأتى من «دلمون» (البحرين) فى خليج فارس الى البحر العربى • ونحن نعرف ان طرق القوافل التجارية كانت تبدأ من «مريابة» (مأرب عاصمة سبأ) وتستمر شمالا بموازاة البحر الاحمر تقريبا الى تيماء • وكانت تيماء من المراكز التجارية المهمة فى جزيرة العرب ، وملتقى طرق تجارية مهمة فمنها تسير قوافل جديدة تسير فى عدة طرق منهـا ما يتجه شمالا الى البتراء ودمشق وتدمر وآخر يسير الى سـيناء فمصر ، ويتجـه طريق ثالث الى العـراق •

واذا لم يكن بوسعنا أن نفصل الكلام عن الحضارة التى قامت فى اليمن فاننا نذكر هنا بعض الامور البارزة فمن ذلك رأى يخص علاقات الجزيرة بسائر بلدان الشرق الادنى بوجه عام وبلاد الرافدين بوجه خاص ، وهى هجرة الساميين من جزيرة العرب التى يرجح بعض الباحثين ان مصدرها من الجزء الجنوبى من بلاد العرب ، والواقع ان الحقائق التاريخية تشير الى ان الدول التى قامت فى اليمن ، ولا سيما المعينيين والسبئيين قد أقاموا لهم مناطق تجارية ومقار مهمة امتدت الى شمالى الجزيرة ، وشملت الحجاز وكان من أشهر ذلك تيماء والعلا وغيرها • ويرجح ان أكثر السبئيين الذين ورد ذكرهم

فى المصادر المسمارية ، هم السبئيون المنتشرون فى هذه الجهات • ومما تجدر الاشارة اليه اننا نجد صدى هذا الانتشار والتوسع فى المآثر العربية حيث تعدد قبائل كثيرة خرجت من اليمن الى بقاع الشرق الادنى ولكنها تربط السبب فى ذلك بحادثة سيل العرم المأثور •

ومن الامور المهمة التى تخص الحضارات فى هذا الجزء من بلادالعرب ان أغلب الباحثين يعتقدون ان العوامل التى سببت نشوء الحضارة فى اليمن هى بالدرجة الاولى التجارة ولا سيما تجارة البهار واللبان وغيرها من التوابل • والواقع ان التجارة المذكورة التى اشتهرت بها بلاد اليمن والتى انحصرت أهميتها فى الازمان المتأخرة (ولا سيما منذ عهد السبئيين) لم تكن الكل فى الكل فى حضارات معين وسبأ وغيرها • بل ان العوامل الاصلية فى نشوء تلك الحضارات كانت أساليب الرى والسدود والسيطرة عليها واتساع الزراعة مما جعل مساحات كبيرة قابلة لسكنى البشر بمستوى عال من العيش • وبذلك تشبه الحضارة التى قامت فى بلاد اليمن الحضارات الاولى الاصلية التى نشأت فى وادى الرافدين وفى وادى النيل • هذا وقصة سد مأرب وما اشتهر به أهل اليمن ولا يزالون الى درجة ما من اعتنائهم بتصريف المياه وخزنها واستغلال الارض يؤيد هذا الرأى ، ونجد صدى ذلك فى القرآن الكريم : «لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية ، جنتان عن يمين وعن شمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور • فاعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وشىء من سدر قليل» •

ان النقوش الكتابية التى بدأت بالظهور فى جنوبى الجزيرة منذ القرن التاسع عشر للميلاد على قدر عظيم من الاهمية التاريخية واللغوية • وهى تلقى ضوءا كاشفا على ديانة العرب فى الالف الاول ق • م • وأقدمها النقوش المعينية التى تؤرخ عادة بالالف الاول ق • م • ولكن فيها اشارات مهمة الى أدوار أقدم ، ولا سيما الاشارات التى قلنا انها تثبت وجود الاتصال مع بلاد

بابل ، ومع الاموريين والكنعانيين فى الالف الثانى ق • م • والنقوش السبئية تلى المعينية فى الزمن كما يرى أكثر الباحثين ، وكلا النوعين من النقوش يدلان على قيام أربع ممالك متحضرة فى الجنوب أقدمها معين ثم سبأ وحضرموت ومملكة «قتبان»[١] ، ومعرفتنا بالمملكتين الاخريين أقل منها بالنسبة الى معين وسبأ •

ومع اختلاف الآراء فى تاريخ النقوش الجنوبية وتاريخ الدول التى قامت فى الجنوب بعضها بالنسبة الى بعض فالشائع عند الاكثرية ان دولة معين كانت أول مملكة ازدهرت فى الجنوب لعله فى حدود (١٢٠٠ أو ١٣٠٠ ـ ٦٥٠ أو ٧٠٠ ق • م) ، ولكن الباحثين القدماء يضعون بداية المملكة المعينية فى الالف الثانى وحتى فى الألف الثالث ق • م ـ غير ان الباحثين الآخرين يرون ان هذا التاريخ مبالغ فيه ويضعون لبداية الدولة المعينية التاريخ الذى أثبتناه • وقد ازدهرت دولة معين فى جوف اليمن بين نجران وحضرموت ، وشملت فى عهد ازدهارها جميع جنوبى الجزيرة تقريبا ، وامتد نفوذها الى أجزاء الجزيرة الاخرى ولا سيما فى الشمال والشمالى الغربى ، وقد أثر المعينيون فى هذا القسم كما تثبت ذلك النقوش الكتابية الثمودية التى ترد فيها أسماء الآلهة المعينية المهمة ، وكما تشير الى ذلك النقوش المعينية التى وجدت مع نقوش لحيانية فى منطقة العلا الآن (وهى ديدان الواردة فى التوراة) • وقد وجد الباحثون فى النقوش المعينية أسماء (٢٦) ملكا من ملوك معين • وكانت عاصمة الدولة المعينية «قرناو» ، وهى الآن فى الموضع الذى

---

(١) لقد أجرت بعثة امريكية أثرية بعض التنقيبات المهمة فى وادى بيحان منذ ١٩٤٩ ، وقد أظهرت نتائج التنقيبات ان نهاية دولة قتبان كانت فى القرن الاول ق • م وان عاصمتها «تمنع» قد خربت بحريق هائل فى حدود ٥٠ ق • م ، فادمجت هذه المملكة بعدئذ فى مملكة حضرموت انظر حول ذلك :ـ

W.F. Albright, **"The Chronology of Ancient South Arabia"** in BASOR No. 119 (1950).

يسمى «معين» في الجزء الجنوبي من الجوف الى الشمال الشرقي من صنعاء ، وكان للمعينيين مدينة دينية مقدسة ورد اسمها في نقوشهم بهيئة «يثيل» وتمثلها الآن «براقش» الى الشمال الغربي من مأرب •

وهناك قضايا مهمة في تاريخ معين ولا سيما ما يخص تاريخها بالنسبة الى سبأ فمن الباحثين من يرى انه لا يوجد في النقوش المعينية ما يسبق ٨٠٠ ق • م • وان مملكة معين كانت تعاصر مملكة سبأ ، ومن الامور الغريبة انه لم يأت أي ذكر للمعينيين في النقوش السبئية • وكذلك لم ترد عنهم اشارة في المصادر المسمارية ، وقد ذهب البعض الى ان المعينيين ظلوا الى زمن الحميريين ، وكان آخر ذكر لهم في ٢٤ ق • م • ولكن البعض الآخر يرى ان الاوائل من الملوك السبئيين كانوا يعاصرون أواخر ملوك معين وان السبئيين ورثوا مملكة معين وسلطانها •

وجاء في الكتابات المعينية عدد من الآلهة التي عبدها المعينيون وأشهر هذه الآلهة مجموعة من ثلاثة آلهة وهي : «أتتار» و «ود» و «نكرح» وهذه أقدم آلهة عند المعينيين • وقد عين بعض الباحثين الاله «ود» بالاله (القمر) (سين) أو (شهر) كما يسمى عند عرب الجنوب أحيانا ، أما أتتار فهي شكل من أشكال الالهة الشهيرة (عشتار) العراقية التي شاعت عبادتها في جنوبي الجزيرة وصارت هنا الاها مذكرا في أغلب الاحايين • أما الاله الثالث فلا نعلم حقيقته ولا معناه وحتى ضبط اسمه ويرجح بعضهم انه الاله الشمس أو اله من آلهة الحرب • ومن المهم ذكره بهذا الصدد ان معبدا للاله القمر قد وجد حديثا في موضع في حضرموت يدعى حريضة ، وقد نقب فيه المنقبون ووجدوا بعض النقوش الحضرموتية التي تشير الى انه معبدالاله (سين)ويرجح ان تاريخه يرجع الى ما بعد القرن السادس ق • م • ومن الامور المهمة التي لاحظها المنقبون في المعبد انه يشبه المعابد البابلية ولا سيما في اتجاه زواياه الى الجهات الاربع وفي طراز مناضد الذبائح والقرابين ، ووجد ان الخواتم التي

عثر عليها في هذا الموضع ذات علاقة أساسية بخواتم بلاد ما بين النهرين •

واذا ما أتينا الى سبأ فنجد الحال يختلف فيها عن معين ، اذ ان اسم سبأ وشيئا عن أخبارها قد جاءتنا فى آثار الحضارات الاخرى ، ومن بين ذلك المصادر المسمارية والمآثر العبرية والعربية والاغريقية • وكان موطن السبئيين فى جنوبى الجزيرة فى الزاوية الجنوبية الغربية منها ، وكانوا كالفينيقيين ، بل هم على حد تعبير بعض المؤرخين (فينيقيو البحر الجنوبى) فكانوا على معرفة تامة بطرق البحر العربى ومسالكه وموانئه ورياحه وتقلباته، وقد طافوا سواحل الجزيرة • وكان الطريق البحرى الرئيسى فى البحر الاحمر يمر من باب المندب الى وادى الحمامات فى الساحل المقابل لمصر • ولكن لصعوبة الابحار فى البحر الاحمر التجأ السبئيون الى سلوك طريق برى بين اليمن وسورية يسير على طوال الساحل الغربى من الجزيرة فيصل عن طريق مكة الى البتراء ، ويتشعب فى الشمال الى مصر وسورية والعراق • ويصل الفرع الذاهب الى بلاد الشام الى البحر المتوسط فى غزة • ويخرج من حضرموت طريق الى مأرب ، عاصمة سبأ ، حيث يتصل بالطريق الرئيسى الذى ذكرناه وقد نشأ على طوال هذا الطريق جملة مستعمرات ومقار سبئية ، يرجح كثيرا انها هى المشار اليها فى المصادر المسمارية •

وكنا قد ذكرنا أمر اختلاف الباحثين فى تاريخ معين بالنسبة الى سبأ ولكن الشائع ، كما ذكرنا ، ان الملوك السبئيين الاوائل يعاصرون المتأخرين من ملوك معين ، وان السبئيين ورثوا عن المعينيين مملكتهم وسلطانهم ، والذى عليه الآراء المعتدلة ان دولة سبأ تبدأ من ٩٥٠ ــ ١١٥ ق • م وجرت العادة أن يقسم هذا التأريخ الى دورين ينتهى الدور الاول منهما فى ٦٥٠ ق • م وهو الدور الذى اشتهر بالملوك الملقبين بالمكربين ، وهو لقب له معنى دينى • ولكن الظاهر ان ملوك سبأ فقدوا صفتهم الدينية فى الدور الثانى المحدد بـ ٦٥٠ ــ ١١٥ ق • م • واقتصروا فى ألقابهم على (ملك سبأ) وصارت عاصمتهم

في هذا الدور مأرب (مريابة) ، الى الشرق من صنعاء بحوالى ٦٠ ميلا ، أما في الدور الاول فقد أقام ملوك سبأ حصنا منيعا ورد ذكره بصيغة (صرواح) أو (صروح) وكان هذا على ما يرجح عاصمتهم الاولى وموضعه الآن يسمى (خزبة) على مسيرة يوم واحد الى الغرب من مأرب • ومما يقال بصدد الدور الثاني من تاريخ سبأ انه كانت تعاصر مملكة سبأ فيه مملكتان أخريان في الجنوب هما مملكة (قتبان) وحضرموت • وجاء اسم عاصمة المملكة الاولى بهيئة (تمنع) وعاصمة حضرموت (شبوه) وقد سبق أن ذكرنا ما اكتشفه المنقبون حديثا في حضرموت وهو معبد الاله القمر وعلاقة الآثار التى كشف عنها بحضارة وادي الرافدين • ومن الجدير ذكره عن مملكة (قتبان) ان أهم اله عبدوه هو الاله (عم) (من العم الذي يعني عما أو قوما) ، و(عم) هذا من الآلهة السامية الغربية ، ونجده يدخل في أسماء ملوك من السلالة الامورية وهي سلالة بابل الاولى (التي اشتهرت بملكها السادس حمورابي) مثل (عمي- صادوقا) و (عمي ديتانا) وحتى اسم حمورابي يدخل فيه اسم هذا الاله • وقد انتهى أمر دولة سبأ بقيام الدولة الحميرية (١١٥ ق • م ـ ٣٠٠ للميلاد) •

ان أقدم ذكر للسبئيين في المصادر المسمارية ، على ما نعلم حتى الآن ، هو ما ورد في أخبار الملك الآشوري (تجلاتبليزر الثالث) (**٧٤٥-٧٢٧ ق•م**) حيث يخبرنا انه في السنة **٧٣٢** ق • م أخذ جزية من الملكة سمسي (ملكة العرب) التي حنثت بيمين طاعتها ، ولكن رجع قومها السبئيون الى الطاعة ، وتشير أخبار هذا الملك الى انه مكن سلطانه على جزء من بلاد العرب ، فقد ذكر لنا بعض القبائل والاقوام العربية ممن دفع له الجزية • ومما يشير الى نفوذ السبئيين في القسم الشمالي من الجزيرة ان اسم مكة مشتق من صيغة سبئية تعني (المزار) أو المعبد ، وهي (مكورابا أو مكرابة) وان هذه الصيغة السبئية لها علاقة باسم ملوك السبئيين (مكرب) وقد جاء ذكر مكة بهذه الهيئة في بطليموس (في جغرافيته) •

اقليم ـ مجان (عمان) :ـ

لقد سبق أن ذكرنا اتصال بلاد ما بين النهرين مع الجزء الجنوبي الشرقي من الجزيرة منذ أقدم العهود ، وان هذا الجزء كان مصدرا مهما للنحاس منذ عصور ما قبل التاريخ واستمر كذلك في العهد السومري والعهود التي أعقبته • وكان أشهر مصدر للنحاس عند سكان العراق الاقدمين منطقة عمان التي ورد اسمها في المصادر السومرية بصيغة «مجان» (بالجيم الفارسية) • وبوسعنا أن نعد الجزء الجنوبي الشرقي مركزا خاصا لحضارة عربية قامت هناك ، الصق ميزاتها انها حضارة بحرية ، كانت واسطة الاتصال بين مصر ووادي الرافدين ووادي نهر السند ، والواقع ان جزيرة العرب تبدو وكأنها وتدداخل بين المركزين الحضاريين في وادي النيل ووادي الرافدين ، ومع ان جزيرة العرب لم تدخل ضمن النطاق الحضاري لكل من هذين الحضارتين الا انها تأثرت بكلتا الحضارتين ، واتصلت بلاد العرب الجنوبية بمصر منذ أزمان قديمة ، ولا سيما منذ عصر الاهرام ، وكانت أشهر طريق برية تربطها بمصر هي الطريق الآتية من الجنوب من باب المندب •

وجاء ذكر مجان في المصادر المسمارية في أخبار الملوك الاكديين وبعض ملوك السلالات السومرية التي أعقبت العهد الاكدي • والذي عليه معظم الثقات من الباحثين ان (مجان) هي منطقة عمان اليوم ، أي المنتهى الجنوبي الشرقي لجزيرة العرب ، ويجب أن لا يخلط اسم مجان مع معان ، احدى الواحات في شمالي الحجاز ، التي هي الآن في شرق الاردن •

وكثيرا ما يرد اسم «مجان» في المصادر المسمارية مع موضع آخر هو «ملوخا» • والذي يظهر من المصادر المسمارية ان سكان الجزء الجنوبي الشرقي من الجزيرة كانت لهم علاقة وصلة بالسومريين ، عدا الصلات التجارية ، ويصدق ذلك أيضا على المنطقة التي سماها السومريون « دلمون » وهي التي سبق تعيينها بمنطقة البحرين الآن •

ولعل أقدم اشارة وردت بخصوص «مجان» و «دلمون» من زمن مؤسس السلالة الاكدية «سرجون» الشهير • فقد ذكر لنا هذا الملك انه جلب سفنا من ملوخا وسفنا من «مجان» و «دلمون» الى ميناء عاصمته أكد • وهذا يشير الى اشتهار «مجان» بصناعة السفن والملاحة ، حتى يرجح ان اسم الموضع كلمة سومرية مشتقة من السفينة (اما أن تعنى أرض السفن أو ميناء السفن) لان أهلها اشتهروا بالملاحة وصناعة السفن ، وورد فى أخبار الملك الاكدى «نرام — سين» حفيد سرجون ، انه غزا مجان وأخضع ملكها «مانيؤم» •

ويحتمل كثيرا من أخبار الدولة الاكدية ، انه كان فى «مجان» مملكة يبدو على حكامها انهم من العرب الساميين ، كما يشير اسم الملك الذى ورد ذكره فى أخبار «نرام — سين» وكان غزو هذه المملكة اما برا بطريق قديم من بلاد بابل عن طريق جبل «شمر» ، ويصل هذا الطريق الى مكة وجدة ، وكان لهذا الطريق شعبة شمالية من ينبع والمدينة ويتصل بالطريق الاصلى فى جبل شمر ، أو بطريق البحر من فم الفرات الى خليج فارس الى « دلمون » (البحرين) ثم مجان • وتصف الكتابات المسمارية «مجان» بانها جبل النحاس، وقد سبق أن أشرنا الى ان هذه المنطقة كانت من أهم المصادر للنحاس لسكان وادى الرافدين القدماء • هذا ولا يزال النحاس موجودا الآن فى الجبل الاخضر الذى ينبغى أن يكون ضمن مجان • ومن الامور المهمة بصدد النحاس المجلوب من «مجان» انه نوع من النحاس الخام فيه كمية من القصدير (والقصدير من الاجزاء المألوفة فى تركيب النحاس الذى استعمله السومريون)، وقد حلل بعضهم النحاس الموجود فى الاناضول وفارس وقبرص وطور سيناء فوجد لا يحتوى على القصدير ، وهذا مما يؤيد تعيين «مجان» بعمان ، لانه لا يزال يشاهد فى جبل «المعدن» فى عمان الآن آثار الحفائر القديمة لاستخراج النحاس • وقد وجد ان المعدن الموجود فى هذه المناجم مخلوط بمعادن أخرى ويحتوى فى الواقع ١٩ و٠٠ ٪ من القصدير • واشتهرت «مجان» كذلك بحجر الديوريت الاسود المشهور • ويرجح كثيرا ان

الديوريت الذي صنع منه ملوك العراق القديم التماثيل والانصاب كان يجلب بالدرجة الاولى من «مجان» •

وقبل أن نترك الكلام على «مجان» نذكر نقطة على غاية من الاهمية بصدد الادلة على تعيين «مجان» السومرية بمنطقة «عمان» الحالية ، وهو وجود موضع الآن في اقليم عمان ، بين عمان والبحرين يسمى «ميجان» أو «مجان» (بالجيم الفارسية أي بنفس الصيغة السومرية) • وقد ذكره السياح الاوربيون ، وتقع هذه المنطقة قرب الساحل (ساحل الخليج) في فم واد طويل يسمى وادي «شهبه» • وهذا قاع نهر مندرس عظيم طوله زهاء (٥٠٠) ميل يأتي من وسط نجد (خط الطول ٤٤ شرقا والعرض ٢٥ شمالا) ويصب في خليج فارس • ويمكن تحديد موضع «ميجان» بخط الطول ٥٥ شرقا وخط العرض ٢٤ شمالا ، بنحو ٤٥٠ ميلا الى الشمال الغربي من مسقط ، والى الشرق من واحة «يبرين» الشهيرة بنحو ٤٠٠ ميل • أما موضع (ملوخا) الذي سبق أن ورد ذكره مع «مجان» في المصادر المسمارية فلم يعين بعد بوجه التأكيد • ولعله قريب من مجان أو انه بلاد الحبشة •

دلمون أو تلمون (البحرين) :ـ

يطلق اسم البحرين عادة على جزيرة أو جملة جزر في خليج فارس منها الآن جزيرة (أوال) وما يتبعها من الجزر • وقد أثبتت البحوث الحديثة على ان منطقة البحرين وجزءا من الاحساء كانت تؤلف قطرا واحدا جاء في المصادر المسمارية باسم (دلمون) أو (تلمون) • وقد قامت في هذا الاقليم مملكة قديمة تكونت لها مع السومريين والبابليين والآشوريين علاقات متنوعة منذ أقدم الازمان ، وقد جاءتنا أخبارها منذ منتصف الالف الثالث ق • م واستمرت الى نحو ٥٠٠ ق • م • وسيتضح من عرض موجز هذه الاخبار من المصادر المسمارية ان أمر تعيين دلمون أو تلمون بالبحرين يكاد يكون من الحقائق التأريخية المحققة • ومن الممكن تصنيف هذه الاخبار الى صنفين ، يشمل

الصنف الاول منها المصادر التأريخية والتجارية كالعقود والصكوك والنصوص الفلكية ، ويشمل الصنف الثاني الاشارات المهمة الواردة في الآداب السومرية ، ولا سيما القصص والاساطير الدينية • ويتضح من الصنف الاول من اخبارنا ان دلمون موضع جغرافي معين ، ويظهر في الثاني أرضا أسطورية غريبة عجيبة ، بيد ان الصنف الاول هو الذي نستدل منه على تعيين (دلمون) بمنطقة البحرين • ولعل أقوى دلالة على هذا التعيين ما جاء في أخبار سرجون الآشوري (٧٢٢ - ٧٠٥ ق • م) حيث يذكر لنا هذا الملك ان ملك دلمون يعيش في وسط البحر الذي تشرق منه الشمس • وتذكر كتابة من زمن الملك الآشوري آشور بانيبال على ان دلمون وسط البحر الاسفل • وعبارة وسط البحر في كلا الخبرين تشير الى الجزيرة وهو التعبير المألوف عن الجزيرة عند الآشوريين كما ان (البحر الذي تشرق منه الشمس) (البحر الاسفل) هو التعبير المألوف عن خليج فارس • وذكر لنا سرجون الآشوري ان المسافة الى بلاد دلمون ٣٠ (بيرو) (والبيرو هي الساعة البابلية وتعادل ساعتين من ساعاتنا) ، وهي تعني عدد الساعات المقتضية للوصول الى دلمون بطريق البحر من نقطة الشروع التي كانت بلا شك فم الفرات • فاذا قدرنا (٥) أميال لما يقطعه القارب في الساعة ، فتكون المسافة التي تقطع في (بيرو) بابلية زهاء (١٠) أميال ، وتكون المسافة الـ (٣٠ بيرو) المذكورة نحو (٣٠٠) ميل ، وهي بوجه التقريب بعد جزر البحرين عن أسفل الفرات • ومن الامور المهمة في قضية تعيين البحرين بدلمون ان كتابة مسمارية وجدت في البحرين في عام ١٨٧٩ ، ونصها : (قصر رموم عبد (الاله) (انزاك) رئيس قبيلة أجاروم) • ويرجع زمن هذه الكتابة الى العهد البابلي القديم (الالف الثاني ق • م ، ولا سيما من نصفه الثاني) ، أما الاله (انزاك) المذكور في هذه الكتابة فهو اسم الاله البابلي (نبو) حيث عبد وعرف بهذا الاسم في (دلمون) • وان ذكر الاله الخاص بدلمون في الكتابة المسمارية التي وجدت في دلمون ذو خطورة خاصة بتعيين البحرين بدلمون الواردة في المصادر المسمارية

أما القبيلة الوارد اسمها بصيغة اجاروم فهو اسم قبيلة عربية قديمة ، ويرجح كثيرا ان هذا الاسم استمر فى الاستعمال وصار (هجر) وهو اسم الاحساء فى العصور الوسطى • وتوجد الآن قبيلة تعرف ببنى هجر ديارهـا فى شـقة الارض قبال البحرين •

لقد اشتهر تمر (دلمون) عند العراقيين الاقدمين وكثيرا ما ورد ذكره مع التمر الخاص بقطرين آخرين وهما (مجان) و (ملوخا) • وجاء ذكر تمر دلمون فى كثير من المصادر المسمارية منذ أقدم الازمان فى عصر فجرالسلالات (الالف الثالث ق• م •) ولعل مصدر تمر البحرين الذى اشتهر عند العراقيين من الواحات الواقعـة فى الجزيرة فيمـا يعرف الآن بالقطيف والهفوف • وكذلك اشتهرت الاحساء بالتمور الجيدة • ويذهب بعض الباحثين الى ان أصل النخيل من جزيرة العرب •

ويرجح كثيرا ان الساحل الشرقى من الجزيرة كان ضمن مملـكة (دلمون) كما تشير الى ذلك كتابات سرجون الآشورى ، وقد جاء فى بعضها انه (أخضع الى سـلطانه بيت ياكين فى سـاحل البحر المر الى تخوم دلمون) ويعتقد كثير من البـاحثين ان اقليم (بيت ـ ياكين) كان يمتـد الى جزيرة العرب • ولعله كان يشمل الكويت الآن أو جزءا منه • وبامكاننا أن نسمى الاقوام الذين عاشوا فى البحرين والاحساء بالدلمونيين نسبة الى (دلمون) ، وقد نشأت منهم مملكة ازدهرت فى الالف الثانى قبل الميلاد وكانت على اتصالات تجارية مستمرة مع السومريين والبابليين والآشوريين •

هذا ولا يبعد كثيرا احتمال ان منطقة البحرين من جملة البقـاع التى يمكن افتراضها مهدا للسومريين • ويرجح كثيرا ان أصل (الدلمونيين) من الجزء الجنوبى الغربى من الجزيرة • وقد نشـأت العلاقـات بين العراقيين الاقدمين منذ عهد الحضارة السـومرية الذى يطلق عليه اسـم عصر فجر السلالات • فقد جاءتنا نصوص تاريخية من أواخر هذا العهد تشير الى اتصال الملوك السومريين بهذه المنطقة ومن بينهم ملوك السلالة القديمة فى لجش

(تلو) فى حدود ٢٦٠٠ ق • م وغزا سرجون الاكدى مملكة الدلمونيين ويخبرنا انه غنم منها ومن (مجان) (وملوخا) سفنا كثيرة ، واستمرت هذه العلاقات الى العهد الآشورى الذى تعرض فيه الدلمونيون الى حملات شديدة لضم مملكتهم الى الامبراطورية الآشورية • ومن الطريف ذكره بصدد العلاقات بين مملكة (دلمون) والآشوريين ، ان سنحاريب بعد أن دمر بابل عام ٦٨٩ ق • م ، أراد ضم دلمون الى امبراطوريته ولكنه قبل أن يلجأ الى ارسال الجيوش استعمل دعاية خبيثة لالقاء الرعب فى نفوس الدلمونيين ، ذلك بأن أرسل الى مملكتهم وفدا يحمل معه ، عدا أمر الملك بالخضوع ، رمادا من آثار الحريق الذى أحدثه فى بابل ، مشيرا بذلك الى ان مصير الدلمونيين سيكون كمصير بابل ان لم يرضخوا • وقد فعلت هذه الدعاية أثرها اذ ان ملك دلمون أرسل الى سنحاريب جزية وهدايا من الفضة ، رمز الخضوع •

ويذهب بعض الباحثين الى ان جنة عدن المذكورة فى التوراة ذات علاقة وثقى بمنطقة دلمون • والى المصادر المسمارية التاريخية التى ذكرناها فى تعيين البحرين بدلمون تساعدنا الاشارات الواردة فى الآداب والاساطير السومرية • وتبدو (دلمون) فى هذا الصنف من المصادر أرضا غريبة ذات عجائب ، فمن ذلك ان فيها آبارا وينابيع غريبة • وتوجد اسطورة عربية يتداولها سكان الجزيرة تشبه ما ذكره السومريون • ومن الاساطير التى تصف دلمون اسطورة عنوانها (انكى وننخرساك) تبدأ بوصف أرض دلمون وصفا تبدو فيه جنة كجنة عدن ، أرض الخير والطهر ، لان الاله انكى وزوجه قد حلا فيها ، ولكن هذا الفردوس الارضى الذى فيه (لم يفترس الاسد ولم يختطف الذئب الحمل وليس فيه عجوز أو شيخ ولم يندب فيه أحد ولم يعرف فيه شر أو مرض) كان يعوزه الماء العذب فضرعت الهة دلمون الى (انكى) ، اله (سومر) واله مدينة (اريدو) المقدسة أن يمنح مدينتها الماء العذب ، فاستجاب دعاءها وأمر الاله (شمس) أن يخرج الماء العذب من الارض فتفجرت ينابيع المياه العذبة فى دلمون •

وبالاضافة الى القصة البابلية المشهورة بملحمة (جلجامش) التي وورد فيها ذكر الطوفان توجد قصة سومرية تتعلق بالطوفان كذلك وهي لا شك أصل الاسطورة البابلية • وعلى الرغم من ان هذه القصة السومرية ناقصة مخرومة في عدة مواضع الا ان فيها اشارة مهمة الى أرض دلمون وكونها موضعا مقدسا • وتبدأ بخلق الانسان والحيوانات وتأسيس المدن الخمس القديمة التي انشأت، ثم حدوث الطوفان لافناء البشر ، ولكن ندم بعض الآلهة ولا سيما اله (اريدو) (انكي) ، فعزم على تخليص جنس البشر • فأخبر هذا الاله نوح الطوفان السومري الصالح التقي ان ينقذ نفسه بأن يبني فلكا ، وبعد ان صنع الفلك، حل الطوفان الذي عم الارض ودام سبعة أيام وسبع ليال • وبعد الطوفان جوزي (زيوسدرا)، نوح الطوفان عند السومريين، بأن خلدته الآلهة وأسكنته في أرض دلمون • والى أرض دلمون ركب جلجامش الاسفار الطويلة وحج الى جده كي يعلمه سر الخلود •

بلاد (باصو او بازو) (نجد) وبلاد (حاسو) (الاحساء) :-

اتصل غير واحد من الملوك الآشوريين من العهد الحديث بأجزاء من جزيرة العرب ، واتصلوا بالقسم الذي نبحث عنه الآن ، وهو الجزء الشرقي والجنوبي الشرقي ، ومع ذلك فان الملك (اسر حدون) امتاز عن غيره من ملوك الامبراطورية الآشورية الثانية في انه أوغل في حملاته الحربية الى مسافات بعيدة في بلاد العرب ، وقد وصف بعض هذه الاجزاء البعيدة وصفا ينطبق على بلاد نجد ، ويذكر موضعا آخر هو الاحساء ويذكر أحدهما باسم باصو أو بازو وهو نجد على ما يرجح والآخر (حاسو) وهو الاحساء •

ومما يجدر ذكره عن الاحساء ان تحريات أثرية قد أجريت في الاحساء في عام ١٩٤٠ وكذلك في جزيرة البحرين ويوجد في الاحساء الآن ميناء صغير يدعى (العقير) توجد بالقرب منه ، الى جهة الشمال ـ الشرقي ، خرائب قديمة يظن انها موضع (الجرعاء) القديمة • وقد اشتهرت الجرعاء في العهد اليوناني والروماني (Gerrhae) بصفتها مركزا تجاريا مهما في الشرق، ويظن ان

مستعمرين من بلاد بابل هم الذين شيدوا المدينة ، واشتهرت بتجارة اللبان والبهار والبضائع الاخرى الآتية من جنوبي الجزيرة والهند وافريقية ، حيث كانت طرق مهمة آنذاك تمر في خليج فارس وجزيرة العرب الى الغرب • وقد حصلت الجرعاء على ثروة عظيمة من تجارتها وبولغ في تلك الثروة حتى قيل ان جدران المدينة وسقوفها كانت مزينة بالعاج والذهب والفضة والاحجار الكريمة • ووصف المؤرخ الروماني (بليني) المدينة ان محيطها يبلغ (٥) أميال وفيها أبراج من حجر الرمل • ووصف (سترابو) الجغرافي اليوناني ان تربتها كثيرة الاملاح وان أهل المدينة يعيشون في بيوت مشيدة من الملح • ولعل المقصود بذلك الحجارة المستخرجة من أراضيها الملحة السبخة المنتشرة هناك • واذا صح ذلك فمن يدري لعل هذا هو السبب الذي صير من الجرعاء احدى مدن الجزيرة الضائعة ، وورد ذكر الجرعاء في أخبار الملك السلوقي (انطيوخس) الثالث الذي عدل عن غزو المدينة بعد ان رضخت ودفعت الجزية •

مراجع مختارة عن أحدث البحوث الآثارية في جزيرة العرب ، وتاريخها القديـــم •

1. P. K. Hitti, **History of the Arabs** (5th edition).
2. Carl Rathjens & H. Wissman, **Suedarabiens Reise** (1934).
3. C.M. Doughty **Travels in Arabia Deserta.**
4. T.E. Lawrence, **Seven Pillars of Wisdom.**
5. Alois Musil, **Northern Hijaz.**
6. Dietlef Nielsen, **Handbuch der Altarabischen Altertumkunde** vol. I (1927).
7. W. F. Albright **"The Chronology of Ancient South Arabia"** in BASOR, No. 119 (1950).
8. F. Stark, **The Southern Gates of Arabia** (1936).
9. G. F. Hourani, **"Did Roman Commercial Competition Ruin South Arabia", in JNES,** XI, No. 4 (1952).

10. D.E. O'Leary, **Arabia Before Muhammad** (1927).
11. J. Philby, **The Background of Islam** (1947).
12. Bertram Thomas, **Arabia Felix. Across the Empty Quarter** (1932).
13. Beckingham, "Some Early Travels in Arabia", **JRAS,** vol. 12 (1949).
14. Bruce Howe, "Two Groups of Rock Engraving from Hijaz" in **JNES,** IX, (1950).
15. Ryckmans, **Les Religions Arabes Pre-islamiques** (1951).
16 Jamme, **Le Pantheon Sued-arabe Preislamique in Le Muséom** LX (1947).
17. The **Biblical Archaeology** XV (1952).
18. BASOR, 119 (1950).
19. R.B. Serjeant, **"Materials for South Arabian History" in Bull. of the Sch. of Orient. and Afr. Studies.** XIII.
20. Cornwall in the **National Geosraphical Masazine,** vol. 93 (1948).
21. BASOR, Nos. 120 (1950) ; 129 (1952).
22. F. V. Winnett, **"The Place of the Minaens in the History of Pre-Islamic Arabia" in BASOR,** XIX (1939).
23. W.F. Albright, **"The Chronology of the Minaen Kings of Arabia" in BASOR,** No. 129 (1953).
24. Mohammed Towfik, **Les Manuments de Main** (Cairo, 1951).
25. Ahmed Fakhri, **An Archaeological Journey to Yemen** (1947);
26. K. Y. Nami, **Les Monuments de Ma'in** (1952).
27. Van Beek, **"Recovering the Ancient Civilization of Arabia"** in **Biblical Archaeology,** vol. 15 (1952), 2 ff.
28. Rathjens in **Jahrbuch des Kleinasiatischen Forschung,** I (1950).

الفصل السابع والعشرون

موجز جغرافية بلاد الشام

وعصور ما قبل التاريخ فيها

لقد فاتنا أن ننبه الدارس للحضارات القديمة بوجه عام وحضارات الشرق الادنى بوجه خاص على أمر مهم لفهم هذه الحضارات ومواطن نموها وانتشارها ، ذلك هو الا يلتزم بالحدود الجغرافية السياسية الحالية ، فانها في الواقع حدود مصطنعة لا تمثل لنا مراكز الثقافات القديمة ولا سعة انتشارها واتصالاتها • ولعل أكثر ما يصدق هذا القول على تأريخ سورية القديم وعلاقته بحضارات العراق القديم • ونحن نستعمل كلمة عراق مضطرين لشيوع هذا المصطلح ، أما الواقع بالنسبة الى الحضارات التي درسناها في كلامنا على العراق فهو أن نسميها بحضارة ما بين النهرين ، ويدخل في ذلك ثقافات الاقوام التي قمت في بلاد الشام مما سنتكلم عنه في الصفحات الآتية ، ويدخل فيها أيضا أو يمت اليها بصلة قوية على الاقل ما يعرف بالحضارة الحثية في بلاد الاناضول وشمالي بلاد سورية • هذا وقد نوهنا في كلامنا على العراق القديم[1] في صلات بلاد الشام الحضارية بحضارة وادي الرافدين ، وكيف ان مراكز مهمة للحضارة السومرية قد قامت في مواطن شهيرة تدخل في سورية بحسب حدودها السياسية الحالية مثل «ماري» (تل الحريري) ، وشغر بازار وتل براك • واذا جاز لنا لسهولة فهم التأريخ الاقليمي تقسيم تلك الحضارة بحسب الاقاليم الجغرافية بالنسبة الى العراق

---

(١) أنظر الجزء الاول

وسورية فلا يصح ذلك بالنسبة الى سورية أو بلاد الشام نفسها[١] أى لا يصح أن نلتزم بالتقسيمات السياسية المصطنعة الحالية كلبنان وشرق الاردن وفلسطين وانما سنسير فى عرضنا لموجز تاريخ هذه البلاد على اعتبارها اقليما حضاريا واحدا بحسب الخطة التى وضعها الاستاذ «حتى»[٢] .

وقبل أن نبدأ بايجاز عرض الادوار الحضارية والتأريخية فى بلاد الشام نمهد لهذا العرض بذكر أبرز ما تمتاز به هذه البلاد من الصفات الجغرافية ليعيننا ذلك على فهم تأريخها .

ولعل أهم ما يميز جغرافية البلاد السورية انها مؤلفة من بقاع واطئة ومناطق جبلية مرتفعة تتجه بوجه عامودى من الشمال الى الجنوب ، فيمكن تمييز خمس مناطق فيها بين البحر والبادية وهى ابتداء من البحر : (١) الشقة الساحلية (٢) منطقة جبلية (جبال لبنان الغربية) (٣) شقة منخفضة واطئة

---

(١) يجدر فى هذا الصدد أن نورد بعض الملاحظات المفيدة عن اسم بلاد سورية ، تلخيصا بالدرجة الاولى من كتاب «حتى» المشار اليه فى الهامش رقم ٢ . فاسم سورية (Syria) صيغة يونانية محورة عن أصل سامى قديم . فقد جاءنا اسم (SHRYN) فى النصوص المكتشفة حديثا فى «اوغاريت» (رأس الشمرة) فى حدود القرن الرابع عشر ق . م

(Cyrus Gordon, **Ugaritic Handbook** (1948, P. 142).

واستعملت كلمة «سريون» فى المصادر العبرية اولا لاقليم «انتى لبنان» ثم أطلقت على الكل (أنظر سفر التثنية ٣ : ٩ ، المزامير ٩ : ٦ ، حتى ، ذات المصدر ، الص ٥٨) . وسمى البابليون اقليما فى الفرات الاعلى باسم «سو — رى» و «سر — رى» (حتى . ذات المصدر ، الص ٧٤) . واستعمل مصطلح سورية منذ العهد اليونانى على جميع بلاد الشام وظل فى الاستعمال الى الازمنة الحديثة . وسمى العرب هذه البلاد باسم «الشام» (أو اليسار أو الشمال) بالمقابلة مع «اليمن» (اليمين أو الجنوب) (وذلك بالنسبة الى أهل الحجاز ، كما يقولون اليد اليمنى واليد الشومى) . وسنرى فى كلامنا على الاموريين (وهم أولى الموجات السامية الكبرى فى بلاد الشام) ان سكان العراق القدماء أطلقوا على بلاد الشام اسم «أمورو» (من السومرية مارتو) التى كانت ترادف الغرب عندهم أيضا .

(٢) انظر كتابه القيم الذى كان أهم مرجع لنا فى تلخيص تاريخ بلاد الشام : —
P. Hitti, **History of Syria** (1951).

(مثل البقاع وطبرية الخ) (٤) منطقة جبلية ثانية ، جبال «انتي» لبنان (جبال لبنان الشرقية ، وجبل الشيخ الخ) (٥) البادية •

أما المنطقة الاولى وهي الشقة الساحلية فتمتد على الساحل الشرقي من البحر المتوسط من طور سيناء الى خليج الاسكندرونة ، وهي شقة ضيقة محصورة بين البحر والجبال ، وتبلغ أكبر سعة لها في الشمال والجنوب ، ولكنها تكون مجرد ممر غير متسع في سفوح جبال لبنان ، ففي بعض المواضع مثلا لا تزيد سعتها على أكثر من أربعة أميال وأحيانا ميل واحد ، ولكنها تبلغ عند عسقلان (عسقلون) زهاء عشرين ميلا ، كما ان ارتفاع الجبال بمحاذاة الساحل يكون في بعض المواضع ارتفاعا حادا عاموديا • ففي شمالي بيروت بتليل يحاذي السهل الساحلي الضيق (حيث عرضه نحو ميل واحد) سفح جبل يرتفع زهاء (٢٥٠٠) قدم ، وعند مصب نهر الكلب[١] الى الجنوب من الموضع

---

(١) اسم نهر الكلب في المصادر الكلاسيكية (اليونانية والرومانية) «ليكوس» اي الذئب (Lycus) والمعتقد ان منشأ تسميته بنهر الكلب من صورة كلب (أو ذئب؟) منحوتة وقد وضعت هنا لتحمي محل المرور من قرب هذا المرتفع الجبلي ، وتروى الاساطير ان هذه الصورة كان يخرج منها عند اقتراب عدو صوت عال يسمعه الناس القريبون فيهبون للدفاع • ويقال ان هذه الصورة رميت في البحر في أوائل الفتح الاسلامي • وقد وجدت حديثا في عام ١٩٤٢ في القاع صورة ذئب ، لعلها هي الصورة التي نشأت عنها الاسطورة ، وهي الآن موجودة في المتحف الوطني في بيروت (حتي ، ذات المصدر ، الص ٣٠ ، ١٣٤) •

ويكاد يكون مصب نهر الكلب متحفا للنقوش التاريخية التذكارية التي نقشها على جدران الحجر القائمة الملوك الغزاة من المصريين والآشوريين والبابليين في أثناء مرورهم من هذا الموضع الشهير • وقد سبق أن عددنا هذه النقوش بحسب تسلسلها التاريخي في الجزء الاول من هذا الكتاب (أنظر الص ٢٠٥ ـ ٢٠٦) ، ولعل في تكرار ما ذكرناه ونقله هنا فائدة لمن لا يتيسر عنده الجزء الاول ، فنذكرها بحسب تسلسلها التاريخي على الوجه الآتي : كتابة الفرعون رعمسيس الثاني (١٢٩٢ ـ ١٢٢٥ ق • م) ، وهي مكونة من ثلاثة نقوش مشوهة غير واضحة (٢) ستة نقوش آشورية أوضحها نقش الملك الشهير اسرحدون (٦٧١ ق • م) (٣) نقش الملك نبوخذ نصر الكلداني (٤) آثار نقش يوناني ممسوح (٥) عدة نقوش رومانية للامبراطور «كره كالا» =

الاول بنحو ٣ أميال يلامس الجبل البحر ويدخل فيه ، مكونا في هذا الموضع نقطة «استراتيجية» مهمة ازاء الاعداء • وفي الكرمل نجد ان لسان الجبل هنا قد أزال السهل الساحلي بحيث لم يترك سوى زهاء (٢٢٠٠) ياردة على الساحل • وتمتاز هذه الشقة الساحلية بعض السهول المشهورة في العهود التأريخية وبخصبها وباستقامتها وخلوها من الخلجان باستثناء خليج الاسكندرونة •

واذا ما تركنا هذه الشقة الساحلية الى الشرق فنجد القسم الثاني من الاقسام الخمسة التي ميزناها في بلاد سورية ، أي سلسلة الجبال والنجاد المرتفعة المطلة على الشقة الساحلية ، وتبدأ هذه المرتفعات من جبال «امانوس»[١] في الشمال وتمتد جنوبا الى طور سيناء ، وتكون سلسلة جبال لبنان الغربية بمثابة العمود الفقري لهذه المنطقة حيث تحيط به السهول والاراضي الواطئة المجاورة • ان هذه الشقة الجبلية تكون عائقا للمواصلات لربط الساحل بالاراضي الشرقية الداخلية ، وهو حاجز لا يوجد له منفذ الا في نهايتيه المتطرفتين ، عند خليج الاسكندرونة حيث ينفذ منه من سفوح جبال «امانوس» الى سهول ما بين النهرين ، وفي خليج السويس حيث يؤدي الى

= (٦) نقش عربي لا يعلم صاحبه (٧) أزال الفرنسيون احدى الكتابات المصرية ونقشوا في مكانها تذكار احتلالهم لبنان (١٨٦٠ ــ ١٨٦١) (٨) نقش الجنرال غورو (Gauraud) والى جانبه نقش الجنرال «النبي» (٩) نقش يسجل تذكار جيوش الحلفاء في الحرب العامة الثانية (١٩٤٢) (١٠) نقش لبناني لتخليد خروج الجيوش الفرنسية عن سورية ولبنان (١٩٤٦) (انظر

(P. Hitti, **Op. Cit.**, 134; F. H. Weissbach, **Die Denkmaeler und Inschriften an den Mündung des Nahrel-Kelb** (Berlin, 1922).

(١) وقد جاء اسمه في المصادر العربية «اللكام» (بضم اللام وتشديد الكاف ، من السريانية **اوكاما** ، الاسود) وفي التركية «كاور داغي» (جبل الكفار) ، لانه كان يؤلف سدا حاجزا ازاء البيزنطيين بالنسبة الى الدول الاسلامية وجبل «امانوس» فرع قصير أو طية تفرعت جنوبا عن سلسلة جبال طوروس التي تفصل سورية عن آسية الصغرى •

البحر الاحمر أو الى الصحراء العربية . وبين هاتين النهايتين لا يكسر هذا الحاجز الا فى وادى النهر الكبير[١] شمال طرابلس ، وفى سهل مرج ابن عامر[٢] شرق عكا وحيفا . ويطوف امانوس حول خليج الاسكندرونة مكونا حاجزا بين سورية وكليكية ، ويرتفع هنا زهاء (٥٠٠٠) قدم فوق مستوى البحر ، ويشق حده الجنوبى نهر العاصى[٣] عند مروره فى طريقه الى البحر ، وتعبر الجبل طرق تؤدى الى انطاكية وحلب ، وأكبر مجاز فيه مجاز «بيلان»[٤] ، المشهور باسم «الابواب السورية» ، وتستمر سلسلة امانوس جنوب مصب العاصى حيث يتصل بها الجبل «الاقرع»[٥] الاجرد الذى يرتفع زهاء (٤٥٠٠) قدما ويمتد الى قرب اللاذقيــة[٦] حيث يعرف باسم جبال النصيرية[٧] الى أن ينتهى فى النهر الكبير الذى ينبع من هذه الجبال ويكون الآن الحد بين لبنان وسورية كما انه يحد هذه الجبال عن جبال لبنان[٨] ، أى لبنان الغربى (تمييزا لها عن جبال لبنان الشرقية ، انتى لبنان) . وجبال

---

(١) وهو النهر الوارد اسمه فى المصادر الكلاسيكية باسم « ايلو ثيروس » (Eleutherus)

(٢) وهو سهل يزرعيل (Esdraelon) الوارد ذكره فى التوراة

(٣) «اورونتس» (Orontes) فى المصادر الكلاسيكية .

(٤) وباسم (Belian) و (Pylae Syriae) فى المصادر الكلاسيكية

(٥) وهو جبل كاسيوس (Casius) فى المصادر الكلاسيكية .

(٦) (Laodicea) وهو اسم أم سلوقس المشهور حيث سميت خمس مدن باسمها .

(٧) واسمها فى المصادر الكلاسيكية (Bargylus) ، ولعل الاسم العربى مأخوذ من اسم محمد بن نصير من الكوفة (القرن الثالث للهجرة) من أتباع الامام الحسن العسكرى ، ومن أسماء هذه الجبال «البهراء» . وقد اشتهرت هذه الجبال بانها كانت من بين المعاقل التى اعتز بها الحشاشون الذين كانوا فى سورية ، وكذلك استوطنتها فرقة النصيرية المتفرعة عن المذهب الاسماعيلى ولا تزال خرائب بعض القلاع من عهد الصليبيين قائمة فى مرتفعاتها .

(٨) اسم لبنان مشتق من المادة السامية «لابن» (أى أبيض ، صار أبيض) ومنشأ التسمية على ما هو واضح من الثلوج التى تتوج قمم الجبال طوال ستة أشهر من السنة ، ويكون الثلج فى بعضها طوال السنة كلها .

لبنان الغربية ،هم جزء فى هذا القسم الثانى من أقسام البلاد السورية الذى تكلم عنه ،وتمتد جبال لبنان الغربية من النهر الكبير الى القاسمية شمال صور (حيث المجرى الاسفل من نهر الليطانى بين صور وصيدا ويسمى نهر القاسمية) أى مسافة نحو (١٠٥) أميال • وهى جبال شاهقة جليلة تبلغ أعلى قمة فيها (المعروفة باسم القرنة السوداء) زهاء (١١٠٢٤) قدما فوق البحر ،وبجوارها الموضع الجبلى المعروف باسم «ظهر القضيب» الذى يقل عنها زهاء (١٠٠) قدم ، حيث توجد بقايا الارز القديمة[١] التى اشتهر بها لبنان ، ثم تأتى منطقة جبل «صنين» الشامخ المطل على بيروت وخليجها ، وهو أوطأ من ظهر القضيب بنحو (١٠٠) قدم أيضا • وتتألف صخور لبنان من طبقتين عليا وسفلى من الاحجار الكلسية (Limestone) تتخلل ما بينهما طبقة من الحجارة الرملية (Sandstone) ويتراوح ثخن الطبقة الكلسية العليا من بضعة مئات من الاقدام الى ثخن خمسمائة آلاف قدم ، وهذه الطبقة العليا التى تميز لبنان فى مشاهده ومناظره ، كما ان ما يحدث فيها من تحات (Erosion) ينتج التربة الخصبة للزراعة ، وحجارتها صالحة للبناء • وتتخلل مياه الامطار هذه الطبقة الى أعماق بعيدة الى طبقة الحجارة الرملية والطينية حيث تستقر المياه ويتكون منها الينابيع الشهيرة التى تفيض بالحياة والخير على المنحدرات والوديان •

وتعد فلسطين من الناحية الجغرافية الجيولوجية استمرارا أو امتدادا

---

(١) يرى الجيولوجيون ان موضع الارز هذا يحدد نهاية «ثلاجة» جليدية فى عصور ما قبل التاريخ ، والمعروف ان العصور الجليدية الحقيقية لم تحدث هنا كما حدثت فى أوربة الشمالية وامريكة الشمالية ، ولكن شدة البرد الهائلة فى تلك العصور قد ولدت فى لبنان وفى مواضع أخرى من الشرق الادنى «ثلاجات» محلية (Hitti, **Op. Cit.,** 34) حول جيولوجية لبنان وتكوين هذه الجبال وتاريخ الاقاليم المجاورة انظر :ـ

(1) G. Zumoffen, **Géologie du Liban** (Paris, 1926).

(2) Louis Dubertret et al, **Contributions à l'étude géologique de la Syrie Septentrionale** (Paris, 1933).

جنوبا من لبنان من ناحية امتداد الشقة الساحلية السهلية حيث تتصل بسهل «شارون» الممتد من الكرمل الى جنوب يافا بقليل حيث يتصل بالساحل الفلسطيني ، كما ان القسم الجبلي (وهو القسم الثاني من البلاد السورية) من لبنان يستمر من بعد موضع قطع نهر القاسمية له ، الى مرتفعات جبال الجليل العليا وكذلك سلسلة المرتفعات الواطئة التي يطلق عليها اسم منطقة الجليل السفلى ، وتبلغ جبال الجليل العليا في الجرمق (شمال صفد) ارتفاعا قدره (٣٩٥٥) قدما وهو أعلى نقطة في جبال فلسطين ، وترتفع الجليل السفلى قرب الناصرة زهاء (١٨٤٣) قدما ، ثم تقطع المنطقة المرتفعة من فلسطين بسهل مرج ابن عامر الذي يفصل منطقة الجليل في الشمال عن منطقة التلال الجبلية التي تكون اقليم السامرة ويهوذا في الجنوب • وتشتهر السامرة بتلالها ووديانها ، وأشهر جبالها الجبل الشمالي (المسمى ايبال بالعبرية) وجبل «جرزيم» وهو جبل السامريين المقدس • ومن مرتفعات يهوذا جبل «يطاء» (Juttah) (يوطة المذكور في التوراة) (الذي يرتفع ٣٨٤٧ قدما) ، واورشليم (التي ترتفع ٢٥٥٠ قدما) ، ثم تنحدر منطقة يهوذا الى أرض متموجة الى «بير سبع» (بير شبيا في التوراة) حيث المنطقة المعروفة باسم النقب (Negeb) الذي يعني في العبرية (الارض اليابسة اللافحة) • والجدير بالذكر عن هذه المنطقة الجبلية من الناحية الاثرية كثرة الكهوف فيها منها ما هو في لبنان وفي جبل الكرمل حيث عثر الباحثون في عدد منها على آثار الانسان وبقاياه العظمية من أقدم عصور ما قبل التأريخ (العصور الحجرية القديمة) مما سننوه به فيما بعد •

والقسم الثالث من الاقسام الخمسة من البلاد السورية مؤلف من السهول المنخفضة مثل (البقاع)، وهو سهل ضيق يبتدىء شمالا من المنعطف الشمالي لنهر العاصي حيث يكون سهلا عريضا نوعا ما هو سهل «العمق»[١] ، ويستمر

---

(١) وقد ورد ذكر هذا السهل في المصادر الآشورية باسم «اونقي» (Luckenbill, **Ancient Records of Assyria & Babylonia** I, 769, 821.)

السهل الى حماة ولكنه يرتفع هنا الى نحو ١٠١٥ قدما فوق البحر ، وفيما بين جبل لبنان الغربى والشرقى (لبنان وانتى لبنان) نجد السهل المشهور المعروف باسم البقاع الذى يستمر جنوبا خلال الاردن الى البحر الميت ومن ثم يمتد فى خلال العربه (العرابه) الى العقبة ، وهى اللسان الشرقى من البحر الاحمر ٠ وينحدر هذا الوادى الغريب فى تكوينه الجغرافى بانخفاض عجيب ، ففى الحولة لا يرتفع عن البحر سوى ٧ أقدام ، ولكنه يكون عند بحيرة طبرية تحت مستوى البحر ، ٦٨٥ قدما وفى البحر الميت ١٢٩٢ قدما تحت مستوى البحر ٠ ويختلف سهل البقاع[١] فى عرضه من ٦-١٠ أميال ، ويرتفع بالقرب من بعلبك نحو ٣٧٧٠ قدما فوق البحر ، ويوجد فى القرب من هذا الموضع محل تقسيم المياه حيث يتجه من هنا العاصى ويأخذ مجراه شمالا ويجرى الليطانى[٢] جنوبا ٠ والعاصى والاردن هما النهران الكبيران فى بلاد الشام (باستثناء الفرات الذى يمر من سورية الشمالية) ٠ أما الليطانى فانه يكاد يكون منمما لمجرى العاصى وهو ينعطف غربا[٣] فى مجراه الاسفل ، ويمر من خلال الطبقة الحجرية الكلسية ويعرف هنا باسم «القاسمية» حيث يصب فى البحر بين صور وصيدا ٠ وسهل البقاع خصب التربة وموضع مراع جيد ٠ أما وادى الاردن (ويعرف الاردن بغور الاردن ونهر الشريعة كما يسمى أيضا فى المصادر العربية) فيبلغ طوله زهاء (٦٥) ميلا ، ويتراوح عرضه بين ٣ - ١٥ ميلا ، ويفرغ مياهه فى البحر الميت ، وهو بحيرة مياهها شديدة الملوحة والمرارة ، وتحتوى على كميات كبيرة من

---

(١) البقاع جمع بقعة او بقيع أى «متجمع المياه الراكدة» ، وقد ورد ذكره فى المصادر اليونانية والرومانية باسم (Coele-Syria) (أى سورية الغور) ولكنه كان يدخل ضمنه فى الازمان اليونانية والرومانية مناطق أخرى مثل حوران وشرقى الاردن ٠ كما يرجح كثيرا ان اسم بعلبك مأخوذ من كلمة «بعل البقاع» أى سيد أو رب البقاع ، من اسم الاله «بعل» ٠

(٢) (Leontes) فى المصادر الكلاسيكية ٠

(٣) توجد عند منعطفه قلعة صليبية تسمى الآن باسم قلعة الشقيف (شقيف أرنون الذى لعله محرف عن ارنولد) (وهى قلعة بيلفورت (Belfort) التى تشرف على الطريق الجبلى من دمشق الى صيدا وتتحكم فيه ٠

«البرومين» والبوتاس وكلوريد المنغنيز وتوجد قربه مناجم غنية من الحجارة الجيرية والقير كما توجد أيضا مثل هذه الحجارة في «حاصبية» في السفح الجنوبي الغربي من جبل الشيخ •

ان هذه المنطقة الثالثة تتميز أيضا بوجود البراكين، كما تدل على ذلك مناطق الاحجار البركانية «تلابة» الكائنة شرقي جبل الشيخ وجنوب دمشق، كالحرة، كما ان تأريخ بلاد الشام لم يخل من الزلازل، فقد أصاب انطاكية الكائنة في النهاية الشمالية من الاقليم كثير من الزلزال ، حتى انها خربت ما لا يقل عن عشر مرات في خلال القرون الستة الاولى قبل المسيح[١] ، كما توجد آثار الاضطرابات الزلزالية في جدران معبد الاله الشمس في بعلبك والقلاع الصليبية في سورية ، كما قلبت صور وصيدا كثيرا أيضا ، وقد وقع زلزال عنيف في عام (**١٨٢٢**) حول حلب ومدنا أخرى وكاما •

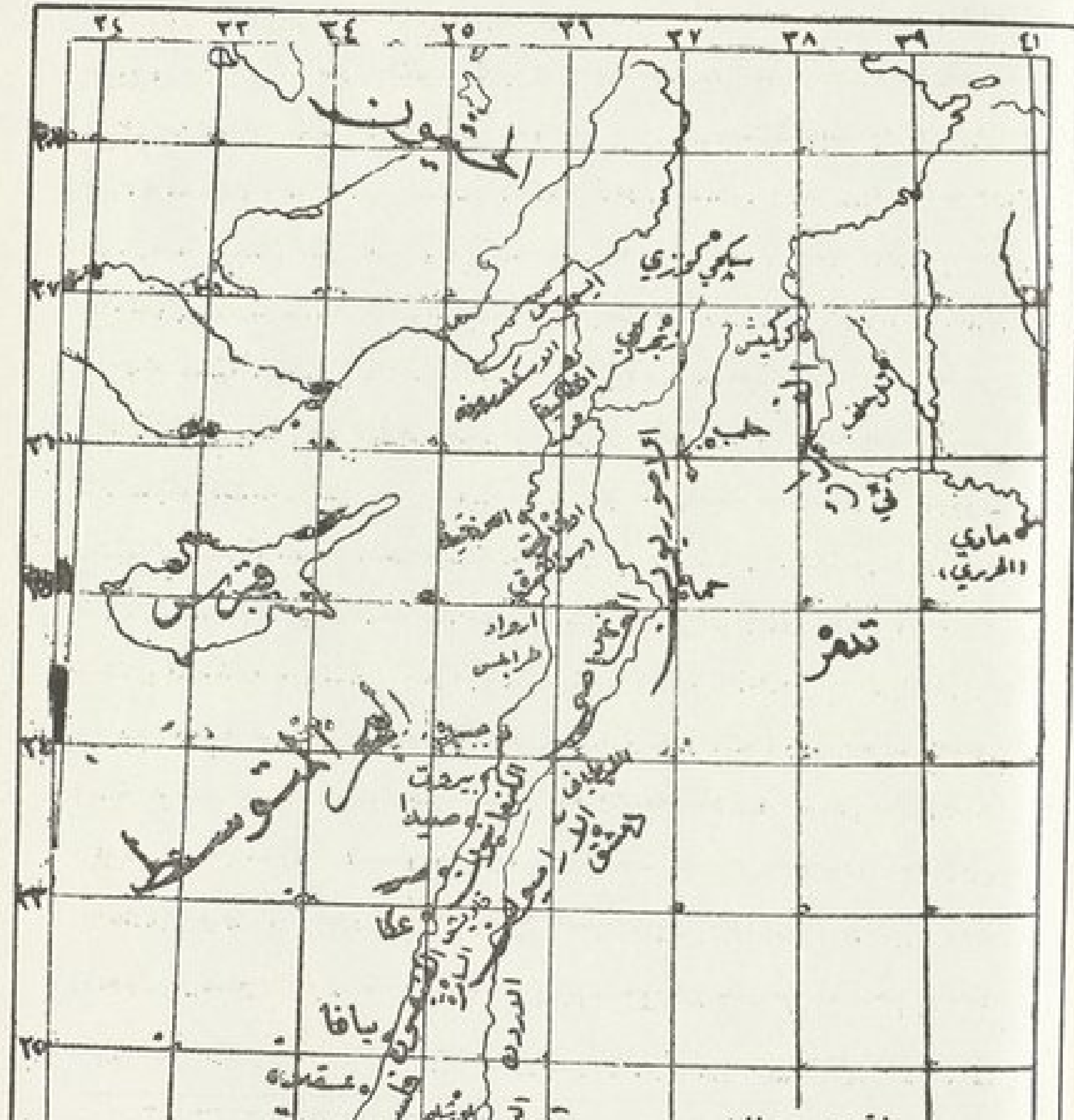
وتكون سلسلة الجبال الشرقية القسم الرابع من أقسام البلاد السورية ، حيث يبدأ ارتفاعها جنوب حمص وتكون مقابلة في ارتفاعها وفي طولها تقريبا لجبال لبنان الغربية ، حيث تعرف باسم جبال «انتي لبنان» (لبنان الشرقي) ، ثم تبدأ بالانحدار من جبل الشيخ[٢] الى نجد حوران ، الذي تحادده منطقة التلال في الجولان[٣] حيث تستمر في شرق الاردن بمرتفعات جلعاد وتتصل بنجد موآب واقليم «ادوم» (سعير) جنوب البحر الميت • ويقسم مجرى نهر

---

(١) انظر
E. C. Semple, **The Geography of the Mediterranean Region** (1932), P. 42.
المشار اليه في «حتي» ، ذات المصدر الص ٤٠

(٢) (Hermon) وذكر أيضا في التوراة باسم « سريون » (Serion) (في المزامير ٢٩ : ٦ ، وسفر التثنية ٣ : ٩) ، وذكر في بعض المصادر العربية مثل المقدسي «أحسن التقاسيم» باسم «جبل الثلج» •

(٣) من العبرية «جولان» (بلفظ الجيم كافا فارسية ، ومعناه الدائر أو الدائرة ، أو المحيط) ، وفي المراجع الكلاسيكية باسم «كولنيتس» (Gaulanitis)


بلاد الشام
(سورية - لبنان - فلسطين
شرقي الأردن)
المقياس بالميل
قبرص
البحر المتوسط
حلب
حماة
تدمر
ماري
(الحريري)
بيروت
صيدا
دمشق
عكا
يافا
عسقلان
غزة
الأردن
النقب
النبط
طور سيناء

بردى[١] هذه المرتفعات الشرقية (انتى لبنان) الى قسمين متميزين ، قسم شمالى[٢] يمتاز بان جانبه الغربى أجرد عديم القرى والسكنى ، وقسم جنوبى أشهر مرتفعاته جبل الشيخ الذى يعد من أعلى مرتفعات سورية (زهاء ٩٣٨٣ قدما) ، وهو عكس القسم الاول مزدهر بالسكنى والقرى فى سفوحه الغربية . ويمتاز لبنان الشرقى بوجه عام بقلة أمطاره مما جعله أقل استيطانا من جبال لبنان الغربية . ويأتى نهر بردى من قرب الزبدانى ويجرى شرقا ويروى قسما مهما من أراضى الشام التى لولاه لاصبحت جرداء ، وبضمن ذلك منطقة دمشق وما ازدهر فيها من عمران وحضارة . اذ انه بعد أن يمر من غوطة دمشق الشهيرة ويسقى جنانها الفياحة (مما جعل العرب يسمون دمشق بالفيحاء) يتفرع منه خمسة جداول لارواء شوارع دمشق ودورها حيث تقسيم مجارى مياهها وتوزيعها الذى يرجع فى أصله الى العهد الاموى . ويمتاز سهل «حوران»[٣] بانه مكون من صخور بركانية من حجر البازلت وتربته خصبة ، وتنتشر حقول الحجارة البركانية (اللابة) فى جنوب دمشق (عند الموضع المسمى بالتلول) وتشمل رقعة واسعة تبلغ زهاء ستين ميلا (طولا وعرضا) ، ويحد هذه المنطقة من جهة الشمال الشرقى صخور اللجأ ومن الجهة الجنوبية الشرقية المنطقة الجبلية المسماة جبل حوران أو جبل الدروز (ومعدل ارتفاعه ٤٠٠٠–٥٠٠٠ قدم). ان اقليم حوران خال من الاشجار ولكنه منتج للغلة كثيرا وفيه مراع جيدة ، وتدل البقايا الاثرية فى هذا الاقليم التى تبدأ من عصور ما قبل التأريخ الى العهد الرومانى والبيزنطى على أهمية هذه

---

(١) واسمه القديم «ابانه» (كما ورد فى التوراة مثلا) ، وينبع من جبل الشيخ أيضا النهر المسمى «الاعوج» (فرفر القديم) بالقرب من دمشق جنوبا .

(٢) وقد سمى البلدانيون العرب هذا الجزء باسم « سنير » (انظر ياقوت مثلا) .

(٣) لقد ذكر فى التوراة باسم «باشان» وفى المصادر الآشورية باسم «حورانو» وفى المصادر الكلاسيكية باسم «أورانيتس» (Auranitis) وهو السهل الواسع فى شرق الجولان وغرب اللجأ وجبل الدروز .

البقعة الزراعية ، حيث لا تزال بقايا الطرق والحصون والقنوات والخزانات من العهود الرومانية • وتمتد هذه البقعة البركانية الى الجهة الجنوبية الشرقية وتتصل في خلال بادية «الحماد» بالبقع البركانية الحجازية المعروفة بالحرات (جمع حرة) •

وتؤلف بادية الشام القسم الخامس من الاقسام الجغرافية التي ميزناها في بلاد الشام ، حيث تتصل نجاد حوران الشمالية الشرقية ، وشرقي الاردن بمناطق السهوب (Steppes) والحرات والرمال، ثم بادية الشام الكبرى التي هي امتداد لصحراء بلاد العرب الكبرى وتفصل بلاد الشام عن العراق كما انها تفصل أيضا ما بين طرفي الهلال الخصيب الشرقي والغربي ، ويعرف القسم المحاذي للطرف الشرقي من الهلال أي العراق باسم بادية الجزيرة (أي بادية ما بين النهرين)[١]، والقسم الجنوبي من هذه البادية يعرف باسم بادية العراق (أو السماوة)• ويعرف القسم الجنوبي الغربي من بادية الشام باسم الحماد وهو مكون من رمال واحجار ويكثر فيه العشب والكلأ في فصل الربيع • وتؤلف البادية الشامية ـ العراقية رقعة شاسعة على هيئة مثلث تستند قاعدته في خليج العقبة من جهة الغرب وعلى خليج الكويت من جهة الشرق ويمتد رأسه الى جهة حلب في الشمال ، ويبلغ أكبر عرض له نحو (٨٠٠) ميل ، وهي موطن البدو الذين يتاجرون مع الحضر ، وعلاقتهم التأريخية والعرقية (العنصرية) مع أقاليم الهلال الخصيب تمتد الى أبعد العصور، فهم أهم مصدر لسكانه على ما رأينا في تأريخ العراق القديم وعلى ما سنرى من الهجرات السامية الكبرى في كلامنا على تأريخ بلاد الشـــام •

ويتميز مناخ البلاد السورية التي أجملنا صفتها الجغرافية بمواسم مطرها ومواسم جفافها ، فهناك فصل ممطر يبتدأ تقريبا من منتصف تشرين الثاني الى نهاية آذار ، ثم يعقبه فصل الجفاف طيلة أيام السنة الاخرى ، وصفة

---

(١) (Mesopotamia)

المناخ هذه مما يميز أغلب اقليم البحر المتوسط • وبالامكان تقسيم بلاد الشام من ناحية النباتات والاشجار الى ثلاث مناطق ، فتتميز الشقة الساحلية وسفوح الجبال الغربية بنوع النباتات الخاصة بسواحل البحر المتوسط ، كالاشجار الدائمة الخضرة ، وغلتها الاساسية القمح والشعير والذرة وهى الحبوب الاساسية التى زرعها الانسان فى العصر الحجرى الحديث فى ربوع الشرق الادنى ، وتكثر فيها أشجار الزيتون والتين والكروم منذ الازمان القديمة ،وفى الازمان المتأخرة ادخلت زراعة التبغ (كما يشتهر تبغ اللاذقية فى العالم) والموز وأشجار الحمضيات كالليمون والبرتقال الخ ، ودخلت زراعة قصب السكر من الشرق منذ الفتح العربى • وتتألف المنطقة الثانية من أعالى جبال لبنان الغربى والشرقى حيث تقل شدة البرودة فيها الاشجار والنباتات مما ينبت فى المناطق المعتدلة ولا يمكن أن يعيش فيها سوى الاشجار القوية كالارز والصنوبر ولا سيما فى لبنان الغربى ، حيث يكون لبنان الشرقى أجرد تقريبا بالمقارنة مع المنطقة الجبلية الغربية • وتتميز المنطقة الثالثة المؤلفة من السهول والبقاع ومن النجاد الشرقية بين لبنان الغربى والشرقى بشدة حرارتها وتناقص أمطارها مما يجعلها شبيهة بمناطق السهوب من ناحية قلة أشجارها باستثناء الشجيرات والادغال والعوسج ، كما ان الاعشاب فيها موسمية ، ولما كان العاصى والاردن يجريان فى واديين عميقين فلا يفيدان فى الارواء الا قليلا ، وبعوض ذلك نجدا شرقى الاردن وحوران حيث تكثر فيهما الامطار المساعدة على انبات الغلة والكلأ ، واشتهر حوران بغلات الحبوب بحيث كان مخزن الغلال السورية منذ العصور القديمة •

أثر سورية فى التأريخ والعوامل المؤثرة فيها

اذا أضفنا الى الصورة التى كوناها عن بلاد الشام مما مر بنا من وصفها الجغرافى موقعها الجغرافى بالنسبة الى الاقاليم الاخرى ، فنستطيع أن نكون صورة كاملة عن المسرح الذى تكونت فيه حوادث تأريخ سورية • ولعل أول ما يلفت اليه النظر فى موقعها الجغرافى انها فى موقع سوقى مهم ، فهى تصل

ما بين ثلاث قارات تاريخية(آسية وافريقية واوربة) ، والى هذا الوضع السوقي نذكر الظروف التأريخية التي أحاطت ببلاد الشام منذ أقدم عصور التأريخ من وقوعها ما بين حضارتين عظيمتين : حضارة وادي الرافدين من الشرق وحضارة وادي النيل الى الجنوب ، مما جعلها ملتقى التأثيرات الثقافية المنبعثة من هذين المركزين الحضاريين ، كما ان نشوء هاتين الحضارتين الاصليتين منذ تأريخ متطاول وضغطهما على البلاد السورية (سواء كان ذلك من الناحية العسكرية أو الثقافية) كان من العوامل المهمة التي عملت على عدم نشوء حضارة أصلية[١] في سورية من أطوار عصور ما قبل التأريخ فيها على غرار ما حدث في وادي النيل ووادي الرافدين . وانما نشأت فيها حضارة فرعية أو عدة ثقافات فرعية على ما سيتضح لنا ذلك فيما بعد . والى هذه التأثيرات الثقافية فان موقع سورية الجغرافي جعلها معرضة الى الغزو ومرور الجيوش منها على الدوام ، فقد سبق ان رأينا ذلك من تأريخ بلاد الرافدين وتأريخ مصر ، وكيف ان هذه البلاد دخلت في حوزة الامبراطورية المصرية منذ القرن الخامس عشر ق . م ، ثم من بعد ذلك تعرضت الى ضغط الآشوريين الهائل والى غزو البابليين والفرس والمقدونيين والرومان الخ .

وتعرضت البلاد السورية في موقعها الجغرافي والتأريخي الى التأثيرات المختلفة من الاقوام الهندية الاوربية في جزر ايجة واليونان والرومان ومن البر تأثرت أيضا بفارس والهند . ولعل أخطر التأثيرات التي كونت تأريخها

---

(١) لقد سبق أن نوهنا بالمقصود من الحضارة الاصلية جريا على تعريف الباحث الشهير «توينبي» لها ، حيث قلنا انها الحضارة التي تنشأ مباشرة من الاطوار البدائية في عصور ما قبل التاريخ ، وأحسن مثال على ذلك حضارة وادي الرافدين الاولى وحضارة وادي النيل . أما في سورية فيبدو لنا من كلامنا على أدوار تاريخها انه نشأت فيها ثقافة فرعية أي مدنية متأثرة بالحضارتين السالفتي الذكر وهي الحضارة السورية أو السريانية (كما سماها توينبي) التي نشأت منذ منتصف الالف الثالث ق . م
(انظر كتاب توينبي (A Study of History) وترجمته الى العربية من جانب المؤلف .

وطبعته بطابعه الخاص موقعها المحادد (من جهة الشرق والجنوب) الى مهد الاقوام السامية فكانت محطا لهجرات البدو الساميين منذ أقدم العهود ، فاذا صح كونها موضع ملتقى الحضارات وبودتقة انصهار الثقافات فانها كانت أيضا بودقة انصهار الحضارة والبداوة • وسنرى من كلامنا على أدوار تأريخ بلاد الشام ان حصة هذه البلاد من موجات الاقوام السامية كانت أعظم من حصة أي من أقطار الشرق الادنى التى هاجر اليها الساميون ، وبوجه خاص وادى الرافدين ، فقد جاءت اليها خمس هجرات مهمة •

ولهذه الصورة التى تبدو فيها سورية وهى متأثرة بالحضارات والثقافات والاقوام الخارجية وجه آخر تظهر فيه سورية بدورها وهى مؤثرة أثرا مهما فى تأريخ الحضارات البشرية • ولما كنا سنقف على هذه التأثيرات المنبعثة من سورية فى كلامنا على تأريخها فنكتفى هنا بذكر أمثلة بارزة على هذه التأثيرات ، فنذكر من ذلك مثلا كونها مهد نشوء ديانتين ساميتين ، وهما الديانة اليهودية والمسيحية وأثرهما البالغ فى تأريخ العالم جميعه ، وننوه أيضا بأثر بعض الاقوام التى استوطنت سورية كالكنعانيين والفينيقيين من مساهمتهم فى الحضارة البشرية عن طريق نشرهم عناصر الحضارة بين شعوب العالم وعلى رأس ذلك نشرهم الحروف الهجائية ، وكونهم على ما يرجح أول من اكتشف المحيط الاطلسى ، ونذكر الآراميين أيضا وأثرهم الكبير فى تأريخ الشرق الادنى من الناحية اللغوية والخط الهجائى • وكان ينبغى علينا أن نذكر الاموريين (أول الاقوام السامية فى سورية) ، وكيف انهم أثروا فى تأريخ حضارة الرافدين ، فقد رأينا من تأريخ العراق القديم كيف انهم أسسوا سلالة فى العراق ، فكأن بلاد الشام صارت بدورها مهدا للهجرات السامية الثانوية الى جهات الشرق الادنى • وسيتضح من تلخيصنا لتأريخ بلاد الشام فى العهد الهلنستى مساهمتها المهمة فى الحضارة اليونانية الرومانية ، حيث زودت سورية العالم الهلنستى بعدد مهم من أعاظم المفكرين والشعراء والادباء •

وأخيرا وليس آخرا ينبغي التنويه بدور بلاد الشام في نشوء الحضارة العربية الاسلامية وسير تأريخها •

مصادر تاريخها وادوار هذا التاريخ :ـ

سوف لا نطيل الكلام على المصادر الاساسية التي تستند اليها معرفتنا بتأريخ بلاد الشام اذ يمكن اجمال ذلك بقولنا انها بالدرجة الاولى من التنقيبات والبحوث الآثارية الحديثة التي كشفت لنا عن فصول مهمة من تأريخ هذه البلاد مما قبل العهد اليوناني والروماني والعربي ، منذ أقدم عصور ما قبل التأريخ حيث عرفتنا بسكنى البشر في العصور الحجرية وفي عصور ما قبل التأريخ الاخرى التي تلت العصور الحجرية ، والعهود التأريخية المهمة التي تمثلها لنا آثار الاموريين والكنعانيين والفينيقيين والآراميين والعبرانيين والانباط • وانه حتى في الادوار التي تكثر عنها المصادر المدونة المعروفة سابقا ، كتأريخ العبرانيين وعلاقاتهم مع الاقوام السورية المختلفة مما جاءت أخبارها في التوراة ، والمصادر الكلاسيكية (اليونانية الرومانية) والمصادر العربية الاسلامية ، نقول انه حتى في هذه الادوار المتوفرة فيها مصادر البحث فان التنقيبات في المواضع الممثلة لها قد أنارت لنا جانبا مهما منها حيث مخلفات الحضارة المادية وفنونها ونواحيها المهمة الاخرى • ولما كنا سنشير الى مراجع البحث الخاصة في كلامنا على الادوار المختلفة فاننا ننهي هذه الملاحظة عن مصادر التأريخ السوري بذكر نوع آخر من المصادر المهمة تلك هي ما ورد في الاخبار المدونة مما جاءنا من حضارتي مصر والعراق بالدرجة الاولى •

ان هذه المصادر التي عددنا أنواعها قد مكنت الباحثين المحدثين أيضا من تمييز الاطوار المختلفة المتميزة في تأريخ بلاد الشام وضبط تسلسلها التأريخي • ونذكر هذه الاطوار بحسب تسلسلها التأريخي منذ أقدم عهود ما قبل التأريخ على الوجه الآتي[١] :ـ

---

(١) انظر (Hitti, **Op. Cit.**, 57 ff.)

أدوار التاريخ الرئيسة فى بلاد الشام

اولا : عصور ما قبل التاريخ :ـ

١ ـ العصر الحجرى القديم بأدواره المختلفة ٠
٢ ـ العصر الحجرى الوسيط ٠
٣ ـ العصر الحجرى الحديث ٠
٤ ـ العصر الحجرى المعدنى ٠

ثانيا : العهود السامية : (فى حدود ٢٤٠٠ ق ٠ م ـ ٥٣٨ ق ٠ م)

١ ـ الاموريون ٠
٢ ـ الكنعانيون ـ الفينيقيون ٠
٣ ـ الآراميون ٠
٤ ـ العبرانيون ٠
٥ ـ عهد دويلات الانباط والساميين المتأخرين الآخرين ٠

ثالثا ـ العهد اليونانى ـ الرومانى (الهلنستى) : من فتح الاسكندر (٣٣٣ ق ٠ م) الى الفتح العربى (٦٣٣ ـ ٦٤٠ م) ٠

رابعا : العهد العربى الاسلامى(١) : من الفتح العربى فى القرن السابع للميلاد الى الفتح التركى (١٥١٦ م) ٠

خامسا ـ العهد العثمانى : وقد انتهى فى الحرب العامة الاولى ٠

عصور ما قبل التاريخ

تنتهى عصور ما قبل التأريخ فى بلاد الشام فى زمن متأخر عن بداية عهد التدوين فى حضارتى وادى النيل ووادى الرافدين ، فبعد زمن ما من اختراع الكتابة فى هاتين الحضارتين وانتشار استعمالها فى التدوين انتقلت بعدئذ طريقة التدوين الى بلاد الشام ٠ والمعروف تأريخيا ان سورية لم

---

(١) ذكر هذان العهدان اتماما للفائدة وسوف لا يدخلان فى موضوع بحثنا ٠

تقتبس الكتابة الهيروغليفية وانما أخذت الخط المسماري من حضارة وادي الرافدين • ولعله من الممكن تحديد نهاية عصور ما قبل التأريخ في بلاد الشام في حدود منتصف الالف الثالث ق • م • ويسبق هذا العهد عصور ما قبل التأريخ الموغلة في قدمها اذ انها تبدأ من العصر الحجري القديم ، لعله منذ (٢٠٠٫٠٠٠ ـ ١٥٠٫٠٠٠) •

العصر الحجري القديم :

ونبدأ في كلامنا على عصور ما قبل التأريخ بذكر ما أسفرت عنه التحريات الاثرية عن آثار استيطان الانسان في أولى هذه الاطوار ، أي في العصر الحجري القديم[١] • ومما يقال في هذا العصر في سورية بوجه خاص كثرة التحريات المهمة التي تمت في جملة مواضع ولا سيما عدد من الكهوف في لبنان وفلسطين وفي مواضع مكشوفة في بادية الشام (ولا سيما بالقرب من الرطبة) مما جعل معرفتنا بهذا العصر وبأطواره المختلفة وأشكال البشر الذين عاشوا فيه أكثر منها بالنسبة الى جهات الشرق الادنى الاخرى • فمن هذه الكهوف الشهيرة في لبنان كهف في منتصف الطريق تقريبا بين صور وصيدا (واسمه عدلون) وفي كهوف نهر ابراهيم ونهر الكلب وكهف «انطلياس»[٢] حيث وجدت آثار العصر الحجري القديم من نصفه الاول الذي أغلب ما يميز بصنع آلات الصوان من لب الحجر مما يعرف باسم (Core flint industry) كما نذكر كهف جبل الكرمل الذي نقبت فيه «دوروثي كارود» و «بيت»[٣]،

---

(١) يحسن بالدارس أن يراجع ما ذكرناه عن العصور الحجرية في تأريخ العراق ، اذ أن الكثير مما جاء عنها ميزات عامة عن هذه العصور في الشرق الادنى •

(٢) انظر بحث ذلك في المرجع الآتي :ـ
G. Zumoffen, **La Phénicie Avant les Phéniciens** (Beirut, 1900).
ومجلة
(**Anthropos,** III (1906), 431 ff.)

(٣)
Dorothy A. E. Garrod & D.M. Bates **The Stone Age of Mount Carmel** (Oxford, 1937).

ومواضع أخرى فى شمال غربى البحر الميت وشمالى غربى بحر الجليل ووجدت فؤوس حجر يدوية من أدوار هذه العهود فى مواضع أخرى فى عقيق نهر الاردن ، جنوب جسر بنات يعقوب[١] ، كما وجدت آثارها أيضا فى رأس الشعرة (اوغاريت القديمة) •

أما بقايا الانسان العظمية من النصف الاول من العصر الحجرى القديم فلم يعثر بعد على نماذج لها ، ولكن مما لا مراء فيه أن تكون من نوع الانسان العتيق البائد (Palaeoanthropic) الذى عاش فى مثل هذه الكهوف التى عددناها لحمايته من الامطار والبرد القارس واتقاء شر الحيوانات المفترسة • وقد عاشت أنواع من الحيوانات انقرض معظمها ، كحيوان الرنة (الرنديز Rhinoceros) وفرس الماء وبعض الحيوانات الشبيهة بالفيل • وكان المناخ مختلفا عما هو عليه الآن بشدة برده القارس ، اذ انه مع عدم تقدم طبقات الجليد (الثلاجات) الى سورية الجنوبية الا ان المناخ كان قارسا من أثر العصور الجليدة التى عمت أوربة ، أما فى الشرق الادنى فكان على ما ذكرنا سابقا يقابل مثل هذه العصور الجليدية عصور ممطرة (Pluvial Period) • واذا انتقلنا الى النصف الثانى من العصر الحجرى القديم فتكثر لدينا الهياكل البشرية العظمية ، كما وجدت فى كهوف جبل الكرمل مثل «مغارة الطابون» و «مغارة السخول»[٢] وفى كهوف اخرى حيث وجدت معها آلات من النوع المسمى بالمستيرى (Mousterian) (من حدود ١٠٠٠٠٠) ، أما أنواع هذه الهياكل فبعضها شبيه بانسان النياندرتال وبعضها يقرب من نوع الانسان الحديث (Hamo Sapiens) ولعلها تكون حلقة الاتصال فى تطور الانسان من النوع العتيق البائد الى نوع الانسان

---

(١) انظر المجلة التى تصدرها دائرة الآثار فى فلسطين
The Quarterly of the Department of Antiquities in Palestine, VI (1936), 214 ff.

(٢) انظر Garrod & Bates, **Op. Cit.** chaps. 4 — 7.

الحديث وقد سمي هذا النوع بانسان «فلسطين» . وكان الانسان لا يزال يعيش في الكهوف ، واستعمل اسلوبا جديدا في صنع أدوات الصوان حيث استعمل الشظايا بعد هندمتها آلات له . وتوجد في جامعة بيروت الامريكية نماذج ممثلة لآثار العصور الحجرية القديمة . وهناك امارات على تبدل في المناخ حدث في أواخر العصر الحجري القديم في بلاد الشام ،من الرطوبة الى الجفاف ، ويسمى الطور الاخير من العصر الحجري القديم في اوربة باسم الطور «الاورغنيشي» الذي وجد ما يضاهي أدواته وآلاته في الكهوف القريبة من بيروت مثل كهوف نهر الكلب وكهف انطلياس[١] ،كما وجدت حديثا (١٩٣٨) في كهف يسمى «كسارالعقيل»[٢] قرب انطلياس مع هياكل عظمية .

العصر الحجري الحديث

قبل أن ينتقل الانسان في سورية الىالعصر الحجري الحديث انتقل من العصر الحجري القديم الى فترة فاصلة بين الطورين سبق أن أشرنا اليها في تاريخ العراق القديم باسم العصر الحجري الوسيط (Mesolithic) الممثل في بلاد الشام أحسن من غيرها من أقطار الشرق الادنى (من حدود ١٠٫٠٠٠ ق . م) حيث اطلق عليه الباحثون اسم الدور «النطوفي» ، كما وجد في فلسطين في الموضع المعروف باسم «وادي النطوف» (شمال غربي القدس) في كهف اسمه «الشقبه» نقب فيه في عام ١٩٢٨ ووجدت له آثار أخرى ممثلة في مواضع اخرى في فلسطين[٣] حيث يقدر بانه دام الىحدود ٦٠٠٠ق.م، ويمتاز من الناحية الاثرية بدقة أدوات الصوان من ناحية صغر حجمها مما

---

(١) انظر مجلة «الكلية» ، مجلد ١٢ (١٩٢٦) .

(٢) انظر مجلة المشرق (١٩٤٧) ص ٧٤ فما بعد وانظر أيضا

J.F. Ewing, **"Aurignacian Man in Syria"**, in **Amer. Jour. of Physical Anthropology** IV, (1946), 252 ff.

(٣)

D. A. E. Garrod in **the Palestine Exploration Fund** (1928).

يعرف باسم (Microlith) • ووجدت مناجل من الصوان فى هذا العهد ولكن استعمال الانسان لها فى حصد الحبوب المزروعة أمر غير مؤكد • واستطاع الانسان فى نهاية هــذا العصر (أى العصــر الحجرى الوسيط) من تحقيق ما أسميناه بالانقلاب العظيم فى حياة الانسان ، فى تعلمه الزراعة وتدجين الحيوان وصنع الفخار الساذج • وتوجد فى ديار الشام أنواع من الحيوانات صالحة للتدجين ، كما يوجد الشعير والقمح على هيئة وحشية برية فى شمالى سورية[١] • وعلى نحو ما رأينا فى كلامنا على العصر الحجرى الحديث فى وادى الرافدين كانت زراعة الانسان فى هــذا العصر محدودة أى بمقياس صغير وأكثر ما تتصف بانتاج الاكتفاء الذاتى ، كمــا ان الانســان لم يستقر استقرارا دائميا ، اذ كان ينتقل من موضع لآخر كلما استنفد خصب شقة الارض التى يزرعها ، وزرع الانسان الى جانب القمح والشعير بعض الحبوب الاخرى كالذرة ، وتعلم من بعدئذ زراعة أشجار الاثمار والعناية بها على هيئة بساتين ، كما بدأ الانسان فى بعض أنحاء سورية يسكن فى بيوت من الطين كما يدل على ذلك نماذج بيوت الطين التى عثر عليها فى أثناء التنقيبــات فى «اريحا» (فى فلسطين) وفى الجديدة ورأس الشمرة (اوغاريت القديمة)[٢] ، ووجدت قرى أخرى من العصر الحجرى الحديث فى سورية مثل جبيل ، وسنعود فنذكر مثل هذه المواضع فى كلامنا على العهد الذى أعقب العصــر الحجرى المتأخر ، وهو العهد الذى أطلقنا عليه اسم العصر الحجرى المعدنى، لان آثاره المتمثلة قد وجدت فى هذه المواضع وفى مواضع أخرى فى لبنــان وسورية وفلسطين وهى تقوم فوق آثار القرى الصغيرة من العصر الحجرى الحديث •

العصر الحجرى المعدنى :ــ

بما اننا سبق أن ذكرنا ميزات العصر الحجرى المعدنى فى كلامنا على

---

(١) P. Hitti, **Op. Cit.,** P. 16.

(٢) Garstang, **The Story of Jericho** (London, 1940) ; C. F. Schaeffer, **Ugaritica** (Paris, 1939), 3—4.

العراق فلا نكرر ذلك الا بان نذكركم بان أهم ما يميز هذا العهد من حيث التقدم الحضاري بداية معرفة الانسان باستعمال المعادن ولا سيما النحاس ثم البرونز ، ولكن الانسان في جميع أنحاء الشرق الادنى بوجه عام لم يستغن عن الحجر في صنع أدواته وآلاته المهمة ، وهذا هو منشأ مصطلح العصر الحجري المعدني (Calcholithic) ، ومن الخصائص المهمة التي تميز هذا العهد من الناحية الآثارية الاواني الفخارية الملونة الجميلة التي عمت صناعتها جميع أنحاء الشرق الادنى ، والجدير بالذكر بهذا الصدد ان الطور الذي سميناه باسم «حلف» في العراق المتميز بأواني الفخار الدقيقة الصنع الملونة بعدة ألوان انما اشتق اسمه من اسم تل حلف (گوزان القديمة) في سورية على الخابور حيث اكتشفت آثار الطور المميزة لاول مرة[١] ، ووجدت أيضا في جهات أخرى في سورية مثل رأس الشمرة وفي العراق مثل الاربجية وتل بلا وغيرها وفي وادي الاردن في الموضع المعروف باسم «تليلات الغسول» (بفتح الغين وتشديد السين)[٢] ، أما عهد العصر الحجري المعدني في بلاد الشام فقد استغرق الالف الرابع ق.م تقريبا ، وأعقب طور هذا الموضع (أي حلف) بداية استعمال البرونز في بلاد الشام كما وجدت آثاره في جملة مواضع وبوجه خاص في «مجدو» واريحا حيث اتسعت القرى وأصبح بعضها مدنا صغيرة محصنة بأسوار . وعندما نصل الى نهاية هذا العهد في بلاد الشام نكون قد وصلنا الى عهد نضج الحضارة الراقية في وادي الرافدين حيث تغلغلت تأثيراتها في بلاد الشام ، كما يدل على ذلك نشوء جملة مواضع تمثل الحضارة السومرية مثل «ماري» (تل الحريري) . وهذه هي العهود التي سنتكلم عنها الآن .

---

(١) Von Oppenheim, **Der Tell Halaf** (Berlin, 1943) ; Childe, **New Light on the Most Ancient East** (1952) 110 ff. 217 ff.

(٢) يقع بنحو ٥ر٥كم شرق الاردن ، وقد نقبت فيه في عام (١٩٢٩ — ١٩٣٢) بعثة آثارية من المعهد التوراتي في رومة (The Pontifical Biblical Institute).

انظر A. Mallon et al, **Teleilàt Ghassul** II (Rome, 1934), Robert Koeppel, **Teleilàt Ghassul,** II (Rome, 1940); Childe, ibid, 229—230.

الفصل الثامن والعشرون

الاقوام السامية في بلاد الشام ـ الاموريون والكنعانيون والفينيقيون

١ ـ الاموريون(١)

يمثل لنا استيطان الاموريين في بلاد الشام أولى الهجرات السامية الكبرى في هذه البلاد وهي الهجرات السامية التي أطلق عليها الباحثون اسم الاقوام السامية الغربية ولغاتها «اللغات السامية الغربية» تمييزا لها عن الكتلة الشرقية التي تمثلها اللغة الاكدية وفروعها البابلية والآشورية في العراق واللغات العربية الجنوبية . أما سكان بلاد الشام قبل مجيء أولى الهجرات السامية اليها في الالف الثالث ق . م أي في عصور ما قبل التأريخ التي تكلمنا عنها في الفصل السابق فلا نعرف عنهم حقائق مؤكدة على الرغم من العثور على كثير من الهياكل العظمية ، ولكن المرجح كثيرا انهم لم يكونوا من عرق واحد ولا يستبعد أن يكون بينهم بعض الساميين والسومريين والحوريين وغيرهم من الاقوام المتحدرة من الجماعات التي استوطنت بلاد الشام منذ العصور الحجرية القديمة . ومهما كان الحال فالاموريون أول قوم ساميين نعرف اسمهم الخاص وأخبارهم التأريخية . ويرجح كثيرا كما سنشير الى ذلك في موضع آخر ، ان الكنعانيين جاؤا أيضا الى بلاد الشام مع الاموريين في هجرة كبرى واحدة ، ولكن الاموريين هم الذين اشتهروا بتكوينهم دولا مهمة قبل الكنعانيين .

---

(١) يراجع ما ذكرناه سابقا عن الاقوام السامية وعائلة اللغات السامية وفروعها في كلامنا على تاريخ العراق القديم (الجزء الاول ، الفصل السابع) ، وما ذكرناه أيضا في الفصل السابع والعشرين من هذا القسم .

أما اسم الاموريين فقد أطلقه عليهم سكان وادى الرافدين ، من المصطلح السومرى «مارتو» (ومنه الكلمة الاكدية امورو) ، وكذلك يقال فى أصل اشتقاق اسم المدينة الامورية « مارى » (تل الحريرى) واطلقوا أيضا اسم «بلاد مارتو» على الغرب ، وأطلقوها توسعا على جميع بلاد الشام[1] ، حتى انهم دعوا البحر المتوسط باسم آخر بالاضافة الى اسم «البحر الاعلى أو البحر الكبير» هو «بحر امورو العظيم» . ومما لا شك فيه ان اتصالات واسعة مهمة قد نشأت بين سكان وادى الرافدين وبلاد سورية على أثر الفتوح الاكدية المشهورة التى درسناها فى تأريخ العراق . ومما يدل على هذه الاتصالات ان أول ذكر للاموريين فى أخبار ملوك وادى الرافدين قد جاء فى أخبار الملك الاكدى الشهير سرجون[2]،مؤسس السلالةالاكدية (فيحدود ٢٣٥٠ ق.م)، وقد تمركز الاموريون فى مبدأ أمرهم فى الاقسام الشمالية من بلاد الشام ثم أخذوا من بعدئذ ينتشرون فى أواسط سورية وفى لبنان حتى امتدوا جنوبا الى فلسطين . وقد أظهرت التحريات الحديثة فى سورية الشمالية (فى مدينة مارى مثلا) وجود مواطن ازدهرت فيها حضارة وادى الرافدين من العهد الشبيه بالكتابى (الوركاء وجمدة نصر كما فى تل براك والخابور) قبل مجىء الاموريين الى سورية ، وقبل أن يغزو سرجون الاكدى بلاد الشام ويتصل بالقبائل الامورية . ومما لا مراء فيه ان هذه القبائل الامورية البدوية قد تعلمت من هذه المراكز الحضارية السومرية ، ودخلت فى طور التحضر والمدنية ، وتصف لنا هؤلاء الاموريين البدو قبل تحضرهم نصوص جاءتنا من المآثر السومرية ، ، وكيف انهم كانوا بدوا متجولين لا يعرفون سكنى

---

(١) ومن الطريف التنويه به هنا انمنشأ مصطلح «مارتو» ، و«امورو» أى بلاد الغرب بالنسبة الى وادى الرافدين مثل المصطلح الذى أطلقه عرب الجزيرة على بلاد سورية أى الشام (اليسار أو الشمال) .

(٢) A. Poebel, **Historical Texts** (1914), P. 17.

البيوت ولا يعرفون الزرع والفلح ولكنهم تعلموا ذلك بعدئذ » ، [١]، ونجدهم بعد حين من تعلمهم من حضارة وادي الرافدين في سورية يؤسسون دويلات مهمة في الفرات الاوسط قامت من بعد الدولة السومرية في «ماري» في الالف الثاني ق٠م، وتكونت لهم علاقات مهمة مع بلاد الرافدين كما انهم أسسوا سلالات حكمت في العراق نفسه مثل سلالة «ايسن» التي قامت على انقاض سلالة أور الثالثة السومرية[٢] ، وكان أصل سلالة بابل الاولى (التي اشتهرت بملكها السادس حمورابي) من الامورين أيضا ، ويرجح ايضا ان السلالة المهمة التي تأسست في بلاد آشور واشتهرت بملكها «شمسي ـ ادد» اصلها أيضا من الساميين الغربيين ، أي من الاموريين ٠

ولنعد الى ذكر بعض الاشياء المفيدة عن مدينة ماري التي قلنا ان الاموريين أسسوا فيها عاصمتهم في الالف الثاني ق ٠ م على انقاض الحضارة السومرية٠ فقد أسسوا في الفرات الاوسط دولة مهمة ضمت اليها بعدئذ معظم البلاد السورية ،وظلت مزدهرة الى أن قضى عليها حمورابي وضمها الى امبراطوريته٠ وقد أظهرت لنا التنقيبات الخطيرة التي قام بها الفرنسيون حديثا في «تل الحريري»[٣] ، ماضي هذا الموطن الاثاري الحافل بعهوده منذ عصور فجر

---

(١) انظر النص المنشور في

Edward Chiera, **Sumerian Religious Texts** (1924), 20—21

(٢) ومن الاخبار التاريخية الطريفة التي تشير الى علاقات الاموريين بالسلالات الحاكمة في العراق ان أحد ملوك سلالة أور الثالثة (شو ـ سين) ق. شيد سورا في أور وسماه بعبارة تصفه بانه (الجدار الذي يصد الاموريين) وحاربهم آخر ملوك هذه السلالة المسمى «ابي ـ سين» حيث جاء في احدى سني حكمه المؤرخ بها : «لقد اخضعت مارتو الذين قوتهم كالعاصفة والذين لا يعرفون المدينة منذ القدم»

(**Reallexikon der Assyriologie,** II, 144—80).

(٣) كانت هذه التنقيبات بادارة الاثاري الفرنسي (اندريه بارو) (André Parrot) وقد أسفرت هذه التنقيبات عن نتائج خطيرة لا يزال درسها والبحث فيها مستمرين من جانب العلماء وللوقوف على نتائج =

السلالات السومرية وما قبل ذلك بقليل ، كما كشفت لنا أيضا عن البقايا المهمة في هذه المدينة من عهد سلالتها الامورية ، كالقصر الملكي الواسع[١] الذي عثر فيه المنقبون على أكثر من ٢٠٫٠٠٠ لوح من الالواح الطينية المكتوبة بالخط المسماري واللغة الاكدية ولكن لهجتها تميل الى السامية الغربية (الامورية) وهي تضمن أنواعا مهمة من الوثائق والسجلات الملكية والخاصة ، ومنها الرسائل والوثائق التجارية والادارية الخاصة بأحد ملوك سلالة «ماري» الامورية المسمى «زمري – ليم» (١٧٣٠ – ١٧٠٠ ق • م)[٢] ، وكان هذا آخر ملك من هذه السلالة حيث قضى على مملكته حمورابي البابلي • ان هذه الوثائق المدونة قد ألقت ضوءا كاشفا على جوانب مهمة في تأريخ بلاد الشام والاموريين بوجه خاص في الالف الثاني ق • م وتأريخ الشرق الادنى بوجه عام ، ففيها تدرس الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والمعتقدات الدينية والعلاقات الدولية بين سورية ودول وادي الرافدين وعن تعاصر ملوك ذلك الزمان[٣] ، كما فيها نواح مهمة عن الحياة السياسية • فندرس منها مثلا ان مدينة ورد اسمها بهيئة «خلبو» (أي حلب) كانت عاصمة مملكة امورية

= هذه البحوث الكثيرة المنشورة في المجلات العلمية مثل مجلة (Syria, 1937 ff.) والنشرات الخاصة انظر :
André Parrot, **Archéologie Mesopotamienne,** 2 vols. 1946—1953.

(١) ان هذا القصر يعد من المآثر المهمة في تاريخ حضارات الشرق الادنى فهو قصر واسع يشغل مساحة تقدر بنحو ستة «ايكرات» ووجد فيه أكثر من (٣٠٠) حجرة زينت جدران الكثير منها بصور ملونة زاهية كما وجدت فيه عدا الساحات والمرافق الاخرى مواضع خاصة للحمامات ، ووجدت في بعض الحجرات دكاك ومناضد لعلها تشير الى المدرسة
(Hitti, **Op. Cit.,** 68; **Syria,** XVII (1936) XXIX (1952) ; Frankfort, **Art and Architecture in the Ancient Orient** (1954).

(٢) حول هذه الوثائق انظر مجلة (**Syria,** XIX (1938), XX (1939);
J. R. Kupper, **Archives royales de Nari** (1948).

(٣) لقد سبق أن ذكرنا في كلامنا على ضبط تسلسل أدوار التاريخ في العراق القديم وأدوار السلالات الحاكمة ان الباحثين المحدثين استندوا من جملة ما استندوا اليه من المصادر الى وثائق مدينة ماري ولا سيما ما يتعلق منها بالتعاصر بين حمورابي وبين ملوك سلالة ماري •

اسمها «يمخد» ، وان أحد ملوكها كان اسمه «يريم – ليم»(١) ، وان مدينة «جبلا»(٢) (وهي جبيل) كانت من المراكز الصناعية المهمة للنسيج وان مدينة أخرى باسم « قطنا »(٣) ، كانت مركزا تجاريا مهما لسلالات الحكام الاموريين .

ان هذه المآثر وغيرها لتشير الى ازدهار ملحوظ كانت عليه الدول الامورية ، ومما لا مراء فيه أن تكون أهم عوامل هذه الازدهار زراعتها الجيدة المعتمدة على خصب أراضيها وكثرة أمطارها المساعدة والاعتناء بالشؤون الزراعية ، والى هذا العامل كان هناك عامل خطير آخر هو ازدهار تجارتها وعلاقاتها التجارية مع اقطار الشرق الادنى كما انها كانت واسطة للتجارة المهمة بين أقطار البحر المتوسط وبين بلاد ما بين النهر ، فكانت بذلك أيضا واسطة لنشر الثقافة والتأثيرات الثقافية .

والجدير بالذكر بمناسبة كلامنا على الوثائق التي وجدت في القصر الملكي في ماري ان الاموريين لم يخلفوا لنا كتابات مهمة بلغتهم الامورية الخاصة(٤) (أو بالاحرى بلهجتهم) وانما اتخذوا اللغة البابلية القديمة التي شاعت آنذاك كلغة رسمية للتدوين ، ولكن مع ذلك فان لغتهم شبيهة باللهجة الكنعانية بحيث يمكن عدهما لهجتين متقاربتين ، اللهجة الكنعانية الشرقية (أي الامورية) واللهجة الكنعانية الغربية (أي الفينيقية) . أما ديانتهم فهي تشبه في أصلها ديانة الاقوام السامية البدائية التي تدور بالدرجة الاولى على

---

(١) أنظر

Albright in **The Bullt. of the Amer. Sch. of Orient. Res.** No. 67 (1937).

(٢) بضم الجيم الملفوظ كافا فارسية وتسكين الباء .

(٣) بفتح القاف وفتح الطاء (أو تسكينها) ، وتقوم خرائبها الآن في التل المعروف باسم «المشرفة» شمال شرقي حمص .

(٤) من الاشياء التي خلفوها في لغتهم أسماء ملوكهم وحكامهم واسماء جملة مواضع في سورية .

عبادة الظواهر الطبيعية وتشخيصها بهيئة آلهة ذات صفات آدمية . كما انهم اتخذوا بعض الآلهة الشهيرة من حضارة وادي الرافدين مثل الالهة عشتار[١] . وكان من آلهتهم الخاصة الاله «امورو» (مارتو)[٢] ومعه آلهة أخرى جاءتنا أسماؤها مع الآلهة الكنعانية (حيث حافظ الكنعانيون على الديانة الامورية وعلى آلهتها) مثل «حدد» (حداد أو هدد)[٣] ، اله المطر والزوابع ، ومثل وهو مقترن مع النور وشرارة الصاعقة . ويرجح كثيرا ان نفس هذا الاله قد عبد من بعد ذلك في جهات بلاد الشام باسم «بعل» . ومن آلهة الاموريين أيضا اله جاء اسمه عند الفينيقيين باسم «رشف» وسماه الآراميون «رشوف» ، والمرجح انه من الآلهة ذات العلاقة بالنار ، وقد اتخذه المصريون في عهد الامبراطورية . وعبدوا أيضا الها مهما دخلت عبادته الى حضارة وادي الرافدين هو الاله «داجون» أو «دجان» (بلفظ الجيم كافا فارسية) وأصله من الآلهة المتعلقة بالخصب والطعام[٤] . ويعزى الى الاموريين انهم هم الذين ادخلوا الى أنحاء سورية الجنوبية عبادة نوع من الانصاب كانت بهيئة أعمدة من الحجر تنصب قائمة في مواضع مطهرة كالكهوف في الغالب

---

(١) من الصور الطريفة التي وجدت تزين جدران القصر الملكي في ماري صورة تمثل أحد ملوك المدينة (الذي يرجح كونه «زمري – ليم») وهو يتسلم شارات السلطان من الالهة عشتار (أنظر الصورة المنشورة في حتي «تاريخ سورية» (Hitti, **Op. Cit.**, P. 69)

(٢) وكانت عبادة هذا الاله معروفة في وادي الرافدين . وكان للاله «امورو» الاموري الهة زوجة هي «عشرتا» (أو اشيراتا) ، الهة الحب والشهوة والقوة ، وهي شكل من اشكال عشتار البابلية (انظر الاسطورة الخاصة بزواجه في S. N. Kramer, **Sumerian Mythology**

(٣) مما لا شك فيه أن يكون هذا الاله نفس الاله الذي عبد في ديانة العراق القديم باسم «أدد» اله الرعد والزوابع والصواعق ، ولا يعلم بوجه التأكيد هل أصل «أدد» البابلي من الاله السوري أم العكس ، ولعل الرأي الاول هو المرجح . وسمي «حدد» أو «ادد» باسم آخر هو «رمان أو رمانو» أي المرعد .

(٤) لقد وجد المنقبون في رأس شمرا (اوغاريت) معبدا خصص لعبادة هذا الاله .

مع مذبح من الحجر [١] والمرجح كثيرا انهم هم الذين أدخلوا الى بلاد الشام عادة تقريب الابن البكر وكذلك عادة الضحية فى أسس البناء (ضحية الأطفال الآدميين) وهى عادة استمرت الى زمن العبرانيين .

ومما لا شك فيه ان الدويلات الامورية قد استعادت استقلالها من بعد عهد ضمها الموقت الى امبراطورية حمورابى وظلت كذلك الى زمن تأسيس الامبراطورية المصرية ، تدخلت فى العلاقات الدولية المعقدة التى تكونت آنذاك بين دول الشرق الادنى ولا سيما بين المصريين والبابليين والآشوريين والحثيين . ودخلت تحت النفوذ المصرى على ما بينا فى كلامنا على الامبراطورية المصرية فى تاريخ مصر . ومما يقال بوجه الأجمال ان بلاد الشام اصبحت مدار النزاع والكفاح بين الامبراطورية المصرية وبين الامبراطورية الحثية المنافسة لها فى بلاد الشام التى أصبحت من جراء هذا التنازع فى فوضى ضاربة ، فقسم منها كان مواليا لمصر وقسم حافظ على استقلاله وقسم كان متقلبا فى ولائه [٢] . فمن حوادث هذا العهد الطريفة فى سورية ما نقرؤه فى الرسائل الشهيرة (رسائل العمارنة) [٢] عن علاقة أحد الامراء الاموريين المسمى «عبد ـ عشرتاه (أو عبد ـ اشرتا) الذى كان يتظاهر فى ولائه وتبعيته لمصر [٣] وينتهز فرص النزاع بين الحثيين والمصريين على بلاد الشام . وكان هذا يحكم فى مملكة مركزها فى اعالى نهر العاصى ، ومع تظاهره بالولاء للفرعون المصرى [٣] الا انه كان يساعد الحثيين فى غزوهم اقليم السهل الكائن بين انطاكية وجبال

---

(١) انظر التوراة (سفر الخروج ٢٠ : ٢٥) .

(٢) جاءت أخبار هذه العلاقات المعقدة فى الرسائل الشهيرة باسم «رسائل العمارنة» المدونة بالخط المسمارى واللغة البابلية ، وهى الرسائل التى قلنا انها الرسائل التى تبادلها ملوك الشرق الادنى والرسائل المتبادلة بين ملوك مصر وولاتهم فى بلاد الشام ، والرسائل المتبادلة بين ملوك مصر وملوك بابل وآشور ، انظر نشرها فى
J.A. Knudtzon, **Die el-Amarna Tafeln** 2 vols. (1908).

(٣) أنظر الرسالة رقم ٦٦ فى ذات المصدر المنشورة فيه تلك الرسائل . وهى الرسالة التى أرسلها الى سيده الفرعون المصرى امنحوتب الثالث (١٣٧٥) يظهر فيها ولاءه ويتعهد بولاء الاموريين أيضا .

«امانوس» ، كما انه استولى لحسابه الخاص على مدن كثيرة فى الساحل وفى داخل البلاد ، وخلفه ابنه المعروف باسم «عزيرو» الذى سار على خطة أبيه ووسع من حدود مملكته أيضا فى حماة واقليم دمشق . وكان للمصريين على بلاد الشام وال من قبلهم اسمه «رب – عدى» . وكان هذا يرسل الرسالة تلو الاخرى الى سيده الفرعون المصرى مبينا فيه مؤامرات «عبد – عشرتا» وابنه «عزيرو»[١] الذى وجد الفرصة سانحة على أثر ضعف الامبراطورية المصرية فى عهد الملك امنحوتب الرابع (وهو اخناتون صاحب الثورة الدينية فى مصر) فتشجع فى غزو المدن والاقاليم السورية التابعة الى مصر على الرغم من تحذير الوالى المصرى «رب – عدى» للبلاط الفرعونى[٢] ، ويبدو ان «عزيرو» قد اتفق مع الحثيين على اقسام البلاد السورية ، ولكن قام بذلك بدهاء اذ استطاع أن يخدع البلاط المصرى فى ولائه حيث ذهب بنفسه الى مصر مؤكدا خضوعه ولكن لما عاد الى بلاده استمر فى تعاونه مع الملك الحثى «شبوليوليوما» ونجح الطرفان فى زعزعة أسس الامبراطورية المصرية فى سورية بحيث اضطرت مصر على التخلى عن سورية الشمالية وعن بلاد فينيقية ، وثبت الحثيون فتحهم لشمالى سورية وسورية الوسطى .

الكنعانيون والفينيقيون :-

لقد سبق أن نوهنا بالصلة القريبة بين الاموريين وبين الكنعانيين[٣] أو

(١) انظر الرسالتين رقم ٧٥ ، و٨٥ فى المرجع السابق .

(٢) انظر الرسالة رقم ١٠٩ .

(٣) لا يعلم بوجه التاكيد أصل اسم الكنعانيين ، فكان يظن ان اسم «كنعان» من كلمة سامية تعنى الشىء الواطىء أى الارض الواطئة بالاشارة الى موطنهم فى الساحل (من جذر «كنع» و «خنع») بالمقابلة مع الاراضى الجبلية العالية المحاذية لموطنهم ، ولكن رأى الباحثين حديثا يميل الى اشتقاق اسم «كنعان» من أصل غير سامى ، حيث يرون اشتقاقه من كلمة «حورية» تعنى الصبغ القرمزى ، اذ يبدو ان هذا الاقليم اشتهر بصناعة هذا الصبغ لما =

الفينيقيين كما سماهم اليونان بعدئذ ، حيث قلنا انهم على ما يرجح من قبيلة سامية كبرى واحدة نزحت الى ديار الشام في هجرة واحدة ، ويفسر لنا ذلك ما لاحظناه من التشابه اللغوى والقومى بين الاموريين والكنعانيين بحيث يصح عد اللغتين الامورية والكنعانية لهجتين من فروع كتلة اللغات السامية الغربية (أى اللغات السامية فى سورية)[١] ، والاختلافات الموجودة بين القومين ناشئة بالدرجة الاولى من استيطان كل منهما فى قسم خاص من بلاد الشام حيث التأثيرات الثقافية الاجنبية التى أثرت فى كل منهما وهو فى هذا الموطن الخاص به • فالاموريون تمركزوا أولا فى شمالى سورية ، وكان أكثر تأثرهم الثقافى من حضارة وادى الرافدين ، وقد دخلت فيهم عناصر من السومريين والحوريين ، أما الكنعانيون فان حقيقة كونهم استوطنوا السواحل بالدرجة الاولى جعلتهم يتأثرون من الناحية الثقافية بحضارة مصر بالدرجة الاولى ، كما ان عناصر محلية أخرى كانت موجودة قد دخلت معهم وهم فى موطنهم هذا •

وكان اسم بلاد كنعان يطلق فى مبدأ الامر على الساحل والقسم الغربى

= اتصل الحوريون ببلاد سورية فى القرن الثامن عشر أو السابع عشر ق•م• ومن الاصل الحورى لاسم كنعان جاءتنا الصيغ المشهورة فى البابلية مثل «كنخنى» والكلمة الورادة فى رسائل تل العمارنة « كنخى » ، والكلمة الفينيقية «كينع» والعبرانية كنعان وكذلك يقال فى اسم «فينيقية» (Phoinix) حيث ارتؤى اشتقاقه من الكلمة اليونانية التى تعنى القرمز أو الارجوان وتشير الى صناعة الاصباغ القرمزية التى اشتهر بها الساحل • أنظر

(Hitti, **Op. Cit.**, P. 79; Albright in **Studies in the History of Culture** (1942) P. 25; **Classical Philology**, XXXVI (1941), 1 ff.

وصارت كلمة «فينيقى» تستعمل مرادفة لكلمة «كنعانى» منذ القرن الثانى عشر ق • م •

(١) بالاحرى اللغات السامية الشمالية الغربية تمييزا لها عن فرع آخر من اللغات السامية الغربية يمكن تسميته بالفرع الشمالى ، وهى اللهجات العربية الشمالية أما اللغات العربية الجنوبية فتصنف مع كتلة اللغات السامية الشرقية (أى مع الاكدية والبابلية والآشورية) •

من فلسطين ، ولكنه عم استعماله بعدئذ وشمل قسما كبيرا من سورية وأطلق على كل فلسطين أيضا ، كما نجد ذلك في الاقسام القديمة من التوراة حيث اطلقت صفة كنعاني على جميع سكان فلسطين بدون تمييز عرقي ، وكذلك سميت اللهجات السامية في فلسطين • وتدل أسماء كثير من المواضع في فلسطين وفي لبنان على قدم استيطان الكنعانيين في هذا الجزء من البلاد الشامية ، حيث تشير أسماء مثل هذه المدن الى أصلها الكنعاني • ومن الامثلة على ذلك مدينة «اريحا» (Jericho) التي يعني اسمها الكنعاني «يريحو» مدينة القمر ، ومدينة «بيسان» (بت ـ شان ، أي بيت الاله شان) ، و «مجدو» أو «مجدون»[1] ، وقد أبانت التحريات الآثارية الحديثة ان هذه المدن الكنعانية قد أسست في حدود منتصف الالف الثالث ق•م• وهناك أسماء مدن سامية أخرى يرجع أصلها الكنعاني ، وقد وردت أسماؤها في النقوش الكتابية في منتصف الالف الثاني مثل «عكا»[2] ، وصور[3] وصيدا[4] وجبيل (جبلا) •

وما قلناه عن الظروف التأريخية التي أحاطت بالاموريين من وجودهم بين حضارتين معظمتين (حضارة وادي النيل ووادي الرافدين) مما عرقل تكوين دول معظمة في بلاد الشام ينطبق أيضا على الكنعانيين والفينيقيين ، بالاضافة الى قربهم من دولة معظمة أخرى هي الدولة الحثية • والى ذلك فان الآشوريين بدأوا في انماء قوتهم السياسية وأخذهم مكان الامبراطورية المصرية في بلاد الشام ، وسنجد ان الآراميين من بين الاقوام السامية الاخرى قد تعرضوا الى أعظم

---

(١) من جذر جد ، وجد أي قطع ، ويعرف موضعها الآن باسم «تل المتسلم» •

(٢) «عكو» ، التي تعني الرمال الحارة ، وسميت باليونانية باسم (Ptolemais)

(٣) (Tyre) ، من « سور » أو « صور » اي صخر •

(٤) صيدون من الصيد (أي صيد السمك) واسم الاله «صيدون» الكنعاني ـ الفينيقي •

الضغط والتدمير من الدولة الآشورية . وبالنظر الى مثل هذه الظروف التاريخية فان الكنعانيين لم يتح لهم تكوين دولة كبيرة موحدة ، وانما كانوا منقسمين الى وحدات أو دويلات صغيرة على غرار دول المدن حيث مركز الدويلة مدينة مهمة محصنة ذات قلاع وحصون لدفع غائلة الهجوم . ولكن لم تسلم مثل هذه المدن ودويلاتها من أن تكون فريسة للغزو من الخارج ، ومما سهل ذلك انها لم تكن متحدة بل كانت في نزاع وحروب فيما بينها في الغالب . وكانت المستوطنات الكنعانية في مبدأ أمرها منتشرة في طوال الساحل من جبل الاقرع (كاسيوس) الى جبل الكرمل جنوبا ، ثم اضطرت هذه المستوطنات الى التمركز بعدئذ في سفوح جبال لبنان للاستفادة من حماية هذه الجبال الطبيعية من خلفهم أكثر مما كان يمتاز به جبل الكرمل أو جبل الاقرع وجبال امانوس في الشمال . وهكذا نشأت أهم المدن الكنعانية الدائمية في سفوح لبنان مثل «طرابلس»[١] و «بتروناه»[٢] ، وجبيل و «بيروت»[٣] وصيدا و صور و «عرقه»[٤] وفي الجنوب غزة[٥] وعسقلان (عسقلون القديمة) في الساحل وهناك مدن أخرى في الأرض الداخلية مثل «جزير»[٦] (جازر) و «مجدو»

---

(١) هذا هو اسم المدينة اليوناني (Tripolis) (أي المدن الثلاث) ، ولا يعرف اسم المدينة بالفينيقية .

(٢) وهي البترون الآن واسمها باليونانية «بوتريس» (Botrys)

(٣) وقد وردت في رسائل العمارنة بهيئة «بيروتا» ، والصيغة المصرية « بئروتا » و « بيروث » بالسامية جمع بئر .

(٤) وهكذا تعرف الآن وهي مدينة قريبة من طرابلس (نحو ١٢ ميلا الى الشمال الشرقي منها) وذكرت في المصادر الكلاسيكية باسم «اركا» (Arka)

(٥) غزة ترادف الكلمة العربية «عزة» أي القوة والمنعة . وتعرف خرائب المدينة القديمة الآن باسم تل «العجول» بفتح العين وتشديد الجيم .

(٦) وتعرف الآن باسم تل الجزر جنوب شرقي الرملة ، وقد وجدت فيها في التنقيبات الحديثة آثار عصور ما قبل التاريخ
(R. A. Macalister, **The Excavations of Gezer,** 3 vols. (1912).

واورشليم[١] وغيرها •

وكان كل من هذه المدن وغيرها نواة لمستوطن على هيئة دويلة صغيرة أشبه ما يكون بالوضع السياسى فى بلاد اليونان ، ولكن مما خفف عزلة هذه الدويلات بعضها عن بعضها وعدم تكوينها وحدة سياسية كبرى انه كانت تنشأ فيما بينها بين الحين والحين اتحادات أو جامعة دويلات موقتة اما بسبب اتفاق مصالحها أو بسبب اخطار تهددها ، فكانت احداها تتزعم مثل هذه الاتحادات ، كما حدث لمدينة «اوغاريت» فى أواخر القرن السادس عشر ق • م وجبيل فى القرن الرابع عشر وصيدا فى مطلع القرن الحادى عشر ثم خلفتها صور وصارت أقوى الدويلات ولا سيما فى عهد ملكها الشهير حيرام • ومن الامثلة على نشوء الاحلاف لدرء خطر الغزو الخارجى الحلف العسكرى الشهير بزعامة «قادش» على العاصى ، وهو الحلف الذى سحقه الفرعون المصرى طوطمس الثالث فى موقعة مجدو الشهيرة (١٤٧٩ ق • م) ، وقد استفاد الكنعانيون من العربة والخيول التى أدخلها الهكسوس[٢] فى أثناء اقامتهم فى سورية فى حدود القرن الثامن عشر ق • م ، وقد شملت ثقافة

---

(١) اسم المدينة من أصل كنعانى من «يرو ــ شالم» أو «يرو ــ شلم» ، و «شالم» أو «شلم» اسم اله كنعانى معنى اسمه السلام ، ونجده يدخل فى أسماء أعلام عبرانية مهمة مثل «ابشالوم» (أى أبو السلام وهو ابن داود) ، وسليمان أيضا ، وهناك اسم اله آشورى هو « شلمانو » نجده يدخل فى أسماء أعلام مهمة مثل «شيلمنصر» «شلمانو اشاريدو» •

(٢) انظر الكلام على الهكسوس فى تاريخ مصر ، ونذكر هنا بمناسبة استيطانهم فى سورية ان آثارهم وجدت فى جملة مواضع مثل «قطنا» التى يرجح انها كانت عاصمتهم (وهى كما قلنا تعرف خرائبها الآن باسم المشرفية شمال شرقى حمص) وفى مواضع فى فلسطين مثل «شكيم» (وتعرف الآن باسم البلاطة قريبا من نابلس) وفى « لخيش » (تل الدوير الآن) وشاروهين واريحا وكانت حصنا مهما للهكسوس ، واشتهرت مواضع الهكسوس فى سورية بشكل حصون محاطة بخنادق المياه ، كما انهم فرضوا الحكم الاقطاعى على سورية ، حيث كانوا طبقة حاكمة مؤلفة من نبلائهم وصفوة من المحاربين بالعربات الحربية •

الهكسوس فى سورية القرنين الثامن عشر والسابع عشر ق ٠ م ، ومن سورية بدأ الهكسوس يتغلغلون الى مصر ثم غزوها ومكثوا فيها فى حدود ١٧٣٠ ق ٠ م ٠

ومن المدن الشهيرة التى تستحق التنويه بها بوجه خاص ، جملة مدن ساحلية مثل صور وصيدا وارواد (ارادوس) ، عرفت بمآثرها الحافلة فى التاريخ وبتحصيناتها الطريفة ، فقد كانت محصنة بسورين ، كما انها كانت كل منها عبارة عن مدينتين : مدينة فى الساحل ، حيث يستوطن فيها الناس لاداء شؤونهم الاعتيادية كالتجارة والزراعة ، والاخرى فى جزيرة قريبة ملاصقة يعتصم بها السكان فى أثناء الغزوات والاخطار الآتية من المجازات الجبلية ٠ ويتجلى ذلك فى المدن الثلاث التى عددناها حيث لا تزال آثار المدينة الساحلية التابعة لارواد[١] وبقربها الجزيرة الصغيرة التى كانت ذات أبنية شاهقة مؤلفة من عدة طوابق ، واشتهرت مثل هذه الجزر بمهارة أهاليها فى طرق جمع مياه الشرب من الامطار التى تجمع مياهها من السطوح فى أحواض خاصة، ثم زيادة هذا المصدر باستخراج الماء من بعض الينابيع تحت الارض[٢] فى الجزيرة ٠ وكانت صور أيضا على شاكلة «ارواد» كما ذكر المؤرخ «سترابون»[٢] ٠ ولما ان حاصر الاسكندر الكبير المدينة بنى رصيفا من الساحل الى الجزيرة طوله نحو نصف ميل ، وقد أظهرت التحريات الحديثة فى المدينة الكائنة فى الجزيرة حيث جرى التحرى فى البحر وما أخذ لها من الصور الفتوغرافية من الجو ان الميناء الرئيسى كان فى الطرف الجنوبى من الجزيرة ، وانه كان للمدينة سد عظيم يحميها (هو الآن تحت السطح بنحو ٥٠ قدما)

---

(١) وتسمى خرائبها الآن طرطوس شمال «عمريت» حيث خرائب المعبد والمقابر لا تزال تشاهد ، وسماها الصليبيون « توتوسا » ٠

(٢) انظر وصف ذلك الوارد فى «سترابون» (Strabo, Bk. XVI, ch. 2)
المعبد والمقابر لا تزال تشاهد ، وسماها الصليبيون « توتوسا » ٠

كان طوله زهاء ٧٥٠ مترا وثخنه نحو (٨) أمتار ، وكان لها أسوار ضخمة وحصنان عظيمان في كل طرف[1] ، والمأثور ان الملك «حيرام» الشهير المعاصر لسليمان هو الذي جعل صورا في عهده امنع وأقوى ميناء بحري في ساحل البحر المتوسط ، وكون لها امبراطورية تجارية واسعة • وكان «حيرام» المذكور على صلات حسنة مع الملك العبراني سليمان (أوائل القرن التاسع ق • م) وتاجر معه حيث ساعده في بناء معبد الهيكل في القدس مقابل ما دفع الملك العبراني من الذهب والفضة والحبوب • ونشأت بين الفينيقيين والآشوريين علاقات واسعة ، وكانت بلاد فينيقية تتقي شر الآشوريين بدفع الهدايا والجزية ، فاستفاد الفينيقيون من ذلك في استمرار تجارتهم، ولكن أحد ملوك الآشوريين وهو شيلمنصر الثالث (القرن التاسع ق • م) أراد بسط الحماية الآشورية على بلاد الفينيقيين فهاجم بلادهم واستولى على كثير من مدنهم • وفي عهد الامبراطورية الآشورية الثانية تحسنت العلاقات نوعا ما مع الفينيقيين حيث ساعد هؤلاء الملك الآشوري «اسرحدون» على غزو مصر بان أمدوه بالسفن والرجال والمال • وظل الفينيقيون في ازدهارهم وصلاتهم الحسنة مع الدولة المعظمة التي قامت في الشرق من بعد البابليين مثل الفرس الاخمينيين • واشتهرت صور بانها تحدت الاسكندر الكبير في فتوحه للشرق ، ولم يستطع أخذها الا بعد حصار دام زهاء عشر سنوات •

الحيـــاة الاقتصـــادية :ـ

واذا لم تستطع الدويلات الكنعانيــة ـ الفينيقية أن تكون دولا كبيرة تشتهر بالفتح والغزو فان الكنعانيين وجهوا همهم الى تنميـــة نواحي الحياة الاخرى كالزراعة والصناعات المهمة والتجارة الخارجية واقامة المستعمرات التجارية خارج موطنهم على ما سنبين فيما بعد • وكانت الزراعة والصيد (ولا سيما صيد الاسماك) والتجارة الخارجية أسس الحياة الاقتصادية عند المجتمعات الكنعانية ، ومع ان الرقاع القابلة للزراعة غير واسعة الا انهم استغلوا كل بقعة

(١) انظر «حتي» ذات المصدر الص ٨٤ والمصدر المشار اليه •
(A. Poidebard, **Un Grand Port disparu : Tyre** (Paris, 1939).

فى الجبال مهما صغرت ، حتى انهم غرسوا شرفات الجبل بالأشجار المثمرة ، كالكروم والتين والرمان والتفاح • واستغلوا كذلك زراعة أشجار الزيتون • وكان الفلاحون يكونون الطبقات الدنيا فى المجتمع ، والصناع والتجار الصغار الطبقة الوسطى فى المدن الكنعانية بالمقارنة مع ملاك الارض الكبار الاقطاعيين•

ومن الصناعات المهمة التى اشتهر بها الصناع الكنعانيون والفينيقيون صنع الفخار الذى بلغ طورا عاليا من الاتقان من منتصف الالف الثانى ق•م، واستعار الفخارون الكنعانيون دولاب الخزاف من بلاد ما بين النهرين ، كما تأثرت صناعة الفخار السورية منذ ١٥٠٠ ق • م بقبرص ومسين من البلاد الايجية • وعرفوا تعدين النحاس والبرونز منذ بداية الالف الثانى ق • م ، وبدأوا يستعملون الحديد بكثرة منذ الالف الاول ق • م ، وقد ساعدتهم أسفارهم التجارية البعيدة للحصول على المعادن كالقصدير لصنع البرونز والبحث عن الذهب والفضة ، وترقى فن الصياغة عندهم فى القرن السادس عشر ق • م ، وقد مدح هوميروس الشهير المعدنين الفينيقيين (فى الالياذة الشهيرة)• واشتهر الفينيقيون بصناعة العاج النفيسة حيث صنعوا من العاج والعظم أدوات جميلة • وقد جاءتنا أقدم آثار عاجية من القرن الرابع عشر ق • م ، وكثرت هذه الصناعة واشتهرت فى جميع أنحاء العالم المعروف كما فى الامشاط التى كانت تصدر الى انحاء بعيدة ، الى اسبانية مثلا •

وبرع الكنعانيون والفينيقيون فى صناعة الزجاج ، حتى انه يؤثر انهم هم الذين أوجدوا هذه الصناعة[1] ، ولكن الثابت تأريخيا ان المصريين القدماء عرفوا صناعة الزجاج قبل الفينيقيين (منذ القرن الثامن عشر ق • م) ، ونذكر من الصناعات الوطنية المهمة أيضا ، صناعة النسيج مثل نسيج الاقمشة الصوفية

---

(١) لعل منشأ ذلك من رواية المؤرخ الطبيعى الشهير «بلينى» الذى يروى ان جماعة من التجار كانوا يطبخون بالقرب من عكا واستعملوا (اثافى تحت القدور) قطعا من النطرون الذى كان محملا فى سفنهم ، فاكتشفوا وجود حجارة شفافة بسبب اختلاط النطرون بالرمل وانصهاره •

(Pliny, **Natural History,** Bk. XXVI, ch. 65).

منذ منتصف الالف الثاني ق • م ، وعرفت المنسوجات القطنية في الازمان المتأخرة ، وقد رأينا كيف ان الملك الآشوري «سنحاريب» قد أدخل زراعة (الاشجار التي تحمل الصوف) الى العراق • ويبدو ان صناعة المنسوجات القطنية قد انتقلت من سورية الى اليونان في العهود الهلنستية ومعها اسم القطن من اللغات السامية • والمرجح ان نسيج الكتان كان معروفا أيضا في القرن العاشر ق•م ، كما ترجع معرفة الحرير في صور في القرن السادس ق• م• ومن الصناعات المهمة التي نوهنا بها سابقا بالنسبة الى علاقتها باسم (كنعان وفينيقية) ،صناعة الاصباغ ولا سيما القرمز والارجوان ، وقد وردت الكلمة الاخيرة (ارجمن) في كتابات اوغاريت القديمة (رأس الشمرة)[١] ، حيث تكثر في السواحل الفينيقية أنواع المحار التي يستخرج منها صبغ الارجوان[٢] واشتهرت صور بهذه الصناعة شهرة واسعة[٣] حيث يوجد قرب صور وصيدا نوع ممتاز من المحار الخاص بصبغ الارجوان ، كما انها كانت تستورد كميات أخرى من قرطاجة وتونس ، وكان هذا الصبغ غاليا جدا لان طريقة استخراجه معقدة تتطلب الدقة وبذل الجهود • وبالاضافة الى الارجوان اشتهر الفينيقيون بصناعة صبغ القرمز (Crimson) المستخرج عادة من

---

(١) انظر Journal Asiatique CCXXX (1938), 146.

وفي الكتابات الآشورية ذكر الصبغ بهيئة «ارجمانو» (بلفظ الجيم كافا فارسية) وبالعبرية (ارجامان) •

(٢) واسمها العلمي (Murex Trunculus)

واستعملت أقوام أخرى مثل الايجيين واليونان لاستخراج هذا الصبغ الخاص بعض الحيوانات المفصلية وتروى لنا الاساطير اليونانية ان هيلين الطروادية حينما كانت في الاسر كانت مرة تتمشى في الساحل وكان يصاحبها كلبها ، تشاهدت ان هذا قد اصطبغ فمه بلون جميل أحمر بسبب أكله محارة خاصة بذلك الصبغ ، فاعجبت باللون حتى أنها اشترطت على كل خاطب لها أن يقدم لها رداء مصبوغا بالارجوان قبل أن تجيبه على طلبه •

(٣) قارن الصفة الانجليزية (Tyrian Purple) • حول الروايات المختلفة عن صنع صبغ الارجوان وتاريخ الصناعة في العهود المتأخرة انظر : (Hitti, **Op. Cit.**, 94 ff.)

حشرات خاصة فى أشجار السنديان أو البلوط (Oak) [١] .

وسننوه بوجه خاص فى صناعة بناء السفن التى اشتهر بها الفينيقيون شهرة واسعة عند كلامنا على أسفارهم البحرية وتأسيسهم المستوطنات التجارية فى الخـارج .

الاسـفار البحرية :ـ

اشتهر الفينيقيون بالملاحة العالمية ، ولعلهم كانوا أعظم الاقوام القديمة فى هذا الشأن[٢] . فقد وجد فينيقيو السـاحل اللبنانى الضيق أنفسهم فى شقة ضيقة من الارض ، أمامهم البحر ووراءهم جبال لبنان الحاجزة لهم نوعا ما من الاتصال بالداخل ، ولكن هذه الجبال زودتهم بأنواع قوية جيدة من الخشب ، فاستجابوا لهذه الاوضاع الناشئة من بيئتهم مستغلين امكانياتها بأن صنعوا السفن وعولوا على الملاحة أولا بمقياس صغير فى صيد الاسـماك وتصريف بضائعهم فى المواطن القريبة فى سواحل البحر المتوسط الشرقية ، ولكن سرعان ما تطورت خبرتهم فى الملاحة البحرية فوسعوا من مقياس بناء السفن وامتدوا فى أسفارهم البحرية البعيدة ، موغلين فى البحر المحيط ، حتى انهم احتكروا أشهر الطرق البحرية الموصلة بين أقسام العالم المعروف آنذاك ، واليهم يرجع الفضل فى الكشف عن مجاهل المحيط الاطلنطيقى ، وأسدوا خدمة جلى فى نشر حضارات الشرق القديم ونشر ثقافاتهم الخاصة الى عوالم نائية مظلمة لم تكن قد أشرقت عليها أنوار المدنية . كما انهم أخذوا من نهاية القرن الثالث عشر أو الثانى عشر ينشئون لهم مستعمرات ومستوطنات تجارية سنذكر أشهرها فيما بعد . وكانت أشهر الطرق البحرية وأول طريق

---

(١) أنظر بحث المؤلف فى نباتات العراق القديم فى مجلة سـومر ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣ .

(٢) السبب فى وضع هذه الحقيقة بقيد الاحتمال ترجيح استثناء أهل جزر بحر ايجة (وهم أهل الحضارة المينية) الذين اشتهروا بالملاحة حتى ان اليونان سموا مملكة مينوس فى كريت بالمملكة البحرية . كما أن هناك احتمالا باتصال الفينيقيين بالايجيين وأخذهم عنهم بعض عناصر الحضارة ، ولا سيما فن الملاحة . وتعلموا كذلك من حضارة مصر القديمة .

مهم بين مدينة «جبيل» وبين «مصر» ، وكان هذا الطريق قد بدأ به الملاحون المصريون وكانت جبيل مركزا مصريا مهمـــا للتجـارة والملاحة[١] • ومن الطرق البحرية المشهورة التى طرقها الملاحون الفينيقيون بعد طريق «جبيل ـ مصر» الطريـق الذى كان يربط أيضـا صورا وصيدا بمصر وبقبرص الى الشـــمال ، وكان ينعطف غربا من قرب خليج طوروس ويمر من ليقيـة (Lycia) ثم يمر من جنوب رودس ومن كريت وقورسيرا[٢] الى صقلية، ثم من الجزيرة «قورسيرا» الى المستعمرات الفينيقية فى شمالى أفريقية ، ومن هنا غربا الى مستعمراتهم فى اسبانية ، لان الفينيقيين احتكروا ملاحة البحر المتوسط وتجارته بحيث يصح القول انه كان بحرهم الخاص قبل ان يدعيـه الرومان فى العصور المتأخرة • وبالاضافة الى ما نوهنا به من خدمتهم فى نشر الحضـــارة فانهم أسدوا خدمات جليلة الى فن الملاحة البحرية وأصولهـا ومبادئها ، فاليهم تعزى الاستفادة من النجم القطبى فى تعيين الاتجاه فى السير، ومهروا فى الملاحة الليلية على هدى النجوم • وقد سمى اليونان النجم القطبى باسم الفينيقيين • كما يجب أن نذكر لهم فضلا آخر هو كونهم أقدم كاشفين جغرافيين فى البحر ، فمن أعمالهم العظمى فى الملاحة البحرية ابحارهم حول سواحل افريقية سابقين البرتغاليين بهذه المأثرة من الكشوف الجغرافية بأكثر من ألفى عام • والذى وجه الملاحين الفينيقيين وساعدهم فى انجاز ذلك العمل الباهر أحد فراعنة مصر من السـلالات المتأخرة (وهو ينخو ٦٠٩ ـ ٥٩٣ ق • م من السلالة السادسة والعشرين) الذى أعاد حفر القنال القديم الذى يربط الفرع الشرقى للنيل بالبحر الاحمر[٣] ، وقد استغرق طوافهم حول القارة زهاء عامين • ويروى لنا هيرودوتس بهذه المناسبة رواية طريفة يقول

---

(١) انظر ذلك فى تاريخ مصر ،

(٢) (Corcyra) وتســمى حديثـــا بنتليريا (Pantelleria) وهى «قوصرة» الواردة فى كتب البلدانيين العرب •

(٣) Hitti, **Op. Cit.**, 100.

فيها عن الفينيقيين بأن البعض يعتقد انهم بأبحارهم حول ليبية (أى افريقية) كانت الشمس على يمينهم ، ولكن شيخ المؤرخين لا يصدق بذلك ، مع ان الذى أنكره من هذه الحقيقة يثبت فى الواقع حجة الرواية ، لان السفن عندما تبحر غربا حول رأس الرجاء الصالح فان شمس النصف الجنوبى من الكرة الارضية تكون على يمينهم •

هذا وقد جاءتنا نماذج من صور السفن الفينيقية من حدود ١٤٠٠ ق•م وهى مصورة فى المآثر المصرية[١] ، وكانت أقدم سفنهم تسير بالمجاذيف والاشرعة كما وردت الينا نماذج أخرى من سفنهم وهو مصورة فى المنحوتات الآشورية وبوجه خاص فى منحوتات قصر سنحاريب (فى حدود ٧٠٠ ق•م) وفى مقدمها عمود من الحديد (ram) مدبب حاد لاستعماله فى الهجوم ، وكان بعض هذه السفن ذات طابقين ، ويعزى الى الملاحين الفينيقيين استعمال صفين أو أكثر من المجاذيف والجاذفين ، أحدهما فوق الآخر • وقد يصل عدد المجاذيف فى العهود المتأخرة زهاء ٥٠ مجذافا ، أما الطابق العلوى فخصص لركوب المسافرين • وبمناسبة كلامنا على صور السفن الفينيقية فى المنحوتات الآشورية نذكر ما اشتهر به الفينيقيون من أنهم كانوا يقومون بصنع السفن والاساطيل لحساب الدول والاقوام الاخرى، كما كانوا يساعدون حلفاءهم أيضا من الدول الكبرى فى الغزوات البحرية ، ونذكر للامثلة على ذلك تجهيز الملك حيرام ، ملك صور ، صديقه وحليفه سليمان بالسفن[٢] ، وقاموا بمثل ذلك للملك الآشورى سنحاريب فى غزوه البحرى لبلاد عيلام •

والى الطرق البحرية كانت للفينيقيين محطات برية أيضا لانماء تجارتهم ومن أشهر هذه المراكز التجارية الاديسة (الرها) ، ولعله «نصيبين» أيضا ،

---

(١) حول وصف هذه السفن وصورها انظر ذات المصدر (رقم ٣ ، ص ٣٤٩) الص ٩٩ فما بعد •

(٢) التوراة ، سفر الملوك الاول ٩ : ٢٧

ويقال انه كانت لهم مواضع فى خليج فارس تربطه والبحر الهندى بالبحر المتوسط • ومما يجدر ذكره بهذا الصدد ان مآثر الفينيقيين ترجع أصلهم الى سواحل خليج فارس حيث تروى انه كانت لهم مدن أسماء بعضها أرواد وصور وصيدا قبل استيطانهم فى ساحل البحر المتوسط السورى[١] •

اشهر مستوطناتهم ومستعمراتهم فى الخارج :ـ

ومن مظاهر نشاطهم التجارى ومهارتهم فى الملاحة البحرية تأسيسهم المستعمرات المهمة خارج بلادهم ، وقد بلغ بعضها مركزا مهما مشهورا فى التأريخ ، واتبعوا أساليب ناجحة فى اقامتهم مثل تلك المستعمرات • فبالنظر الى ضيق رقعة موطنهم الاصلى واتساع تجارتهم الخارجية كانوا يحتاجون الى مراكز فى أنحاء سواحل البحر المتوسط لتسهيل شؤون تلك التجارة ، وكانوا يقيمون مثل هذه المستعمرات أولا بمقياس صغير على هيئة مركز تجارى أو صناعى ويذهبون لاعماره بهيئة جماعة قليلة فلا يثيرون الشبهات حولهم ولا عداء المواضع التى يحلون فيها ، كما انهم لم يفرضوا سلطانهم السياسى ، وامتازوا بقابلية التكيف الى العادات والاوضاع الجديدة على نحو ما يفعل المهاجرون اللبنانيون فى الازمان الحديثة،[٢] فيصيبون النجاح والفلاح • ثم تنمو مثل هذه المراكز التجارية والصناعية وترتبط بعضها ببعض ، وتتحول الجماعة التجارية الى مستوطن تام دائم مرتبط بالتجارة البحرية بالبلد الاصلى • والمعتقد ان مستعمراتهم فى شرقى البحر المتوسط ، وأشهرها قبرص ، كانت أقدم من مستعمراتهم الاخرى فى وسط هذا البحر مثل صقلية وسردينية التى يرجع عهدها الى حدود منتصف القرن الحادى عشر ق • م ، ثم تلى هذه المستعمرات فى القدم مستوطناتهم فى شمال غربى افريقية وأسبانية •

---

(١) انظر Hitti, **ibid.**, 100; Strabo, Bk. XVI, ch. 3

(٢) انظر (Hitti, **Op. Cit.**, 102)

ويرجح كثيرا ان تونس فى أقليم تونس الآن (واسمها القديم عوتيقا)[١] وقادس[٢] فى اسبانية قد تأسستا فى حدود (١٠٠٠) ق • م ، ويليهما المدينة الشهيرة قرطاجة[١] ، هذا وان النقوش الفينيقية المكتشفة في سردينية وقبرص لا يمتد عهدها الى ما قبل القرن التاسع ق • م ، وأشهر هذه النقوش نقش الاله «بعل لبنان» الذى وجد فى قبرص ويرجع عهده الى منتصف القرن الثامن ق • م • فيبدو ان أعظم دور فى نشاط الفينيقين فى اقامة مستعمراتهم فى غربى البحر المتوسط كان بين منتصف القرن العاشر ومنتصف القرن الثامن ق • م •

وقد سبق أن نوهنا بالاكتشاف الخطير الذى حققه الفينيقيون فى الملاحة البحرية ذلك هو ملاحتهم فى المحيط الاطلسى ،فان انشاءهم لمركزهم المهم فى قادس فيما وراء أعمدة هرقل (المقابل لجبل طارق) قد جعلهم يكتشفون ذلك الاوقيانوس[٣] الذى سماه العرب ببحر الظلمات ، وعنهم تعرف اليونان بذلك البحر • ولا يعلم الى أى مدى تغلغل الفينيقيون فى هذا المحيط الواسع، ويرى بعض الباحثين انهم وصلوا الى انكلترة (اقليم كورنوال) بحثا عن القصدير • ولا يقر هيرودوتس انهم وصلوا الى جزائر القصدير[٤] القريبة من «كورنوال» ، وهى الجزائر التى يقول عنها ذلك المؤرخ انها مصدر قصدير

---

(١) (Utica) أى المدينة «العتيقة» تمييزا لها عن قرطاجة (قرت حدشت) أى القرية الحديثة التى تأسست من بعد تونس فى حدود ٨٥٠ق٠م

(٢) اسم قادس مشتق من كلمة فينيقية تعنى الجدار ، ومنها اسم المدينة بالبربرية «اجادير» ، و «اغادير» من الجدار •

(٣) لا يعلم مدى صحة الآراء التى ساقها بعض الباحثين من أن الكلمة الاغريقية «اوقيانوس» (Okeanos) ومنه الكلمة الانجليزية (Ocean) مشتقة من الكلمة السامية «عوج» (بلفظ الجيم كافا فارسية) التى تعنى «الدائرة» ، أى الشيء المحيط كالدائرة (انظر المراجع المذكورة فى (Hitti, **Op. Cit.**, 103)

(٤) كاستيراديز (Cassiterides) ، (من الكلمة اليونانية للقصدير (Kassiteros) ومنه الكلمة العربية قصدير •

اليونان • أما المؤرخ «سترابون» (أواخر القرن الاول ق • م) فيرى عكس ذلك من ان الفينيقيين احتكروا تلك التجارة فى الازمان القديمة من قادس ، وكانوا يخفون طريق الوصول اليها عن كل أحد• ومهما كان الحال فالمعروف ، كما يروى المؤرخ «ديودوروس الصقلى»[١] ، ان القصدير كان يحمل من بريطانية الى سواحل فرنسة ومن ثم الى مرسيلية[٢] ، وقد عثر على نقش فينيقى فى بريطانية هو الوحيد من نوعه • وتعليل وجوده على الارجح انه جلبه أحد الجنود أو العمال الرومان بعد استعمارهم لانكلترة واحتلالهم قرطاجة أيضا[٣] • ووجد أحد المنقبين فى غزة قرطا ذهبيا يعتقد المنقب الذى عثر عليه ان أصله من ايرلندة وتاريخه من حدود ١٤٥٠ ق • م[٤] •

وهناك أسماء عدة مواضع فى اسبانية أصلها من الفينيقية مؤيدة ما سبق أن ذكرناه عن المستعمرات التى أقامها الفينيقيون فى اسبانية كما توجد أيضا أسماءمواضع فى بلاداليونان أصلها من السامية حيث تقترن بها عدة أساطيرمتعلقة بالفينيقيين مما يدل على مدى الانتشار الذى حققه الفينيقيون من الناحية التجارية والثقافية[٥] •

---

(١) (Diodorus Siculus) الذى عاش فى القرن الاول للميلاد

(٢) واسمها القديم مسيليا (Massilia) وكانت مستعمرة يونانية ، ولعلها تقوم على موضع مستعمرة فينيقية أقدم منها (Hitti, **Op. Cit.,** 104)

(٣) انظر مجلة **Iraq,** VII (1940), 67 ff.

(٤) Flinders Petrie, **Ancient Gaza,** II (1932), p. 7.
المشار اليه فى (Hitti, **Op. Cit.,** 104)

(٥) حول هذه الاسماء الفينيقية فى اسبانية واليونان راجع (Hitti, **Op. Cit.,** 105, 106) أما عن الاساطير فننوه بالاسطورة اليونانية الطريفة عن الاله اليونانى الاعظم «زوس» وكيف أنه انقلب ثورا واختطف «يوروبا» العذراء الجميلة من الساحل السورى ، وكانت «يوروبا» ابنة الملك الفينيقى «اجينور» (أو فينيق (Phoenix) بحسب الالياذة) وجلبها الى كريت ، وعاد الى شكله الاصلى وتزوجها فولد من هذا الزواج الملك الكريتى الشهير «مينوس» ،وسميت قارة أوربة باسم تلك العذراء الفينيقية «يوروبا» •

قرطاجة(١) :ـ

لقد سبق أن نوهنا بهذه المدينة الفينيقية المهمة التى تأسست قرب مدينة تونس التى قلنا انها كانت أيضا من المستعمرات الفينيقية قبل زمن تأسس قرطاجة[١]،واشتهرت هذهالمدينة بالاضافة الىمركزها التجاري والبحرى بانها أصبحت قوة دولية معظمة كان لها دور مهم فى التأريخ ولا سيما فى علاقاتها مع الرومان • فانها لم يكد يمضى عليها زمن طويل حتى زاحمت وطنها الاصلى الذى بدأ يخيم عليه الخمول فى القرن الثامن ، وكان من أسباب هذا التقهقر مزاحمة المستعمرين الاغريق وضربات الآشوريين لبلاد سورية بوجه عام والمدن الفينيقية بوجه خاص • أما القرطاجيون فقد ازدهروا فى التجارة والاسفار البحرية مع الشعوب المختلفة ، ومع الاقوام الهمجية فى سواحل افريقية ، ومن طريف ما يرويه هيرودوتس عن أساليب القرطاجيين فى التجارة مع هؤلاء الاقوام ان الملاحين عندما يصلون الى سواحل افريقية الغربية يفرغون حمولة سفنهم على الساحل وينسحبون الى سفنهم ويوقدون نارا لينبهوا الاقوام الهمج على وجودهم ، ولما ان يبصر هؤلاء هذه العلامة يأتون فيضعون ذهبا مقابل البضاعة المطروحة ، وعندئذ ينزل القرطاجيون منسفنهم ويشاهدون كمية الذهب فاذا اقتنعوا بها فانهم يأخذونها ويذهبون فىطريقهم،والا انسحبوا مرة ثانية الى سفنهم تاركين الذهب والبضاعة فى محلها ، وينتظرون محاولة اخرى من القوم ، وهكذا يتم التبادل التجارى بهذه الطريقة من المعاملة الخرساء[٢] •

واتسعت قرطاجة بتجارتها وملاحتها ونفوذها بحيث انها انشأت منذ القرن السادس ق • م امبراطورية ممتدة من ليبية[٣] الى اعمدة هرقل وكانت

---

(١) هناك مستعمرة فينيقية أخرى فى اسبانية اشتق اسمها منقرطاجة (Carthage) وهى قرطاجنة (Carthegena) التى تعرف الآن بهذا الاسم أيضا فى اسبانية ، فيجب عدم الخلط بين الاسمين •

(٢) Herodotus, Bk. II, ch. 196.

(٣) طرابلس الآن (Cyrenaica)

تضم اليها جزائر «بلريك» ومالطة وسردينية وجملة مستوطنات فى الساحل الاسبانى والفرنسى ، وهكذا عوضت هذه المستعمرة الفينيقية عن وطنها الام فى صور وصيدا فى عدم قدرتهما على انشاء مملكة قوية موحدة بسبب ضغط المصريين والآشوريين •

لقد سبب هذا الاتساع التجارى البحرى والاتساع السياسى اصطدام قرطاجة مع الدولة الرومانية الناشئة حيث اخذت تنازعها على سيادتها البحرية ، وقد بلغت سيادة القرطاجيين فى البحر المتوسط وسيطرتهم عليه مبلغا بحيث ان الرومان حذروا من غسل حتى ايديهم فى مياهه بدون موافقة قرطاجة • ويقال ان الرومان قلدوا صناعة سفينة قرطاجية قد نبذت قرب سواحلهم وبنوا على شاكلتها ١٣٠ سفينة فى ستين يوما[١] وسرعان ما نشبت الحروب الطاحنة بين الطرفين التى دامت اكثر من مائة عام (٢٦٤-١٤٦ ق•م) وعرفت فى تاريخ الرومان باسم الحروب البونية (نسبة الى اسم فينيقية) • وكانت آخر الحروب بقيادة هانيبال[٢] (٢١٨ ق • م) الذى خلف اباه «هملكار» وهو شاب فأخذ يعد العدة لحرب رومة وقام بمشروع حربى خطير هو غزو ايطالية من اسبانية باجتياز الالب ، وبعد خمس عشرة سنة من حروبه فى التربة الايطالية هوجمت فى اثنائها رومة نفسها ، استدعى هانيبال الى قرطاجة حيث ارسل الرومان حملة بحرية كبرى لمهاجمتها وكانت الموقعة الشهيرة «زاما» حيث دحر فيها هانيبال (١٩٦ ق•م) ، فهرب الى صور والتحق بالملك السلوقى انطيوخس ، ملك سورية ، وانضم اليه فى حربه مع الرومان وانتحر فى عام ١٨٣ ق•م فى آسية الصغرى ، وكان من اعاظم قواد الحرب فى التاريخ • ومع رضوخ قرطاجة الى الرومان ودفعها غرامة حربية كبرى فان الرومان لم يتركوها وشأنها بل تحرشوا بها وأعلنوا

---

(١) (Hitti, **Op. Cit.**, 107)

(٢) اسم هانيبال من الفينيقية «حني-بعل» اى (فضل بعل)، ويلقب أبوه باسم هملكار برقة (من البرق والصاعقة) •

الحرب عليها مرة ثالثة ،وعلى الرغم مما أبداه القرطاجيون من بطولةوتضحية فذتين فقد دارت الدائرة عليهم ولما يئسوا من الظفر أشعلوا النار في مدينتهم ،وتمم الرومان هذا التخريب بحيث زالت مدينة قرطاجة من الوجود في عام ١٤٦ ق ٠ م ، وهكذا تفرد الرومان بزعامة البحر المتوسط ٠

شيء عن الآداب والديانة عند الكنعانيين والفينيقيين :ـ

الحروف الهجـــائية :ـ

اشتهر الفينيقيون باقتران اسمهم بالحروف الهجائية من كونهم هـم الذين يدين اليهم العالم بهذا الاختراع العظيم ٠ وبالنظر لاهمية هذا الموضوع في تاريخ الحضارات البشرية نقول شيئا موجزا عما وصل اليه البحث الحديث في أصل ذلك الاختراع ٠ ولكي يدرك القراء أهمية هذا الاختراع يلزم أن يعيدوا الى أذهانهم ما قرأوه عن خطوط الحضارات القديمة (كالخط الهيروغليفي في حضارة مصر والخطوط المسمارية في وادي الرافدين وعند الاقوام الاخرى التي اقتبست الخط المسماري) وصعوباتها الجمة كأدات للكتابة من ناحية كثرة العلامات المستعملة وصعوبة فهمها وغموضها وعدم ملائمتها الملائمة الكافية في تأدية أصوات اللغــات البشرية ، فهي مكونة من عدة مئات من العلامات الناشئة عن أصل صوري بعضها يقوم مقام الكلمات[١] ، وانها حتى في انتقالها الى الطور الصوتي لم تنتقل الى الطور الهجـائي الصرف بل استخدمت عددا كبيرا (بالنسبة الى حروف الهجاء القليلة) على هيئة مقاطـع صوتية وظلت مع هذا الانتقال تستعمل العلامات الرمزية ٠وقاربت الهيروغليفية أن تتطور الى المرحلة الهجائية حيث قلنا ان المصريين القدماء خصصوا (٢٤) علامة هيروغليفية استعملت بهيئة هجائية مقطعية ، (أي بهيئة حرف صحيح مع أي حرف علة)، كما استخدموا علامات أخرى تقوم مقام حرفين صحيحين مع أي حروف علة ٠ أما الكتابة المسمارية فقد ظلت مقطعية صرفة ٠ وبالمقابلة مع هذا الطرق الثقيلة من الكتابة اهتدى البشـر الى اختراع مبدأ الحروف الهجـائية التي

---

(١) وهو الذي سميناه بـ (ideogram) أو (logogram)

ينبغي عده من بين الاختراعات العظمى في تاريخ البشر . فأين حدث هذا الاختراع ؟ ومن هم القوم الذين اوجدوه ؟ ولنسأل اولا ما هي الحروف الهجائية بالمقابلة مع طرق الكتابة الرمزية والصوتية المقطعية ؟ والجواب على ذلك باختصار ان الحروف الهجائية علامات مصطلح عليها ، تقوم كل علامة منها للتعبير عن صوت واحد في الكلام[١] . وفي جوابنا عن اصل اختراع الحروف الهجائية سوف نقتصر على ايجاز اهم النتائج الحديثة في الموضوع[٢] دون الدخول في المناقشات الفنية المعقدة ، فنقول ان اصل حروف الهجاء لم يكن من الفينيقيين بوجه مباشر ولا تمثل اقدم حروفهم الهجائية اصل الحروف الهجائية في العالم ، وانما الذي يصح قوله في هذا الموضوع ان أصل الحروف الهجائية من كتابات الاقوام السامية الغربية (أي من سورية بوجه التحديد) أي من منطقة جغرافية تمتد من طور سيناء الى اقاصي حدود بلاد الشام شمالا وغربا . والأمر الثاني المهم حول اصل الحروف الهجائية انها كما نعرفها وهي في طور نضجها لم تنشأ دفعة واحدة وهي كاملة النضج كما اننا لا نستطيع أن نعين بوجه التحديد المنطقة الخاصة من بلاد الشام التي اخترعت فيها الحروف الهجائية لاول مرة ولا القوم الخاصين الذين يرجع اليهم فضل اختراعها . وانما وجدت انواع كثيرة من النقوش السامية الغربية المدونة

---

(١) ومن ناحية الاصل التأريخي يمثل هذا الصوت الصوت الاول للشيء المادي الذي أستعملت صورته المبسطة حرفا هجائيا فمثلا صوت الحرف (ا) هو الصوت الاول من لفظ الف (واليف ، أو «البو» ومعناه الثور في اللغات السامية حيث أخذ شكل رأسه المبسط واستعمل بهيئة حرف للالف) وصوت «ب» مأخوذ من الصوت الاول للفظ «بيت» الذي استعملت صورته المبسطة حرفا للباء وصوت (س) هو الصوت الاول من اللفظ (سن) أي السن الذي استعملت صورته حرفا للسين) وهكذا . ونذكر بهذه المناسبة انه مع ابتعاد الحروف الهجائية العربية الحالية عن أصلها الصوري فان بعض حروفها لا يزال يمثل صور الاشياء التي استعملت أصواتها الاولى حروفا ، مثل حرف السين (س) وحرف العين (ع) الخ ..

(٢) أنظر أحدث البحوث في الموضوع والاشارة الى الآراء السابقة مع بحث قيم في طرق الكتابة المختلفة عند البشر في المرجع الآتي :ـ

I. J. Gelb, **A Study of Writing. The Foundations of Grammatology** (1952).

بانواع من مجموعات العلامات التى يصح أن نعدها أصل الحروف الهجائية الصرفة الناضجة ، وقد بدأت مثل هذه النقوش تظهر منذ منتصف الالف الثانى ق. م. ونذكر فيما يأتى أشهر هـذه النقوش بالنظر لاهميتهـا فى علاقتها بأصل الحروف الهجائية : ـ

(١) النقوش المشهورة التى وجدت على الاحجار والانصاب فى شبه جزيرة طور سيناء فى الموضع المعروف باسم « سرابيط الخادم » ، وقد أرخت هذه فى حدود ١٦٠٠ ـ ١٥٠٠ ق. م. وعلل وجودها فى هـذه المنطقة انها من آثار العمال الساميين الذين كانوا يشتغلون فى مناجم سيناء[١] ، وقد كتبت هذه النقوش بعلامات محدودة العدد ، وقد استعملت بهيئة صوتية حيث تمثل كل علامة صوتا خاصا ولكن ليس الصوت الاول على الدوام أى أنها كانت أقرب ما تكون الى «الهجائية ـ المقطعية » .

(٢) ووجدت حديثا فى جملة مواضع فى فلسطين مثل « لخيش » (تل الدوير) ومجدو وشكيم (نابلس) وتل الحصى نقوش لكتابات كنعانية ـ فينيقية شبيهة بالهجائية وهى من ادوار مختلفة ولكن يرجع معظمهـا الى ما قبل العهد العبرانى واقدمها يرجع فى تاريخه مثل نقوش طور سيناء الى حدود ١٦٠٠ ـ ١٥٠٠ ق. م .

(٣) ومن الاكتشافات الآثارية الخطيرة ما وجد فى رأس الشـمرة (اوغاريت القديمة) قبل نحو ٢٤ عاما ، حيث وجد فيها جملة ألواح من الطين مكتوب بنوع غريب من العلامات المنتهية بالمسامير على غرار شـكل الخط المسمارى البابلى ، ولكنها ليست من نظام الخط المسمارى بل انها شكل من أشكال الحروف الهجائية ، وعددها ٢٩ علامة تعبر عن الاصوات السامية المألوفة فى اللغات السامية الغربية ، ويرجع تأريخها الى حدود ١٤٠٠ ق.م. أما سبب شبهها بالعلامات المسـمارية فناشىء من كتابتهـا على ألواح الطين

---

(١) انظر Gelb, **Op. Cit.**
والمرجع **الآتى** :ـ BASOR, No. 110 (1948), 1 ff.

واستعمال القلم الخاص الشبيه بالقلم المستعمل فى كتابة الخط المسمارى البابلى[١] ٠

(٤) ومن أنواع الخطوط المهمة التى كشفت حديثا خط وجد فى الكتابات التى عثر عليها فى جبيل ويرجع عهدها الى حدود ١٠٠٠ ق ٠ م ، وبعضها نقوش تعود الى الملك «احيرام» ملك جبيل ٠ وكانت هذه الطريقة من الكتابة أقرب الطرق وأنجحها فى تأدية المبدأ الهجائى وتتألف من ٢٢ حرفا ، والمرجح فيها أيضا ان منها اشتقت الكتابات السامية الهجائية الاخرى التى تمثلها الفروع الرئيسية الآتية وهى (١) الفينيقية (٢) الحروف الفلسطينية (العبرانية القديمة) (٣) الآرامية (٤) العربية الجنوبية[٢] ٠ ولكن ذلك لا يعنى بوجه التأكيد كون هذه الحروف الجبيلية التى هى أصل أنواع الحروف السامية قد اخترعت فى جبيل بوجه خاص أو حتى فى فينيقية ، بل ان ما وجد فى جبيل حتى الآن يمثل نموذجا من هذه الحروف التى هى أقرب أنواع الحروف التى ذكرناها بكونها أصل الخطوط السامية الاخرى ٠

وموجز القول كان منشأ الحروف الهجائية من بلاد الشام من الاقوام السامية التى استوطنتها ، وانها تتألف من عدد محدود من العلامات (٢٢ ـ ٣٠ علامة) تمثل أصوات اللغات السامية بحسب المبدأ الهجائى وبعضها كان صوريا وبعضها خطيا ، فكيف نشأت هذه الطريقة العظيمة فى الكتابة ؟ وهل يرجع أصلها الى الكتابة المسمارية أو الى الكتابة الهيروغليفية ؟ الواقع ان أقرب

---

(١) انظر المرجع المذكور فى ص ٢٥٨ الهامش رقم (١) والمرجع Hans Bauer, **Das Alphabet von Ras Shamra** (Halle, 1932).

(٢) واشتقت من الحروف الفينيقية الحروف الاغريقية ومنها الاتروسكية ومن هذه اللاتينية ومنها سائر الحروف الاوربية فى القرون الوسطى ٠ وتفرع عن الخط الآرامى الخط العبرانى والهندى والخطوط المختلفة فى تدمر وخط الانباط والخط السريانى ومن النبطى تفرع الخط العربى ، ومن الخط الآرامى أيضا الخط البهلوى والافستى والخط الارمينى والجورجى والصغدى والخط المندائى ، ومن فروع الخط العربى الجنوبى الخط الثمودى واللحيانى والصفوى والحبشى ٠

هذه الخطوط القديمة الى الحروف الهجائية السامية هو الخط الهيروغليفى ، فقد سبق أن ذكرنا عن هذا الخط انه خليط من الكتابة الرمزية والكتابة «الهجائية ـ المقطعية» ، اذ رأينا ان فيه ٢٤ علامة تدل على الحروف الصحيحة مقرون كل منها بأى حرف علة . فاذا كان لا بد للساميين الذين أوجدوا الحروف الهجائية من تأثرهم باحدى الطرق الكتابية فى الحضارات القديمة فان تلك الطريقة ينبغى أن تكون تلك المجموعة من العلامات الهيروغليفية المشابهة للمبدأ الهجائى . أما مدى الصلة بين هاتين الطريقتين من الكتابة وهل ان الحروف السامية الهجائية مشتقة من العلامات الهيروغليفية مباشرة أو انها أخذت الحافز منها على نحو ما يراه الباحثون فى صلة الخط الهيروغليفى نفسه بالخط المسمارى القديم ، فكل ذلك لا يمكن البت به على وجه التأكيد. وقد سبق أن ذكرنا اشتقاق الحروف الهجائية الاغريقية من الحروف السامية، عن طريق الفينيقيين على ما يرجح ، كما يقر الاغريق أنفسهم(١) ، وكما تشير الى ذلك أسماء الحروف الهجائية وترتيبها عندهم حيث احتفظ الكثير منها باسمه السامى(٢) ، وكذلك جعلت لها قيم عددية مطابقة لقيم الحروف الابجدية السامية(٢) ، وقد حسن الاغريق فى الحروف الهجائية التى استعاروها مثل اتخاذهم حروف العلة الطويلة والقصيرة وكتابتها ضمن الكلمات بخلاف الطريقة السامية بوجه عام ، حيث خصصوا بعض الحروف السامية التى يطلق عليها اسم الحروف الصحيحة الضعيفة وجعلوها حروفا للعلة(٣) . وقد كانت هذه التحسينات على درجة من الاهمية بحيث يميل بعض الباحثين

---

(١) حول هذا الموضوع الطريف راجع :ـ

(1) M. Dunand, **Byblia grammata (Beyrouth,** 1945), 189 ff.
(2) G. R. Driver, **Semitic Writing** (London, 1948) 128 ff.

(٢) I. J. Gelb, **Op. Cit.,** 176 ff.

(٣) هناك اختلاف كبير حول الزمن الذى أخذ فيه الاغريق الحروف الهجائية من الفينيقيين ولعل القرن التاسع ق . م أقرب الازمان الى الحقيقة، ويحتمل القرن الثامن أيضا . I. J. Gelb, **ibid,** 178.

الى الرأى ان نظام الحروف الهجائية الصحيحة الناضجة لم يظهر بوجه كامل صحيح الا على أيدى اليونان[١] .

وبعد هذا البحث الموجز عن أصل الحروف الهجائية ننتقل الى ذكر بعض الاشياء العامة عن مآثر الآداب الكنعانية ـ الفينيقية .

ومما لا شك فيه ان الكنعانيين والفينيقيين كتبوا بعض آدابهم بالحروف الهجائية ولكن لم يأتنا من هذه أشياء كثيرة ولعلها كتبت بالدرجة الاولى على مواد قابلة للتلف ، كما استعملوا الخط المسمارى البابلى فى بعض مواطنهم . وقد دخل جزء مهم من آدابهم فى تراث العبرانيين ولا سيما فى كتاباتهم المقدسة كأقوال الحكمة والامثال والمزامير ونشيد الانشاد وبعض الاساطير مما جاء فى سفر التكوين وسفر الانبياء[٢] .

الاكتشافات الاثرية فى اوغاريت :ـ

ومما يؤيد الرأى الذى ذكرناه عن اقتباس العبرانيين من أدب الكنعانيين والفينيقيين ما أسفرت عنه الاكتشافات الآثارية الحديثة فى أوغاريت (رأس الشمرة القريبة من اللاذقية)[٣] . وكان من بين الآثار القيمة التى وجدت

---

(١) I. J. Gelb, **ibid.**, 166.

(٢) Hitti, **Op. Cit.**, 115—116).

(٣) لقد ورد ذكر هذه المدينة مرارا حيث أظهرت التنقيبات الفرنسية فيها منذ عام (١٩٢٨ ـ ١٩٢٩) نتائج على قدر عظيم من الاهمية ، فقد كشف عن أدوار كثيرة مرت على المدينة منذ العصر الحجرى المعدنى (منذ الالف الخامس ق . م حيث وجدت أوانى الفخار الجميلة الملونة من طور حلف) . ويبدو ان عهد ازدهارها كمدينة مهمة كان فى حدود القرن الرابع عشرق .م، ويشير اسم المدينة المأخوذ من اللغة السومرية (أوغاريت من اوجار بلفظ الجيم كافا فارسية أى مثل عقار العربية وتعنى الحقل) الى تأثر هذا الاقليم بالثقافة السومرية وكان للمدينة ميناء بحرى (ويسمى الآن المينا البيضا ، وتبعد خرائب المدينة عنه الى الداخل بنحو ميل واحد) . وقد كشفت التنقيبات عن قصر فخم أعمدته موشاة بالفضة وهو يعود الى أحد ملوكها الذى عاش فى حدود ١٤٠٠ ق . م، ويعرف باسم «نقماد» أو «نقم أدا» (أى نقمة الاله أدد أو حدد) . ويعزى ازدهارها الى تجارتها البحرية . وقد دمرها أهل البحر الايجيون الذين اندفعوا بفلولهم على اثر الهجرات اليونانية فى حدود ١٢٠٠ ق . م ، ولم يقم لها قائمة من بعد هذا التاريخ .

فيها ما سبق أن نوهنا به فى كلامنا على الحروف الهجائية وهو مجموعة ألواح الطين المكتوبة بعلامات مسمارية التى قلنا انها من أنواع الحروف الهجائية السامية القديمة من القرن الرابع عشر ق • م ولعلها نسخ عن أصول أقدم ، وقد كتبت بلهجة من اللغة الكنعانية • أما مادتها فتدور على النصوص الدينية ، وتعدم أقدم نماذج للآداب الكنعانية وقد جاء بعضها على هيئة أساطير شعرية تدون لنا احداها أسطورة النزاع أو الحرب السنوية التى تقوم بين اله الخضار الذى سموه «عليان بعل» وبين عدوه الاله «موت» (أى الاله الموت) ، ويكون النصر فى مبدأ الامر للاله «موت» ، ولكن الاله «بعل» ينتصر عليه فى الخريف فى بداية سقوط الامطار الخريفية • ولا يستبعد ان هذه الاسطورة كانت تمثل بهيئة دراما دينية • وقد وجد الباحثون فى هذه الاكتشافات الحديثة مواطن كثيرة تتشابه فيها النصوص الاوغاريتية مع الآداب العبرانية المقدسة مثل سفر أيوب ، كما يوجد شبه أيضا فى اللغة والبحر الشعرى والتأليف بما هو موجود فى المزامير[1] • فمثلا العبارة الواردة فى الادب الاوغاريتى «ممتطى الغمام» صفة الاله بعل ، وهى نفس الصفة المنعوت بها اله العبرانيين (المزمور السادس والثمانون : ٤) ، كما ان الرعد صوت «بعل» والرعد صوت «يهوه» أيضا كما جاء فى (ايوب ٣٧ : ٢ ـ ٥ ، والمزمور ٢٩ : ٣ ـ ٥) وورد ذكر الحيوان الخرافى «اللوياثان» الذى ذبحه « بعل » كما فعل الاله «يهوه» •

وترينا هذه الأسطورة الخاصة بالاله «بعل» والاساطير الكنعانية الاخرى ان أساس ديانة الكنعانيين عبادة القوى الطبيعية المنتجة المولدة وقوى النمو والخصب مما يميز المجتمعات الزراعية • كما تأثر الكنعانيون ، مثل غيرهم من الاقوام

(١) أنظر
John H. Patton, **Canaanite Parallels in the Book of Psalms** (1944).

وكذلك (Hitti, **Op. Cit.**, 115 ff.)

حيث تجد بعض الامثلة على أوجه الشبه فى العبارات الموجودة فى سفر ايوب والمزامير •

التي استوطنت سورية ، في أديان الحضارات المجاورة ولا سيما حضارة وادي الرافدين ووادي النيل · وتدور هذه العبادة على اله الخصب وفكرة موته والنواح عليه وتغلبه على الاله الموت ثم اقترانه بالهة الخصب التي سميت بأسماء مختلفة منها «بعلة» و «عناة» (عاناة) التي هي شكل من أشكال الالهة عشتار · كما ان اله الخصب الذي يموت عرف بأسماء مختلفة منها «بعل» (كما عند الكنعانيين) وكذلك عرف باسم «تموز» ، وهو الاله البابلي الذي سبق أن ذكرنا علاقته بالالهة عشتار · وان فكرة الاله الذي يموت ويقوم من بعد الموت الذي يمثل حياة الخضار الدورية في الطبيعة قد دخلت في مآثر الديانة المسيحية[1] · ومن الاسماء الكنعانية المهمة لاله الخصب «تموز» اسم «آذون» (أي السيد أو الرب) ومنه الاسم اليوناني للاله الشهير «ادونيس»[2] الذي عبده اليونان في حدود القرن الخامس ق · م ، وتوجد أسطورة تروي ما حل به من المصاب اذ ان تموز قتله خنزير وحشي في أثناء ما كان يصطاد ، ولما انتقل الى العالم الاسفل حل في الطبيعة الموت ولا سيما في حياة النبات ، فنزلت عشتار الى العالم الاسفل واقامته من عالم الموت فعادت حياة الخضار الى الارض[3] · وقد قدس الفينيقيون الالهة عشتار

---

(١) (Hitti, **Op. Cit.**, 117.)

(٢) ومنه أيضا الكلمة التي يطلقها العبرانيون على الاله «يهوه» الذي حرموا النطق باسمه بل سموه بدلا من ذلك «أدوناي» (أي ربي أو سيدي) · كما ان لهذا الاله علاقة بالاله المصري «أوسيريس» ، ولعل الاثنين أصلهما اله واحد للخصب هو «تموز» ·

(٤) قارن أسطورة نزول عشتار الى العالم الاسفل لانقاذ بعلها تموز في أساطير العراق القديم (فقد جاءتنا من ذلك روايتان سومرية وبابلية ، انظر ذلك في الجزء الاول الص ٢٥٣ ، وترجمة الاسطورتين الى العربية في مجلة سومر ١٩٥٠) · وقد اشتهرت حران بعبادة تموز وعادة النواح عليه كما كان الحال عليه في العراق ، وقد ظلت عادة النواح في حران الى أيام الاسلام كما روى ذلك ابن النديم في فهرسته · وأخذ اليونان الاسطورة الخاصة بادونيس وافروديت ·

واشتهرت مدينة جبيل بعبادتها[١] ، كما أنهم خصصوا موضع الفاجعة التي حلت بالاله «تموز ـ ادونيس» عند منبع نهر ابراهيم ، مما جعل ماء النهر يتغير أحمر في موسم خاص من جراء دم الاله[٢] ، ونشأت عند الفينيقيين من ذلك جملة طقوس دينية كانت تقام بالدرجة الاولى في جبيل (التي تقع شمال مصب نهر ابراهيم بنحو خمسة أميال) ؛ ومن الشعائر المهمة بحث النسوة عن الاله المختفي ، وكان العيد السنوي يستغرق سبعة أيام ، وعندما يقوم «تموز» من الموت يعم الفرح الناس ولا سيما النسوة حيث ينذر بعضهن عفافهن ويخصي بعض الرجال أنفسهم ويكرسون أنفسهم للخدمة في معبده الخاص[٣] .

---

(١) لقب الفينيقيون عشتار بربة أو سيدة جبيل ، وقد شيد لها فيها معبد شهير شاهده بعض الكتاب الرومان وهو «لوشيان» في حدود ١٤٨ م ووصف رسوم العبادة الخاصة به أنظر كتابه «الالهة السورية»
(Lucian, **De Dea Syria**).

(٢) ولعله من الممكن ربط ما يقوم به النـــاس الآن عند منبع النهر حيث يزورون «سيدة المكان» التي صارت عندهم السيدة مريم العذراء ، ويكرسون السرج المضاءة في محراب صغير تحت شجرة تين يعلق بها الناس (من مسيحيين وشيعة) قطعا من ملابسهم طلبا للشفاء والتبرك ٠ وهناك رواية أخرى للاسطورة تجعل « تموز ـ أدونيس » الملقب بالفينيقية بلقب «نعمان» يتحول الى شقائق النعمان وهو النبات الذي سمي باسم الاله واكتسب لونه من دم أدونيس القاني (Hitti, **Op. Cit.**, 117.)

(٣) نشأت ممارسة البغاء المقدس مع عبادة الالهة عشتار ، وهناك اشارات في مآثر العراق القديم الى وجود ما يسمى «بنساء المعبد» أو «بغايا المعبد» ، وانتشرت هذه الممارسة على ما يروي هيرودوتس وسترابون في جبيل بالاقتران مع عبادة عشتار وكذلك في بابل وقبرس واليونان وصقلية وقرطاجة (أنظر
(Hitti, **ibid.**, 118 ; Herodotus, I, ch. 199; Strabo, XVI, ch. I).
كما ذكرت التوراة وجود «بغايا المعبد»
(حزقيال ، ٨ : ١٤ ، وسفر التثنية ٢٣ : ١٨ ، وميخا ١ : ٧) ٠ ان هذه الاباحية الجنسية من العناصر المهمة في عبادة الخصب في المجتمعات البشرية القديمة في جميع العالم ٠ ولعل من آثار تكريس النسوة أنفسهن الى الالهة عشتار العادة المتبعة الآن بين الراهبات المسيحيات عندما ينذرن أنفسهن الى العروس الالهية حيث يجززن شعرهن (Hitti, **ibid**, 118) ويرى بعض الباحثين ان الختان ، وهو عادة سامية قديمة ، نشأ من عبادة الهة =

وهناك الهان مهمان فى عبادة الكنعانيين بوجه خاص والساميين بوجه عام منشؤهما من عبادة الظواهر الطبيعية ، حيث انتخب منها الهان بارزان هما الاله السماء ، وهو الاله الاب • والالهة الارض ، وهى الالهة الام ، فعبد الاله السماء فى اوغاريت باسم «ايل» (EL) والالهة باسم «اشيرة» أو «اشيرات» (عشتار) • وكان «ايل» الاله الاسمى عند الاقوام السامية فى سورية ولا سيما الكنعانيين والعبرانيين • ولقب بلقب «عليان» (بفتح العين وتسكين اللام) وعبد أيضـا باسـم بعل • ويرجح أن الالـه الذى كان العبرانيون يضحون له الاطفال باسم «مولوخ» أو «مولك»[١] ، هو الاله الذى عبد فى صور باسم «ملك-قرت» (أو ملكرت،ملك كرت) (أى ملك أواله المدينة) •أما الالهة الام فقد ذكرت وعبدت بصيغ مختلفة منها ما ذكرناه من اسم «اشيرة» وكذلك عشتارة وعثارة ، وسماها العبرانيون «عشتوريت» (وأطلق اسـم عثتار فى جنوبى الجزيرة العربية على اسم اله مذكر) ، وهى عشتار عند البابليين ، وقد عبدها اليونان باسم «افروديت» والرومان باسم فينوس ، ودعيت أيضا فى بلاد الشام باسم «بعلة»

= الخصب عشتار بتضحية جزء من عضو الذكر لهذه الالهة (ذات المصدر) • ولكن يشك فى هذا التفسير لاصل عادة الختان لان المصريين القدماء كانوا يمارسونه والمرجح ان العبرانيين أخذوا العادة منهم •

(١) أو «مولوك» الذى ورد ذكره فى التوراة (سفر الملوك الاول ١١ : ٥ ، ٣٣ ،وسفر الملوك الثانى ٢٣ : ١٣) ،وقد وجدت فى مواضع مزاراته بقايا أطفال مدفونين فى الجرار مما يؤيد رواية التوراة ، والمأثور عن هذا الاله انه أقيم له صنم من نحاس مجوف وكانوا يشعلون فيه نارا حامية ثم يقربون له الذبيحة البشرية ، وعلى الرغم من تنديد أنبياء اليهود وتحذيرهم الناس من عبادة مولك الا ان اليهود مارسوا مرارا هذه العبادة الشنيعة ولا سيما فى الموضع المسمى وادى بنى هنوم (٢ ملوك ٢٣ : ١٠) وفى مواضع أخرى • والوادى الاول أى «وادى بنى هنوم» أو «وادى هنوم» يقع جنوبى أورشليم وغربها (ويعرف باسم وادى ربابة الآن) ، ويسمى الجزء الجنوبى الشرقى بوادى توفه أو وادى القتل ، ولكى ينقطع الناس عن اتباع العادة مطلقا أخذوا يرمون فيه الفضلات والقاذورات ويصبون فيه مياه القاذورات من المدينة ، وكانوا يحرقون الكناسات فيه ، وأخذ من اسم الموضع أى «جى - هنوم» اسم «جهنم» لاطلاقه على موضع العقاب (أنظر أيضا العهد الجديد ، متى ٥ : ٢٢ ، ١٠ : ٢٨ ، ٢٣ : ١٥) •

(السيدة) بالنسبة الى المواضع المختلفة مثل «بعلة جبلا» (أى بعلة جبيل) ، وعرفت أيضا باسم «ملكة» (أى الملكة) ، (والمقصود بذلك ملكة السماء) ، وباسم «عناة» أو عانات[١] ، حيث جاء ذكرها في لوح من اوغاريت وهي أخت «عليان بعل» ، وانها العذراء ، وباستطاعتها الاحياء والاماتة ، كما ان الحب والحرب من أبرز صفاتها .

وقد أسفرت التحريات الحديثة في بلاد الشام عن الكشف عن المعابد القديمة ، وبعضها يرجع الى عهود قديمة جدا (الالف الثالث ق . م) ، كما وجدت في «اريحا» و «مجدو» ، وكانت بأبسط صورها مؤلفة من حجرة واحدة ولها باب في ضلعها الطويل ، ولكن تطور بناء المعابد من بعد منتصف الالف الثاني ق . م ، وازدادت مرافقها وأجزاؤها كما تمثلها لنا المعابد التي كشفت عنها التنقيبات الحديثة في «بيسان» (بيت شان)[٢] واوغاريت وغيرها . وتشترك مثل هذه المعابد[٣] جميعها بعناصر أساسية : (١) مذبح من الحجر (٢) النصب المقدس (٣) وبجانبه العمود المقدس (٤) والحجرات التي تحت أرضية المعبد . وكان المذبح الذي تقدم فوقه القرابين أهم أجزاء المعبد . أما

---

(١) وقد دخل اسمها في جملة مواضع في بلاد الشام مثل «بيت عنات» الواردة في التوراة (سفر يشوع ١٩ : ٣٥ ، ٣٨ ، وقضاة ١ : ٣٣) وهي الموضع المسمى الآن «البعنة» قرب عكا الى الشرق . ومثل «بيت عنوث» (يشوع ١٥ : ٥٩) وتعرف الآن باسم «بيت عينون» شمال شرقي حبرون بنحو ٣ أميال ، ومثل «عناثوث» (يشوع ٢١ : ١٨) وهي مسقط رأس أرميا وتعرف الآن باسم «عناتا» الى الشمال الشرقي من القدس بنحو (٤) أميال ، ويرجح ان اسم عانة ، المدينة العراقية الآن من اسم هذه الالهة ، وكانت مركز اقليم مهم في العهود البابلية القديمة .

(٢) أنظر

Rowe, **The Four Canaanite Temples of Beth-shan** (1940).

وقد وجدت في هذا الموضع أربعة معابد كنعانية لعبادة الحيات والافاعي وهي عادة كانت شائعة في الشرق الادنى القديم وفي كريت

(٣) اسم المعبد في الكنعانية «هيكلو» (الهيكل) (بفتح الكاف وتشديد اللام المفتوحة) مأخوذ من المصطلح السومري «اي ـ كال» (e - gal) أي البيت الكبير أو الجليل .

النصب أو الحجرة القائمة (وتسمى مصبية) فهي ترمز الى الاله ويقوم بجانبها العمود المقدس أو الشجرة المقدسة (وهي أشيراه بالعبرانية ، أي الاكمة) التي ترمز الى اله الخصب أو الهة الخصب • والمرجح ان الحجرات التحتية كانت تستعمل لغرض العرافة والفأل ومعرفة ارادة الآلهة • وكان النصب والعمود المقدسان يقومان مقام الاصنام الممثلة للآلهة ، والى جانب ذلك استعملوا الدمى الصغيرة المصنوعة من البرونز ، ووجد بعضها وهو يمثل الاله «بعل» ، وتمثل الالهة عادة بدمية عارية ويداها على جانبيها أو ماسكتان لثدييها •

والى جانب المعابد المبنية استعمل الكنعانيون لعبادة آلهتهم معابد محلية في العراء ، في قمم التلال • وهذه هي «المواضع العالية» المشار اليها في التوراة[1] ، حيث لا ينصب فيها على ما يحتمل سوى مذبح الحجر وعمود الحجر المقدس •

وتدل عادة الدفن التي اتبعها الكنعانيون من دفن بعض الحاجيات العائدة الى الميت على وجود فكرة عودة الحياة من بعد الموت أو ما شاكل ذلك • ولم يمارسوا التحنيط الا في حالات قليلة عند بعض الملوك الكنعانيين بتأثير العادة المصرية • ومن التأثيرات المصرية أيضا فيما يخص عادة الدفن صنع التوابيت الملكية التي اشتهر بها الفينيقيون حيث كانت تصنع بهيئة انسان يمثل الملك[2] ، وقد وجد عدد كبير من هذه النواويس غطاؤها ممثل على هيئة رأس انسان أو جسم انسان كامل مع الرأس ، ويتراوح أزمانها من القرن السادس الى القرن الثالث ق • م ، وأشهرها ناووس الملك «اشمن – عزر» بن «تبنيت» الذي حكم من بعد فتح الاسكندر بنحو نصف قرن • وقد نقش غطاء الناووس المصنوع على هيئة آدمية بنص مطول حيث اعتادوا كتابة مثل هذه النصوص لضمان عدم العبث بالجثة اذ يؤكد النقش انه لم يدفن مع الجثة أشياء ثمينة • ويوجد في المتحف الوطني في بيروت مجموعة ممثلة من هذه النواويس •

---

(١) سفر الملوك الاول ١٣ : ٢ ، وارميا ٣٢ : ٣٥ ، وهوشع ١٠ : ٨

(٢) وسميت لذلك بمصطلح (Anthropoid Sarcophagus)

الفصل التاسع والعشرون

الاراميون

الآراميــون :ـ

الآراميون ، كما سبق أن ذكرنا ، هم الجماعة الكبرى الثـالثة من الهجرات السامية فى بلاد الشام • وكانوا قبل استيطانهم واستقرارهم فى بلاد الشام ، من بين الجماعات البدوية التى كانت تجول فى بوادى الجزيرة الشمالية ، وكانت تتغلغل منها جماعات بين الحين والحين فى البلدان المتحضرة المجاورة مثل سـورية والعراق ، وقد استوطنوا أخيرا في جهـات الفرات الاوسط منذ منتصف الالف الثانى ق • م ، وهنا نمت لغتهم وقوميتهم وثقافتهم الخاصة بهم ، وقد اقتبسوا من الاموريين والكنعانيين ومن الحضارات التى جاوروها ولا سيما حضارة وادى الرافدين والحثيين ، ولكنهم حافظوا على لغتهم ولهجتهم الخاصة بهم ، وقد كان لهذه اللغة أثر عظيم فى جميع آسية الغربية • واللغة الآرامية من فروع كتلة اللغات السامية الغربية التى انتشرت فى بداية الالف الثانى ق • م شمال غربى ما بين النهرين ، أما اسمهم فان أقدم استعمال له على ما نعلم من المصادر المعروفة حتى الآن يبتدىء منذ عهد الملك الآشورى تجلاثبلزر الاول (١١٠٠ ق • م)(١) ، حين كانت مواطنهم منتشرة فى الفرات الاوسط الى سورية غربا ، ولا يعلم معنى اسم آراميين والمرجح اشتقاق كلمة «ارم» المذكورة فى القرآن من اسمهم • ومما سهل عليهم التوطن فى مواطنهم اضطراب الاحوال فى القرن السادس عشر ق • م فى بلاد بابل على أثر غزو الحثيين لها وقيام السلالة الكشية فيها وكذلك تدمير الحثيين لمملكة ميتانى من بعد قرن ونصف القرن •

---

(١) G. H. Kraeling, **Aram and Israel** (1918).

والمرجع فى هامش رقم ٢ ص ٢٦٩

وكان الآراميون مكونين من جملة عشائر وقبائل ، جاءت أسماء بعضها في الكتابات الملكية الآشورية وفي رسائل العمارنة ولا سيما في عهد اخناتون، فمنهم فرع جاء اسمه بصيغة «أخلمو» (أخلامو) ، ومعنى هذا الاسم الرفاق أو الاصحاب ، ولعل الاموريين في الفرات هم الذين أطلقوا هذا الاسم على جملة قبائل آرامية متحدة[1] وقد اتصل بهم الآشوريون في العهد الذي سميناه بالعصر الآشوري الوسيط فيروى لنا أحد ملوك هذا العهد وهو «أددـ نراري» الاول (١٣٠٠ ق ٠ م) ان أباه غزا جموع «الاخلامو» في شمال ما بين النهرين[2] ، ونظرا لشهرة هذه القبائل صار اسمها كثيرا ما يطلق على جميع الآراميين ٠ ومن الآراميين فرع تغلغل الى وادي الفرات الاسفل وعرف باسم «كلدو» (ومنهم الكلدانيون الذين رأيناهم يؤسسون الامبراطورية البابلية الاخيرة) ٠ ولكن أهم المواطن التي انتشر اليها الآراميون من مقرهم في الفرات الاوسط في خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر كانت أراضي ما بين النهرين الشمالية وفي شمالي سورية ووسطها ، وأخذوا يضغطون على جماعات الاموريين والحوريين والحثيين في وادي العاصي وحلوا محلهم ٠ وصدتهم جبال لبنان من التوغل أكثر من ذلك ومن أخذ مكان الاموريين الآخرين ، كما ان الكنعانيين والفينيقيين في الساحل ظلوا في مواطنهم غير متأثرين نوعا ما بضغط الهجرة الآرامية ٠ هذا وقد سبق لنا أن ذكرنا في الجزء الاول من هذا الكتاب الحروب الرهيبة الطويلة التي دارت بين

---

(١) Hitti, **Op. Cit.**, 162.

(٢) Luckenbill, **Ancient Records of Bab. & Assyria**, I, 73.

وقد ورد ذكر اسم «بلاد الآراميين» (مات ارمي) واسم الآراميين أيضا في الكتابات الآشورية من العهد الآشوري الوسيط
(Luckenbill, **Ancient Records**, I, 239, 366).

والمعنى الشائع لكلمة «آرام» الارض العالية أو لعله النجد فنجدها مضافة الى أسماء مواضع مثل «آرام صوبا» و «آرام معكه» و «آرام النهرين» و «آرام بيت رحوب» و «آرام دمشق» و «فدان آرام» وقد وردت هذه الاماكن في التوراة مرارا ٠

الآشوريين فى عهدهم الوسيط وبين الآراميين الذين انتشروا من الفرات الاوسط الى أراضى ما بين النهرين الشمالية وكادوا يقضون على الآشوريين، واستمر النزاع بين الآشوريين والآراميين فى العهد الآشورى الحديث فى زمن الامبراطورية الآشورية الاولى (٩١١-٧٤٥ق٠م)، ولكن انتقل النزاع الآن الى بلاد الشام حيث أسس الآراميون دويلات مهمة قاست من غزوات الآشوريين أشد الضغط، مما كان من الاسباب المهمة فى عدم تمكن الآراميين من انشاء دولة كبرى معظمة فى بلاد الشام على ما سنذكره بعد قليل •

أهم الدويلات الآرامية فى بلاد الشام وفيما بين النهرين

بدأ الآراميون يقيمون دولا تجارية مهمة فى الفرات الاوسط وما بين النهرين وفى مدن الشام المهمة منذ نهاية القرن الثالث عشر ق • م، حيث استقروا فى مواطنهم الجديدة[١] • فمن أشهر دويلاتهم وأقدمها فى الفرات الاوسط الدويلة التى أقاموها فى المنطقة الواصلة بين سورية وبين ما بين النهرين • فمن هذه الدويلات دويلة سميت باسم «آرام - نهر ايم» (أى آرام النهرين)، والمقصود بهذين النهرين الفرات ورافده الخابور • وورد ذكرها فى المصادر المسمارية باسم «نهارين»، وهو الاسم الذى ذكرت به مرارا فى المصادر المسمارية فى أواخر القرن الثالث عشر ق • م، ويظهر أنها اختفت من الوجود فى حدود القرن التاسع ق • م حينما قضى الآشوريون على جميع الآراميين فى هذا الاقليم[٢] ومن دويلاتهم الشهيرة فيما بين النهرين دويلة وردت باسم «فدان آرام»[٣] وهى دويلة صغيرة لم تكن بسعة دويلة «آرام - نهرايم» وكان مركزها فى حران[٤]، بحيث ان الكلمتين وردتا مترادفتين فى

---

(١) وفى حدود هذا الزمن أيضا انتهت تنقلات العبرانيين واستقروا فى مواطنهم الخاصة على ما سنبينه من بعد كلامنا على الآراميين •

(٢) Roger T. O'Callaghan, **Aram Naharaim** (Rome, 1948), 143

(٣) (Padan Aram) وكلمة «فدان» مثل فدان العربى وتعنى الحقل والسهل وقد ورد ذكرها فى التوراة (سفر التكوين ٢٥ : ٢٠ ، ٢٨ : ٢-٧ ، ٤٦ : ١٥) •

(٤) معنى «حران» فى اللغات السامية الطريق ، وفى الاكدية بصيغة «خرانو» •

التوراة • وحران ذات موقع مهم حيث يمر منها طريق تجارى كبير ، وازدهرت فيها الثقافة الارامية ازدهارا كبيرا • وتقول المآثر العبرانية أن الآباء اليهود الاول جاؤا من هذه الناحية قبل استيطانهم فى فلسطين ، حيث تزوج اسحق بن ابراهيم من امرأة حرانية (وهى رفقة) كما ان اسحق أرسل ابنه يعقوب الى حران حيث تزوج أيضا[١] ، ويتبين من ذلك صلة العبرانيين بالارامين ،هذا ويظهر أثر الثقافة الارامية فى لغة سفر التكوين من ناحية التعابير والمفردات اللغوية[٢] ويظن أن أجداد العبرانيين كانوا يتكلمون الارامية قبل استيطانهم فى فلسطين واتخاذهم اللهجة الكنعانية المحلية[٢] •

مماـلكة دمشـق :ـ

ومن الممالك الآرامية التى اشتهرت بأهميتها وسعتها أكثر من شهرة الدويلات المتعددة التى أسسها الآراميون الدولة التى صارت عاصمتها فى دمشق وعرفت بأسم ارام دمشق[٣] ، وتأسست فى أواخر القرن الحادى عشرق•م فى نفس الوقت الذى ظهرت فيه الملكية عند العبرانيين • وقد نمت وتطورت

---

(١) تزوج لينه (Leah) و «راحيل» ابنتى لابان خاله (أى أخو رفقه) أنظر خبر ذلك وذكر فدان آرام فى التوراة (سفر التكوين ٢٤ : ٤ ، ٢٩ : ٢١) •

(٢) Hitti, **Op. Cit.**, 164.

(٣) لقد استوطن الآراميون فى دمشق فى حدود القرن الثانى عشر ق•م• حتى ان حوليات الفرعون رعمسيس الثالث (١١٩٨ ـ ١١٦٧ ق • م) تذكر دمشق بالصيغة الآرامية حيث جاء ذكرها بهيئة «ترمسكى» من الآرامية «دار ـ ميشيق» (أى قلعة أو حصن مشيق) ، وذكرت فى رسائل العمارنة بصيغة «دمشقا» بضم الدال و«دمشقا» بكسر الدال و«تمشجى» (بلفظ الجيم كافا فارسية وكسر التاء وفتح الميم) (انظر
(Knudtzon, **El-Amarna**, Nos. 107, 197, 53)
هذا ولا يعلم أصل اشتقاق اسم المدينة ولكن الشق الثانى من الاسم «ميشيق» لعله اله غير سامى • حول بحث هذا الموضوع ولا سيما الكلمة فى المصادر المسمارية أنظر :
Hitti, **Op. Cit.**, 163 ; Clay, **Miscellaneous Inscriptions** (YOS, I,) 1—2 ; Speiser in JROS, 71 (1951), 257 ff.

من بدء تأسيسها وأصبحت دولة كبيرة فاقت على جميع الدويلات الآرامية والدويلات الاخرى التي قامت في بلاد الشام حيث اتسعت في حدودها وامتدت من جهة الشرق الى الفرات والى اليرموك من جهة الجنوب على حساب الدولة العبرانية ، كما انها تاخمت أملاك الدولة الآشورية من جهـة الشمال • وقد صارت جميع سورية الداخلية الى الشرق من لبنان وجميع شمالى سورية وحوران (فى اقليم باشان القديم) تحت سيطرتها في حدود بداية الالف الاول ق• م• وقد كان العداء مستفحلا بين أرامى هذه الدولة وبين العبرانيين طوال قرنين من الزمان •

وقد بدء العداء والحروب بين الآراميين وبين العبرانيين قبل اتخاذ دمشق مركزا للدولة الآرامية يوم كانت المدينة القديمة المعروفة باسم صوبا (صوبة) [١] مركزا لمملكة ارامية عرفت باسم مملكة «صوبا» أو «آرام صوبا» وقد بدأت الحرب بين ملوكها وبين أول ملك عبراني وهو «شاؤل» مؤسس المملكة العبرانية الى الجنوب • وقد تغلب داود الذى خلف شاؤل على ملك مملكة صوبا المسمى «حدد عزر» [٢] ، مما مكن العبرانيين من مصدر مهم للنحاس ، وتمكن دواد أيضا من الاستيلاء على دمشق موقتا • وقد استأنف النزاع أحد ملوك دمشق المسمى «رزون» (Rezon) حيث حارب العبرانيين طيلة أيام سليمان ، وبدأت الكفة تنقلب على العبرانيين كما ان مركز أهمية

---

(١) (Zobah) ويرجح ان اسم المدينة «صوبا» مشتق من «صيهوبا» التى تعنى نحاس واللون الاحمر ويحتمل ان معنى صوبه «المحلة» • ويظن ان هذا الموضع هو الذى عرف فى المصادر الكلاسيكية باسم «كلسيس» أو «خلسيس» (وهى الكلمة اليونانية للنحاس) التى يعينها الآن الموضع المسمى الآن «عنجر» جنوبى زحلة فى البقاع • أنظر :

(Kraeling, **Aram and Israel,** P. 40 ; Hitti, **Op. Cit.,** 166)

وقد صارت «كلسيس» موضع عاصمة مملكة عربية في اقليم البقاع في العهد السلوقى عرفت باسم مملكة «اتورية» (Hitti, **ibid.,** 166, 247)

(٢) (Hadadezer) (أى الاله حدد عون) واسـمه فى التوراة العربية «هدد عزر» •

المملكة الآرامية انتقل من صوبا الى دمشق • وساعد انقسام المملكة العبرانية الى مملكتي اسرائيل في الشمال ويهوذا في الجنوب الآراميين (في حدود ٩٢٢ ق٠م٠) من بسط سلطانهم وفرضه حتى على العبرانيين • فان يهوذا دفعت الجزية الى ملك دمشق المسمى «بن حدد» (بنهدد) (في حدود ٨٧٩-٨٤٣ ق • م) ، ثم هاجم مملكة اسرائيل وضم جلعاد (في شرق الاردن) الى المملكة الآرامية[١] وقد قويت المملكة الآرامية في عهد ملكها «بن حدد» بحيث أصبحت مملكة اسرائيل تحت حمايتها في الايام الاخيرة من حكم ملكها المسمى «عومري» (في حدود ٨٧٥ ق • م) وأعاد «بن حدد» فرض الحماية الآرامية والجزية على اسرائيل في عهد «آحاب» بن «عومري»[٢] •

غزو الآشوريين بلاد الشام

لقد سبق أن نوهنا في أكثر من موضع واحد[٣] بالصراع والحروب الشديدة التي دارت بين الآشوريين وبين الآراميين ، فقد سبق أن قسمنا النزاع بين المعسكرين الى حقبتين كانت الحروب في الحقبة الاولى بينهم وبين الآشوريين وهم في بلادهم وفي أثناء تدرجهم السياسي الى دولة كبرى في أواخر العهد الذي سميناه بالعصر الآشوري الوسيط (في القرنين الثاني عشر والحادي عشر ق٠م) لما كان الآراميون في أثناء تنقلهم في الفرات الاوسط وفي مواطنهم في شمال ما بين النهرين ، وقد بلغ من ضغط الآراميين على الدولة الآشورية مبلغا كادوا يزيلونها من الوجود ، ولكن سرعان ما تغير الموقف منذ القرن العاشر ق • م ، حيث استعاد الآشوريون قواهم وخلصوا مملكتهم من خطر القبائل الآرامية التي كانت تضغط على بلادهم وأسسوا أولى امبراطورية عظمى في عهدها الحديث ، فنقلوا الكفاح مع الآراميين الى مواطنهم الجديدة

---

(١) أنظر أخبار ذلك في التوراة (سفر الملوك الاول ١٥ : ١٨ فما بعد وسفر الايام الثاني ١٦ : ٢ فما بعد) •

(٢) سفر الملوك الاول ٢٠ : ١ فما بعد •

(٣) أنظر الجزء الاول في كلامنا على الآشوريين والجزء الثاني الص ٢٦٩ - ٢٧٠ •

فى بلاد الشام حيث قام ملوك الامبراطورية الاولى (٩٠٠ـ٧٤٥ ق٠م) بجملة غزوات مدمرة لبلاد سورية ، وضموا معظم بلاد الشام الى نفوذهم ٠

ومن الغزوات الآشورية العنيفة فى هذا العهد الغزوة التى قام بهـا شيلمنصر الثالث على سورية حيث جرت الموقعة الحربية الشهيرة التى عرفت بموقعة «القرقار» على العاصى فى عام ٨٥٣ ق ٠ م ٠ ولدرء الخطر الآشورى اتحد ملوك الدويلات السورية وتألف اتحاد من اثنى عشر ملكا ، وترأس الاتحاد ملك المملكة الآرامية فى دمشق وهو «بن ـ حدد» (بنهدد) الذى ذكرناه، مما يدل على أهمية هذه المملكة ، وكان أشهر ملوك الاتحاد من بعده آحاب ملك اسرائيل وملك حماة وكذلك ساعدت الاتحاد جملة مدن فينيقية ، بحيث بلغ جيش الاتحاد زهاء (٦٠٫٠٠٠) مقاتل قابلوا الآشوريين فى القرقار على العاصى ، ولم تكن الحرب حاسمة ، حيث انسحب الجانبان ٠

واستمرت المملكة الآرامية فى القوة وازدادت عن ذى قبل فى عهد ابن «بن حدد» وخليفته المسمى «حزائيل» ، الذى كان من عظماء الملوك المحاربين فاستطاع أن يصمد ازاء هجومين آشوريين وجههما شيلمنصر الثالث (فى عام ٨٤٢ ق٠م، و ٨٣٨ ق ٠ م) ، ومن ثم هاجم «حزائيل» مملكة اسرائيل ووسع سلطانه فى شرقى الاردن الى جهة الجنوب ، ووسع فتوحه فى سهل فلسطين الساحلى من أجل السيطرة على طرق التجارة مع مصر وبلاد العرب ٠ وتمكنت مملكة دمشق من اسرائيل بحيث أصبحت هـذه تحت رحمتهـا ، وكذلك أخذت الجزية من مملكة يهوذا ٠ ولكن الهجمـات الآشـورية المدمرة المستمرة استنفذت قوى المملـكة الآرامـية بحيث ان خلفاء «حزائيل» لم يستطيعوا المحافظة على الأقاليم التابعة ٠ وقام فى اسرائيل ملك قوى هو «يربعام» الثانى (فى حدود ٧٨٥) بحيث استطاع أن يرجع حدود مملكته حتى انه تجرأ فهاجم دمشق وحماة ٠

ولكن الضغط تفاقم خطره على المملكة الآرامية فى عهد الملك الآشورى «تجلاتبليزر» الثالث (٧٤٥ـ٧٢٧ ق٠م) حيث سنحت لهذا الملك الفرصة حين سادت

العلاقات بين الدويلات السورية الثلاث وهي مملكة دمشق واسرائيل ويهوذا ، حيث استنجد بالملك الآشوري آحاز ملك يهوذا الذي هدده «فقح» ملك اسرائيل و «رصين» ملك دمشق ، فوجه تجلاثبليزر ماكنة الحرب الآشورية الهائلة في عام ٧٣٤ ق . م على سورية ، غازيا ومدمرا المدن التابعة لدمشق وحولها انقاضا[١] وسقطت دمشق (في عام ٧٣٢ ق . م) بعد حصار رهيب وقتل ملكها[٢] واحل الآشوريون الدمار والخراب فيها ولم تسلم حتى بساتينها وأشجارها ، وأجلى سكانها . وهكذا انتهت حياة هذه المملكة الآرامية المزدهرة وانتهى معها سلطان الآراميين . واستعبدت الامبراطورية الآشورية في بلاد الشام منذ عهد تجلاثبليزر الثالث وخلفائه شيلمنصر الخامس وسرجون الذي أزال دولة اسرائيل من الوجود .

شيء عن الثقافة الآرامية :ـ

وهكذا عمل الضغط الآشوري العنيف على خنق الثقافة الآرامية من الناحية السياسية ، فانه لم يقتصر على الحيلولة دون قيام دولة آرامية كبيرة في سورية وفي شمال ما بين النهرين بل انه أزال الدويلات الاخرى من

---

(١) أنظر وصف ذلك في أخبار الملك الآشوري (Luckenbill, **Ancient Records,** I, 777)

(٢) كان من الملوك التابعين للآشوريين حينما ثاروا على السلطان الآشوري وانظموا الى حلف دمشق ملك آرامي اسمه «بنمو» الثاني (بفتح الباء الملفوظة فاء وفتح النون وتشديد الميم) . حيث قتل في معركة مدينة دمشق ، وكان هذا ملك مملكة آرامية أخرى في شمال سورية عرفت باسم عاصمتها «شمال» (وهي سنجرلي الحالية) غرب عينتاب في منتصف الطريق تقريبا بين انطاكية ومرعش ، وكانت ثقافتها متأثرة بالحثيين المجاورين لها . ولكن كان ملوكها آراميين ، وقد خلفوا لنا نقوشا كتابية مهمة بالحروف الفينيقية وقد أجريت في «شمال» حفريات في زمن قديم (١٨٨٨ ــ ١٨٩١) أنظر المراجع الآتية :ـ

(1) Luschan, **Ausgrabungen in Sendschirli** (Berlin, 1893).

(2) AJSL, XXXII, 223 ;

(3) "Zu den Inschriften von Sendschirli" **in Zeit. für Assyr.,** 20 (1907) 159 ff.

وكان أقدم ما وجد فيها نقش كتابي مهم للملك «بركب» الذي يلقب نفسه بركيل تجلاثبليزر الثالث ، والكتابة باللغة الآرامية وبالحروف الهجائية .

الوجود • ولكن مع اخفاق الآراميين السياسي فان نفوذهم التجاري والثقافي قد فاق في مقداره وعظم أثره على أهميتهم السياسية في تاريخ الحضارة البشرية ، فان تراثهم الثقافي في البلاد الشامية وفي أنحاء الشرق الادنى لا يزال محسوسا به الى الازمان الحديثة ، ولا سيما من الناحية اللغوية بوجه خاص على ما سنبين فيما بعد •

ومن الناحية التجارية كانت قوافل التجارة الآرامية تجوب أنحاء الهلال الخصيب ، وقد احتكروا طوال قرون كثيرة تجارة سورية الداخلية كما احتكر أقرباؤهم الكنعانيون تجارة الساحل السوري • وتاجر الآراميون بصبغ الارجوان من فينيقية وبالانسجة المزركشة والكتان والنحاس وبالاخشاب الثمينة كالابنوس وبالعاج من افريقية •

انتشار اللغة الآرامية :ـ

انتشرت مع التجارة الآرامية اللغة الآرامية انتشارا واسعا حتى أن الآشوريين استعملوها في بعض شؤونهم • فمن آثار تجلاتبليزر الثالث الطريفة أثر صور فيه كاتب آرامي وهو يدون بالآرامية (ولعله في الرق أيضا) أو في ورقة بردى على ما يرى الاستاذ حتى[١] الغنائم والاسلاب التى أخذها الملك الآشوري من مدينة غزاها ، وبلغت اللغة الآرامية منذ القرن الخامس ق • م أوج انتشارها ، فلم تقتصر على كونها لغة التجارة الرسمية بل صارت اللغة المحكية في جميع أنحاء الهلال الخصيب ، منتصرة بذلك على اللغة المنافسة لها وهي اللغة العبرية ، كما صارت لغة النبي عيسى واتباعه ، وكتب بها الانجيل[٢] على ما يرجح وصارت الآرامية في عهد الملك الفارسي الاخميني دارا الاول (٥٢١ ـ ٤٨٦ ق• م) لغة المملكة الرسمية ولغة الامبراطورية ، من تخوم الهند الى الحبشة • وهذا أعظم وأغرب انتشار تحرزه لغة لم يسندها سلطان سياسي • ولم يقتصر الامر على انتشار اللغة وحدها ، اذ أنه بانتشارها انتشر استعمال الحروف الهجائية التى كتب بها الآراميون لغتهم ، فاقتبسها أقوام

---

(١) (Hitti, **Op. Cit.**, 168)

(٢) أنظر

C. Torrey, **Our Translated Gospels** (New York, 1936).

عديدة فى جميع أنحاء آسية فى كتابة لغاتها المختلفة • فأخذ اليهود خطهم من الخط الآرامى بين القرنين السادس والرابع ق • م • وكانوا قبل ذلك يستعملون حروفا فينيقية قديمة • والخط العبرانى المسمى بالخط المربع الذى تطبع به كتب التوراة مشتق من الخط الآرامى الذى اقتبسه اليهود • كما ان العرب الشماليين أخذوا خطهم من الخط النبطى الذى هو شكل من أشكال الخط الآرامى • وهذا هو الخط الذى كتب به القرآن وتطور عنه الخط العربى الحديث • وأخذ الارمن والفرس والهنود (الخط البهلوى والسنسكريتى) خطوطهم من أصول آرامية • ونقل الكهنة البوذيون الخط السنسكريتى (المشتق من مصدر آرامى كما قلنا) من الهند الى قلب الصين والى كورية ، وهكذا يكون الخط الفينيقى (أصل الخط الآرامى) قد انتقل على أيدى الآراميين الى جميع نصف العالم الشرقى فى حين ان اليونان نشروا الخط نفسه الى نصف العالم الغربى •

أما اللغة الآرامية فالمرجح فيها انها نشأت من احدى اللهجات السامية الغربية التى كانت شائعة فى النواحى الشمالية الغربية من أرض ما بين النهرين فى منتصف الالف الثانى ق • م • ولم يكتسب الآراميون اسمهم الخاص وكذلك اسم اللغة الآرامية الا فى حدود القرن الحادى عشر ق•م (وبوجه خاص منذ زمن الملك الآشورى تجلاثبليزر الاول ١١٠٠ ق • م) • واللغة الآرامية بدورها انقسمت بمرور الازمان الى لهجات يمكننا أن نحصرها بفرعين • الفرع الشرقى فى وادى الفرات وتمثله اللهجة المندائية والسريانية• ويمثل الفرع الغربى آرامية التوراة[١] والانجيل و «الترجوم»[٢] واللهجات

(١) وهناك تسمية شائعة مغلوطة تطلق على الآرامية هى الكلدانية ، ومنشأ هذه التسمية مما ورد فى سفر دانيال من استعمال الكلدانيين للآرامية • ولكن الواقع ان اللغة الكلدانية التى تكلم بها الكلدانيون (أى البابليون فى العهد البابلى الاخير) انما كانت اللغة البابلية المتأخرة المشتقة من الاصل الاكدى • وتجد آثار الآرامية فى سفر عزرا (٤ : ٨ ـ ٦ ، ١٨ ، ٧ : ١٢ ـ ٢٦) وفى سفر دانيال (٢ : ٤ ـ ٧ ، ٢٨) •

(٢) أى التفسير والشرح (من العبرانية عن الآرامية) ، ويطلق على النسخ الكثيرة التى دونت بها جملة أقسام من التوراة باللغة الآرامية •

الآرامية في مملكة «شمأل» (وخرائبها الآن في سنجرلي بين انطاكية ومرعش كما ذكرنا من قبل) وفي حماة وتدمر والانباط • وتكلم بالمندائية طائفة باطنية (غنوسطية) في جهات الفرات من القرن السابع الى التاسع للميلاد[١] • أما السريانية فكانت في الاصل لغة اقليم الرها (اديسا) وصارت لغة الكنائس المسيحية المتعددة في سورية ولبنان وشمالي العراق (ما بين النهرين) ، وظلت في الاستعمال من القرن الثالث الى القرن الثالث عشر للميلاد حين حلت محلها العربية • ولما اتخذ المسيحيون الذين هم من أصل آرامي اللهجة الرهويه جاعلين اياه لغة الدين والثقافة صاروا يعرفون باسم السريان أو السوريين (ولغتهم باسم السريانية)[٢] مبدلين تسميتهم بالآراميين التي أصبحت لديهم تسمية غير محببة لاقترانها بالعهد الوثني • ويستعمل مصطلح «سريانية» الآن ليعني اللهجة الرهوية وما طرأ عليها من تغييرات •

الديانـة :ـ

أما عن ديانة الآراميين فقد تأثروا بديانة الاقوام السامية المجاورة كالكنعانيين وقبل ذلك بالاموريين • وكان أعظم اله خصوه بالعبادة الاله «حدد» أو «هدد» أو «أدد» أو (ادو) وهو الاله الذي ذكرناه من بين الآلهة الرئيسية عند الاموريين وعنهم انتقلت عبادته الى الكنعانيين ، حيث ذكرنا ان من بين ألقابه «رمون» و «رمان» أي «المرعد»[٣] ، وهو الاله الخاص بالرعد والزوابع والأمطار • وقد أقيم معبده الرئيسي في المدينة التي عرفت في المصادر العربية

---

(١) ولا تزال لغة الدين والطقوس بين من يسمون بالصابئة (المندائيين) الآن •

(٢) وكثيرا ما وردت هذه التسمية في التوراة اليونانيـة التي تعرف «باسم السبعينيه» (Septuagint) (حيث يقال انها ترجمت من جانب ٧٠ أو ٧٢ مترجما) ، والتي يظن انها كتبت في حدود ٢٧٠ ق • م ولا تزال مستعملة في الكنيسة الشرقية • وكذلك في صورة التوراة اللاتينية المسماة (Vulgate) التي وضعها القديس «جيروم» في القرن الرابع للميلاد ، وهي مستعملة عند الكنيسة الرومانية الكاثوليكية •

(٣) لقد سبق أن نوهنـا بانتقال عبادة الاله أدد الى حضـارة وادي الرافدين •

باسم «منبج»[١] وشيدت له أيضا جملة معابد فى الانحاء الاخرى من سورية ولبنان ، واختلطت عبادته مع عبادة الاله الشمس ، ولعله هو جوبتر المعبود فى بعلبك[٢] وصار فى العهد الرومانى «جوبتر» الخاص بمدينة دمشق[٣] • ووجد له فى «شمأل» «سنجرلى» تمثال ضخم (نحو تسعة أقدام ونصف القدم) • أقامه له الملك «بنمو» الاول (Panammu) (فى القرن الثامن ق•م)•

وعبدت مع الاله «حدد» فى منبج وفى المواطن الآرامية الاخرى ، الالهة زوجته التى ذكر اسمها فى المصادر اليونانية والرومانية بصيغة «اترغاتس» (Atargatis)[٣] ، حيث نعتت بالالهة السورية • وقد وصف هذه الالهة وعبادتها الكاتب السورى «لوشيان» (من أهل سموساته ، سميساط) الذى ألف باليونانية[٤] ، وتبدو هذه الالهة فى وصف « لوشيان » وهى تتصف بالصفات الاساسية الخاصة «بالام ــ الالهة» السامية ، وصورت فى النقود التى ضربت فى منبج وهى تلبس تاجا ويصحبها أسد فى بعض الصور (على غرار الالهة البابلية «عشتار») ، كما اتخذ لهـا رمز مؤلف من الهلال وقرص الشمس ، وعبدت فى فلسطين أيضا فى عسقلان • وانتشرت عبادتها فى العهد السلوقى بين اليونان ، ثم عنهم أخذها الرومان حيث أقيم لها معبد فى رومة ، ومثلت فى الآثار الرومانية وهى جالسـة على عرشـها بين أسدين ، وكان كهنتها فى الغالب من الخصيان •

---

(١) واسـمها بالآرامية (Nappigu) ومابج (Mabug) أيضا ووردت فى المصـادر الآشـورية بصيغة «نمبيجى» (nampigi) ، وهى باليونانيـة (Bambyce) وفى المصـادر اليونانية والرومانيـة باسم « هيرابوليس أو هيروبوليس أيضا • (ومعنى الاسم السامى المنبع) أى من جذر «نبق» •

(٢) Hitti, **Op. Cit.**, 172

(٣) وهذه الصيغة محرفة عن الاسم المركب من اسمين أولهما «عتار» «أو عتار» (بتشديد التاء) أى «اشتارته ، عشتار» و«عتاه» وهما بالاصل اسمان لالهتين متميزتين اندمجت عبادتهما أخيرا فاندمج اسماهما •

(٤) الذى ولد فى حدود ١٢٥ للميلاد انظر كتابه فى الموضوع المترجم الى الانجليزية بالعنوان الآتى :ـ

Lucian, **De Dea Syria**

H. A. Strong, **The Syrian Goddess** (London, 1913).

وبالاضافة الى هذين الالهين عبد الآراميون جملة آلهة أخرى استعاروا بعضها من الاقوام المجاورين للآراميين ، ومن هذه الآلهة المهمة الاله «ايل» و «ركاب» أو «ركب ـ ايل» (بتشديد الكاف في كلتا الحالين) وشمش و «رشوف» . وقد ذكرت أسماء هذه الآلهة في كتابة ملك «شمأل» (سنجرلي) «بنمو» الاول في نقش تمثاله . فالاله شمش ، الاله الشمس البابلي السامي ، و «رشوف» و «رشف» الاله الكنعاني الفينيقي ، وقد ذكر بأسماء أخرى أشهرها «بعل شمين» (سيد أو رب السموات)[١] .

---

(١) وقد جاء ذكر «بعل شمين» في النقوش الكتابية المهمة التي عثرت عنها مديرية الآثار العراقية في تنقيباتها في الحضر في معبده الخاص في الحضر (انظر مجلة سومر مجلد ١٩٥١ ـ ١٩٥٢) .

الفصل الثلاثون

العبرانيون

العبرانيون هم الجماعة السامية الرابعة من الهجرات السامية التى استوطنت بلاد الشام ، فقد سبق أن تكلمنا على الاموريين فى الشمال والكنعانيين فى الساحل والآراميين فى الوسط وحل العبرانيون فى الجزء الجنوبى ، فى فلسطين • كما سبق أن نوهنا بأصل العبرانيين البعيد ، حيث انهم مثل الجماعات السامية الاخرى نزحوا من بوادى الجزيرة العربية • والمفروض ان مجيئهم الى الجزء الخاص بهم من بلاد كنعان ، أى فلسطين ، قد تم فى ثلاث هجرات مفترضة وغير معروفة بوجه التأكيد وانما هى مستنتجة بالدرجة الاولى من المآثر العبرانية كما جاءت فى التوراة • فنستنتج من هذه المآثر ان أقدم هذه الهجرات قد كانت من بوادى جهات ما بين النهرين الشمالية • والمرجح كثيرا ان هذه الهجرة قد حدثت فى القرن الثامن عشر ق • م مع زمن هجرات الأقوام الاخرى التى جاءت بالهكسوس والحوريين الى جهات شرقى البحر المتوسط • وتقرن الهجرة الثانية فى زمنها مع هجرة الآراميين فى القرن الرابع عشر ق • م فى زمن «العمارنة» ، أما الهجرة الثالثة فكانت خروجهم من مصر ومن النواحى الجنوبية الشرقية مع «موسى» ويوشع كما جاءت أخبار ذلك فى التوراة ، والمرجح أن زمن ذلك يرجع الى أواخر القرن الثالث عشر ق• م[1] •

وبموجب الازمان المقترحة لهذه الهجرات الثلاث عندما جاءت الهجرة الاولى كان الكنعانيون يؤلفون القسم الاعظم من السكان ، والاموريون يستوطنون الجهات المرتفعة التى لم تكن مزدحمة بالمستوطنين مما سهل على المستوطنين

---

(١) انظر المرجع الآتى :

Theophile J. Meek, **Hebrew Origins** (New York, 1936).

Hitti, **Op. Cit.,** 176 ff. المشار اليه فى

الجدد استيطانهم فيها ، كما كانت عدة عناصر اخرى غير سامية كالفلسطينيين والحوريين والحثيين فاختلط العبرانيون بهؤلاء وبالاقوام السامية الاخرى التى كانت قبلهم ونتج عن ذلك العبرانيون كما نعرفهم فى التأريخ • كما تأثر العبرانيون بهذه الاقوام الاخرى من حيث تعلمهم منها الزراعة والحياة الحضرية المستقرة والكتابة وغير ذلك من عناصر الحضارة • حتى انهم هجروا لهجتهم السامية الاصلية واتخذوا اللغة الكنعانية • وورث العبرانيون عن الكنعانيين اسس الثقافة المادية الكنعانية ، كما انه دخل اليهم الكثير من اسس الديانة والعبادة الكنعانية[١] •

وأهم ما يتميز به عهد الهجرة الاولى بحسب مآثر التوراة وقصصها انه زمن الآباء الاول وأولهم ابراهيم[٢] حيث جاء فى قصص التوراة انه جاء من «أور» الكلدانيين الى حران ، وانه استوطن فى مبدأ الامر فى «حبرون» ، وان ابنه «اسحق»[٣] ولد يعقوب الذى فضل من بعد اقامته عدة سنين فى «فدان آرام» على أخيه عيسو وجعل وريث أبيه وبدل اسمه الى «اسرائيل»[٤] ، كما بدل اسم عيسو بأدوم (أى الاحمر) ، وسميت ذريته بالادوميين بعد أن حلوا محل السكان الاصليين فى «جبل سعير» ، وهكذا أخرج أحفاد عيسو من العبرانيين كما أخرج اسماعيل[٥] وأبناؤه ، حيث فضل عليه أخوه اسحق • وجاء من يعقوب الاسباط الاثنا عشر ، وان الابن الحادى عشر وهو

---

(١) Hitti, **Op. Cit.**, 177.

(٢) ويعنى اسمه فى العبرانية «الاب سام» (اب ــ رام) •

(٣) معنى اسم اسحق فى العبرانية (يصحاق) أى «عساه يضحك» (والاشارة الى الاله ايل) ، ومعنى اسم يعقوب بالعبرانية (عساه يحمى) •

(٤) «يسرى ــ ايل» ومعناه (الاله «ايل» يحكم) •

(٥) واسماعيل (بالعبرية يشمع ــ ايل أى ليسمع ايل) ابن ابراهيم من سرية مصرية اسمها هاجر • راجع قصص ذلك فى التوراة •

يوسف[١] (ابن راحيل الاكبر) قد بيع في مصر فنال حظوة عظمى في بلاط الفرعون • وبعد أن عاش أحفاد يوسف وأحفاد أخوته في مصر عدة أجيال رجعوا الى فلسطين تحت قيادة موسى • وهذه هي بداية الهجرة الثالثة التي نعرف عن حقيقتها التأريخية أشياء أكثر من الهجرتين الاوليين ، اذ ان مصادرنا عنهما كما قلنا مقتصرة على ما جاء من أخبار وقصص في الاسفار الاولى من التوراة ، وهي الاسفار التي لم تدون بالكتابة الا من بعد مضي مئات من السنين على الحوادث التي ترويها • ولم يكتف كتاب هذه الاسفار بتدوين أخبار هذه العهود البعيدة عن زمنهم بل انهم دونوا تأريخ البشر منذ الخليقة ، مقتبسين الكثير من قصص حضارة وادي الرافدين وأساطيرها كأسطورة الخليقة البابلية وقصة الطوفان وغيرها ، ولكن هؤلاء الكتاب حسنوا في وضع هذه الاساطير والقصص وهذبوا منها وجعلوها تنطوي على مغزى أخلاقي •

خروج الاسرائيليين من مصر واستيطانهم :-

لقد سبق أن قلنا ان خروج الاسرائيليين من مصر يحدد لنا مبدأ الهجرة الثالثة من هجرات العبرانيين ، وانه بالنظر الى حقيقته التأريخية يمكن عده بداية التأريخ الحقيقي للاسرائيليين • والمرجح كثيرا ان زمن استيطان يوسف وأحفاده في مصر قد كان في عهد حكم الهكسوس في مصر ، وان الحظوة المأثورة التي نالها يوسف في بلاد الفرعون يرجع عهدها الى زمن أحد ملوك هؤلاء الهكسوس الذين يمتون بصلة الى الاقوام السورية ، كما انهم غزوا مصر من سورية التي أقاموا فيها قبل ذلك الغزو • وبعد طرد الهكسوس من مصر ، على ما رأينا في كلامنا على مصر ، دارت الدائرة على هؤلاء العبرانيين ، ويرجح أيضا ان الضغط اشتد عليهم في عهد الفرعون رعمسيس الثاني (١٢٩٩ - ١٢٣٢ ق • م) ، وهو الفرعون «الذي لم يعرف يوسف» (كما

---

(١) اسم يوسف من العبرانية (ياسف ، بفتح السين) ويعني (عساه يزيد) ويحسن الرجوع الى قصته في التوراة التي تعد من أمتع القطع الادبية الروائية •

جاء في التوراة ، سفر الخروج ١ : ٨) ووقع في زمنه الخروج المأثور (في حدود ١٢٩٠ ق • م) • والجدير بالذكر بهذا الصدد ان كلمة اسرائيل ذكرت لاول مرة في مسلة الفرعون «مرين فتاح» بن رعمسيس التي وجدت في طيبة (في حدود ١٢٣٠ ق • م) ، ولعل هذه تشير الى الاسرائيليين الذين بقوا في مصر ولم يخرجوا منها الى فلسطين[١] • وبعد خروج هذه القبيلة الاسرائيليـة من مصـر ظلت تجول سـنين كثيرة في طورسيناء والجهات القريبة منها ، وهذا هو التيه المأثور ، حيث قاسى فيه الاسرائيليون مصاعب كثيرة • وكان قائدهم المشهور «موسى» قد تلقى بحسب مآثر التوراة «العهد» المأثور في «مدين» ، وهو الجزء الجنوبي من شبه جزيرة طور سيناء • وتزوج قائدهم «موسى»[٢] في مدين أيضا من ابنة كاهن مدين (أو مديان) الذي كان على ما يرجح موحدا ويعبد الله باسم «يهوه»[٣] وهو الاسم الشهير الذي عبد به العبرانيون الله ، والمرجح ان أصل اسـم «يهوه» اله من آلهة البدو العرب الشماليين • وهكذا اختلطت هذه القبيلة الاسرائيلية بالقبائل العربية

---

(١) (Hitti, **Op. Cit.,** P. 178).

(٢) يرى الباحثون في اسم «موسى» انه ليس عبرانيا بل اسما مصريا يعني «ابن» حيث نجده يدخل في أسماء جملة فراعنة مثل احموسه وظطموسه الخ • هذا وقد سبق أن نوهنا بالفرضية الطريفة التي وضعها «فرويد» في كتابه (Moses and Monotheism, 1940) حيث يرى هذا بالادلة التاريخية والاستنتاجات الخاصة بالطريقة الفرويدية ان موسى قائد مصري من أتباع الملك اخناتون الشهير الذي ابتدع فكرة الوحدانية ، وان موسى بعد فشل الحركة من بعد موت هذا الفرعون ذهب الى حدود مصر في سيناء وأخذ يبشر بفكرته بين العبرانيين • والغريب في هذا الامر ان النبيين «عاموس» و«اشعيا» لم يذكرا موسى مع ان دعوتهما سبقت تدوين أسفار التوراة الخمسة الاولى بنحو قرن •

(٣) لا يعرف بوجه التأكيد أصل الاله «يهوه» • فيرى بعض الباحثين انه من الآلهة التي كانت تقرن بالبراكين ، وبعضهم يرى في أصله الها خاصا بعبادة القمر البدوية ، حيث معبده أي مسكنه الخيمة وتدور عبادته بالدرجة الاولى على الاعياد وتقريب الذبائح • أما اسمه «يهوه» أو «ياهوه» فلا يعرف اشتقاقه بوجه التأكيد ولعله من الجذر «هوى» أو «هاواه» (أي سقط أو حدث أو وقع الخ) •

الشمالية ولا سيما المدينين والقينيين • وفي حدود ١٢٥٠ ق • م أخذت تهيأ عند الجهة الجنوبية الشرقية من بادية شرقي الاردن للدخول الى فلسطين ،ولا يعلم عددها بالضبط ولكن لعلها لم تكن تتجاوز الـ ٦٠٠٠-٧٠٠٠ نفسا[١] ، ومرت في طريقها بالدويلات الصغيرة مثل «دوم» ومواب و «امون» الواقعة الى الجنوب والشرق والشمال الشرقي من البحر الميت ، ولم يجرؤ العبرانيون على التعرض لها بالهجوم • ولكنهم أحرزوا انتصارا على ملك دويلةأوشيخامارة اموريةورد ذكرها باسممملكة الملك«سيحون»ثم انتصروا على ملك دويلة أخرى هو «عوج» بن عنق المأثور في التوراة رئيس باشان (أي حوران) المشهور بانه من بقايا العمالقة[٢] • واستولوا في فلسطين نفسها على بعض المدن الكنعانية المسورة وأولها لخيش (تل الدوير الآن) ، و «عاي»[٣] و «اريحاء التي دمروها وأحرقوها وقتلوا أهلها حتى الاطفال بأمر «يهوه» كما جاء في التوراة[٤] ، كما استولوا على بعض المدن الكنعانية الشمالية بعد تغلغلهم في الجليل • أما المدن الاخرى المهمة مثل « بيت شان » (بيسان) وأورشليم فلم يستول عليها العبرانيون الا بعد أزمان (في حدود ١٠٠٠ ق • م) •

وبعد تمكن هؤلاء العبرانيين من الاجزاء التي احتلوها في فلسطين اختلطوا بالسكان بالتزاوج وتكاثروا كما انظم اليهم أقرباؤهم الذين كانوا في البلاد قبلهم ، وأخذوا يتغلغلون أيضا الى أجزاء أخرى بالتدريج ، ويؤخذ من أخبار التوراة أنهم قسموا ما استولوا عليه من الاراضي بين احدى عشرة قبيلة من قبائلهم الاثنتي عشرة المنسوبة الى الاسباط الاثني عشر ، أما

---

(١) (Hitti, **Op. Cit.,** 179.)

(٢) انظر وصفه في التوراة في سفر التثنية ٣ : ١١ ، وسفر الخروج ٣ : ١٨ ، ٥ : ١ •

(٣) بالقرب من دير ديوان الآن (انظر يوشع ١٠ : ٣٠ — ٣١) •

(٤) انظر سفر يوشع ٦ : ١٥ فما بعد ، ٦ : ٢ ، ٢٤ •

القبيلة الثانية عشرة وهي قبيلة «لاوي» فقد وزعت بين القبائل اليهودية لاخرى لتقوم لها بادارة الشؤون الدينية بهيئة كهنة •

ويطابق هذا العهد من الاستيطان العهد الذي يعرف في تأريخ اليهود بعصر القضاة الذي شغل بوجه التقريب الربع الاخير من القرن الثاني عشر ق • م وثلاثة الارباع الاولى من القرن الحادي عشر • أما هؤلاء القضاة (واسمهم بالعبرانية شوفطيم ، جمع شوفيط) فكانوا في الواقع زعماء قوميين وحكاما يظهرون ويبرزون في أزمان الشدائد لقيادة قومهم في الحرب مع الاقوام المجاورة كالكنعانيين والمدينيين والفلسطينيين وغيرهم[١] • ونذكر من مشاهير هؤلاء القضاة المقرون اسمهم بالبطولة «شمشون» الجبار الذي اشتهر في حربه مع الفلسطينيين ، وصارت أخباره عند كتبة التوراة أخبارا قصصية روائية مقرونة بالمبالغة البطولية[١] • وكان الفلسطينيون أشد أعداء الاسرائيليين الذين نازعوهم على استيطان الارض الجديدة والاستيلاء عليها • وكان هؤلاء الفلسطينيون ، الذين سميت باسمهم أرض فلسطين ، جماعة من الاقوام الايجية التي فرت من وجه الهجرات اليونانية التي أزاحتهم من مواطنهم ، وقد هاجر قسم من هذه القبائل الى سورية بعد اخفاقهم في النزوح الى مصر حيث صدهم الفرعون «رعمسيس» الثالث في معركة بحرية (١١٩١ ق • م) ، فاستولوا على الساحل السوري الجنوبي الذي سمي باسمهم «فلسطين» ، وكان يمتد من غزة الى جنوبي يافا ، ومن المدن المشهورة الاخرى التي أخذوها في هذا القسم من الساحل السوري عسقلان (عسقلون) واشدود وعقرون و «جت»[٢] • وكان الكرمل الحد الفاصل بينهم وبين الفينيقيين الى الشمال • وكانت مدن الفلسطينيين الخمس المشهورة تؤلف دول مدن كل منها تحت زعيم وتؤلف جميعها فيما بينها اتحادا ، وكانت «أشدود» أشهر هذه

---

(١) راجع أخبار هذا العهد في سفر القضاة •

(٢) أي المعصرة ويرجح ان يكون موقعها الآن التل المعروف الآن باسم «عرق المنشية» الواقع بنحو ٦ ميلا غرب «بيت جبرين» •

المدن التى حازت على الزعامة على اتحـــاد دول المـدن • وقـد بلغ هؤلاء الفلسطينيون فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر ق • م أوج قوتهم ، وأوقعوا فى حدود ١٠٥٠ ق • م فى العبرانيين هزائم شـديدة حتى انهم اسـتولوا على «تابوت العهد» المشهور(١) وأخذوه الى أشدود ، وظلت اليد العليا لهم على العبرانيين الى زمن حكم أول ملك على العبرانيين وهو شـــاؤل (فى حدود ١٠٢٠ – ١٠٠٤ ق • م)(٢) • ومن العوامل المهمة التى مكنت الفلسطينيين على العبرانيين أسلحتهم المصنوعة من الحديد الذى أتقنوا تعدينه وصنعوا منه الدروع والاسلحة الماضية • ولم يتعلم العبرانيون صناعة الحديد الا فى عهد داود (فى حدود ٩٦٠ ق • م) ، وتمكن هذا الملك الذى خلف شاؤل من الغلبة على الفلسطينيين واخضاعهم ، كمـــا اسـتولوا على دويلة «ادوم» التى كانت غنية بالحديد الخام • والمرجح كثيرا ان الفلسطينيين هم الذين علموا الاقوام السورية صناعة الحديد ، ولعل الفينيقيين تعلموا منهـم أيضا صناعة السفن والجرأة على الابحار ، باعتبارهم من موطن بحرى •ومن آثار عهد الفلسطينيين فى فلسطين التى وجدت فى التنقيبات الاثرية صنـاعة نوع من الفخار يشبه الصناعة المينية (الايجية) ، وهذا من جملة الادلة على ان أصلهم من جزر ايجـة • وبدؤا يتضاءلون فى القوة والبـأس منذ عهـد «داود» ، واندمجوا بمرور الازمان بالعبرانيين وبالسكان الساميين الآخرين وفقدوا كيانهم كقوم مستقلين من الناحية السياسية والثقافية •

---

(١) (The Ark) او (The Ark of the Covenant)
تابوت العهد أوالشهادة وهوبحسب المآثرالعبرانية صندوقطويل صنعهموسى منالخشب وصار يشغل اقدس جزء منالمعبد بعد بناءالهيكل ، وأودع فيه لوحا الحجر المنقوشان بالوصايا العشر وأشياء أخرى دينية (أنظر سفر الخروج ٢٥ : ١ فما بعد) • وقبل أن يشيد المعبد كان العبرانيون يحملون التابوت معهم فى رحيلهم •

(٢) انظر سفر صاموئيل الاول ١٣ : ٣ فما بعد ، ٣١ : ١٢ •

نشــوء الملكية والمملكة الموحدة :ـ

ان الازمات التى تعرض لها العبرانيون فى صراعهم مع الاقوام المجاورة ولا سيما حروبهم مع الفلسطينيين وتقليدهم للاقوام المجــاورة التى كانت يحكمها الملوك قد عملت على ظهور نظام الملكية عندهم ، وقد كان ذلك بتعيين أول ملك عليهم وهو شاؤل (فى حدود ١٠٢٠ ـ ١٠٠٤ ق ٠ م) الذى يحدد عهده بداية تأريخ العبرانيين كقوم لهم كيان سياسى ٠ وكانوا من جميع الاقوام السامية قد تميزوا وتفردوا بتمسكهم الشديد بقوميتهم وبدينهم ، وتكاد تكون هذه القومية والديانة شيئا واحدا ٠ وتروى لنا التوراة ان زعمـاء العبرانيين طلبوا من زعيمهم الدينى ساموئيل (وكان آخر القضاة) أن يعين لهم «ملـكا ليحكم ويقضى بينهم مثل الاقوام والشعوب الاخرى»[١] ، فاختير شـاؤل الذى بذ قومه ببطولته وقيافته و«مسح» ملكا (فى حدود ١٠٢٠ ق ٠ م)[٢] واقتبس العبرانيون فى تنظيـم ملوكيتهم عرف الاقوام المجاورة وأنظمتهم ، محتفظين ببعض الميزات والانظمة الخاصة بهم ، ولا سيما أصول التنظيـم القبلى لاغراض ادارة المملكة ، وحكم الملك بموجب أحكام الاله «يهوه» كما كان يستوحيها كهنتـه ورجال الدين المقدســون عندهم ٠ ومما يذكر عن «شاؤل» الذى كان أول ملك عندهم انه لم يكن كفوءا للحكم فيهم ٠ وأخفق حتى فى تخليص قومه من نفوذ الفلسطينيين وتحكمهم فيهم ٠ وفى معركة اشتبك بها معهم قتل أبناؤه الثلاثة وجرح جرحا خطيرا ، وانتحر فقطع الاعداء رأسه وعلقوا جسمه وأجسام أبنائه فى بيسان وأودعوا درعه وسلاحه قربانا فى معبد الالهة «عشتاروت»[٣] ٠ وكان «دواد» حامل درع الملك شاؤل فصـار ملكا من بعده (فى حدود ١٠٠٤ ـ ٩٦٠ ق ٠ م) ،وكان فى أول أمره يحكم فى الواقع بصفته تابعا للفلسطينيين ، ولكنه تمكن أخيرا من احراز الاستقلال التام واشتهر بنزاله فى عهد شاؤل مع «جالوت» البطل الفلسطينى الشهير ٠

---

(١) انظر سفر ساموئيل الاول ٨ : ٥ ٠

(٢) سفر ساموئيل الاول ٩ : ٢ ٠

(٣) سفر ساموئيل الاول ٣١ : ١ ـ ١٠ ٠

ولم يكتف بذلك بل انه وسع حدود مملكته الى جهات لم تبلغها المملكة قبله ولا بعده • فأولا استطاع أن يصد الفلسطينيين ويقضي على سلطانهم تقريبا واستولى على دويلات «ادوم» و «مواب» و «امون» (عمون) ، كما انه غزا دمشق • ومكنه استيلاؤه على «ادوم» من السيطرة على الطريق التجارية المهمة بين بلاد الشام وبلاد العرب • واستطاع أن ينشأ دولة قوية ويوحد قومه موقتا • واتخذ عاصمته في «اورشليم» التي انتزعها من سكانها من غير الساميين (اليبوسيين) ، وكان هذا اختيارا موفقا لموقعها بين القسمين الشمالي والجنوبي ، وبنى فيها قصره الملكي على أيدي معماريين من أهل صور بمساعدة صديقه «حيرام» ملك صور (٩٨١–٩٤٧ ق • م) ، وأقام داود معبدا قوميا لليهود وهو معبد «يهوه» ، جاعلا بذلك عبادة «يهوه» الديانة الرسمية للمملكة الموحدة •

وخلف «داود» ابنه سليمان (٩٦٠ – ٩٢٥ ق • م) الذي بلغت في عهده المملكة أوج ازدهارها • واشتهر باهتمامه بالتجارة الخارجية والصناعة والتعدين والبناء والتعمير بمقياس كبير • ولكنه حكم حكما مستبدا قاسيا وعاش عيشة بذخ واسراف في أبهة القصر والبلاط على غرار ملوك مصر وآشور ، وأسرف في بناء قصره الذي استغرق بناؤه زهاء ثلاثة عشر عاما وقام ببنائه البناؤن الفينيقيون كما كان الحال في قصر أبيه ، واستعمل في بنائه عمدا كثيرة من ارز لبنان حتى سمي باسم «بيت غابة لبنان»[١] • واشتهر أكثر من ذلك في بنائه المعبد المشهور باسم «هيكل» سليمان الذي يظن ان موضعه الآن تحت قبة الصخرة ، واستغرق بناؤه سبع سنين ، واقتبس الكثير من فن العمارة الكنعاني حتى انه اسمه «الهيكل» (هيكال) مأخوذ من الكنعانية (ويرجع المصطلح الى أصل بابلي سومري كما ألمحنا الى ذلك من قبل) • واهتم سليمان ببناء الحصون والقلاع والثكنات والاسطبلات ، وقد عثر على خرائب اسطبلاته في التنقيبات الحديثة التي أجريت في «مجدو» • وانشأ

---

(١) سفر الملوك الاول ٧ : ٢ (Hitti, **Op. Cit., P.** 189).

أيضا بمساعدة صديقه «حيرام» ملك صور اسطولا من السفن لتجارة البحر الاحمر فى سواحل الجزيرة وشرقى افريقية لجلب البهار والصموغ والعاج والذهب والاحجار الكريمة ، وكانت قاعدته فى رأس خليج العقبة[١] • واشتهر سليمان فى الاساطير والقصص بالحكمة والثروة ، ونسبت له الاساطير ان الجن كانت تبنى له[٢] ، ومن ذلك القصة الطريفة مع ملكة عرب الجنوب (ملكة سبأ) الوارد اسمها فى المآثر العربية باسم بلقيس ، وتدعى السلالة الحاكمة فى الحبشة انها متحدرة من سليمان من زواجه بلقيس ويلقب ملك الحبشة بأسد يهوذا •

ولكن الوثائق التأريخية لا تؤيد كل الشهرة أو القدرة التى اشتهر بها سليمان ، فان المملكة التى ورثها عن أبيه كانت أكبر وأغنى مما عليه المملكة فى عهده وأورثها من بعده الى خلفه • وقد بدأ فى عهده تدخل فراعنة مصر فى مدن الساحل الجنوبى من فلسطين وتزوج سليمان من ابنة الفرعون المصرى (ولعل ذلك اضطرارا) • وذكرت التوراة ان سليمان كان له ٧٠٠ زوجة و ٣٠٠ سرية[٣] ، واستطاع ملك دمشق الآرامى «رزون» من التخلص من نفوذه[٤] ، وكان لبذخ سليمان واسرافه فى حياته الخاصة والعامة على

---

(١) وقد نقب فى عام ١٩٣٨ فى الموضع الذى كان قاعدة الاسطول وهو تل الخليفة انظر تقرير الحفريات فى
Bullt. Amer Schools of Orient Research, No. 72 (1938).

(٢) وقد ورد ذلك فى شعر العرب مثل قول النابغة الذبيانى فى تدمر (وخبر الجن انى قد اذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد) وتروى التوراة (٢ أيام ٨ : ٤) ان سليمان بنى تدمر ، وهذه الرواية أما لتمجيد سليمان أو خلط اسم تدمر بمدينة فى ادوم اسمها «تمار» أو «تمر» بناها سليمان

(٣) سفر الملوك الاول ١١ : ٣ وكان لبعض نسوته تاثير عظيم فى تصرف سليمان حتى انه أقام بناء على طلبهن مواضع للعبادة الوثنية قرب اورشليم لعبادة آلهة صيدا وموآب وعمون (سفر الملوك الاول ١١ : ٥ ــ ٨) •

(٤) انظر ص (٢٧٢ ــ ٢٧٣) •

طراز ملوك الشرق القديم وفرضه العمل القسرى على رعاياه أثر عظيم فى تقهقر المملكة وانقسامها من بعده الى مملكتين على ما سنرى بعد قليل ٠

انقســـام المملكة :ـ

والى العوامل التى نوهنا بها مما عمل على ضعف المملكة وانقسامها يضاف عامل آخر مهم هو اختلاف أهل الجنوب عن أهل الشمال فى الثقافة واسلوب الحياة والعيش ٠ فكان الشمال أهل زراعة يعيشون على زراعة القمح والزيتون والكروم والحاصلات الزراعية الاخرى الناتجة من أراضيهم الخصبة بالنسبة الى أراضى الجنوب ٠ أما أهل الجنوب فكانوا رعاة بالدرجة الاولى كما ان أهل الشمال كانوا أكثر تأثرا بالكنعانيين وبثقافتهم ودياناتهم الوثنية ولم تتمكن منهم عبادة اله العبرانيين «يهوه» كما كانت فى الجنوب ٠ ولما أن توفى سليمان (فى حدود ٨٢٥ ق ٠ م) اجتمع ممثلو القبائل الاثنتى عشرة لانتخاب ابنه البالغ ستة عشر عاما وهو «رحبعام» خليفة له وسأله المجتمعون عما اذا كان سيتعهد بتقليل فداحة الضرائب التى كانت فى عهد أبيه فأجابهم جوابا طائشا هو كما جاء فى التوراة : « لقد أدبكم أبى بالسياط ، أما أنا فسأؤدبكم بالعقارب »[1] ، وعندها رفضت عشر قبائل الاعتراف بخلافته واختارت بدلا منه رئيس الجمعية وهو «يربعام» من سبط «افرايم» ٠ فتكون من هذه القبائل العشر المملكة الشمالية التى عرفت باسم «اسرائيل» ، وكانت عاصمتها فى مبدأ الامر فى «شكيم» (قرب نابلس) ثم فى «ترصه» وأخيرا فى مدينة السامرة الشهيرة (وهى سبسطية الآن) ، وتألف من القبيلتين الباقيتين وهما «يهوذا» و «بنيامين» اللتان بقيتا على عهد «رحبعام» المملكة الجنوبية التى عرفت باسم مملكة «يهوذا» وعاصمتها فى اورشليم ٠

اســرائيل :ـ

وهكذا نشأت هاتان المملكتان وهما تحملان بذور التنافس والتنافر ، بل غالبا ما استحكم العداء فيما بينهما ونشبت الحروب ، فمرة تكون اليد العليا

---

(١) سفر الملوك الاول ١٢ : ١١ ٠

لاسرائيل ومرة ليهوذا ،الامر الذى أضعفهما علاوة على الانحلال الداخلى ٠ والى هذه الاخطار الناجمة من الداخل فان كلتا المملكتين تعرضتا لضغط الآشوريين وضرباتهم المهلكة ، اذ كان الآشوريون فى أوج عظمتهم العسكرية فى عهد الامبراطورية الآشورية الاولى ٠ وكان من مشاهير ملوك مملكة اسرائيل «عومرى» (٨٨٥ - ٨٧٤) الذى أسس مدينة السامرة[١] حيث حصنها ونقل مقر العاصمة اليها من (ترصه) ٠ وخلفه آحاب (٨٧٤ - ٨٥٢ ق ٠ م) وكان حليفا لدمشق فى موقعة القرقار الشهيرة وفى زمنه حدث نزاع حاد فى المملكة بتأثير زوجته ابنة ملك صور وصيدا التى حملت زوجها على ادخال العبادة الوثنية الخاصة ببعل مما حرض عليه كهنته «يهوه» ثم انتهى النزاع بثورة قام بها «يهو» أو (ياهو)، أحد قواد الجيش الذى قضى على سلالة «عومرى» وصار ملكا فى عام ٨٤٢ ق ٠ م ٠ والجدير بالذكر ان «يهو» هذا هو الذى ورد مصورا هو و رسله فى مسلة الملك الآشورى شيلمنصر الثالث المشهورة باسم المسلة السوداء ، حيث نجده ساجدا يقبل الارض أمام الملك الآشورى ويقدم له الجزية ٠ وكان آخر ملك قوى من ملوك هذه المملكة «يربعام» الثانى (٧٨٥-٧٤٥) ، وقد صادف عهده ضعف الامبراطورية الآشورية فى فترة الضعف التى سبقت قيام تجلاتبليزر الثالث (٧٤٧-٧٢٧ ق ٠ م) ، وتأسيسه الامبراطورية الآشورية الثانية ، حيث استطاع هذا ، على ما مر بنا ، أن يعيد الامبراطورية الآشورية بجملة حملات حربية سريعة فى بلاد الشام ، فدخلت ضمن السيطرة الآشورية مملكة اسرائيل ويهوذا حيث دفعتا الجزية ولما أن رفض ملك اسرائيل «هوشع» اداء الجزية بتحريض مصر هاجم مملكته شيلمنصر الخامس خليفة تجلاتبليزر ، فحاصر السامرة

---

(١) ويعرف موضعها الآن باسم سبسطية المأخوذ من الاسم اليونانى (سيبستوس) (Sebastos) (أى المبجل نسبة الى اسم الامبراطور الرومانى اوغسطس) ، وقدسماها بهذا الاسم هيرود الكبير بعد أن أعادبناءها عام ٢٧ ق ٠ م ، وسماها باسم اوغسطس تبجيلا له ٠ وقد أظهرت التنقيبات الحديثة فيها عن آثار قصر هذا الملك ومجموعة من الآثار العاجية (أنظر
Crowfoot, **Early Ivories from Samaria** (London, 1938).

زهاء ثلاث سنوات وأكمل فتحها خلفه سرجون (في حدود ٧٢٢ – ٧٢١ ق ٠ م) فأسر زهرة رجال المملكة (زهاء ٢٧،٢٨٠ شخصا) وأجلاهم أسرى الى بلاد ماذي[١] ، وتحطمت مملكة اسرائيل ، وأحل محل هؤلاء الاسرى المبعدين جماعات من السكان جلبهم من بلاد بابل وعيلام وسورية وبلاد العرب وأسكنهم في بلاد السامرة[٢] ، فاختلط هؤلاء مع الاسرائيليين ونشأ عن ذلك ما يعرف في تأريخ اليهود باسم السامريين حيث اختلطت عبادة هؤلاء الاقوام الوثنيين بعبادة «يهوه» ، ونجد أثر عبادة بعض الآلهة البابلية واضحة ولا سيما عبادة الاله نرجال اله «كوثى» ، حيث كان من جملة الاقوام الذين أحلهم محل يهود السامرة سكان من أهل «كوثى» (تل ابراهيم الآن) ٠ فكان ذلك مما فاقم من شقة الخلاف بين أهل السامرة وأهل يهوذا ، بحيث حرم التزاوج ما بين القومين ، حتى انه لما عاد «عزرا» و «نحميا» من الاسر البابلي (في حدود ٤٣٢ ق ٠ م) بدأ بتطهير اليهود في اورشليم ، فطردا من اورشليم حفيد الكاهن الاعلى لزواجه بابنة الحاكم السامري[٣] ، وظلت طائفة السامريين بهيئة مذهب متحجر الى الزمن الحاضر ويمثلهم الآن زهاء ٢٠٠ شخصا يعيشون في نابلس (وهي شكيم القديمة ، أول عاصمة للسامريين) ٠

مملكة يهوذا :–

عاشت مملكة الجنوب ، أي مملكة يهوذا ، من بعد زوال دولة اسرائيل بزهاء قرن وثلث القرن[٤] ٠ ومن الحوادث السياسية المهمة التي وقعت لمملكة يهوذا غزو مصر لها ، حيث غزاها الفرعون الليبي «شيشونك» (وهو

---

(١) سفر الملوك الثاني ١٧ : ٦ ٠

(٢) انظر Luckenbill, **Ancient Records of Assyria & Babylonia** II, 17, 118.

وانظر ما ذكرناه في الجزء الاول عن سياسة تهجير السكان التي اتبعها الآشوريون

(٣) (سفر نحميا ١٣ : ٢٨) ٠

(٤) لقد حكم في مملكة يهوذا عدد من الملوك يعادل عدد ملوك اسرائيل، اذ حكم في كلتا المملكتين تسعة عشر ملكا (Hitti, **Op. Cit.**, 198).

شيشق الوارد في التوراة) مؤسس السلالة الثانية والعشرين، وتوغل فيها (في حدود ٩٢٠ ق.م) في زمن رحبعام وخرب مدنها وضرب اورشليم وأخذ غنائم كثيرة، ومن بين ذلك خزائن القصر والهيكل[١] . واستفادت يهوذا في القرن الثامن من توقف الفتوح الآشورية والمصرية . ولكن زوال مملكة اسرائيل من الوجود (في عام ٧٢١ ق . م) على يد الدولة الآشورية ، كما مر بنا ، عرض مملكة يهوذا الى هجمات الآشوريين هجمات مباشرة أشد من ذي قبل . وصارت تؤدي الجزية الى المملكة الآشورية في عهد الملك «حزقيا» (٧٢١ - ٦٩٣ ق.م) بن آحاز فسلمت من هجمات الآشوريين، ولكن هذا لم يستمر طويلا لان «حزقيا» تحدى السلطان الآشوري بتحريض مصر وتشجيع النبي «اشعيا» ، فقوى نفسه بالتحالف مع الدويلات المجاورة وتهيأ لحصار طويل حتى انه حفر قناة طويلة (طولها زهاء ١٧٠٠ قدما في الجبل) ليضمن الماء لعاصمته . وكان الملك سرجون وابنه سنحاريب قد قام بسلسلة حملات حربية على المدن الفينيقية والفلسطينية ، وحاصر سنحاريب اورشليم في ٧٠١ ق . م وترك على حصارها جزءا من جيشه بعد ان استولى على أكثر المدن الفينيقية وذهب لملاقاة الجيش المصري بقيادة الملك «ترهاقه» (طهراقا)[٢] . واخفق حصار سنحاريب لاورشليم لعله بسبب تفشي الوباء ، وتروي التوراة[٣] ان ملاك الرب ضرب العدو وأهلك عددا غفيرا منهم في ليلة واحدة . ومع ان اورشليم لم تسقط الا ان الجيش الآشوري ترك البلاد خرابا ولم يستطع حزقيا الاحتفاظ بعرشه الا بعد أن دفع ما كان يترتب عليه من الجزية واعترافه بسيادة الآشوريين . وظل الامر كذلك حتى نهاية الدولة الآشورية وسقوط نينوى على أيدي الماذيين والبابليين الكلدانيين في عام ٦١٢ ق.م، ويبدو ان مملكة يهوذا انحازت الى جانب الدولة البابلية الجديدة

---

(١) سفر الملوك الاول ١٤ : ٢٥ - ٢٦ .

(٢) انظر ذلك في الكلام على الآشوريين (الجزء الاول الص ١٩٢ فما بعد)

(٣) سفر الملوك الثاني ١٩ : ٣٥ .

منذ البدء ، فان ملكها « يوشيا » (Josiah) (٦٣٨ – ٦٠٨ ق ٠ م) قاد جيشا لمحاربة الجيش المصرى بقيادة «نيخو» الذى جاء للاستيلاء على بلاد الشام ، ومات مجروحا فى موقعة « مجدو »[١] ، واشتهر الملك « يوشيا » باصلاحاته الدينية والقضاء على الشعائر الوثنية الدخيلة وظلت مملكة يهوذا الصغيرة من بعد موت «يوشيا» تتقلب فى سياستها بين الخضوع الى الدولة البابلية الجديدة وبين تحالفها مع مصر ٠ وكان لسوء حظ ملكها الجديد بن «يوشيا» وهو «يهوياقيم» (٦٠٨ – ٥٩٧ ق ٠ م) ان اختار معارضة بابل والتحالف مع مصر فى عهد «نيخو» الذى عينه على عرش يهوذا ، وكان نبوخذنصر ملك بابل قد دحر جيش نيخو فى كركميش (٦٠٥ ق ٠ م) وبذلك ثبت النفوذ البابلى فى جميع بلاد الشام ، ووجه نبوخذنصر جيشا على يهوذا فدخل العاصمة «اورشليم» (٥٩٧ ق ٠ م) فأسر الملك المنشق «يهوياقيم» وأخذه مقيدا بالسلاسل الى بابل[٢] (سفر الايام الثانى ٣٦ : ٦) ، ونصب ملكا على يهوذا ابنه « يهو ياكين» (ذات المصدر) الذى لم يشغل العرش سوى ثلاثة أشهر (فى ٥٩٧ ق ٠ م) لانه طمع أيضا بالثورة فجاء نبوخذنصر بحملة يقودها بنفسه وحاصر اورشليم التى استسلمت بعد حصار قصير الامد ، فأخذ نبوخذنصر الملك الشاب «يهوياكين» وزوجاته وموظفيه و ٧٠٠٠ من جنده ونحو ١٠٠ من الصناع ، وحملهم أسرى الى بابل ٠ وكان حزقيال (ذو الكفل فى المصادر العربية) من بين رؤساء الدين المهمين الذين أخذوا أسرى وكان هذا هو السبى البابلى الاول ٠ وعين نبوخذنصر « صدقيا » أحد أبناء « يوشيا » وعم «يهو ياكين» على يهوذا ، وحكم هذا الملك (٥٩٧ – ٥٨٦ ق ٠ م) برهة من الزمن وهو محافظ على ولائه لنبوخذنصر ، ولكنه سول له من بعدئذ أن

---

(١) سفر الايام الثانى ٣٥ : ٢٠ – ٢٣ ، ٣٤ وسفر الملوك الثانى ٢٣ : ٢٩ – ٣٠ ٠

(٢) لا يعلم بوجه التاكيد هل اخذ أسيرا الى بابل أو أنه مات أو قتل فى اورشليم ٠ والطريف ذكره بهذا الصدد ان النبى «ارمياء» الذى كان ضد يهو ياقيم وكفره قدتنبأ عنه انه سيدفن كما يدفن الحمار (ارميا ٢٢ : ١٨ ، ١٩)

يحاول العصيان والاستقلال ولعل ذلك بتحريض مصر ، فغضب نبوخذنصر في هذه المرة غضبا شديدا وأرسل حملة قوية حاصرت اورشليم ، وأرسل الفرعون المصري (حوفرا أو افريز الوارد في هيرودوتس) نجدة لحليفه ، ولكن ذلك لم يجد نفعا ، وبعد حصار دام زهاء السنة ونصف السنة سقطت اورشليم في عام ٥٨٦ ق ٠ م ، وحاول ملكها التمس الهرب ولكنه قبض عليه وأخذ الى مقر قيادة الملك البابلي في «ربلا» (ربلة) على العاصي فذبح أبناؤه أمام عينيه ثم فقأت عيناه وقيد بالسلاسل حيث أخذ مع الاسرى الى بابل ٠ أما اورشليم فقد خربت ودمرت تدميرا كاملا وأزيل الهيكل من الوجود وأخذ أهم السكان أسرى ، ويقدر عددهم بزهاء (٥٠,٠٠٠) شخصا ولم يترك سوى قلة بائسة ، كما ان المدن المهمة في يهوذا قد خربت وظلت خرابا ٠ وهذا هو السبي البابلي المشهور ٠ وبعدها أكمل نبوخذنصر في عام ٥٨٢ ق ٠ م فتح المدن الاخرى المجاورة ولا سيما مدن فينيقية الا مدينة صور التي قاومت زمنا طويلا حتى عام ٥٧٢ ق ٠ م ، ثم غزيت صور مرة أخرى في ٥٦٤ ق ٠ م ، فأصبحت جميع بلاد الشام خاضعة للدولة الكلدانية ٠

لقد سبق أن نوهنا[1] بأثر السبي البابلي وبقاء اليهود في بابل في تطور ديانتهم حيث قلنا ان الديانة وتطور فكرة الوحدانية الشاملة وتساميها الروحي انما حدث وهم في الاسر يعانون الاضطهاد وان الديانة اليهودية كما نعرفها انما ولدت في أثناء الاسر في بلاد بابل ، كما ان اسفار التوراة قد دونت معظمها في هذه الفترة المظلمة بعيد رجوع اليهود الى فلسطين في عهد الملك الفارسي كورش ، وقد عاش دانيال في بابل في عهد الملك بلشاصر على ما تروي التوراة وهو الذي فسر للملك «الكتابة على الحائط»[2] ، ونال هو وجملة من اليهود البارزين معه حظوة لدى البلاط البابلي ٠

أما من ناحية التوراة فان الاسفار الاولى التي تبتدأ بها التوراة عادة فقد أخذت شكلها الذي جاءتنا به في خلال مكث اليهود في بلاد بابل في أثناء

(١) انظر الجزء الاول ٢٠٩ ـ ٢١٠ ٠

(٢) انظر الجزء الاول ص ٢١٦ وسفر دانيال ٠

السبى (٥٨٦ – ٥٣٨ ق ٠ م) الذى ذكرناه ، ولكن المرجح ان كتابتها قد أعيدت ونقحت كثيرا فى خلال القرنين اللذين انتهيا فى غزو الاسكندر الكبير للامبراطورية الفارسية (أى فى العهد الفارسى الاخميني ٥٣٨ – ٣٣٠ ق٠م٠) ومع انه يوجد فى الاسفار الخمسة الاولى مادة قديمة ، ولكن هذه الاسفار ليست فى الواقع أقدم كتب التوراة تدوينا ، وانما الراجح ان اسفار الانبياء هى أقدم كتب التوراة ٠ وكتب فى العهد الفارسى كثير من أسفار التوراة الحديثة فى تأريخها ، وبعضها لم يدون الا فى العهد السلوقى مثل كتاب دانيال (فى حدود ١٦٨ – ١٦٥ ق٠م٠) ، كما يحتمل أن جملة من مجاميع المزامير تعود الى هذا العهد[١]. فيبدو ان مما لا شك فيه ان كهنة اليهود وأهل المعرفة منهم قد أخذوا معهم الى بلاد بابل سجلاتهم القديمة الخاصة بتواريخ يهوذا واسرائيل ، كما استصحبوا معهم الكتابات الدينية المقدسة الخاصة بالانبياء من «عاموس» الى «هوشع» (القرن الثامن ق٠م٠) الى كتاب حزقيال من بعد قرنين من الزمان ٠

وبمناسبة كلامنا على تدوين أسفار التوراة ننوه بخبر الاكتشاف الاثرى الحديث حيث عثر (فى عام ١٩٤٧) على مخطوطات بالعبرانية فى اقليم البحر الميت ثبت انها أجزاء من التوراة تعد أقدم ما لدينا من المخطوطات التوراتية حيث يرجع عهدها الى القرن الثالث أو الثانى ق ٠ م بالمقارنة مع أقدم مخطوط بالعبرية للتوراة من تأريخ ٩١٦ للميلاد[٢] ٠ وجدت هذه المخطوطات الجديدة

---

(١) Ernest William Barnes, **The Rise of Christianity** (1948), 16.

(٢) وهو المخطوط المعروف باسم (Codex Babylonicus Petropolitanus) أما نصوص المخطوطات الاخرى فهى الترجمة اليونانية من القرن الثالث أو الثانى ق ٠ م ، وهى المعروفة باسم الترجمة السبعينية (Septuagint) حيث قلنا ان التسمية ناشئة من الاعتقاد بان هذه الترجمة تمت على أيدى ٧٠ أو ٧٢ مترجما والمرجح ان الترجمة تمت فى مصر ثم الترجمة اللاتينية المعروفة باسم (Vulgate) التى قام بها القديس جيروم (٣٤٥ – ٤٢٠ م) الذى عاش فى سورية وقضى شطرا من حياته فى التنسك وصارت ترجمته المعول عليها فى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ٠

في كهف في موضع في شرقي الاردن يسمى «خربة قمران» (أي خربة الحجر) واستطاع الباحثون أن يعينوا من بين المخطوطات العبرية المكتشفة نصا كاملا لسفر «اشعياء» وأجزاء من أسفار التوراة الاخرى ، ومخطوطا طريفا عنوانه «حرب أبناء النور لابناء الظلام» ثبت انه من الكتابات الدينية الخاصة بالطائفة اليهودية المعروفة باسم الـ «ايسينين» (Essenes) [١] ، وهي طائفة كانت تعيش عيشة الزهد والتقشف وتمارس التعميد وجملة أشياء تشبه ما في الديانة المسيحية وترى في الحياة جريا على المبدأ الزرادشتي الفارسي ، حربا بين الخير والشر ، بين النور والظلام • وانها التجأت الى هذا الموضع في أثناء الحروب اليهودية الرومانية •

ولما فتح كورش الفارسي بابل (٥٣٩ ــ ٥٣٨ ق•م) على ما رأينا في أخبار الدولة الكلدانية في الجزء الاول وجد هناك المهجرين من أسرى نبوخذنصر (أسر ٥٩٧ وأسر ٥٨٦ ق • م) فأحسن اليهم ولا يستبعد أنهم ساعدوه في فتح المدينة[٢] وأصدر أمره بالسماح لمن أراد منهم الرجوع الى موطنه وسمح لهم باعادة بناء المعبد[٣] ، ولعل الحافز الذي دفعه على ذلك ، بالاضافة الى ما اشتهر من التساهل ، أن يجعل من هؤلاء اليهود العائدين الى وطنهم جماعة بجانب السلطة الفارسية في بلاد سورية ضد الجماعات الموالية للنفوذ المصري وازاء هذه المعاملة رحب اليهود بكورش ناعتين اياه بالمخلص الالهي أو المسيح المنتظر[٤] • هذا ولا يعلم كم من اليهود من انتهز هذه الفرصة فرجع

---

(١) انظر حول ذلك وحول خبر الاكتشاف

André Dupont-Sommer, **The Jewish Sect of Qumrân and the Essenes**

أما الطائفتان اليهوديتان الآخريان فهما طائفة الفريسيين (Pharisee) وطائفة الصدوقيين (Sadducee)

(٢) Hitti, **Opp. Cit.**, 221.

(٣) ان أخبار ذلك مدونة بالتفصيل في سفر عزرا (وحول سماح كورش لهم بالرجوع انظر عزرا ٦ : ٣ ــ ٥) •

(٤) اشعيا ٤٤ : ٢٨ ، ٤٥ : ١ •

الى موطنه . ولكن الرأى الحديث على ما نوهنا سابقا[١] لا يميل الى الاخذ بالاعداد التى يذكرها سفر «عزرا» و «نحميا» (٤٢٣٦٠) ، ولعل الذين رجعوا انحصر عددهم فى اولئك الذين لم يفلحوا كثيرا فى الارض الجديدة ، ومن المتعصبين لاعادة الوطن القومى ، كما ان المعروف من الوثائق التأريخية التى جاءتنا من العراق من العهود التى أعقبت العهد البابلى الحديث تشير الى ان اليهود أصابوا النجاح والفلاح وظل قسم مهم منهم بعد السماح لهم بالرجوع الى موطنهم ، كما يشير الى ذلك نشوء التلمود البابلى .

ومهما كان الحال فان اليهود الذين عادوا الى فلسطين بقيادة «زروبابل»[٢] قد أعادوا معهم كنائز الهيكل التى سلبها نبوخذنصر ، وصار أول حاكم على

---

(١) الجزء الاول ٢١٦ ، وحول عدد الراجعين وأسرهم انظر عزرا ٢ : ٦٤ ؛ ونحميا ٧ : ٦٦ . وحول الرأى القائل بقلة من رجع منهم انظر
Olmstead, **History of the Persian Empire.**

ولعله مما يؤيد هذا الرأى ما نعرفه من اخبار اليهود فى بلاد بابل من بعد رجوع جماعة من الاسرى الى فلسطين حيث كما نعرف نشأت التعاليم اليهودية المهمة المعروفة باسم التلمود فى بلاد بابل ، ولا سيما التلمود البابلى (فى حدود القرن الخامس للميلاد) ، وهناك تلمود آخر هو المعروف باسم تلمود اورشليم (الذى دونه حاخامو طبرية بين القرنين الثالث والخامس للميلاد) والتلمود (ومعناه تعليم) يقسم الى قسمين : (١) المشنا (ومعناه الموضوع والتكرار) (٢) الجمارة (التفسير) ، فتعنى «المشنا» مجموعة من مآثر اليهود وتقاليدهم مع بعض الآيات من التوراة حيث يعتقد فيها اليهود انها لقنت الى موسى فى الجبل وأخذها عنه هارون واليعازر ويشوع ونقلت عنهم الى الانبياء ثم الى المجمع اليهودى العظيم ، وقد دونت فى القرن الثانى للميلاد (حيث جمعها الحاخام يهوذا) . أما الجمارة فهى مجموعة التفاسير والشروح والمناظرات التى جرت فى مدارس اليهود الدينية من بعد «المشنا» . انظر حول التلمود : —

(1) H. L. Strack, **Einleitung in Talmud und Midrash** (1921).
(2) H.S. Linfield, **"The Rlation of the Jewish Talmud to Babylonian Law" in AJSL,** XXXVI, 40 ff.

(٢) «زروبابل» وهو اسم بابلى ماخوذ من «زيرو بابلى» (أى زرع أو ولادة بابل) ، وقد تحدر هذا من «يهو ياكين» ، ويدعى زروبابل أيضا باسم «شيشبصر» الذى قلنا انه اسم بابلى أيضا (لعله ماخوذ من شمس — ابال — اوصر ، انظر الجزء الاول ، الص ٢١٦) .

فلسطين وتابعا الى الدولة الفارسية ، وشـرع يعيد بناء الهيكل الذى لم يتم بناؤه الا بعد صعوبات فى عهد دارا الكبير (عام ٥١٥ ق ٠ م) ٠ وهناك جماعة أخرى من اليهود رجعت الى موطنها بسماح من الملك الفارسى «ارتحشستا» الاول (٤٦٥ ـ ٤٢٤ ق ٠ م) فقادت جماعة بقيادة «نحميا» والاخرى بقيادة «عزرا» ، فحكم نحميا على اليهود بصفته تابعا للدولة الفارسية ، حيث سمح لهم بالحكم الذاتى ٠ ومما يجدر ذكره بصدد اللغة العبرانية فى هذا العهد انها بطلت أن تكون لغة الكلام المحكية وحلت محلها الآرامية ، هذا وسنذكر أحوال اليهود فى العهود التى أعقبت العهد الفارسى فى الكلام الموجز الذى سنفرده لاحوال البلاد السورية فى تلك العهود ٠

شىء عن الاوجه الثقافية والدينية : ـ

وقبل أن نذكر مجمل أحوال البلاد السورية فى العهود المتأخرة التى نوهنا بها نورد هنا بعض الامور الموجزة عن الاوجه الثقافية والدينية فى حياة العبرانيين ٠ فمن الامور العامة التى تذكر بهذا الصدد أن العبرانيين ساروا فى بدء حياتهم على طراز ما كان سائدا من نمط الحضارة والثقافة فى الشرق الادنى بالشكل الكنعانى ٠ فأخذوا من الكنعانيين لغتهم وحروف الهجاء ، وكذلك تعلموا منهم الزراعة ، حيث دخل العبرانيون الى موطنهم وهم بدو ، فانتقلوا من الرعى الى الزراعة فى موطنهم الجديد ٠ واقتبسوا من الكنعانيين أيضا بعض الشعائر والطقوس الدينية ، ولا سيما تلك التى تتعلق بالزراعة ، وان ما جاء فى التوراة من تحريم هذه الشعائر المقتبسة يدل على ان العبرانيين كانوا يمارسونها ٠ وحتى «يهوه» ، الاله الرسمى للعبرانيين ، أخذ كثيرا من الصفات الخاصة بآلهة الكنعانيين ولا سيما «بعل» ، حيث كانت عبادته تهدد عبادة يهوه ٠

وتأثر العبرانيون أيضا فى فهم الدينى بالكنعانيين ، فمثلا ان هيكل سليمان المشهور لم يقتصر على ان بنائيه كانوا من صور بل انه بنى بموجب تصميم معبد كنعانى وكذلك يقال فى زخرفته وتزويقه ٠ وهكذا كان قصر ملوكهم فى اورشليم ٠ كما استعاروا من الكنعانيين الموسيقى والآلاتها، ولاسيما الموسيقى

الدينية . ويوجد شبه قوى بين الشعر العبرانى والشعر الكنعانى كما وجدت نماذج منه حديثا فى «اوغاريت» (رأس الشمرة) ، كما تأثر الادب العبرانى بوجه عام بالادب الكنعانى . وتأثروا أيضا بالعادات الكنعانية فيما يخص مراسيم الدفن وبعض العقائد الخاصة بالعالم الآخر . وبوجه الاجمال لم يكن أثر العبرانيين فى الحضارة البشرية من الناحية المادية شيئا يذكر ، وانما انحصر تراثهم الكبير فى الناحية الدينية ، فى مسألة الوحدانية التى تطورت وتهذبت عندهم ، كما أثرت التوراة فى معظم العالم المتمدن الآن ، والديانة المسيحية من ناحية الاصل التأريخى بنت الديانة اليهودية .

ولكن قبل أن تأتينا التوراة بشكلها النهائى المدون كانت مادتها قدمرت بعدة أدوار تطورية ، من الرواية الشفهية والانتخاب والحذف ثم التدوين . أما مدونو التوراة فيصح أن نقول انه اشترك فى تدوينها جماعات كثيرة متنوعة منهم المشرعون مثل موسى المتكلم بوحى من الله (يهوه) ، وتحتوى كتب الشريعة المنسوبة الى موسى على الشريعة العبرانية المقدسة ، وقد وجد الباحثون عدة أوجه من المقارنة والشبه بين شريعة حمورابى وشريعة موسى[١] ، ومع قدم الشريعة الاولى بأكثر من ٥٠٠ عام على شريعة موسى الا انها تمثل مرحلة أرقى وأنضج من التطور الاجتماعى بالمقابلة مع شريعة موسى التى انحصرت فى تنظيم شؤون مجتمع رعى وزراعة[١] . ومن الاشخاص الذين أثروا فى تطور المجتمع العبرانى والديانة اليهودية والتوراة «الكاهن» (كوهين) الذى كانت وظيفته تعليم الشريعة وشرحها ، وكان يقوم علاوة على ذلك بالاشراف على اقامة الشعائر والرسوم الدينية ، ويصح القول انه كان الواسطة بين الانسان وبين الله[٢] ، وكانت وظيفة الكهانة عند العبرانيين وراثية حيث حصرت فى نسل هرون ، وهم اللاويون[٣] . ومن الشخصيات الذين أثروا فى العبرانيين أيضا طبقة أهل الحكمة ، ولم تكن وظيفة الحكيم رسمية ، كما ان مصدر ما يتصف به الحكيم من تجاربه وليست مثل الشريعة موحى بها .

(١) انظر نموذجا من هذه المقارنات فى (Hitti, **Op. Cit.**, 210).

(٢) (Hitti, **ibid**, 210).

(٣) سفر الخروج ٢٨ : ١ ، العدد ١٦ : ٤ .

ويمثل الحكمة في التوراة سفر الامثال وسفر «ايوب» الذي يعد من أمتع كتب التوراة من الناحية الادبية والانسانية كما انه يحتوي على نوع رفيع من الشعر، فهو يجمع بين الشعر والحكمة، وموضوعه شبيه بموضوع القصيدة البابلية الشهيرة التي عنوانها «لامجدن رب الحكمة»[1] اذ تدور على ما يحل بعبد صالح من عذاب وبلوى لامتحانه وابتلائه من قبل الرب •

الانبيــــاء :ــ

ولعل أهم هؤلاء الاشخاص الذين أثروا في سير تاريخ العبرانيين «الانبياء» • والنبي[2] يعني هنا المتكلم أو المخبر عن الله • ولادراك أهميــة الانبياء في تاريخ الديانة العبرانية نقول ان الدين العبراني كما وصل الينا انما بدأ منذ ظهور الانبياء، وقد ظهر نظام النبوة عند العبرانيين كرد فعل أو استجابة عنيفة ازاء العبادة الغريبة الوثنية من الاقوام المجاورة للعبرانيين، ولا سيما عبادة الابعال من الكنعانيين، كما قويت حركة ظهور الانبيـاء أيضا بالاستجابة ازاء تبذير الملوك وزيغهم واسرافهم منذ زمن سليمان بحيث كانت تبدو على دعوة مثل هؤلاء الانبياء مسحة الاشتراكية البدائية • لقد ظهر الانبياء ليحافظوا على ديانة «يهوه» نقية خالصة من شائبة العبادات الوثنية المجاورة • وتطور الانبياء بمرور الازمان الى مرحلة روحية سامية، بحيث يصح القول أنهم أوجدوا ديانة تختلف عن ديانة الاسرائيليين القديمة، أهم ما يميزهـا الوحدانية النقية التي تدور على عبـادة اله عالي عـام، عادل، يحاسب على السلوك والاخلاق • واذا كانت الديانة القديمة تقوم على الطقوس والعبادات الظاهرية ولا سيما التضحية والقرابين، فان الانبياء المتأخرين أعلنوا بين قومهم على ان الله الاعظم يريد من عباده بالدرجة الاولى السلوك والاخلاق أكثر من التعبد، وهكذا تميزت ديانة هؤلاء الانبياء الجديدة بالاله الواحد الاعظم

---

(١) أنظر الجزء الاول الص ٢٤٢ فما بعد •

(٢) كلمة النبي في العربية والعبرانية (نابئي) بحسب اشتقاقهـا اللغوي يعني المعلن أو المبلغ وهي كلمة مأخوذة من جذر سامي موجود في اللغات السامية، فجذر «نبو» في الاكدية يعني دعا وأخبر، ومنه اسم الاله البابلي «نبو» •

الذي يهتم بالعدل والاخلاق • أي انهم في الواقع قاموا بمحاولة جريئة وهم وسط ذلك العالم القديم ذي الديانة المشبعة بالطقوس الوثنيـــة ، وجهروا بتفسير انقلابي جديد للاله وطبيعته وصفاته ، وتفسير علاقة الانسان بهـذا الاله ، وعلاقة الانسان بالانسان ، والتبشير بالعدالة الاجتماعية في الدين أكثر من العبادات الطقوسية • وقد أثرت تعاليم هؤلاء الانبياء المصلحين الجريئين في العالم أثرا بالغا ولا سيما في الشعوب التي تدين باحدى الاديان السـامية الكبرى • فالمسيح مثلا لم يؤسس تعاليمه على تعاليم الكهنة والقوانين الموسوية مثلما أقامه على تعاليم اولئك الانبياء ، وبذلك يكون الانبيـــاء العبرانيون قد «بدأوا بأعظم حركة في تاريخ البشر الروحي»[١] • ونتج عن تبشير هؤلاء الانبياء وتعاليمهم نوع جديد من الادب الديني في التوراة ، يمتاز بالجـاذبية والتأثير والحماس العـاطفي والنظـــم والتأليف المتميز بالموسيقى والايقاع الخاصين • ويرجع عهد القسم الاعظم من هذا الادب الى حدود ٧٥٠ و ٥٥٠ ق • م • ولعل أهم أثر لهؤلاء الانبياء ما سبق أن نوهنا به من سعيهم للتبشير بالوحدانية الصحيحة النقية ، اذ أن الانبيـاء كمـا يدل الواقع التاريخي هم الذين أوجدوا الوحدانية الصحيحة عند العبرانيين ، أما ما قبل عهد الانبياء فلـم يكـن العبرانيـون موحـدين بالمعنى الدقيـــق لمصطلـح «التوحيد» (Monotheism)[٢] ، بل أصح ما يوصفون به انهم أدركوا مبـدأ التفريد (Henotheism) • وهـكذا كـان موسـى وداود على غـرار ما رأينـاه في الحضارات القديمـة حيث كان يخص اله واحـد من بين مجموعة آلهة بالتعظيم والتقديس بدون نبذ عبادة الآلهة الاخرى والقضاء عليها ، كما ان هذا الاله الذي تصوره العبرانيون في عهد موسى وما قبل موسى كان الها قبليا خاصا بقبيلة اسرائيل وينافس آلهة الاقوام الاخرى ، ويفاضله عباده مع هذه الآلهة ، كما ان صفاته الاخرى لم تمكن لتتميز بالصفـات العليا التي

---

(١) انظر (Hitti, **Op. Cit.**, 212). و
J. A. Bewer, **The Literature of the Old Testament**

(٢) ومن الباحثين من وضع مصطلح (Monolatry) أي عبادة اله واحد مع جواز الاعتراف بوجود آلهة أخرى •

تطور اليها تصور الانبياء لله الاعظم ، اله جميع الكون. والواقع ان أهم ما يميز مبدأ الوحدانية الصرفة الصحيحة هو أن لا تتساهل بوجود الآلهة الاخرى وبعبادها ، بل يعمد أصحاب الاديان الموحدة الى اضطهادهم وجواز قتلهم ان لم ينبذوا الشرك • والتفريد يمكن عده مرحلة تطورية بين الشرك (Polytheism) وبين طور الوحدانية الصرفة • فتطورت فكرة الاله «يهوه» منذ ظهور الانبياء بين العبرانيين من اله قبلي لا يهمه من العالم والخلق سوى قبيلة اسرائيل (أو شعبه المختار) يحارب معها كما كان الحال عليه في آلهة دول المدن في العراق القديم ـ تقول ان هذا الاله القبلي المحلي تطور تصور الناس له الى اله متسام ، هو اله جميع العالم ، يتصف بحبه لخلقه وبعدالته ورحمته وعفوه • وهذا في الواقع تطور عظيم لا نعلم بوجه التفصيل الخطوات التي تم ادراكه بها • ومن الابداعات الاخلاقية التي ابتدعها أنبياء بني اسرائيل تعليلهم وتفسيرهم لما كان يقع على شعبهم من اضطهاد الشعوب ، ولا سيما ضربات الآشوريين المهلكة • فبموجب التفكير الضيق القديم الذي شاركوا فيه الحضارات القديمة الاخرى أن القوم المغلوبين يعني ان اله القوم الغالبين أقدر وأقوى من الههم • أما أنبياء العبرانيين فلم يقروا بان الاله «آشور» أقوى من الههم «يهوه» بل انهم لم يعترفوا بوجود الاله «آشور» ولا بغيره من آلهة الاقوام الاخرى ، وعللوا ما كان يقع عليهم من ضربات انه ناشيء من ذنوبهم وآثامهم ومعصيتهم للاله «يهوه» الذي سخر الآشوريين ليكونوا «سوط نقمة الله» لتأديب العبرانيين حينما يعصونه (كما جاء في التوراة) • وهذه في الواقع براعة خلقية عظمى في تعليل النكبات وتحويل الهزيمة الى نصر والذل الى مجد •

ونختتم بحثنا عن العبرانيين بذكر أشهر أنبيائهم الذين أثروا في مجرى حياتهم الدينية والخلقية • فأول هؤلاء الذين أعلنوا الوحدانية الصرفة «عاموس»[١] وكان هذا راعيا ضئيل الشأن مهلهل الثياب ، من قرية حقيرة في

---

(١) (Amos) • ومعنى اسمه في العبرانية (حمل) ، وله سفر في التوراة مشهور هو السفر الثلاثون من أسفار العهد القديم •

يهوذا قرب بيت لحم اسمها «تقوع» • فكيف استطاع هذا الراعى أن يتصور الله بوحدانيته وشموله وعالميته فيبشر بفكرته فى حدود ٧٥٠ ق • م؟ وكان «عاموس» نبيا مبشرا ونذيرا اعتمد على الكلام دون الكتابة على غرار أعاظم الانبياء كعيسى ومحمد (ص) • وقد بشر بمبادئه فى مملكة اسرائيل (مملكة الشمال) فى عهد ملكها «يربعام» الثانى الذى امتاز عهده بالثروة والبذخ فندد بسلوك هذه المملكة كما وبخ مملكة يهوذا ، وكان صريحاً عنيفاً فى تبشيره • وكان أول من تصور الاله «يهوه» بانه اله الشعوب الاخرى من غير الاسرائيليين[1]،كما انه تصوره الهاً يتصف بالعدل الاجتماعى ولايريد الطقوس والقرابين[2] •

ونذكر من مشاهير هؤلاء الانبياء «هوشع» الذى كان من أهل مملكة اسرائيل (وقد عاش فى حدود ٧٤٥ – ٧٣٥ ق • م) ، وله سفر مهم فى التوراة ، وقد بشر فى مملكة الشمال فى زمن الملك «يربعام» الثانى وكان معاصرا للنبى اشعيا الذى سنذكره ، وقد بشر بفكرة طريفة هو مبدأ الحب فى الله وان جوهر الله الحب (سفر هوشع ١٤ : ٤) • أما «اشعياء» الذى بدأ نبوته فى حدود ٧٣٨ ق • م فقد أكد مثل «عاموس» على وحدانية الله الخالصة، وقد اعتبر الآلهة الاخرى من خلق الانسان لا حقيقة ولا قيمة لهم (سفر اشعيا ٢ : ٨ ، ١٨ ، ١٠ : ١٠) ، كما أكد على قدسية الله وكماله ، وقد عاش فى يهوذا فى أيام عصيبة بالنسبة للعبرانيين فقد دمرت فى عهده مملكة السامرة وأزيلت من الوجود على يد الملك الآشورى سرجون (٧٢٢ ق•م) •

وشاهد ايضاً تدمير سنحاريب لمملكة يهوذا وحصاره لعاصمتها اورشليم• وقد امتاز فى هذه المحن بقوة روحه ووطنيته وتحريضه لقومه على المقاومة ، فقد صرف ثلاثة أعوام وهو يجول حافياً عاريا تقريبا مبينا للناس كيف

---

(١) أنظر عاموس ، ٩ : ٥ – ٧ •

(٢) ذات المصدر الاصحاح الخامس •

يعامل الاسرى الآشوريون • وقد بشر اشعيا بظهور المسيح المخلص لبنى اسرائيل •

وتذكر من مشاهير أنبيائهم «ارمياء»[١] (٦٢٦ – ٥٨٦ ق • م) الذى امتاز عن سابقيه من الانبياء بانه كتب تعاليمه ، وقد عاش ليشاهد هجوم نبوخذنصر على يهوذا فى عام ٥٩٧ ق • م وتخريب اورشليم والسبى البابلى الثانى فى عام ٥٨٦ ق • م • وقد أكد أيضا على الوحدانية ، وحلم بظهور «طوبيا» يسود فيها الحق والعدل بين الناس[٢] ، وقد ورد فى سفره[٣] تعاليم وآراء تعد أسمى تفكير فى التوراة ، فقد فسر فكرة العهد بين الله وبين بنى اسرائيل ليس بأشياء ظاهرية خارجية مما يكتب على ألواح الحجر كما فى عهد الله لموسى ، وانما هو عهد يكتب فى القلوب كما انه أكد على مسؤولية الفرد الجانى دون غيره من أقربائه بخلاف العقيدة السابقة التى تأخذ الابناء بجريرة الآباء (ارميا ٣١ : ٩ – ٣٠) وهذه مرحلة مهمة فى تطور العدالة الاخلاقية •

---

(١) (Jeremiah) ومعنى اسمه بالعبرانية «معظم من يهوه» . وسفر «ارمياء» هو السفر الرابع والعشرون من العهد القديم •

(٢) سفر ارميا ٢٣ : ٥ •

(٣) وبوجه خاص الاصحاحات ٣٠ – ٣٣ •

الفصل الحادى والثلاثون

موجز تاريخ بلاد الشام في العهود المتأخرة

كنا نوهنا فيما سبق ببعض الحوادث التأريخية المهمة في بلاد الشام في عهد الامبراطورية الآشورية الثانية (٧٤٥ - ٦١٢ ق ٠ م) من غزوات الآشوريين المتتابعة وقضائهم على الكيانات السياسية التي كانت تقيمها الاقوام السامية في سورية مثل دولة الآراميين في دمشق ، وغزواتهم لبلاد فينيقية ، كما ذكرنا أيضا قضاء الآشوريين على الدولة اليهودية الشمالية «اسرائيل» (٧٢١ ق٠م٠) ، وتخريبهم لمدن الدولة الثانية أي مملكة يهوذا ٠ ورأينا أيضاً ان مجيء البابليين المتأخرين (الكلدانيين) لم يخفف من وطأة دول العراق القديم في بلاد الشام ، فقد رأينا نبوخذنصر يزيل نفوذ مصر من سورية ويفرض السلطان البابلي في جميع أنحائها ، كما انه أزال الدولة اليهودية الثانية (يهوذا) من الوجود ٠

ونوهنا أيضا ببعض الحوادث المهمة في بلاد الشام في العهد الفارسي الاخميني الذي حل محل الامبراطورية البابلية على أثر فتح كورش لبابل (٥٣٩ - ٥٣٨ ق٠م٠) ، وكيف عامل «كورش» يهود السبي في بابل وعودة جماعة منهم الى فلسطين وقيامهم باعادة الدويلة اليهودية التابعة للفرس مع شيء من الاستقلال الذاتي ٠ هذا وقد امتاز العهد الفارسي بالنسبة الى اليهود وبلاد فلسطين بالهدوء والاستقرار فان زمن القرنين اللذين استغرقهما هذا العهد (من رجوع اليهود من السبي عام ٥٣٨ الى غزو الاسكندر للامبراطورية الفارسية عام ٣٣٠ ق٠م٠) لم يتميز في تاريخهم بحوادث جسام ، حتى ان

مصادرنا الوحيدة عن تأريخهم فى هذين القرنين تقتصر على سفرى «عزرا» و « نحميا » من أسفار العهد القديم، ونجد حوادث هذا التأريخ مشوشة ملتبسة والتواريخ المخصصة غير مضبوطة فى هذين السفرين[١] ، ومهما كان الحال فالمؤكد ان اليهود ظلوا على أحسن حال فى علاقتهم مع الفرس الحاكمين ، أما ما نشأ من علاقات عدائية فانها كانت مقتصرة على الاقوام السامية الاخرى المجاورة لهم • فلم تنشأ بينهم ثورات ولا اضطرابات بالمقابلة مع الثورات العنيفة التى قاموا بها فى العهد السلوقى الذى أعقب العهد الفارسى الاخمينى والاضطرابات العنيفة فى العهد الرومانى على ما سنبين ذلك فيما بعد • أما الدويلات السورية الاخرى فقد دخلت ضمن الامبراطورية الفارسية الكبيرة التى ضمت معظم العالم المتمدن آنذاك من مصر الى مدن الساحل اليونانية فى آسية الصغرى والى البنجاب فى الهند[٢] ، ومما يجدر ذكره بهذا الصدد اتخاذ اللغة الآرامية مع الفارسية لتكون لغة هذه الامبراطورية الشائعة كما اتخذت الحروف الهجائية بالاضافة الى الخط المسمارى الخاص بالاخمينيين • وازدهرت المدن الفينيقية فى هذا العهد بصفتها مراكز مهمة للتجارة الدولية كما كان الاسطول الفينيقى عاملا مساعدا للفرس فى مواصلاتهم البحرية وساعدهم فى غزو اليونان أيضا • وامتازت ادارة الامبراطورية ولا سيما التنظيمات التى وضعها دارا الاول (٥٢١ ـ ٤٨٦ ق • م) بنظامها الدقيق الجامع بين الاستقلال الذاتى المحلى للولايات التابعة وبين السلطة المركزية والسيطرة التامة من جانب الامبراطور • وبموجب تقسيم دارا للامبراطورية الى ٢٣ ولاية دخلت بلاد الشام (وبضمنها فلسطين وقبرص) فى ادارة الولاية الخامسة المسماة «عبر النهر» أو ما وراء النهر (عبر نهارا أى عبر نهر الفرات) ، وكان على هذه الولاية أن تؤدى مثل الولايات الاخرى جزية أو

---

(١) انظر
Ernest William Barnes, **The Rise of Christianity** (4th ed. 1948) 15

(٢) انظر البحث الخاص بالفرس الاخمينيين فى هذا الكتاب •

ضريبة قدرها (٣٥٠) وزنة من الفضة[١] • والى هذه الضريبة فان بلاد الشام ولا سيما فينيقية ساعدت الفرس في وارداتها وسفنها في غزو مصر في عهد قمبيز بن كورش (٥٢٩ – ٥٢٢ ق • م) ، فنتج ذلك اضافة ولاية جديدة الى الامبراطورية الفارسية • والمرجح أن قمبيز مات في سورية بعد عودته من غزو مصر[٢] • كما ان الاسطول الفينيقي ، على ما ذكرنا ، ساعد احشويرش (٤٨٦ – ٤٦٥ ق • م) في غزوه لبلاد اليونان حيث جهز بنحو (٢٠٧) سفينة ، كما ساعده المهندسون الفينيقيون في حفره قنالا لايواء سفنه من العواصف[٣] •

وقد ازدهرت دمشق في العهد الفارسي وكانت أهم المدن السورية كما ازدهرت أربع مدن فينيقية وهي «ارواد» وجبيل وصيدا وصور ، وقد سمح لكل منها بالاستقلال الذاتي في دويلتها الصغيرة • وقد اتحدت هذه الدويلات في القرن الرابع ق • م وكونت اتحاد ولايات جعل مركزه في مدينة جديدة هي طرابلس ، التي يعني اسمها المدن الثلاث • ومنشأ هذه التسمية ان كلا من المدن الثلاث وهي صور وصيدا وارواد كان لها مستوطن يمثلها في طرابلس قبل أن يتكون منها هذا الاتحاد الجديد ، حيث اتحدت أجزاء المدينة أيضا في السنة الاولى من حكم الملك الفارسي ارتحششتا الثاني (٣٥٩ – ٣٣٨ق•م)، فأصبحت عاصمة لمملكة فينيقية الموحدة حيث يجتمع فيها المجلس المشترك في كل عام ويشترك فيه نحو (٣٠٠) ممثل • ومن الحوادث المهمة في تأريخ

---

(١) أي (Talant) وهي وزن ومقدار من النقود أيضا وتحتوي (كما في النظام البابلي) على ٦٠ منا والمنا ٦٠ شيقلا • وتختلف قيمتها النقدية باختلاف العصور • وسنرى من كلامنا على الاخمينيين ان هذه الضريبة خفيفة اذا قيست بضريبة ولاية بلاد آشور (١٠٠٠ وزنة) وولاية مصر (٧٠٠ وزنة) •

(٢) يروي جوزيفوس المؤرخ اليهودي انه مات في دمشق ولكن هيرودوتس يجعل وفاته في «أكبتانا» في ماذي
(Josephus, **Antiquities,** XI ch. 2)

(٣) (Hitti, **Op. Cit.,** 224)

فينيقية في عهد هذا الملك تدهور ادارة الامبراطورية وظهور علامات تفسخها وانهيارها ، فعزمت بلاد فينيقية على الثورة من جراء معاملة الطغيان التي سار عليها الموظفون الفرس ، وقد بدأت الثورة في طرابلس ثم انتشرت الى صيدا ، وقد نالت تشجيعا من مصر ، ولكن ارتحششتا أعد حملة كبرى من بابل (عام ٣٥١ ق • م) تقدر بـ (٣٠٠٠٠٠) من المشاة و (٣٠٫٠٠٠) من الفرسان ، وبالرغم من استبسال الفينيقيين والصيداويين بوجه خاص فان مقاومتهم لم تجد نفعا ، ودمرت صيدا تدميرا كاملا ، فخضعت المدن الفينيقية الاخرى على أثر ذلك •

أما من الناحية الثقافية فلا نعلم عن تأريخ بلاد الشام أمورا يعتد بها ، لقلة المآخذ والمصادر ليس من الناحية الثقافية بل فيما يخص النواحي التأريخية الاخرى • كما ان التنقيبات الآثارية لم تكشف لنا عن نواح مهمة • والذي يقال بوجه عام ان الثقافة الغالبة كانت الثقافة السامية مع الاقتباسات الجديدة الاخرى • وأثر الفرس بوجه خاص في الديانة اليهودية وانتقل منها التأثير الى المسيحية ولا سيما من ناحية المبدأ الفارسي الثنائي من الخير والشر ، واله الخير والشر وفكرة الحساب واليوم الآخر ومبدأ العقاب والثواب والملائكة[١] ، كما دخلت بضع كلمات فارسية الى العبرية والآرامية مثل كلمة «الفردوس» •

العهد السلوقي والروماني في بلاد الشـام :ـ

سنقف من كلامنا عن الفرس الاخمينيين وقيام الاسكندر الكبير على كيفية سقوط الامبراطورية الاخمينية وفتوح الاسكندر للشرق والتقاء الحضارة اليونانية بحضارات الشرق القديم ونشوء ما يعرف باسم العهد الهلنستي ، أما الآن فنستبق ذلك ونذكر أشياء موجزة عن هذه الحوادث فيما يخص بلاد الشام فنقول انه بعد اندحار الجيش الفارسي بقيادة دارا الثالث (٣٣٦ ـ ٣٣٠ ق • م) في موقعة ايسوس الشهيرة قرب خليج الاسكندرونة (٣٣٣ ق • م)

---

(١) (Hitti, **Op. Cit.,** 226)

انهزم دارا ، ولكن الاسكندر لم يلاحقه مباشرة بل انه سار جنوبا لتأمين سيطرته على البحر ففزا فينيقية سائرا على طوال الساحل من «ايسوس» وأرسل أحد قواده الى دمشق حيث كانت مركز الجيوش الفارسية . فخضعت له معظم المدن الفينيقية المهمة مثل ارواد وجبيل وصيدا الا صور التى اشتهرت بعزتها ومقاومتها المأثورة للفاتحين السابقين حيث تحدت سنحاريب واسرحدون ونبوخذنصر ، فحاصرها الاسكندر وبنى رصيفا (طوله ٢٠٠ قدما) من الساحل الى جزيرتها المنيعة التى كانت تنتظر المعونة من المدن الفينيقية ومن قرطاجة ، ولكن المعونة لم تصل ، وبعد حصار سبعة أشهر استسلمت صور ، فقتل من أهلها (٢٠٠٠) وباع (٣٠٫٠٠٠) عبيدا . كما ان غزة قاومت الاسكندر ولكن بعد حصار قصير لم يدم أكثر من شهرين فتحت ودمرت وبيع أهلها عبيدا . وبعد ذلك توجه الاسكندر الى مصر فدخلها بدون مقاومة تذكر ، وأسس الاسكندرية المشهورة التى صارت مركزا مشرقا مهما للثقافة فيما بعد . وعاد الاسكندر فى عام ٣٣١ الى سورية ليلاحق جيش دارا حيث التقى به فى السهل الكبير بين نينوى واربيل ، فدحر الجيش وفر دارا ، وسار الاسكندر من بعد ذلك لاكمال فتح بلاد بابل ، فرحب به أهلها ، وذهب من بابل الى مدينة السوس ومنها الى برسيبوليس التى أحرقها الاسكندر فى ساعة طيش وعربدة وبعد مغامرات قام بها فيما وراء النهر وفى تخوم الهند فى ناحيتها الشمالية الغربية عاد الاسكندر الى بابل ومات فيها فى قصر نبوخذنصر بالحمى فى حزيران عام ٣٢٣ ق . م وهو لم يتجاوز الثلاثة والثلاثين عاما .

لقد بدأ الاسكندر بمشاريع عمرانية واسعة فقد كان يحلم بدمج الغرب بالشرق ونشر الثقافة الهلينية كما سنفصل ذلك فيما بعد ، ونكتفى لموضوعنا الآن أن نذكر مآل امبراطورية الاسكندر بعد موته اذ انها تمزقت وظل قواده يتنازعون فيما بينهم عليها زهاء ٣٠ عاما حتى انقسمت أخيرا بين أربعة من مشاهير قواده ، فصارت مصر من حصة بطليموس ، وبلاد بابل من حصة سلوقس وملك «انتيكونس» فى آسية الصغرى و«انتيباتر» فى مقدونية . أما بلاد

سورية وبضمنها فلسطين فقد ألحقت في مبدأ الامر بآسية الصغرى • وبعد معارك بين سلوقس وبطليموس متحدين وبين صاحب آسية الصغرى ألحقت فلسطين في عام ٣١٢ ق • م بمملكة بطليموس • وفي العام نفسه استعاد سلوقس بابل التي فقدها ثم بعد معركة أخرى في عام ٣٠١ ق•م في فريجية أخذ الجزء الشرقي من آسية الصغرى وجميع بلاد سورية من الفرات الى البحر المتوسط • وقد بنى في سورية انطاكية الشهيرة على العاصي وسماها باسم أبيه (انطيوخس) وصارت مركز الحكم السلوقي في سورية • وقد عد عام ٣١٢ ق • م بداية العهد السلوقي (ويسمى بالعهد اليوناني في بلاد الشام) وتأسيس المملكة السلوقية في سورية ، وصار السلوقيون يلقبون أنفسهم بملوك سورية • وصارت السنة السلوقية يسير عليها معظم الشرق الادنى ، حيث اتخذت في بلاد بابل التي دخلت في حوزة السلوقيين •

ولقد حذا سلوقس حذو الاسكندر في تحويل الشرق الى الهلينية فمثلا نجده يؤسس ما لا يقل عن ست عشرة مدينة سماها باسم ابيه (أنطيوخس) (Antiochus) أشهرها انطاكية العاصي ، كما أسس تسع مدن وسماها باسمه أشهرها سلوقية دجلة وسلوقية العاصي وخمس مدن سماها باسم أمه «لوديقية» (Laodicea) ،واشهرها مدينة اللاذقية كما أسس ثلاث مدن باسم زوجته (من بلاد البخت) «افامه» (Apama) ،وأشهر هذه المدن مدينة «افامية» (Apamea) على العاصي (ويعرف موضعها الآن باسم قلعة المضيق) • ولكن ضعف أمر السلوقيين من بعد سلوقس الاول في نزاعهم مع البطالمة (البطالسة) وبسبب ثورة الفرثيين في خراسان حيث استطاعوا أن يستقلوا عن سيطرة السلوقيين في عام ٢٤٩ ق • م تحت ملكهم ارشاق (Arsaces) [1] ، وكان أعظم ملك قام من السلالة السلوقية انطيوخس الثالث الملقب بالكبير (٢٢٣ – ١٨٧ ق • م) الذي استطاع أن يعيد كثيرا من الاجزاء التي فقدتها الامبراطورية بعد حروب مستمرة دامت عشرين عاما

(١) انظر البحث الخاص بالفرثيين في تاريخ ايران •

تقريبا • ومن الامور التي تذكر عن انطيوخس ان حدث في عهده أول اتصال بين قوة رومة الجديدة وبين السلوقيين حيث حذرت رومة انطيوخس من التدخل في مصر كما ان «هانيبال» التجأ في عهده الى سورية وحرضه على حرب الرومان ، فتشجع هذا في ارسال حملة على اليونان ولكنه دحر في المعركة التي نشبت في «ثرموبيلي» (١٩١ ق • م) ، كما اندحر في معركة أخرى في مغنيسية في آسية الصغرى (١٩٠ ق • م) ، فاضطر في عام ١٨٨ ق • م على التنازل الى الرومان عن جميع الاقاليم الكائنة في ما وراء طورس ودفع غرامة حربية كبيرة وبذلك فقد جميع آسية الصغرى •

وتأثرت سورية تأثرا ملحوظا بالثقافة اليونانية (الهلنستية) منذ العهد السلوقي فيها ، حتى ان اليهود المشهورين بتعصبهم لقوميتهم ، قد تأثر أغنياؤهم والطبقات الوسطى منهم بالتيارات الجديدة ، حيث اتخذوا اللغة اليونانية والعادات والازياء الغربية • وبلغ الامر أن الاله اليوناني «زوس» طوبق بالاله «يهوه» ، وأقام انطيوخس مذبحا لزوس في الهيكل في اورشليم ، مما أثار كهنة اليهود والمتعصبين منهم الذين رأوا في ذلك دنسا لهيكل الاله «يهوه»[١] ، فنشبت ثورة يهودية في فلسطين (في عام ١٦٨ ق • م) بقيادة «جوداس» من العائلة المعروفة باسم «الهسمونيين» أو «الاسمونيين» ، واتخذ هذا الثائر لقب «مكابوس» وتمكن من الاستيلاء على «اورشليم» وتطهير الهيكل[٢] • وتطورت هذه الحركة التي كانت دينية في أصلها الى ثورة قومية بين اليهود لتحرير اليهود من العادات والعبادات الدخيلة ، ووجهت الثورة أيضا ضد اليهود الموالين المتساهلين المعتنقين للثقافة الاغريقية السلوقية ، وسمح السلوقيون لليهود بالاستقلال الذاتي في المملكة التي كونوها واستمرت في الوجود الى عهد الرومان في سورية من بعد ثمانين عاما على تأسيسها (في حدود ١٦٨ ق•م) • ولم يقتصر الامر في انحلال المملكة السلوقية على استقلال اليهود وغيرهم

---

(١) انظر سفر دانيال ١١ : ٣١ •

(٢) لقد نشأ عيد عند اليهود بمناسبة هذا التحرير سمي باسم «هنوكه» (Hanukkah)

بل ان جملة دويلات عربية (نبطية) في سورية قد استغلت الفرصة فى الحدود الجنوبية • فظهرت فى حدود ١٣٠ ق • م سلالة عربية حكمت فى «اديسا» (الرها) ، وقد لقب ملوكها باسم «ابجر» ، وكانت تابعة اسميا الى الفرثيين ، كما نشأت دويلة عربية أخرى مركزهـا فى حمص (Emesa) ولم تكن تابعة للسلوقيين الا بالاسم • ونشأت دولة ثالثة فى سورية البقاع (Coele-Syria) ومركزهـا فى الموضع المسمى « عنجر »[١] ، كمـا ان الانباط العرب الذين سبق لهم أن طردوا الادوميين من البتراء فى حدود ٣١٢ ق • م قد كونوا فى هذا العهد مملكة قوية • واستطاع هؤلاء الانباط أن يأخذوا من السلوقيين جميع سورية البقاع (فى حدود ٨٥ ق • م) ، ودخلت دمشق فى حمايتهم أيضا •

وبعد حروب معقدة بين الرومان والارمن والسلوقيين استطاعت رومة فى عام ٦٤ ق • م من السيطرة على البلاد السورية (فى عهد بومبى) فدخلت سورية تحت الحكم الرومانى •

وقبل أن نوجز أحوال البلاد السورية فى العهد الرومانى نذكر نواحي أخرى من الاوجه الثقافية فى العهد السلوقى • فمن الامور الجديرة بالذكر ما أشرنا اليه من تأسيس السلوقيين مدنا هلنستية جديدة فى سورية وفى أنحاء الشرق الادنى الاخرى ، ولم يكتفوا بذلك فى سورية بل أنهم أعادوا تسمية جملة مدن قديمة بأسماء تنم عن الصبغة اليونانية • وحين كان البطالمة يحكمون فى فينيقية وفلسطين سموا مدينة عكا باسم «بتولمايس» (Ptolemais) تكريما لاسم بطليموس الثانى فيلادلفوس (٢٨٥ — ٢٤٧ ق • م)[٢] ، كما سميت

---

(١) خلسيس (Chalcis) فى المصادر الكلاسيكية ، وعرف أهل هذه المملكة باسم «اتوريين» (Ituraean)

(٢) (Ptolemy Philadelphus) • ومن المدن التى ظهرت فى العهد السلوقى اليونانى بانياس (Paneas) وهى « بانياس » الآن ، حيث خص موضع منابع الاردن بالتقديس وخصص الى الاله اليونانى (Pan) وهو اله مشهور فى عبادة الجماهير ولما بنيت مدينة هناك سميت باسم «بانياس» كما ذكرت فى الانجيل باسم قيصرية فلبى حيث اعاد الحاكم فيلب بناءها ووسعها وسماها قيصرية تبجيلا للامبراطور « طبيريوس » •

باسمه المدينة القديمة «ربات ـ امون» (وهى عمان الحالية) فدعيت «فيلادلفيه»• وسميت حماة باسم «ابيفانيا» (Epiphania) تمجيدا لانطيوخس الرابع الملقب «ابيفانس» • ولكن هذه المدن وغيرها استعادت أسماءها السامية القديمة على الرغم من تبديل أسمائها •

وكان أكثر الاجزاء التى تأثرت بالثقافة الهلنستية الاجزاء الشمالية حيث شمل التبديل عدا أسماء المدن والمواضع أسماء الآلهة المحلية • فقد طوبق الاله «بعل» مثلا بالاله اليونانى «زوس» ، ويأتى بعد ذلك فى درجة التحول الى الهلينية المدن الفينيقية ، حيث ازدهر الادب الاغريقى والفلسفة الاغريقية ، وقد ظهر فى صيدا وصور جملة كتاب ومفكرون كتبوا بالاغريقية فى القرنين الاخيرين قبل الميلاد • فنذكر مثلا اسم «زينو» من صيدا الذى كان مدرسا كزينو الرواقى (٣٣٤ ـ ٢٦١ ق • م) ، كما ان المدينة التى عاش فيها «زينو» الرواقى وهى «سيتيوم» (Citium) كانت مستعمرة فينيقية ، وقد ذهب الى اثينة وعلم فى الرواق (Stoa) المشهور فى ٣٠٢ ق • م • ومن الفلاسفة اليونان المشهورين فى اثينة «ديو دورس» المشائى (من اتباع ارسطو) الذى كان من صور (فى حدود ١١٠ ق•م) ومنهم أيضا «انطيوخس» العسقلانى (من عسقلان) الذى حاول التوفيق بين الافلاطونيين والرواقيين[١] • كما ظهر فى سورية فى هذا العهد أيضا جملة مؤرخين وجغرافيين وفلكيين وعدد من الشعراء • فمن الكتاب المؤرخين المشهورين «بوزيدونوس»[٢] من افامية (١٣٥ ـ ٥١ ق • م) ، وكان فيلسوفا رواقيا ومؤرخا وعالما طبيعيا ، وقد درس فى اثينة ومات فى رودس • ومن الشعراء السوريين الذين يجدر ذكرهم «انتيباتر» (Antipater) الصيداوى ، وقد عاش فى صور أيضا (فى القرن

(١) ولكن الفلسفة التى عمت فى سورية أكثر كانت الفلسفة الرواقية (Hitti, **Op. Cit.**, 256.

(٢) (Posidonius)

الاول ق • م) ، وكان ابيقوريا في فلسفته • ومنهم أيضا الفيلسوف الابيقورى والشاعر « فيلو ديموس » (Philodemus) الذى ولد فى القرن الاول ق • م فى جدره (قرب الموضع المعروف الآن باسم أم قيس فى فلسطين) ، وهى مستعمرة مقدونية فى شرق الاردن وتطل على منحدراليرموك (Hieromax) ، وقد استوطن هذا الشاعر فى رومة فى عهد شيشرون •

هذا وينبغى الا نستنتج ان السوريين كلهم كانوا يعرفون اليونانية ، بل انحصر تعلمها فى الطبقة المثقفة • أما فى المدن التى استوطنت من جانب السلوقيين فكان الناس يتكلمون بلغتين ، اللغة اليونانية واللغات السامية المحلية ولا سيما الآرامية •

وأتبع السلوقيون سياسة تشجيع التجارة الداخلية والخارجية ، وكان ينافس المملكة السلوقية فى سورية المملكة المصرية فى عهد البطالسة ، ولذلك نشأت الحروب المستمرة بين الطرفين ، وازدهرت التجارة مع الهند بالبحر عن طريق اليمن ومن ثم بالطرق البرية بالقوافل عن طريق البتراء ، أو بطريق آخر فى البحر فى السواحل الغربية من خليج فارس الى الجرعاء (Gerrhae)[١] التى كانت مدينة عربية ومركزا تجاريا مهما فى خليج فارس ثم فى دجلة الى سلوقية ومنها على طريق الفرات فى خلال «دورا يوربوس» (الصالحية الآن) ثم الى انطاكية أو فى الطريق القديم شرق دجلة عبر جزيرة ابن عمر ومن ثم غربا الى نصيبين واديسا والى انطاكية أو الى دمشق• وهكذا كانت سلوقية على دجلة مركزا تجاريا مهما • وكان السلوقيون ابان قوتهم مسيطرين على تجارة الحرير ، فى الطريق المتغلغل فى ايران وأواسط آسية الى منغولية • وازدهرت الحياة فى سورية من جراء ازدهار التجارة والزراعة واستعمال النقود المسكوكة • وقد عملت هذه الاسباب على ازدياد

---

(١) ولعلها الآن الموضع المعروف باسم العقير (العجير) (انظر ما سبق أن ذكرناه فى كلامنا على جزيرة العرب) •

السكان وارتفاع مستوى المعيشة • فقد ورد مثلا تقدير لسكان سلوقية دجلة بنحو ٦٠٠,٠٠٠ [١] •

العهـــد الروماني :ـ

لقد سبق أن نوهنا ببداية العهد الروماني في سورية حيث قلنا انه ابتدأ بفتح بومبي لسورية عام ٦٤ ق • م [٢] • وكانت أحوال البلاد السورية في نهاية العهد السلوقي فيها في وضع اضطراب وفوضى ، من تعدد الدويلات المحلية المتنازعة الى انعدام الأمان في الاسفار البحرية لكثرة قرصان البحر ، اذ أصبح القرصان قبل عهد «بومبي» قوة دولية مرهوبة حيث استولوا على القسم الشرقي من البحر المتوسط مما هدد رومة في تموينهـا ومواصلاتها فعمل بومبي على استئصال شأفة القرصنة البحرية •

وكانت سورية من أعظم وأهم الولايات الرومانية بحيث وضعت تحت الحكم المباشر من جانب والروماني (Proconsul) وخول سلطات واسعة من تجنيد الجيوش وشن الحرب ، وكان أول حاكم فيهـا من هـذا النوع «جبينيوس» (Gabinius) (٥٧ ـ ٥٥ ق • م) الذي قلص من نفوذ المملكة اليهودية وأعاد بناء جملة مـدن في فلسـطين ، وأعقبه «كراسوس» الذي كان عضوا في الحكم الثلاثي الاول في رومة (Triumvirate) وكان معه في الحكم بومبي ويوليوس قيصر • وقد جعل كراسوس من سـورية قاعدة مهمة لعملياته العسكرية ضد مملكة القرثيين الذين كانت عاصمتهـم في طيسفون • ولكنه لاقى اندحارا شنيعا في ربيع عام ٥٣ ق•م قرب حران على أيدي الفرثيين، وقتل في المعركة ،وخلفه «كاسيوس» الذي جمع جيشاقويا للدفاع عن سورية ازاء الفرثيين الذين انسحبوا منها (عام ٥١ق•م) لما أدركوا قوة «كاسيوس» •وأعقب ذلك عهد

---

(١) انظر (Hitti, **Op. Cit.**, P. 279 ; Pliny, Bk. VI, ch. 30).

(٢) يحدد هذا التاريخ المهم في تاريخ بلاد سورية دخولها تحت الحكم الروماني باسم «ولاية سورية» (Provincia Syria) ، وعاصمتها انطاكية •

فوضى واضطراب ليس في بلاد سورية حسب بل في بلاد الرومان نفسها على أثر الحرب الاهلية والنزاع بين بومبى وقيصر ، ثم صارت سورية ومصر من حصة «انطونيوس» (Mark Antony) على أثر اقتسام المملكة الرومانية، فحكم هذا أربع سنوات (٤٠ – ٣٦ ق ٠ م) لم تتميز بالهدوء والاستقرار وقد ركن الى حياة البذخ مع كليوبطرا وأهمل شؤون الدولة ٠ فانتهز الفرثيون الفرصة واستطاعوا أن يضموا الى امبراطوريتهم سورية (٤٠ – ٣٨ ق ٠ م) ٠ وبعد المعركة البحرية الشهيرة في « اكتيوم » (٣١ ق ٠ م) دحر «اوكتافيوس» انطونيوس وكليوبطرا ، فأعاد الحكم الروماني في سورية ، وتوج امبراطورا بعد أربع سنوات في رومة باسم «اوغسطس» ٠ ومما يقال في العهد الروماني في سورية من الناحية الثقافية استمرار الثقافة الهلنستية التي رأيناها في العهد السلوقي مع التبديلات المقتضية في العهد الروماني في الناحية السياسية ، وحلول اللغة اللاتينية محل الاغريقية ، اذ الواقع أن الثقافة الرومانية بوجه عام امتداد للثقافة الهلنستية التي نشأت من بعد الاسكندر ٠ واستمرت الثقافة الرومانية في سورية منذ الفتح الروماني عام ٦٤ ق ٠ م الى ٣٢٣ للميلاد ، حين نقل الامبراطور قسطنطين عاصمة الامبراطورية من رومة الى القسطنطينية (بيزنطية) ، حيث بدأ عهد جديد في أقاليم الشرق الادنى ٠ ومما يميز الحكم الروماني في سورية وسائر أنحاء الشرق الادنى تساهل الرومان في اعطاء نوع من الحكم الذاتي للاقاليم التابعة لهم والسماح لها بالاحتفاظ بأديانها ولغاتها وعاداتها ٠

وقد استعادت سورية في خلال القرن الاول من الحكم الامبراطوري في رومة (٣٠ ق ٠ م – ٧٠ للميلاد) ازدهارها الاجتماعي والاقتصادي من بعد عهد الارتباك والفوضى من جراء الحروب الداخلية والخارجية ، وصارت بلاد الشام ولاية مهمة من امبراطورية عظمى كانت تمتد من الاطلسي والبحر الشمالي الى الفرات ومن الراين والدانوب الى مناطق الصحاري ٠ وتميز هذا القرن في حياة الامبراطورية باستتباب السلم والاستقرار ٠ هذا وسنرى من

كلامنا على الرومان اشتهارهم بالكفاءة في الادارة واقامة الطرق الكبرى وانشائهم البريد ومقدرتهم الهندسية مما سهل ادارة الامبراطورية الواسعة وتوحيدها • وكذلك استمر ازدهار الامبراطورية في القرن الثاني للميلاد (٩٦ – ١٨٠ م) حيث حكم جملة أباطرة صالحون أكفاء ، وقد وصلت الامبراطورية في عهد تراجان (٩٨ – ١١٧) وفي عهد خلفه «هادريان» (Hadrian) (١١٧ – ١٣٨) أوجها في السعة والاستقرار •

وكانت بلاد الشام مركزا عسكريا مهما للرومان ، حتى ان أحد القواد الرومان في سورية وهو «فسباسيان» (Vaspasian) قد ساعده جنوده «اللجيون» في سورية على صيرورته امبراطورا (٦٩ للميلاد) ضد مرشح الجيوش الرومانية في ألمانية • وبالنظر لازدهار الحياة الاقتصادية من الزراعة والتجارة والصناعة فقد ارتفع مستوى المعيشة وكثر السكان حتى ان سكان سورية في القرن الثاني للميلاد قدر عددهم بنحو ٧ ملايين[١] •

واشتهرت في العهد الروماني جملة مدن استمرت في ازدهارها من العهد السلوقي ، أشهرها «انطاكية» وضاحيتها المشهورة «دفني»[٢] ، وقد أصبحت انطاكية ثالثة مدينة معظمة في الامبراطورية من بعد رومة والاسكندرية واشتهرت ببذخها وحياة اللهو فيها وألعابها[٣] • وكانت تزاحم انطاكية في

---

(١) انظر H. Lammens, **La Syrie, Précis historique** (1921).
المشار اليه في (Hitti, **Op. Cit.**, 292).

(٢) دفني أصلها متنزه من الحدائق والجنائن في ضواحي انطاكية الى الجنوب بأربعة أميال • واشتق اسمها (Daphne) من حورية أو الهة تبعها الاله «ابولو» الى هذا الموضع وتحولت هنا الى شجرة الدفلى • وقد أقيم مزار لابولو في «دفني» قرب انطاكية ، حيث الجنائن والاشجار النظرة التي أقيم في وسطها تمثال كبير «لابولو» •

(٣) George Haddad, **Aspect of Social Life in Antioch in the Roman-Hellenistic Period** (Chicago, 1949).

ازدهار الحياة مدينة اللاذقية التي اشتهرت بكرومها التي كانت تغطي التلال المطلة على المدينة وتمتد شرقا الى مدينة «افامية» تقريبا ، وكانت تصدر الكروم والخمور منها الى ميناء الاسكندرية • والى الجنوب من «افامية» على العاصي تأتي حمص التي حافظت في العهد الروماني على حكمها الذاتي حيث كان يحكمها ملوك كهان منها • ومن المدن الاخرى التي حافظت على حكمها الذاتي دمشق وتدمر واديسا (الرها) ، حيث كان كل من هذه المدن مركز دولة صغيرة • وقد نمت تدمر الى دولة مهمة (انظر الكلام على تدمر في موضع آخر) • وقد أعلا هادريان من شأن دمشق وجعلها مدينة رئيسية (Metropolis) ، وصارت في زمن «ديوقليشيان» موضع مصانع للاسلحة ، وقد تحول الهها «دد» ،حدد ، أو «رمان» الى جوبتر الدمشقي حيث انتشرت عبادته الى ايطالية وموضع معبده في دمشق تحت الجامع الاموي حيث يقوم الجامع فوق انقاض كنيسة مسيحية وتقوم هذه الكنيسة فوق المعبد • ونالت بيروت حظوة كبرى في عهد اوغسطس[١] حيث وسع ميناءها • وأقام فيها «اكريبا» (Agrippa) الاول(٤١-٤٤ م) حفيد هيرودس الكبير ملهى وملعبا كبيرين ، كما انها كانت مركزا مهما لمدرسة من القانونيين والفقهاء في القانون الروماني ازدهرت من بداية القرن الثالث الى القرن السادس للميلاد • وقد عبد فيها الاله «بوزيدون» (Poseidon) (أي نبتون) الذي جاءت صورته منقوشة على النقود • ومن المدن الشهيرة في لبنان ، في البقاع ، «مدينة الشمس» (هليوبوليس) وهي بعلبك • وقد سميت بهذا الاسم اليوناني (هليوبوليس) في العهد السلوقي حينما عين الهها «بعل» بالاله الشمس • وقد جعلت المدينة مستعمرة في عهد اوغسطس الذي أقام فيها حامية عسكرية جيشها جزء من جيش بيروت ، ولكن بعلبك حافظت على سامينها أكثر من بيروت وانطاكية • وقد اشتهرت بعلبك بزماريها العازفين على الناي مثلما اشتهر موسيقيو انطاكية ، حيث كانوا يقومون بالطقوس الخاصة

---

(١) وقد سماها باسم ابنته تبجيلا لها حيث دعيت باسم
(Colonia Julia Augusta Felix)

بمعبد بعلبك الذى اشتهرت به المدينة ، وكان بالاصل قد أقيم لعبادة الاله السورى «حدد ـ أدد» لعله فيما قبل العهدالسلوقى وقد اشتهر المعبد بصدق فأله (Oracle) ، وقد أعاد بناءه ووسعه الاباطرة الرومان وأشهر من قام بذلك « انطونينوس بايوس » (Antoninus Pius) (١٣٨ - ١٦١ م) واستمر العمل أيضا الى زمن «كره كالا» (Caracalla) (٢١١-٢١٧م) وغيرهما ، فصار المعبد يعد من عجائب فن العمارة ، كما ان خرائبه الآن[١] أعظم ما جاءنا من الآثار الهلنستية فى سورية .

أما عن الناحية الادبية والعقلية فان المدن السورية لم تضاه مصر (ولا سيما الاسكندرية) فى العهد الرومانى[٢] ، وكان أدباؤها ممن كتبَ باللاتينية لم يتميزوا بالابداع ، ولكن ظهر فى سورية كتاب مبرزون بالاغريقية منهم المؤرخ اليهودى «جوزيفوس» (ولد عام ٣٧ م فى اورشليم) الذى كتب كتابه التأريخى المشهور عن اليهود وعن الحرب اليهودية الرومانية[٣] فكان مصدرا مهما لتأريخ سورية ، وقد كان نفسه شاهد عيان فى تلك الحرب التى ستنوه بها اذ صار قائدا فى الجيش اليهودى ، وهناك أسماء بضعة مؤرخين آخرين فى سورية لا يعرف عنهم الشىء الكثير ، منهم مؤرخ طريف عاش فى النصف الثانى من القرن الثانى للميلاد اسمه «يامبليخوس» (Iamblichus) كتب فى تأريخ بلاد بابل . ومن المؤلفين القلائل الآخرين فى الجغرافية والطب ،

---

(١) لقد أجريت فيه بعض التحريات الآثارية على يد « بخشتاين » (O. Puchstein) منذ عام ١٩٠٢ انظر تقاريره عن الحفريات التى نشرت فى ١٩٠٢ ، ١٩٠٣ و ١٠٥ وانظر ايضا
Theodore Wiegand, **Baalbek,** 3 vols. (1921 — 1925).

(٢) (Hitti, **Op. Cit.,** 319).

(٣)
Josephus, **Antiquities of the Jews and the Jewish War**
وقد ترجمه الى الانجليزية (William Whiston).
ثم نشر ونقح من جانب (H. St. J. Thackeray) فى سبعة مجلدات
(طبع لندن ١٩٢٦ ـ ١٩٤٣)

جغرافي مهم اسمه «مرينوس» (Marinus) من أهل صور وقد عاش في منتصف القرن الثاني للميلاد، وكان أول من وضع الخرائط العلمية المرسومة بالطرق الرياضية على أساس خطوط الطول والعرض، وقد اقتبس منه بطليموس كثيرا[١]، ونذكر الطبيب الذي عاش في «افامية» ومارس الطب في رومة في عهد تراجان وبداية القرن الثاني للميلاد واسمه «ارخيجينس» (Archigenes) الذي كتب رسالة في النبض علق عليها «جالينوس» المشهور • ونذكر أيضا «لوشيان» (Lucian) من سموساته (سميساط) من القرن الثاني للميلاد ، وكان قانونيا ثم محاضرا متجولا في آسية الصغرى ومقدونية واليونان وايطالية وفرنسة[٢] وساهم المفكرون السوريون في حقل الفلسفة أيضا ولا سيما الافلاطونية الحديثة ، ويذكر لنا سترابون عن الفلاسفة الصيداويين ، كما يذكر لنا فيلسوفا رواقيا عاش في صور اسمه «انتيباتر» (Antipater) ولعله نفس «انتيباتر» الشاعر[٣]، كما اشتهر من صور الفيلسوف «مكسيموس» (Maximus) في عهد «مرقس اوريليوس» • وصارت «افامية» في القرن الثالث للميلاد مركزا مهما لمدرسة من الفلاسفة الافلاطونيين المحدثين أسسها «ايميليوس» (Aemelius) بتشجيع الملكة العربية الشهيرة «زنوبيا» ملكة تدمر • وكان نفسه تلميذا لافلوطين مؤسس الافلاطونية الحديثة[٤] •

ومما يقال بوجه عام انه على الرغم من تغلغل النفوذ الروماني والثقافة الرومانية ـ الهلنستية في سورية وعلى الرغم من تساهل الرومان مع رعاياهم

---

(١) انظر جغرافية بطليموس الكتاب الاول الفصل السادس المشار اليه في (Hitti, **Op. Cit.**, 320)

(٢) (Hitti, **Op. Cit.**, 322) وقد جاءنا من مؤلفاته الشهيرة كتابه «الالهة السورية» (**De Dea Syria**) (انظر نشر مؤلفاته من جانب (A. M. Hammon, **Lucian**, 1913)).

(٣) (Hitti, **Op. Cit.**, 323).

(٤) حول أسماء الفلاسفة الآخرين من هذه المدرسة أنظر «ذات المصدر» الص ٣٢٤ فما بعد •

ومنحهم الرعوية الرومانية الى طبقات مهمة من الولايات الرومانية[١] ، فان السكان الاصليين ظلوا محافظين على كيانهم الوطني، وكانت تبدر منهم ردود فعل بعضها قصدية شعورية وبعضها لا شعورية ازاء عملية التحول الى الثقافة الهلنستية ، وبوسعنا عد ظهور المسيحية من جملة هذه الاستجابات من الناحية الدينية ، حيث تمثل لنا انتصار المقاومة السورية للروح الهلينية ووثنيتها ، ومن الباحثين من يعد ظهور الاسلام وانتصاره على الامبراطورية الرومانية أعنف رد فعل ازاء التحول الى الثقافة الهلينية[٢] • وكان اليهود أكثر السكان مقاومة لتغلغل الروح الهلينية بصفتهم ذوى ديانة موحدة بلغ تمسكهم بها أن جعلوها قومية لهم • ومع ان الطبقات المثرية والارستقراطية اليهودية قد تقبلت التغلغل الروماني وتعاونت مع اليونان الا ان الجمهور ورجال الدين والوطنيين المتعصبين كانوا يقاومون ذلك التحول حتى بلغت المقاومة الثورة العلنية على رومة • وقبل أن نلخص هذه الثورة اليهودية نذكر ان الرومان في عهد «انطونيوس» قد خلعوا العائلة المكابية اليهودية من حكم اليهود ونصبوا بدلا منها سلالة يهودية أخرى صار منهم ملوك اشتهروا باسم «هيرود» (هيرودس) ، وأشهرهم هيرود الملقب بالاكبر الذى حكم من ٤٠ ـ ٤ ق • م الذى اشتهر بولادة السيد المسيح في السنة الاخيرة من حكمه[٣] • وعمل هيرود على تمشية المصالح الرومانية ضد مصالح قومه اليهود فنجح الى حد ما في نشر الثقافة الرومانية ـ الهلنستية حتى انه أقام في اورشليم ملاعب على الطراز الروماني واتخذ العادات الرومانية • وقد وجه عنايته الى مدينة السامرة حيث جدد بناءها وأعاد تسميتها باسم «سبسطية» (أى مدينة اوغسطس) ، كما انه

---

(١) وقد بلغت حركة منح الرعوية الرومانية الى سكان الولايات الرومانية أوجها في عام ٢١٢ للميلاد لما أصدر الامبراطور «كره كالا» مرسومه الشهير القاضى بمنح الجنسية الرومانية الى سكان الولايات من الاحرار •

(٢) انظر توينبى «بحث فى التاريخ» (Toynbee, **A Study of History**) وترجمة الموجز من جانب المؤلف •

(٣) انظر انجيل «متى» ٢ : ١ ـ ١٨ •

وجه همه الى تعمير معبد الهيكل مداراة لليهود • واشتهر ابنه المسمى هيرود أيضا بانه هو الذى قتل يوحنا المعمدان[١] الذى عمد المسيح وبشر به وعاش فى زمنه •

وأخيرا نجح الحزب المناوىء للرومان بزعامة الفريسيين فحدثت الثورة اليهودية عام ٦٦ – ٧٠ للميلاد فى حكم «نيرون» وقامت ثورة أخرى فى عهد «هادريان» فى ١٣٢ – ١٣٤ م • فقضى على الثورة الاولى القائد «فسباسيان» (Vespasian) الذى دمر القطر وحاصر اورشليم ولما تبوأ العرش الرومانى بعد موت نيرون عهد اكمال القضاء على اورشليم الى ابنه «طيطوس» حيث حاصر المدينة زهاء خمسة أشهر انتهت فى ٧٠ للميلاد ، فأوقع الرومان مذبحة مريعة فى السكان وخربت المدينة وأحرق الهيكل وأزيل من الوجود حتى ان الناس فيما بعد لم يهتدوا الى موضعه ، وقد قدر عدد اليهود الذين هلكوا فى هذا العهد زهاء المليون نفسا • أما الاسرى فقد صار يتسلى بهم الرومان بأن أجبروا على قتل بعضهم البعض أو على مصارعة الاسود والوحوش الضارية • وزالت يهوذا من الوجود • وكأن هذا لم يكف حتى ثار اليهود ثورة ثانية من بعد نحو ٦٢ عاما فى عهد هادريان ، حيث ثار «سيمون بركوكبا» فى ١٣٢–١٣٥ م فسحق هادريان العصيان بقسوة وحول اورشليم الى مستعمرة رومانية ، مبدلا اسمها الى « ايليا كبتولينا » (Aelia Capitolina) ، وأقام فى محل الهيكل معبدا للاله «جوبتر» •

نشوء الديانة المسيحية :–

نشأت فى بلاد سورية ثانى ديانة عليا من الاديان السماوية السامية ، ولما كنا قد نوهنا بأولى هاتين الديانتين وهى الديانة العبرانية ، فيحسن بنا أن نأخذ

(١) انظر قصة هذه المأساة الفريدة فى متى ١١ فما بعد. حيث ان هيرود سجن يوحنا لتوبيخه له على الزنا بهيروديا التى حنقت عليه ودبرت قتله ، حيث جلبت ابنتها «سلومة» ورقصت أمام هيرود يوم عيد ميلاده فسر كثيرا حتى انه وعدها اعطاءها أى شىء تطلبه فطلبت هذه بايعاز أمها رأس يوحنا المعمدان على طبق ، فتم لها ما أرادت • وقد صارت الحادثة موضوعا للفن •

بعض الاشياء الاساسية عن الديانة المسيحية لما لها من الاثر العظيم فى حياة الشعوب قديما وحديثا ، وهى الى ذلك من بين الامور الخطيرة التى ساهمت فيها سورية فى تأريخ الحضارة البشرية ، فيجدر عرضها فى هذا الموجز من تأريخها •

واذا كان يتعذر على نطاق هذا الكتاب الدخول فى التفاصيل عن تأريخ المسيحية وتطورها وانتشارها وذكر مللها ونحلها فنجتزىء هنا على النقاط الاساسية فى الموضوع كمقدمة تعريفية لمن أراد التتبع والتوسع •

ومهما ساق النقاد المتشككون من الشكوك فى شخصية عيسى التأريخية وتفاصيل سيرة حياته[١] ، فان الذى لا يمكن نكرانه من الوجهة التأريخية ان هناك حقائق تأريخية أساسية عن حياته وتعاليمه مأخوذة بالدرجة الاولى من الاناجيل الاربعة وأعمال الرسل والرسائل الخاصة بالحواريين ، وما ورد عنه فى المصادر المتأخرة • فمن هذه الحقائق الاساسية أن شخصا تأريخيا (حقيقيا) اسمه «المسيح»[٢] ،

---

(١) لا مجال للدخول فى نقاش مثل هؤلاء المتشككين وحججهم ، ويكفى ان ننوه ببعض مواطن شكهم على سبيل المثال ، فمثلا يقولون ان المسيح لم يذكره أحد من المؤرخين المعاصرين باستثناء عبارة قصيرة وردت فى تاريخ «تاسيتوس» (الذى عاش فى منتصف القرن الاول أو الثانى للميلاد) من أن «كريستوس» أى «المسيح» قاسى عقوبة الموت فى حكم الامبراطور طيبريوس على أثر الحكم الذى أصدره الحاكم الرومانى «بونتيوس بيلاطس» (Tacitus, XV, ch. 44) ثم ذكره وذكر أتباعه المسيحيين المؤرخ اليهودى «جوزيفوس» (ولادة عام ٣٧م) وكان شاهد عيان فى الحرب الرومانية اليهودية (٧٠ م) ، ولكن بعض النقاد يشكون فى اصالة هذه الاشارة وصحتها بيد ان الواقع ان ولادة المسيح فى تلك القرية الضئيلة الشأن من تلك الامبراطورية الواسعة وسير تبشيره وصلبه ، كل ذلك كان من الامور التافهة فى نظر المؤرخين المعاصرين الذين عاشوا فى تلك الامبراطورية المترامية ذات الوقائع والحوادث الجسام • هذا وان عدم الاخذ بسكوت المصادر المعاصرة لا يقتصر على هذه الحالة ، بل ان هناك حوادث تاريخية من شاكلتها •

(٢) المسيح (Christ) أو كما فى اللفظ العبرانى «مشيح» يعنى «الممسوح» (أى الممسوح بالزيت) وهو لقب الملوك اليهود بالاشارة الى ان ملكا مسيحيا سيظهر بينهم ويعيد مملكة داود • أما اسم عيسى (Jesus) فمأخوذ من يسوع من «يهوشع» (Jehoshia) العبرانى (أى يهوه خلاص أو انقاذ) •

قد ولد في موضع صغير (بيت لحم) في فلسطين من بلاد سورية في العهد الروماني في حدود عام ٤ ق ٠ م في أواخر حكم الملك اليهودي على فلسطين التابع لرومة وهو «هيرود» (هيرودس) الملقب بهيرود الاكبر في عهد (الامبراطور) الشهير اوغسطس قيصر ، وظهر يبشر بدياناته في عهد الامبراطور طبيريوس (٤٢ ق ٠ م ـ ٣٧ م) وانه مات صلبا على الصليب في عهد هذا الامبراطور (في عام ٢٨ أو ٢٩ للميلاد) في عهد الوالي الروماني المسمى «بيلاطس» (الملقب بالبنطى) حيث سلم المسيح الى اليهود ٠ واتخذت ولادته حدا فاصلا في التأريخ البشرى بين العهد القديم والعهد الحديث ٠

وتفردت نبوءة عيسى ورسالته على ما جاء في الاناجيل ببعض الامور التى لم تكن مألوفة في تجارب النبوات في الشرق الادنى كولادته من عذراء (هي مريم العذراء التى كانت مخطوبة ليوسف) بدون أن يمسسها بشر ، والعجائب والمعاجز التى حدثت في السماء ، والموت على الصليب ثم قيامته ٠ ولكن جميع تعاليمه التى بشر بها قد سبق ما يضاهيها من تعاليم أنبياء بنى اسرائيل ، حتى الحكم والامثال والعبر ، بيد ان هذا النبى تفرد عن سابقيه من الانبياء بأن أقام ديانته على أساس أسمى يدور حول حب الله وعلاقة الانسان بالله وعلاقة الانسان بالانسان (بنوة الانسان لله وأبوة الله لجميع البشر) فجمع شمل البشرية في عائلة واحدة كبرى عن طريق الحب الالهى٠ والجدير بالذكر بهذا الصدد انغير واحد من الفلاسفة السابقين حلم بمبدأ الاخوة البشرية وحاول الاسكندر الكبير محاولته الجريئة العظمى من جمع العالم في دولة واحدة ، ولكن كانت تنقص مبادىء هؤلاء قوة المعتقد الدينى وحرارته ، ولعل الفلسفة اليونانية الرواقية أقرب الفلسفات اليونانية الى المسيحية من ناحية تبشيرها بمبدأ الحب الجامع ، كما ان مؤسسى الكنيسة المسيحية الاوائل استعانوا بكثير من مبادىء الافلاطونية (وبوجه خاص الافلاطونية الحديثة) في شرح مبادىء المسيحية وتوجيهها وتعليل تعاليمها ٠ ومن تعاليم المسيح الاساسية الانقلابية مبدأ «مملكة السماء» التى يدخل فيها جميع البشر المشمولين بأبوة الله وحب

الله • ولعل هذا أبرز عامل كرهه بأعين اليهود ، اذ انه موجه فى الواقع على احتكارهم لله بموجب مبدأ «الشعب المختار» ، حيث أكد المسيح على ان ليس هناك شعب مختار فى «مملكة السماء» ، لان الله هو الاب الحى لجميع الحياة والاحياء ، فلا يخص بشرا أو شيئا من خلقه بالعطف ، ويميزه على غيره •

كان انتشار المسيحية انتشارا بطيئا فى مبدأ الامر ، محفوفا بالمهالك والاضطهاد وكان الرومان حتى القرن الاول للميلاد ينظرون الى المسيحية وكأنها مذهب يهودى أو بدعة يهودية غامضة ، ولم يظهر الاهتمام بالديانة الجديدة الا فى عهد الامبراطور الرومانى «تراجان» (٩٨ — ١١٧ م) • ولاقت الديانة الجديدة مقاومة ومناوءة شديدتين من جانب الكتاب الرومان الذين كانت لديهم الديانة الرومانية القديمة وآلهتها تمثل لهم أمجاد الامبراطورية السابقة وقوتها وسلطانها • وقد عمل الآباء المسيحيون الاول ولا سيما بولس على تقريب مبادىء المسيحية الى افهام اليونان والرومان ، وكان بولس يعرف اليونانية وواقفا على طرق الفلسفة اليونانية فاستعان بالمصطلحات الفلسفية والمنطقية الكلامية فى شرح أصول المسيحية ، وكان بولس فى الواقع أول من بدأ بمحاولة التوفيق بين المسيحية وبين الثقافة الهلنستية ، وسنذكر أيضا استعمال الانجيل الرابع (انجيل يوحنا) للمصطلحات اليونانية ، وبوجه خاص مبدأ «الكلمة» (اللوجوس Logos)

ولكن قبل أن تتمكن المسيحية من الانتشار فى أرجاء الامبراطورية الرومانية خارج الحظيرة اليهودية فى فلسطين قاسى المبشرون بها ومعتنقوها شتى ضروب العذاب والاضطهاد ، وهناك سجل حافل بالشهداء من هؤلاء المسيحيين الاوائل • ومع أن الرومان كانوا متساهلين فى أمور الدين مع الديانات الوثنية الاخرى المنتشرة فى امبراطوريتهم الا ان المسيحيين كانوا متعصبين فى معتقدهم وتبشيرهم بدينهم الجديد ، ولم يتساهلوا كأصحاب الديانات الاخرى فى مراعاة الطقوس الدينية الخاصة بديانة الامبراطورية الرسمية ، وهو أمر لم يكن ليتطلب منهم سوى مراعاة الرسوم الظاهرية ، ولا

سيما تقديس شخص الامبراطور الروماني بصفته الها ، وفيما عدا هذا كانوا أحرارا فى معتقداتهم الدينية الخاصة وعبادة آلهتهم الخاصة . ففضل المسيحيون الاذى والاضطهاد على الرضوخ الى ذلك . وكان أول اضطهاد خطير حل بهم فى عهد الامبراطور الاهوج «نيرون» المشهور بغرابة أطواره ، وحرقه لرومة لاشباع عاطفة جنونية وصادف أن حدث فى رومة (عام ٦٤ للميلاد) حريق فظن السكان ان امبراطورهم الغريب الاطوار هو الذى أحدث ذلك الحريق ، ولكى يدفع عنه تلك الشبهة اتهم المسيحيين فأمر بافنائهم جميعا[١] . وأعقب هذا الاضطهاد المحلى اضطهاد شامل ، امتد الى الولايات الرومانية . فحكم على «بولس» بالموت في رومة (٦٨ للميلاد) واستشهد بطرس صلبا فى رومة فى نفس الوقت الذى مات بولس بالسيف . كما وقع اضطهاد رسمى آخر فى عام ٩٥ للميلاد فى عهد الامبراطور «دوميشان» . واعلن تراجان فى عام ١١٢ م أن المسيحيين الذين يرفضون اظهار الخضوع الى آلهة الدولة الرسمية والى عبادة شخص الامبراطور يجب أن يحل بهم العقاب على انهم رعايا خونة. ولما بدأت الامبراطورية تسير فى طريق الانهيار منذ القرن الثالث للميلاد فى حين ان الكنيسة أخذت تتوطد وتقوى حاول حكام الامبراطورية الرومانية القضاء على الديانة الجديدة ، واستمر الاضطهاد يتناوب شدة وضعفا حتى أصدر الامبراطور «ديوقليشيان» فى عام ٣٠٣ م أمره الرسمى بازالة الكنائس وحرق الكتب المسيحية وطرد جميع الموظفين المعتنقين للمسيحية من خدمة الدولة ، ولكن تيار انتشار المسيحية كان أقوى من الاضطهاد ، حتى آل الامر الى انتصار هذه الديانة بأن اعتنقها رسميا رأس الامبراطورية وهو قسطنطين الاكبر فى عام ٣٢٤ م ، وهذا معناه انها أصبحت ديانة الدولة الرسمية تقريبا . فانتصرت المسيحية ليس على قوى الاضطهاد بل ان الاديان الوثنية التى كانت تنافسها[٢] أخذت تموت ، حتى ان ثيودوسيوس (Theodosius) أمر بتحطيم

---

(١) (1) Tacitus, **Annales**, Bk. XV, ch. 44

(٢) حينما كانت المسيحية تبشر بنفسها بين سكان الامبراطورية كان ينافسها عدة ديانات ونحل بعضها من أصل شرقى وبعضها من أصل يونانى، =

تمثال الاله «جوبتر سيرابيس» المقام فى الاسكندرية ٠

لقد سبق أن نوهنا باصول الديانة المسيحية ، فتمدنا الاناجيل الاربعة بمعلومات مهمة عن سيرة المسيح والحوادث التى اقترنت فى تبليغ رسالته وتعاليمه ،ولكن لا نجد فيها الا قليلا من المبادىء التى قامت عليها الكنيسة المسيحية ونظامها ، حيث ترجع أسسها الى أعمال الرسل ورسائل أتباع المسيح المشهورة ولا سيما رسائل بولس ، حيث تكمل هذه ما ورد فى الاناجيل الاربعة ، ونضيف الى ذلك جهود آباء الكنيسة الاول باختلاف أزمانهم والمجامع الكنسية المختلفة وأعمال الاساقفة البارزين ٠

ومما يجدر التنويه به عن الاناجيل ان الاناجيل الثلاثة الاولى بحسب

= ومن ذلك جملة نحل باطنية سرية ، مثل عبادة الاله «ديونيسيس» ، وهو اله الخمرة والخضار والخصب وأصل عبادته من اليونان ، ومثل عبادة الالهة المصرية «ايسيس» (التى ذكرنا انها زوجة الاله اوسيريس) وقد اعترف بعبادتها رسميا الامبراطور «كليجولا» (Caligula) فى عام ٤٠ م ، وقد شاعت عبادة هذه الالهة فى جميع أنحاء الامبراطورية فى القرن الثانى للميلاد ٠ وانتشرت أيضا الديانة «المثرائية» وعبادة الاله «مثرا» ، وهو الاله الشمس الذى ترجع عبادته فى أصلها الى الزرادشتية ، وانتشرت هذه العبادة فى القرن الثالث الميلادى ، ولا سيما بين الجند ٠ كما كان فى بلاد سورية نفسها عبادات من بقايا عبادة الآلهة الوثنية فى العصور السامية القديمة مثل عبادة الاله «ادد ـ حدد» الذى عين بالاله «جوبتر» و «زوس» ٠ ولكن أصبح للمسيحية فى بلاد سورية مراكز مهمة مثل انطاكية فقد صارت كنيستها أم الكنائس فى الخارج ، وخرج منها الحواريون والآباء الاول مثل بولس كما كان هؤلاء يرجعون اليها ٠ وبعد تدمير اورشليم صارت انطاكية عاصمة العالم المسيحى وقد كان أساقفتها يلقبون فى القرن الرابع للميلاد بلقب المطران (Metropolitan) أى ما يقابل «رئيس الاساقفة» (Archbishop) وقد انعقد فيها ما لا يقل عن ثلاثين مجمعا كنسيا (أى سنودس) (Synod) وهى مجامع الاساقفة للنظر فى الشؤون الدينية العليا ، أولها كان فى عام ٢٦٩ للميلاد ٠ والى جانب انطاكية ظهرت «اديسا» (الرها) أيضا وكانت مركز الثقافة المسيحية الآرامية (السريانية) كما كانت انطاكية مركز اليونانية والآرامية وكانت الرها أقدم مراكز المسيحية فيما بين النهرين ، والمرجح ان النسخ السريانية الاصلية للكتاب المقدس قد كتبت فيها فى أواخر القرن الثانى للميلاد ٠

ترتيبها المأثور (أى انجيل متى ومرقس ولوقا) متشابهة تقريب فى مادتها من ناحية سيرة المسيح وأعماله(١) وهى تختلف كثيرا عن الانجيل الرابع ، أى انجيل «يوحنا» • ويرجع ترتيب الاناجيل المأثور الى عهد الآباء المسيحيين مثل اوغسطين (٣٥٤ ـ ٤٣٠ م) الذى اعتقد بقدم انجيل متى وانه يسبق فى عهده الاناجيل التالية • ولكن النقد الحديث (منذ نهاية القرن التاسع عشر) أبان بان هذا الترتيب المأثور لا يقوم على أساس صحيح ، فقد ظهر أن انجيل «مرقس» استعمل مصدرا فى كتابة انجيل «متى» و «لوقا» ، وان مؤلف انجيل متى غير معروف ، كما ان لوقا قد دون من بعد عام ٩٣ أو ٩٤ م (بعد نشر تأريخ المؤرخ اليهودى جوزيفوس)(٢) • واشتهر الانجيل الرابع (انجيل يوحنا) باختلافه الاساسى عن الاناجيل الثلاثة الاخرى من حيث ادخاله مبدأ «الكلمة» (Logos) بتأثير الفلسفة اليونانية حيث يرى الباحثون المحدثون ان هذا الانجيل كتب فى مدينة «افسس» الشهيرة ، وكان أول من أورد هذا المبدأ الفيلسوف اليونانى الشهير «هيراقليطس» الذى عاش فى «افسس» نفسها فى حدود ٥٠٠ ق • م • ولم يستعمل مبدأ الكلمة «اللوجوس» الا فى مقدمة الانجيل(٣) ، ولكن مع ذلك فقد أثر هذا الاستعمال تأثيرا عميقا فى عقائد المسيحية الاصولية • ولعل «بولس» (Poul) كان أعظم من أثر فى وضع أسس المعتقد المسيحى(٤) ، وكان واسع الثقافة يعرف اليونانية ومطلعا على أديان عصره وعلى فلسفة مدارس الاسكندرية فنقل كثيرا من آرائهم

---

(١) ولذلك تسمى الاناجيل الثلاثة الاولى (متى ومرقس ولوقا) باسم (Synoptic Gospels)

(٢) أنظر أحدث مرجع في الموضوع
(Ernest William Barnes, **The Rise of Christianity** (1948).

(٣) «فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله» •

(٤) لم يعش «بولس» فى زمن المسيح ولم يره ، وكان يعيش فى طرسوس واسمه فى الاصل شاؤل وكان يهوديا متعصبا (فريسيا) فاضطهد المسيحين القلائل ، ولكنه اعتنق المسيحية (فى عام ٣٧ م) ، وصار من واضعى أسسها •

ومصطلحاتهم الى المسيحية • وكان أول من فسر صلب المسيح بانه ضحية الهية لانقاذ البشر من خطيئتهم الاولى • وكذلك تأثر بولس بعبادة الاله المصرى اوسيريس ، ولا سيما من ناحية مبدأ القيامة •

هذا ولا يسعنا أن ندخل فى تفاصيل الاختلافات بين الفرق والنحل المسيحية المختلفة التى نشأت بالدرجة الاولى من الجدل والاختلاف حول طبيعة المسيح وشخصيته وألوهيته وعلاقته بالله الاعظم • فهل المسيح من مادة تختلف عن طبيعة الاله ولكنها شبيهة بمادة الله على ما اعتقد «اريوس» (Arius) بطرك الاسكندرية اليونانى (٢٨٠ – ٣٣٦) وفرقته المشهورة بالاريوسية (Arianism) ، أو ان مادة المسيح من مادة الله الأب وان الله نفسه كان ثلاثة فى واحد : الاب ، والابن والروح القدس كما رأى « أثناسيوس » أسقف الاسكندرية أيضا (٢٩٦ – ٣٧٣ م) ، وبعد حروب ومشاحنات تغلب المبدأ الاثناسى وأقر فى مجمع نيقية (٣٢٥ م) وأيدته رومة ولكن الاريوسية انتشرت زمنا طويلا بين أقوام أوربة البربرية الشمالية قبل أن تتمكن منهم المسيحية الاصلية • ومن الفرق المسيحية الكبرى الناشئة عن العقائد الخاصة بطبيعة المسيح النسطورية نسبة الى نسطوريوس (Nestorius) ، بطرك القسطنطينية فى بداية القرن الخامس ، وصاحب المبدأ الذى استحق من أجله التحريم فى مجمع أفسس (عام ٤٣١ م) اذ قال بانه تتحد فى عيسى الشخصية الالهية أو العنصر الالهى (اللوجوس) والعنصر البشرى • وقد انتشر المذهب النسطورى فى المشرق ولا سيما فى العهد الساسانى وعرف باسم الكنيسة الشرقية (أنظر الكلام على بلاد ايران) ويأتى بعد النسطورية فى عظم الانشقاق فى الكنيسة مذهب الطبيعة الواحدة[١] (مذهب اليعاقبة) ويعنى هذا المصطلح المسيحيين الذين رفضوا

---

(١) Monophysite

مبدأ الطبيعتين فى المسيح (أى الطبيعة الالهية والبشرية) وهو المبدأ الذى أقر فى مجمع خلقيدون (٤٥١ م) ، ورأوا ان الطبيعة البشرية والطبيعة الالهية ما هما الا طبيعة واحدة مركبة • وقد انتشر هذا المذهب فى القرن الخامس والسادس فى معظم شمالى سورية بفضل حماس المبشرين به ولا سيما «برصوما» اسقف نصيبين (٤٨٤ – ٤٩٦) وبطرك انطاكية «سويروس» (٥١٢ – ٥١٨) •

القسم الثالث

موجز في

تاريخ بعض الحضارات والامم القديمة

الفصل الثاني والثلاثون

موجز في تاريخ بعض الحضارات والامم القديمة

بعد أن أنهينا الكلام على حضارتي وادي الرافدين ووادي النيل اللتين كانتا أهم حضارات أثرت في حياة العالم القديم والحديث واوجزنا الكلام على تاريخ بلاد الشام يحسن بنا أن نستعرض استعراضا موجزاً أشهر الحضارات والامم القديمة التي نشأت في العالم القديم وأثرت كذلك بدورها في حياة الامم ومصائر الشعوب في الشرق والغرب • وقد كان بعض هذه الحضارات من الحضارات الاصلية التي لم تشتق من غيرها بل نشأت مثل حضارتي مصر والعراق ، من الاطوار البدائية • وقد ظهر بعضها مثل الحضارة المينية وحضارة وادي السند في أزمان قديمة ، في الالف الثالث ق • م • ، ونشأ بعضها من بعد ذلك منذ الالف الثاني ق • م • وكان بعضها من الحضارات الفرعية التي اشتقت من الحضارات القديمة الاصلية ولا سيما حضارة وادي الرافدين أو تأثرت بها وبحضارة وادي النيل أيضا • ونذكر فيما يأتي أشهر هذه الحضارات مرتبة بحسب قدمها[1] •

١ ـ حضارة وادي نهر السند والحضارة الهندية الآرية

نشأت في وادي نهر السند وفي سهل روافده الخمسة (البنجاب) حضارة قديمة سبقت هجرة الاقوام الآرية (الهندية ـ الاوربية) الى الهند التي ابتدأت في الالف الثاني (في حدود ١٦٠٠ ق •م•) • ويرجح كثيراً ان هذه

---

(١) يرجى من القارىء ان يلاحظ ان بعضا من هذه الحضارات قد الحقناها بمواضع أخرى من هذا الكتاب مثل الحضارة المينية التي ذكرت مقدمة لتاريخ اليونان والاتروسكيين حيث الحقوا في مقدمة تاريخ الرومان وسيجد القارىء الكلام على العيلاميين في القسم الخاص بتاريخ ايران •

الحضارة ، مثل الحضارة السومرية والمصرية ، من الحضارات الاصلية وان زمن نشوئها يقرب من زمن نشوء هاتين الحضارتين أى فى بداية الالف الثالث ق. م. أو منتصفه ، وسبقت ظهور هذه الحضارة الناضجة عصور حجرية طويلة من العصر الحجرى القديم والحديث حيث وجدت آثارهما منتشرة فى جميع شبه القارة الهندية(١) . أما زمن نشوء هذه الحضارة الراقية فيرجع الى العهد الحجرى المعدنى . ومن الطريف فى أمر هذه الحضارة انها ظهرت الى العالم منذ زمن حديث جداً فى عام ١٩٢٢ حيث بدأت التنقيبات فى موضع يسمى « موهنجو دارو » ، وهى أول مدينة أظهرتها التنقيبات من تلك الحضارة(٢) ، ثم تناولت أعمال التنقيب مواضع أخرى أظهرت لنا انه نشأت فى وادى نهر السند الواسع حضارة راقية ذات مدن معظمة منسقة التخطيط منتظمة الشوارع والبيوت مبنية بالآجر . وقد عرفت الفنون الجميلة والتعدين واشتهرت بالتجارة . وقد ثبت انها كانت على اتصال بالحضارة السومرية فى العراق ووجدت بعض الآثار الخاصة بالحضارة السومرية مثل الختوم الاسطوانية فى حضارة وادى نهر السند كما وجدت

---

(١) حول العصور الحجرية في الهند انظر المراجع الآتية :ـ

(1) V. Smith, **Oxford History of India,** 2.

(2) Childe, **The Most Ancient East.**

(3) **Archaeological Survey of India** (Govern. Department of Arch. 1947).

(٢) تقع «موهنجو دارو» على الضفة الغربية من نهر السند الى الشمال الشرقى من كراجى بنحو ١٤٠ ميلا وقد بدأ البحث فيها بطريق الصدفة عندما كان أحد الآثاريين الهنود (وهو بنرجى Banerji) ينقب فى معبد بوذى فى ذلك الموضع فعثر تحت ذلك المعبد على آثار تلك المدينة القديمة . ثم اتسعت التنقيبات من بعد ذلك فى موضع « موهنجو دارو » باشراف (السير جون مارشال) . وشمل التنقيب أيضا مواضع أخرى تمثل هذه الحضارة مثل «هاربا» (Harappa) الى الشمال الغربى من دلهى بنحو ٣٠٠ ميلا .

انظر :

(1) Sir Marshall, **Mohenjo Daro and the Indus Civilization.**

(2) Dr. Mackay **The Indus Civilization.**

بعض الختوم الخاصة بالحضارة السندية في العراق • فاستعان العلماء بهذه الاتصالات الثقافية في تاريخ الحضارة السندية أي تعيين زمنها • ووجدت في الموضعين السابقين آثار أخرى ممثلة لحضارة وادي السند كالادوات المنزلية والآلات والاسلحة المصنوعة من النحاس وحلى من الذهب وأواني الفخار البسيطة والملونة •

واستعملت الحضارة السندية نوعا من الكتابة الصورية لم تحل رموزها بعد • ومع اتساع التنقيبات التي جرت في الاماكن التي تمثل هذه الحضارة فانه لم يعثر من تلك الكتابة على نماذج كافية تمكن العلماء من حل رموزها وانما وجدت منها نماذج قليلة موجزة فيما يسمونه بالختوم أو الحروز مما لا يساعد الباحثين في محاولتهم ، ولا يعلم بوجه التأكيد لماذا لم يجد المنقبون كتابات مطولة في مآثر هذه الحضارة ، فيرى البعض ان سبب ذلك أنهم كتبوا على مواد قابلة للتلف كالجلود أو الخشب وما أشبه ذلك •

لقد سبق أن قلنا ان الحضارة السندية سبقت العهد الآري في الهند الذي بدأ في الالف الثاني ق • م وانها بدأت بالانهيار منذ ذلك التأريخ ولا شك ان الآريين هم الذين قضوا عليها • ومع أننا لا نزال نجهل الشيء الكثير عن هذه الحضارة من حيث أصولها القديمة الا ان الباحثين وجدوا بعض الاتصالات بينها وبين الاطوار الحضارية في العراق مما يرجح أنها تأثرت بالحضارة السومرية في نشوئها ولكنها على حال سارت فيما بعد بوجه مستقل الامر الذي يجعلها ، كما قلنا ، من الحضارات الاصلية •

العهـــد الآري :ـ

ومع الغموض الذي يكتنف نهاية الحضارة السندية والاقوام التي تقرن بها فيما قبل العهد الآري فيبدو ان الآريين لما غزوا الهند في منتصف الالف الثاني ق • م وجدوا من الاقوام الاصلية في الشمال جماعات اشتهرت بعبادة «الثعابين» وهم «الناكا» (Naga) [١] الذين لا يزال أحفـــادهم الآن في

---

(١) Gour, **Spirit of Buddhism.**

المرتفعات الشمالية • واستوطنت فى الجنوب جماعات سود الالوان فطس الانوف ، وهم «الدرافيديون» الذين كانوا متحضرين لما داهمهم الغزاة الآريون[١] ، فتعلموا منهم مبادىء الحضارة • ولا يزال أقليم «الدكن» الى يومنا هذا يسود فيه العنصر الدرافيدى وعاداته ولغته وفنه •

وبعد أن أمضى الآريون زمنا ما فى الفتح والتوسع وقتل السكان الاصليين شرعوا فى حياة الاستقرار ، فاستقرت القبائل واتحدت جملة منها مكونة دويلات فى أنحاء القطر ، يحكمها ملوك ومجلس شورى من المحاربين، ويرأس كل قبيلة «راجا» • ولما كان الآريون الغزاة أقلية بالنسبة الى السكان الاصليين ، فانهم لم يكتفوا للمحافظة على كيانهم ونقاوة عرقهم بقتل هؤلاء السكان الاصليين ، بل نشأت عندهم عادة الانفصال التام عنهم وتحريم الزواج منهم والاختلاط بهم ، وهذه هى عادة التنجس التى ورثتها الهند فى العصور الحديثة ، من عهد الفتح الآرى •

ان أحسن ما يصور لنا أوضاع الهند فى عهد الفتح الآرى الكتابات المقدسة المعروفة باسم «الفيدا» (أو الريج فيدا) حيث نستطيع أن نطلق على هذا العهد اسم العهد «الفيدى» (٢٠٠٠ ــ ١٠٠٠ ق • م) ، أعقبه عهد البطولة (١٠٠٠ ــ ٥٠٠ ق•م) الذى يمثله أدب الـ «مهابهراتا» (Mahabharata) والـ «رامايانا» اللتين كانتا بمثابة الاوديسة والالياذة عند اليونان فى عصور الابطال • وبعد حين توطد الاستقرار والاختصاص كما تثبت نظام الانقسام الى طوائف • ففى رأس طبقات المجتمع يأتى صنف المحاربين الـ «الكشاتريا» ثم كهنة «البراهمان» الذين لم يكن نفوذهم عظيما فى مبدأ الامر وانما كانوا مجرد مساعدين للرؤساء أو الملوك الكهنة ، ولكن ازداد نفوذهم بمرور الازمان حين زاد استقرار المحاربين وشغلوا بصناعات السلم دون الحرب ، وصاروا عدا وظيفة الكهانة الدينية معلمين ومحافظين لتأريخ الفاتحين وما ترهم

---

(١) Smith, **Oxford History of India**, 14.

وآدابهم وشرائعهم حتى بلغ نفوذهم فى المجتمع فى زمن البوذا (٥٦٣ – ٤٨٣ ق ٠ م) أنهم نافسوا نفوذ الطبقة النبيلة المحاربة ٠ ويقوم أساس المعتقد «البراهمانى» على ثلاثة أركان أو على ثالوث الهى مما يعرف باسم الـ «ترمورتى» (Trimurti) أى الثالوث المقدس وأولها الاله الاعلى «البراهما» وهو المبدأ الخالق المتصف بالمعرفة والحكمة ثم الـ «فشنو» (Vishnu) وهو المبدأ المدبر الحافظ المتميز بالحب والعاطفة ، ومبدأ الـ «شيفا» (Shiva) ، وهو المبدأ المخرب المدمر ، من الارادة والقوة ٠ ويأتى بعد هاتين الطبقتين الحاكمتين طبقة التجار الـ «فسيا» (Vaisya) وطبقة الصناع والعمال ، الـ «شدرا» (Shudra) [1] الذين يدخل فيهم معظم السكان الاصليين ، ثم طبقة المنبوذين ، الـ «فارياه» (Pariah) المؤلفين من السكان الاصليين ممن لم يندمجوا بالفاتحين وممن أسرهم هؤلاء الفاتحون فى الحرب ، وتبلغ طائفة المنبوذين فى الهند الآن أكثر من ٤٠ مليون[1] ٠

هذا ولا نعلم أشياء مهمة عن ديانة الهند فيما قبل العهد الآرى ولعله كان يدور على مبدأ الطوطمية والحيوية ، حيث الارواح تكمن فى قوى الطبيعة المختلفة ، كما عبدت الحيات والافاعى ويرجح ان بعض الآلهة الهندية الآرية أصلها مما قبل العهد الآرى مثل الاله «ناجا» (Naga) الممثل على هيئة تنين ، و«هنومان» (Hanuman) «الاله القرد» والاله «نندى» (Nandi) وهو الثور المقدس ومجموعة من الآلهة الخاصة بالشجر ٠ أما الآلهة القديمة الواردة فى «الفيدا» فأصلها من قوى الطبيعة وعناصرها مثل الجو والشمس والارض والنار والضوء والريح والماء [2] ٠ فالاله الجو «دايوس» (Dyaus) مثل الاله الاغريقى «زوس» ، ثم شخص الاله الجو وصار أبا باسم «فارونا» (Varuna) وشخصت الارض أيضا على هيئة أم باسم «فريثفى» (Prithivi) ومن الآلهة المهمة الاله النار «أجنى» (Agni) والاله «اندرا» (Indra) الـه الصواعق

---

(١) Will Durant, **The Story of Civilization,** 399.

(٢) Will Durant **ibid,** 402.

والبرق والرعد ، والاله الشمس «فشنو» (Vishnu) • ان هذه الا لهة وغيرها أكثر ما تتميز بصفة التشبيه • ولم يكن فى الديانة الفيدية القديمة اشارات الى معابد تشيد للعبادة وانما كانت القرابين تقدم فى مواضع عامة عند الحاجة ، ثم ايقاد النار المقدسة ومارسوا نوعا من تضحية البشر(١) •

وكان فى الهند جملة لهجات ولغات آرية أشهرها ما يسمى بالسنسكريتية التى دونت بها كتب «الفيدا» المقدسة ، أما الكتابة فالمرجح انها دخلت الى الهند عن طريق التجار فى حدود القرن التاسع أو الثامن ق • م ، من الحروف الهجائية السامية • أما هذه «الفيدا» فتعنى المعرفة أو الحكمة المقدسة(٢) ، وقد اشتهر من هذه الكتب الخاصة بالحكمة مما وصل الينا أربع مجموعات أشهرها «الريج فيدا» (Rig-Veda) وهى القصائد الخاصة بالتراتيل والتمجيد والمدائح والنصائح والحكمة والفلسفة ، وتنقسم كل فيدا الى أقسام أربعة(٣) ، يتضمن القسم الرابع منها قسم الحكمة والفلسفة •

البوذية

١ ـ الجانية :ـ

تميز القرن السادس ق • م فى الهند وبقية أجزاء العالم المتحضر بيقظة فكرية بين المفكرين والفلاسفة ، ففى اليونان بدأت عقول الناس تتفتح لمعالجة شؤون الكون وقضاياه الكبرى ، وفى الصين كان كونفشيوس يبشر بتعاليمه و «لاؤ ـ تصى» فى الصين أيضا ، وكان بعض أنبياء بنى اسرائيل مثل «ارمياء» و «اشعيا الثانى» مشغولين فى تبليغ رسالاتهم • وفى الهند ظهر جملة رجال

---

(١) (1) Eliot, **Buddhist India**, 1, 241.

(٢) (Veda) من نفس الجذر الانجليزى (Wit) و (Wisdom) واللاتينية (Video) والاغريقية (Foida) وهذا مثال على التشابه الموجود بين السنسكريتية واللغات الاوروبية القديمة والحديثة بصفتها من عائلة لغوية واحده

(٣) (Will **Durant, ibid**, 407).

Will Durant, **Op. Cit.**, 407.

فكروا في سلوك الانسان والحياة البشرية منهم «مهافيرا» (Mahavira) [(١)] مؤسس الجينية (Jainism) الشبيهة بالبوذية والبراهمانية ، وتدور على تقديس الرجال القديسين من العصور الماضية وهم «الجينا» أو «الجين» (Jain) وكان المهافيرا من «البوذات» ، لأن البوذا (Buddha) [(٢)] يطلق بوجه عام على الشخص الذي وهب الحكمة والنور الالهين وأطلقت على جملة مؤسسين لفرق ومذاهب دينية ، ولكن اختص بهذا اللقب البوذا «غوتاما سدهرثا» • وتدور تعاليم المهافيرا على ضبط النفس ونكران الحياة ولزوم حياة التقشف والتنسك ، وتطهير النفس من عواطفها • وبعد أن عاش زهاء (١٣) عاما في حياة نكران الذات سماه بعض أتباعه «جينا» أي الغازي أو الفاتح اشـــارة الى تغلبه على شهوات نفسه وعلى حياة المادة ، وهو لقب يطلق على المبشرين القديسين العظام الذين يظهرون مدفوعين بقوى علوية للتبشير بين الناس ثم سموه «مهافيرا» أيضا ، أي «البطل العظيم» ولكن اسم «الجين» و «الجينية» غلبت على هـــذا المذهب • وقد نظم المهافيرا رجال دينه من الرهبان والراهبات وفرض عليهم العزوبة ، ولما ان مات بعمر ٧٢ عاما خلف وراءه زهاء أربعة عشر الف من الاتباع وكان للجينيين فلسفة خاصة بهم ، فقد رأوا في المعرفة انها شيء نسبي وقتي غير مطلق • ولا يوجد شيء حقيقي الا من وجهة نظر خاصة ، فقد يكون باطلا من وجهات نظر أخرى • واليهم تنسب الاسطورة الطريفة الخاصة بالعميان الستة الذين وضع كل منهم يده على جزء خاص من الفيل فوصفه بشيء يشبه الجزء الذي تحسسه بيده ، فوصفه الذي تحسس اذنه بانه مروحة كبيرة والذي وضع يده على رجله بانه عمود كبير مدور الخ • وهكذا فجميع أحكامنا نسبية محـدودة ومشروطـة ، أما الحقيقـة المطلقـة فلا يعرفها الا المخلصون الذين يظهرون بين البشر في فترات معينة وهم «الجينا» من أمثال

---

(١) لا يعلم زمن المهافيرا بالضبط وهناك تاريخان محتملان وهمـا ٥٩٩ ـ ٥٥٢ ق • م • و ٥٤٩ ـ ٤٧٧ ق • م •
(Will Durant, **Op. Cit.**, 419)

(٢) من السنسكريتية «بوذ» (Budh) أي استيقظ •

«المهافيرا» • كما ان الحكمة المودعة في كتب «الفيدا» لا تغني شيئا ، لانها لم توح من الله ، وهم بوجه عام لم يروا ضرورة لوجود الآلهة ، فعندهم ان هذا من البديهي المنطقي الذي يدركه حتى الطفل ذلك هو ان صعوبة فهم أو ادراك خالق غير مخلوق أو ادراك السبب الاول ، أي سبب بدون مسبب ، كصعوبة ادراك عالم غير مخلوق أو غير مسبب(١) وعندهم ان الاسـهل من الناحية المنطقية الافتراض بأن الكون وجد منذ الازل وان ما يطرأ عليه من تغيرات وتقلبات مسببة عن قوى الطبيعة وقوانينها بدون الاضطرار الى افتراض تدخل آلهة أو اله خاص(١) •

ان هذه الفلسفة الطبيعية ، الشبيهة بمذاهب الفلاسفة اليونان الطبيعيين في العهد الذي سبق سقراط ، لم تجد التربة الملائمة لها في الهند • فانها بعد أن أخلت السماء والكون من الآلهة ملأته بدلا من ذلك بالقديسين المؤلهين من «الجيناء» ، حيث عبد هؤلاء كما يعبد الآلهة على الرغم من عد هؤلاء معرضين الى التفسخ والتناسخ ، كما انهم لم يكونوا بمثابة الآلهة الخالقة الحـاكمة للكون • هذا ولم يكن الجينيون ماديين مطلقا وانما كانوا يرون مبدأ «الثنائية» في الحياة والطبيعة ، أي مبدأ وجود المادة والروح أو الفكر حتى في الاشياء الجامدة ، وتستطيع النفس اذا عاشت حياة لا شائبة فيها ، أن تصير نفسا عليا خالصة(٢) فتنطلق من لباسها المادي ويتم ذلك بحياة التنسك والامتناع من احداث الاذى في أي شيء حي • وينبغي لكل «جيني» أن يقسم على نفسه خمسة أشياء : ألا يقتل أي شيء ، ولا يكذب ، ولا يأخذ ما لا يعطى له ، وان يحافظ على العفة وينبذ اللذة والمسرات الحسية • وبلغ من الجينيين الصادقين انهم كانوا يمتنعون حتى من أكل عسل النحل لانه حياتهـا ويصفون الماء الذي يشربونه لئلا يكون فيه بعض الحيوانات الدقيقة ، ويطبق الجيني شفتيه لئلا يدخل في فمه الهواء وفيه بعض المخلوقات ، حتى ان بعضهم أقام مستشفى في «احمد

---

(١) Will Durant, **Op. Cit.,** 420.

(٢) وبمصطلحهم «فرماتمان» (Paramatman)

أباده لايواء الحيوانات الكبيرة السن والحيوانات المصابة • فلا يسمح للجيني قتل أي حياة باستثناء حياته ، التي يمكنه أن يقضي عليها بالجوع والصيام ، وفي ذلك انتصار عظيم للروح على الارادة العمياء للحياة • وهكذا فان هذا المبدأ الصارم لم يجذب اليه أتباعا كثيرين • وحل فيهم الانقسام في حدود ١٩٠ للميلاد حول مبدأ العري ، فقسم تمسك بالعري التام وقسم ارتأى لباس رداء بسيط أبيض ، ولكنهم الآن جميعا يسيرون وهم لابسون الاردية المعتادة ، ولكن رؤساء الدين منهم والقديسين يسيرون عراة ، وهناك انقسامات أخرى ، ويبلغ عددهم جميعا الآن زهاء المليون ونصف المليون ، وقد تأثر غاندي بمذهبهم من ناحية التقشف في الملبس والمأكل •

(٢) البوذا والبوذية :ـ

ومع جهلنا بالعوامل الاجتماعية والاقتصادية التي عملت على ظهور الجينية والبوذية الشبيهة بها في الهند في حدود القرن السادس الا انهما في مبادئهما يبدوان وهما رد فعل عنيف ازاء الانغماس في الملذات من جراء تجمع الثروات الهائلة عند الطبقات العليا من المجتمع •

وتروي لنا المآثر الهندوسية ان ابا البوذا كان من النبلاء المثرين من قبيلة «الغوتاما» ، وكان أميرا أو ملكا على اقليم في سفح جبال هملايا ،ويخصص البحث الحديث لولادته عام ٥٦٣ ق • م ولا نعرف عن قصة حياته سوى ماجاءنا من المآثر والقصص ، فبموجب هذه المآثر تزوج البوذا في عمر ١٩ عاما بابنة عمه الجميلة وعاش سعيدا زمنا ما ولكن أدرك فجأة عقم حياته الفارغة التي لم تملؤها أسباب السعادة التي كانت في متناول يده من ناحية الثروة وأسباب الحياة السهلة • وفيما هو في هذا الحال التقى بأحد اولئك المتقشفين المتزهدين فاستهوته طريقتهم ، وفيما هو يفكر بتغيير سير حياته وافته الانباء بان زوجته الجميلة قد ولدت له ولدا فوجد «غوتاما» في ذلك رباطا جديدا يجب قطعه ، فعاد الى موطنه واحتفل بعودته وبولادة الطفل • وفي ليلة مقمرة دخل الى مخدع زوجته فوجدها تحيط بها الازهار والطفل نائم بين

ذراعيها فأحس بشوق لعناق الطفل ولكن خاف ايقاظ زوجته ، فخرج مسرعا وامتطى جواده وهام على وجه فى عالم الهند الواسع ، وظل يسير طوال الليل حتى ابتعد عن ربوع عشيرته • ولما أن أصبح الصباح وجد نفسه عند نهر ، فتمهل هنا وقطع بسيفه شعره الطويل المسرح بهيئة ظفائر ورمى جميع حليته وبدأ تجوالـــه ووجـد فى طريقـه رجـلا مرتديـا أسمالا بالية فاستبدلهـا «غوتاماء بحلته الزاهيـة ، وبذلك أصبـح حرا فى هيـامه الآن بحثا عن الحكمة والحقيقة ووجد فى أثناء تجواله جماعة من الرهبان المتبتلين فعاش معهم فى الكهوف وكان يذهب الى المدينة والقرى المجاورة للتبشير بتعاليمهم وتظلع بجميع المعارف الميتافيزيقية فى عصره ، ولكنه لم يجد فيها حلا لازمته الفكرية فاتبع سبيل التقشف المتطرف مع خمسة من أتباعه وأصحابه حيث قضى معهم فى غابة حياة مارس فيها الصوم القاسى الشـديد ونكران الذات والجسم ، فذاعت شهرته • وفيما كان مرة يسير ذهابا ومجيئا مفكرا بحل لعذابه النفسى أصابه الاعيـاء الشـديد فسقط على الارض فاقدا شعوره وألفى نفسه وقد وجد سبيل الحكمة الابدية واضحاً أمامه•فطلب من أصحابه أن يطعموه الطعام العادى تاركاً صومه وزهده فانكر ذلك اتباعه ، ولكنه نفسه أدرك الحقيقة من أن الانسان لايستطيع ادراك أي حقيقة مهما كانت الا بعقل سليم فى جسم سليم معافى ، وهذه أفكار غريبة بالنسبة الى متنسكى الهنود ، فتركه أصحابه وأتباعه ، فأخذ «غوتاماء يتجول وحيدا • وتروى المآثر انه حصل على الالهام بالحكمة المطلقة لما كان يفكر بلا حراك ليلا ونهارا تحت شجرة فى ضفة النهر • فعاد الى «بنارس» وجمع حوله الاتبـاع من جديد حيث أسس مجتمعا منهم يعيش فى الاكواخ • وكانت تعاليمه الجديدة تدور على كبح النفس وضبطها ، فان جميع ما يصيب الانسان من شقاء منشؤه من رغبات الفرد وأطماعه • وهناك ثلاثة أشكال تبدو فيهـا أشـواق النفس ورغباتها وكلها شر ، فأولها الرغبة الحسية والشهوات وجميع اشكال الملذات الحسية وثانيها شهوة النفس الانانية للخلود وثالثها الرغبة فى النجاح الشخصي

فى المادة والاطماع • واذا استطاع المرء من الغلبة على هذه الرغبات والشهوات فتحصل سعادة الروح الكاملة وهى بلوغ حالة « النرفانا » ، وهى أسمى فضيلة ، وعنها تنتج الاستقامة العقلية وسمو الغرض والهدف فى الحياة والسلوك الفاضل فى العيش والحياة • ومع ان « النرفانا » فى تطرفها قاسية ترمى الى افناء النفس بضبط الشهوات الا انه يكمن فيها السر للسيطرة على النفس ، وهو أمر اتفق فيه جميع المصلحين من الجنس البشرى سواء كانوا أنبياء أو فلاسفة • كما أخذ «غوتاما» بمبدأ العقاب والثواب فى هذه الحياة الذى يعيش فيها المرء أو فى حياة أخرى عن طريق التناسخ ، وهذا هو المبدأ الهندى المعروف باسم «الكرما» (Karma) ، وهو ما قدر على الفرد من عقاب أو ثواب جزاء أعماله السابقة التى تحدد مصيره فى المستقبل بموجب الناموس العام من أن أى عمل يجازى خيرا أو شرا بحسب طبيعته • واشتهر « غوتاما » بطريقة بث تعاليمه فى تجوله مع أتباعه من موضع الى موضع آخر على غرار السفسطائيين اليونان ، كما انه كان يشبه سقراط فى طريقة عرض تعاليمه بطريقة القاء الاسئلة والوصول منها الى الحقيقة المطلوبة • ونسبت اليه المأثر وضعه «الحقائق الاربع النبيلة» وهى : ان الحياة ألم والالم ناشىء من الشهوة والرغبة ، وان الحكمة تكمن فى كبت جميع الشهوات • ويتضح مما أوردناه شبه تعاليم «البوذا» بالمذهب «الجينى» الذى أسسه «المهافيرا» على ما لخصناه فيما سبق •

ومع ان «البوذية» لم تكن فى حياة مؤسسها تنطوى على نظام خاص للكهنة الا انه سرعان ما نشأ منها بعد موت مؤسسها نظام خطر من الكهان على طراز كهنة الهندوس ، و « البراهمان » كما ان اتباع « البوذا » أخذوا من بعده يؤلهونه ويقدسونه ، ووقعت فى تعاليمه تحويرات واضافات وأساطير لم تكن موجودة بالاصل ولم يكن المؤسس ليرتضيها •

وننهى كلامنا على الهند القديمة بذكر شىء موجز عن العهد المهم الذى أعقب غزو الاسكندر للهند • فقد عبر الاسكندر فى عام ٣٢٧ ق • م من

ايران مرتفعات «هندوكوش» ودخل في الهند، وبقي يحارب عاما واحدا في الولايات الشمالية الغربية التي كانت تابعة للامبراطورية الفارسية ، وحصل منها على الموارد لجيشه وعلى الذهب وعبر في عام ٣٢٦ السند وحارب من لاقاه في طريقه شرقا وجنوبا ولاقى جيش الملك الهندي المشهور المعروف باسم « فور (Porus) ودحر جيشه الهائل مع فيلته . وبعد هذا الانتصار اعجب الاسكندر بشجاعة «فور» وشخصيته فعفا عنه وولاه على جميع ما فتحه من بلاد الهند ليكون تابعا لامبراطوريته ، فبقي «فور» مخلصا . ولكن نفوذ المقدونيين لم يبق في الهند زمنا طويلا من بعد موت الاسكندر ، اذ انه ثار عليهم أمير شاب اسمه « جندرا كوفتا » (Chanragupta) (٣٢٢ – ٢٩٨ ق٠م٠) فاستطاع أن يتغلب على الحامية المقدونية ومد فتوحه وأسس سلالة عظيمة حكمت الهند وافغانستان زهاء ١٣٧ عاما (٣٢٢ – ١٨٥ ق٠م٠) وهذه هي السلالة المورية (Mauraya) التي صارت في زمن مؤسسها امبراطورية كبيرة وأعظم دول العالم القديم الموجودة آنذاك ، وكانت تعاصر الحكم السلوقي في سورية والعراق وعلى صلات مع السلوقيين ، وقد أعجب السفير السلوقي الذي جاء الى عاصمة هذه المملكة «فتاليفترا» (Pataliputra) عاصمة مملكة « مغاذا » السابقة ، حيث اندهش بالحضارة الباهرة التي كانت في هذه المملكة وحسن أخلاق أهلها وانتظام شرائعها[١] واشتهرت من مدن المملكة (البالغة الفين مدينة) في عهد مؤسس السلالة مدينة «تكسلا» (Taxila) الواقعة على بعد نحو عشرين ميلا من مدينة «رولبندي» الحديثة وهي الآن مشهورة بآثارها الباقية[٢] . واشتهر من هذه السلالة ملكها الشهير « اصوكا » (Asoka) (٢٧٣ – ٢٣٢ ق ٠ م) حفيد مؤسس السلالة . وقد اعتنق هذا المذهب البوذي وجعله المذهب الرسمي في الدولة،

---

(١) أنظر تقرير هذا السفير المسمى (Megasthenes) في
Dutt, **Civilization of India,** 50.
وكذلك اقتباسه في (Will Durant, **Op. Cit.,** 441)

(٢) انظر Sir Marshall, **Taxila** 3 vols.

وقد استطاع أن يمد فتوحه ويجعلها تشمل معظم أجزاء الهند • ويعدحكمه الذي دام ٢٨ عاما من العهود المجيدة في التاريخ البشري ، لما قام به من أعمال ومشاريع عمرانية كان البعض منها سابقا لاوانه ومما يميز اتجاهات العصور الحديثة في تاريخ الانسان • فقد أسس المستشفيات والجامعات والحدائق العامة وخصص مزارع لانماء الحشائش والعقاقير الطبية • واوجد وزارة تعنى بشؤون الطوائف الخاضعة والمنبوذة في الهند ، كما شرع تعليم النساء ، وعنى بالبحوث والتأليف ووجه الكتبة البوذيين على نقد أدب الديانة البوذية وتطهيرها من الخرافات والاساطير ، وبعث البعوث التبشيرية الى كشمير وفارس وسيلان والاسكندرية•ومما يؤسف له ان خلفاء « اصوكا » لم يكونوا اكفاء له • فظهرت مقاومة الكهنة «البراهمانيين» الذين كانوا يعارضون تعاليم البوذية الصريحة البسيطة ، فأضعفوا المعتقد البوذي وشاعت الآلهة العديدة المتصفة بالوحشية مما في الديانة الهندوسية البراهمانية التي أخذت تحل محل البوذية بالتدريج وجعلتها تنهار في شبه القارة الهندية ، ولكن مع ذلك انتشرت البوذية في خارج الهند حتى تمكنت من الصين وسيام وبرمة واليابان ، ولا تزال البوذية في هذه الاقطار هي الديانة السائدة •

الحضارة الصينية

من المرجح كثيرا ان الحضارة الصينية أو حضارة الشرق الاقصى من الحضارات الاصلية التي نشأت من الاطوار البدائية في العصر الحجري الحديث في الصين نفسها ، ولا يستبعد أنها تأثرت بعض الشيء بحضارات الشرق الادنى • ومهما كان الحال فانها بلغت طور نضجها في وادي النهر الاصفر الاسفل منذمنتصف الالف الثاني ق • م ، وظهرت منها سلالات حاكمة منذ هذا التاريخ • وكانت البيئة الطبيعية التي ظهرت فيها الحضارة الصينية ، بيئة قاسية شديدة،فكانت الاهوار والاحراش والفيضانات تعم وادي النهر الاصفر (هوانغ هو) وقد حول الانسان هذه البيئة الى مهد الحضارة الصينية، وامتازت بيئة هذه الحضارة أيضا بتغير متطرف من الحر والبرد في الفصول

المختلفة • وبلاد الصين[١] بوجه عام اعظم اقليم جغرافي في قارة آسية ، ويحيط بها أعظم المحيطات من الشرق والجنوب الشرقي ، كما يحدها أعلى الجبال وأوسع الصحارى في العالم (صحراء كوبي) ، مما جعلها تتمتع بالعزلة والثبات والركود أيضا • وتشير بقايا الانسان القديم في الصين المعروف باسم انسان بكين الى أقدم استيطان الانسان في العصور الحجرية القديمة في الصين •

ومما يقال في أصول الحضارة الصينية ان انقلاب العصر الحجري المتأخر قد حدث في الصين أيضا (٣٠٠٠ ق•م) ، حيث عرفت زراعة الحبوب ولا سيما الرز وتدجين الحيوان ولا سيما الخنزير والبقر • وظهرت من هذه البداية بعد أزمان حضارة الصين الناضجة والسلالات الحاكمة فيها في القرن الثامن عشر ق • م وأول سلالة تعرف أخبارها التأريخية المضبوطة هي المعروفة بسلالة «شانغ» التي حكمت في أولى المدن التي ظهرت في الصين وهي «آيانغ» • وعرفت حضارة الصين فن التعدين ، مثل صناعة البرونز ودولاب الخزاف والكتابة الصورية الاصطلاحية واستعملت العربات التي تجرها الخيول في الحرب • ومع ما يلاحظ من بعض اوجه الشبه بين الحضارة الصينية وحضارات الشرق الادنى الا أنها تختلف عنها في التفاصيل التي ظهرت بتأثير موارد الاقتصاد المحلية في حضارة الصين مثل الاعتماد على الرز بدلا من الشعير والحنطة والاعتماد على صناعة الحرير بدلا من القطن أو القنب •

واشتقت من حضارة الصين القديمة حضارة الشرق الاقصى أي حضارة الصين الحديثة وحضارة اليابان قبل أن تتخذا الحضارة الغربية • ولعل أبرز ما يلاحظه المتتبع لتأريخ الحضارة الصينية شدة محافظتها على ما ثرها وتقاليدها

---

(١) ان اسم الصين (أنظر ص ٣٥٠) تسمية حديثة من القرن الثالث ق• م ، أما اسمها القديم المألوف فهو «تيين ـ هوا» (Tien-huo) ومعناه «تحت السموات» ولها أسماء قديمة أخرى •

الاساسية أكثر من أربعة آلاف عام ، وقد آلت فى أطوارها الاخيرة الى أن تكون من نوع الحضارات المتحجرة • وكانت دياناتها القديمة تدور على عبادة القوى الطبيعية مثل الجو والسماء والاجرام السماوية والرياح والامطار وغير ذلك مما له أثر فى الحياة الزراعية • وامتازت أيضا بتقديس «التنين» ، رمز الامبراطور المقدس ، الذى كان من العناصر المهمة فى الفن الصينى • ولعل أصله من الحيوانات من نوع التماسيح التى كانت تملأ أنهار الصين وصارت حيوانات مقدسة تعبد • وامتازت الحضارة الصينية القديمة بالروح الاجتماعية، وان العائلة لا الفرد كانت الوحدة الاساسية فى بناء المجتمع ، وكانت عادات الاجداد وعرفهم هى الشريعة والقانون المتبع فى المحافظة على تماسك المجتمع •

وتثبت النظام الاجتماعى وتبلور فى عهد سلالة «شو» (١١٢٢ ـ ٢٥٥ ق • م) التى أعقبت سلالة «شانغ» وبلغ التوطيد الاجتماعى فى القرن الخامس ق•م، أشده وكان لتعاليم «كونفشيوس» (٥٥١ ـ ٤٧٨ ق•م) أثر بالغ فى ذلك التبلور الاجتماعى • وقد وصفت «الكونفشيوسية» على انها ديانة ، والواقع انها ليست ديانة صرفة ولا فلسفة صرفة بل كانت أقرب ما تكون الى النظام الاجتماعى والاخلاقى الذى كان يرمى الى تثبيت المجتمع بتنظيم علاقاته الاجتماعية بموجب عرف وقواعد قاسية حتى فى أتفه الامور وعمت الكونفشيوسية فى الصين الشمالية •ولكن نشأت فىوادى نهر «اليانغستى» فى الصين الجنوبية عند سكانه عقائد وآراء وأنظمة تختلف عما كان عند الصينيين فى الشمال فىوادى النهر الاصفر (هوانغ هو) ، وظهرت بينهمديانة تعرف بـ «التاثوية» نسبة الى «تاو» وهو المبدأ الاعظم الذى يمثل الطبيعة أو قوىالطبيعة ونواميسها وسيرها • وتنسب هذه التاثوية (Taoism) بالدرجة الاولى الى أحد حكماء الصين المشهورين الذى عاش قبيل «كونفشيوس» واسمه «لاؤتصى» (Lao tse) (فى حدود ٦٠٤ ـ ٥١٧ ق • م) حيث عاش فىعصر كثر فيه الحكماء والفلاسفة والمفكرون • ويبدو أنه كان يبشر بنوع من

السلوك الرواقى (نسبة الى الفلسفة الرواقية) والرجوع الى حياة البساطة التى كانت فى العهود القديمة • ومن تعاليمه الطريفة ان الحكمة والمعرفة ليستا شيئين مترادفين كما ان اسوأ الحكومات هى التى يتولى فيها الحكم الفلاسفة بعكس ما كان يرى افلاطون فى جمهوريته كما ان المثقف خطر على الدولة لانه يريد أن تسير الامور والدولة نفسها بموجب نواميس مطردة ، ويقيم بناء المجتمع كالبناء الهندسى • واشتهر سكان ذلك الوادى بحبهم وشغفهم بالطبيعة وقد اعترفت تعاليمهم بقيمة الفرد عكس تعاليم «كونفشيوس» • وبينا كانت هذه المبادىء تنتشر فى الصين غزا البلاد جماعة كبيرة من قبائل التتر يعرفون بـ «التسين» (الصين) الذين أسسوا سلالة حاكمة قوية (٢٥٥ ــ ٢٠٦ ق • م) انشأت امبراطورية امتازت بالحكومة المركزية ، وقد أقامت هذه السلالة «سور الصين العظيم» لصد القبائل البربرية فى جهة الشمال[١] • والجدير بالذكر عن هذه السلالة ان اسم «الصين» مشتق من اسمها • وغلب هؤلاء «التسينيين» جماعة من أتباع «كونفشيوس» هم «الهان» (الهون) الذين أسسوا سلالة عرفت باسمهم (٢٠٦ ق • م ــ ٢٢١ ب • م) ، وقد وسعت هذه السلالة من فتوح الصين غربا لحماية البلاد من برابرة أواسط آسية ، وللمحافظة على طرق التجارة المهمة التى كانت تنقل بها تجارة الصين ، ومنها حرير الصين المشهور ، الى أقاليم الامبراطورية الرومانية غربا • ودخلت الى الصين فى هذا العهد الديانة «البوذية المهايانية» من الهند حيث التقت الثقافتان الهندية والصينية • وأعقب هذه السلالة سلالات أخرى منها سلالة المغول التى أسسها «جنكيزخان» وابنه «قوبلاى خان» ودامت هذه السلالة من ١٢٨٠ الى ١٣٦٨ للميلاد • وكانت آخر سلالة حكمت الصين سلالة المانشو (المنشوريون) (١٦٤٤ ــ ١٩١١) •

ومن الملاحظات المفيدة عن تأريخ الصين القديم انه لا يعرف نوع العروق

---

(١) كان يعيش فى حدود الصين الشمالية قبائل بدوية عديدة وهى متشابهة فى أصلها ولغتها وقد سموا بموجات متعاقبة مثل «الهون» و «المغول» والترك والتتر •

البشرية التي كانت تستوطن الصين في عصور ما قبل التأريخ ، ومع ان العنصر الغالب لأن وفي العصور التأريخية المعروفة هو العرق المغولي (الاصفر) الا انه من المحتمل أن يكون أهل الحضارة الصينية القديمة منذ انقلاب العصر الحجري الحديث ليسوا مغوليين ، ولعل ذلك الانقلاب قد تأثر بالمراكز الغربية التي وقع فيها مثل التركستان وايران وشمالي العراق • ومما يقال في تأريخ الصين ان حوادثه وتواريخه غير معلومة بوجه الضبط فيما قبل ١٨٠٠ ق • م ، كما ان السنين التي أعقبت هذا التأريخ تقريبية ، ويبدأ التأريخ المضبوط منذ السنة الشهيرة التي ولد فيها «كونفشيوس» (٥٥١ – ٤٧٨ ق•م)• هذا مع العلم بأن تأريخ الصين القديم يمتاز بكثرة السجلات التأريخية التي خلفها لنا المؤرخون الصينيون القدماء الذين اهتموا بتدوين كل ما اعتقدوا بحدوثه ، ولكن لا يسع المؤرخ الحديث الملتزم لاصول النقد التأريخي أن يأخذ برواياتهم فيما قبل عام ٧٧٦ ق • م وهو العهد التأريخي في الصين الذي امتاز بالاقطاع • ويشبه المؤرخون الصينيون القدماء كتاب أسفار التوراة الاولى ومؤلفي أساطير الخليقة في الحضارات القديمة بانهم يدونون لنا تأريخ الصين منذ الخليقة• وبموجب تلك الاساطير اشتغل أول بشر (بان كو) زهاء ١٨ ألف عام في خلقه للكون والخليقة التي وجدت في عام (٢٫٢٢٩٫٠٠٠ ق•م) بحسب التقويم الصيني ، وقد تولد من نفسه الهواء والريح ومن لحمه الارض ومن شعره الحشائش والاشجار ومن عظامه المعادن ومن عروقه الامطار ، وصارت الحشرات التي كانت متعلقة بجسمه «الجنس البشري»[١] • ويقول لنا هؤلاء المؤرخون ان الملوك الاقدمين حكم كل منهم (١٨ ألف) عام ، وقد بذلوا جهدا عظيما في تحويل «القمل» الذي في جسم «بان كو» الى جنس متحضر من البشر • وقبل أن يجيء هؤلاء الاباطرة السماويون كان البشر كالوحوش لا يعرفون المدنية والحضارة «يلبسون الجلود ويأكلون اللحم النيء

---

(١) Gowen & Hall, **Outline History of China** (New York, 1927) ; Will Durant, **Op. Cit.**, 642.

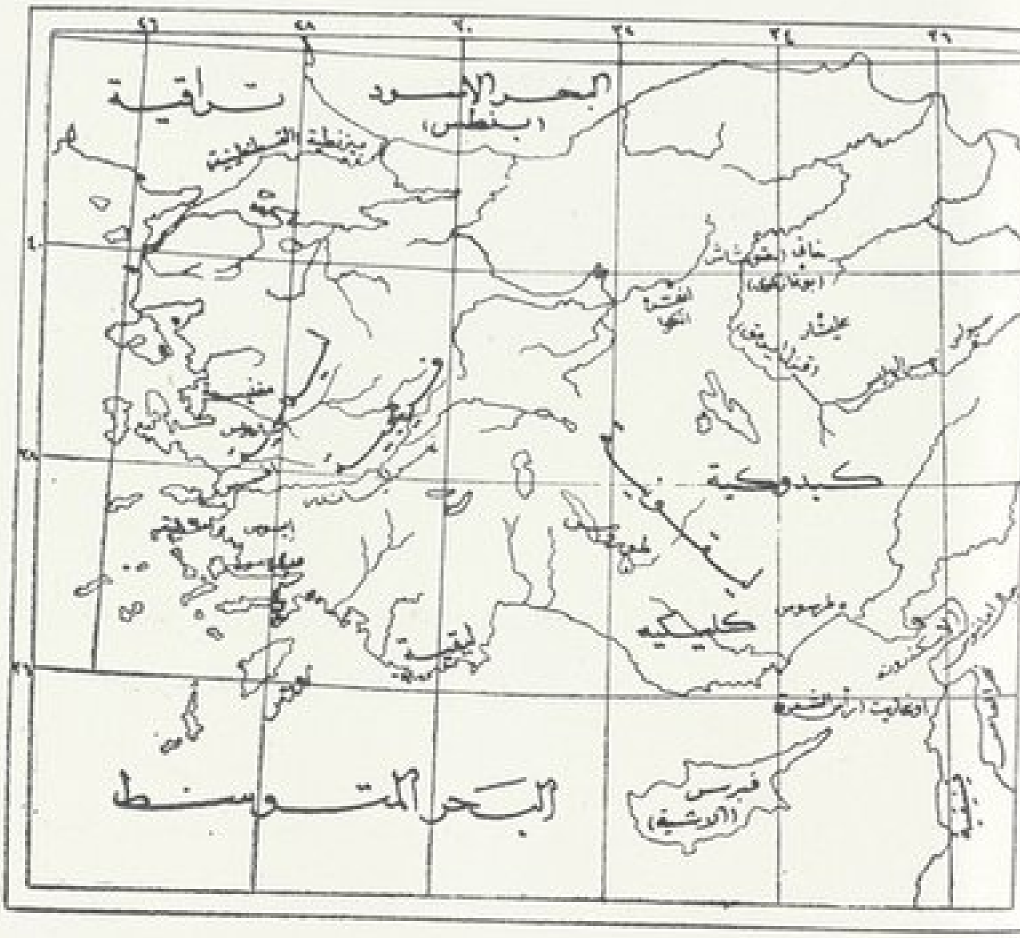
ولا يعرفون آباءهم بل امهاتهم» • وتنسب المآثر تمدين البشر الى الامبراطور الاسطوري «فوهسي» (Fu Hsi) (٢٨٥٢ ق • م) ، والى غيره من الملوك القدماء •

أما عن ديانات الصين فقد سبق أن نوهنا بأشهر مذاهبها وهي «التاوية» و «الكونفشيوسية» ، ثم نوهنا في كلامنا على البوذية في الهند بانتشار هذه الديانة الى الصين حيث تمكنت فيها ، ومما ساعد على انتشارها الشبه الموجود بينها وبين « التاوية » ، ويجدر التنويه هنا بأثر البوذية الكبير في حياة الصين حيث كانت عاملا محفزا على بث روح جديدة في الفن وفي النحت ، والتصوير •

الحثيون في آسية الصغرى واقوام اخرى

١ ـ حضارة الاناضول قبل مجيء الحثيين :ـ

كشفت التحريات الآثارية الحديثة عن وجود أدوار حضارية في آسية الصغرى سبقت استيطان الحثيين فيها وتأسيسهم دولة في حدود ١٨٠٠ ق•م• وأصل الحثيين على ما سنذكر فيما بعد من الاقوام الهندية الاوربية ، أما سكان آسية الصغرى الاصليون فيما قبل العهد الحثي فلا سبيل لمعرفة أصلهم، ولا لغتهم لانهم لم يخلفوا لنا آثارا مدونة مكتوبة • ومهما كان الحال فان الادوار التي أظهرها البحث الحديث ترجع في عهدها الى العهد الذي سميناه بالعصر الحجري المعدني الذي يؤرخ في الاناضول من الالف الرابع الى حدود ٢٥٠٠ ق • م • ويليه طور من الحضارة يتميز باستعمال معدن النحاس (٢٥٠٠ ـ ٢٠٠٠ ق • م) ، ثم عهد الدولة الحثية والحضارة الحثية ويشمل معظم الالف الثاني ق•م وتأتي من بعد ذلك الادوار المتأخرة مثل عهدالفريجيين والليديين الخ • ومما يقال بوجه الاجمال ان الكشف عن مثل هذه الاطوار وعن الحضارة الحثية يعد من أروع ما قامت به «الاركيولوجيا» (علم الآثار) في العصر الحديث ولا سيما في المواضع التي ازدهرت فيها مثل عاصمتها القديمة «حاتوشاش» (ويعرف موضعها الآن باسم بوغاز كوي) حيث وجدت



موطن الحثيين في الاناضول

فيها الآثار المدونة التي عرفتنا بهذه الحضارة . وقد وجدت من العهد النحاسي السابق ذكره في موضع يسمى «الجا»[١] مقبرة عثر فيها على آثار نفيسة من الحلي والادوات الذهبيـــة والفضـــة والالكتروم (. سبيك من الذهب والفضة)

(١) أنظر خبر الاكتشافات الآثارية الحديثة في مواضع مهمة في الاناضول مثل الموضع المعروف باسم «الجا» (Alaça) الواقع عنـد عطفة نهر قزل ايرمق (نهر الهليس) وكذلك الاكتشافات الاخرى في

Bulletin of the University Museum. Un. of Pennsylvania vol. 17. (1952), 47 ff.

واحدث مرجع سهل كتب عن الحثيين والحضارة الحثية المرجع الموجز :-

O. R. Gurney, **The Hittites** (1952, Pelican Publication) ; Illustrated London News, 21 July, 1945.

وكذلك أدوات النحاس وأواني الحجر النفيسة ، مما يشبه ما وجد في المقبرة الملكية في « اور » في العراق من عهود فجر السلالات السومرية • وقد سبق أن نوهنا بعدم معرفتنا بالاقوام التي أوجدت هذه الحضارة قبل الحثيين ، وكل ما يمكننا قوله انهم ليسوا من الاقوام الهندية الاوربية التي ينتمي اليها الحثيون ، ولغتهم ليست آرية أيضا بل من اللغات الآسيوية ، ولكن أشارت اليهم الوثائق الحثية باسم «خاتي» وهو الاسم الذي أطلق على الحثيين أنفسهم ، كما يستشف من المآثر الحثية ان بلاد الاناضول كانت قبل أن يفرض عليها الحثيون دولة موحدة واحدة يحكم فيها جملة دويلات صغيرة ، على طراز دول المدن السومرية ولا بد أن نشير هنا الى تأثر بلاد الاناضول بالحضارات القديمة التي ظهرت في وادي الرافدين ، فقد سبق أن ألمحنا الى الحملات الحربية التي قام بها ملوك السلالة الاكدية في بلاد الاناضول والمستعمرة الاكدية التي قامت في كبدوكية ، وتروي لنا المآثر المتأخرة (المدونة في حدود ١٤٠٠ ق•م) ان الملك الاكدي «نرام–سين» (في حدود ٢٣٠٠ ق • م) قد حارب في الاناضول اتحادا يشمل سبعة عشر ملكا • وأثرت حضارة العراق القديم أيضا في الحضارة الحثية في العهد الحثي (منذ الالف الثاني) ، وسنرى كيف ان الحثيين استعملوا الخط المسماري واللغة البابلية في كتابة وثائقهم وتأثروا بأساطير وآداب ما بين النهرين • وقد وجد المنقبون حديثا (١٩٤٨ – ١٩٤٩) في وسط الاناضول مستعمرة آشورية في «كول تبه»[١] يرجع عهدها الى الزمن الآشوري القديم (منذ ١٩٠٠ ق • م) ، ولعلها تقوم على أدوار أقدم ترجع الى العهد الاكدي •

(٢) أما العهد الحثي (٢٠٠٠ – ١٢٠٠ ق • م) فهو العهد المتميز بكثرة مصادره التأريخية المدونة بالحثية وبالبابلية حيث نجد فيه جماعات (هندية – اوربية) وقد فرضت سلطانها على السكان الاصليين •وقد تكونت في هذا العهد

---

(١) وقد عين الاسم القديم لهذا الموضع حيث جاء اسمها بهيئة «كنيش» (Kanesh) وهي قرب قيصرية انظر
(**Illustrated London News,** 14 January(1950)

دول معظمة قوية ، ونشأت فيه بوجه خاص امبراطوريتان أقدمهما في حدود ١٨٠٠ - ١٥٠٠ ق ٠ م ٠ وكانت هذه الدولة هي التي غزت بابل في أواخر سلالة بابل الاولى أي سلالة حمورابي ويرجح انها هي التي قضت على تلك السلالة ، ولكن الحثيين لاسباب غير معلومة تماما ، لم يبقوا في العراق وحل محلهم الكشيون كما ذكرنا ذلك من قبل ٠ أما الامبراطورية الثانية فقد بقيت من ١٤٥٠ الى ١٢٠٠ ق٠م٠ وكانت تعاصر الكشيين في العراق والامبراطورية المصرية (١٥٨٠ - ١٠٨٥ ق ٠ م) وحدث نزاع حاد بين الحثيين والمصريين للاستيلاء على البلاد الشامية دام زهاء القرن الواحد فأضعف الامبراطوريتين واستفاد الآشوريون من ذلك فوائد عظيمة كما مر بنا ذلك وتحطمت الامبراطورية الحثية في حدود ١٢٠٠ ق ٠ م ٠ بسبب هجرات من الاقوام الهندية الاوربية مثل (الفريجيين) و (الكاريين) وغيرهم ، فتكونت دول صغيرة في آسية الصغرى على انقاض الامبراطورية الحثية ٠

(٣) ويبدأ العهد الثالث من انهيار الامبراطورية الحثية في عام ١٢٠٠ ق ٠ م وقد انتقلت فلول من الحثيين من آسية الصغرى الى شمالي سورية ، فانتقل بذلك مركزهم الحضاري والسياسي ٠ فتكونت من فلول الحثيين في في شمالي سورية دول صغيرة بقيت زهاء خمسة قرون وقد احتفظ الحثيون في هذا المركز الجديد بالمآثر الحثية ٠ وكانت أشهر ممالكهم في هذا العهد مملكة (كركميش) نسبة الى عاصمتهم (وهي جرابلس الآن) ٠ ولسوء حظ الحثيين صادف عهدهم هذا توسع الآشوريين وزمن عنفوانهم العسكري فشددوا عليهم الخناق حتى قضوا على كيانهم السياسي في آخر الامر حين غزا سرجون الآشوري أهم مدنهم وهي «كركميش» في عام ٧١٧ ق ٠ م ٠

شيء عن الحضارة الحثية :-

١ - الحثيون على ما بينا من الاقوام الهندية الاوربية ، ولغتهم شبيهة بفروع عائلة اللغات الهندية الاوربية ، وتعد الحثية من الفروع القديمة من هذه العائلة ، ومن الباحثين من يرى ان اللغة الحثية تؤلف مع عائلة اللغات

الهندية الاوربية الاخرى كتلة أو عائلة كبرى تحدرتا من أصل بدائى قديم يصح أن نطلق عليه اسم «اللغات الهندية ـ الحثية» وقد جاء الحثيون من موطن الاقوام الهندية الاوربية المفترض فى جوار قزوين وجنوبى الروسية • وقد دون الحثيون بخط هيروغليفى قديم وبخط مسمارى مقتبس من المسمارى فى العراق القديم • أما الخط الهيروغليفى فشكله صورى ولا علاقة له بالهيروغليفى المصرى ، وكان مستعملا منذ ١٥٠٠ ـ الى حدود ٧٠٠ ق • م ، بالدرجة الاولى فى منطقة كبيرة تمتد من أواسط الاناضول الى شمالى سورية، وقد بدأ العلماء يحلون رموز هذا الخط منذ عام ١٩٣٠ ولما ينته عملهم[١] ، وكتب الحثيون أيضا بعض سجلاتهم الاخرى بلهجة أو لغة حثية خاصة فى خط مسمارى اقتبسوه من العراق القديم ، كما قلنا • وقد استعمل كلا الخطين فى آن واحد فى عهد الامبراطورية الحثية ، وكان الخط الحثى المسمارى محدود الانتشار اقتصر استعماله بالدرجة الاولى فى اقليم بوغاز كوى وما جاورها وقد مات هذا الخط من الاستعمال بنهاية الحثيين فى الاناضول فى حدود ١٢٠٠ ق • م فى حين ان الخط الهيروغليفى الحثى ظل فى الاستعمال الى حدود ٧٠٠ ق • م •[٢] • واستعمل الحثيون أيضا الى جانب هذين

---

(١) حول هذا الخط والمحاولات التى تمت لحله انظر (O. R. Gurney, **Op. Cit.**) والجدير بالذكر بهذا الصدد انه وجد حديثا فى «قره‌تبه» (Karatepe) فى جنوبى الاناضول فى ولاية اطنه (عام ١٩٤٧) كتابات مهمة ستكون مفتاحا جديدا لحل رموز الهيروغليفية الحثية ، اذ أن هذه الكتابات مكونة من نصين متطابقين أحدهما بالهيروغليفية الحثية والثانى مكتوب بحروف هجائية فينيقية . وبذلك صار هذا الاثر بمثابة حجر رشيد فى حل الخط المصرى القديم وحجر بهستون فى حل الخط المسمارى • أنظر المراجع الآتية :ـ

(1) **Bullt. of the Un. Museum,** vol. 17 (1952), 51 ff.
(2) **Journal of the Near Easten Studies,** VIII (1949), 116 ff.
(3) **Orientalia,** XVIII (1949), 173 ff. ; **Archiv Orientalni** (1950).
(4) Obermann, **New Discoveries at Karatepe** (New Haven, 1949)
(5) O. R. Gurney, **Op. Cit.**

(٢) انظر Gelb, **A Study of Writing**

الخطين اللغة البابلية والخط المسمارى فى كتابة جملة من وثائقهم •

٢ ـ ومن الامور الطريفة عن كيان المملكة الحثية ونظام الملكية فيهـا احتمال ان الملوك فى الازمان القديمة كان يتم اعتلاؤهم على العرش بطريق بيعة طبقة النبلاء على غرار الملوك بين القبائل الانكلوسكسونية والجرمانية ، كما جاء من الحثيين ما يمكن تسميته بالدستور أو القانون الاساسى للدولة ولا سيما تنظيم وراثة العرش ، حيث نظم ذلك الملك الحثى «تليبنوس» (Telipinus) بموجب قانون وضعه[١] • وكان ملوك الحثيين يلقبون أنفسهم بالملوك العظام • ولم يؤله الملوك الحثيون ولكن نشأ نوع من العبادة والتقديس لارواح الملوك القدماء • وكان الملك الحثى القائد الاعلى للجيش وأعلى سلطة قضائية والكاهن الاعلى أيضـا •

٣ ـ وكان يقوم على رأس المجتمع الحثى الملك والاسرة المالكة حيث كان اعضاؤها يتولون المناصب العليا فى الدولة ، وكان كبار المدينة (شيوخها) يحكمون فى المدينة فى الامور القضائية ، ثم هنـاك الطبقـة النبيلة ، وطبقة الصناع والتجار والعوام ولا سيما الفلاحون • وقد عثر فى خرائب العاصمة «بوغاز كوى» (١٩٢٢) على أجزاء كثيرة من ألواح الطين التى دونت بالشرائع الحثية القديمة ، ومن بين ذلك لوحان كاملان تقريبا دون فى كل منهما نحو (١٠٠) مادة قانونية ، وقد عدت المواد البالغة مائتى مادة فى اللوحين المذكورين كأنهما شريعة واحدة ، وفيها شبه ملحوظ بشرائع القديم من ناحية الاحكام والصيغة الفنية[٢] •

٤ ـ وقد أمدتنا الالواح المدونة التى عثر عليها فى «بوغاز كوى» بمعلومات ثمينـة عـن ديانـة الحثيين القدمـاء ، وكـان أبرز الـه عبـد فى الاناضول فى العهـد الحثى الالـه الجو الذى مثل فى المآثر الحثيـة

---

(١) O. R. Gurney, **Op. Cit.,** 64.

(٢) انظر ذات المصدر الص ٨٨ فما بعـد ، وأحدث ترجمة القوانين الحثية فى Pritchard, **Ancient Near Eastern Texts** (1950), 188 ff.

فى الاناضول وفى سورية • ففى المآثر الحثية السورية يمثل هذا الاله (واسمه «تشوب») بهيئة آدمية وهو يحمل فأسا ورمز الصاعقة • وفى الاناضول يمثل وهو راكب فى مركبة تجرها الثيران ، وكان الثور حيوانه المقدس[١] ، وقد يقوم الثور وحده رمزا للاله فى بعض المآثر • وقد أقيمت له معابد فى طوروس وفى سورية الشمالية ، حيث كان الحوريون منتشرين هناك ، وأثروا فى دياناتهم فى الحثيين ، وعنهم دخل جملة آلهة من العراق القديم الى الحثيين مثل «آنو» و «انليل» و «ايا» وزوجاتهم وعبد الحثيون أيضا الاله الشمس بهيئة الهة ، حيث طغت فى عبادتها فى مركز الاناضول على عبادة الاله الجو الذى صار زوجها •

الفريجيون والليديون :ـ

رأينا فيما سبق كيف ان حياة الحثيين السياسية كدولة ذات كيان قد انتهت فى حدود ١٢٠٠ ق • م على أثر هجمات موجة من الاقوام الهندية الاوربية هى التى جاءت بأقدم الهجرات اليونانية الى اليونان • وأعقب الدولة الحثية فى الاناضول جملة أقوام أسست بدورها دولا هناك ، أشهرهم وأقدمهم القوم الذين سموا نسبة الى الاقليم الذى أقاموا فيه مملكتهم (فريجية) وعرفوا باسم الفريجيين (وقد يجوز العكس أى ان الاقليم سمى باسم القبيلة الخاصة). وقد ظهرت منهم دولة فى القرن التاسع ق • م ، كانت واسطة الاتصال الثقافى بمملكة ليدية وباليونان • وقد وضع الفريجيون بعض الاساطير التى فسروا بها أصل مملكتهم وأصل الملوك الذين ظهروا من بينهم ، ومن بينهم أول ملك حكم عليهم واسمه «جورديوس» (Gordios) الذى لم يكن سوى

---

(١) قارن ذلك بالاله «ادد» الذى عبد فى العراق القديم ، ولكن يرجح أن أصله من سورية •

فلاح فقير لا يملك غير تورين[١] ، وخلفه في الحكم ابنه المسمى «ميداس» (Midas) الذى كان مبذرا مسرفا أضعف المملكة • وتروى الاسطورة أنه دعا الآلهة لتمنحه القدرة على تحويل كل شىء يمسه الى ذهب ، فاستجابت له الآلهة حتى ان الطعام الذى كان يمسه يتحول الى ذهب ، فكاد يموت جوعا فتضرع الى الآلهة أن تزيل منه تلك الامنية التى تحولت الى لعنة ، فاستجابت له الآلهة ودلته على الخلاص منها بتطهير نفسه فى نهر اسمه «بكتولس» (Pactolus) الذى صار ينتج حباب الذهب منذ آنذاك[٢] • وقد قضى الكميريون على هذه المملكة فى عهد ملكها «ميداس» (انظر كلامنا على الماذيين) •

لقد أسس الفريجيون عاصمتهم فى الموضع الذى عرف بعدئذ باسم «انقرة» (Ancyra) ، واتخذوا لعبادتهم الآلهة المحلية التى وجدوها ، واشتهرت من بين آلهتهم الهة باسم «سيبلة» أو «كيبلة»[٣] ولعلها الهة حثية تمثل الخصب مثل الالهة البابلية عشتار ، وقد روت الاساطير اليونانية ان الفريجيين مارسوا البغاء المقدس فى عبادة هذه الالهة • وقد اتخذ الرومان عبادة «سيبلة» وجعلوها ضمن عبادة آلهة الدولة الرسمية ، وكان للالهة حبيب وزوج هو «اتيس»[٤] وصار الرومان يقيمون المهرجانات الدينية المتصفة بالخلاعة والتهتك فى الاعياد الخاصة بعبادة هذين الالهين •

(١) تروى الاسطورة (كما جاءت فى المصادر اليونانية مثل هيرودوتس) ان الاله «زوس» أوحى الى الفريجيين أن ينتخبوا ملكا أول من يقصد المعبد راكبا فى عربة ، فتم اختيار «جورديوس» ، فكرس هذا الملك عربته الى الاله . وقد اشتهرت هذه العربة بوجود «عقدة» تربط بين أجزائها (ولا سيما خشبة النير المربوط بالعربة) ، وقد أوحى الاله بان من استطاع حل هذه العقدة تمكن من حكم آسية • ولم يستطع ذلك أحد غير الاسكندر الكبير الذى فك العقدة بضربة من سيفه من بعد معركة «ايسوس» الشهيرة • وصارت عبارة (The Gordian knot) فى اللغات الاوربية مضربا للمثل على العقدة العسيرة الحل •

(٢) Will Durant, **Op. Cit.**, 288.

(٣) Cybele أو Kybela

(٤) تروى الاساطير ان هذا الاله ولد من الهة عذراء هى «نانا» بدون ان تتصل بذكر بل انها حبلت به بعد أن وضعت رمانة بين ثدييها •

انتهت حياة المملكة الفريجية بقيام دولة أخرى أعقبتها فى آسية الصغرى عرفت باسم مملكة «ليدية» (Lydia) ، وتقول المآثر ان الملك «جايجز» (Gyges) هو الذى أسس هذه المملكة وجعل عاصمتها فى «ساردیس» ، ثم خلفه الملك «الیاتیس» (Alyattes) الذى أوصل المملكة الى الازدهار والرخاء • واشتهر من هذه المملكة الملك «قارون» (كروسس (Croesus)) (٥٧٠ – ٥٤٦ ق • م) الذى خلفه ووسع المملكة بحيث جعلها تشمل معظم آسية الصغرى ، كما ميز «قارون» نفسه بانه سك نقود الذهب والفضة وختمها بنقوش جميلة، ولعل هذا هو سبب اشتهاره بالثروة • ولكن المعروف تأريخيا ان سك النقود قد سبق عهد قارون فى آسية الصغرى لعله بزمن نصف قرن[١] •

لقد كان «قارون» آخر ملوك المملكة الليدية اذ قضى كورش فى عهده عليها ، وكانت ليدية متأثرة بالحضارة اليونانية الى درجة ان هيرودوتس لما زار هذه المملكة وجدها لا تختلف فى ثقافتها عن الثقافة الاغريقية ، كما ان جل مصادرنا المدونة عن أحوال هذه المملكة قد جاءتنا من الاغريق ، اذ لم يترك لنا الليديون شيئا عن أدبهم • ويروى لنا هيرودوتس رواية ممتعة عن سقوط «قارون» ، فأولا يقص لنا قصة زيارة «صولون» ، المشرع الاثينى المشهور لقارون ، وكيف ان هذا عرض على الحكيم اليونانى ثروته العجيبة وسأله ان يخبره عن أسعد رجل بين الناس • فسمى له صولون ثلاثة رجال مغمورين ، غير موجودين فى الحياة ، ولم يسم اسم «قارون» حتى بين السعداء معللا ذلك بانه لا يستطيع ان يخبره ان كان أسعد الناس حقا حتى يعرف نهاية حياته • وكان الملك الفارسى «كورش» فى ذلك الاثناء قد أقام مملكته الموطدة ، وسعى من بعدئذ لتوسيعها بالفتوح الخارجية التى شملت حدود آسية الصغرى أيضا ، ويروى لنا هيرودوتس أيضا تتمة طريفة لحياة «قارون» اذ يقول ان هذا لما سمع باقتراب الفرس من حدود الاناضول أرسل الى معبد

---

(١) لقد سبقت الاشارة فى كلامنا على الآشوريين ان قطعا معدنية سكها سنحاريب (فى حدود ٧٠٠ ق • م) زنة كل قطعة نصف «شيقل»

الفأل يسأله هل سينال النصر اذا هو عبر النهر (ولعله نهر الهليس ، وهو قزل ايرمق الآن) لملاقاة الجيش الفارسي ، فأجابه «فأل» الاله بانه «اذا عبر النهر حطم مملكة عظيمة» • أما نتيجة الالتحام مع الفرس فكانت تحطيم جيشه ومملكته، فلما انشاهد النتيجة المحزنة(٥٤٦ق٠م) صمم على الانتحار هو وعائلته فاحتفر نارا لتهيئة جنازته بالحرق • وفيما هو كذلك مر به «كورش» فأخبر بحقيقته ، وتذكر «قارون» قول «صولون» له فبكي وقص القصة على «كورش» ، فرأف به هذا وجعله مرافقا له من بين مستشاريه[١] •

السوباريون والحوريون والميتانيون والارمن

١ ــ السوباريون :ــ

يجد الباحثون المشتغلون في كتابات حضارة وادي الرافدين اشارات عديدة الى قومين حاروا في تعيينهما في مبدأ الامر وهما «السوباريون» و «الحوريون» ، وقد أوردوا عدة نظريات وتفسيرات حول أصلهما وعلاقة أحدهما بالآخر[٢] ،فذهب بعض الباحثين الى ان الاسمين متطابقان وانهما يطلقان على قوم واحد • ولكن أحدث الآراء وأصحها[٣] هو ان هذين المصطلحين ليسا كلمتين تطلقان على قوم واحد بل على قومين متميزين بعضهما عن بعض •

فأما السوباريون[٤] فقد كانوا أقدم القومين ، ووردتنا عنهم اشارات في

---

(١) انظر رواية هيرودوتس الممتعة (Herodotus, I, 87)

(٢) أبرز المراجع التي كتبت في الموضوع :ــ

(1) Speiser, **Mesopotamian Origins** (1930).

(2) Ungnad, **Supartu** (1936).

(3) Gelb, **Hurrian and Subarians** (1944).

(٣) انظر الحاشية رقم (٢) المرجع رقم ٣ •

(٤) السوباريون أو كما جاء اسمهم فيالمصادر المسمارية (Shubur ; SU - A) و «سوبارتو» أو «شوبارتو»

(حول الصيغ المختلفة لهذا الاسم والمواطن التي وردت فيها فيالنصوص المسمارية انظر المرجع رقم ٣ الهامش ٢) •

النصوص المسمارية من عهودها القديمة (منذ عصور فجر السلالات) • فيستدل من هذه الاشارات على وجود جماعة تعرف باسم السوباريين في العراق كانت تعيش جنبا الى جنب مع السومريين والاكديين ، كما يستدل منها أيضا على وجود اقليم سمي بلاد السوباريين التي لا تعلم حدودها بالضبط ، ولكن يؤخذ من المصادر الكتابية المتنوعة ان هذا الاقليم الخاص بالسوباريين كان يقع بين دجلة العليا وجبال «زجروس» وديالى • وكانت بلادهم تتضمن بالنسبة الى سكان القسم الجنوبي من العراق شمالي العراق أيضا ولا سيما بلاد آشور وبلاد الكوتيين • أما بالنسبة الى الآشوريين فكانت بلاد «سوبارتو» بلادا أجنبية معادية • وكانت جهات العالم بموجب المآثر البابلية أربع جهات «سوبارتو» أي جهة الشمال وبلاد « أكد » الجنوب ، و « عيلام » الشرق ، وبلاد «امورو» (أي سورية) جهة الغرب • هذا ولا يعلم أصل هؤلاء السوباريين بالضبط • والشيء الوحيد الممكن قوله بهذا الصدد انهم ليسوا من الاقوام السامية ولعلهم من الاقوام الهندية الاوربية ، وكانت بلاد السوباريين مصدرا للرق (لاسر العبيد) عند البابليين والآشوريين • كما انه لا يعرف انهم كونوا لهم كيانا سياسيا خاصا بهم ، وانما المرجح انهم هجرة من هجرات الاقوام التي جاءت الى العراق واختلطت بسكانه بعد اقامتها واستيطانها في جزء خاص من العراق ، هو القسم الشمالي من العراق الذي استحوذ عليه الآشوريون فيما بعد ، ومما لا شك فيه ان السوباريين دخلوا في بناء الآشوريين العرقي •

٢ ـ الحوريون :ـ

أما الحوريون فنعرف عنهم أشياء أكثر وأوضح من السوباريين فأولا لم يكونوا من السوباريين ، كما ان عهدهم في التأريخ متأخر عن عهد السوباريين • ولعلهم غزوا الاقليم الذي كان يستوطنه هؤلاء السوباريون • فكانوا بحسب الاشارات الواردة في النصوص المسمارية ، موجودين بقلة في العراق في العهد الاكدي في بعض المواضع من العراق شرقي دجلة ،

وبدأ عددهم بالازدياد منذ عهد سلالة أور الثالثة وعهد سلالة بابل الاولى ٠ واتسع استيطانهم فى منتصف الالف الثانى وتكون لهم كيان سياسى ، حيث نجدهم منتشرين فى شمالى سورية وشمالى بلاد ما بين النهرين والى حد ما الى الاناضول ، ولكن الساميين كانوا الاكثرية فى سورية الجنوبية واقليم مارى فى الفرات الاوسط وفى فلسطين ، على ما رأينا فى كلامنا على تأريخ بلاد الشام ، ولعل الحوريين هم الذين غزوا بلاد آشور من بعد عهد «شمسى أدد» الآشورى وحمورابى ، حيث بلغ اتساعهم أوجه ، اذ نجدهم يؤسسون ، بالاضافة الى وجودهم فى العراق ، دولة قوية فى شمالى سورية ، كما أبانت التنقيبات التى أجريت فى «رأس شمرا» (اوغاريت القديمة) حيث وجدت بعض الالواح المدونة بكلمات حورية وشرحها بالسومرية كما وجدت نصوص باللغة الحورية[١] ٠ ووجدت آثارهم أيضا فى مواضع أخرى من سورية مثل الموضع المسمى الآن «تل المشرفة» (الذى يرجح ان يكون موضع المدينة القديمة المسمى «قطنا» ، جنوب حماة ، حيث قلنا انها كانت مركز الهكسوس فى سورية) ووجدت وثائق حورية عهدها من منتصف الالف الثانى ، ووجدت آثارهم فى تل العطشانة فى سهل انطاكية ، وهى وثائق مهمة بعضها يرجع فى عهده الى زمن حمورابى وبعضها من عهد «العمارنة» (القرن الرابع عشر ق ٠ م)[٢] ، وكان مركزهم فى العراق فى «نوزى» (يورغان تبه قرب كركوك الى الشرق بـ ١٠ أميال) وفى كركوك أيضا (ارابخا القديمة)[٣] ٠

---

(١) انظر مجلة (**Syria,** XII (1931).

(٢) أنظر
S. Smith, in the **Antiquaries Journal,** XIX (1939), 38 ff.

(٣) لم يعثر على آثار الحوريين فى نوزى من العهد الاكدى ، مما يدل على انهم لم يكونوا مستوطنين فى هذا القسم من البلاد فى ذلك العهد ٠ وكانت «نوزى» تسمى فى العهد الاكدى باسم «كاسور» (Gasur) (انظر
(T. J. Meek, **Old Akkadian, Sumerian, Texts from Nuzi** 1935).

وتتميز آثارهم المادية من ناحية الطبقات الآثارية بنوع الفخار الخاص الملون المعروف بالفخار الحورى والنوزى كما وجد فى عدة مواضع مثل نوزى واقليم الخابور وبلاد آشور وتل العطشانه ، ويؤرخ هذا الفخار فى حدود ١٥٠٠ ــ ١٢٠٠ ق ٠ م ٠

أما أصل هؤلاء الحوريين[١] ونسبتهم الى الاقوام المعروفة فلم يبت به بعد على وجه التأكيد ، كما ان لغتهم لا يمكن القطع بها بكونها من اللغات الهندية الاوربية ولكنها على كل حال ليست من اللغات السامية • ومن الباحثين من يقارنها باللغة الاورارطية (لغة بلاد الارمن فى اقليم وان) ، ولكن اذا صح ذلك فتكون لغتهم أقرب الى عائلة اللغات الهندية الاوربية ، كما ان من الباحثين من يقارنها بالعيلامية والكشية الخ • وكانت ثقافة الحوريين عنصرا مهما فى ثقافة الهكسوس المتأخرين فى سورية •

٣ ـ دولة ميتـــانى :ـ

يبدو ان الحوريين تقلصوا فى نفوذهم من بعـد (١٥٠٠) ق • م ، ولكن قامت فى الاقليم الذى تمركز فيه الحوريون فى شمالى ما بين النهرين دولة قوية عرفت باسم دولة «ميتانى» كان سكانها بالدرجة الاولى من الحوريين ، ولكن يؤخذ من أسماء الملوك الذين حكموها ان اصل الطبقة الحاكمة فيها من الاقوام الهندية الاوربية ، كما يستدل على ذلك أيضا من الآلهة التى عبدت فى هذه المملكة مما ورد ذكرها فى المعاهدات التى أبرمها ملوكهم مع الدول المجاورة ، مثل الاله «مترا» و «فارونا» (Varuna) و «اندرا» ، وهى الآلهة الهندية الاوربية كما عرفت فى عبادة الهند القديمة • لقد سميت هذه المملكة أيضا باسم آخر هو «خانيكلبات» وهو الاسم الوارد فى الكتابات المسمارية ، والمرجح ان هذه الصيغة هى الاسم الجغرافى لهذه المملكة أما مصطلح «ميتانى» فيبدو انه الاسم السياسى لهذه الدولة • وسماها أيضا بعض الاقوام السامية (مثل الكنعانيين والآراميين) باسـم «نهارين» (أى ما بين النهرين) كما سمتها المصادر المصرية بهذا الاسم أيضا • وكان يدخل فى هذه المملكة فى أيامها القديمة جزء من شمالى سورية واقليم كركوك (ارابخا)

---

(١) المرجح كثيرا ان مهدهم فى النجاد المرتفعة الواقعة شمال شرقى الهلال الخصيب فى موضع ما بين بحيرة اورمية وجبال «زجروس» وغزوا بلاد ما بين النهرين فى القرن الثامن عشر ق • م

ولكن تقلصت حدودها في الايام الاخيرة وانحصرت في شمال ما بين النهرين، وقد اتخذوا في هذا الاقليم موضعا لعاصمتهم ورد اسمه في المصادر المسمارية بهيئة «وشوكني»[١] ، ولا يعلم موقعها بالضبط ، ولكن يظن انها في الموضع المعروف الآن باسم الفخارية على الخابور ، الى الشرق من تل حلف وحران .

اتخذ ملوك ميتاني اللغة البابلية والخط المسماري في أغلب وثائقهم ومراسلاتهم الدولية ، ولكن المرجح ان اللغة الرسمية المحلية كانت اللغة الحورية ، وهي لغة أغلبية سكان المملكة ، وقد وجدت رسالة من أحد ملوكهم المسمى «تشراتا» الى الفرعون امنحوتب الثالث باللغة الحورية . كما وجدت ستة نصوص أخرى باللغة الحورية من مدينة ماري (تل الحريري) .

لقد دامت هذه المملكة منذ زمن تأسيسها (في حدود ١٥٠٠ ق . م) الى زمن ابتلاعها من جانب الآشوريين زهاء القرنين من الزمان ، والمعتقد أن الحوريين أثروا في الآشوريين في هيئات أجسامهم ، كما ان الشكل العبراني اليهودي يرجح انه نشأ بتأثير الاختلاط بالحثيين والحوريين ، وأثر الحوريون في سكان سورية وبوجه خاص في الشكل اللبناني من ناحية شكل الرؤس المدورة[٢] .

أما تأريخ دولة ميتاني السياسي وأسماء ملوكها فلا يسع هذا الموجز التأريخي اسهاب القول فيه وانما نكتفي بالتنويه بما ذكرناه عن الآشوريين والعلاقات الدولية في عهد الامبراطورية المصرية حيث أصبحت دولة ميتاني في القرن الرابع عشر ق . م محاطة بدول وامبراطوريات معظمة ، ولقد كانت صديقة الى مصر في نزاعها مع الامبراطورية الحثية ، كما تدل على ذلك رسائل العمارنة الشهيرة ولا سيما المراسلات بين أشهر ملوكهم «تشراتا» وبين الفرعون

---

(١) (Washshukkanni)

(٢) أي الرؤس المعروفة في الانثروبولوجيا بمصطلح (brachycephalic) انظر (Hitti, **History of Syria**, 154).

المصرى امنحوتب (امنوفس) الثالث ، وقد تزوج هذا من اخت الملك الميتانى ، وكانت مملكة ميتانى قبل ذلك فى حرب مع الامبراطورية المصرية فى عهد سلالتها الثامنة عشرة • وبلغ من قوتها قبيل عهد الملك الآشورى «آشور اوبالط» ان فرضت نفوذها على آشور وقلصت المملكة الآشورية وضيقت عليها الخناق ، ولكن نزاعها مع الحثيين أضعفها حيث هاجم الحثيون فى عهد «شوبيلو ليوما» الملك الميتانى تشراتا ، كما ضيقوا عليها فى عهد ابنه «متيوازا» • فضعفت المملكة الميتانية وصارت تؤدى الجزية الى الآشوريين (فى عهد ادد نرارى ١٣٠٤ - ١٢٧٣ ق • م) الذين اتفقوا مع الحثيين للقضاء عليها ، ولم تستطع مصر من مساعدتها بسبب ضعفها ثم ابتلعتها الامبراطورية الآشورية •

٤ - الارمن :-

الارمن من الاقوام الهندية الاوربية التى استوطنت فى شمال موطن الآشوريين واتصل معهم الآشوريون منذ نشوء كيانهم السياسى وتوسعهم الحربى ، فقد اتصل أكثر من واحد من الفاتحين الآشوريين بلاد الارمن غازيا اياها ، منذ أيام شيلمنصر الاول (١٢٦٦ - ١٢٤٣ ق • م) وتجلاتبليزر الاول (١١١٧ - ١٠٨٠ ق • م) ، وازدادت العلاقات الحربية مع الآشوريين فى العهد الآشورى الذى سميناه بالعهد الآشورى الحديث (٩٠٠ - ٦١٢ ق•م) بحيث يستطيع المؤرخ أن يستخلص من هذه العلاقات مع الآشوريين التى ذكرت فى أخبار ملوكهم الفاتحين مصادر مهمة عن تأريخ الارمن ، بالاضافة الى المصادر الاخرى التى تركها لنا الارمن القدماء فى بلادهم وما جاء عنهم فى المصادر الكلاسيكية من كتابات المؤرخين اليونان والرومان •

وقد عرفت بلادهم لدى الآشوريين باسم «اورارتو» وعرفت لدى العبرانيين فى التوراة باسم «اراراط» ، وعرفوا أيضا باسم «الهالديين» • ويبدو

من المصادر التى بين أيدينا ان الارمن أسسوا فى بلادهم ، فى اقليم بحيرة وان و «اورمية» مملكة مهمة استمرت عهودا طويلة منذ المنتصف الثانى من الالف الثانى ق • م • ومما لا شك فيه ان الارمن تعلموا من علاقاتهم مع الآشوريين أمورا مهمة عن فنون السلم والحرب • ونشأ منهم ملوك مثل «ارجيتيس» الثانى (فى حدود ٧٠٨ ق • م) الذى أوصل المملكة الى حالة ملحوظة من الرخاء، فقد استغل الأرمن فى عهده استخراج الحديد وتعدينه والتجارة به الى آسية واليونان ، كما اشتهر من ملوكهم «روساس» الذى حاربه الملك الآشورى سرجون فى حملته فى بلاد ارمينية ، وكان ضغط الآشوريين على المملكة الارمينية شديدا فى عهد الملوك الذين أعقبوا سرجون • ودخلت بلاد الارمن فى حكم الامبراطورية الفارسية على أثر فتوح «كورش» مؤسس السلالة الاخمينية • واستقلت فى العهد السلوقى والعهد الفرثى ولكنها كانت مدار نزاع شديد بين رومة والفرثيين ، وبين رومة أيضا والساسانيين فمرة تكون اقليما تابعا لاحدى هذه الامبراطوريات ومرة تكون مستقلة (انظر البحث الخاص ببلاد ايران) •

وكان يعيش الى الشمال من بلاد الارمن على طوال سواحل البحر الاسود القبائل المتنقلة التى عرفت باسم «الاسكيثيين» (Scythian) ، وهم قبائل هائلة ، يرجح ان تكون خليطة من القبائل المغولية والقبائل الهندية الاوربية • وقد اشتهرت هذه القبائل الشرسة القوية بغزواتها المدمرة لدول العالم القديم المتمدنة آنذاك، فكانوا يقومون بغزوات كبرى للامبراطورية الآشورية ولعلهم ساهموا فى غزو الدولة الآشورية فى أيامها الاخيرة ، وكانت أعظم غزواتهم المدمرة فى آسية الغربية (فى حدود ٦٣٠ – ٦١٠ ق • م) حيث لم يقل تدميرهم للمدن والسكان عن تدمير غزوات الهون والمغول فى العصور

المتأخرة ، حتى انهم بلغوا فى انجرافهم الى حدود مصر وسورية وسميت مدينة فى بلاد الشام باسمهم هى «مدينة الاسكيثيين» (Scythopolis) وهى «بيسان الآن» ، وقد استطاع الماذيون من دفعهم (فى القرن السادس ق • م) الى حدود مواطنهم الاصلية بعد أن فرضوا سلطانهم على بلاد ايران زهاء ٢٨ عاما ولكن أخطارهم على مراكز العالم المتمدن استمرت الى زمن الرومان •

جاء وصف هذه القبائل فى هيرودوتس ، حيث يصفهم بأنهم قبائل متوحشة يركبون الخيل العارية الوحشية ، ويشربون دماء اعدائهم ويستعملون جماجمهم للشرب[١] •

حضارات امريكة القديمة :ـ

واتماما للفائدة نذكر تعريفا موجزا بالحضارات القديمة التى نشأت فى القارة الامريكية قبل مجيء الفاتحين البيض من الغربيين فقد أثمرت هذه القارة أربع حضارات مهمة كانت مواطنها فى امريكة الوسطى ، وقد

---

(١) انظر تاريخ هيرودوتس (Herodotus, Bk. IV, 64) كما يصفهم هبرقراط (أبوقراط) (Hippocrates) فى مؤلفه عن أثر المناخ والمياه والبيئة الخ (Hippocrates, **Airs, Waters, Places,** XVII — XXI)

بأن نساءهم مادمن عذارى يركبن الخيل ويمارسن الحرب ، وان المرأة منهن لا تتزوج ما لم تقتل ثلاثة من الاعداء • ويقول عن نسائهم أيضا بانهن ليس لديهن اثداء فى صدورهن لان الأمهات يكوين صدورهن بآلة من البرونز بحيث اذا كبرن لا تنمو أثداؤهن • وهناك بعض الباحثين من يعين هذه القبائل بانها «جوج وماجوج» المذكورين فى التوراة والقرآن • حول لمح من تاريخ الاسكيثيين انظر :ـ

(1) Maspero, **The Passing Empires.**

(2) **Cambridge Ancient History,** Passim.

وانظر تاريخ بلاد ايران ايضا

انبعث من هـذا المركز الحضـارى تأثيرات حضـارية الى جهـات امريكة تأثرت بها الاقوام البربرية من قبـائل الهنود الحمر فى امريكة الشمالية والجنوبية ،فنشأت مراكزثانوية منحضارات بدائية أقل مرتبةوتقدما منالمركز الاصلى ،وهذه احدى الحالات التى ينطبق عليها قانون انتشار الحضارة • والمرجح كثيرا ان الانسان دخل الى القارة الامريكية فى نهاية العصرالحجرى القديم عن طريق مضيق «بهرنج» •

وكانت اثنتان من هذهالحضارات الاربع من الحضارات الاصلية حيث نشأتا ونمتا من الاطوار البدائية ولم تشتقا من حضارة سابقة لهما • وأقدم هاتين الحضارتين حضارة «المايا» التى نشأت قبل (٥٠٠) ق • م • فى منطقة الغابات الاستوائية فى أمريكة الوسطى ، وقد تغلبت على هذه البيئة الصعبة التى نشأت فيها • وقد قامت من هـــذه الحضـــارة امبراطورية (٣٠٠ ــ ٦٩٠ للميلاد) ثم حلت بها نهاية سريعة فى القرن السابع للميـلاد ، وقد تركت وراءها سجلا مهما فى خرائب المدن العظيمة فى الغابات المشبعة بالامطار فى «بوكتان» (يوقطان) • وقد اشتهرت بحذقها فىالفلك وطريقةالتقويمالمضبوطة• وقد ولدت حضارة «المايا» حضارتين فرعيتين هما حضارة المكسيك وحضارة «اليوكتان» ، وقد نشأتا فى جزء من شبه جزيرة «اليوكتـــان» قاحل أجرد وذلك من بعد ٦٢٩ للميـــلاد ، ونشأت عن حضارة المكسيك امبراطورية الازتيك التى بقيت الى زمن الفتح الاسبانى على يد القائد «كورتيز» فىالقرن السادس عشر الميلادى • اما الحضارة الربعة فهى ثانى الحضارتينالاصليتين، وهى الحضارة «الاندية» وقد نشأت فى السـاحل الاندى وفى النجد الاندى فى بداية العهد المسيحى ، وقد تغلبت هذه الحضارة على البيئة الصعبة من الارض البادية والمناخ القارس وفقدان التربة الخصبة فى النجد الاندى وقد نشأت منها امبراطورية «الانكا» (١٤٣٠ ــ ١٥٣٠) فى (بيرو) وقد قضىعليها الفاتح الاسبانى «بيزارو» فى ١٥٣٠ للميلاد •

القسم الرابع

بلاد

ايران

العيلاميون ـ الفرس الاخمينيون ـ الاسكندر والسلوقيون ـ الفرثيون ـ الساسانيون

الفصل الثالث والثلاثون

عصور ماقبل التأريخ وتأريخ عيلام والماذيين

١ ـ مقدمة في جغرافية ايران وعصور ما قبل التاريخ فيها

تبدو هضبة ايران[1] وهي شبيهة بالمثلث ، محصورة ما بين منخفضين هما خليج فارس في الجنوب وبحر قزوين في الشمال ، وهي توصل بين آسية الوسطى وآسية الغربية ، كما انها بمثابة جسر الى آسية الصغرى والى قارة اوربة فيما وراءها • وتحيط بتلك الهضبة المثلثة سلاسل من الجبال ترتفع محيطة بصحراء منخفضة هي قاع بحر يابس (دشتي لوط) • وتدعى السلسلة الغربية بجبال زجروس الممتدة من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي وطولها نحو (٦٢٠) ميلا وعرضها نحو ١٢٠ ميلا ، وتتراوح ارتفاعاتها بين ٣٢٨٠ و ٥٥٧٠ قدما ، وهي تتألف من جملة سلاسل متوازية تخترقها أودية تتراوح في أطوالها من ٦٠ ـ ٣٠ ميلا طولا ومن ١٢ ـ ٦ أميال عرضا ، ويمتد من السلسلة الوسطى من جبال زجروس ذراع يتجه غربا الى سهل ما بين النهرين (جبال حمرين) ، الامر الذي أحدث انعطافا وانحرافا

---

(١) سيتضح من كلامنا على الاقوام التي استوطنت ايران ان اسم الآريين مأخوذ من نفس مادة «ايران» ، وأول من استعمل مصطلح «بلاد ايران» «أريانا» (Ariana) الجغرافي الشهير «اراتو ستينيز» (Eratosthenes القرن الثالث ق • م) الذي كان مديرا لمكتبة الاسكندرية الشهيرة ، وكان في متناول يده الكتابات والمعلومات التي جمعها موظفو الاسكندر ، ولكن المرجح كثيرا أن هذا المصطلح يرجع في استعماله الى العهد الاخميني اذ ورد في التراتيل والصلوات الدينية في الافستا
(Herzfeld, **Iran in the Ancient East** (1941), 192)
كما ان شيلمنصر الثالث اتصل في العام السادس عشر والرابع والعشرين من حكمه (٨٤٣ ، ٨٣٥ ق • م) بالقبيلتين الايرانيتين الرئيسيتين وهما ماذي ومارس على ما سنبين فيما بعد ، كما سيأتي ذكر الاسماء الخاصة بالاقسام الجغرافية الاخرى من ايران •

فى نهر دجلة جعلاه يقترب كثيرا من الفرات فى منطقة بغداد[١] • وكان سهل وادى الرافدين مهددا بالغزو من هذا الامتداد المطل عليه (فى الاقليم المسمى لورستان) ، وكان الغزو متبادلا على ما سيتضح ذلك فيما بعد • ويحد الناحية الشمالية من ايران سلسلة جبال «البرز» التى يرتفع أعلى جبل فيها (وهو « دماوند » ، شمال طهران وهو المسمى فى المصادر المسمارية بجبل بكنى أى جبل اللازورد) زهاء ١٩٫٠٠٠ قدما وتحاذى جبال «البرز» الساحل الجنوبى من بحر قزوين ، وتصل فى نهايتها الغربية الى اذربيجان الايرانية التى تتوسطها بحيرة «اورمية» الملحة • ويمتاز اقليم اذربيجان بكثرة سكانه وتنمو فى وديانه الخصبة الغلات المهمة كالحنطة والدخن والقطن والرز والتبغ كما انه ذو شهرة تأريخية خاصة ، اذ ظهرت منه سلالات الماذيين والفرس التى حكمت ايران ، واستوطنته الاقوام الاخرى كالكرد والمغول والترك (التتر) ، وهو الى ذلك يعد الباب المؤدى الى ايران مما دعى الدول الفارسية الى أن تهتم فى المحافظة عليه ازاء الفاتحين الآتين عبر القوقاز من السهوب الكائنة جنوب روسية ، فقد أقيمت الحصون المنيعة التى لا تزال بعض آثارها ماثلة الآن •

وتتفرع من جبال البرز الى الشرق جبال خراسان التى لا ترتفع كثيرا ، كما أنه يسهل العبور منها ، وهى ذات وديان وسهول خصبة تنمو فيها غلات الحبوب والرز والقطن والكروم والخشخاش ، وتعد خراسان مخزنا للغلات بالنسبة الى ايران • وتؤلف خراسان المدخل الثانى الى بلاد ايران • فقد عبر منها فى خلال العصور غزاة فاتحون مختلفون جاؤا من سهول آسية الوسطى، فكانت معرضة لغزوات التركمان الى القرن التاسع عشر للميلاد • وأقام ملوك السلالة الساسانية فى خراسان حصونا لصد الفاتحين ، واشتهر اقليم خراسان فى تأريخ ايران بكونه مهد سلالات حاكمة مشهورة ، كالفرثيين

---

(١) اعتمدنا فى هذه المقدمة وفى تأريخ الادوار الرئيسية فى ايران على الكتاب القيم الموجز :

R. Ghirshman, **Iran** (Pelican, 1954)

والصفويين والقاجاريين • وتكمل سلاسل الجبال المحيطة بهضبة ايران سلسلة جبال «مكران» في جهة الجنوب ، حيث يمر من هذه الجبال مجازان أحدهما في بندر عباس (الذي كان فيما مضى ميناء مزدهرا في خليج عمان) والممر الآخر يؤدي الى بلوجستان •

ويقع في وسط هضبة ايران منخفض صحراوي شاسع يعد أشد بقاع الدنيا قحولة وجفافا • وهو ينقسم الى صحراوين شاسعتين تسمى احداهما «دشتي كوير» في الشمال والاخرى «دشتي لوط» في الجنوب[1] ، فالاولى عبارة عن طين وملح لا ينمو أو يعيش فيها شيء الا في بعض الواحات القليلة• أما «دشتي ـ لوط» فهي صحراء جافة على وجه الاطلاق ، ويصف هذه المفازة الرواد القلائل الذين جازفوا بارتيادها بانها لو قورنت بأفحل صحاري آسية الوسطى مثل صحراء «كوبي» لبدت هذه خصبة بالنسبة اليها • وهكذا فقد انحصرت حياة الانسان واستيطانه في ايران في الهضبة فقط وفي السهول والوديان بين سلاسل الجبال وفي الواحات والسهول الواسعة مثل سهل «خوزستان» المشهور (في الجهة الجنوبية الغربية) ، وهذا هو بلاد السوس القديمة (خوزستان) أي بلاد عيلام التي تعد من الناحية الجغرافية امتدادا لسهل ما بين النهرين الاسفل لانها تتألف من الارض الرسوبية التي كونها نهر كارون وروافده الكثيرة • وكان هذا الاقليم[2] أقدم أجزاء ايران في استيطان الانسان له كما ظهرت فيه أقدم الاطوار الحضارية ، وهو الى ذلك أصلح جزء لان يكون مركزا لادارة الدولة الايرانية لما اتسعت هذه عبر «زجروس» الى ما بين النهرين والى آسية الصغرى • وهناك سهل آخر في

---

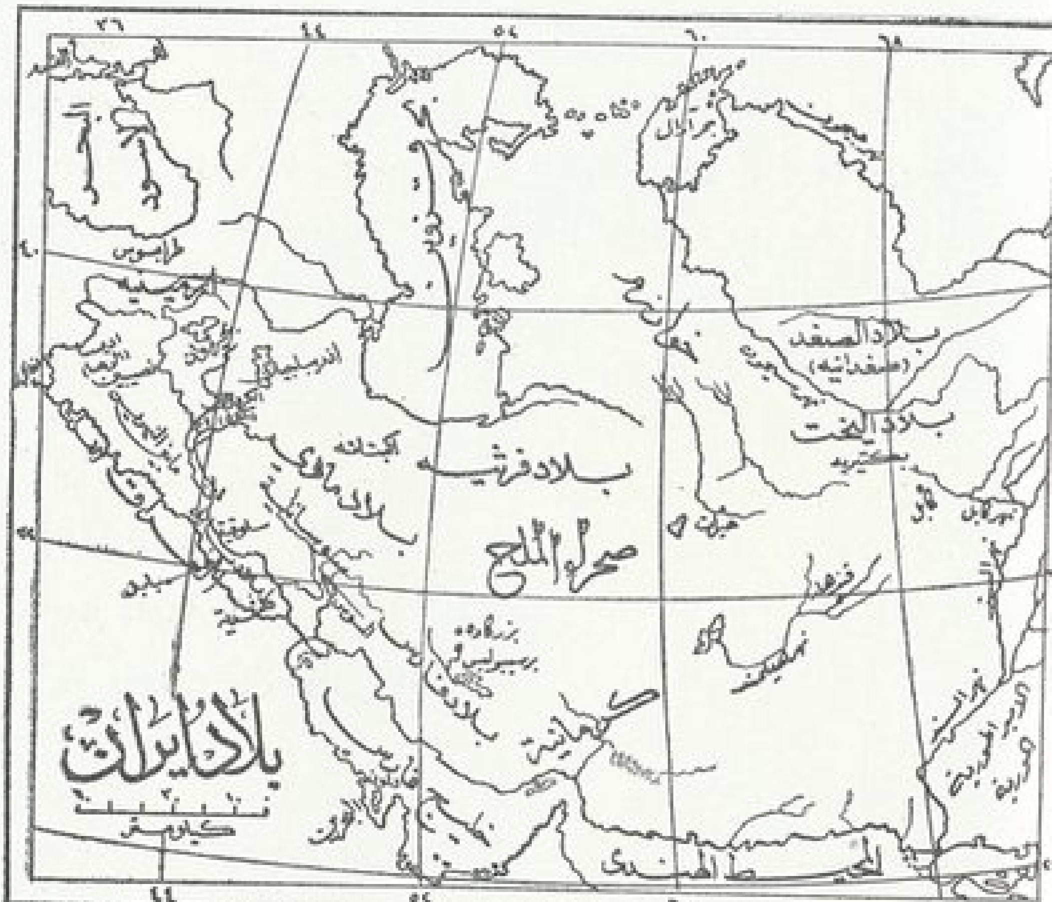
(١) دشتي لوط أو «دشت لوط» وتسمى صحراء الملح وسماها البلدانيون العرب باسم «المفازة الكبرى» •

(٢) معنى خوزستان بلاد «الخوز» أو «الهوز» ويجمع على أهواز ، وهو اسم حاضرة هذا الاقليم في العصور الوسطى ، وسمي عربستان ثم أعيدت تسميته القديمة «خوزستان» في أيام البهلوي رضا شاه • وسمى البلدانيون العرب نهر كارون باسم دجيل الاهواز ، ولكارون رافد مهم هو نهر «كرخه» الذي يمر قرب السوس (قرب دزفول) • (أنظر كلامنا على أصل اسم عيلام) •

محاذاة الجبال المتاخمة لبحر قزوين ، وهي جبال مهمة من ناحية جذبها للرياح الممطرة الغزيرة في هذا السهل الذي يكتسب خصبا بسبب ذلك ، فكثرت فيه الغابات والغياض ، والاحراش ، كما ينمو فيه الرز والقطن والشاي والتبوغ وقصب السكر والبرتقال والليمون ، والتوت ، والتين ، والرمان ، وهو يجهز القوت لزهاء ⅓ السكان • أما السهول الاخرى فهي ليست على هذا الخصب ، وعديمة المطر تقريبا فلا يمكن زرعها الا بالارواء الاصطناعي ، الذي استعمل في بلاد ايران منذ عصور ما قبل التأريخ ، واتسع في العهد الاخميني حيث كانت شبكة من القنوات تحت الارض (بالفارسية قناة أو غناة أو كهريز) وفي الوقت الحاضر «تبزل» المياه في سفوح الجبال وتجمع في حفر عميقة يجري الماء فيها الى الموضع البعيد المراد ارواؤه ، وتطهر مثل هذه القنوات في كل عام • وهكذا أمكن لسفوح جبال زجروس والبرز بفضل مياه أمطارها أن تكون صالحة للزراعة ولسكنى البشر ، حيث تكون هذه الجبال مصدرا لينابيع المياه والسيول •

ومع أن بلاد ايران ، على ما رأينا ، محاطة بالجبال الا انها مفتوحة من جهاتها الاربع (بطرق مسالك الجبال) الى سهول ما بين النهرين (وسنتطرق الى العلاقات والاتصالات منذ أقدم الازمان) ومفتوحة أيضا الى روسية والهند وخليج فارس • كما انه يمر منها منذ أقدم الازمان طرق مواصلات عالمية تربط الشرق بالغرب ، فيخترقها طريق تجارة الحرير الشهير الذي كان طريق الفتوح أيضا ، وكانت ايران في الواقع معرضة الى الفتوح والغزوات الخارجية وهجرات الاقوام البربرية • ومن الناحية الحضارية تقع بلاد ايران بين مركزين حضاريين مهمين ، هما بلاد ما بين النهرين ووادي نهر السند •

ومن الامور المهمة التي يجدر ذكرها عن جغرافية ايران مما كان لها أثر في تأريخها وحضارتها ما في هذه البلاد من الموارد الطبيعية ، فهي بالدرجة الاولى زراعية وفيها حيوانات صالحة للتدجين ، وهي موطن أشجار



مثمرة مهمة وحبوب برية مما مكن ظهور انقلاب العصر الحجرى الحديث ٠ ومن مواردها الطبيعية المهمة انها غنية بأنواع الحجارة الجيدة كالمرمر والرخام والاخشاب ، وبعض الاحجار الثمينة كحجر اللازورد (lapis lazuli) والفيروز (Turquoise) وقد استخرجت هذه الاحجار منذ أقدم العصور، وكانت مصدرا مهما للامراء السومريين الاوائل فى العراق مما جعل ايران تتصل بمواطن الحضارات القديمة وتتأثر فيها ٠ ويوجد فيها من المعادن النحاس والحديد والقصدير والرصاص مما جذب اليها الفاتحين الطامعين من دول العراق القديم ، وتتكون سفوح زجروس ومنحدراتها من حجارة الكلس وتحتوى على النفط الذى كان معروفا منذ أقدم الازمان ٠ وهناك ميزة جغرافية

أخرى حددت من امكانيات ايران فى نشوء الحضارة والدول الكبرى فى عصور أقدم ، تلك هى أحوال الجفاف النسبى ومحدودية الاراضى الزراعية الصالحة للرى بالانهار مما كان يحتم على الفلاحين الهجرات الموسمية من الوديان الى الجبال وبالعكس للمحافظة على الماشية ، ولا يوجد فى ايران ، كما فى العراق ، مناطق زراعية كبيرة مستمرة تعتمد على الانهار وتسبب قيام الوحدات الاقتصادية والسياسية الكبيرة ، وكانت الوحدات الزراعية فى الواحات فى العصور القديمة أقرب ما تكون الى الاستقلال الذاتى فى اقتصادها ، ولهذه الاسباب تأخر نشوء الحياة الحضرية والحضارة فى ايران عن نشوئها فى وادى الرافدين ، باستثناء بلاد عيلام بسبب احتكاكها واتصالها بالعراق القديم وقربها منه .

٢ ـ عصور ما قبل التاريخ :ـ

قبل أن نتكلم عن الادوار التأريخية فى بلاد ايران نذكر بعض الملاحظات العامة عن مصادرنا الرئيسية ، فنذكر على رأسها التحريات والتنقيبات الاثرية فى العصر الحديث ، منذ منتصف القرن التاسع عشر وهى مستمرة حتى الآن ، ومع ان لدى المؤرخ الحديث مصادر مهمة عن تأريخ ايران من غير التحريات الآثارية ، الا ان هذه التحريات قد زودتنا بمعلومات مهمة من أقدم عصور ما قبل التأريخ الى العهد الساسانى وحتى العهد الاسلامى وسنشير الى نتائج هذه التحريات فى اثناء كلامنا على ادوار التاريخ المختلفة . وبالاضافة الى هذا المصدر الرئيسى فلدى المؤرخ مراجع اخرى اساسية مهمة نشأت من صلات الاقوام الايرانية بالاقوام الاخرى وأهم كتابات عنهم ما جاء فى المصادر اليونانية والرومانية ، وعلى رأس ذلك تأريخ هيرودوتس الشهير وهو مصدر مهم ومعاصر للحوادث التى نشأت من جراء غزو الفرس الاخمينيين لبلاد اليونان ويزودنا هذا المصدر بعد تطبيق اصول النقد التأريخى عليه بمادة مهمة عن تأريخ ايران فى العهد الاخمينى والماذى. ومن المصادر المهمة ما جاء فى التوراة عن احوال فارس فى العهد الاخمينى

ايضا من الصلات المهمة بين اليهود والفرس من بعد فتح كورش لبابل • وتذكر الاخبار الواردة ايضا في الافستا (التي هي كتاب الفرس المقدس) وننوه باتصال الآشوريين ببلاد ايران وما جاء في كتابات الملوك الآشوريين الفاتحين اذ ورد فيها اول ذكر للاقوام الايرانية بعد هجرتهم بقليل، واتصل قبل الآشوريين ملوك العراق الاقدمون منذ اقدم عهود التاريخ ببلاد عيلام وذكروا في كتاباتهم اشياء مهمة عن تاريخ العيلاميين على ما سيتضح ذلك لنا فيما بعد • وننوه ايضا بالمصادر الرومانية المهمة ولا سيما عن العهدين الفرثي والساساني حيث نشأت علاقات واسعة اكثرها حربية بين الفرثيين والساسانيين وبين رومة وبيزنطية (في العهد الساساني) • وزودتنا نتائج التنقيبات بالاضافة الى الآثار المادية والفنية بمصادر مدونة معاصرة باللغة العيلامية والفارسية عن تأريخ بلاد عيلام وعن الفرس الاخمينيين والساسانيين• وتكون اخبار المؤرخين العرب موثوق بها نوعا ما عن العهد الساساني •

لقد نتجت التحريات الاثرية الحديثة في ايران معرفتنا بآثار العصر الحجري القديم في جملة كهوف في الجبال مثل كهف «تنك ــ بدا» (Tang -i- Pabda) في جبال «بختياري» الى الشمال الشرقي من ششتر [١] حيث عاش الانسان الصياد واستعمل ادوات الصوان ، والادوات المصنوعة من العظام • وكان الجفاف آخذا بالازدياد في ايران وجهات الشرق الادنى الاخرى من بعد العصور المطرة التي تقابل العصور الجليدية في اوربة • فأثر ذلك في استيطان الانسان حيث انتقل من الجبال ولا سيما الكهوف الى الوديان والسهول الخصبة •

وكانت الاحوال ملائمة للانقلاب الذي تم في العصر الحجري الحديث بتعلم الانسان الزراعة وتدجين الحيوان ، وقد كشف البحث عن اقدم مستوطن في ايران فيه آثار العصر الحجري الحديث في الموضع المسمى

---

(١) كشف عن هذا الكهف حديثا في عام ١٩٤٩ أنظر
R. Ghirshman, **Iran**, 27.

«تبه سيالك» في السهل قرب كاشـــان ، جنوب طهران ، وهو موضع ظل يستوطنه الانســـان في العصور التي اعقبت العصر الحجري الحديث في الاطوار التي اطلقنا عليها اسم العصر الحجري المعدني ، كمـا وجدت آثار العصر الحجري الحديث في تل صغير قرب برسيبوليس وكشف فيه عن آثار العصر المعدني ايضـا التي وجدت في مواضـع اخرى من ايران[١] وفي عيـلام وسنتنوه بهذه الاطوار في عيلام بوجه خاص .

بلاد عيلام والحضارة العيلامية

لقد سبق أن نوهنا بان هذا الجزء من بلاد ايران أقدم حضارة وعمرانا من بقية بلاد ايران فقـد ظهرت فيـه في عصور ما قبل التـــأريخ الاطوار التمهيدية الى نشوء الحضارة الناضجة بتأثير حضارة وادي الرافدين على ما سنبين ذلك عما قليل .

لقد سمى السومريون الاقليم الكائن الى شرق وادي الرافدين الاسفل بمصطلح «نم» (NIM) الذي يعني النجد المرتفع ، وســماه الاكديون

---

(١) يمثل لنا موضع «سيالك» بدوره الاول والثـاني والثالث تدرج التقدم الحضاري في عصور ما قبل التأريخ من العصر الحجري الحديث الى اطوار العصر الحجري المعدني . حول نتائج التحريات في المواضع الاخرى مثل «تبه كيان» في نهاوند و «تبه حصار» قرب دمغان والمواضع الاخرى في لورستان وسستان انظر المراجع الآتية :ـ

(1) Childe, **New Light on the Most Ancient East** (1952), ch. X.

(2) Mc Cown, **The Comparative Stratigraphy of Early Iran** (1942).

(3) Ghirshman, **Fouilles de Sialk** (1938).

(4) Schmidt, **Excavations at Tepe Hissar (= Museum Journal,** XXII (1933).

(5) Contenau & Ghirshman, **Fouilles du Tepe - Giyan** (1935).

الساميون في العراق باسم «ايلامتو»[١] • وفي التوراة يبتدأ الاسم بحرف (ع) أي «عيلام»[٢] • اما العيلاميون فقد سموا أنفسهم باسم يختلف عن ذلك حيث جاء في المصادر العيلامية المسمارية بهيئة «حاورتي» أو «حافرتي» (Ha-Pir-ti) ويجوز قراءة العلامة الوسطى بلفظ (TAM) ويكون الاسم المحتمل «خاتمتي» (Ha-tam-ti)[٣] وسمت النصوص الفارسية المتأخرة اقليم عيلام باسم (Uvàja) و (Huvàja) ومنه الكلمة العربية «خوز» وخوزي «وحويزه» اي اقليم «خوزستان» وهو بلاد عيلام التأريخية بالضبط ودعا الاغريق بلاد عيلام والعيلاميين باسم عاصمتهم الشهيرة « السوس » (سوسا)[٤] فسموها «سوسيانه» (اي بلاد سوسا) وورد جزء مهم من بلاد عيلام باسم «انشان» و«انزان» ، وكان من شهرة هذا الاقليم ان صار في بعض الازمان القديمة يطلق على جميع بلاد عيلام[٥] ، كما كانت هناك مدينة مهمة بالاسم نفسه الى الشمال الغربي من مدينة السوس ، وعلى نهر الكرخا • ولما اخذها ملوك الفرس الاخمينيين من العيلاميين صار من جملة القابهم الرسمية «ملك انشان» •

---

(١) لا يعلم بوجه التاكيد هل ان هذه الكلمة الاكدية ترجمة للمصطلح السومري أو انها تعريب او تصحيف للكلمة السومرية NIM (E) بابدال النون لاما ولكن يجوز احتمال اشتقاق الاسم السومري من الاسم السامي «عيلام ـ ايلام» • انظر
Speiser, **Mesopotamian Origins,** 1930. chap. II.

(٢) وتذكر التوراة ان بلاد عيلام سكنها بنو سام وانها سميت باسم عيلام الابن البكر لسام (سفر التكوين ١ : ٢٢) وان عيلام ابو قبيلة العيلاميين وابو الفرس (عزرا ٤ : ٩) •

(٣) انظر Speiser, **ibid.,** 26
ولعل هذا الاسم ماخوذ من اسم احدى القبائل العيلامية الكبيرة

(٤) ورد ذكرها في التوراة باسم «شوشان» أو «شوشن» ، وتكتب في المصادر المسمارية (العيلامية والبابلية) بهيئة رمزية بالعلامتين المسماريتين (INANNA-ERIN)

(٥) وهكذا ورد اسم «انشان» وهو يرادف عيلام في الحوادث المؤرخ بها من عهد ملك «اور» «ابي ـ سين»
(**Royal Inscriptions from Ur,** Nos. 290, 292)

وتعد عيلام ، على ما ألمحنا الى ذلك من قبل ، جزءا من جنوبي وادي الرافدين من ناحية الخصائص الجغرافية ومن الناحية الثقافية حيث التشابه الحضاري الكبير والاتصالات الثقافية منذ عصور ما قبل التأريخ وهي في الواقع لا تبعد عن بلاد سومر أكثر من (١٠٠) ميل ، وكثيرا ما صارت ولاية تابعة الى الدول التي قامت في وادي الرافدين كما انها غزت العراق أكثر من مرة في عهود ضعف الدول القائمة في العراق • كما ان بلاد عيلام كانت واسطة مهمة للاتصال الثقافي بين حضارة وادي الرافدين وبين سائر جهات ايران من جهة وبين الهند والتركستان وحتى الصين •

لقد كشف البحث الحديث عن وجود أطوار ما قبل التأريخ في بلاد عيلام وهي ممثلة في جملة مواضع ، ولا سيما في مدينة السوس نفسها حيث وجدت أدوار العصر الحجري المعدني ذي الفخار الملون الجميل ، ووجد ما يضاهي طور العبيد في العراق بما يعرف بالدور الاول من سوسه الذي يرى فيه بعض الباحثين انه أصل حضارة العبيد في العراق ومهما كان الامر فالثابت من الوجهة الحضارية ان بلاد عيلام تأثرت أثرا بالغا في ثقافتها بالحضارة السومرية واشتقت منها عناصر أساسية من الحضارة ، وبدأت هذه التأثيرات واضحة أكثر في العهد الذي سميناه في تأريخ العراق باسم «العهد الشبيه بالكتابي» ، أي النصف الثاني من طور الوركاء وجمدة نصر ، وأول ما يلاحظ من هذه التأثيرات الواضحة اقتباس العيلاميين للخط المسماري ؟ حيث ظهر في عيلام نوع من الكتابة الصورية في عهد جمدة نصر (في حدود ٣٠٠٠ ق • م) على غرار الخط المسماري القديم ، وقد سمي هذا الخط بالمسماري العيلامي القديم (Proto - Elamite) كما دون في عدة مئات من ألواح الطين وجدت في السوس وظل مستعملا الى العهد الاكدي ، ولكن لا يزال هذا الخط مجهولا • وقد ترك العيلاميون استعمال هذا الخط القديم في منتصف الالف الثالث ، واستعملوا بدلا منه طريقة من الكتابة المسمارية مشتقة من الخط المسماري في العراق بعد تعديلات وتغييرات لجعله ملائما

لاصوات لغتهم وتتألف هذه الكتابة الجديدة من نحو (١٣١) علامة مسمارية مقطعية (أي تستعمل استعمالا صوتيا بهيئة مقاطع) و (٢٥) علامة كل منها تقوم لكلمة (أي بطريقة الكتابة الرمزية) و (٧) علامات دالة ، واختصروا في هذا الخط أيضا مرة أخرى وجعلوه يتألف من (١١٣) علامة ، منها (١٠٢) علامة مقطعية و (١١) علامة للكلمات وعلامات دالة[١] ٠

استوطن بلاد عيلام أقوام لا نعرف عن أصلها أشياء مؤكدة ، فهي ليست من الاقوام الايرانية التي هاجرت الى ايران في بداية الالف ق ٠ م ، مما سنذكره في تأريخ ايران من بعد العيلاميين ٠ فيكون عهد العيلاميين قد سبق العهد الايراني أو الآري في بلاد ايران ولعل أصل العيلاميين من المنطقة الجبلية التي تتاخم سهول عيلام في الشمال والشرق ومن الباحثين من يسمي سكان ايران قبل مجيء الايرانيين باسم القزوينيين نسبة الى اقليم بحر قزوين ومنهم الكوتيون واللولوبو والكشيون ، وان اسم هؤلاء الكشيين مثل اشتقاق كلمة قزوين كما ان من الباحثين من يعد اللغة الكشية لهجة من اللغة العيلامية ، أما هذه اللغة فلا تعلم صلتها بوجه التأكيد بعوائل اللغات البشرية المعروفة ولعلها من جملة اللغات المحكية في جنوب القوقاز ، وهي شبيهة بعائلة اللغات القوقازية ٠ وظلت اللغة العيلامية في الاستعمال زهاء أربعة آلاف عام ، وأقدم ما دون بها يرجع في عهده الى بداية الالف الثالث ق ٠ م ، ولعل مفردات وعناصر منها قد دخلت في الاستعمال في وادي الرافدين منذ الالف الرابع ٠ ومن الطريف ذكره بهذا الصدد ان الجغرافي العربي الاصطخري (منتصف القرن العاشر للميلاد) يروي ان أهل خوزستان كانوا يتكلمون في زمنه باللسان الخوزي الى جانب الفارسية ، ومصطلح اللغة الخوزية استعمل أيضا في زمن الفرس الاخمينيين لاطلاقه على اللغة العيلامية ٠ وقد حلت رموز اللغة العيلامية من النقوش الاخمينية في برسيبوليس وبهستون ، وهي النقوش المدونة بثلاث لغات (البابلية والعيلامية والفارسية الاخمينية) ، والتي كانت

---

(١) Gelb, **A Study of Writing,** 121.

مفتاحا فى حل رموز الخط المسمارى واللغة البابلية أيضا ، على ما بينا فى كلامنا على تأريخ العراق .

موجز تاريخ بلاد عيلام

بدأت عيلام منذ بداية الالف الثالث ق . م تزودنا بشىء من المصادر عن تأريخها وكثرت هذه المصادر فى العصور التأريخية المتأخرة ، أما فى العصور القديمة فمصادرنا المهمة مأخوذة من الكتابات التأريخية فى حضارة وادى الرافدين فندرس من هذه المصادر قيام امارات وسلالات حكمت فى عيلام فى منتصف الالف الثالث ق . م ، وامتد سلطانها الى بعض الاقاليم الجبلية المجاورة والى منطقة الخليج واقليم بوشير . وقد عثر هنا على كتابة باللغة السومرية يرجح أنها تعود الى أحد هؤلاء الامراء . وقد سبق أن نوهنا بغزوات الامراء السومريين لبلاد عيلام ، ولعل أقدم اشارة الى بلاد العيلاميين هى التى جاءتنا من سلالة لجش الاولى من كتابات حاكمها «اياناتم» الذى غزا عيلام حيث يتبجح فى تلقيب نفسه بانه «غازى عيلام ، الجبل الكثير الاشجار»[١]، وتكررت الاشارات الى فتح هذا الامير لعيلام ، وكذلك من الامراء الآخرين من السلالة نفسها ، وكلها تشير الى غزو عيلام ، ولكنها لا تذكر لنا شيئا عن غلبة العيلاميين لبلاد سومر وهو أمر مرجح ولكن لا ينتظر أن تذكرها أخبار هؤلاء الامراء ، الا فى اشارة واحدة من أواخر عصر فجر السلالات تسمى العيلاميين «ناهبى لجش»[٢] .

وتعرضت بلاد عيلام الى ضغط شديد بقيام السلالة الاكدية القوية فى العراق حيث غزاها سرجون الاكدى وأحرز نصرا كاسحا وضم بلاد السوس

---

(١) انظر النص فى

Barton, **The Royal Inscriptions of Sumer and Akkad** 32, Col .6, 10 — 12.

(٢) ذات المصدر

الى امبراطوريته[١] وظلت عيلام خاضعة لسيطرة الاكديين فيعهد «مانشتوسو» بن سرجون ولكنهـا ثارت فى عهـد « نرام ـ سين » فاخضعهـا هـذا العاهل القوى بعنف وقسوة ، وعين من قبله فى مدينـة السوس حاكما شيد أبنية مهمة فيها • وبلغ من نفوذ حضارة وادى الرافدين فى عيلام فى العهد الاكدى مبلغا كبيرا بحيث ان اللغة الاكدية حلت محل اللغة العيلامية فى بلاد عيلام ، وسمى كثير من السكان أنفسهم بأسماء سامية • وكان هذا أعظم خطر تعرضت له عيلام فى ثقافتها وقوميتها • ومهما كان الحال فيبدو ان العيلاميين تظاهروا بالركون الى سياسة الخضوع والطاعة فأفادوا من ذلك اذ حصلوا على رضا فاتحيهم وسلموا من التدمير والتخريب حتى ان «نرام ـ سين» لم يخش من ان يعين على بلاد عيلام واليا من العيلاميين أنفسهم خلفا للحاكم الاكدى الذى عينه من قبل • فاستغل هذا الحاكم العيلامى (واسمه بوزر ـ انشوشناك) ثقـة الاكديين وأخذ يبذر بذور الحركة القوميـة العيلاميـة حتى صارت النصوص تكتب فى عهده باللغة العيلامية والخط العيلامى القديم الى جانب اللغة الاكدية ، كمـا اشتهر بأعماله العمرانية البنـائية فى مدينة السوس ، واستطاع أن يفتح جملة أقاليم الى جهة الشـمال واتصل باقليم الكوتيين (فى المنطقة الجبلية شرق الزاب الأسفل) متظاهرا بحماية ولاية عيلام التابعة الى الدولة الاكدية • ولما مات «نرام ـ سين» ، أقوى ملوك السلالة الاكدية ، أعلن هذا الوالى العيلامى استقلاله عن السلطة الاكدية ، ولم يكتف بذلك بل انه غزا بلاد الاكديين نفسها فى عهد الضعف الذى حل بالسلالة الاكدية ، ولعله وصل الى العاصمة «اكد» •

ولكن لم يدم هذا الازدهار السياسى زمنا طويلا فى عيلام ، اذ ان ضعف السلالة الاكدية من بعد «نرام ـ سين» الذى استغله العيلاميون فى انسلاخهم

---

(١) وقد سمى سرجون نفسه «ضارب عيلام وبراهسى» • وبراهسى أحد أجزاء عيلام المهمة وحدها الشمالى الغربى

(Poebel, **Historical Texts,** P. 185).

من ربقة السلطة الاكدية قد عرض العيلاميين الى خطر آخر جاء من الاقوام الجبلية المجاورة للعراق ، حيث هجم عليه بعض هؤلاء الاقوام ، وبوجه خاص القوم الذين ورد ذكرهم في نصوص العراق القديم باسم «لولوبو» ثم أعقبهم الكوتيون • وكان «اللولوبو» يحتلون اقليما يمر منه الطريق المهم القديم المؤدي من بغداد الى كرمنشاه وهمدان وطهران • وقد سبق لسرجون الاكدي وحفيده نرام – سين ان قاما بغزو هذا الاقليم • وقد ضربهم «نرام – سين» بوجه خاص حيث حطم اتحادا مكونا من اللولوبو والكوتيين على أثر معركة كبرى خلد انتصاره فيها في نصب عظيم نقشه في منطقة شهرزور • وكان هؤلاء الجبليون يسيطرون على الطرق التجارية المهمة الواصلة بين سهل وادي الرافدين وبين ايران • ومع أنهم كانوا أعداء العراق القديم الا أنهم كانوا في أزمان السلم واسطة مهمة للتجارة • وقد وجد لاحد ملوك اللولوبو في جبال «سري بول زوهاب» في هورين شيخان منحوتة بالحجر تضاهي منحوتات نرام – سين ، وفيها كتابة مشوهة يظن ان فيها اسم الملك أو الرئيس « تار – لوني »[١] ، كما خلفوا نقشا آخر في الجبل المؤدي الى القرية المسماة الآن «سري – بول» حيث اسم الملك «آنو – بانينيني» أمير اللولوبو مع صورته وصورة الالهة عشتار[١] ويبدو ان الكوتيين الذين قضوا على السلالة الاكدية في العراق قد فرضوا سيطرتهم أيضا على بلاد عيلام • وبعد طرد الكوتيين من العراق وقيام سلالة أور الثالثة العظيمة وانشائها امبراطورية كبرى دخلت بلاد عيلام ضمن هذه الامبراطورية ، وظلت كذلك أكثر من قرن واحد الى سقوط هذه السلالة التي رأينا ان العيلاميين ساهموا في اسقاطها مع الاموريين حيث نشأت في عيلام سلالة وطنية جديدة ، جاءتنا بعض أخبار ملوكها وجملة وثائق تجارية مدونة باللغة الاكدية ، وتظهر فيها أسماء بعض الآلهة العيلامية ، أشهرها الالهة «شالا» وزوجها «ان شوشناك» كما شاعت عبادة الآلهة البابلية • وقد سبق أن رأينا من تأريخ العراق القديم

---

(١) Ghirshman, **Iran**

كيف ان العيلاميين غزوا العراق في نهاية سلالة أور الثالثة وكيف أسس أحد ملوكهم المسمى «كودر مابك» سلالة لارسه ثم كيف قضى «ريم - سين» العيلامي على سلالة ايسن المعاصرة لها ورأينا أيضا حرب حمورابي لريم - سين واندحار هذا الملك العيلامي ففقد العيلاميون استقلالهم ودخلت عيلام ضمن امبراطورية حمورابي • ولكن استعادت بلاد عيلام استقلالها في نهاية سلالة بابل الاولى وقامت فيها سلالة حاكمة مهمة في العهد الكشي في بلاد بابل ، وقد سبق أن رأينا في كلامنا على تاريخ العراق كيف ان العيلاميين هم الذين قضوا على السلالة الكشية في العراق بقيادة ملكهم «شوترك ناختني» وأخذوا غنائم مهمة أشهرها المسلة التي نقش فيها حمورابي شريعته المشهورة ومسلة نرام - سين ، حيث وجدت مثل هذه الآثار في السوس عاصمة عيلام ، وقد قام منهم في هذا العهد ملوك أقوياء مثل شوترك ناختني المذكور و «كوتر ناختني» و «شلهاك ان شوشناك» وقد ازدهرت عيلام في هذا العهد في عمرانها وثقافتها ، وفي قوتها السياسية حتى ان الملوك العيلاميين كونوا في نهاية العهد الكشي مملكة كبيرة ضمت معظم بلاد ايران • كما نشطت الثقافة الوطنية ، حيث انتشر استعمال اللغة العيلامية بالخط العيلامي • ولكن لم يدم هذا العهد زمنا طويلا اذ حل التدهور في عيلام في بداية الالف الاول ق•م، وقد صادف ذلك قيام ملوك أقوياء في بلاد بابل أشهرهم «نبوخذ نصر» الاول الذي حطم جموع العيلاميين واستولى على عاصمتهم السوس ، وقد أعاد تمثال مردوخ الذي أخذه العيلاميون سابقا • ويحدد لنا هذا العهد فقدان بلاد عيلام لاستقلالها زهاء ثلاثة قرون ، وصادف ذلك تعاظم الآشوريين وسيطرتهم على معظم الشرق الادنى ، وبضمن ذلك بلاد عيلام ، وقد قاسى العيلاميون كثيرا من ضربات الآشوريين الشديدة ، وكانت آخر الضربات القاسمة هي التي وجهها الملك الآشوري «آشور بانيبال» على بلاد عيلام حيث دمرها ودمر العاصمة وأزال الدولة العيلامية من الوجود ودخلت بلاد عيلام من بعد ذلك تحت سيطرة السلالات الايرانية الحاكمة كالماذيين والاخمينيين •

٣٨٨
مجئ الايرانيين الى بلاد ايران والمملكة الماذية

هجرة الايرانيين :ـ

هجرة الايرانيين الى هذه البلاد التى سميت باسم «ايران» جزء من هجرة أقوام كبرى بدأت منذ أزمان أقدم من مجيء الايرانيين الى ايران ، تلك هى الاقوام الهندية ـ الاوربية • وكانت هذه قبائل كثيرة تتكلم باحدى لغات العائلة اللغوية الكبيرة المعروفة باسم اللغات الهندية الاوربية أيضا ، وكانت تعيش فى خلال الالف الثالث فى الاقسام الجنوبية من روسية فى السهوب الواسعة (سهوب أوراسية) ، حيث كانت تعيش على هيئة مجموعات قبلية ، يحكم كل قبيلة رئيس أو ملك ينتخب من الاسر النبيلة ، ويساعده فى الحكم مجلس شورى من الوجهاء ، ومن الرجال المحاربين • ومع ان هذه القبائل كانت تعرف الزراعة الا انها كانت متنقلة وأشبه ما تكون بالبدو ، وكان شغل هؤلاء الاقوام المفضل «مهنة الحرب» والفروسية ، وقد ساعدتهم الخيول والعربات البدائية على الحرب كثيرا •

بدأت هذه القبائل الهندية ـ الاوربية أو الآرية تهاجر من مواطنها قبيل نهاية الالف الثالث ق • م ، وقد سلكت فى هجراتها جهات مختلفة وفى أزمان متعاقبة على هيئة هجرات أو موجات متعاقبة ، ففرع كبير منها اتجه غربا حوالى البحر الاسود وعبر البلقان والبسفور وتوغل فى آسية الصغرى حيث كانت تقطن فيها أقوام آسيوية ، وكان من هذا الفرع الحثيون على ما نوهنا بذلك من قبل ، وذهبت قبائل من هذا الفرع منذ منتصف الالف الثانى ق • م الى بلاد اليونان ، واستوطنت جماعة أخرى من الآريين فى ايطالية وفى اوربة • ومن هجرات الاقوام الهندية الاوربية الكبرى الهجرات التى اتجهت الى الشرق ويصح أن تسمى هذا الفرع من الاقوام الهندية الاوربية باسم الفرع «الهندى ـ الايرانى» فقد اتجهت جملة قبائل شرقا حول قزوين ،

وعبرت جماعات منها القوقاز وانتشرت بعيدا الى عطفة الفرات الكبرى ، وسكن هؤلاء مع الحوريين ، وأقاموا بينهم دولة ميتاني (أنظر كلامنا على الحوريين) ، ولعل القبائل الكردية من هذه الهجرة ، أي من الميتانيين ، ولكن الاكراد الآن يتكلمون باحدى لهجات اللغة الايرانية القديمة ،ومن الفرع الشرقي على ما يرجح الكشيون الذين أسسوا سلالة حاكمة في العراق • ومن الفرع الشرقي أيضا جماعات مهمة اتجهت شرقا أبعد وعبرت ما وراء النهر وسيحون واجتازت مجازات هندوكوش وغزت الهند (انظر كلامنا على الحضارة السندية) • ودخلت القبائل الايرانية الى ايران في مطلع الالف الاول ق • م، اذ الشائع بين معظم الباحثين ان هذا الفرع من القبائل الآرية قد أخذ بالنزوح والتنقل في بلاد ايران في بداية الألف الاول ق • م ، وانه حدثت من جراء ذلك تغييرات أساسية في سكان ايران وتأريخها منذ هذا الزمن بمجيء تلك القبائل اليها • ومن الباحثين[1] من يحدد مهد الآريين بالاقليم المسمى «ايرانويج» (Erānvej) بين سيحون وجيحون في اقليم خوارزم وسمرقند •

ومهما كان الحال فان القبائل الايرانية لم تستقر وتتوطن في بداية دخولها الى بلاد ايران قبل ٩٠٠ ق • م • وأول اشارة تأريخية مهمة الى هذا العهد من مجيء الايرانيين نجدها في كتابات الملك الآشوري شيلمنصر الثالث في عام حكمه السادس عشر والرابع والعشرين (أي عام ٨٤٣ وعام ٨٣٥ ق • م) حيث اتصلت الجيوش الآشورية في حملاتها على زجروس بقبائل ايرانية كبيرة ويذكر لنا هذا الملك اسم قبيلتين مهمتين وهما (Amadai) أو (Mada) أي الماذيون و (Parsua) أو (Parsa) أي فارس،

---

(١) Herzfeld, **Archaeological History of Iran** (1935).

..............., **Iran in the Ancient East** (1941).

وكانت هذه لا تزال فى تنقلها بين بحيرة اورمية ونجد همدان ، وكذلك اتصلت جيوش الملك «شمسى ـ أدد» الخامس[١] و «ادد ـ نرارى» الثالث بالاقوام الايرانية التى كانت بين بحيرة اورمية وهمدان وقزوين • ويصف لنا الملك «تجلاتبليزر» الثالث وخلفاؤه الماذيين بانهم أشداء ، وكانوا قد انتشروا فى حدود هذا الزمن بعيدا الى الجبال التى ورد ذكرها فى المصادر الآشورية باسم جبال «بكنى» (أى جبال حجر اللازورد) وهى جبال «دماوند» كما اشرنا الى ذلك من قبل •

وهكذا فيبدو من هذه الاشارات التأريخية المهمة الواردة فى اخبار الملوك الآشوريين من القرن التاسع ق• م• ان مجىء الايرانيين الى ايران كان فى حدود بداية الالف الاول ، وان القبائل الايرانية الواردة فى هذه الاخبار لم تكن قد استقرت فى القرن التاسع ق• م ، والاستنتاج المهم الثانى ان اكبر هذه القبائل واشهرها الماذيون والفرس وكان مجيئهما الى بلاد ايران فى نفس الزمن تقريبا ، وبالامكان تتبع اتجاهات هاتين القبيلتين الكبيرتين فى بلاد ايران حتى استقرت كل منهما فى الموطن التأريخى الخاص بها • اما القبائل الفارسية فقد اوغلت بعيدا فى اتجاهها جنوبا من نجد همدان وبلغت الاراضى السفلى المتاخمة لكرمنشاه ، وسار الماذيون بأثر الفرس واستقروا فى اقليم همدان واوغلت جماعة منهم الى اصفهان • ويبدو أن اندفاع الفرس ابعد الى الجهة الجنوبية الغربية وعدم مكثهم فى شمال غربى ايران انما كان بسبب ضغط الآشوريين الشديد والاقوام الاخرى الشديدة المجاورة لايران ولا سيما الارمن الذين فرضوا سيطرتهم بعض الوقت على ايران ولا سيما ابان ضعف الدولة الآشورية ، ولكن انعكس الوضع فى عهد تجلاتبليزر الثالث حيث غزا هذه الاقاليم واخضعها • وبعد سقوط الدولة

---

(١) يذكر شمسى ادد الخامس (٨٢٣ ـ ٨١٠ ق • م) انه دحر أحد الزعماء الايرانيين فى الاقليم الكائن شمال اورمية وانه غزا (١٢٠٠) مدينة من مدنه ، والآشوريون يسمون القرى والحصون مدنا

(Luckenbill, **Ancient Records,** I)

العيلامية على ايدى الآشوريين فى زمن آشور بانيبال انفتح الطريق امام توغل الفرس اكثر الى الجهة الجنوبية الغربية ، ويبدو أنهم انحازو الى العيلاميين فى حربهم مع الآشوريين .

الماذيون

استقرت القبائل الماذية ، على ما ذكرنا ، وراء الحاجز الجبلى بين وادى الرافدين وايران ، وهى الجبال الممتدة من خليج فارس تقريبا الى بحيرة «وان» بموازاة وادى الرافدين (سلسلة زجروس) ، وكان موطنهم فى اقليم همدان بمحاذاة بلاد آشور تقريبا ، وقد عاش هؤلاء الماذيون منذ القرن التاسع ق . م وهم خاملون من الناحية السياسية بسبب ضغط الآشوريين وضغط مملكة الارمن ايضا ، ولكنهم كانوا يقتبسون من الآشوريين فنون السلم والحرب ، فاستطاعوا بعد مضى نحو قرنين من الزمان ان يقضوا على الدولة الآشورية (٦١٢ ق٠ م) . وتنحصر اخبارنا القليلة عن الماذيين فى الاشارات الواردة عنهم فى اخبار الملوك الآشوريين الذين سيطروا على بلاد ماذى والحقوها بالامبراطورية الآشورية وكذلك تكون اخبارنا قليلة عن العهد الذى اسسوا فيه مملكة قوية اذ لم تجر تنقيبات وتحريات اثرية مهمة فى موطنهم كما انهم لم يخلفوا لنا سجلات خاصة بهم ، وتقتصر اخبارنا على الاساطير و «الافستا» واخبار هيرودوتس وعلى الاخبار القليلة فى المصادر الآشورية . فمن هذه الاخبار ما يذكره تجلاتبليزر الثالث من انه اخذ من الماذيين ٦٥٫٠٠٠ أسيرا واسكنهم فى منطقة ديالى على طوال حدود بلاد آشور واسكن فى محلهم جماعات من الآراميين . ومن الاخبار الطريفة الخاصة بحروب الآشوريين مع مملكة الارمن ما ورد فى اخبار حروب سرجون الثانى الذى كان الميدان الماذى بارزا فى حروبه فقد قاد حملة كبرى ضد ملك الارمن «روساس» واخضع جملة رؤساء من حلفائه من الماذيين ، من بينهم شخص ورد اسمه بهيئة «دياكو» (Daikku) وان سرجون نفاه فى عام ٧١٥ الى حماة فى سورية . ولا يعلم بوجه التأكيد هل هذا هو نفس الشخص الذى

تقول عنه المآثر انه اسس الامبراطورية الماذية(١) • وسمى الآشوريون «اكبتانا» ، عاصمة الماذيين ، باسم «بيت دياكو» • ووجد الماذيون فى موطنهم الجديد المعادن المهمة كالنحاس والحديد والرصاص والذهب والفضة والرخام والاحجار الكريمة • وعاشوا حياة زراعية • ويروى لنا هيرودوتس رواية ممتعة عن نشوء اول ملك على الماذيين وهو «ديوسيس»(١) فيقول ان الماذيين كانوا يعيشون فى قرى وليس لديهم حكومة مركزية ، وكان يعيش فى أحدى القرى شخص اسمه «ديوسيس» اشتهر برجاحة العقل والعفة والنزاهة فى الاحكام مما جعل الناس يلجأون فى الاحتكام اليه من القرى المجاورة ، ولما رأى ازدحام الناس عليه امتنع عن الاستمرار قائلا انه لا يسعه أن يصرف كل اوقاته فى تسوية خصومات الناس فيهمل شؤونه الخاصة وعند ذلك عمت الفوضى وزال العدل من بين الناس ، فاجتمع الماذيون وتكلم المتكلمون منهم (ولعلهم من اصدقاء ديوسيس) وعرضوا عليه ان ينصبوه ملكا عليهم ، فجرى انتخاب واحرز الاكثرية «ديوسيس» • ولما تم له ذلك طلب من الناس ان يبنوا له قصرا ، وبعد حين سلك طريق الاستبداد ، ولعل ذلك من جراء تقليده للملوك الآشوريين • وقد سبق ان نوهنا بان المآثر تنسب الى هذا الملك تأسيس عاصمة الماذيين المشهورة «اكبتانا» (والمرجح انها همدان الحالية) ، ويعنى اسمها (Ecbatana) «ملتقى الطرق الكثيرة» • وموضع اكبتانا فى وادى خصب نظر وكان يجمل العاصمة قصر ملكى تبلغ مساحته نحو ٢/٣ الميل (بحسب رواية المؤرخ بوليبيوس)(٢) ، وبقيت المدينة عامرة الى العهد الاخمينى والعهد السلوقى ، وقد نهبت ابان فتح الاسكندر لبلاد ايران ولم

---

(١) ورد ذكره فى تأريخ هيرودوتس بهيئة «ديوسيس» (Deioces) (Herodotus, 1, 96 ff.)

(٢) بوليبيوس مؤرخ من العهد السلوقى (٢٠٤–١٢٢ ق • م) ، فيكون وصفه للمدينة من بعد تأسيسها بزهاء ٤٥٠ عاما على ما يرجح (Polybius, Bk. X, 27)

أما وصف هيرودوتس فهو أقرب الى الاساطير • راجع ايضا ما ورد عن اكبتانا فى التوراة (سفر عزرا ٥ : ١ – ٢)

يبق من خرائبها الآن الشيء الكثير الا ان اطلالها واسعة ، وتقوم المدينة الحديثة (همدان) فوقها ، وكثيرا ما يجد الناس في همدان وثائق مكتوبة في خرائب المدينة من عهد السلالة الاخمينية ، ولا سيما من عهد دارا[١] .

ومن ملوك الماذيين المعروفين «فراورطيس» (Phraortes) الذي يرجح انه حكم في حدود (٦٥٥ ق.م – ٦٣٣ ق.م) وانه خلف «ديوسيس» الذي حكم في حدود ٧٠٨ ق.م وقد جرأ «فراورطيس» على الهجوم على بلاد آشور ، ولكنه دحر في عام ٦٥٣ ق.م[٢] . وكان الفرس تابعين الى الماذيين ولكن بلاد فارس استقلت من بعد هذه الحادثة (في حدود ٦٥١ ق.م) ، حيث انظم احد ملوكهم كورش الاول (وهو غير كورش الثاني الاكبر) الى العيلاميين في ارسال المدد الى «شمش – شوم – اوكن» حاكم بابل واخي «آشور بانيبال» في الحرب التي دارت بين الاخوين . ولكن غير كورش سياسته لما ادرك قوة بلاد آشور الهائلة ، فاظهر خضوعه وارسل جزية مع ابنه الى نينوى لكسب الصداقة الآشورية وضمان استقلال الفرس .

الاسكيثيون والكمريون :–

ومن الحوادث الخطيرة في تأريخ الشرق الادنى في هذا العهد مما كان لها اثر مباشر في بلاد ايران والماذيين بوجه خاص تنقل الاقوام الشبه همجية وهجراتهم الى حدود ايران ، وهؤلاء هم الاسكيثيون الذين سبق ان ذكرناهم ومعهم «الكميريون» (Cimmerians) وهم ايضا من القبائل الهندية الاوربية وقد عبروا مع الاسكيثيين القوقاز في هجرة جديدة في أواخر القرن الثامن مسببين اضطرابات كبرى في الانحاء الشمالية الغربية من ايران تلك الانحاء التي قاست كثيرا من حروب الاشوريين والارمن والماذيين . كما سبب هؤلاء الاقوام اضطرابا شديدا في آسية الصغرى وسورية وفلسطين، وكانت هجرتهم سريعة وعنيفة، وكانوا فرسانا محاربين سريعي

---

(١) Herzfeld, **Arch. History of Iran,** 27 — 28.

(٢) Olmstead, **History of Assyria**

الحركة ، وقد اندفعوا كحمم البراكين من السفوح الجنوبية من القوقاز وسبق ان أشرنا الى اخبار هيرودوتس وما سببوه من الدمار . وورد ذكرهم في المصادر الآشورية باسم (Gimirrai) اى الكميريون[١] والاسكيثيون باسم (Ishkuzai) ، وهما اسمان مذكوران في التوراة ايضا . ويروي هيرودوتس ان الاسكيثيين قد أزاحوا الكميريين ، ولكن الواقع التاريخي خلاف ذلك ، لان هذين القومين كانا متحدين تقريبا ، كما ان لغتيهما متطابقتان تقريبا ، وعاشوا على الغزو والنهب ، وقد قاست مملكة الارمن منهم في عهد الملك الآشوري «سرجون» حتى ان الملك الارمني «روساس» الاول انتحر من جراء تدميرهم لمملكته[٢] . وقد توطن الكميريون في السواحل الجنوبية من البحر الاسود قرب مصب نهر الهليس (قزل ايرمق) ، ومن هذا الموطن كانوا يندفعون في غزوهم وتدميرهم اقاليم آسية الصغرى ، وهم الذين حطموا الدولة الفريجية ، حتى ان آخر ملوكها ميداس مات منتحرا . ثم حاربهم الملك الآشوري «آشور بانيبال» وهزمهم في المجازات الجبلية الصعبة في كيليكية ، فانتشرت فلولهم واندمجوا مع الاسكيثيين الذين استقروا نوعا ما في الجهات الجنوبية الشرقية من بحيرة اورمية .

ويبدو ان استيطان الاسكيثيين حول بحيرة اورمية لم يعرقل قيام الدولة الماذية في مبدأ الامر ، فقد تمكن الملك الماذي «فراورطيس» الذي مر ذكره سابقا من توحيد القبائل الماذية في مملكة واحدة وسع من حدودها كثيرا ، وقد حالف الكميريين وهادن الاسكيثيين ومن بعدها هجم على المملكة الآشورية ، كما ذكرنا من قبل ، ولكن الاسكيثيين نكثوا عهد حيادهم وكانوا حلفاء للآشوريين ، فهاجموه من المؤخرة ، وفقد حياته (٦٥٣ ق.م) ويروي هيرودوتس ان الماذيين بقوا تحت نير الاسكيثيين زهاء **٢٨** عاما **(٦٥٣–٦٢٥ ق.م)**

---

(١) ويرجح كثيرا ان اسم القرم وشبه جزيرة القرم مأخوذ من اسم هؤلاء الاقوام .

(Ghirshman, **Iran**, 97)

ووسع الاسكيثيون من هجماتهم غربا حتى انهم خانوا حلفهم مع الآشوريين وانقضوا على تخوم المملكة الآشورية والتحق بهم فلول الفرسان الكميريين الذين دحرهم آشور بانيبال ، على ما بينا من قبل ، وهجموا على آسـيـة الصغرى وشمالي سورية وفينقية واحدثوا التدمير فيهـا • وقبل أن ننهي كلامنا على هؤلاء الاسكيثيين من ناحية علاقتهم ببلاد ايران في هذا العهد ننوه هنا بالمجموعات الاثرية التي قوامها أدوات حربيـة بالدرجة الاولى مصنوعة من البرونز ، وقد اكتسبت شهرة خاصة في المتاحف العالميـة (ويوجد في المتحف العراقي مجموعة منها) حيث تعرف باسم «برونزيات لورستان» فقد وجد الفلاحون مجموعات من الخناجر والسيوف ورؤوس السهام والقوس في منطقة كرمنشاه (أي شمالي لورستان)[١] • ان معظم هذه الادوات مزخرفة باطرزة فنية بعضها شبيه بالاطرزة الخاصة بحضارة وادي الرافدين ، وقد وجد أكثرها في مقابر لم ينقب فيها تنقيبا علميـا ، وأكثرها خفيفة النقل مما يحمله عادة الفرسان المحاربون المتنقلون ، حيث لا أثر لوجود مستوطنات قرب تلك المقـابر • فلمن تعود هذه الادوات ؟ الجواب على ذلك بموجب أحدث الآراء العلمية انها تخص جماعات من الفرسان الغزاة المتنقلين ، وان معظمها يرجع في زمنه الى القـرن الثامن أو السابع ق•م• وهي من آثار الاسكيثيين والكميريين في ايران ويؤيد ذلك الاكتشافات الاثرية الجديدة التي وضحت لنا عهد الغزوات الاسكيثية في ايران وعلاقتهم بالدولة المادية ، ومن هذه الاكتشافات المهمة ما وجـده الفلاحون بالصدفة في الموضع المسمى «سـكيز» الى الجنوب من بحيرة اورمية ، حيث عثروا على كنز كبير يحتوي على أسلحة وحلي مختلفـة المعادن ، بعضها ذهبية ، ومصنوعة صنعا دقيقا فيه أثر من الصناعة الآشورية ، ولعلها كنز ملكي يعود الى الاسكيثيين •

---

(١) انظر أحدث المراجع حول الموضوع في :ـ

(1) Ghirshman, **Iran,** 99 ff.

(2) H. Frankfort, **History of Art and Architecture in the Ancient Orient** 1954).

وبعد هـذه الملاحظـات الضرورية نعود فنوجز أحوال الماذيين فنقول انه جاء الى عرش الماذيين من بعد «فراورطيس» السابق الذكر ابنه المسمى «كياخسار» (Uvakshatra) (Cyaxares) ، وكان هذا أعظم ملوك الماذيين (٦٣٣ ـ ٥٨٤ ق٠م) ، فبعد أن ظل تابعا للاسكيثيين زمنا قصيرا تمكن من طردهم[١] كما فرض سيطرته على الفرس • ووجه همه من بعد ذلك للهجوم على الدولة الآشورية بعد الهجوم الفاشل الذى شنه أبوه • وقد تحالف مع نبوبولاسر الكلدانى ويبدو أنه قبل هذا التحالف هجم على نينوى فى عام ٦١٥ ، ولكنها قاومت مقاومة عنيفة فتركها ووجه هجومه على مدينة آشور ، وتمت فى أثناء ذلك معاهدة الحلف مع «نبو بولاسر» التى تزوج بموجبها ابنه نبوخذ نصر بابنة الملك الماذى المسماة «اميتيس» • واستؤنف الهجوم على نينوى التى سقطت فى عام ٦١٢ ق٠م٠ وتحطم الجيش الآشورى بقيادة آشوراوبالط فى حران عام ٦١٠ ق٠م٠ على مارأينا من قبل ، وبذلك أصبحت الدولة الماذية رابع دولة كبرى فى الشرق من بعد تحطيم الدولة الآشورية ، أما هذه الممالك فهى مملكة مصر ، والمملكة البابلية الحديثة وليدية ، وقد اصبحت المملكة الماذية فى عهد هـذا الملك امبراطورية تشمل بلاد آشور وماذى وفارس ووسعها الى تخوم آسية الصغرى • ولكن لم تدم هذه الامبراطورية زمنا طويلا من بعد وفاة «كياخسار» ، وقد خلفه فى الحكم ابنه المسمى «استياجز»[٢] الذى كان آخر ملوك الماذيين حيث انتقل الحكم فى عهده الى الفرس على ما سنبين ذلك فى كلامنا على الفرس الاخمينيين ، ولم يشتهر هذا الملك الماذى الاخير الا بالتبذير والاسراف ، كما ترك الماذيون الاشداء المتقشفون فى عهده حياة الزهد والبطولة ، فانجرف نبلاؤهم أيضا فى حياة الاسراف وهكذا كانت

---

(١) ورد ذكره فى المصادر البابلية بلقب «اومان ـ مندا» لتغلبه على الاسكيثيين •

(٢) اسمه بالايرانية القديمة «ارشتيويجا» (Arshtivaiga) أى «رامى الرمح» •

حياة المملكة الماذية قصيرة الامد فلم تســاهم كثيرا فى تاريخ الحضارات البشرية ، ولكن الماذيين أثروا فى الفرس ، ولعل الفرس الاخمينيين أخذوا منهم طراز العمارة الخاص بالعمد ، كما يحتمل كثيرا أخذهم من مآثرهم وشرائعهم ودياناتهم • هذا ولا نعرف اشياء مهمة عن تنظيم الدولة الماذية ، ولعلها اقتبست من تنظيم الدولة الآشورية • وسنتطرق الى كيفيـة تغلب كورش الثانى على الملك الماذى «استياجز» •

الفصل الرابع والثلاثون

الفرس الاخمينيون ـ الامبراطورية الاخمينية والاسكندر والعهد السلوقي

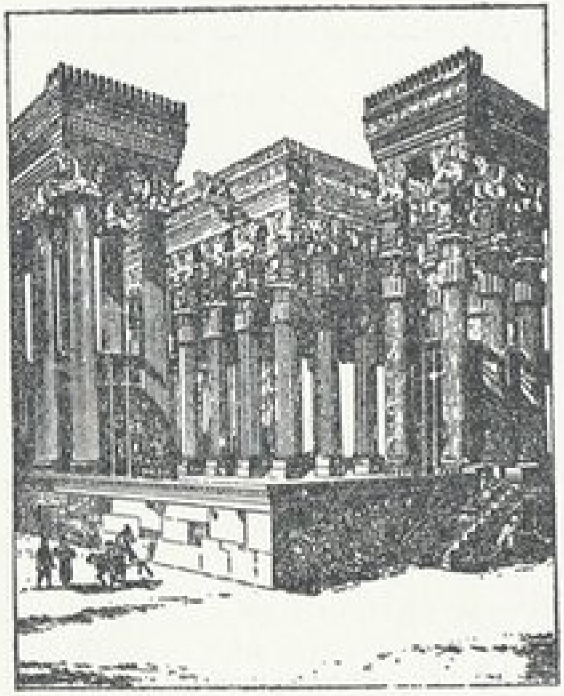
السلالة الاخمينية ونشوء الدولة الاخمينية :ـ

لقد تطرقنا فيما مر بنا من كلامنا على هجرة الايرانيين ومجيئهم الى بلاد ايران الى أصل الفرس وعلاقتهم بالماذيين حيث قلنا ان أشهر القبائل الايرانية التى استوطنت ايران منذ الالف الاول ق٠م٠ هما القبيلتان الماذية والفارسية وان زمن استيطانهما كان واحدا تقريبا ،ورأينا ايضا أين كان موطن الماذيين فى بلاد ايران ، وموطن القبيلة الفارسية حيث قلنا انها استقرت فى ذلك الجزء من ايران الذى عرف باسم بلاد فارس أى الجزء الجنوبى الغربى من بلاد ايران المحادد لخليج فارس ، حيث صار مركز الامبراطورية التى كونها كورش واشتهر هذا الموطن بمدنه الشهيرة مثل برسيبوليس وبزرگاده ٠ وكان الفرس فى وطنهم هذا يجاورون العيلاميين فى سفوح جبال البختيارية قرب كارون ، وكانت عيلام ضعيفة فلم تستطع التدخل فى استيطان القبائل الفارسية فى جزء من مملكتها ، ولا يمكننا البت هل اعترف الفرس بسلطان العيلاميين ، ومهما كان الامر فانهم أقاموا فى هذا الاقليم مملكتهم الصغيرة ، وظلت تتدرج فى النمو فتارة تكون خاضعة كولاية للماذيين وأخرى مستقلة ٠ وساعد انشغال العيلاميين بدفاعهم أزاء الهجمات الآشورية المميتة وبعدهم نوعا ما عن مركز الدولة الماذية على تدرج كيان الفرس السياسى٠ وقبل أن يظهر فيهم الملك كورش الاكبر (فى حدود ٥٥٨ ق٠م٠) بأكثر من قرن واحد ، حكم الفرس فى موطنهم بعض الملوك أو الرؤساء وكانوا اما مستقلين أو تابعين للماذيين ٠ فأول هؤلاء الملك المسمى فى تأريخ هيرودوتس

«تسبيس» (Teispes) وبالفارسية (Chishpish) (٦٧٥ – ٦٤٠ ق ٠ م) ابن شخص اسمه «هاخمانيش» ، وهو رأس السلالة الاخمينية الحاكمة ٠ وقد لقب نفسه بملك «انشان» ، ويروى هيرودوتس ان هذا الملك مع استقلاله عن العيلاميين اضطر على الاعتراف (عام ٦٧٠ ق ٠ م) بسيادة الماذيين فى عهد ملكهم «فراورطيس» الذى سبق ان رأيناه يقوم بهجوم فاشل على بلاد آشور ، مات من جرائه (٦٥٣ ق ٠ م) ٠ وبموت هذا وبغزو الاسكيثيين لبلاد ماذى ، على ما رأينا من قبل ، تقوى مركز الملك الفارسى ، وبعد موته قسمت مملكته بين ولديه «أريارامنيس» (Ariaramnes) (٦٤٠ – ٥٩٠ ق ٠ م) الذى لقب نفسه «الملك العظيم ، ملك الملوك ملك بلاد فرساء»[١] ، والابن الثانى كورش الاول (٦٤٠ – ٦٠٠ ق ٠ م) (Kurash) ٠ ونسمع من أخبار آشور بانيبال فى حروبه مع العيلاميين التى دمر بهـا مملكتهم اسـم «كوراش» (وهو كورش المذكور) وانه سلم ابنه الاكبر الى الدولة الآشورية المنتصرة رمز ولائه لها ٠ ولكن لم يتمتع هذان الملكان الاخوان باستقلالهما فى مملكتهما زمنا طويلا اذ تبوأ عرش المملكة الماذية «كياخسار» الذى مر بنا فى كلامنا على الدولة الماذية والذى رأيناه يحطم الدولة الآشورية ، ففرض السيادة على مملكة الفرس ٠ وصار ملوكها تابعين للملك الماذى ٠ وقد خلف فى فارس الملك الذى ذكرناه باسم «اريارامنيس» ابنه المسمى «ارسامیس» (Arsames) الذى وجد له أيضا لوح ذهبى مكتوب فى همدان (اكبتانا القديمة) ٠ ولم يحكم هذا زمنا طويلا حيث اضطره على ما يرجح قمبيز الاول بن كورش الاول على التخلى عن الملك ، ولعل ذلك تم بموافقة الماذيين ٠ وقد تزوج قمبيز هـذا من ابنة الملك الماذى «استياجز» الذى خلف «كياخسار»

---

(١) اكتشفت بطريق الصدفة فى همدان لوحة من الذهب منقوشة بالخط المسمارى الاخمينى وباللغة الفارسية القديمة بالقاب هذا الملك ، ولعل هذه الوثيقة (ان صحت اصالتها) أقدم مآثر السلالة الاخمينية المدونة ، حيث بدأ قبيل زمن هذا الملك تدوين اللغة الوطنية الفارسية بكتابة مسمارية خاصة بالفرس الاخمينيين ٠



صورة تبين صفوف العمد الفخمة فى القصر الملكى فى برسيبوليس
كما كانت عليه فى الاصل

وكان قمبيز تابعا لاستياجز . والذى لا شك فيه انهذا الزواج عظم من مكانة السلالة الاخمينية . وجاء من هذا الزواج ابن اشتهر فى تاريخ الفرس ، فقد كان هذا الولد «كورش» الاكبر الذى أسس الامبراطورية الاخمينية .

كورش الاكبر (٥٥٨ ـ ٥٣٠ ق . م)

استغل كورش حفيد استياجز من ابنته مركزه فأخذ يقوى نفسه ، واسس عاصمة جديدة هى «بزرگاده» التى سنذكرها فى موضع آخر ، واخذ يدبر امر انفصاله واستقلاله عن الماذيين وكان يحكم فى بلاد بابل الملك «نبونهيد» الذى اعد الخطط للاستيلاء على بعض الاقاليم التابعة الى مملكة ماذى ، ولا سيما حران ، فدارت مفاوضات سرية بين نبونهيد وبين كورش ليكونا حليفين ، وكان الحلف لا شك موجها ضد «استياجز» الذى شم رائحة

المؤامرة من تابعه وقريبه فاستدعاه الى العاصمة «اكبتانا» ، فرفض كورش الامتثال بالامر ، فلم ير الملك الماذى بدا من شن الحرب على كورش ، ويروى لنا هيرودوتس رواية ممتعة عن هذه الحرب فيبدو ان استياجز عين كبير قواده «هرباخوس» لحرب كورش ، ولكن هذا انحاز الى جانب كورش بناء على خطة واتفاق مدبرين بسبب الظلم الفادح الذي اوقعه استياجز بقائده سابقا ثم قاد استياجز جيشا آخر بنفسه لما تقدم كورش من العاصمة اكبتانا لاخذها فدارت معركة مريرة دحر فيها جيش الملك الماذى ووقع اسيرا بيد كورش ، ولكن هـذا احسن معاملته ، بسبب صلة القربى معه • وهكذا صفا الجو لكورش ، فاتخذ «اكبتانا» عاصمة المملكة المتحدة ، وفتح عهـدا جديدا في تاريخ ايران حيث اتحد الفرس والماذيون ، ولم يمض طويل عهد على كورش حتى اسس امبراطورية عظمى على ما سنوجزه بعد قليل •

وقبل أن نفعل ذلك نروى الرواية الطريفة التى ساقها هيرودوتس عن علاقة كورش باستياجز ونهاية حكم هذا الملك بسبب طغيانه وظلمه ، ونحن نرويها ملخصة على علاتها لطرافتها ، ولانها نموذج ممثل لطريقة هيرودوتس فى عرض جانب من تأريخه(١) •

قرر الملك استياجز الا يزوج ابنته (مندانه) من احد الامراء الماذيين لحلم رآه (وفحواه انه رأى مجرى ماء يخرج من ابنته ويغمر عاصمته وجميع آسية فعبره له الكهنة المجوس بان ولدا من ابنته سيأخذ منه الملك) ، فزوجها الى رجل من الاسر الشريفة في فارس اسمه قمبيز ، اذ لم يكن فى ذلك خطر لان الفرس كانوا دون الماذيين مرتبة • ولكن استياجز رأى حلما آخر كأن كرمة نمت من رحم ابنته وظللت جميع آسية ، فارسل خلف ابنته واحضرها الى عاصمته وكانت لا تزال حاملا ، ووضع عليها حراسة شديدة عين عليها «هرباخوس» احد نبلاء مملكته ، آمرا اياه ان يقضى على طفل ابنته• ولما جاء الطفل رق له «هرباخوس» وتهيب من قتل طفل برىء ، وخاف ايضا

---

(1) Herodotus, I 107 ff. (١)

من انتقام ابنة الملك لو حكمت من بعد أبيها الذى لم يكن له ولد • فاودع الطفـــل الى احد رعاته ليتولى قتله فلا يقع عليه وزر ولا تأنيب • ولمـــا اخذ الراعى الطفل ، وقد عرف حقيقته ، الى زوجته رقت له وتوسلت بزوجها أن يبقى عليه وان يأخذ بدلا منه ولدها الرضيع الذى ولد ميتا فيضعه فى مكان جبلى موحش ويدعى انه حفيد الملك • ففعل هذا بموجب ذلك وعاد بعد بضعة ايام الى «هرباخوس» واخبره بتنفيذ اوامره ، فارســـل هذا جماعة جلبت جثة الطفل ودفن دفنا رسميا باعتبـــاره ابن بنت الملك • وهكذا سلم كورش (وكان هذا هو اسمه الذى سماه به الراعى) وعاش فى بيت الراعى ، ولما بلغ عشر سنين اكتشف جده حقيقته بصدفة عجيبة طريفة ، ذلك ان اتراب كورش من الصبيـــان انتخبوه فى اللعب ملكا عليهم فاخذ يحكمهم ويوزع الاوامر عليهم فاطاعوه الا صبيا هو ابن احد الاشراف المسمى «ارتمباريس» فعاقبه كورش بجلده ، فشكى ذلك لابيه الذى اغتاظ جدا وبلغ الملك بذلك فلما احضر الصبى كورش بحضرة الملك وسأل عن فعلته اجاب جوابا ينم عن رجاحة عقله وكرم محتده (كما يقول هيرودوتس) ولاحظ استياجز على ملامح الصبى شبها به وبامه وكان سنه ينطبق مع سن حفيده الذى حكم عليه بالموت ، وبعد استجواب «هرباخوس» اعترف بانه لم يقتل الطفل بيده وانما سلمه الى احد رعاته الذى اعترف بدوره بواقع الحال وعندها لم يبد الملك غضبه وانما اظهر السرور لنجاة الطفل وامر هرباخوس بان يحضر ابنه ليشارك كورش الصبى فى لعبه ، واولم الملك وليمة دعى اليها وجهاء مملكته احتفالا بهذه المناسبة ، فلما جلسوا الى الطعام وضع الى جانب هرباخوس سفط مغطى وبعد ان اكل من اللحم الذى امامه وشبع امره الملك ان يكشف عن السفط فاذا به يشاهد منظرا تقشعر له الابدان ، اذ وجد فيه رأس ابنه ويديه ورجليه مطبوخة بهيئة طعام فادرك «هرباخوس» التعس انه اكل من لحم ابنه ، فلم يجزع وتجلد حتى انه لما ســـأله الملك هل عرف أى نوع من اللحوم قد اكل اجابه انه يعرف ذلك حقا • وبعدها استفسر الملك من الكهنة عما اذا كان لا يزال حفيـــده الطفل خطرا عليه فأجابوه بزوال الخطر ،

فسر الملك وارسل الصبي الى امه وابيه في فارس فسرا به بعد ان كانا يحسبانه من الاموات • فنما كورش وبلغ مبلغ الرجال وصار احزم واشجع رجال قومه اما هرباخوس فقد اضمر حقدا قاتلا للملك فعزم على الانتقام واستغل تذمر الماذيين من ظلم «استياجز» وطموح كورش في اخذ الاستقلال لعشيرته عن سيادة الماذيين ، واخذ يحيك الدسائس والمؤامرات واتصل بكورش سرا مخبرا اياه بان نبلاء الماذيين معه • ولما ارسل استياجز الجيش لتأديب كورش وكان قائد الجيش «هرباخوس» نفسه انحاز هذا بجيشه الى جانب كورش ثم حل به المصير الذي ذكرناه سابقا ، وبذلك اصبح كورش في عام ٥٥٠ ملكا على مملكة ماذي وفارس المتحدة •

لقد كون كورش من بعـــد ضمه بلاد ماذي في زمن جيل واحـــد امبراطورية معظمة شملت معظم العالم القديم المعروف ، ممتدة من الهند الى البلاد الايجية والى البحر العربي وبفتح قمبيز لمصر وبفتوح دارا اتسعت هذه الامبراطورية فكانت اعظم امبراطورية عرفها العـــالم القديم ، وبعد توطيد كورش لمملكته في فارس وسع حدودها الى آســـية الصغرى فقضى على مملكة ليدية ، واستولى على عاصمتها «ساردبس» عام (٥٤٧ ـ ٥٤٦ ق٠ م) في عهد ملكها قارون (كروسوس) على ما رأينا في كلامنا على المملكة الليدية وباستيلائه على مملكة ماذي ورث حقها في الاجزاء التابعة لها في بلاد ما بين النهرين ، كما ان توسع آخر ملوك البابليين «نبونهيد» في سورية واستيلائه على حران جعل نقض الحلف بين كورش وبين الملك البابلي أمرا لا بد منه ، ولذلك صمم كورش على تصفية الحساب مع بابل ، وبعد غزوات قام بها في الانحاء الشرقية من ايران ضد القبائل الايرانية وصل بها الى بلاد الصغد وسيحون وجيحون عاد فوجه حملته على بلاد بابل ، وفتح بابل نفسها (في عام ٥٣٨) على ما بينا في كلامنا على العراق القديم في الجزء الاول ، وبذلك أنهى كورش آخر الممالك السامية وانهى حكم الساميين في الشرق القديم الذي سادوا فيه عدة آلاف من السنين • واشتهر كورش بتساهله وسياسته

الحكيمة ومقدرته الفذة في الادارة والتنظيم فكان في الواقع من أعاظم الملوك في التأريخ ، وقد اشتهر بكرمه وتساهله ازاء حتى أعدائه الذين حاربوه ، ونستشهد من ذلك بحادثة قارون الطريفة التي رويناها عن هيرودوتس في معاملته لقارون ومعاملته للبلدان المفتوحة ، والمثال على ذلك بلاد بابل ، فكان معتدلا في الفتح متحاشيا لتخريب المدن وذبح السكان • وقد مات في احدى غزواته البعيدة ضد قبائل «الساجا» البربرية الشديدة عبر سيحون وجيحون •

خلف كورش في الحكم ابنه الاكبر «قمبيز» (٥٣٠ – ٥٢٢ ق • م) ، وكان هذا قاسيا غريب الاطوار ، وقد أشركه أبوه في الحكم في خلال الثماني سنوات الاخيرة من حكمه فكان يلقب بملك بابل ، وكان لكورش ابن ثان هو «بارديا» (Bardia) [١] أودع اليه أبوه ادارة الاقاليم الشرقية من الامبراطورية • ولما تبوأ قمبيز العرش بدأت الاضطرابات الناشئة عن المؤامرات التي يرجح اشتراك «بارديا» فيها فاتهمه أخوه ، ودبر أمر اغتياله ، مما جعل الاغريق يلقبونه بالطاغية • ومع ان قمبيز اشتهر بغزو مصر الا ان الواقع أن أباه هو الذي وضع خطة الفتح ووكل أمر تهيئة الحملة الى ابنه في حياته ، فبعد أن وطد الامور داخل مملكته قاد الحملة الى وادي النيل • فالتجأ آخر فراعنة مصر المسمى «اماسيس» الى عقد حلف مع أحد الحكام الطغاة في الجزر اليونانية وهو «بوليقراط» القوي صاحب جزيرة «ساموس» ، ولكن هذا تخلى عنه لما كان الجيش الفارسي في غزة ، والتحق أعظم قائد يوناني كان في خدمة الفرعون بجيش الفرس مفشيا لهم أسرار الدفاع المصرية • نفذ عبر قمبيز صحراء سيناء بمساعدة البدو ووصل الى مدينة رفح (Pelusium) فلاقى هناك «بسماتيك» الثالث الذي خلف أباه «اماسيس» ، حيث مات لحسن حظه قبل وصول الجيش الفارسي • وكان مع الجيش المصري جيش من الاغريق المرتزقة ، وبعد معركة شديدة تقهقر الجيش

---

(١) واسمه في المصادر اليونانية «سميرديس» (Smerdis)

المصرى الى «منفس» ، فسقطت المدينة بيد الفرس ، ووقع الفرعون أسيرا فأرسل الى «سوسه» • وسلك قمبيز فى مبدأ الامر الاعتدال فاحترم الآلهة المصرية ، وعين موظفا مصريا كبيرا على ادارة القطر ، وأمر باجراء بعض الاصلاحات • وأعد قمبيز من بعد ذلك الخطط لثلاث حملات حربية اخرى لمد السلطان الفرسى على قرطاجة التى كانت تسيطر على سواحل البحر المتوسط الغربية ، وأخرى على واحة «امون» الموغلة فى بادية طرابلس للسيطرة على الطريق المؤدى الى ليبة ، والثالثة ضد الحبشة • أما الحملة المعدة على قرطاجة فلم تنفذ بسبب رفض الفينيقيين بالسماح لاسطولهم فى غزو أقربائهم القرطاجيين • وتروى لنا المصادر اليونانية ان جيشا قوامه (٥٠٫٠٠٠) أخفق فى احراز نتيجة مهمة فى واحة امون بسبب الزوابع الرملية المخيفة ، ومع ذلك فقد خضع اغريق ليبية وقورينا وبرقة الى سلطان الفرس • أما حملة الحبشة وقد قادها الملك بنفسه فلا تعلم نتيجتها بوجه التأكيد ، ولكن المصادر الاغريقية ، ولعلها متأثرة بالروايات المصرية[١] ، تقول انها أخفقت ، وان الجيش قاسى من نقص المؤن وفقد الكثير من قواه فى أثناء رجوعه • ولعل الانباء السيئة عن الثورة التى قامت فى ايران فى أثناء غياب قمبيز قد وافته وهو فى أثناء تقهقره الى مصر فاضطر على الاسراع وأخذ طريق مختصر عبر الصحراء مما سبب الكارثة فى جيشه ومهما كان الحال فان قمبيز أول فاتح توغل فى جميع مصر ، وانه عين لحكمها ثلاث حاميات • وهناك روايات متضاربة عن بقاء قمبيز القصير فى «منفس» بعد رجوعه من الحملة الحبشية • فيؤخذ من المصادر الاغريقية ان قمبيز تخلى عن سياسة التساهل الدينى التى تحلى بها أبوه ، فحقر ديانة المصريين وخرب معابدهم وقتل العجل المقدس ابيس فى منفس ، وهذه أعمال طيش وتهور بالنسبة الى سياسى ازاء المصريين المشهورين بتمسكهم فى

---

(١) لقد اعتمدنا فى تلخيص هذه الحوادث على المرجع السهل المتناول
Ghirshman, **Iran**, 136 ff.

آلهتهم ولذلك فسرت المصادر المصرية سلوك قمبيز بنوع من الجنة واضطراب العقل • وفيما هو فى طريق عودته الى بلاده أكدت له الانباء وهو فى فلسطين أنباء الثورة التى قام بها الدعى «كوماتا» (Gaumata) المجوسى الذى كان يشبه أخاه «بارديا» أو «سميرديس» الذى قتله ، فادعى هذا بالعرش واعلن نفسه ملكا (عام ٥٢٢ ق • م) • فقبلت الولايات جميعا تقريبا هذا الملك الدعى ، الذى دارى الجماهير بأن أعفاهم من الضرائب ثلاث سنوات ولا يعلم مصير قمبيز فى أثناء عودته ، هل انتحر عمدا أو انه جرح نفسه فى أثناء نوبة الصرع التى انتابته ولا يعلم أين مات فى بابل أو فى دمشق أو فى اكبتانا • وعلى كل فقد رجع الجيش وظل مواليا للسلالة الاخمينية حيث انحاز الى النبلاء السبعة الذين تآمروا على الدعى بزعامة «دارا» بن «هستابس» (Hystaspes) ، والى ولاية بلاد الفرثيين ولعل هؤلاء النبلاء اتفقوا منذ البداية على تنصيب دارا ملكا اذا نجحوا ولكن المأثر (كما جاءت فى هيرودوتس) تقول ان هؤلاء الثائرين اتفقوا على تنصيب أحدهم ملكا عليهم بطريق اقتراع طريف هو تتويج من يصيح فرسه أول الكل من بعيد غياب الشمس ، فكان أول الافراس فرس دارا •

دارا الاول (٥٢٢ ـ ٤٨٦ ق • م)

لقد كان دارا سريعا قديرا فى التغلب على الدعى ، فقد استطاع أن يقضى عليه ولم يمض على موت قمبيز أكثر من شهرين ، وقد أسر «كوماتا» وقتل • ومع ذلك فلم يستتب الأمر الى دارا الا من بعد عامين قضاهما فى اخماد الثورات التى نشبت فى أنحاء الامبراطورية للانسلاخ من السيطرة الفارسية وكان على دارا فى الواقع أن يعيد فتح ولايات الامبراطورية من جديد بالاضافة الى تغلبه على الثورات الداخلية • وبعد عناء اعيدت الولايات ومنها مصر وبلاد سورية وليدية وبلاد السوس وماذى وارمينية ، وبلاد آشور وبلاد بابل • وكانت ثورة بابل شديدة وكلف اخضاع الولاية ثمنا غاليا فقد ظهر شخص اسمه «ندنتو ـ بيل» ادعى انه متحدر من نبونهيد وأعلن نفسه

ملكا على بلاد بابل باسم نبوخذنصر الثالث[١] ، ولاقى الجيش مصاعب فى الاقتراب من العاصمة ، حيث وضع هذا الملك جيشا قويا واسطولا على ضفة دجلة الغربى ، وبعد هجوم مباغت عبر دارا النهر ثم وصل الى بابل وحاصرها ، وفيما كان فى الحصار بلغته الانباء بثورة ثانية فى بلاد السوس ، فاضطر الى ارسال جزء من جيشه المحاصر لبابل لاخماد هذه الثورة • وقد قاومت المدينة ، ويبالغ لنا هيرودتس بمدة حصارها حيث يقول انها قاومت عامين ، ولكن ذلك مبالغة ، وتشير ألواح الطين المؤرخة بحكم الثائر البابلى الى ان المدينة استسلمت فى شهره الحادى عشر من حكمه (كانون الثانى - شباط ٥٢١ ق • م) حيث اعترف بدارا ملكا على بابل ، وبقى دارا بضعة أشهر فى بابل قتل فيها «ندنتوبيل» ويروى انه صلب زهاء ثلاثة آلاف رجل من وجهائها •

لقد سجل لنا دارا انتصاراته وتغلبه على هذه الثورات العنيفة فى الداخل والخارج فى المنحوتات الجبلية المشهورة المطلة على الطريق بين كرمنشاه وهمدان (بهستون) ، حيث نشاهد هذا الملك وفوقه يحميه الاله «اهورا مزدا» الذى يخرج رأسه وكتفاه من شكل قرص الشمس المجنح (وهو شعار شبيه بشعار الاله آشور) وقد وضع قدمه على جسم الثائر الدعى (كوماتا) وخلفه ثمانية ملوك أدعياء مربوطون بالحبال • ودون حول هذه المشاهد بالفارسية القديمة والبابلية والعيلامية أخبار دارا فى اخماد الثورات بعون الاله «اهورا مزدا» •وقد علمت هذه الثورات والاضطرابات العنيفة الملك الشاب درسا فى وجوب اعادة تنظيم الامبراطورية وتحوير سياسة التساهل التى سار عليها كورش ، ووضع ادارة الامبراطورية على أسس أوطد وأثبت ومع ذلك فلم يركن دارا الى العنف ، وانما اتخذ سبل السياسة الحكيمة الحازمة فى ضبط الاقاليم التابعة ، التى سمح لها بالمحافظة على كيانها الثقافى من اللغة والنظم الخاصة

---

(١) لا تعلم حقيقة هذا الادعاء ، ويخبرنا دارا فى الاخبار التى دونها فى نقش بهستون الشهير ان هذا كان دعيا خدع البابليين ، ومهما كان الامر فقد التف حوله البابليون وقد جاءتنا منه رقم طين مؤرخة بحكمه (من تشرين الاول الى كانون الثانى وشباط عام ٥٢٢ ق • م) •

بها • وقسمت الامبراطورية الواسعة الى عشرين ولاية كل ولاية يحكمهاوال فارسى (Satrap) (هو «المحافظ على المملكة») ، وكان هؤلاء الولاة يختارون من النبلاء الفرس وحتى من أسرة العائلة المالكة ، وكان هؤلاء مسؤولين مباشرة الى الملك • وسنعود الى ذكر أشياء أخرى عن نظام الادارة بعد انتهائنا من ايجاز الحوادث السياسية ، وننهى كلامنا على دارا فى هذا الموضع بذكر بعض الحملات التى وجهها الى الجهات الشرقية ولا سيما ضد الاسكيثيين فى جنوب روسية حيث عبر البسفور والدانوب الى «الفولغا» ، ووجه حملة عسكرية أيضا عبر افغانستان الى وادى نهر السند • وننوه أيضا باصطدام الفرس فى عهد دارا باليونان على أثر ثورة الايونيين ، ثم ارسال الحملة المشهورة ضد اثينة التى أحرزت انتصارها الباهر العجيب فى موقعة «مراثون» الشهيرة (٤٩٠) مما سنكرر الكلام عليها فى بحثنا الخاص باليونان فلا حاجة لتفصيل القول فيها فى هذا الموضع • واشتغل دارا بثورة قامت فى مصر فلم يستطع استئناف الحرب مع اليونان • ومات «دارا» (عام ٤٨٦ ق• م) ولم يشاهد تحقيق سحق اليونان ولا اخماد الثورة فى مصر •

خلفـــاء دارا

يعد حكم دارا أوج قوة الفرس الاخمينيين وأعلى ما بلغته الامبراطورية الفارسية فى الادارة والتنظيم والتماسك ، كما انه يمثل لنا أوج الثقافة الفارسية الاخمينية •

وخلف دارا فى الحكم «احشويرش» الاول (Xerxes) (٤٨٦ ــ ٤٦٥ ق • م) الذى عينه دارا نفسه خلفا له ، واعتلى العرش الفارسى بعد ان كان نائبا للملك على بابل طوال ١٢ عاما • وكان أول عمل انجزه لما تبوأ العرش اخماد الثورة التى نشبت فى مصر فى عهد أبيه ، وقد قضى عليها بقسوة وعنف ، وسلك سبيل العنف نفسه فى بابل التى حاولت الاستقلال أيضا وثارت على السلطة الفارسية • وقد ظهر فى هذه الثورة جملة أشخاص فى بابل جاءتنا من بعضهم وثائق مؤرخة بحكمهم مثل «بيل ــ شمانى» و «شمش ــ

اربابه . وقد بلغ من غضب احشويرش انه بعد ان قضى على مقاومة الثائرين خرب مدينة بابل ، ولا سيما حصونها ومعابدها ، ونهب تمثالا من الذهب للاله مردوخ وصهره (على ما يروى لنا هيرودوتس) حيث خرب معبد ايساكلا الشهير والزقورة . وبلغ التدمير مبلغا بحيث يروى ان الاسكندر لما فتح بابل حاول تعمير المعابد ولكنه وجد أن ذلك يكلفه عملا كبيرا . وتخلى احشويرش من بعد قضائه على ثورة بابل عن اللقب المأثور الذى أوجده كورش وهو «ملك بابل» ، واقتصر فى لقبه على «ملك الفرس والماذيين» . فيبدو ان ثقة ملوك السلالة الاخمينية منذ احشويرش بل من عهد دارا قد انحصرت فى الفرس واعتبرت الاقاليم الاخرى مجرد رعايا تابعين . وكان احشويرش فى الواقع اميل الى حياة ترف البلاط وتشييد القصور منه الى الحرب ، ولكن لم ير بدا من استئناف الحرب بضغط الجماعات التى كانت تريد الحرب ولا سيما حرب اليونان . فسار احشويرش على رأس جيش عرمرم مصمما على جعل الهجوم بالبر لا بالبحر فبنى له الفينيقيون جسرا على مضيق البسفور عبرت عليه جيوشه (وقد استغرق ذلك طوال سبعة أيام متوالية) ، فسار من تساليه ومقدونية بدون أن يلاقى مقاومة تذكر ، كما خضعت بلاد الاغريق الشمالية ، فوصل الجيش الى مجاز ثرموبلى الشهير حيث وجد مقاومة بطولية على يد جيش صغير من اليونان بقيادة ملك اسبارطة ، واستولى الجيش على اثينة حيث هجر سكان اتيكه مواطنهم ، ولكن الامر لم يتم فقد أحرز الاغريق النصر باسطولهم الذى حطم الاسطول الفارسى فى سلاميس (٤٨٠ ق . م) ، ومع ان الجيش الفارسى البرى لم يتأثر بهذه الموقعة الا ان تحطيم الاسطول الفارسى قد أثر فى أعصاب احشويرش لعله بسبب خوفه من التفاف الاسطول اليونانى خلفه فتقهقر مع الجيش البرى تاركا بلاد الاغريق .

لقد كان أثر هذا الاندحار على يد دويلة تكاد لا تقارن بالنسبة الى ضخامة الامبراطورية الفارسية أثرا بالغا فى الاخمينيين عدا التكاليف الجسيمة

فى المال والمعدات ، كما ان احشويرش يئس من استئناف الحرب ، وشغل نفسه في التعمير فى العواصم الفارسية مثل برسيبوليس (اصطخر) والسوس حيث أكمل الابنية التى لم يكملها أبوه • ومما يقال عن هذا الملك انه يكاد يكون آخر الملوك الاقوياء فى السلالة الاخمينية على الرغم من انه صرف حيويته فى حياة الدعة والملذات والمسرات • وبدأت السلالة الحاكمة تنهار فى معنوياتها فالواقع ان الامبراطورية التى وضع اسسها كورش وأعادها دارا لم تدم اكثر من قرنين ، وبدأت امارات الانهيار تظهر منذ أواخر حكم احشويرش حيث ساد الانحطاط والعنف والاغتيالات ومؤامرات نساء القصر ، وعمت حياة الخنوثة والملذات بين الطبقات الارستقراطية التى كانت فى الواقع تقوم عليها ادارة الامبراطورية وانتهت حياة احشويرش (٤٦٥ ق • م) بأن اغتاله أحد حجاب القصر ولا شك فى ان يكون وراء ذلك مؤامرات نساء القصر • واستتبع اغتياله موجة من الاغتيال تشبه ما ساد بين اباطرة الرومان المتأخرين •

وخلف احشويرش ابنه «ارتحشستا» الاول (Artaxerxes) (٤٦٥ – ٤٢٤ ق • م) وكان ضعيف الشخصية ، وقد بدىء حكمه بثورة قام بها أخوه والى بلاد البخت ، فأخمدت هذه الثورة وأعقب ذلك قتله لجميع أخوته • وثارت مصر بمساعدة اثينة التى كانت تحتاج الى غلات مصر لتعذر الحصول عليها عبر البسفور بسبب سيطرة الفرس • وفشلت الحملة الفارسية الاولى فى اخماد الثورة ، ولكن مددا عظيما مكن الجيش الفارسى من اخمادها ومن التغلب على الاسطول الاثينى فى الدلتا • وخسرت فارس فى عهده نفوذها فى آسية الصغرى فى فشلها فى حملة حربية وجهتها على اليونان بعد ان اغرت اسبارطة بالذهب لتكون ضد اثينة ، ولكن «سيمون» الزعيم الاثينى افلح فى ابرام اتفاق مع اسبارطة ، فواجه اليونان متحدين جيش الامبراطورية الفارسية وتمت التسوية بتنازل الملك الفارسى عن المدن الايونية فى آسية الصغرى وجعل نهر الهليس (قزل ايرمق) الحد بين نفوذ الامبراطورية الفارسية وبين

اليونان • وكان هذا انخذالا للفرس ، ولكن الفرس التجأوا مرة أخرى الى ارشاء الدول اليونانية لاضرام الحرب بين اثينة واسبارطة •

سار ارتحشستا فى بابل على سياسة أبيه ، مع نوع من التساهل فى حرية العبادة ازاء البابليين ، ولكنه شجع استيطان الفرس فى بلاد بابل ومن بينهم طبقة كهنة المجوس وصارت ادارة الولاية مقتصرة على الفرس كما انه اقطع الاراضى للفرس وفرضت الضرائب الباهظة على السكان مما جعلهم متحفزين لاية اشارة الى الثورة • ومما يجدر التنويه عن عهد ارتحشستا الاول ما سبق أن ذكرناه عن رجوع جماعة أخرى من اليهود الى فلسطين بعد الرجوع الاول فى عهد كورش • فقد سمح الملك الفارسى لعزرا أن يعود الى اورشليم مع (١٥٠٠) يهودى ، ولكن نشب نزاع بين هؤلاء العائدين وبين اليهود الذين فى فلسطين مما جعل الملك الفارسى يتدخل فى الامر فيرسل ساقيه «نحميا» اليهودى لتهدئة الوضع هناك ، وسمح لليهود باعادة كيانهم واعادة بناء المدينة فى ٤٤٥ ق • م كما اعترف بالكاهن الاعلى حاكما على اورشليم ويهوذا وتابعا الى الملك الفارسى •

لقد ساءت الاوضاع فى عهد خليفة ارتحشستا الاول المسمى احشويرش الثانى (٤٢٤ ق • م) الذى اغتيل بعد زمن قليل من اعتلائه العرش من جانب أخيه من أبيه ، وقتل هذا بدوره على يد دارا الثانى (٤٢٤ ــ ٤٠٤ ق • م) الذى عم فى عهده الفساد والمؤامرات ، وبذرت الاموال الفارسية على التدخل فى الحروب الاثينية الاسبارطية ، وآل الامر بعد ثورة الوالى الفارسى فى «ساردیس» الى التحالف بين اسبارطة وفارس ، حيث أعلن دارا الثانى الحرب على اثينة • وعمت الثورات فى جهات أخرى ، فى بلاد ماذى وفى مصر وأثمر التدخل الفارسى فى الحرب البيلوبونيزية استسلام اثينة الى اسبارطة •

زينفون وحملة العشرة آلاف اغريقى :ــ

لقد خلف دارا الثانى ابنه ارتحشستا الثانى (٤٠٤ ــ ٣٥٩ ق • م) وقد بدىء حكمه بمحاولة فاشلة لاخيه المسمى «كورش» الاصغر لاغتياله

بطعنة خنجر في أثناء الاحتفال بالتتويج في المعبد الذي في «بزرگاده» ، ولكن نجا كورش من العقاب بتوسلات امه وتضرعها ،وكانت هذه تساند ابنهاكورش لاخذ العرش من الوريث الشرعي ، فنجحت في اصدار العفو عنه واعادته ايضا الى حاكمية ولاية آسية الصغرى ، وقيادة الجيوش الفارسية هناك ، ولم يمض زمن طويل على بقاء كورش الاصغر في مقر ولايته حتى جدد العصيان والثورة على اخيه لاغتصاب العرش فقاد جيشا من آسية الصغرى والحق به جيشا من الاغريق المرتزقة اشتهروا بحملة العشرة آلاف ، المقترنة باسم زينفون الذي قاد الاغريق في تقهقرهم من العراق بعد مقتل كورش في الموقعة التي جرت قرب بابل ، حيث نازل كورش اخاه بنفسه وجرحه ولكنه قضى عليه بضربة رمح قوية ، فانهزمت جموعه • اما الاغريق فكانوا في جناح كورش الايمن معتصمين بالفرات ، ولكن قائدهم لم يترك موضعه فيساعد كورش في محنته • يؤلف سير هذه الحملة ورجوع الاغريق الى بلاد اليونان اخبارا طريفة مهمة جاءتنا مدونة في كتاب زينفون(١) الذي رافق الحملة وكان جنديا بسيطا ثم صار قائدا للاغريق في اثناء رجوعهم ، ولاخبار هذه الحملة اهمية خاصة في الجغرافية التأريخية للشرق وفي وصف جوانب مهمة لاحوال العراق والاقطار المجاورة ، فنوجزها على الوجه الآتي :ـ بدأت حملة كورش من «سارديس» (عاصمة ليدية سابقا) فاجتاز بجيشه ممر كيليكية (ويسمى الآن كولاك بوغاز) المؤدي من هضبة الاناضول الى سهل كيليكية باتجاه البحر ، ثم وصل الى طرسوس المشهورة عند اليونان بالنسيج المصنوع من شعر المعز ، وسلك كورش من بعد طرسوس الممر المعروف بالمجاز السوري الذي يجتاز جبال امانوس باتجاه انطاكية وحلب ، ثم مر من مدينة «ايسوس» الشهيرة التي جرت فيها الموقعة بين دارا والاسكندر من بعد مائة عام • ويذكر لنا زينفون مدينة باسم «مرياندوس» يرجح ان تكون قريبة من الاسكندرونة • وتوجد فترة في قصة زينفون من بعد مرياندوس

---

(١) انظر
Xenophon, **Anabasis: The Expedition of Cyrus The Younger.**

لم نسمع فيها شيئا سوى مسيرة الجيش سيرا متصلا زهاء اربعة ايام ثم يذكر لنا من بعد اجتياز الجيش حلب نهرا يسميه «خالسيس» وهو نهر «الباليخ». ثم عبر الفرات من موضع مشهور باسم «ثبساكوس» وســـار على الشاطئ الايسر من الفرات حتى بلغ الخابور (الذى يدعوه زينفون باسم اراكوس). وبعد مدة من اجتياز هذا النهر يصف لنا زينفون «البادية العربية» وصفا ممتعا ذاكرا حيوانات الصيد فيهـــا كالحمر الوحشية والايل والحبارى والنعام ، ثم يصف لنا ما حل بالجيش من قلة الطعام والمؤن وما قاسوه من صعوبة سير العربات فى الوحل . ويصل الجيش اخيرا الى موقع شمـــالى الرمادى بنحو خمسين ميلا ذكره زينفون باسم «الابواب» ، ولا يعلم موضع هذا الممر ، كما ان الجيش تاه من بعده مدة اسبوعين ، ثم يدخل الجيش بلاد بابل ويلاقى كورش الاصغر جيوش اخيه الملك ارتحششتا الثانى فى موضع يرجح ان يكون قرب طريق الحلة ـ بغداد الآن ولا يبعد عن المسيب كثيرا ، وهو الموضع الذى سماه زينفون «كوناكسه» .

وبعـد مقتل كورش سـمح للاغريق بالتراجـع وكانت عودتهم الى بلادهم محفوفة بالاخطار وتعد ظاهرة عجيبة لا سيما وهم يبعدون بمســـافة اكثر من الف ميل عن اقرب موضع لموطنهم ويجهلون البلاد المعادية ، وليس لهم ادلاء . وقد عدل قائد الاغريق عن سلوك نفس الطريق الذى جاء منه كورش فسار بالاغريق شرقا الى دجلة مارا من عقرقوف (على ما يرجح) ثم اجتازوا السور المادى الذى بناه نبوخذ نصر ووصلوا الى دجلة قرب موضع سماه زينفون باسم «ستاسه» ، وعبروا النهر من جسر ، ثم ساروا شمالا الى موضع يتصل فيه دجلة باحد روافده الذى سماه زينفون «فسكوس» وهو نهر العظيم ، كما تمهلوا قليلا فى مدينة «اوبس» . وحدث للاغريق نكبة ، تلك هى ان القائد الفارسى «تسا فيرنوس» ، الذى كلف امر مراقبة الاغريق حتى يتركوا حدود المملكة الفارسية قد اقترح على قائد الاغريق «كليرخوس» عقد مؤتمر حضره قواد الاغريق ، ولكن القائد الفارسى قتلهم جميعا . وعند ذلك

انتخب الجند قائدا جديدا لهم هو «زينفون» الشهير الذى دون لنا اخبار الحملة ، على ما بينا من قبل • وتابع الاغريق سيرهم من بعد تلك الحادثة ويذكر لنا زينفون موضعين هما «كينه» و«لرسه» ولعلهما العاصمتان الآشوريتان آشور ونمرود ، ثم خاضوا نهر الزاب الاعلى من بعد ذلك ويسمى لنا زينفون موضعا هو «مسبلا» اى الموصل على ما يرجح[١] ، ومع ان الجيش كان يسير فى الجانب الشرقى من النهر فان زينفون لم يذكر «نينوى» التى لا شك ان يكون قد سار على انقاضها بدون ان يميزها ، مع انه لم يكن مضى على سقوطها اكثر من مائتى عام • ولما وصل الجيش منطقة زاخو يذكر لنا زينفون قوم «الكردوجى» (أى الاكراد) ويصفهم بأنهم قوم محاربون اشداء يعيشون فى الجبال «ولا يطيعون الملك» ، ثم ساروا الى جزيرة بن عمر ودخلوا فى الاراضى التركية وواصلوا سيرهم حتى وصلوا فى النهاية الى البحر الاسود فصرخوا من شدة فرحهم «البحر ! البحر ! » ، وعانق بعضهم بعضا وعيونهم مغرورقة بالدموع •

وننهى كلامنا على عهد «ارتحشستا» الثانى بذكر بعض الامور الاخرى المهمة فى سير تأريخ الامبراطورية الفارسية ، ومن ذلك استمرار تدخل الملك فى ارشاء المدن الاغريقية ولا سيما اسبارطة واثينة احداهما ضد الاخرى وبلغ انهاك قوى هاتين المدينتين انهما قبلتا بمعاهدة الصلح والسلم الذى اقترحه الملك مما عرف باسم «سلام الملك» ، واصبحت معظم المدن الايونية تحت سيطرة الفرس • ولكن هذا النصر الدبلوماسى قابلته نكبات وقعت للملكة الفارسية بسبب ثورات الولاة الذين اتحد عدد منهم والفوا اتحادا صار يسك النقود المشتركة باسمه ، وهو امتياز كان محصورا بيد الملك ، كما استقلت مصر مما حرم الخزانة الملكية من موارد مهمة ، وكادت الامبراطورية تنهار لولا ان خلصها النزاع الداخلى فى الولايات نفسها وخيانة الولاة بعضهم بعضا واغتيالهم بعضهم بعضا فتمكن الجيش الفارسى بقيادة الملك نفسه من

---

(١) لعلها محرفة عن الكلمة الآشورية «مشفالو» (بضم الميم وسكون الشين) التى تعنى العمق •

اعادة الامور الى نصابها موقتا ، وقد مات الملك (وقد حكم زهاء نصف قرن) ولا تزال الاضطرابات تسود معظم جهات الامبراطورية وداخل المملكة ايضا • وخلفه في الحكم ارتحششتا الثالث ، وكان قاسيا شديدا ، ولكنه على شيء من الرجاحة والحنكة السياسية • وكان اول شيء فعله لما تبوأ العرش هو قتل جميع اخوته واخواته ،وقد بلغ عددهم العشرات • ثم وجه همه لاخماد بعض الثورات واستعادة مصر ، ولكنه فشل في ذلك ، وقد تحالفت صيدا مع مصر وثارت على سلطان الفرس ، فدمرها هـذا الملك تدميرا وحشيا حيث احرقها مع الوف من سكانها في انقاض البيوت ، وارسل بعدئذ حملة جديدة على مصر نجحت في ارجاعها الى حظيرة الامبراطورية الفارسية • وهكذا فيبدو ان الامبراطورية استعيدت الى ايام ازدهارها في عهد دارا الاول ، ولكن المؤامرات لم تنته من البلاط الفارسي فقد مات هذا الملك القوي مسموما وبموته طعنت المملكة الفارسية طعنة نجلاء لم تبرأ منها ، في الوقت الذي ظهرت الى الوجود دولة قوية في مقدونية هي مملكة فيلب ابي الاسكندر الكبير ، حيث كان يعد العدة لغزو آسية ، مما سنقص خبر ذلك في كلامنا على الاسكندر والسلوقيين• أما عن احوال العرش الفارسي فقد سم ابن ارتحششتا الثالث ونصب مكانه قريب منه هو دارا الثالث الملقب بلقب «كودومانوس» (Codomannus) وكان من الممكن لهذا الملك الشجاع ان يخلص المملكة الفارسية لو لم تواجهه مملكة مقدونية وقد اتحد معها الاغريق ، بقيادة قائد محنك يعد فلتة في العبقرية الحربية هو الاسكندر الذي قضى على السلالة الاخمينية وعلى الامبراطورية معها وهو موضوع اجلناه الى بحثنا عن الاسكندر •

شيء عن الحضارة والنظم الخاصة بالفرس الاخمينيين

يتضح مما مر بنا من عرض احوال الدولة الفارسية الاخمينية ان الفرس أسسوا اعظم امبراطورية عرفها العالم القديم ، وان حكم السلالة الاخمينية دام زهاء قرنين من الزمان (٥٥٠ ـ ٣٣١ ق٠م) ، حكم فيها ابتداء من كورش الكبير أحد عشر ملكا تفرد منهم جملة ملوك امتازوا بحسن الادارة والتنظيم والحنكة السياسية وعلى رأسهم كورش ودارا الاول حيث كان الاول مؤسس الامبراطورية واضطلع الثاني بتنظيمها • ولقد دخلت في هذه الامبراطورية التي شملت الشرق القديم وآسية الصغرى وجزءا من العالم اليوناني اقوام وشعوب متحضرة ، وعلى مستوى من الثقافة اعلى مما كان عليه الايرانيون انفسهم ، مثل بلاد بابل وآشور ومصر وآسية الصغرى والمدن الاغريقية وبلاد الشام ، وهي مراكز حضارية ذات مآثر عريقة في العمران والمدنية فاستفاد الفرس منها في بناء امبراطوريتهم وتنشئة ثقافتهم • كما شملت هذه الامبراطورية أقواما بعضها متأخر في مضمار الحضارة وبعضها لا يزال في طور البربرية • فتمازجت الثقافات القديمة ،وانتشرت الحضارة مدى أبعد ، ثم ان الامبراطورية الاخمينية قد مهدت السبيل لتحقيق النتائج الثقافية لفتوح الاسكندر ، كما ان الاسكندر نفسه قد اتخذ الامبراطورية الفارسية مثالا احتذاه في تكوين امبراطوريته وتنظيمها • واصطبغ السلوقيون بالصبغة الشرقية الفارسية ، والواقع ان سلالة السلوقيين الحاكمة نصفها ايراني لأن سلوقس تزوج من «افامه» (Apama) الايرانية • وقد يصح ، كما جرى على ذلك بعض المؤرخين[١] ان نعد تأريخ الاسكندر امتدادا لتأريخ الامبراطورية الفارسية ، وقد سرنا في موجزنا على الاسلوب نفسه • والثقافة الهلنستية نفسها ليست سوى نتائج التقاء الحضارة اليونانية بحضارات الشرق القديم • واذا قارنا الامبراطورية الاخمينية بالامبراطورية الرومانية وجدنا بينهما فروقا جوهرية ،

---

(1) **Legacy of Persia,** P. 7.

فالامبراطورية الرومانيــة ، على ما سنرى فى بحث الرومان ، كانت نتيجــة توسع تدريجى بطىء استغرق عدة قرون ، ولكن الايرانيين انشـأوا فجأة مملكة فى فارس كانت ضئيلة الشأن ثم وســع هذه المملكة ملك واحد هو كورش وجعلها امبراطورية واسعة ، ومما لا شك فيه ان أبرز عامل فى نشوء الامبراطورية الفارسية نشوءا سريعا هو ان دول العالم القديم كانت فى أدوار ضعفها وتدهورها ، كالدولة البابلية والمصرية ومملكة ليدية ، وقد سبق لاعظم امبراطورية فى الشرق وهى الامبراطورية الآشورية أن تمزقت قبل قيـام كورش بنحو ٦٠ عاما فخلا الجو للفرس لغزو مراكز الحضارات القديمة • ومن الاختلافات المهمة ان الامبراطورية الرومانية نظام فى الحكم نشأ وتطور ولم يكن مجرد توسع مملكة صغيرة وضمها شعوبا الى سيادتها • ولعل دخول الاقاليم ذات التراث الحضارى قد جعل الامبراطورية الفارسية تختلف عن الامبراطورية الرومانية من حيث استطاعة هـذه الامبراطورية أن تجعل الشعوب التابعة تتمثل بالرومان وتتأثر بالثقافة الرومانية أثرا بعيدا ، فى حين ان الفرس تركوا الثقافات القديمة تحافظ على أنفسها ، وصرفوا هممهم الى توطيد الادارة وتماسك الامبراطورية •

ومع ذلك فقد نظمت الامبراطورية الفارسية تنظيما ناجحا بحيث انهـا بقيت متماسكة طوال قرنين من الزمان تحت سلطان السلالة الاخمينية التى لم تكن قبل كورش سوى حكام محليين خاملين فى اقليم ناء فى بلاد فارس • هذا وقد سبق أن نوهنـا باستفادة الاخمينيين من تراث نظـام الادارة عند الآشوريين ، ولكن الاخمينيين حسنوا فى الطريقة الآشورية بل انهم بدلوها • فقد كانت الاقاليم التابعة الى الآشوريين ممالك كبرى لا يربطها بالآشوريين سوى دفع الجزية والاعتراف بالسيادة الآشورية ، فى حين ان كورش قسم امبراطوريته الى عشرين ولاية يحكم كلا منها وال تابع الى الملك الفارسى ويعينه من النبلاء الفرس ، ووطد دارا تنظيم الامبراطورية وأقامهـا على أسس أثبت • وقد حافظ على عدد الولايات البالغ عشرين ولاية تشمل الاقاليم والممـالك

الآتية : (١) مصر (٢) فلسطين (٣) بلاد سورية (٤) فينيقية (٥) ليدية (٦) فريجية (٧) ايونية (المدن اليونانية فى سواحل الاناضول الغربية) (٨) كبدوكية (٩) كليكية (١٠) ارمينية (١١) بلاد بابل وآشور (١٢) بلاد ماذى (١٣) فارس (١٤) اقليم القوقاز (١٥) اقليم افغانستان وبلوجستان (١٦) الهند (١٧) بلاد الصغد (١٨) بلاد البحت (١٩) ولاية مساغيتا (٢٠) ولاية تضم بعض القبائل التركمانية فى أواسط آسية • وكان الملك يعين لكل ولاية حاكما يعنى بالفارسية القديمة «محافظ المملكة»[١] وكانت ولاية هذا المحافظ فى الواقع مملكة كبرى ، وكان لمعظم الولايات كيان سياسى عظيم ، فكان الوالى ملكا ذا نفوذ كبير ، ولذلك حق للملك الفارسى أن يلقب نفسه بملك الملوك • ومن الناحية الثانية كان الوالى بسبب هذا النفوذ مصدر خطر جسيم على الملك الفارسى اذا حاول الاستقلال بولايته أو اذا جعلت وظيفته وراثية على ما رأينا فى الاخطار التى تعرض لها عرش الملك الفارسى بسبب ثورات الولايات • ولذلك وضع كورش نظاما خاصا حسنه دارا هو تعيين قائد لجيوش الولاية يكون تابعا للملك مباشرة ومستقلا عن حاكم الولاية كما كان سكرتير الولاية والموظف المالى الاكبر مرتبطين بالملك رأسا • والى هؤلاء كان للملك موظفون خاصون يرسلهم لتفتيش شؤون الولاية كل عام تقريبا مثل «عين الملك» و «رسول الملك» و «اذن الملك»[٢] • وقد سبق أن نوهنا بأن هؤلاء الولاة كانوا من الاسر الفارسية النبيلة • والذى مكن الملك من زيادة سيطرته على هؤلاء الولاة ما انشأه دارا من نظام الطرق الملكية والبريد المنظم بين مراكز تلك الولايات وبين العاصمة • ولعل أهم واجبات محافظ الولاية ، بالاضافة الى الادارة ومسك الولاية ، جمع الضرائب نقدا أو عينا • وكانت جميع الولايات خاضعة

---

(١) وقد جاءنا هذا الاسم عن اليونان بصيغة (Satrap) والولاية (Satrapy) من الكلمة الفارسية القديمة «خشاثرابوان» (Khshathrapavan)

(٢) Olmstead, **The History of the Persian Empire**, 59.



نماذج قديمة من النقود الفضية المسكوكة التي انتشر استعمالها في الامبراطورية الفارسية من بعد اختراعها في ليدية (القرن السابع ق٠م) ٠ فالرقم (١) نقد ليدي (٥٥٠ ق٠م) ورقم (٢) نقد اغريقي من جزيرة خيوس (٥٠٠ ق٠م) ورقم (٣) نقد كاري (٦٥٠ـ٥٥٠ ق٠م) ورقم (٤) دراخما (درهم) اثيني يرى في وجهه رأس الالهة أثينة وفي قفاه بومه مع غصن زيتون واسم اثينة

الى مثل هذه الضرائب باستثناء ولاية فارس التي كانت معفاة منها لكونها مهد السلالة الحاكمة ٠

وكانت ولاية الهند على رأس الولايات في مقدار خراجها السنوي حيث كانت تدفع الى خزانة «ملك الملوك» ٤٦٨٠ وزنة[١] ويأتي بعدها العراق (ولاية بابل وبلاد آشور) ومقدار جبايتها (١٠٠٠) وزنة ثم مصر ومقدار جبايتها ٧٠٠ وكيليكية ٣٦٠ وزنة وسورية (وبضمن ذلك فلسطين) ٣٥٠ وزنة وولايات آسية الصغرى الاربع (١٧٦٠) وزنة ٠ والى هذه الجباية السنوية كان يترتب على كل ولاية أن تزود الملك بالمؤن والاحتياجات بحسب طاقة كل ولاية ٠ فكان على ولاية مصر مثلا أن تزود كل عام حبوبا تكفي لـ ١٢٠٫٠٠٠ شخص وكانت بلاد ماذي ترسل كل عام ١٠٠٫٠٠٠ رأس من الغنم وبلاد الارمن ٣٠٫٠٠٠ طير ٠ وبالاضافة الى هذه المصادر من الثروة

---

(١) أي وزنة (Talent) من الفضة أو النقد ، وقد سبق تعريف الوزنة وهي «بلتو» البابلية التي كانت تساوي ٦٠ منا والمنا ٦٠ شيقلا (والمنا نحو رطل انجليزي أو نصف كيلو غرام) ٠

كان الملوك يحصلون على ثروات معدنية وثروات من مورد النقود المسكوكة. ولكي نكون لنا فكرة عن ثروة الخزانة الملكية نقول ان بعض الباحثين قدر ما وجده الاسكندر في خزائن دارا الثالث نحو (١٨٠٫٠٠٠) وزنة من النقود المسكوكة (وبتقدير الدولارات الامريكية زهاء ٢٫٧٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولارا)[١] هذا مع العلم بأن دارا الثالث أخذ معه في هزيمته نحو (٨٠٠٠) وزنة وبعد مضي زهاء مائة عام من التبذير الهائل، وما صرف على الثورات والحروب، وقد رأينا فيما سبق كيف ان الملوك الفرس بعد فشلهم في اخضاع اليونان بالحرب أخضعوهم بطريق الرشوة بالذهب • ومما ساعد على تنظيم الامبراطورية وتماسكها اتخاذ النقود المسكوكة في عهد دارا الاول[٢]، ونظام الطرق والبريد، واتخاذ الآرامية والخط الآرامي الى جانب الخط المسماري الفارسي واسطة للتعامل التجاري • ومع عدم انتظام الطرق البحرية والملاحة الا ان الطرق البرية المهمة التي انشأها الاخمينيون والاستفادة من الطرق القديمة قد ربطت أجزاء الامبراطورية، ولا سيما ربط العراق بمصر وسورية والاناضول وبلاد العرب وبلاد فارس، وكانت تسير في هذه الطرق المنتظمة وسائل المواصلات السريعة، وقد اشتهر الفرس عند اليونان بهذه السرعة في البريد، كما اصطلحوا عبارة «طريق الملك» على ما جاء في هيرودوتس • وكان بريد الملك يسير في تلك الطرق المتشعبة من العاصمة «سوسة» الى أقصى أجزاء الامبراطورية، وهو يحمل أوامر الملك الى ولاته وقواده، ويزوده بالتقارير السريعة • وينبغي أن ننوه بأهمية الجيش في المحافظة على مسك أجزاء الامبراطورية الواسعة، وكان الجيش الاساسي صغيرا قوامه النبلاء وتابعوهم من الفرس تحت قيادة

---

(١) Will Durant, **The Story of Civilization**, 363.

(٢) أخذ الاغريق والفرس من ليدية النقود المسكوكة، وكذلك استعملت الاوزان الخاصة بالنقود التي هي من أصل بابلي مثل «المنا» والشيقل (ودعوه Siglos) و «دروس عشتار» (التي استعملت في عهد سنحاريب وتزن كل قطعة نصف شيقل) وسموها (Stater) وكانت هذه وحدة العملة في ليدية (وتساوي ٢١٧ حبة) وقسمت الى أثلاث وأسداس وجزء من اثني عشر جزءا الخ مما يدل ان أجزاء النقود قد اتخذت على أساس نظام العدد البابلي •

القواد الاكفاء ، وقد سبق ان رأينا كيف ان الملك نفسه كثيرا ما كان يتولى القيادة العامة بنفسه • ويساعد الجيش الفارسي الاساسي جيوش الولايات التابعة •

كان اليونان يلقبون الملك الفارسي بلقب «الملك العظيم» (Basileus) ولعل ذلك ترجمة اللقب الفارسي «ملك الملوك» • ومع ان الملك الفارسي كان في الواقع قمة الهرم المكون منه المجتمع الفارسي ويمثل الحكم الاتوقراطي الا أن سلطانه لم يكن مطلقا كل الاطلاق ، وانما كان مقيدا نوعا ما بالعرف والمأثر والتقاليد المرعية في بلاد فارس ، فكانت معظم الاوامر والارادات التي يصدرها انما تصدر عن «الملك وهو في مجلس شوراه» •

٢ ـ عواصم الفرس الاخمينيين

اتخذ مؤسسو الدولة الاخمينية جملة مدن شهيرة معظمها كان من المدن القديمة الشهيرة لتكون عواصم للدولة الجديدة ، والاغلب ان اكثر من عاصمة واحدة كانت تتخذ مركزا للامبراطورية في آن واحد • فقد انتخب كورش مدينة سوسة ، العاصمة العيلامية الشهيرة ، لتكون مركز ادارته حينما كان حاكم «انشان» في عهد تبعيته الى الماذيين ثم اتخذ «اكبتانا» العاصمة الماذية الشهيرة حينما قضى على الدولة الماذية ، كما اتخذ بابل ايضا بعد فتحها عام ٥٣٨ ق• م• وقد اعتاد كورش ان يمكث في كل من هذه العواصم فترة من الزمن • ثم شيد مدينة جديدة هي «بزركادة» او «بسر كادة»[1] (بالكاف الفارسية) لتكون رمز العهد الجديد الذي ساد فيه الفرس • وتقول المأثر ان كورش شيدها في موضع المعركة الحاسمة التي انتصر فيها على «استياجز» آخر ملوك الماذيين ، ولا يعلم زمن تأسيسها ، وانما هو يقع بين ٥٥٩ و٥٥٠

---

(١) (Pasargadae) وتقع الى شمال برسيبوليس (اصطخر) بحوالي (٥٠) ميلا وقد عينت حديثا بالخرائب المسماة « مشهدي مرغاب » (بضم الميم وتسكين الراء) • ويرى الباحثون في معنى اسمها (Parsagad) انه يعني «مخيم الفرس» •

ق.م.[١] وتشير خرائبها الى انها كانت على هيئة مخيم واسع يحيط بها سور تقوم فى وسطه القصور والمعابد مع البساتين والحدائق ، ووضعت فى المداخل الثيران المجنحة على الطراز الآشورى ، ولا يزال يقوم فى باب الحجرة الشمالية زوج من نوع الملاك الحارس المجنح . وشيد فيها معبد للنار بهيئة برج مشيد من الحجر ، وهو يشبه المعبد الذى يقوم امام قبر دارا فى «نقش - رستم» .

أما مدينة السوس فهى اشهر المدن واقدمها فى بلاد ايران وقد سبق ان ذكرنا انها كانت عاصمة بلاد عيلام الشهيرة ، وقد اتخذها كورش مقرا له ، ثم عمر فيها دارا وبنى قصرا له بعد تعميره فى مدينة بابل . والسوس من ناحية صلاح موقعها بالنسبة الى اجزاء الامبراطورية تأتى بعد بابل ، ولكنها تفضل المواصم الفارسية الاخرى وهى اكبتانا وبزركادة وبرسيبوليس وقد سكن دارا فى بابل فى قصر نبوخذ نصر فى الجزء الشمالى من المدينة، حيث وجدت له مسلة من الديوريت منقوشة باللغة البابلية[٢] ثم بنى فى بابل بعدئذ قصرا جديدا خاصا به موقعه غرب قصر نبو بولاسر ، وقد بناه على الطراز البابلى الخاص بقاعات الاعمدة مما يعرف بمصطلح (Appadanna) (أى قاعة الاجتماع) تقليدا لطراز العمارة فى قصر نبوخذ نصر ، واستعمل الآجر المزين المزخرف بالمينا[٣] على غرار نقوش باب عشتار . ولكن دارا لم يقتنع بواحدة من المواصم القديمة التى لا تمثل العهد الجديد ولا تليق بضخامة الامبراطورية التى اعاد تأسيسها ،فاقدم على تأسيس عاصمة جديدة فى موطن قومه الفرس فاختار الموضع الذى شيد فيه العاصمة التى سماها اليونان باسم «برسيبوليس» (أى مدينة الفرس) ، وهى «اصطخر» (Stakhra)

---

(١) وجدت كتابة فى خرائب المدينة منقوشة بثلاث لغات ، بالفارسية والبابلية والعيلامية نصها : «انا كورش الملك، الاخمينى» ـ وهى ألقاب يؤخذ منها ان عهدها يرجع الى الزمن الذى كان فيه كورش لا يزال تابعا الى الماذيين .

(٢) Koldewey, **Excavations at Babylon** (1914), 166.

(٣) Koldewey, **ibid.**, 127

(أى الحصن) ،التى صارت أصل مدينة اصطخر الشهيرة • بدأ دارا بناء المدينة فى عام ٥٢٠ ق• م ولم يكمل بناؤها الا فى عهد ارتحششتا الاول فى حدود ٤٦٠ ق• م• وقد أمدتنا نتائج التنقيبات التى قام بها المعهد الشرقى (جامعة شيكاغو) بنماذج مهمة عن الفن الفارسى القديم بمختلف نواحيه ، كالعمارة[١] والنحت والنقوش ، كما وجدت فيها وثائق مهمة دونت بالخط العيلامى وكانت برسيبوليس هى التى أقام فيها الاسكندر وليمة شرب ثم احرقها • واذا كانت «بزركادة» مدينة فارسية صرفة فان برسيبوليس مدينة خليطة فى عماراتها وفنها وزينتها ويوجد فيها عناصر من فن حضارة وادى الرافدين على المحنا •

٣ ــ الديانة

قبل ان تتوطد الديانة الزرادشتية التى تدور على عبادة الاله «اهورامزدا» فى زمن دارا الاول كان الفرس وثنيين مشركين مثل القبائل الهندية الاوربية الاخرى ويعبدون قوى الطبيعة المختلفة التى جسموها وشخصوها على هيئة آلهة ، فعبدوا الشمس بهيئة اله سموه «مثرا» والقمر باسم (ماه)[٢] والارض باسم «زام» (Zam) والنار باسم «اتار» (Atar) والماء باسم « افام نفت » (Apam Napat) والريح باسم «وهيو» (Vahyu) • ومع ان دارا والملكين اللذين اعقباه لا يذكرون فى كتاباتهم اسم أى اله آخر مع «اهورا مزدا» ولكن الواقع ان ما ندرسه من كتابات هؤلاء الملوك انما هو ديانة الدولة الرسمية وليس

---

(١) حول نتائج التنقيبات فى برسيبوليس والفن الفارسى من العمارة والنحت أنظر المراجع الآتية :ــ

(1) Herzfeld, **Iran in the Ancient East** (1941).
(2) Ghirshman, **Iran** (1954) 165 ff.
(3) G.G. Cameron, **Persepolis Treasury Tablets** (1948).
(4) Erich F. Schmidt, **the Treasury of Persepolis and Other Discoveries** (1939), **Persepolis** (1951).

(٢) (Mah) وهو اسم القمر فى اللغات الهندية الاوربية (قارن الانجليزية والكردية) •

ديانة الجماهير التي ظلت محتفظة بعبادات الآلهة القديمة على الرغم من اتخاذ الملوك عبادة اهورا مزدا الموحدة ، ولكن اضيفت الى اهورا مزدا اسماء آلهة اخرى منذ زمن «ارتحششتا» الثاني ولا سيما الاله الشمس «مترا» ، المقرون بانه اله العدل[1] والخلاص ، وهو من الآلهة الايرانية القديمة ، والآلهة الشهيرة «اناهيتا» (Anahita) الهة المياه ، والخصب والانتاج ، التي توجد في صفاتها وعبادتها آثار من عناصر غير ايرانية ، وقد استمرت عبادتها واشتهرت معابدها في العهد الساساني على ما سنبين في كلامنا على الساسانيين ولقد تأثر الفرس في عبادتهم بالاقوام الاصلية قبل مجيئهم الى ايران وبالاقوام المتحضرة المجاورة • وكانت عبادة الفرس لآلهتهم تقترن بالتضحية والقرابين ، وقد وصف لنا هيرودوتس هذه الطقوس التي ترجع في اصلها الى الاقوام الهندية ـ الايرانية وكان يقوم برسوم التضحية طبقة من الكهنة مؤلفة بهيئة اخوة أو جمعية دينية ، وهؤلاء هم المجوس (Magi) (المؤبذان) المشهورون الذين يرجح ان أصلهم من الماذيين ، وكانوا ذوي امتيازات سياسية ودينية وعلى اهمية عظيمة في المجتمع ، وكانوا يصحبون الجيوش للقيام برسوم الضحايا ، كما كانوا يقومون بتعبير رؤى الاحلام ، ويشتركون في احتفالات تتويج الملوك التي كانت تقام في العاصمة القديمة «بزركادة» ، كما كانوا يتولون تعليم الصبيان وسدانة قبور الملوك ، مثل قبر كورش[2] ومهما كان الامر فان هؤلاء (المجوس) مجهولو الاصل ولا يعلم من دياناتهم التي لم تكن فارسية في اصلها الا اشياء قليلة • وهم كطائفة يؤلفون جماعة لا يدخل فيها أحد ، وتبيح الزواج بالاقارب القريبين • وكانوا يرون في عقائدهم عن الكون وجود مبدأين ، مبدأ الخير والشر ، والواقع انه لا يوجد في العبادة المجوسية آلهة حقيقيون ، وانما هناك عدد غفير من الشياطين الشريرة وعلى رأسها الروح الشرير الاعظم • ويستطيع المجوس

---

(١) قارن وظائف الاله الشمس البابلي «شمش» • وقد شاعت الديانة المترائية الى أنحاء بعيدة ، واتخذها الرومان •

(٢) Ghirshman, **Op. Cit.,** 156.

بالسحر[١] والتعاويذ دفع الشرور عن البشر ،ومن الشياطين الشريرة الشياطين الكامنة فى اجسام الموتى ، فمنذ اللحظة التى يحل فيها الموت يصبح الجسم خطرا على الأحياء ، ولذلك كانوا يعدون اجسام الموتى فى اعلى المواضع تأكلها الوحوش والطيور الجارحة ، وبعد تخليص العظام من اللحم الدنس تؤخذ وتوضع فى صندوق صغير[١] مثقوب ليستطيع الميت رؤية الشمس •

الزرادشتية :ـ

ومع وجود هذه العبادات الوثنية كان الفرس الاخمينيون يتجهون الى الديانة الوحدانية وينبذون الشرك ، وقد تم ذلك بوجه واضح وبصورة رسمية فى عهد دارا الاول ، وهذه هى عبادة الاله الواحد « أهورا مزدا » ، كما سماه النبى الذى بشر به «زراوستر» أو الاصح «زرائو شتراء» (Zarathushatra) الذى لا يعلم زمنه بوجه التأكيد ولكن الرأى الحديث يرى انه بدأ تبشيره حوالى منتصف القرن السادس ق • م فى الجهة الشمالية الغربية من نجد ايران ، كما يرجح انه ولد فى بلاد ماذى ولكنه اضطر على هجر موطنه والتبشير فى جهات ايران الشرقية[٢] • وتروى المآثر ان الحمل

---

(١) (Ossuary) • والجدير بالذكر بصدد اسم المجوس ان الكلمة التى تطلق على السحر فى اللغات الاوربية أى (Magic) مشتقة من اسم المجوس •

(٢) حول أحدث الآراء عن هذا النبى الايرانى انظر :ـ

(1) Oimstead, **The History of the Persian Empire** (1948), ch., VII

(2) Ghirshman, **Op. Cit.**, 161 ff.

وكان الباحثون القدماء يرون ارجاع زمنه الى عهد أقدم ، الى بداية الالف الاول ق • م ، والى القرن الثامن ق • م • والمرجح انه كان من بين معتنقى ديانته الاوائل أبو الملك دارا نفسه وكان واليا على بلاد الفرثيين • ويدل اسم زراوستر الذى يعنى «مع الجمال الذهبية» واسم ابيه «فوروشسبا» (Pourushaspa) الذى يعنى «مع الخيل السمر» وعشيرته المسماة «سبيتاما» (Spitama) (أى البيض) على ان أصله من قوم شبه رعاة ، وورد اسمه فى المصادر اليونانية بهيئة (Zoroaster) وهو الاسم الشائع فى اللغات الاوربية •

به وولادته قد تمت بمعجزة الهية فان ملاكه الحرس حل في النبات المسمى «هوما»[١] وانتقل مع عصير النبات الى جسم كاهن ، ودخل فى الوقت نفسه شعاع من السماء المقدسة فى عذراء من أصل نبيل ، فتزوج الكاهن بها فاتحد الملاك المحبوس (فى جسم الكاهن) بالشعاع الالهى (فى جسم العذراء)، فتكون «زراوستر» ، ومنذ اللحظة التى ولد فيها ضحك عاليا ، وانهزمت من حواليه الارواح الشريرة والشياطين التى تحوم فى الحياة • ولما شب شغف بحب الحكمة والتقوى والعدل واعتزل حياة المجتمع وعاش فى متاهات الجبال • وقد حاول الشيطان أن يغويه ولكنه لم يفلح • وقد شق صدره بالسيف وملئت أحشاؤه بالرصاص المذاب فلم يجزع بل انه ظل على عقيدته بالهه اهورا مزدا ، الذى تجلى له وأوحى له بالتعاليم المقدسة «الافستا» ، وهى كتاب المعرفة والحكمة ، وبلغه رسالته بأن يبشر بها بين البشر ، فأصابه من هذا التبشير اضطهاد وازدراء ، ولكن المآثر تقول ان أميرا عظيما اسمه «وشتسبا» أو «هستابس»[٢] اعتنق ديانته ، وأوعده بأنه سينشرها بين الناس ، ولما بدأ يبشر فى ايران وجد الناس على ما رأينا سابقا وثنيين يعبدون آلهة أصلها من القوى الطبيعية والحيوانات والأجداد الاموات (على نحو ما كان شائعا بين الهنود الآريين فى عهد الفيدا) وكان الكهنة المجوس ، على ما بينا ، يقومون برسوم التضحية لهذه الآلهة ، فثار على هذه العبادات وأعلن انه

---

(١) وهو النبات الذى كان يستخرج منه الكهنة المجوس شرابا مسكرا لاستعماله فى الطقوس الدينية و «الهوما» أيضا الاله العجل الذى يموت ويحيا وجعل دمه الى الناس لينالوا الخلود اذا شربوه ، حيث يتمثل الاله بعصير ذلك النبات •

(٢) لقد سبق أن نوهنا باحتمال كون هذا الامير أبا دارا الاول ، وان ذلك من جملة الاسباب التى دعت الباحثين المحدثين الى تخفيض زمن زراوستر الى منتصف القرن السادس ق • م • ومع ان هذا التاريخ أحدث ما وصل اليه البحث الحديث الا ان هناك مآثر أخرى تجعل زمنه موغلا فى القدم فمثلا عده الاغريق شخصية تأريخية وجعلوا زمنه يسبق زمنهم بـ (٥٥٠٠) عام ، أما بيروسس (برعوشا) المؤرخ البابلى الذى كتب تأريخ بابل باليونانية (فى القرن الثالث ق • م) فقد عين زمنه بنحو ٢٠٠٠ ق • م • أما أزمان الباحثين المحدثين فتتراوح من القرن العاشر الى القرن السادس ق • م •

لا يوجد سوى اله واحد هو «اهورا مزدا»[١] لا يوجد معه اله آخر سوى صفاته وأهمها «الروح القدس» و «العدل» ، والنية أو فكر الخير والتقوى والخلود • ومع ان «اهورا مزدا» هو الاله الاوحد السائد فى السموات ، الا انه وجدت معه منذ البدء روح الشر أو مبدأ الشر التى أخذت تنازعه ، فمنذ البدء كان هنـاك مبدآن توأمان ، الخير والشـر ، وعن هذين المبدئين نشأت الحياة والفناء أو اللاحياة ، أو الوجود السيء المتصف به أتباع الشر ، أما الوجود الافضل فلاتباع الخير والعـدل ويتجسـد مبـدأ الخير بالاله «اهورا مزدا» ، أى ان الخير نوع من اقنوم[٢] من هذا الاله ، والشر متجسد فى المبدأ الذى دعاه «اهريمان» • ويحيط باهورا مزدا أتباع الهيون خيرون يحاربون مبدأ الشر ، وهى حرب مستمرة تنتهى بانتصار مبدأ الخير • ان هذا المبدأ الثنائى (dualism) يجعل من الديانة الزرادشتية غير مطلقة التوحيد• أما الانسان فلا مفر له من اتباع أحد المبدأين ، وهو حر فى اختيـار أى منهما ، فينبغى على كل انسان أن يختار المبدأ الذى يرتأيه • أما الاشـرار فيصيرون من أتباع اهريمان ، والاخيار من أتباع «اهورا مزدا» وهناك دينونة ويوم آخر يحاسب فيه الانسان ، حيث ستنتصر مملكة «اهورا مزدا» ، ويهلك اهريمان وأتباعه ، وستعيش أرواح الاخيار حياة أخرى فى عالم سعيد خال من الشر ، وتهلك نفوس الاشرار • وهناك مجموعات من الشياطين (daeva) هى نتاج تفكير الشر والكذب والغرور ، وتنحصر أعمال هذه الشياطين فى الارض ، موطن الانسان ، وان الانسان بمجرد عمل الشر يسر شياطين الشر ويكون من أتباعها • وسيكون اهورا مزدا الديان الاعظـم يوم الحسـاب ، ويساعده «زراوستر» الذى سيقود الصالحين عبر السراط الفاصل بين النعيم والجحيم •

لقد نظمت العبـادة الزرادشـتية بموجب قواعد شـديدة فقد حرمت

---

(١) وورد في تراتيله أيضا بصيغة «اهورا» ، و «مزدا» و «اهورا مزدا» و «مزدا اهورا» •

(٢) (Hypostasis)

الضحايا والقرابين ، كما حرم شراب «الهوماء» المسكر الذى كان يستعمله المجوس فى الطقوس الدينية ويعتبرون عصير ذلك النبات بمثابة دم الاله العجل المسمى «هوماء» ، واتخذ مبدأ عدم دفن الميت أو حرقه أو غسله مخافة تدنيس العناصر الثلاثة المقدسة (التراب والنار والماء) فكانت أجسام الموتى تعرض فى أماكن مرتفعة فى الجبال أو على أبراج تبنى لهذا الغرض وبعد تخليص اللحم منها بواسطة الجوارح والوحوش تجمع العظام فى صندوق وتقبر فى قبر خاص على ما بينا فى عادة المجوس .

كانت الديانة الزرادشتية تعاصر فى زمنها تقريبا الديانة البوذية وهى تشبهها فى أمر مهم واحد هو انهما كلتاهما رد فعل عنيف ازاء الديانات الآرية البدائية المتصفة بالقرابين والتضحيات القاسية . ولكن اختلفت البوذية عن الزرادشتية فى مصيرها اذ انتشرت البوذية انتشارا بعيدا واسعا ولا يزال أتباعها يعدون بمئات الملايين فى حين ان الزرادشتية تكاد تكون الآن فى حكم الديانات الميتة باستثناء جماعة قليلة فى اقليم فارس وباستثناء المجوس (البارسى) فى الهند الآن (وعددهم نحو ٩٠ ألف)[١] ولعل من أهم أسباب عدم انتشار الزرادشتية بالنسبة الى البوذية ان الديانة الاولى فرضت أو أسندت من جانب حاكم ، أى من الطبقات العليا فى المجتمع ، فى حين ان البوذية كانت تعبر عن آمال الجماهير ، وهناك عامل مهم هو محاربة الاسلام للزرادشتية فى ايران وتعرضها لاضطهاد غزوات التتر لبلاد ايران .

واذ بقيت الديانة «الزرادشتية» زمنا قصيرا وهى على بساطتها وصفائها ولا سيما فى زمن حاميها الملك دارا الذى جعلها الديانة الرسمية فانه سرعان ما عاد الناس الى العبادات القديمة ولا سيما عبادة الاله مترا وعبادة الالهة «اناهيتا» ، حيث نجدهما يذكران فى الكتابات الملكية منذ عهد ارتحشستا

---

(١) ان هؤلاء متعلقون بالكتابات المقدسة القديمة ويعبدون النار والارض والماء والهواء بصفتها عناصر مقدسة ويعرضون جثث موتاهم فى «أبراج الصمت» لتاكلها الطيور الجوارح ، ويتصفون بحسن المعاملة والصدق

الثاني ، ومن ثم أخذ مترا المكانة البارزة في حين ان عبادة اهورا مزدا أخذت بالتضاؤل ، حتى انتشرت عبادة مترا أخيرا من ايران الى أنحاء الامبراطورية الرومانية[١] ولا سيما في القرن الثالث للميلاد ، كما أقيمت المعابد والتماثيل الخاصة بالالهة اناهيتا ، وهي عشتار أو افروديت الفارسية ، وخصصت بعض الكتابات المقدسة الخاصة بأهورا مزدا للسحر والعرافة ، كما برزت مكانة الكهنة المجوس ، واشتهروا بالزهد والعفة والحكمة حتى بين اليونان وصار ملوك الفرس بمثابة تلاميذ لهم يستشيرونهم في الامور المهمة • وحاول الملوك الساسانيون احياء الديانة الزرادشتية ، كما سنشير الى ذلك في كلامنا على الساسانيين •

ويروي لنا هيرودوتس انه لم يكن للفرس معابد ولا مذابح (هياكل) ولا تماثيل للآلهة ، وهذا صحيح من وجهة النظر اليونانية لانه لم يكن للفرس في الواقع معابد تؤمها الجماهير للعبادة • ولكن مع ذلك كانت لهم معابد خاصة ، نعرف منها ثلاثة معابد من العهد الاخميني ، أحدها في «بزركاده» بناه كورش والثاني بناه «دارا» الكبير في الموضع المسمى «نقش ــ رستم» أمام قبر دارا والثالث في سوسه ، ويرجح ان زمنه من عهد «ارتحششتا» الثاني •

ان قوام كل من هذه المعابد برج مربع يضم غرفة واحدة يرقى اليها بسلم ، وهنا كان يتولى المجوس شؤون النار المقدسة • أما الاحتفالات الدينية فيبدو انها كانت تقام في العراء ، حيث المذابح تقام بمسافة عن المعبد[٢] • كما ان الفرس مارسوا تمثيل آلهتهم بالصور والاصنام المنحوتة ، فنعرف مثلا ان ارتحششتا الثاني أقام جملة تماثيل للالهة «اناهيتا» في سوسة واكبتانا

---

(١) وقد أثرت بعض الطقوس الخاصة بعبادة هذا الاله في أعياد الديانة المسيحية ، حيث ان عيد الميلاد لم يكن بالاصل سوى عيد شمسي يقام في كانون الاول (في الشتاء) رمز انتصار الاله الشمس على أعدائه حيث يبتدئ اليوم بالطول • فصار من الاعياد المثرائية ثم اتخذ يوما مقدسا مقرونا بعيد الميلاد المسيحي • (Will Durant, **Op. Cit.**, 372)

(٢) Ghirshman, **Op. Cit.**, 160

وبابل وفي المراكز الاخرى المهمة من الامبراطورية • كما مثل الاله اهورا مزدا في معظم المنحوتات البارزة في واجهات القبور الملوكية الخاصة بالسلالة الاخمينية ، حيث مثل الملك وهو يضحى أمام مذبح فيه النار المقدسة ويعلو فوقه القرص المجنح الذي يخرج منه رأس اهورا مزدا وكفاه ، وهذه هي نفس الصورة التي تعلو المنحوتات البارزة في بهستون وفي جملة مآثر في برسيبوليس •وهذا الرمز أما انه مأخوذ من اسلوب تمثيل الاله المصري هورس (الاله الصقر) أو من رمز الاله آشور •

٤ ـ شيء عن الشريعة واللغة والفن والحياة الاقتصادية والاجتماعية

كان الفرس الاخمينيون من الاقوام التي عنيت بالفتح وادارة الدولة وتنظيم الجيوش والطرق أكثر من الاوجه الثقافية الاخرى ، ولعل أقرب شبه بهم الرومان ، وسنرى ان فنهم كان أقرب ما يكون الى الفن الانتخابي منه الى الفن الابداعي ، ويصدق ذلك على فروع الفن المختلفة •

ومهما كان الحال فانه حالما أعاد دارا الامبراطورية دعت الحاجة الى ضرورة وضع أسس القانون والادارة ، وقد سد دارا هذه الحاجة • ونستطيع أن ندرس الاسس القانونية من النقوش الكتابية التي خلفها لنا دارا في عدة مواضع ، في بهستون وبرسيبوليس وسوسة ونقش رستم ، وقد وجد الباحثون الذين اشتغلوا فيها عددا من أوجه الشبه بين كتاباته الخاصة بتنظيماته وشريعته وبين شريعة حمورابي[١] ، وكانت مثل هذه النصوص الملكية الرسمية تنسخ على المسلات أو الالواح أو البردي وترسل الى مراكز الولايات المهمة • وكان دارا مركزا جل اهتمامه في نظام الادارة على تطبيق العدل ، وان قوانينه واوامره التي أصدرها بقيت يسار عليها في ايران زمنا طويلا من بعد زوال الامبراطورية • ويروي لنا هيرودوتس ان «القضاة الذين كانوا يختارون من الفرس يظلون في مناصبهم مدى الحياة ، ما لم يخلعوا بسبب زيغهم في تطبيق العدالة» ولكن شرائع الاقوام التابعة ظلت معمولا بها • وكان الملك

(١) Ghirshman, **Op. Cit.**, 152 — 53.

مصدر القوانين والشرائع وارادته هي القانون ، واشتهر الفرس لدى الاغريق وفي التوراة بالتمسك بالقانون • وكانت الاحكام والارادات التي يصدرها الملك تعتبر موحاة من الاله « اهورا مزدا » نفسه ، كما ان الملك كان المحكمة العليا التي يستأنف اليها ،ويلي ذلك محكمة عليا خاصة للعدل مكونة من سبعة حكام ، ويلي هذه المحكمة العليا المحاكم المنتشرة في أنحاء المملكة ، ونشأ بمرور الزمن وبكثرة الاقضية السابقة جماعة خاصة متطلعة بالشؤون القضائية كانت بمثابة الفقهاء والمحامين • وكانت الرشوة من جانب الحكام من الجرائم الكبرى • ويروى ان قمبيز عاقب مرة أحد القضاة الذي لم يلتزم اصول العدل بأن سلخه وهو حي ، واستعمل جلده مقعدا في منصة القاضي وقد عين ابنه مكانه[١] • وكانت هناك أنواع مختلفة من العقوبات كالجلد والتشويه وقطع الاعضاء ، وسمل العيون والسجن والموت بالصلب والشنق والرجم ، وسحق الرأس بين حجرتين كبيرتين ، والحرق ، وهناك حالة خاصة عجيبة من عقوبة الموت يصح أن نسميها موت «القوارب»[٢] •

لقد أوجد الفرس الاخمينيون خطا مسماريا خاصا بهم اشتقوه من الخط المسماري البابلي بعد تبسيط ما أخذوه وجعله أشبه ما يكون بحروف

---

(١) Cambridge Ancient History, III, 347

(٢) يروى لنا فلوطرخ في ترجمة حياة ارتحشستا الثاني (Plutarch, Lives, III 464) ان أحد الجنود صرح في حالة سكر انه هو الذي يرجع اليه الفضل في قتل احشويرش الاصغر في موقعة «كوناكسه» وليس الى الملك • فأمر الملك بان يعاقب ذلك الجندي (واسمه مثريداتس) بوضعه في القوارب • أما هذه الطريقة من الموت فقوامها أن يهيأ قاربان يطابق أحدهما الآخر فيوضع في أحدهما المحكوم عليه على ظهره ويطبق عليه القارب الآخر بحيث ينطبقان تماما ولا يخرج من الشخص سوى رأسه ويديه ورجليه ، وبعد ان يطعموه طعاما يصبون فوق رأسه وفمه خليطا من اللبن والعسل ، ويجعلون وجهه مواجها للشمس على الدوام ، وسرعان يهجم عليه الذباب فيعظه ، ثم ان ما يفرزه جسمه المغطى بالقاربين يولد الديدان والحشرات التي تدخل الى أحشائه الداخلية ، حتى يتلف جسمه وتأتي الديدان على جميعه ، وقد قاسى بهذا الاسلوب مثريداتيس ١٧ يوما ثم مات من بعدها •

الهجاء (أو بالاحرى هجائي – مقطعي) ، وقد اقتصر استعمال هذا الخط المكون من (٤٣) علامة مسمارية على بضعة ألواح وعلى النقوش فى الحجر • ولكن اتساع المملكة الفارسية الى امبراطورية معظمة ودخول جملة أقوام متحضرة فيها جعلت من المتعذر استعمال اللغة الفارسية بالخط المسماري ، فظلت العيلامية فى عيلام والبابلية بخطها المسماري فى بلاد بابل ، وكانت الآرامية المكتوبة بالهجائية قد انتشرت فى معظم أجزاء الشرق الادنى ، فاستخدم الفرس الاخمينيون الآرامية لتكون لغة المعاملات المشتركة فى أنحاء الامبراطورية • ولصعوبة الخط المسماري الاخميني الذى دونت به الفارسية القديمة اتخذ الفرس أيضا الخط الآرامي لكتابة لغتهم الى جانب الخط المسماري ، الذى انحصر كما قلنا فى نقوش مآثر الحجر ، وقد وجد نموذج من الفارسية المكتوبة بالحروف الآرامية فى قبر دارا ولعل الكتابات الاخرى نقشت على الرق أو البردى فلم يصلنا منها شيء • أما ألوف الوثائق التى جاءتنا من «برسيبوليس» فلم يكن نص واحد من بينها مكتوب بالفارسية ويوجد عدد قليل منها بالآرامية ، أما الغالبية فمدونة بالعيلامية •

لم ينشأ الفن الفارسي الاخميني بطريقة التدرج والتطور البطيء ، فكان شأنه مثل نشوء الامبراطورية السريع ، ومع ان الفن الايراني انتخابي فى جوهره ، وأخذ الشيء الكثير من أنماط الفنون والحضارات الناضجة التى دخلت أقوامها فى حظيرة الامبراطورية ، ومع انه تأثر بالفن اليوناني ولا سيما بالفنانين الايونيين ، نقول مع كل ذلك فقد تميز فنهم بالطابع الخاص ولا سيما فن العمارة • فقد جاءنا من ملوكهم العظام ، كورش ودارا واخشويرش الاول نماذج من فن العمارة الراقي فى القصور الشهيرة فى عواصمهم المشهورة – بزركادة وبرسيبوليس والسوس وبابل ، ونلاحظ فى فن العمارة فى القصور آثار اصول العمارة البابلية • وقد سبق أن أشرنا الى

نتائج التنقيبات المهمة فى العاصمة برسيبوليس[١] حيث القصور الفخمة وقاعات العمد ، والجدران المزينة بأفاريز المنحوتات والكاشى الملون بالمينا ، ولقد توقف فن العمارة من بعد ارتحشستا الاول فلم يطرأ عليه شيء جديد • أما عن النحت المجسم فلا يعرف عن النحت الفارسى أشياء يعتد بها باستثناء تماثيل أشخاص صغيرة وجدت حديثا فى برسيبوليس[٢] ، واقتصر فن نحت التماثيل على تمثيل الملوك والامراء • ومما يقال عن الفن الفارسى بهذه المناسبة انه فن البلاط الرسمى ولذلك حرم من الحرية التى تمتع بها الفن اليونانى • وينبغى التنويه بالفن فى واسطة المعدن ولا سيما البرونز الذى جاءتنا منه نماذج طريفة فى تمثيل الحيوانات كالاسود والخيل • كما ان فن الصياغة والحلى يستحق التقدير والاعجاب وقد أمدتنا التنقيبات فى برسيبوليس بآلاف من أوانى الحجر بعضها مزين برؤوس الاوز والبط (وهو طراز شائع فى الفن الاسكيثى) • كما جاءتنا مجموعات من الاحجار والفصوص والخواتم الاسطوانية والمنبسطة ولدينا ختم نفيس منقوش باسم دارا[٣] •

ونختم كلامنا على الاوجه الحضارية للعهد الاخمينى بذكر بعض الملاحظات المفيدة عن الحياة الاقتصادية ، فنقول ان جملة عوامل مهمة عملت على ازدهار الحياة الاقتصادية فى ايران وحسنت التجارة الخارجية ما بين أجزاء الامبراطورية • وعلى رأس هذه العوامل ما سبق أن رأيناه من توحيد جميع آسية الغربية والشرق الادنى تحت حكم السلالة الاخمينية ، وتقسيم هذه الرقعة الشاسعة الى ولايات تحت ادارة مركزية ، وايجاد نظام من طرق

---

(١) بدأ التحرى من جانب المعهد الشرقى فى برسيبوليس منذ عام ١٩٣١ •

أنظر النشرة الاخيرة لهذه التنقيبات

(Erich Schmidt, **Persepolis** 1951).

وكذلك

__________ **The Treasury of Persepolis** (1939).

(٢) Ghirshman, **Op. Cit.**, 175, Pl. 22.

(٣) Ghirshman, **ibid.**, 178.

المواصلات البرية والبحرية ونظام البريد لربط أجزاء هذه الامبراطورية الواسعة ، وايجاد نظام متوازن من الضرائب ، وادخال الأوزان والقياسات المطردة ، وأخيرا وليس آخرا ادخال النقود المسكوكة • فقد سبق أن نوهنا بنشوء نظام النقود المسكوكة فى ليدية قبيل عهد « قارون » ، فانتشر استعمالها سريعا فى آسية الصغرى وأدخل استعمالها دارا فى امبراطوريته • ونستطيع من دراستنا ألواح الطين المكتوبة من برسيبوليس أن نقف على دور الانتقال فى الاقتصاد من نظام دفع الاجور بطريقة المبادلة أى دفع الاجور عينا : باللحوم ، والحبوب ، والخمور ، الخ • ولكننا نجد دفع الاجور فى عهد احشويرش يتم بدفع ثلثيها عينا والثلث الآخر نقدا ، ثم تناقص الدفع بالمواد العينية فى عهد الملك نفسه الى الثلث • وملخص القول اقتضى مرور زهاء نصف قرن قبل أن يحل النظام النقدى محل المقايضة • وقد بلغ حجم التجارة فى القرنين السادس والخامس ق • م مقدارا لم يعرف من قبل •

واهتم معظم ملوك السلالة الاخمينية فى تحسين انتاج الاراضى الزراعية، فقد اشتهر الملوك الاخمينيون بحفر القنوات (الكهاريز) تحت الارض • واتسعت الزراعة وعملت الاتصالات بين أجزاء الامبراطورية فى نقل بعض النباتات والاشجار من قطر الى آخر ، ومن ذلك انتقال البرسيم (Lucerne) الذى يكثر فى وديان بلاد ماذى ويصلح علفا للحيوانات ، وقد نقله الفرس الى بلاد اليونان فى حروبهم هناك ، ونقل أيضا بواسطة هذه الحروب الدجاج المدجن والحمام الابيض والطاووس[١] • واهتم دارا بوجه خاص فى زراعة الاشجار وزرع الانواع الجديدة منها ، ليس فى فارس حسب بل فى أجزاء الامبراطورية ، فقد حاول الفرس زرع نوع جديد من الكروم فى دمشق وانهم أدخلوا الفستق الى حلب وأدخلوا زراعة السمسم الى مصر والرز الى العراق ، وسارت الدول التى قامت من بعد الاخمينيين فى العهد الهلنستى على

---

(١) Ghirshman, **ibid.**, 182.

نفس السياسة • وننوه بما ذكره هيرودوتس عن ازدهار العراق فى الزراعة فى هذا العهد ، ومع ان هذا امتداد من العصور السابقة ، ولكن المحافظة عليه والاعتناء بشؤون الرى فى هذا العهد لما يستحق التسجيل • واستمر نظام الزراعة على أساس ملكية الاراضى الكبيرة التى يشتغل فيها فلاحون مربوطون بالارض أشبه ما يكونون بالرق ، وكذلك استعمال الرق من أسرى الحروب• وكانت الملكية الصغيرة معروفة ، ولكن أهميتها دون النوع الاول من الاقطاعات الكبيرة •

وكانت الامبراطورية الفارسية بولاياتها الغنية بمختلف الموارد على درجة عالية من الاكتفاء الاقتصادى • فهناك مراكز مهمة للاخشاب الجيدة لاستعمالها فى البناء والقوارب والعربات والاسلحة ومكائن الحرب المختلفة • ونذكر من أشهر هذه المراكز آسية الصغرى وكريت وقبرص ولبنان والهند • كما كانت هناك مراكز مهمة لاستخراج المعادن ، فمثلا ينتج من قبرص الفضة والنحاس والحديد ومن آسية الصغرى النحاس والفضة ، ومن مصادر النحاس والحديد المهمة لبنان وأقسام دجلة والفرات العليا • وينتج اقليم كرمان الذهب والفضة ، واشتهر اقليم سستان بالقصدير وجنوبى القوقاز بالفضة والحديد ، وكذلك سواحل البحر الاسود الجنوبية • وازداد الاعتناء باستخراج الاحجار من مواضعها المشهورة حيث أصبحت الحاجة اليها شديدة باتساع أعمال البناء • فاشتهرت جبال عيلام بحجارة البناء الجيدة واللازورد من «بدكشان» والفيروز (Turqoise) والعقيق من خراسان • كما زادت العناية بالصيد حيث مواضع صيد السمك المشهورة فى خليج فارس ودجلة والفرات ، وقد ازدهرت تجارة الاسماك المملحة المقددة •

العراق فى العهد الاخمينى :ـ

وننهى هذه الملاحظات ونختم كلامنا على المملكة الاخمينية بالتنويه بأهمية العراق بصفته ولاية من ولايات الامبراطورية الفارسية • فقد سبق أن رأينا



نماذج من جنود الفرس النبالة (يحمل هذان الجنديان الرماح لانهما من حرس القصر الملكي) • لاحظ زي لباس الجنود المقتبس عن الزي البابلي • صور مثل هؤلاء الجنود على جدران القصور بالآجر المزجج

من تقسيم الامبراطورية الى ولايات أهمية الولاية[1] التاسعة أي ولاية بابل وآشور • ولكن فصلت هذه الولاية في حدود ٤٧٨ ق • م (كما في أخبار زينفون) الى ولاية بلاد بابل وبلاد آشور ، وألحقت ولاية آشور بالولاية السادسة التي كانت في عهد دارا ، وهي الولاية التي أطلق عليها اسم «عبر النهر» (عبر نهارا) وهي تشمل سورية وفلسطين وقبرص • ورأينا أهمية بلاد بابل من الضريبة السنوية المترتبة عليها فكانت تأتي ثاني ولاية في مقدار تلك الضريبة (١٠٠٠ وزنة) ثم يلي ذلك مصر • ويخبرنا هيرودوتس ان «الملك العظيم وجيشه كانوا يجهزون بالطعام والمؤن طيلة أربعة أشهر من

(١) أنظر ما ذكرناه عن اسم الولاية والوالي (Satrap) التي يرجع أصلها الى الفارسية القديمة • وقد ترجم البابليون كلمة «ستراپي» بمصطلح «بيحة» (Pakhatu) وسميت بالآرامية «مدينة» ، وتعني منطقة قضائية •

السنة من بلاد بابل وفى الاشهر الثمانية الباقية من بقية آسية» • وكان يعين لولاية بابل كما فى سائر الولايات حكام من الفرس من الطبقات النبيلة ، ونحن لا نعرف الاسباب الحقيقية التى دعت البابليين الى الثورة على الفرس فى أثناء غياب قمبيز فى مصر ، أهى من جراء فداحة الضرائب أم بدوافع قومية ضد الحكم الفارسى الاجنبى ، على الرغم من السياسة التى سار عليها كورش من مداراة أهل البلاد ودعواه فى تخليصهم مما حل بهم من الاضطهاد فى أواخر الملك البابلى نبونهيد • ومهما كان الحال فقد كانت هذه الثورة شديدة وكلف اخمادها الملك دارا جهودا كبيرة ، على ما رأينا • ورأينا بلاد بابل تثور أيضا على الحكم الفارسى فى عهد احشويرش الاول ، وكيف ان هذا الملك أخمد الثورة بقسوة شديدة ، حتى انه دمر المعابد والقصور • ومهما كان الامر فانه باستثناء هذه الثورات ازدهرت الحياة فى بلاد بابل ، وحافظت على شهرتها القديمة فى الانتاج الزراعى وفى الاعتناء بشؤون الرى ، وقد أدهش هيرودوتس بذلك وبما شاهده من عمران بابل وقصورها وعجائبها ، وترك لنا أخبارا طريفة عن أحوال العراق فى هذا العهد[١] •

ومع أن الفرس الاخمينيين اتخذوا خطا مسماريا خاصا بهم على ما ذكرنا واتخذوا الآرامية الا انهم اعتمدوا كثيرا على طرق السجلات والوثائق التى وجدوها فى المركزين الحضاريين المهمين ، بلاد عيلام وبلاد بابل ، حيث ظلت السجلات التجارية المهمة تدون بالعيلامية والبابلية ،ولذلك فان مصادرنا المهمة عن أحوال الامبراطورية مأخوذة من الوثائق البابلية والعيلامية والآرامية • وقد وجدت ألوف كثيرة من هذه الوثائق فى مختلف مدن العراق القديمة ، وألوف أخرى فى مدينة السوس • ويمكننا القول بالنسبة الى كثرة الوثائق التى جاءتنا من العراق القديم فى هذا العهد انه لا توجد

---

(١) نحيل القارى، الى هذه الاخبار الممتعة فى هيرودوتس • أنظر ترجمة تاريخه :ـ

The History of Herodotus, By George Rowlinson (Everymans Library), (1936).

حقبة من حقب الثلاثة آلاف عام من تأريخ بلاد بابل الاقتصادى والاجتماعى ما يعادل حقبة القرنين وربع القرن منذ عام ٦٢٥ (وهو بداية العهد البابلى الاخير) ، حيث قدر ما جاءنا من هذا العهد بزهاء (١٠) آلاف وثيقة من الوثائق التجارية والادارية ، وهى موزعة بالتساوى تقريبا بين العهدين البابلى الحديث وبين القسم الاول من العهد الاخمينى فى العراق ، وقد درست هذه الوثائق ونشرت جميعها مما جعل فى متناول الباحث مصدرا غزيرا لمعرفة الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى العراق • وبالاضافة الى هذه الوثائق التجارية جاءنا من هذا العهد نحو (٦٠٠) رسالة[١] • واذا كان مجال البحث لا يمكننا من بحث هذه الوثائق فنكتفى بالتنويه بأهميتها بكونها تجهز الباحث الاقتصادى بمادة وفيرة تمكنه من كتابة فصل ممتع مهم فى تأريخ الاسعار والحياة الاقتصادية ، موضحا بالخطوط البيانية[٢] • وننوه أيضا بالمصارف المعبدية المهمة • وكان ظهور المصارف قبل هذا العهد فى بلاد بابل من الظواهر المهمة فى الحياة الاقتصادية ، وكان أبرز ما فيها ظهور مبدأ «الكريدت» (Credit) وهو مبدأ كان معروفا فى بلاد بابل قبل العهد الاخمينى بأزمان ، وكانت القروض متمركزة فى أهم مؤسسة اقتصادية هى المعبد ، واستمرت المصارف المعبدية فى العهد الاخمينى • وكانت القروض التى يعطيها ملاك الارض الى الفلاحين الى موسم الحاصل الجديد تتم فى الاغلب بدون فائض ، ولكن فى حالة عدم الدفع تضاف اليها الارباح • والى جانب المصارف المعبدية ظهرت المصارف الخاصة وكان ذلك بوجه واضح فى حدود ٦٤٨ — ٦٢٦ ق • م[١] •

---

(١) أحسن بحث فى هذه الوثائق وفى أحوال العراق فى هذا العهد يجده القارىء فى :—

Olmstead, **History of the Persian Empire** (1948), ch. V.

(٢) وقد كتبت فى الواقع مثل هذه البحوث ، ونخص بالذكر منها :—

W.H. Dubberstein, "Comparative Prices in Later Babylonia" (625—400 B.C.) in **Amer Jour. of Sem. Languages,** 1939) 20 ff.

(٣) W. H. Dubberstein, "Assyrian Babylonian Chronology" in **Jour. of Near East. Studies,** III (1944), 38 ff.

واشتهرت من الشركات المصرفية الشهيرة في بابل شركة عرفت باسم «ايكيبي» (Egibi) ، ويرى الباحثون ان هذه عائلة يهودية وان مؤسسها محرف عن يعقوب[١] وعائلة أخرى باسم «ايرانو» • واشتهرت عائلة تجارية مصرفية في عهد دارا الثاني (٤٢٣ ـ ٤٠٤ ق • م) وارتحشستا باسم «موراشو» ، وكانت عبارة عن شركة مالية مهمة في نفر ، وهي يهودية أيضا ، وقد جاءتنا منهـا ألواح كثيرة مدونة بالشؤون المالية[٢] •

الاسكندر والعهد السلوقي

كان المقدونيون في عهد «فيلب» والد الاسكندر محصورين في القارة الاوربية بسبب عزلتهم عن مراكز الحياة اليونانية السياسية • وتكون بلادهم الجزء الوسطى من شبه جزيرة البلقان وتتألف من سهول واسعة مستوية يحددها ويخترقها آكام وحزون وعرة ، مناخها قارس شديد ولها موارد طبيعية غزيرة • وهي بلاد زراعية ممتازة • لقد أدرك فيلب مؤهلات قومه وبلاده فشرع في انماء ثروتهم بفتحه مناجم الذهب ووحد قبائلهم تحت عرشه ، وهيأهم الى الفتح والتوسع بتدريبهم تدريبا عسكريا شاملا وبعد خمس عشرة سنة من حرب متواصلة مع الدويلات الاغريقية انتخب أخيرا في مؤتمر «كورنث» قائدا عاما لجميع الاغريق ليتولى الحملة على بلاد فارس • اذ ان نجاح الثورة الاغريقية وصد الجيوش الفارسية التي أرسلت الى بلاد الاغريق منذ الثورة «الايونية» وتعرف اليونان على بلاد فارس ومواطن ضعفها كل ذلك جرأ المقدونيين واليونان المتحدين وحولهم من موقف الدفاع الى موقف الهجوم على الامبراطورية الفارسية • ولكن «فيلب» أغتيل في اليوم الذي خصص لبدء الحملة فخلفه ابنه الشهير «الاسكندر» الكبير •

ولا يسعنا في هذا الموجز أن نسهب القول في ترجمة الاسكندر ومزاياه

---

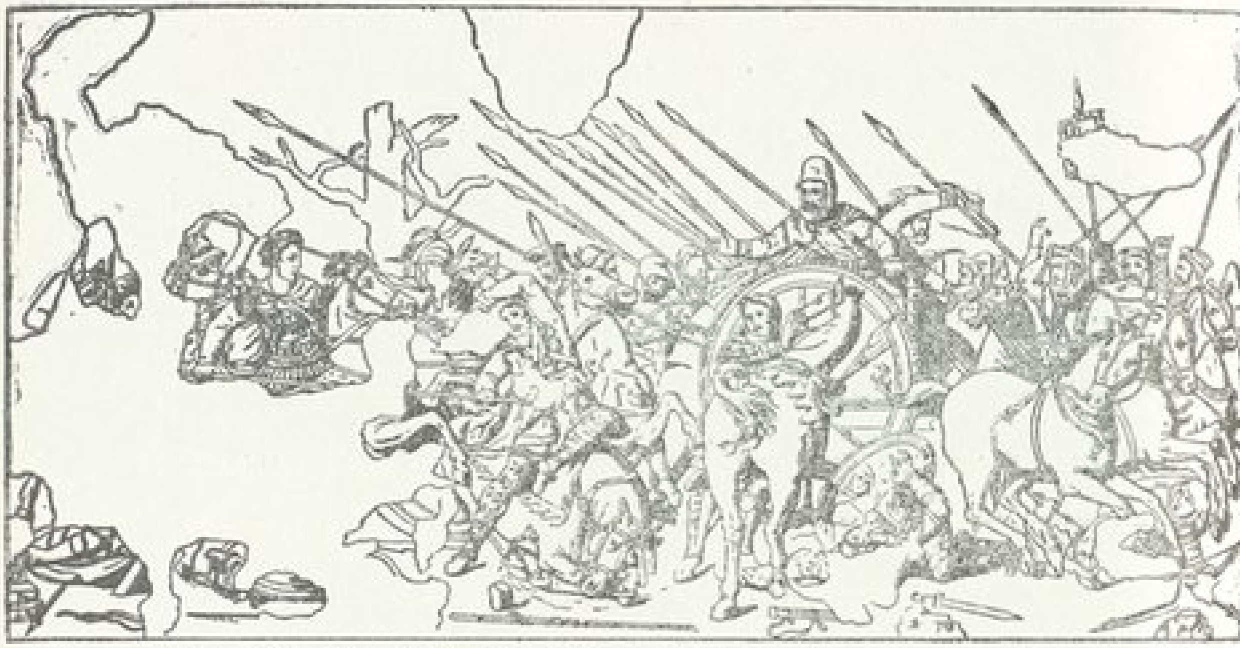
(١) Olmstead, **Op. Cit.**, 83 ff.

(٢) أنظر نشر هذه الالواح في :ـ
The Bab. Expd. of the Un. of Pennsyl., IX.

الشاذة الخارقة فنكتفي بالتنويه ببعض العوامل المؤثرة في شخصيته وعلى رأس ذلك وراثته عن أبيه شجاعته واقدامه وأخذه عنه التدريب العسكري فقد قاد في عهد أبيه الجيوش في حرب المدن اليونانية وأبدى مهارة فائقة ، كما ينبغي التنويه بوراثته عن أمه «اولمپياس» المشهورة بحدة العاطفة . ونذكر أيضا علاقته بالفيلسوف اليوناني الشهير «ارسطو» حيث تولى هذا تثقيفه وهو في سن ١٣ عاما ، واشتهر عنه انه كان مغرما بالشعر والادب اليوناني ، حتى انه كان يحمل معه على الدوام نسخة من الالياذة أصدرها له ارسطو نفسه ، ولعل من آثار تعليم ارسطو له ما أوثر عنه من اهتمامه بالفلسفة والمعرفة والعلوم والطب . وتروى عنه حادثة طريفة في أواخر حياة أبيه . وهي ان أباه طلق أمه ليتزوج من ابنة أحد قواده التي أحبها ، وفي الحفلة التي أقيمت بهذه المناسبة طلب أبو البنت ، وكان ثملا ، أن يشرب المجتمعون نخب وارث العرش الآتي (من ابنته) فما كان من الاسكندر الا ان قذف كأسه بوجه القائد لانه أهانه وأهان أمه . فنهض فيلب مجردا سيفه ولكنه سقط لانه كان ثملا .

وعندما خلف الاسكندر أباه[١] وافق الجميع على توليه أمر الحملة على فارس فاستعد لها خير استعداد ، وبدأ اولا اخضاع «تراقية» لئلا يبقى في مؤخرته عدوا ، ونقل من بعد ذلك جيشه بأساطيل عبر الدردنيل . ويروى ان الاسكندر كان أول من قفز الى الشاطىء فقصد على الفور «طروادة» لزيارة مزار هناك فأهدى درعه وأخذ بدلا منه تذكارا من آثار «اخيلوس» (بطل الياذة هوميروس) كان معلقا على الجدران . وصادف من بعد ذلك أول جيش فارسي فجرت معركة عند نهر «الغرانيق» (Granicus) دحر فيها الجيش الفارسي وكانت معركة ملتحمة كاد الاسكندر يفقد فيها

(١) ولد الاسكندر في عام ٣٥٦ ق . م ، واعتلى العرش في ٣٣٦ ق.م وبدأ حملته على آسية في عام ٣٣٤ ق . م ، وفتح العراق في ٣٣١ ق . م وتوفي في عام ٣٢٣ ق . م وهو بسن ٣٣ عاما .



مشهد طريف يمثل نهاية موقعة ايسوس الشهيرة بين الاسكندر الكبير (وهو الشاب في الجهة اليسرى من الصورة) وبين دارا الثالث (الذى يشاهد في اللحظة التى أدار عربته في هربه)

حياته • ثم زحف الى الجنوب وسلك من «ساردیس»[١] نفس الطريق الذى سلكه «كورش» و «زينفون» من قبله • أى انه مر من طرسوس ثم الى «الباب السورى» المؤدى من كيليكية الى شمالى سورية • أما «دارا» الثالث ، الملك الفارسى فانه استطاع أن يحشد جيشا قوامه ٤٠٠٠٠٠ رجل وزحف للدفاع عن مملكته ، ولكنه سار فى الطريق الجبلى حاسبا انه سيلاقى الاسكندر فانتظره في مجازات جبال «انتى – طوروس» وعند ما وصل الى (توبراكاله) وجد نفسه فى مؤخرة الاسكندر الذى كان يستهدف (سكل – توتان) ، وعندما

---

(١) قبل أن يلاحق الاسكندر جيش الفرس الذى انهزم معظمه ما عدا المرتزقة الاغريق الذين قتلهم جيش الاسكندر باعتبارهم خونة ، حرر الجيش المقدونى المدن اليونانية فى آسية الصغرى التى كانت تابعة الى الفرس • والغريب فى أمر احدى هذه المدن (وهى هليكار ناسوس مسقط رأس هيرودوتس الشهير) أنها أبت التسليم وفظلت بقاءها تابعة الى الفرس فأحرقت ودمرت •

كان الاسكندر يقترب من سورية أعاقته زوبعة فى (مرياندوس) فى الوقت الذى بلغته الانباء عن مكان (دارا) • فرجع فى أثره وتلاقى الجمعان على جانبى مجرى ماء فى (ايسوس) بمسافة قليلة الى الشمال من (المجاز) • فجرت أولى المعارك الكبيرة التى تحطم فيها الجيش الفارسى وانهزم الملك •

وكانت جيوش الاسكندر على نظام خاص يحسن ان نلقى نظرة عجلى على تأليفه • فأكثر ما يمتاز به نظام التعبئة عند الاسكندر نظام الصف (Phalanx) ، الذى كان أقوى أجزائه وقد بلغ فى وقت من الاوقات ٢٠٫٠٠٠ رجل من الجنود المسلحين بحراب كبيرة طولها ٢٠ قدما ، وسيوف وبيضات وتروس ودروع وقد دربوا على القتال فى ستة عشر صفا ، صفا بعد صف ، وتروسهم متصلة بعضها ببعض ، وقد سلحت الصفوف الخمسة الاولى برماح مشهورة (طولها ١٣ – ١٤ قدما) • ويأتى من بعد ذلك صنف من المشاة مسلح تسليحا ثقيلا[١] ويحمل تروسا مقدونية مدورة • وصفوة هذا الصنف المشاة المشهورون المدرعون بالدروع الفضية ، ويليه صنف آخر يحمل تروسا أخف[٢] ثم رماة القذائف الذين هم فى الغالب من الشعوب التابعة • وكان حرس الاسكندر الخاص مؤلفا من الطبقة النبيلة من المشاة ، وكذلك خيالة من المقدونيين يسمون «بالاصحاب» ويأتى بعد ذلك عربات تجرها خيول محمية بالزرد • وأضيفت الفيلة الى قوام الجيش من بعد غزو الاسكندر الهند • وكانت الفيلة تعصب بعصائب وقنازع وتحمل فى القتال عدا السائق أبراجا من الخشب فى كل منها أربعة رجال مسلحين • ومما يؤثر عنها انه كان يقدم أمام أنظارها قبل دخولها القتال عصير ثمر أحمر «اما لاهاجتها أو لمنع ارتباكها واضطرابها عند رؤية الدم» •

كاد المقدونيون يخسرون المعركة فى «ايسوس» ، وذلك عندما عبرت

---

(١) ويصطلح على هذا النوع من الجنود اسم (hoplite)

(٢) (Peltast)

الصفوف النهر فتعثرت فى الضفة المقابلة وحل فيها الاضطراب • ولكن الهجوم الناجح الذى شنته خيالة الاسكندر على ميمنة الفرس قرب الاسكندر الى حيث كان الملك واقفا فى عربته • وبعد معركة خذلت دارا شجاعته فولى هاربا تاركا جيشه فى ارتباك وفوضى (انظر الشكل ص ٤٤١) ، وخلف وراءه نساءه وأهل بيته وقد عاملهم الاسكندر معاملة شريفة لائقة • ومما يؤثر ان الاسكندر كتب الى دارا بعد قليل بقوله له « ليس عليك الا ان تأتى لتسألنى فأعيد اليك زوجك وأمك وأطفالك وأى شىء آخر ترغب فيه • أما فى المستقبل فاذا كتبت الى فعليك أن تخاطبنى باسم ملك آسية العظيم ولا تكتب الى كند. بل خبرنى عما تحتاج اليه كسيد كل ما تملك واذا نازعتنى المملكة فتمهل وحارب من أجلها مرة أخرى • ولا تهرب لاننى سأزحف عليك أينما كنت » •

لم يلاحق الاسكندر دارا الى قلب آسية فكان ذلك منه بعد نظر وحسن تدبير • ولكنه عرج جنوبا ليحصل قبل كل شىء على بلاد الشام وفينيقية ومصر ، فخضعت له كل المدن الساحلية الا صور ، فكان حصارها ثم فتحها (٣٣٢ ق • م) من أصعب مشاريع الاسكندر الحربية • وقد دمرها الاسكندر بعنف •

وقد استقبل الاسكندر فى خلال الحصار وفدا من دارا قدم له فدية كبيرة عن عائلته واقتراحا بحلف عسكرى • وقد روى أنه عندما بدأ الاسكندر يبحث الاقتراح فى مجلس الشورى قال «بارمينو» أحد أصحاب الاسكندر : «لو كنت مكانك لقبلت» • فرد الاسكندر على ذلك بالجواب المشهور : «وكذلك كنت أفعل لو كنت مكانك» • وبدلا من أن يقبل الاسكندر ذلك الاقتراح قصد مصر (عام ٣٣٢ ق • م) بعد أن حاصر غزة زهاء شهرين جرح فى المعركة فى أثناء ذلك ثم زحف على مصر حيث لاقى مقاومة قليلة من الحاكم الفارسى • وقد أبحر من «منفس» وخطط بنفسه فى موضع بين

بحيرة مريوط والساحل مكان الاسكندرية[١] ، أشهر مدنه الجديدة • وقبل أن يتجه الى بابل قام بعمل حكيم عندما أبقى ادارة البلاد بيد أهلها بالدرجة الاولى ، ما عدا قيادة الحامية التى اودعها الى قواده واحترم دياناتها وقدم القرابين للآلهة المصرية ولقب نفسه «ابن آمون» حيث زار معبد هذا الاله الذى انبأه انه سيحكم العالم •

ثم توجه من بعد ذلك الى العراق من قرب دير الزور[٢] فسار شرقا الى دجلة وعبره بمسافة قليلة الى شمالى الموصل • وسار الى «كوكميلة» حيث وجد دارا معسكرا فجرت معركة كانت حاسمة فى القضاء على الاخمينيين[٣] • وكانت «كوكميلة» غربى نهر «الخازر» ، شمالى غربى اربيل بنحو ٢٠ ميلا • ويميل الكثيرون الى تسمية الموقعة باسم « اربلا » ، وهم وهم مصدره ان الاسكندر جلب الغنائم بعد انتهاء المعركة الى (اربيل) الى الجنوب الغربى من موضع المعركة بعشرين ميلا •

بلغ جيش دارا ، كما يروى ، المليون رجل بضمنهم مرتزقة من الاغريق ومائة عربة ذات فؤوس • وكانت خيالته وحدها تربو على جيش الاسكندر بكامله (بلغ جيش الاسكندر زهاء ٤٠٫٠٠٠ من المشاة ونحو ٧٠٠٠ فارس)

---

(١) تروى المآثر انه بنى زهاء ١٧٠ اسكندرية ، ولا يعلم مبلغ صحة ذلك ولكن المؤكد انه بنى ما لا يقل عن عشرين مدينة وسماها الاسكندرية ، بعضها فى العراق وبعضها فى بلاد إيران مثلا فى هراة وهندوكوش •

(٢) عبر الاسكندر الفرات فى الموضع المسمى «ثبساكوس» جنوب غربى حلب ، وقد أقام القائد «بارمينيو» جسرا هناك بعد أن فتح دمشق ثم التحق به جيش الاسكندر الاصلى •

(٣) يبدو ان الجزع اشتد بدارا وحاول تسوية الامر صلحا مع الاسكندر فاقترح عليه انهاء الحرب وجعل الفرات فاصلا بين الامبراطوريتين وانه يزوج ابنته من الاسكندر ، وان ابنه يبقى رهينة عنده على أن يطلق سراح امه وابنته (وقد توفيت زوجته وهى لدى الاسكندر الذى دفنها باحتفال مهيب) ويقدم له مقابل ذلك فدية كبيرة (قدرها ٣٠٫٠٠٠ وزنة من نقد الفضة) ، وانه سيقاسم الاسكندر سلطانه ويشاركه فى الحكم بصفته زوج ابنته • ولكن الاسكندر رفض هذه العروض •

فكان المقدونيون معرضين الى حركة التفـاف مفاجئـة أو الهجوم عليهم من المؤخرة ولذلك فان خطط الاسـكندر التعبوية تجاه هذه الصعوبات حرية بالدرس والملاحظة • فبعد أن أنف من تبييت عدوه رتب جيوشه في الصباح واضعا (بارمينيو) والخيـالة في الميسرة ، والصفوف في القلب ، ووضع في الميمنة المشاة المسلحين تسليحا ثقيلا ، ووضع جندا من صنف كل من الميمنة والميسرة خلف ذلك بصورة منحرفة اتقاء حركة التفاف من العدو • وبدأت المعركة بتعرض جيش الاسكندر الى حركة التفاف من ميسرة جيش العدو • فحمل الاسكندر تجاه ذلك متجها بهيئـة مائلة الى اليمين واستمر في نقل كتائبه وصفوفه الثقيلة في الاتجاه نفسه • فأمر دارا بهجوم على جناح الاسكندر لصدهم ، ولكن نبالة الاسكندر أسقطوا الخيول والسواق فانفتحت كتـائب المشاة وقد أحدثت العربات ثغرة في جناح الفرس الايسر اقتحمها الاسكندر على رأس خيالته ، شاطرا صف الفرس شطرين وزحفت الصفوف زحفا عنيفا على قلب جيش دارا ، ففقـد الملك الفـارسي صوابه ، فأدار عربته وولى هاربا ، وبعد ذلك بقليل تقرر مصير آسية وكانت نهاية الامبراطورية الفارسية الاخمينية • وبعد أن تمهل الاسكندر قليلا في «اربل» سـار منحدرا الى بابل •

لم يلاق الاسكندر حربا في بابل بل ان الحاكم الفارسي (مازيوس) سلم المدينة الى الفاتح • واتبع الاسكندر في بابل سياسة التسامح والمداراة التي اتبعها في مصر • فأعاد الحاكم (مازيوس) الى منصبه ، وألقى في روع السكان انه خلصهم من اضطهاد البرابرة • وصمم على اعادة بناء معابد الآلهة • ومن الامور المثيرة ان الاسـكندر وجـد صرح بابل المـدرج الشـهير العـائد الى مردوخ في حالة انقـاض (على أثر تدمير احشويرش) وقـد قدر ان (عشرة آلاف رجل يعملون مدة شهرين لا يستطيعون رفع الانقاض المتساقطة منه) •

ترانا في غنى عن ان نتابع الاسكندر في حملاته الى بلاد فارس بعـد

فتحه بابل الى السوس ثم الى (برسيبوليس) ذات القصور المحصنة التى جعلها دارا فخر السلالة الاخمينية • وقد استراح هنا أربعة أشهر انغمس فى خلالها فى ولائم وأفراح ، وقد أحرق قصر الملك فى آخر وليمة على أثر سكر • فعندما ثمل القوم اقترحت احدى البغايا التى تسمى (تايس) ان تضرم النار فى القصر (الذى طالما وضعت فيه خطط تدمير بلاد الاغريق) فبدأ الاسكندر بالشعلة الاولى ، فتوهج البناء الشامخ بالنار التى التهمت أخشاب الارز الثمينة والزخارف المنحوتة •وتوجه الاسكندر من«برسيبوليس» الى «اكبتانا»العاصمة الماذية التى فر اليها دارا ، ولكنه تركها فى النهاية قاصدا بلاد البخت ، وقبل أن يتوغل الملك التعس بعيدا ثارت عليه حاشيته وقتلته • وتابع الاسكندر تقدمه الى أواسط آسية وشمالى الهند وعند رجوعه مر ببلاد السند • ولقد بدأ التذمر والسخط يعمان جيش الاسكندر لاشتطاطه فى مغامراته وأظهر عدم مطاوعته لمتابعة الاسكندر فى مغامراته فى مجاهل آسية ، فعاد الى سوسة وهنا شرع فى سياسته فى مداراة الفرس واشراكهم فى الحكم ، حتى انه ألف جيشا من الايرانيين الشبان ليتدربوا على أساليب الحرب الغربية • وشرع الاسكندر أيضا فى تحقيق اصلاحه بدمج الغرب بالشرق حتى انه تزوج زوجة فارسية وحذا حذوه ٨٠ قائدا من قواده و (١٠ر٠٠٠) جندى من جنوده • ومن بعد ذلك رجع الى بابل وأقلع الى أعالى دجلة من خليج فارس حتى «اوبس» ، وقد أظهر أتباعه فى اوبس تذمرا عظيما فخطب بهم غاضبا وأرجعهم الى الطاعة ، وقد رفع فى طريقه السكور التى وضعها الفرس ليعيقوا سير السفن فى النهر •

لقد صمم الاسكندر على أن يجعل بابل مركزا مهما فى امبراطوريته لربط الغرب بالشرق وعزم على ربطها بطرق تجارية ليس بالهند فحسب بل بمصر بقنوات من البحر الاحمر والنيل حتى انه شرع فى بناء ميناء عظيم ، وأخذ يهيء فى الوقت نفسه حملة الى جزيرة العرب ، وبعد ولائم دامت يومين وفى مساء بدء الحملة مرض الاسكندر بالحمى ومات فى اليوم السادس

(في حزيران من العام ٣٢٣ ق ٠ م) في قصر نبوخذنصر ، ملك بابل الشهير ٠
وهكذا انتهت حياة هذا الشاب العجيب (الذي جمع في عمر ثلاث وثلاثين سنة هـمم كثير من الاعمار وتجاربها) ولم يكن (موته نزوة من نزوات القضاء بقدر ما كان نتيجة حتمية للشدة التي احترق فيها لهب حياته) وقد دام حكمه ١٣ سنة وقد عرفت الثلاثة قرون التي أعقبت موت الاسكندر باسم العصر «الهلنستي» الذي سنوجز عنه بعض الشيء ٠ وقبل أن نبدأ بذلك نذكر بعض الملاحظات الاخرى المفيدة عن شخصية الاسكندر العجيبة ،
فأول ما يدهش في الاسكندر قابليته الفذة وفتوحه الخاطفة ثم موته وهو في ريعان الشباب ، ولعل جسمه لم يتحمل الطاقة العظمى التي كانت تكمن في نفس هذا الشاب العجيب[١] ٠ وقد يكون من حسن حظ الاسكندر أن يموت وهو في ذلك السن وفي اوج مجده ، اذ لم يكن من المتوقع أن تزداد شهرته ، بل الواقع ان بوادر الغرور والعجب بالنفس أخذت تبدو في سلوكه ولو انه عاش أكثر من ذلك لارتكب على ما يرجح حماقات تحط من شهرته الفذة التي اكتسبها ٠
كما ان من المشكوك فيه أن يستغل هذا الشاب نجاحه المنقطع النظير في ادارة تلك الامبراطورية العالمية وقد بدت عليه بوادر الثمل بنشوة النجاح والانتصار ٠
ومن هذه البوادر الخطيرة امارات العصبية التي تجلت في قتله بعض خيرة قواده ، وقتله الفيلسوف المشائي الشهير (من أتباع ارسطو ، المسمى كليستينز) ، وقد غضب أتباع ارسطو وأخذوا يشنعون به فساقوا نظرية تقول ان نجاح الاسكندر لم يكن عن حسن تدبير منه بل انه تم بطريق الصدفة ، وان سقوطه وموته كانا بسبب تفاقم نجاحه وغروره ٠ وبدأ الاسكندر أيضا في أواخر أيامه يعجب بالتملق والاطراء حتى انه قبل أن يجعله بعض المتزلفين ابن الاله «زوس» وابن الاله المصري امون ، كما

---

(١) ولعل لآراء ارسطو دخلا في سلوك الاسكندر واشتطاطه في انهاك قواه الجسمية ، حيث المبدأ المشهور القائل ان خير سلوك انما يكون في فعالية النفس وسيطرتها على الجسم ، ومن آثار ذلك ما اشتهر عن الاسكندر من عزوفه عن النساء ٠

أدخل عادة السجود بين يدى الملك واتخذ بعض العادات الاخرى الشائعة بين ملوك الشرق •

وعلى الرغم من انالاسكندر لم يتح له الوقت الكافى لوضع أسس ادارة امبراطوريته الا انه قام ببعض الاصلاحات منها تنظيماته المالية فى التوفيق بين القيم الفارسية واليونانية ، وكانت بابل ثانية مدينة مهمة فى ضرب النقود فى عهد الاسكندر • كما جعل ادارة الولايات مكونة من ثلاث سلطات ، من الحاكم العسكرى والحاكم الادارى والمدير المالى ، وقد اقتصر فى الحكام العسكريين على المقدونيين واليونان •

وننهى ملاحظاتنا هذه عن شخصية الاسكندر بالتنويه بأن الاسكندر وما اشتهر به من أعمال جسام صار موضوعا طريفا للقصص والاساطير لدى الاجيال التى أعقبته فى مختلف الازمان والامكنة • وفى الآداب والقصص العربية شىء كثير من ذلك ، حتى ان البعض يجعلون الاسكندر هو ذو القرنين المذكور فى القرآن وانه صاحب السد الخاص بجوج وماجوج[١] •

مملكة السلوقيين

لقد رأينا مما مر بنا فى كلامنا على الاسكندر ان الامبراطورية الضخمة التى أسسها هذا الفاتح العظيم لم تعش من بعده اذ سرعان ما تحطمت من بعد موت مؤسسها ، ودخل قواده وولاته فى نزاع فيما بينهم من أجل الاستحواذ على أكبر حصة من أجزاء امبراطوريته الواسعة وقد دامت تلك الحروب زهاء أربعين عاما • ولم يكن عند موت الاسكندر من المدعين بعرشه الا أخ

(١) انظر القرآن الكريم حول خبر ذى القرنين (سورة الكهف ٨٢ فما بعد) ، وحول قصص الاسكندر فى الروايات العربية وتاريخ الاسكندر بوجه عام انظر :ــ

(1) M. Lidzbarski, "Zu den Arabischen Alexander geschichte" in **Zeit. für Assyrologie,** VIII (1893) 263 ff.

(2) Tarn, **Alexander the Great** (1947).

(3) A.R. Anderson, **Alexander's Gate, Gog and Magog and the Enclosed Nations** (1932).

أصغر منه كان مضطرب العقل ، وكانت زوجته الريفية (روكسانه) قد ولدت ابنا ضاع حتفه في المنازعات بين قواده • وقد برز من بين المدعين المتخاصمين (من بعد معركة ابسوس عام ٣٠١ ق • م) ثلاثة من مشاهير قواد الاسكندر اقتسموا امبراطوريته ، فنجح أحدهم المسمى بطليموس في تأسيس سلالة البطالسة (البطالمة) في مصر ، وصارت مقدونية وبعض من بلاد اليونان من حصة القائد «انتيكونس» (بالكاف الفارسية) • ودخلت في حوزة القائد الثالث «سلوقس» بلاد الشام[١] والعراق وايران •

لقد كان سلوقس من بين جميع خلفاء الاسكندر متشبعا بآراء الاسكندر ومتعلقا بمثله العليا ولا سيما تعلقه بالثقافة الهلينية ونشرها في الاقاليم الشرقية • كما كان على معرفة تامة بالايرانيين وبلاد ايران فقد صار قائدا على جيش مؤلف من أشراف الفرس في عهد الاسكندر وقد تزوج نفسه بأميرة فارسية هي «افامه»[٢] التي جاءت منها سلالة السلوقيين الحاكمة • وقد ورث أحسن أجزاء الامبراطورية الفارسية الاخمينية وتنازل عن بعض الاقاليم الكائنة الى الشرق من ايران الى الملك الهندي «جندرا كوفتا» (مؤسس السلالة المورية التي اشتهرت بملكها اصوكا) مقابل ما جهزه هذا بأفيلة كان بحاجة اليها • ومما يذكر عن سلوقس انه وضع الاسس الادارية والسياسية والاقتصادية لامبراطوريته ، كما انه قسمها الى قسمين تقريبا ، القسم الشرقي الذي شيد له عاصمة جديدة هي سلوقية على دجلة في العراق وأسس في القسم الغربي (ومركزه بلاد الشام) العاصمة الثانية الشهيرة انطاكية العاصي • وسماها باسم أبيه (انطيوخس) • وصارت انطاكية من المراكز المهمة وأغنى مدينة في العالم آنذاك ، وقد نافست الاسكندرية ، كما صارت مركزا مهما من مراكز الحضارة الهلنستية • وقد أشرك سلوقس ابنه انطيوخس الاول في الحكم ، وجعله حاكما على القسم الشرقي منها ، ومقره سلوقية • ومع

---

(١) راجع ما ذكرناه عن أحوال بلاد الشام في العهد السلوقي •

(٢) لقد سبق أن ذكرنا في كلامنا على بلاد الشام ان سلوقس شيد زهاء اربع مدن سميت باسم افامه ، أشهرها افامية على العاصي •

أهمية هذه المدينة الا ان استقرار الملك نفسه في العاصمة الغربية قرب البحر المتوسط يشير الى تغير في اتجاه السلوقيين في نقل مركز الثقل في سياستهم من الشرق الى الغرب الى قرب مركز العالم الهليني ، وكان لهذا النقل أثر سيء في تضاءل سلطان السلوقيين ونفوذهم في الاقسام الشرقية حتى انفصلت عنهم نهائيا وآل أمرهم الى أن انحصرت مملكتهم في بلاد الشام ثم ابتلعتها رومة على ما سنبين فيما بعد • وكان تاسيس سلوقية على دجلة أهم عامل في موت مدينة بابل حيث بدأ ارباب التجارة والطبقات المهمة تهجرها الى العاصمة المهمة ، وتضاءل شأن بابل الى مدينة صغيرة •

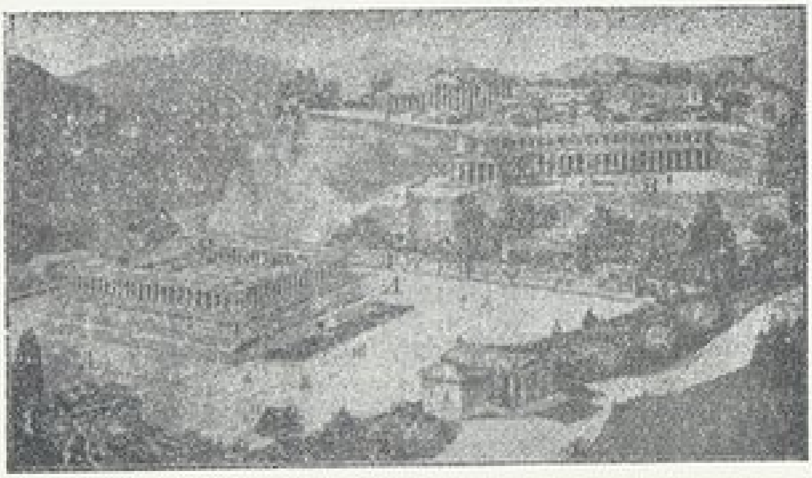
توالى على العرش السلوقي من بعد مؤسس المملكة سلوقس الاول ثمانية عشر ملكا معظمهم باسم انطيوخس وسلوقس ، وسنرى ان أكثرهم كانوا ملوكا ضعفاء ، وانه لم يكد يمض قرن ونصف قرن على تأسيس المملكة على يد سلوقس (٣١٢ ـ ٢٨٠ ق • م) حتى فقدت جميع أراضيها في الشرق وانحصرت في سورية • وظهرت أولى بوادر الضعف في عهد انطيوخس الاول ابن سلوقس (الملقب سوتير المخلص ٢٨٠ ـ ٢٦١ ق • م) فقد استقلت في عهده بلاد فارس وأصبحت تابعة بالاسم فقط ، كما انه في عهد خلفه انطيوخس الثاني (الملقب نيوس أي الله ٢٦١ ـ ٢٤٦ ق • م) انفصلت أقاليم مهمة من أجزاء الامبراطورية الشرقية • فقد انفصلت مملكة بلاد البخت التي أسسها الاغريق شرقي بلاد ايران[١] ، وانفصلت بلاد الفرثيين من بعد

---

(١) كانت هذه المملكة تشمل افغانستان الحالية وتمتد الى شمال سيحون ، وقد أسكن الاسكندر في هذه المواضع نحو (٢٠٫٠٠٠) جندي من جنوده من المرضى والجرحى ، وقد ثاروا من بعد موت الاسكندر مطالبين بارجاعهم ، ولكن بقيت منهم جماعة كونت قوة عسكرية في ذلك الاقليم ، وبرز منهم شخص اغريقي باسم «ديودوتس» صار واليا على بلاد البخت ، واستقلت هذه البلاد في عهد سلوقس الثاني عن سلطان السلوقيين وقد اندمج فيها الاغريق بالايرانيين ، واشتهرت بالزراعة والتجارة ولا سيما تجارة «الترانزيت» حيث كانت تربط ايران والغرب بالصين وجنوبي روسية ، وكانت هذه المملكة من جملة الوسائط التي انتشرت بها الثقافة الاغريقية في هذه الجهات والى الهند وأواسط آسية •

عام واحد (٢٤٩ - ٢٤٨ ق . م) . وقد حاول الملك الذى خلف انطيوخس وهو سلوقس الثانى (٢٤٦ - ٢٢٦ ق . م) اعادة الاوضاع فى الشرق فأرسل جيشا على الفرثيين أوقع فيهم الهزيمة ولكن ثورة خطيرة فى انطاكية اضطرته الى ترك بلاد ايران ومنعته من متابعة انتصاره ، حيث عاد الى سورية ، وتفاقم الحال من بعد موت سلوقس حيث فقد السلوقيون أجزاء كثيرة من آسية الصغرى .

وفى هذه المرحلة الحرجة من تأريخ السلوقيين جاء الى العرش السلوقى ملك كفوء هو انطيوخس الثالث الملقب بالكبير (٢٢٣ - ١٨٧ ق . م) ، وقد تميز هذا بمقدرة وبعد نظر سياسى ، فاستعادت فى عهده المملكة سابق عهدها . فقد استطاع أن يخضع الولايات الثائرة وغزا بلاد ايران وسحق الثورات هناك ، وحارب الفرثيين ، وهزم ملكهم (ارشاق) فخضع له وقدم الجزية ، فسار بجيشه المظفر الى بلاد البخت وشن الحرب على ملكها الاغريقى «يوثيديموس» الذى أسس سلالة حاكمة جديدة وانتهت الحرب بين الطرفين بمعاهدة صداقة تزوج على أثرها ابنه «ديمتريوس» من ابنة الملك السلوقى ، وعبر انطيوخس من بعد ذلك هندوكوش فلاقى ملك الهند فى وادى كابل وجدد معاهدة الصداقة السابقة . ورجع من بعد ذلك عن طريق خليج فارس الى سلوقية . ويبدو ان نشوة هذه الانتصارات قد أثرت فى انطيوخس فقرر التحرش بالرومان ، كما حاول فتح مصر ولكن الرومان حذروه من ذلك لانه كانت لهم مصالح حيوية فى الاسكندرية . كما عزم على استرجاع آسية الصغرى ولم يكتف بذلك بل انه عبر المضايق ليستولى على مقدونية ولكن رومة علمته درسا قاسيا حيث اندحر فى معركة مع الجيوش الرومانية فى مغنيسية ، وفرضت عليه معاهدة صلح (١٨٨ ق . م) لم يقتصر الامر فيها على انه فقد ممتلكاته فى آسية الصغرى بل فرضت عليه غرامة باهظة . وقتل من بعد ثلاث سنوات فى غزوة له فى بلاد اللر (لورستان) . وقد ظهر فى عهد انطيوخس الكبير «يهوذا المكابى» الذى قاد ثورة اليهود فى زمن



بعض الابنية العامة فى مدينة «برغاموم» كما كانت عليه بالاصل • وبرغاموم مدينة شهيرة ازدهرت فى العصر الهلنستى فى الساحل الغربى من آسية الصغرى وصارت فى القرن الثالث ق•م دولة مدينة مزدهرة فى عهد خلفاء الاسكندر • ويشاهد فى الصورة المرافق المهمة فى المدينة كسوقها ومكتبتها الشهيرة وقصرها الملكى • وقد ـدد الامبراطور الرومانى تراجان (القرن الثانى للميلاد) بعض ابنيتها ولا سيما معـــابدها

انطيوخس الرابع وقد نجحت الثورة ، واطلق لليهود حرية العبادة حسب شعائرهم الدينية ، على ما بينا ذلك فى كلامنا على تأريخ سورية •

وكان انطيوخس الرابع (١٧٥–١٦٤ق•م) آخر ملك من السلوقيين وهو على شيء من القوة ، وقد جاهد لمنع سير الامبراطورية والمملكة الى الانحلال والانهيار ، ومع انه نجح فى حربه فى مصر ضد البطالسة الا ان هذا النصر لم يفده شيئا • كما حاول توحيد الاقوام التابعين للسلوقيين عن طريق غرس الثقافة اليونانية فلم يفلح فى هذه المحاولة • ولم يمض على موته عهد طويل حتى فقد السلوقيون العراق • وكانت نهاية السلوقيين بصفتهم عاملا مؤثرا فى التأريخ فى زمن ملكهم المسمى انطيوخس السابع (١٣٩ – ١٢٩ ق • م) اذ

عظم في زمنه شأن الفرثيين في بلاد خراسان وامتدت فتوحهم من بلاد البخت الى الفرات • وقد نجح انطيوخس في بادىء الامر في الاحتفاض ببلاد بابل ولكن الملك الفرثي (افراهاط) الثاني دحر جيشه وأفنى معظمه في المعركة ، وانتحر الملك السلوقي • وسنذكر أخبار السلالة الفرثية في البحث الخاص بالفرثيين • وتوالت على السلوقيين المحن بانفصال الولايات وظهور المدعين والغاصبين في العرش السلوقي ، وانحصرت مملكتهم في سورية ، ثم فقدت استقلالها ازاء قوة رومة المتعاظمة • وكان آخر ملوكهم انطيوخس التاسع (١١٥ – ٩٥ ق • م) •

ملاحظات عن العهد السلوقي في العراق :-

دام العهد السلوقي في العراق زهاء القرنين (٣١٢ – ١٣٥ ق • م) وقد انتهى نفوذهم في العراق في عهد انطيوخس السابع (الملقب سيديتس ١٣٩/٨– ١٢٩ ق • م) الذي دحره الملك الفرثي المسمى «افراهاط» الثاني (١٣٧ – ١٢٧ ق • م) ، فانحصر نفوذ السلوقيين في سورية وكانت مملكتهم قد أخذت في الانهيار حتى في سورية اذ انها تجزأت الى ثلاث دويلات استمرت حتى ٩٥ ق • م • ومما يجدر ذكره عن العهد السلوقي في العراق أن نوعا من الانتعاش قد أصاب الحضارة البابلية ، ولا سيما في علم الفلك والرياضيات فقد جاءتنا مجموعة من السجلات الفلكية والرياضية المهمة من عهد سلوقس (نيقاطور) (٣١٢ – ٢٨٠ ق • م) تدون أرصادا فلكية لها قيمة علمية كبيرة • وقد استمر الانتعاش الى النصف الثاني من القرن الاول قبل الميلاد • وجاءنا من عهد الملك التالي الذي خلف سلوقس وهو انطيوخس (سوطر) (٢٨٠ – ٢٦٠ ق • م) نموذج من التدوين التأريخي يسجل بعض الحوادث المعاصرة من ذلك ذكر بعض المدن البابليـــة مثل بابل وكوثى وبورسبا وورد اسم سلوقية بصفتها مدينة الملك أي العاصمـــة وجاءنا من زمن هذا الملك سجل (على ختم طين) بالخط المسماري دون فيه بعض اعمال الملك العمرانية مثل تعميره معبد الاله «نبو» في بورسبا • وقد سمى الملك نفســـه في هذا الختم

«ابن سلكوء المكدونى • وعلى الرغم من هذا الاحيـاء الطارىء على الخط المسمارى فانه كان يسـير الى الموت وقد انحصر استعماله فى السجلات الفلكية والنصوص الرياضية وعدد قليل من العقود والوثائق التجارية وبعض الاعمال المتعلقة بالشـعائر الدينية • ومن الطريف ذكره أن بعض الواح الطين التى جاءتنا من هذا العهد قد كتبت باللغتين البابلية والاغريقية (لغة اليونان من القرن الثانى ق• م) اذ ترجمت فيها الكلمات البابلية • وقد استمر الخط المسمارى فى الحيـاة فى السنة ١٠ و٩ و٦ ق• م ومما يذكر كذلك عن العهد السلوقى ان احد الكهنة البابليين المسمى «برعوشا» (بيروسس) قد كتب جميع ما يعرفه عن تأريخ العراق فى عهد الملك السلوقى «سلوقس» وقد كتبه باللغة اليونانية ولكن الاصل ضاع ولم يأتنا من كتاباته الا الاقتباسات التى اخذها عنه بعض مؤرخى الرومان • وقد دون اثبـات الملوك من اقدم الازمان الى عهد الاسكندر الكبير • وكانت كتابات برعوشا من جملة المصادر الرئيسية القليلة عن تأريخ العراق قبل ان تحل رموز الخط المسمارى •

ملاحظات عن الامبراطورية السـلوقية

١ – مع أن السلوقيين كانوا ضعفاء بالنسبة الى البطالسة فى مصر غير انهم كانوا اهم ورثاء الاسـكندر الكبير لانهم اخـذوا القسم الإعظم من امبراطوريته وقد كانت تخوم مملكتهم فى مبدأ الامر تمتد من السـاحل الايجى الى تخوم الهنـد ولكن امبراطوريتهم لم تكن ثابتة فى حدودها ، وبالنظر لسعتها لم يكن من السهل حكمها والمحافظة عليها • ومما اضعف امرها النزاع المستمر بين البطالسة وبين الملوك السلوقيين ، وكانت اساطيل البطالسة عائقا كبيرا فى ازدهار التجارة فى المملكة السلوقية ، حتى انه كان يعسر على السلوقيين الاتصـال باليونان للتجارة او بسط النفوذ • وآل امر الامبراطورية السـلوقية الى انها انحصرت فى ديار الشـام ، حتى انها دعيت باسم مملكة «سورية» ، ولكن اذا قيس حكم السلوقيين من الناحية الحضارية فانه كان أهـم من عهد البطالسـة فى مصر بالنظر لاستمرار الحضـارة

الاغريقية (بشكلها الهلنستى) فى انطاكية وغيرها من المدن • فقد نشأت جملة مدن أغريقية عاشت حياة اغريقية وتمتعت بنوع من الاستقلال السياسى مع اعترافها بالنفوذ السلوقى • وقد عمل مؤسس السلالة سلوقس وابنه انطيوخس الاول على تشجيع قيام مثل هذه المدن والدويلات فى آسية الصغرى وفى سورية وفى فارس وفى تخوم الهند التى نشأت فيها «دولة البخت» الاغريقية ، وهكذا حقق هذان الملكان بعض ما كان يحلم به الاسكندر من بث الحضارة الاغريقية فى الشرق وتشجيع الاغريق على تأسيس مستعمرات لهم فى انحاء الشرق • وكانت هذه الدويلات جمهوريات صغيرة يدير شؤونها الداخلية السكان انفسهم • وعن طريق هذه الدويلات وغيرها من طرق الاتصال انتشرت حضارة الاغريق فى الشرق وتأثرت بحضارة الشرق فنشأت من التقاء الحضارتين حضارة يصح أن نعدها حضارة اغريقية ولكنها متأثرة بحضارات الشرق ، وهذه هى الحضارة التى اطلقنا عليها اسم الحضارة «الهلنستية» أى الحضارة الشبيهة بالهلينية • وسنذكر عنها بعض الشىء فى موضع آخر • وكان من جملة هذه الدويلات الاغريقية مدينة نشأت على الفرات هى «دورا يوروبس» (الصالحية الآن) التى قامت فى حدود ٣٠٠ ق• م ، وعندما ظهر الفرثيون وعظم شأنهم صارت فى حوزتهم ، ولكن الرومان استعادوها منهم وصارت مدينة رومانية مهمة • وقد اظهرت التنقيبات التى اجريت فيها مظاهر مهمة عن الحضارة الهلنستية والرومانية • ومن الدويلات التى نشأت فى هذا العهد دولة عربية من الانباط فى «البتراء» فقد استغل الانباط النزاع بين البطالسة والسلوقيين فانشأوا مملكة واتخذوا البتراء (سلع القديمة) عاصمة لهم ، كما نشأت تدمر فى اثناء النزاع بين الفرثيين الذين اعقبوا السلوقيين وبين الرومان • وقد ازدهرت دولة البتراء وعاشت زهاء الثلاثة قرون ، منذ القرن الثانى ق• م (١٦٤ ق•م) الى أن اصبحت تحت نفوذ الرومان وضمها الامبراطور تراجان فى النهاية الى الامبراطورية الرومانية ، وقد سيطر النبط اصحاب « البتراء » على طرق

البادية المهمة المؤدية الى موانىء البحر المتوسط والى موانىء اليمن فنافسوا تجار الاسكندرية الاغريق فى تجارتهم بين الهند وانحاء الامبراطورية الرومانية • وقد صاحب انتعاش النبط الاقتصادى تعاظم فى النفوذ السياسى، فامتد نفوذهم وسلطانهم من طور سيناء الى دمشق ومن تيماء الى بئر سبع •

وعلى الرغم من محاولة السلوقيين الاحتفاظ بالحضارة الاغريقية فانهم لم يسلموا من تأثيرات الحضارات الشرقية ، فكما ان الاسكندر الكبير قد تأثر بنظام الحكم فى الشرق وصار ملكا مقدسا يستمد سلطته من الآلهة كذلك اتخذ الملوك السلوقيون هذه العادات • فصار الملك ذا صبغة مقدسة بل انه صار الها تجب عبادته والخضوع له • ولكن بوسعنا أن نقول انه مع ضعف الامبراطورية السلوقية فانها هى التى حفظت الحضارة اليونانية فى الشرق وسلمتها الى رومه •

٢ ـ ومن الامور التى تذكر عن سياسة السلوقيين الاوائل فى ادارة امبراطوريتهم المؤلفة من اقوام مختلفة وبضمنها الاقوام الايرانية ما سبق ان نوهنا به من ادخال الجماعات الاغريقية فى مواطن هذه الاقوام وتأسيس المستعمرات من الاغريق ومن هؤلاء وقد استهدف السلوقيون من ذلك عدا محاولتهم نشر الثقافة والنفوذ تسهيل شؤون ادارة الامبراطورية ، فانشأت المستعمرات العسكرية وغير العسكرية وهى عين السياسة التى شرع بها الاسكندر ، وقد ظهرت هذه الخطة واضحة بوجه خاص فى بلاد ايران حيث انشأت جملة مدن مهمة على الطريق العسكرى بين سلوقية وبلاد البخت ، وهو الطريق القديم المار من كرمنشاه وهمدان ، ولايصال هذا الطريق الى البحر اسست ما لا يقل عن تسع مدن فى سواحل خليج فارس ومن بين ذلك مدينة سميت انطاكية فى بوشير التى اخذت مكان مدينة عيلامية سابقة كما اعيد تأسيس «اكبتانا» وبنيت مدينة جنوبها وسميت باسم اللاذقية (نهاوند) ، وسميت مدينة الرى القديمة باسم «يوربوس» وكان سكان المدن الجديدة خليطين من السلوقيين والمواطنين المحليين • هذا وقد سبق ان رأينا

المدن التى اسسها السلوقيون او أعادوا تسميتها فى بلاد الشام • واوجد السلوقيون جهازا كفوءا فى الادارة واتبعوا نظاما ماليا مرنا شبيها بالنظام الاخميني ، وكان لهم جيش من الموظفين لجمع الضرائب •

ومما يلاحظ عن نتائج فتوح الاسكندر من تأسيس امبراطوريته العالمية ثم انقسامها الى ثلاث ممالك هلنستية (أو بالاحرى الى ثلاث امبراطوريات) انها أوجدت انقلابا فى حياة العالم الاقتصادية آنذاك ، بسبب الاتصالات الوثيقة بين أقطار العالم ، بحيث انه اذا وقع اضطراب ما فى الحياة الاقتصادية لاحدها أثر ذلك فى الجهات الاخرى ، كما ان أوضاع العالم الاقتصادية أصبحت تتأثر الى حد كبير بالاوضاع الاقتصادية المحلية ،وهذا حال لم يكن مألوفا بهذه الدرجة فى الازمان السابقة • كما ان انتشار العملة النقدية فى هذه الرقاع الشاسعة واستعمالها أساسا للتعامل بمقياس لم يكن معهودا من قبل كان له أثره البعيد فى تطور العالم الاقتصادى • وان الثروات الكبيرة والكنوز المعدنية التى وضعها فتح الاسكندر فى السوق العالمية قد أثرت أثرا عميقا بحيث ان قيمة الذهب والفضة قد هبطت عن قيمتها السابقة بنحو (٥٠) بالمائة •

ومن الممكن القول ان المملكة السلوقية فى العهد الذى شغل بحكم سلوقس الاول وخلفائه الاوائل قد ازدهرت فى الناحية الاقتصادية • فقد تم نوع من التوازن بين الاجور والاسعار مما أدى الى تحسن أوضاع معيشة السكان[١] • وان ازدياد أسعار الفائض يدل على ازدهار المصالح التجارية والطلب المتزايد على رأس المال • ولكن لم تدم هذه الحال من الموازنة والازدهار الاقتصادى زمنا طويلا ، اذ حل الاضطراب فى المملكة السلوقية من جراء ضعف السلطة المركزية وضياع بعض الاقاليم المهمة ، كما ان الازمة تفاقمت بتدخل رومة فى الاقاليم السلوقية وتغير الاوضاع السياسية • ويرى

---

(١) يراجع فى ذلك المرجعين المهمين :—

(1) Ghirshman, **Op. Cit.**, 219 ff.

(2) Rostovtzeff, **Social and Economic History of the Hellenistic World**, II, ch, VI.



رأس منحوت من الرخام يمثل الالهة افروديت (من العهد
الهلنستى أى السلوقى فى العراق)

بعض الباحثين ان الدولة السلوقية مؤسسة رأسمالية قوية ، وكان الملك على رأس هذه المؤسسة ، يدير احتكار المواد الخام والمواد المصنوعة وهذه بذور التصميم والسيطرة الاقتصادية فى العهود الحديثة .

شيء عن الحضارة الهلنستية

لقد نتجت فتوح الاسكندر فى الشرق وقضاؤه على الامبراطورية

الفارسية الاخمينية كما مر بنا سابقا نتائج أثرت فى الحضارة البشرية بامكاننا أن نحصرها فى صنفين : نتائج سياسية ونتائج ثقافية (حضارية) • أما النتائج السياسية فهى تأسيس امبراطورية أوربية غربية ضمت اليها أقطار الشرق القديم المتمدن ونستطيع أن نعدها فاتحة النفوذ الاوربى فى الشرق •

أما النتائج الثقافية لفتوح الاسكندر فانها فاقت فى أهميتها النتائج السياسية وكان لها تأثير بعيد المدى فى سير الحضارة • لقد نشر الاسكندر الحضارة الهلينية فى جميع الاقطار الشرقية • وكانت هذه الاقطار تعيش بقايا من الحضارات الشرقية الآفلة مثل الحضارة البابلية والحضارة المصرية ، وتحت نفوذ الفرس الاخمينيين الذين ورثوا عن هذه الحضارات • فالتقت الحضارة الاغريقية ببقايا حضارات الشرق • ونتج من هذا الالتقاء اقتباس الشرق الحضارة الاغريقية وتأثر الحضارة الاغريقية والاغريق أنفسهم بحضارات الشرق • فتكونت حضارة يصح أن نعدها خليطة ، هى حضارة اغريقية متأثرة بحضارات الشرق • ولذلك نسميها بالحضارة الشبيهة بالهلينية أى الحضارة الهلنستية(Hellenistic)وقد شملت القرون الثلاثة قبل ميلاد المسيح ، أى القرون الثلاثة التى أعقبت موت الاسكندر ، فمن أمثلة تأثر الغرب الاغريقى بالشرق انتشار الديانة المسيحية الشرقية من فلسطين الى الغرب • وكان اليونان أول من اعتنق هذه الديانة من الاوربيين ونشروها بدورهم فى بعض جهات اوربة •

ولهذه الحضارة أهمية خاصة لانها عدا أهميتها فى الحياة الشرقية والغربية كانت تراثا مهما للرومان عندما أخذوا يوسعون سلطة دولتهم ويزيدون فى أسس تراثهم اللاتينى الضعيف • ويصح أن نعد الدولةالرومانية نفسها دولة «هلنستية» • وانتقل تراث الاغريق الى اوربة الغربية فى العصور الوسطى بهيئة حضارة «رومانية ــ هلنستية» •

ومن مظاهر الحضارة الهلنستية انتشار اللغة الاغريقية فى الشرق واستعمالها فى معظم شؤون الحياة المهمة • وكانت هذه اللغة باللهجة «الاتيكية»

التي صارت لغة العلم والحضارة • ومن أمثلة ذلك ان اليهود الذين كانوا يعيشون في الاسكندرية قد اضطروا الى ترجمة التوراة الى اليونانية ليتسنى لليهود المتعلمين أن يقرأوا التوراة بسبب انتشار اللغة الاغريقية • وقد اشتهرت فى هذا العهد جملة مدن مهمة كانت مواطن لهذه الحضارة وعلى رأسها مدينة الاسكندرية المشهورة ويلي ذلك انطاكية ومدن أخرى مثل سلوقية فى العراق و «دورا يوروبس» (الصالحية الآن على الفرات) و «برغاموم» فى ساحل آسية الصغرى الغربي • وقد بلغت الحضارة الهلنستية فى هذه المدن ، ولا سيما فى الاسكندرية ، أوج نموها • ولعل أكثر ما تتصف به هذه الحضارة «الحياة الحضرية» التى بلغت فى كثير من أوجهها ومظاهرها حدا تشبه فيه **الحياة العصرية** (Modern) الحاضرة فى أوجه المعيشة المختلفة كالترف والاناقة فى البيوت والعيش واتساع التجارة وتجمع الثروة ، وكان فيها اتجاهات واضحة فى الاختراع وتطبيق العلوم على الاختراعات وصنع الآلات و «المكائن» لتحسين وسائل العيش المادية • ولعل أكثر ما يظهر ذلك فى بناء البيوت والعمارات العامة وتجهيز دور السكنى بالمياه الجارية بالانابيب ، وبالحمامات وتصريف مياه القاذورات • وكانت الشوارع والبيوت والابنية العامة توضع تصاميمها بالحساب والتخطيط •

ولكن حصل فى نتاج الحضارة الهلنستية فى الادب والفن تدهور بالنسبة الى الحضارة الاغريقية ، ولا سيما من عهد «بريكلس» • فقد نجد فى النحت اتجاهات جديدة فى زيادة المهارة واتساع مدى التعبير (كما فى منحوتات برغاموم وهى الدويلة التى تكونت فى ساحل آسية الصغرى الغربي) ، مما جعل بعض النقاد يقدرونه تقديرا عاليا • ولكن هذه الاتجاهات الجديدة فى النحت لا تعوض ما فقده النحت من الخصائص فى عهد الاعريق ، ولا سيما بساطته وما يتصف به من صدق التعبير • والتدهور الذى طرأ على الادب أوضح من ذلك • فمن العبث أن نبحث فى آداب هذا العهد عن الموسيقى الرزينة التى نجدها فى أشعار «ايسكيلوس» و «سوفوكلس» • وكان

يغلب على شعراء هذا العهد انهم من العلماء ، كما في شعراء الاسكندرية • وقد تركوا مواضيع الشعر القديمة ، وهي المواضيع «الدراماتيكية» كالحروب والمصير والنكبات ، وصاروا يفضلون المواضيع المفرحة المسرة والنقد الهزلي • وعلى رأس هؤلاء الشاعر الكوميدي «مياندر» (٣٤٢ – ٢٩٠ ق • م) الذي أوجد هذا النوع الجديد من «الكوميدي» ، وأحب الشعراء كذلك مواضيع تصور مشاهد الطبيعة الجذابة كمشاهد الريف والرعاة والجداول والشجر ، وقد صوروها بالشعر الموسيقي الجذاب ، الذي كان يحبه سكان المدن المشتغلين بشؤون التجارة والاعمال • وكان أعظم شعراء هذا العهد في مثل هذه المواضيع شاعر صقلي اسمه «ثيوقريطس»[١] (القرن الثالث ق•م) •

التعليم والعلم والفلسفة :

وبقي أن نقول كلمة موجزة في التعليم والعلم والفلسفة في هذا العهد • ولعل أول ما يجلب انتباهنا في هذا الموضوع كثرة المدارس بنتيجة رغبة الناس في التعليم والتثقيف • وكان كثير من هذه المدارس على نفقة الدولة • وأسست المكتبات وخزانات الكتب وضمت فيها المؤلفات الكثيرة فقد قيل ان مكتبة الاسكندرية كانت تحتوي على نصف مليون مجلد (أي نصف مليون لفة من ورق البابيروس) وقد راج في هذا العهد فن استنساخ الكتب ونشرها ، وترقى فن تنظيم خزانات الكتب ، وكذلك علوم اللغة من نحو وصرف ومفردات • وقد ظهر في هذا العهد أول كتاب في نحو اللغة اليونانية ألفه «ديونيسوس» (١٢٠ ق • م) وقد أسس البطالسة في الاسكندرية تحت رعايتهم معهدا للبحوث سمي «المتحف» الذي كان يضم جماعة من العلماء والباحثين كان تحت تصرفهم الكتب والمختبرات ولهم الحرية في اختيار الموضوعات التي يريدون أن يبحثوا فيها • ولما كانت الرغبة في التحري والبحث عن الحقائق قد انتشرت في جميع الاقطار الواقعة تحت تأثير هذه

---

(١) وقد اكتسبت قصيدته (Idylls) مكانة في الادب العالمي مدة ألفي عام •

الحضارة ، فان البحوث العلمية لم تنحصر فى «متحف» الاسكندرية فقد عاش ارخميدس المشهور (٢٨٧ – ٢١٢ ق • م) مثلا فى «سرقوسه» • واشتهر بالرياضيات والفيزياء • وقد بنى البطالسة مرصدا فلكيا فى الاسكندرية[١] • ومع أن التلسكوب لم يخترع فان هذا المرصد قد حقق ملاحظات واكتشافات فلكية مهمة • وكان أحد الفلكيين من أهل جزيرة «ساموس» (وهو ارستارخوس) قد برهن على ان الارض والسيارات الاخرى تدور حول الشمس ولكن الظاهر أنه لم يأخذ بنظريته أحد من معاصريه • ومن مشاهير الفلكيين «اراتوسثينيز» من علماء الاسكندرية (القرن الثالث ق • م) الذى كان أول من قاس حجم الارض و كانت الطريقة التى اتبعها تدل على مهارة ومعرفة عالية ، فانه قاس الفرق بين سمت الشمس فى نقطتين معينتين ، أولاهما بئر فى الشلال الاول من النيل والاخرى فى الاسكندرية أى انه قاس بالدرجات جزءا من قوس محيط الارض وهو الجزء الواقع بين الاسكندرية والشلال الاول ومن ذلك استطاع أن يحسب طول الدرجة من محيط الارض • وقد حصل على نتيجة قريبة جدا من الواقع • ومن أعلام علماء الاسكندرية الرياضى الشهير «اقليدس» (القرن الثالث ق • م) الذى لا تزال هندسته تدرس فى الوقت الحاضر • وقد اشتهر هذا العهد بالرحلات والاستكشافات الجغرافية ، فتمكن الفلكى «اراتوسثينيس» الذى أشرنا اليه من تأليف كتاب فى الجغرافية وقد رسم للعالم المعروف خريطة وضع فيها الاقاليم بصورة صحيحة ، وكان أول جغرافى وضع فى خريطته هذه خطوط الطول والعرض ، فيكون بذلك مؤسس الجغرافية العلمية • أما البحوث الخاصة بعالم الحيوان والنبات فقد ظل ارسطو وتلاميذه القادة فيها ، ولم يضف اليهم المتأخرون شيئا يذكر • ولكن امتازت دراسة علم التشريح بأن صارت دراسة جسم الانسان فى «متحف» الاسكندرية تطبق على أجسام البشر من المجرمين المحكوم عليهم بالاعدام ، فاكتشفت بعض المعلومات عن الجملة العصبية • وصارت

---

(١) انظر كلامنا على تاريخ مصر حول الاسكندرية وخزانة كتبها وأخبار حرقها •

الاسكندرية بوجه عام مركزا مهما من مراكز البحوث الطبية فى العالم القديم •

أما عن الفلسفة الهلنستية فقد احتفظت «أثينة» بالزعامة فى الفلسفة حيث استمرت بحوثها فى مدارسها المشهورة مثل «الاكاديمية» التى أسسها افلاطون و «الليسيوم» التى أسسها ارسطو • ومع ذلك فان المآثر وطرق البحث والمواضيع التى اشتهرت بها هذه المدارس لم تحقق متطلبات العهد الجديد • فمثلا ان محور التفكير السياسى الاخلاقى فى كل من المدرستين كان يدور على «دولة المدينة» ولكن هذا النظام من الحكم لم يكن فى العهد الجديد النظام الاساسى السائد • فبدلا من دولة المدينة صار مصير الناس فى حكومات ملكية ليس لهم فيها نصيب فى ادارة الحكم ، وعاش الناس فى مجتمعات عالمية خليطة تركت عبادة الآلهة القديمة ومقاييس الاديان القديمة ، فأصبحوا مجردين من ايمان ما أو من ضمان ما ، فالتجأ أوساط الناس الى عبادات أشبه ما تكون سرية كانت شائعة فى الشرق وكانت عناصر مهمة دخلت فى المسيحية• ومما يجدر ذكره بهذا الصدد ان كلمة Cosmopolitan ترجع الى هذا العهد ، ومعناها المواطن العالمى •

أما الطبقة المثقفة فلم تتخل عن التعليل العقلى الفلسفى واستمرت فى تحريها ، ونشأ من ذلك نوعان من الفلسفة تميزان هذا العهد الجديد • وهما الفلسفة الرواقية[1] التى أسسها (زينو) • والاخرى الفلسفة الابيقورية لمؤسسها «ابيقور» وتتفق الفلسفتان فى نظرتهما التشاؤمية فى تقدير الحياة والزهد بها وبقيمتها • ولكن لما كان محتما على الانسان أن يعيش هذه الحياة ، فقد أوصى الرواقيون فى فلسفتهم بمبدأ أخلاقى مبنى على التحمل

---

(١) وهى Stoicism المشتقة من Stoa اى الرواق وهو رواق مشهور فى اثينة كان يدرس عنده «زينو» مؤسس الفلسفة فعرفت فلسفته بالرواقية واتباعه بالرواقيين • وزينو نفسه من أصل سامى من جزيرة قبرص وقد عاش بين القرنين الرابع والثالث ق • م •

وعدم الاكتراث بالبؤس والتعرض الى الالم • فكانت الفضيلة عندهم الصبر والتحمل • أما العلاج الذى ارتأته الفلسفة الابيقورية فهو سبيل «اللذة والمسرة» ولكن اللذة والمسرة عند مؤسس الفلسفة تشمل لذة الجسم والعقل غير ان أتباعه لم يراعوا اللذتين على الدوام • ولذلك أصبحت الكلمة «ابيقوري» تعنى عندنا الانغماس فى اللذة والشهوة وتستعمل كلما «رواقية» فى لغات الغرب مرادفة للصبر والتحمل وعدم المبالاة[١] •

(١) انظر كلامنا ايضا على الفلسفة اليونانية فى القسم الخامس من هذا الكتاب •

الفصل الخامس والثلاثون

الفرس الفرثيون والساسانيون

الفرثيون

(٢٤٧ ق ٠ م – ٢٢٦ ب ٠ م)

لا يعرف بوجه التأكيد أصل الفرثيين الاوائل وتشير أزياؤهم وعاداتهم ولغتهم الى أنهم كانوا من القبائل البدوية (الهندية الاوربية) هذا وان مصادرنا عن أصلهم قليلة ضئيلة ، وتشير هذه المصادر القليلة الى انهم ينتمون الى القبيلة المسماة «فرنى» أو فارنى (بارنى (Parni)) وهذه بدورها من مجموعة قبائل اسكيثية واسعة اسمها «داهى»(Dahae) كانت تعيش حياة بدوية فى السهوب الكائنة بين بحر قزوين وبحر ارال ،واشتهرت بالفروسية والحرب ٠ واسم الفرثيين نسبة الى الاقليم الذى استولوا عليه فى ايران ، فقد قطنوا هضبة ايران فى اقليم خراسان الذى يحدد بلاد فرثية ٠ أما اسمهم وهو «الفرثيون» فقد عرفوا به بعد ان نزحوا الى الجنوب الى الاقليم الفارسى المسمى «بارثوا» (وهو اقليم خراسان) قبل ٢٥٠ ق ٠ م ولذلك فان اسم الفرثيين الوارد فى المآثر الفارسية الاخمينية وفى المصادر اليونانية لا يشير الى هؤلاء الفرثيين بل الى أقوام أقدم عهدا استوطنوا فى هذا الاقليم ٠ وقد ورد ذكر هذه البلاد من أزمان أقدم فى الاخبار الآشورية ولا سيما من عهد «اسر حدون» (القرن السابع ق ٠ م) الذى أرسل حملة توغلت الى جنوبى بحر قزوين وجاءت ببعض الاسرى من بلاد وردت باسم «برتوكا» وهذا هو اقليم «بارثوا» الوارد فى أخبار كورش ٠ فيتضح مما ذكرناه ان اسم الفرثيين نسبة الى الاقليم الذى استوطنوه فى ايران ولا يعلم الاسم الذى سموا به

أنفسهم ، ويرى بعض الباحثين ان اسم فرثي معناه «محارب فارسي» • وعرفت سلالة ملوكهم أيضا بالارشاقية نسبة الى ارشاق (Arsaces) الذي كان أبرز شخصية قاد الثورة على السلوقيين • والمعروف عن تأريخ نشوء دولتهم أنه ظهر بينهم في حدود ٢٥٠ ق • م قائدان اخوان هما ارشاق الذي ذكرناه و «تيريداتس» ، وقد قاد هذان جموع الفرثيين واستوليا على اقليم كبير في جوار بلاد البخت ، كما استحوذا على الاقليم المسمى بلاد فرثية وقتلا الوالي من قبل السلوقيين •

وعلى الرغم من اختلاط الفرثيين بالاقوام الاخرى وتأثرهم بالحضارات الشرقية والحضارة الهلنستية فانهم ظلوا يحافظون على عاداتهم البدوية القديمة مثل الفروسية والعصبية العائلية والقبلية والصيد والحرب اللذين كانا الشغل الشاغل لنبلائهم وأشرافهم • وامتاز الفرثيون بالدأب والعمل والمثابرة • ومهما كانت لغتهم الاصلية قبل استيطانهم في البلاد التي عرفوا بها فانهم اتخذوا احدى لهجات اللغة الفارسية المسماة «بهلويك» (أي البهلوي الفرثي) وكانت تكتب بالخط الآرامي ، وهي قريبة الشبه بالبارسيك (أي البهلوية الساسانية) • ويمكن ارجاع كلتا اللهجتين الى اللغة الفارسية القديمة في العهد الاخميني • وقد اعتاد الفرثيون الكتابة في الرقوق مما كان سببا لهلاك أكثر مآثرهم • وقد غزت الرقوق بلاد بابل وأخذت تحل محل الخط المسماري في الطين • ومما تجدر ملاحظته عن الكتابة في الرقوق انها حفزت الصينيين في القرن الثاني للميلاد (١٠٥ للميلاد) على اختراع الورق •

بدأ ظهور الفرثيين كمملكة مستقلة في العهد السلوقي ، في منتصف القرن الثالث ق • م ، في الوقت الذي كانت فيه المملكة السلوقية في مشاكل وشدائد ولا سيما في نزاعها مع البطالسة في مصر ، فتشجعت الاقاليم الشرقية التابعة على الثورة على سلطة السلوقيين في عهد «انطيوخس» الثاني فلما نجحت بلاد البخت في ثورتها تحفز الفرثيون فثاروا على السلوقيين وكان ذلك قبل ٢٤٧ ق • م (لعله في ٢٥٠ ق • م) وعندما نجح بالثورة «ارشاق» وأخوه في

عام ٢٤٧ عدت هذه السنة بداية العهد الفرثي[١] واستمرت الحروب بين الفرثيين والسلوقيين نزاعا على الولايات الشرقية وكذلك على بلاد العراق • وقد سبق فتح العراق انتزاع بلاد ماذي من السلوقيين وحاول سلوقس الثاني أن يقضي على الفرثيين على ما ذكرنا في كلامنا على السلوقيين ولكن فشل بسبب الثورة التي اندلعت في انطاكية • وبعد موت ارشاق الاول تفرد بالحكم من بعده أخوه تيريداتس الذي حكم زهاء ٣٧ سنة تمكن في خلالها من توطيد المملكة الفرثية وتوسيعها الى الغرب ، ونقل عاصمتها الى مدينة أسسها الاغريق وسموها «هيكتومبيلوس» ثم اتخذ الفرثيون مدينة اكبتانا القديمة ثم أسسوا طيسفون الشهيرة وتمثل لنا هذه العواصم مراحل توسع الفرثيين الى الغرب • وخلف «تيريداتس» ارطبان الاول الذي لم يقو على مواجهة جيش انطيوخس الثالث واضطر على الاعتراف بسيادة السلوقيين ولكن الملك الذي خلف ارطبان وهو «فريا فاطوس» (١٩٥ ق • م) انتهز فرصة إندحار انطيوخس الثالث على أيدي الرومان فأعاد الاستيلاء على ايران وتخليصها من نفوذ السلوقيين • وتحقق فتح العراق في عام ١٤١ على يد الملك الفرثي (مثريداتس) الاول الذي يعد المؤسس الحقيقي للامبراطورية الفرثية فقد أدخل في مملكته جميع ايران تقريبا وضم بلاد بابل وآشور وسلوقية التي أبقاها على وضعها بدون تخريب ولكن الفرثيين أسسوا عاصمة جديدة في العراق في طيسفون التي ذكرناها سابقا • واتخذ مثريداتس بصفته وريثا للامبراطورية الاخمينية لقب «الملك العظيم» ، ولقب نفسه «محب الهلينيين» مدارة منه للمستوطنات الاغريقية في ايران وقد مات مثريداتس في عام ١٣٧ ق • م مخلفا لابنه فراهاط الثاني (Phraates) امبراطورية تمتد من الفرات الى هراة • وبذل السلوقيون في عهد انطيوخس السابع (سيدتس) آخر محاولة لاسترجاع الاقاليم السلوقية السابقة ، فنجح هذا في اختراق

---

(١) ومن الطريف ذكره بهذا الصدد انه وجد في نينوى لوح طين من بداية العهد الفرثي وهو مؤرخ تاريخا مضاعفا اي بتقويمين : بالعهد السلوقي وبالعهد الفرثي •

ما بين النهرين وبلغ اكبتانا وكاد يقضي على الفرثيين ، ولكن ثورات داخلية نشبت في بلاد ايران ضدالجيوش السلوقيةمكنت «فراهاط» من مباغتة السلوقيين وتمزيق جيشهم وقتل انطيوخس وأسرت جيوشه وضمت الى الفرثيين . وهكذا فشلت محاولة السلوقيين وانكمشوا في داخل سورية على ما بينا سابقا ولم تسلم سورية من هجوم الفرثيين الا باشتغال فراهاط في صد الجموع الغفيرة من الاسكيثيين الذين كادوا يقضون على الدولة الفرثية حتى قتل الملك الفرثي في حربه معهم وخلفه عمه أو خاله المسمى ارطبان الثاني الذي قتل بدوره في المعارك فحل اضطراب شديد في المملكة الفرثية وانفصلت عنها جملة ولايات تابعة . وفي هذه الفترة الحرجة اعتلى عرش المملكة الفرثية مثريداتس الثاني (١٢٣ ق . م) الذي كان من أعاظم قادة الفرثيين فأعاد الامور الى سابق وضعها وخلص المملكة من الاخطار التي أحاقت بها فصد هجمات الاسكيثيين وأعاد الاستيلاء على الاقاليم التابعة ومما يذكر عن عهد هذا الملك الفرثي نشوء علاقات صداقة بين الفرثيين والصين لتسهيل التجارة فيما بينهما وسنلخص الاوضاع السياسية في المملكة الفرثية في كلامنا على الحروب الفرثية الرومانية . ولكن ظل النزاع مستمرا ولم يتثبت سلطان الفرثيين في العراق الا منذ ١٣٥ ق . م وظلوا يحكمون القطر حتى حل محلهم الفرس الساسانيون في ٢٢٦ للميلاد . وبدخول الفرثيين العراق والاقاليم التي حواليه أخذوا يقتبسون نظم الادارة القديمة ولا سيما النظم السلوقية ، وكانت امبراطوريتهم بوجه عام مقسمة الى امارات وممالك يحكمها حكام يعينهم الملك وتميزت دولتهم بكونها دولة اقطاعية بهيئة هرم قمته (ملك الملوك) ، ومما يذكر عن الفرثيين انهم كانوا يهدفون الى استتباب السلم وحرية التبادل التجاري وقد حصلوا على موارد مالية من الضرائب والجزية والكمارك . ولكي يقضوا على أهمية العاصمة السلوقية القديمة بنوا بعض المدن الجديدة في العراق منها (طيسفون) (طاق كسرى) وكانت في عهدهم معسكرا للجنود . وبنوا كذلك قرب بابل مدينة عرفت باسم (اولغاشية) نسبة

الى الملك الفرثي (اولغاش) الاول (٥٢–٨٠)[١]. وكذلك أسسوا مدينة الحضر لتكون ثغرا على الطريق الآتي من بلاد بابل الى نصيبين ويرجح ان القصر الموجود في الحضر يعود الى الملك «اورود» ولكن لا يعلم أي واحد من الملوك الذين سموا بهذا الاسم . وأظهرت التنقيبات التي أجراها الالمان في آشور أبنية فخمة شيدها الفرثيون هناك . ومع ذلك، فان بابل بقيت مركزا مهما للفرثيين ولا سيما لسكنهم في الشتاء . أما «اكتابانا» فقد اتخذوها عاصمتهم الشتوية المهمة في بلاد ماذي ، وكانوا قد اتخذوا في مبدأ أمرهم مدينة «هيكاتو مبوليس» عاصمة لهم ، وكانت هذه احدى المدن الجديدة التي بناها الاسكندر في الاقليم الذي ظهر فيه الفرثيون وكان جزءا من امبراطورية الاسكندر وامبراطورية خلفائه السلوقيين قبل ثورة الفرثيين واستقلالهم .

وبعد استتباب أمر الفرثيين في العراق نشأ بينهم وبين الرومان نزاع حاد على الشرق ، فبعد تعاظم سلطة رومة نشأت لها مصالح مهمة في بلاد الشرق وقد بدأ ذلك في الواقع في العهد السلوقي . وكانت الطرق التجارية المهمة المارة بأقاليم الهلال الخصيب[٢] من أبرز عوامل النزاع بين الرومان والفرثيين ، فقد تولدت عند الرومان مطامع استعمارية في هذه البلاد ومنها العراق . ونتج عن ذلك نشوب الحروب المستمرة بين الطرفين . والواقع ان أبرز أخبار الدولة الفرثية في العراق تتميز بالحروب مع الرومان التي استمرت الى العهد الساساني كما سنوجز ذلك فيما بعد ، وظهرت في هذا النزاع قوة ثالثة وهي دولة الارمن الذين نافسوا الفرثيين منافسة خطيرة حتى ان أحد ملوك الارمن المسمى «تغرانيس» استطاع أن يضم ولاية ما بين النهرين الى مملكته . والواقع ان الملك الفرثي «متريداتس» هو الذي جاء

---

(١) من الباحثين من يعين اولغاشية بمدينة الكوفة
Cook, **A Glossary of Aramaic Inscriptions** 1898, P. 18.

(٢) كان أعظم طريق بري يمر من بلدان الهلال الخصيب هو الطريق العظيم الذي يربط الهند بأوربة ، وقد صار هذا الطريق من أهم عوامل النزاع بين الرومان والفرثيين . ويوجد طريق بحري كان يمر من البحر الجنوبي الى الهند ، وقد ظل هذا الطريق بأيدي عرب الجنوب حتى القرن الاول للميلاد .

بهذا الملك الارمنى وأجلسه على عرش المملكة الارمينية على أثر تدخله بشؤونها ، ولكنه استغل تدهور المملكة الفرثية من بعد موت «مثريداتس» فاستولى على جملة ولايات ووسع مملكته حتى ان السوريين رشحوه ليتولى عرش المملكة السلوقية بعد ان سئموا الحروب والمنازعات بين المدعين فى العرش من السلوقيين .

وقبل أن نذكر شيئا من أخبار الحروب بين الرومان والفرثيين التى كان العراق ميدانا لها نذكر بعض المدن والحصون المهمة التى نشأ معظمها على التخوم الفاصلة بين الامبراطوريتين وقرب الطرق المهمة وكان لها شأن مهم ليس فى أخبار هذا النزاع وسير الحروب وانما فى تاريخ الشرق الادنى القديم بوجه عام .

انطاكية وحران ومدن اخرى :-

وتأتى فى مقدمة هذه المدن المهمة «انطاكية» على العاصى . وقد رأينا خبر بنائها فى عهد السلوقيين ، ولكنها أصبحت مصرا كبيرا ومثلا سائرا فى الرخاء والبذخ وقد اتخذها أباطرة الرومان قاعدة لاعداد حملاتهم منها عبر الفرات الى الشرق وهى تقع على الاكثر فى واد ولكن أبراج أسوارها الشاهقة تشرف على الجبل المطل عليها . وقريب من انطاكية مدينة «دفنى» ، وقد جاء فى الاساطير ما سبق أن ذكرناه من ان الاله «ابولو» طارد الى هناك حورية فانقلبت شجرة دفلى . وقد اتخذ أثرياء الرومان مدينة دفنى محلا للنزهة والولائم والعطل . وقد صارت عبارة «الاخلاق الدفنية» فى اللغة اللاتينية تعبيرا عن انحلال الاخلاق . ولا تزال المدينة على شىء من فتنتها القديمة حيث الحدائق ذات الاوراق الكثيفة وشلالات المياه بين الازهار اذ يختلط خريرها بتغريد العنادل وأصوات الطيور . والى الشرق من دفنى نجد «حران» المذكورة فى التوراة وهى من المدن القديمة التى جاء ذكرها كثيرا فى أخبار الدول القديمة فى العراق واشتهرت فى عهد الحضارة العربية الاسلامية ، وقد سماها الرومان (كرهى) (Carrhae) وتقوم حران فى ملتقى طرق مهمة فى العالم القديم ، وتقع الى الشمال منها بمسافة قليلة «اديسا» ، وهى «الرها» المذكورة

فى الاخبار العربية وكانت عاصمة اقليم يدعى «اوسرينة» وتقوم الرها الا ن فى «اورفه» الحديثة . وقد حصنها الرومان تحصينا منيعا .

ولعل أهم حصن على الطريق الشمالية المؤدية الى العراق هى المدينة التى تسمى الآن (ديار بكر) ، وهى (آمد) المدينة القديمة المهمة . وكان لها سور من حجر البازلت محيطه خمسة أميال يدور حوله سور آخر له ثمانون برجا . وتقوم المدينة على مرتفع شاهق على دجلة ، وينعطف النهر فى مروره بقربها فتظهر كأنها جزيرة راكبة على مضيق وهى تحجز الطريق من بلاد ما بين النهرين الى البلاد الجبلية فيما وراء ذلك . وقد شاهدت (آمد) (التى تلقب بالسوداء) تبدل مصائر كثير من الشعوب والامبراطوريات ، وكان تاريخها سلسلة من الحصارات والمذابح . وتقع بين آمد ونصيبين مدينة تسمى (دارا) أصبحت خرائب وأطلالا بعد سقوط الامبراطورية الرومانية . وكانت فى زمن تلك الامبراطورية حصنا منيعا ومعسكرا للجنود الرومان . وعلى الرغم من انه لم يطرأ تغيير على اسم نصيبين من العهد الرومانى فانه لم يبق من جدرانها الرومانية شىء الآن . ومثل ذلك يقال فى (سنجار) الواقعة الى الجنوب بمسافة قليلة حيث تقع بلد سنجار الحالية على طنف من جبال سنجار .

البتراء وتدمر :

لقد ذكرنا فى كلامنا عن العهد السلوقى كيف ان دويلة عربية من الانباط قد نشأت فى منطقة «البتراء» فى أثناء النزاع بين السلوقيين والبطالسة ، وقد اتخذت تلك الدولة «البتراء» (سالع المذكورة فى التوراة) عاصمة لها وازدهرت هذه الدولة وعاشت زهاء ثلاثة قرون منذ القرن الثانى ق . م (١٦٤ ق . م) . ومما يذكر عن «البتراء» ان كتاب اليونان والرومان قد قسموا بلاد العرب الى ثلاثة أجزاء مشهورة دعوا القسم الاول بلاد العرب السعيدة (اليمن) (Arabia Felix) والثانى بلاد « بترية » العربية (Arabia Petraea) والثالث اسم بلاد العرب البادية (Arabia Deserta) . وقد ذكرنا شيئا من أخبار القسمين الاولين فى الفصل الخاص بجزيرة العرب . وقد ظلت بلاد

اليمن مستقلة في هذه العهود الاخيرة ، وسيطرت رومة على بادية الشام وبادية العراق • أما بلاد «البتراء» فكانت في مبدأ امرها مستقلة ثم صارت تحت حماية الفرثيين ، ثم انتقلت الى نفوذ الرومان وقد ازدهرت في العهد الروماني ووصلت الى أوج ازدهارها في القرن الاول للمسيح ، وقد جعلها الرومان دولة حاجزة (Buffer state) ضد الفرثيين • ولعل أهم أسباب ازدهارها وقوعها في طرق التجارة المهمة ولا سيما طرق القوافل بين مصر وسورية ومن الجهة الاخرى مع جنوبي الجزيرة[١] ، فقد كانت الموضع الوحيد بين الاردن وأواسط الجزيرة العربية ، وكانت حلقة مهمة في تجارة عرب اليمن • وتمتاز مدينة البتراء بمناعتها من جهاتها الثلاث ـ الشرق والغرب والجنوب اذ انها منحوتة من حجارة الجبل الشامخ الذي يحيط بها من جهاتها ويصعب المرور منه حيث يدخل اليها من مجاز ضيق • واشتهرت البتراء بناء مقدس كان بمثابة كعبة فيها لعبادة الاله (ذو الشرا) ، وهو كبير آلهة الانباط ، ومن آلهتهم (اللات) • وقد دخلت عبادة (ذو الشرا) في العهد الهلنستي ، وصار مثل اله الخمر اليوناني (ديونيسوس) أو باخوس الروماني• وقد بدأت دولة «البتراء» تضاءل منذ القرن الثاني للميلاد وذلك عندما أخذ الطريق الى الهند ينتقل بالتدريج بواسطة البحر فأخذ طريق القوافل من الشرق الى الغرب يتحول تدريجيا الى الشمال بالقرب من تدمر ، فازدهرت تدمر على حساب «البتراء» • وقد استولى تراجان على البتراء (١٠٥ للميلاد) وصارت مملكة النبط ولاية تابعة الى الامبراطورية الرومانية فحل الظلام في تاريخ «البتراء» منذ ذلك الحين ، وحلت محلها مدينة جرش وبصرى ومدن أخرى مما يعرف بالمدن العشر «ديكابوليس» (Decapolis)

تدمر: (Palmyra)

ظهر شأن تدمر وأهميتها على أثر الاحوال التي نشأت من قيام الامبراطورية الفرثية واستيلائها على بلاد الرافدين وكذلك بسبب الطرق

(١) انظر M. Rostovtzeff, **Caravan Cities** (Oxford, 1932).

الجديدة التي اتخذت بمقياس واسع من بعد القرن الاول الميلادى ، وكانت مدينة تدمر تقوم فى واحة وسط بادية الشام ، وكان لها دور مهم فى تأريخ الشرق فى ذلك الحين وسنجد فى أخبار الدولة الساسانية أن تدمر قد بلغت من القوة مبلغا بحيث غزت عاصمة الفرس فىالعراق • وتقوم خرائبها العظيمة الآن وهى تشهد بما استطاع أن يفعله أهلها فى مغالبة الطبيعة • ولما كانت تدمر تقع بين الامبراطوريتين الرومانية والفرثية المتنافستين ، فان سلامتها كانت تتوقف على حفظ التوازن بين هاتين القوتين وتتوقف على حيادها • وساعدها موقعها الجغرافى المزود بالمياه العذبة على أن تكون ملتقى تجاريا مهما ليس بين تجارة الغرب والشرق ولكن بين تجارة الجنوب والشمال ، وهى التجارة الآتية من جنوبى الجزيرة العربية ، ولا سيما من بلاد اليمن • وقد صارت مدينة البادية هذه فى خلال القرنين الثانى والثالث من أغنى مدن الشرق الادنى • واسم تدمر اسم قديم حيث كانت الواحات الواقعة فيها مقرا قديما جاء ذكره باسم «تدمر الاموريين» فى أخبار تجلا ثبليزر الاول (١١٠٠ ق • م) • وقد اندهش الرواة العرب بمبانيها حتى أنهم نسبوا بناءها الى الجن ، حيث اعتادوا أن ينسبوا الابنية الضخمة العجيبة اليها •[(١)] ويبدو ان تدمر وقعت تحت نفوذ الرومان فى العهد الامبراطورى القديم كما تشير الى ذلك أخبار الرومان فى بداية القرن الاول للميلاد • وصارت تدمر والمدن التابعة لها فى زمن هادريان (١١٧ – ٣٨ م) تابعة الى رومة ، وازداد نفوذ رومة فيها فى بداية القرن الثالث ، ولكنها كانت تتمتع باستقلال فى ادارتها الداخلية • وقد اهتم الرومان بتدمر وشعروا بخطورتها العسكرية لان طريقهم من دمشق الى الفرات كان يمر منها •

يقع عهد ازدهار تدمر بين ١٣٠ و ٢٧٠ للميلاد وقد جاءتنا من عهد ازدهارها هذا نقوش تدمرية عديدة ، واتسعت تجارتها فى عهد ازدهارها

---

(١) ورد ذكرها بهذه الصفة فى اشعار النابغة الذبياني حيث يقول :

الا سليمان اذ قال الاله له ... قم فى البرية واحددها عن الفند
وخبر الجن انى قد أذنت لهم ... يبنون تدمر بالصفاح والعمد

حتى بلغت الصين والواقع انها ورثت «البتراء» فيأهمية طرق التجارة • وميز التدمريون أنفسهم بحادثة شهيرة سنشير اليها فى بحث الساسانيين وهى ان أميرهم أو ملكهم الشهير «اذينة» قد استطاع أن يطرد سابور الاول فى عام ٢٦٥ من سورية ويسلبه جزءا من غنائمه ، وكان سابور قد أسر الامبراطور «فاليران» واستولى على جزء كبير من سورية •

نشأ فى منطقة تدمر نوع من حضارة خليطة من الحضارة الاغريقية والفرثية والسورية ، وهى الحضارة الهلنستية بوجه عام مع تغييرات محلية امتازت بها تدمر ، ويصح أن نسميها بالثقافة النبطية • ونشوء تلك الثقافة عن النبط لدليل على مؤهلات عرب البادية عندما تحين لهم الاحوال الملائمة • والذى لا يشك فيه ان أهل تدمر من أصل عربى كما تدل أسماء الاعلام الواردة فى نقوشها وكذلك لغة تلك النقوش نفسها • وكانوا يتكلمون لهجة من الآرامية الغربية • وكانت دياناتهم تدور على عبادة الشمس ، حيث يقوم الاله الشمس على رأس آلهتهم • وعندما انهارت تدمر خلفها فى طرق التجارة مدن أخرى نشأت فى بلاد الشام ، وهى مدن آل غسان مثل بصرى فى حوران • وكان أصل الغساسنة من اليمن وقد أسسوا دولة فى سورية مركزها الى الجنوب الشرقى من دمشق فى النهاية الشمالية للطريق المهم الذى يربط مأرب بدمشق وبمرور الازمان تأثر الغساسنة بالثقافة الآرامية وتكلموا باللغة الآرامية السورية ولكنهم لم ينسوا لغتهم العربية الاصلية ، وهكذا صاروا يتكلمون بلغتين ، شأنهم شأن الكثير من القبائل العربية التى استوطنت بقاع الهلال الخصيب • وقد دخلوا فى القرن الخامس للميلاد ضمن نفوذ البيزنطيين وكانوا نصارى ، ولم تكن لهم عاصمة ثابتة فمرة كانت فى الجابية فى جولان وصارت مرة فى «جلق» •

الحضر :

لقد سبق أن ذكرنا ان الحضر من المدن الفرثية المهمة التى نشأت فى

هـذا العهـد على الطريق من بلاد بابل الى نصيبين ، وهى (حترا) (Hatra) التى اشتهرت فى الاخبار العربية باسم الحضر • وتقوم خرائب الحضر الآن فى وسط بادية جرداء تقع على مسافة ساعة ونصف الساعة من ناحية الشرقاط وقبل أن يصل المرء الى الحضر يمر من وادى الثرثار المشهور الذى يكون جافا فى أكثر أوقات السنة ولكن تجرى فيه المياه فى الربيع من جبال سنجار ويذهب الثرثار الى منخفض فى البادية غرب سامراء • والحضر من المبانى المشيدة ومن آثار العراق القائمة المهمة ، وهى مسورة بسور يبلغ محيطـه ثلاثة أميال ويقوم فى وسطها معبد وقصر لا تزال بقاياهما قائمة وهى مثال نادر للعمارة من العهد الفرثى • وقد حكمت فى الحضر سلالة من أصل عربى كانت تحت نفوذ الفرثيين • وصارت الحضر مدينة مهمة فى خلال القرن الثانى للميلاد ، حيث جاء وصفها فى هذا العهـد بانها مدينة كبيرة معمورة يحميها سور قوى ضخم ، ويقوم فى وسطها معبد لعبادة الاله الشمس وبوسعنا أن نضع زمن ازدهارها بين ١٠٠ ـ ٣٠٠ للميلاد • وقد عانت الحضر عددا من الحصارات الحربية لم تفلح معظمها لمناعة أسوارها وشجاعة أهلها • وقد فشل الامبراطور تراجان أن يفتحها فى عام ١١٦ للميلاد وقد عانى امبراطور آخر هو سويروس فى فتحها فى ١٩٨ للميلاد وجاء وصف أهل الحضر فى الاخبار الرومانية بانهم يحاربون بنوع غريب من النيران مخيفة مرعبة ولا سيما لمن يقابلهم أول مرة • ولعل هذه الاشارة الى نيران النفط والقير السائل الذى كان يجلبه أهل الحضر من هيت والقيارة التى لا تبعد عنهم كثيرا •

وظلت المدينة فى العهد الساسانى ، ولكن سابور الاول خربها فى ٢٥٠ للميلاد • وقد روت الاخبار العربية ان سابور لم يستطع فتح المدينة الا بخيانة ابنة ملك المدينـة وهو الضيزن المذكور فى الآداب العربيـة حيث تروى الاسطورة ان ابنة الملك أفشت لسابور سر الطلسم الذى يحفظ المدينة حيث أوعدها بالزواج منها وبعد ان فتح سابور المدينة هالته خيانة ابنة الملك لابيها فقتلها شر قتلة بأن ربطها بمؤخرة فرس أطلقه بسرعة • ووصفت المدينة فى

عام ٣٦٣ بانها خرائب وأنقاض • وقد قام الالمان الذين نقبوا فى آشور منذ ١٩٠٤ بدرس الموضع فوضعوا له الخطط ودرسوا بقاياه فى ١٩١١ • وشرعت مديرية الآثار العراقية بالتنقيب فى المدينة (مارت ١٩٥١) وقد أظهرت نتائج التحريات لنا أمورا مهمة عن المدينة وعن العهد الفرثى فى العراق[١] •

الحروب بين الرومان والفرثيين :

لعل أقدم علاقات بين الفرثيين والرومان ترجع فى عهدها الى محاولة الفرثيين لعقد علاقات صداقة مع الرومان لما جاء الجيش الرومانى بقيادة «سلا» (Sulla) فى عام ٩٢ ق • م الى الفرات لمحاربة مملكة الارمن فى عهد ملكها «تغرانيس» الذى حالف ملك اقليم البحر الاسود (مملكة البنتس) فأرسل اليه الملك الفرثى مثريداتس وفدا لعقد الحلف بين الطرفين ولكن الرومان احتقروا الوفد الفرثى ورفضوا مقترحاته فما كان من الملك الفرثى الا ان صالح ملك الارمن وملك البحر الاسود وهجم على الجيش الرومانى واوقع فيه خسائر فادحة علمت الرومان درسا قاسيا عن قوة الفرثيين الذين استهانوا بهم ، واضطروا الى عقد معاهدة حياد تمت بين الملك الفرثى فراهاط الثانى وبين لوكولوس الرومانى وجددت فى عهد «بومبى» ولكن هذا نقض المعاهدة بعدئذ واستولى على الاقاليم الغربية التابعة للفرثيين ، وساء الوضع فى المملكة الفرثية حيث اغتيل فراهاط وبعد منازعات جاء الى العرش (اورود) (٥٧-٥٣ ق•م) • وعين فى هذا الاثناء «كراسوس» حاكما رومانيا على سورية فاعتقد هذا ان الاستيلاء على بلاد ايران امرا سهلا • فنشبت بين الطرفين فى حران معركة (٥٣ ق • م) نكب فيها الرومان نكبة مريعة فنى فيها معظم الجيش الرومانى وقتل «كراسوس» نفسه •

ولان هذه اول معركة بين الرومان والفرثيين فيجدر بنا ان نصفها

---

(١) لا يسعنا ذكر هذه النتائج فى هذا الموجز فنحيل القارىء الى ما نشر عنها فى مجلة الآثار العراقية سومر (مجلد (٧) ١٩٥١ ، مجلد (٨) ١٩٥٢ ، ومجلد) (٩) ١٩٥٣ ، مجلد (١٠) ١٩٥٥ •

بالايجاز لنقف منها على طرق الحرب عنـــد الطرفين • فقد كانت طريقة الهجوم عند الفرثيين في هذه الموقعة تمتاز بالسرعة ، سرعة الكر والفر ، وكثيرة الشبه بما يشاهده المرء في حروب الهنود الحمر في امريكا في الافلام السينمائية أو حروب القبـائل البدوية • والذى ادهش القـائد الرومانى (وكان قائد الفرثيين محاربا شهيرا اسـمه سورينا) انه لم يجد وحـدة من جيش العدو ثابتة يهجم عليها ، وبدلا من ذلك فقد طوقت جيشه خيالة العدو من رماة النبل المسلحين بالاسلحة الخفيفة فامطرته بوابل من السهامالمميتة بدون ان تعرض نفسها لقذائف الرومان وكان عند الفرثيين بالاضافة الى الخيالة من ذوى الاسلحة الخفيفة كتائب فرسان ثقيلة مسلحة بالصلب اللماع حتى ركب الخيل • لقد صبر (كراسوس) وهو يشـاهد السـهام الفرثية تفتك بجموعه وقد ظن أن الفرسان ستنفذ ذخيرتهم من السهام ، ولكن يالشدة فزعه اذ شاهد ان كل فارس بعد ان يرمى آخر سهم يرجع الى الوراء مسافة فيحصل على ذخيرة جديدة من كنائن السهام التى كانت محملة على الجمال في المؤخرة • فرأى ان يهجم في الحال ، فاوعز الى قوة مختارة عنده قوامها ٦٠٠٠ آلاف رجل من الغاليين (الفرنسيين) ارسلهم يوليوس قيصـــر من اوربة أن يهجموا على الجنود الفرثيين المدججين بالسلاح وقد ظهروا من مخبأ لهم في غابة في تلك اللحظة • فحل بالفرثيين الاضطراب القاهرى وانهزموا حتى انقطع اتصالهم بالجيش الرئيسى • ولكنهم رجعوا على حين غرة فاعادوا حشـــدهم وكروا على مهاجميهم بصف متراص من المعدن البراق ، فاستبسل الغاليون في الحرب ولكن الفرثيين كثروهم فأبادوهمعن بكرة ابيهم تقريبا • وكان يقودهم ابن القائد كراسوس نفسه ، ولما رأى هذا ما حل بجيشه أمر حامل ترسه ان يساعده في الانتحار تخلصا من العار حيث كان الباقى الوحيد من جميع الجيش • وعندما تراجع جيش كراسوس في اليوم التالى قتل ثلاثة ارباعه ، وكان من بينهم (كراسوس) نفسه وكان عمره آنذاك ستين عاما • وقد روى لنا المؤرخ (فلوطرخ) ان رأسه ارسل الى ارمينية حيث كان الملك الفرثى (اورود) وقد صادف وصول الرأس الى

٤٧٨



رأس تمثال من الرخام يمثل أحد ملوك الحضر المسمى «اثال» وجد في الحضر
(القرن الثاني للميلاد) (من تنقيبات دائرة الآثار العراقية)

هناك تمثيل رواية للروائي اليوناني (يوريبديز) (واسمها باخي) ، وكان من جملة مشاهدها رأس مقطوع فاستعمل الممثل رأس (كراسوس) لتمثيل ذلك المشهد . وقد هزت انباء هذه النكبة يوليوس قيصر فأخذ يعد حملة للثأر من الفرثيين ولكنه قتل قبل ان يحقق ذلك المشروع .

انتهز الفرثيون فترة الاضطرابات التي حلت في رومة بعد مقتل قيصر فوسعوا فتوحهم الى الغرب واخذوا سورية وفينيقية . فاعد العدة (مارك انطوني) الذي كان في مصر لوقف الزحف الفرثي ، فانتصر الجيش الذي

ارسله على الملك الفرثى (فاقور) الذى خلف اباه (اورود) • وقد قتل الملك الفرثى نفسه • وتشجع (انطونى) بهذا الانتصار فاراد غزو المملكة الفرثية نفسها ، ولكن حلفاءه الارمن لم يوافقوه وحبذوا له بدلا من ذلك الهجوم على البلاد المادية فى شمالى فارس ، ولكنه تراجع واندحر اندحارا مفجعا وفقد قسما من جيشه ، فعاد الى الاسكندرية ليتناسى فى احضان كليوبطرة ذلك الفشل الذى حل فيه •

وحل من بعد ذلك توقف النزاع بين الطرفين زمنا ما وعقدت معاهدة سلم بينهما فى أول سنة للميلاد فى عهد فراهاط الرابع واوغسطس ، وأعقب ذلك زمن غامض فى تأريخ الدولة الفرثية وتأريخ العراق • ان سياسة المصالحة والتعايش السلمى التى اتبعها الرومان فى عهد اوكتافيوس (اوغسطس) انما نشأت بسبب ادراك الرومان لقوة الفرثيين أولا ولانهم لم يروا فى الفرثيين تهديدا للامبراطورية الرومانية لو تركوهم وشأنهم •ولضمان سلامة تخوم الامبراطورية الرومانية اتبع الرومان سياسة انشاء دويلات حاجزة ازاء الفرثيين فمن هذه الدويلات دولة تدمر وارمينية حيث قبل الفرثيون ان ينصب الرومان على ارمينية ملكا مماثلا لهم ، ولكن هذه السياسة لم ترض الفرثيين باستثناء ملكهم فحدثت اضطرابات فى داخل المملكة بسبب هذه السياسة التى اتبعها الملك الفرثى ، وأخذت رومة تتدخل فى شؤون العرش الفرثى حتى انها ساندت الملك الفرثى «فراهاط» الخامس الذى سم أباه وكانت مساعدة الرومان له بشرط أن يتنازل عن ارمينية ، ولكن سرعان ما خلع هذا الملك الشاب ، ورجا اشراف الفرثيين من اوغسطس أن يرسل لهم أحد أبناء « فراهاط الرابع » الموجودين فى رومة حيث سبق لابيهم أن أرسلهم الى البلاط الرومانى ليتثقفوا هناك على أثر الصلح الذى تم بين فراهاط الرابع وبين اوغسطس ، فعاد الابن المسمى «اونون» الاول (Vonones) ولكن هذا لم يستطع أن يحتفظ بعرشه زمنا طويلا لان اشراف الفرثيين اشمئزوا من ثقافته الغربية ، فخلعوه ولاحقوه الى سورية حيث قتل هناك • وتولى العرش الفرثى ارطبان الثالث

المتحدر عن طريق النساء من السلالة الارشاقية • وحصل انتعاش فى الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية فى عهده مما جعل الرومان يحسبون لذلك حسابا فأخذوا يتدخلون فى شؤون المملكة الفرثية مرة أخرى ولعل الثورة التى اندلعت فى سلوقية ضد ارطبان الثالث كانت بتحريض الرومان ، وقد دامت زهاء سبع سنوات وتدخلت رومة أيضا فى عرش ارمينية •

انتهى السلم فى زمن الامبراطور الرومانى (تراجان) فبدأت الجيوش الرومانية تنحدر الى الفرات بلا انقطاع تقريبا ، وكانت فى كثير من الاحايين تصل الى بلاد بابل ، ونهبت العاصمة طيسفون مرارا • ولعل سبب استئناف الحرب مع الفرثيين فى زمن تراجان ولع هذا الامبراطور بتقليد الاسكندر الكبير حتى أنه سار على كثير من أساليب حروبه • وقد بدأ حملته من انطاكية (١١٥ للميلاد) وحمل القوارب التى صنعت فى نصيبين على عربات لنقلها الى جزيرة ابن عمر • ونجح الجيش الرومانى فى عبور دجلة بعد مقاومة ومن ثم جاء الجيش الى قرب الموصل ففتحت المدن هناك • وكانت هذه المنطقة كلها تسمى (اقليم حدياب) فضم هذا الاقليم الى الامبراطورية الرومانية • ومن الغريب فى أمر تراجان انه لم يزحف على العاصمة الفرثية رأسا بل انه عاد فعبر دجلة واتجه غربا قاطعا البادية التى تفصل النهرين وقد مر بالحضر (فى ١١٦ للميلاد) كما ذكرنا سابقا ولكنه لم يستطع فتحها فسار الى الفرات واتصل باسطول ثان كان قد انحدر الى النهر فى أثناء ذلك فسار به فى النهر الى بابل • وكان الملك الفرثى (خسرو) (١٠٦ – ١٢٩ ق • م) يراقب الامور عن كثب حتى ان تراجان أخذ طيسفون بدون مقاومة وغنم كنوزا كثيرة ، ومن ثم سار فى النهر الى أسفل دجلة حتى خليج فارس وفيما هو فى نزهته هذه حالما فى غزو الهند على مثال الاسكندر جاءته أنباء مروعة من الشمال • ذلك ان الملك الفرثى عاد وفتح جميع المدن التى أخذها الجيش الرومانى فاضطر الامبراطور أن يسرع بالعودة فى حر الصيف، وقد أحاط به الاعداء من كل جانب • ومات تراجان فى الحملة ، فتنازل خلفه

(هادريان) عن الاقاليم المفتوحة الى الفرثيين وارتد الى ما وراء الفرات • وبعد خمسين سنة من ذلك غزا العاصمة الفرثية طيسفون قائد رومانى اسمه (كاسيوس) أرسله الامبراطور (مرقس اوريليوس) وتكررت الهجمات من بعد ذلك على المملكة الفرثية • وكان آخر هجوم ما قام به (كراكاله) وقد كان هذا قاسيا سفاحا • فبعد أن نجح فى حربه أبدى للفرثيين كأنه يريد الصلح حتى انه طلب ابنة الملك ليتزوجها ، وعندما خرج الناس من طيسفون وهم فرحون لمشاهدة الاحتفال بالزواج أعمل فيهم السيف وانتهك قبور الفرثيين الملكية فى أثناء رجوعه من قرب الموصل • ومع ما كان عليه الفرثيون من الضعف فانهم انتقموا من هذا الملك الفاجر ، فقد اغتيل (كراكاله) نفسه • وحدثت آخر الحروب فى عهد الملك الفرثى (ارطبان) الخامس آخر ملوك الفرثيين والامبراطور الرومانى «مكرينوس» ، حيث وقعت معركة شديدة قرب نصيبين قتل فيها خلق كثيرون ، وانتهت الحرب أخيرا بمعاهدة صلح أرجع بموجبها الرومان جميع الغنائم والاسرى التى أخذها (كراكاله) كما انهم دفعوا مبلغا كبيرا من المال للملك الفرثى ، وهكذا فشل الرومان من بعد محاولات كثيرة دامت طوال قرنين ونصف القرن فى جعل ايران تابعة لهم والاستيلاء على أقاليم الامبراطورية الفرثية •

وكما كانت هذه الحرب آخر الحروب بين الرومان والفرثيين فانها كانت كذلك آخر حياة الفرثيين حيث خلفتهم من بعد ذلك سلالة فارسية أخرى هم الساسانيون ، الذين استمر فى عهدهم النزاع والحروب مع الرومان على ما سنرى ذلك فى كلامنا على الساسانيين • ومما يقال عن أثر تلك الحروب فى الدولة الفرثية انها كانت من بين العوامل المهمة فى القضاء على السلالة الفرثية ، ويضاف الى هذا العامل المؤامرات والحروب الكثيرة بين أمراء الفرثيين على العرش مما أضعف النظام الاقطاعى الفرثى وسبب تمرد أمراء الاقطاع على ملوك السلالة • وكانت أخطر الثورات التى قضت على حياة الدولة الفرثية ثورة أمراء فارس وعلى رأسهم (اردشير) الساسانى

ابن (بابك) بن ساسان الذى نسبت اليه السلالة الجديدة ، وكانت الثورة القاضية فى عهد الملك الفرثى الخامس (ارطبان) الذى قضى عليه اردشير فى حدود ٢٢٧ للميلاد ، وبعد زمن قليل دانت جميع بلاد ايران الى الساسانيين ودخل العراق فى حكمهم أيضا وسنوجز أخبار الدولة الساسانية بعد قليل .

شيء عن التنظيم الادارى للامبراطورية الفرثية

١ ـ كانت سلطة السلالة الارشاقية تستند فى قوتها الى الاسر النبيلة من قبيلة الفارنى (Parni) أى الفرثيين ، وبامكاننا أن ننظر الى انتقال السلطة بيد الفرثيين على بلاد ايران انه يمثل انتصار الايرانيين الشماليين على الايرانيين الجنوبيين ، أى بعبارة أخرى تفوق الايرانيين البدو على الايرانيين المستقرين المتحضرين المتميزين بتراثهم الحضارى المستمد من حضارات الشرق الأدنى القديمة مع الصبغة الهلينية التى أدخلها الاسكندر . وكانت الفروق بين الفرثيين وبين الاقسام المتحضرة من ايران فروقا واسعة بحيث لم يستطع تسويتها الحكم الفرثى بعد مرور أزمان طويلة . وكثيرا ما كان الايرانيون المتحضرون يظهرون العداء ازاء الحكم الفرثى ، وهو أمر شعر به الفرثيون بحيث انهم لم يعتمدوا ابان الازمات على مساعدة بلاد فارس وماذى وانما كان جل اعتمادهم على أقربائهم من القبائل المستوطنة فى السهوب الى الشرق من قزوين ، وهكذا فان صلة الفرثيين بأقربائهم الشرقيين لم تنقطع ، حتى ان مآثر الامم المجاورة مثل الارمن ربطت السلالة الفرثية الحاكمة بالسلالة الكوشانية التى ظهرت من البدو الايرانيين .

٢ ـ وتذكر لنا المصادر الكلاسيكية (ولا سيما الرومانية) ان ثماني عشرة دولة كانت تابعة الى الفرثيين ، وقد قسمتها هذه المصادر الى نوعين ، سموا احدى عشرة منها بالاقاليم المهمة والباقى أقاليم صغيرة دون الاولى فى الاهمية ، ومن أمثلة الصنف الاول ماذى وفارس وارمينية وعيلام

و«خراكينة»[١] أو (كرخينة) ، وكان بعض هذه الاقاليم على درجة كبيرة من الاستقلال الداخلى بحيث كانت تسك النقود باسمها ، ولكنها تعترف بسيادة الفرثيين وتدفع الضرائب المعينة • أما بقية الاقاليم فكانت مقسمة الى ولايات يحكم كلا منها وال من النبلاء الفرثيين ، وكانت وظائف هؤلاء الولاة على الاغلب وراثية •

وكان أساس الحكم الفرثى النظام الاقطاعى الذى كان يشبه الى حد بعيد النظام الاقطاعى فى اوربة فى العصور الوسطى • واشتهر من أمراء الاقطاع سبع أسر نبيلة كبيرة على رأسها السلالة الارشاقية التى هى قمة الهرم • وكان يتبع هذه الاسر الكبيرة سلسلة كبيرة من الأمراء والفرسان ويأتى فى أسفل الهرم ، فى القاعدة جموع الفلاحين والطبقات الدنيا من المحاربين والتابعين ، وكانت الروابط التى تربط بين النبلاء الكبار وبين تابعيهم الصغار من الفرسان المحاربين أقوى من الصلات التى تربط هؤلاء النبلاء بالملك • ولم يكن هناك نظام خاص بتولى العرش ، كما لم يكن من الضرورى أن يخلف الابن أباه ، اذ كانت الطبقة النبيلة الارستقراطية عاملا مهما فى تعيين الملك الجديد ، حيث يظهر الاشراف ارادتهم فى انتخاب الملك الجديد فى مجلس خاص بالنبلاء ، وهو نوع من «السنات» كان يحدد السلطات والامتيازات الملكية وحقوق الملك • وهناك مجلس آخر للدولة مهمته استشارية يتألف من طبقة المجوس (Magi) والحكماء وكان هذا المجلس قريب الصلة من العرش[٢] • وكانت طبقة النبلاء أساس قوة العرش الفرثى بيد أنها صارت فى النهاية أهم عامل فى سقوطه •

ويبدو ان الفرثيين ليسوا هم الذين أدخلوا النظام الاقطاعى الى ايران وانما ورثوه عن الاخمينيين ، وخلفوه بدورهم الى الساسانيين ، وظل فى

---

(١) (Charcene) دويلة صغيرة نشئت فى جنوبى بلاد بابل واستقلت عن السلوقيين مستغلة ضعف السلوقيين على أثر اندحار الملك السلوقى انطيوخس الثالث ٢٢٣ ـ ١٨٧ ق • م على أيدى الرومان ، وقد تدرجت فى البأس حتى أصبحت فى العهد الفرثى من الدول المهمة التابعة للفرثيين •

(٢) Ghirshman, **Iran**, 264.

الوجود بشكل محور في العهد الاسلامي ، وقد سبق أن نوهنا بتفاقم نفوذ الطبقات النبيلة وتدخلها في شؤون التاج ، فكانت تقيم الملوك وتخلعهم ، فاستفاد الرومان المنافسون للامبراطورية الفرثية من هذه الاضطرابات الداخلية وكثر المدعون بالعرش في المملكة الفرثية ، وكثرت الحروب الاهلية ، وكان من يفقد عرشه على أثر هذه الحروب يلتجأ اما الى القبائل المتاخمة الى جهة الشرق أو الى الدولة الرومانية للحصول على المساعدة .

٣ ـ استمر المجتمع الايراني في عهد الفرثيين على مآثره وتقاليده ، فكان الشغل الشاغل للنبلاء الحرب والصيد ، ولم يكن للفرثيين جيش نظامي ، أما بصدد قواتهم المحاربة فمن تنظيماتهم الاجتماعية ، فكان لكل اقطاعي جيشه الخاص به من أتباعه الفرسان ، وفي حالة الحرب يقدم الى الملك خدمته هو وأتباعه المحاربون من الاحرار والرق ، ففي موقعة حران الشهيرة التي دحر بها الفرثيون الجيش الروماني كان فرسان القائد الفرثي (سورينا) مؤلفين بالدرجة الاولى من أتباعه . وكان النبلاء الكبار يجهزون الجيش الفرثي بالفرسان المسلحين تسليحا ثقيلا والمدرعين بالزرد مما يعرف بمصطلح «كتفركت» (Cataphract) وهم مسلحون بالرماح والسيوف وكان هؤلاء الفرسان قوة هائلة في المناورات الحربية ، وكان قسم من الجيش الفرثي يستعمل الجمال ، ويبدو أن الفرثيين لم يستعملوا الفيلة في حروبهم . أما النبلاء الصغار فكانوا يمدون الجيش بالفرسان المسلحين تسليحا خفيفا[١] . وكان هذا جيشا ماهرا وكفوءا ولا سيما في سرعة المناورة ومسلحا بالسهام والقسي مما جعله قوة مميتة . وكان هؤلاء هم الذين يبدأون المعركة بأن يمطروا العدو بوابل من السهام المميتة ، ولكنهم يفرون في حالة الهجوم المعاكس . وكان في معركة حران التي ذكرناها سابقا ألف جمل تحمل كنائن السهام الاحتياطية لتزويد هؤلاء الفرسان النبالة . ويوجد قسم ثالث من الجيش الفرثي قوامه المشاة ، وهو في الدرجة الاخيرة من الاهمية ويتكون على

---

(١) ويعرف هذا الصنف بمصطلح (Sagitarri)

الاغلب من أهل الجبال ومن الفلاحين ومن الارقاء •

ومما يقال فى الجيش الفرثى بوجه عام انه كان يصلح للدفاع أكثر منه للهجوم ، كما ان الفرثيين كان ينقصهم آلات الحصار الناجعة ؛ فكان الجيش الفرثى يقف عاجزا ازاء الحصون المنيعة •

٤ ـ واذا أردنا التحدث عن الديانة فى العهد الفرثى فليس لدينا المصادر الكافية عن الموضوع ، فنكاد لا نعرف شيئا مما أدخله البدو الفرثيون الى ايران من عناصر الديانة سوى ان دياناتهم تدور على عبادة القوى الطبيعية كالشمس والقمر ، كما ان البحوث الحديثة أبانت ان الزرادشتية لم تنتشر بين الفرثيين كثيرا بخلاف ما كان يظن سابقا[١] ، ولكن استمرت عبادة أهم الآلهة التى كانت شائعة فى العهد الاخمينى وبوجه خاص عبادة الاله «مثرا» والآلهه «اناهيتا» و «اهورا مزدا» ، وكانت عبادة «اناهيتا» قد شاعت كثيرا منذ عهد ارتخششتا الثانى ، وعمت فى العهد الفرثى حيث بنيت لها المعابد وعبدت فى سوسه باسم «نانيا» (وهو الاسم السامى لاناهيتا) ، وسنرى من كلامنا على العهد الساسانى ان أجداد السلالة الساسانية كانوا قواما فى معبد النار الخاص بها فى اصطخر • وانتشرت عبادتها غرب حدود ايران الى آسية الصغرى فى ليدية وفى كبدوكية واقليم البحر الاسود •

ويبدو ان الفرثيين لم يسيروا فى دفن الموتى على العادة المجوسية من تعريض الجثة فوق المرتفعات وانما اتبعوا طريقة الدفن الاعتيادية ، كما تشير الى ذلك جملة قبور فرثية ولا سيما التوابيت المزججة الخاصة بهذا العهد الشبيهة بالحذاء ، وكانت هذه كثيرا ما تزخرف فى خارجها ببعض الصور ومن بين ذلك الهة عارية ، يرجح أنها الالهة «اناهيتا» • ومما يذكر عن الديانة التنويه بالمآثر المتعلقة بزمن تدوين «الافستا» أى الكتاب المقدس الخاص بتعاليم زراوستر ، فمن ذلك الاسطورة القائلة بأن الاسكندر الكبير أحرق هذا

---

(١) Ghirshman, **ibid**, 269.

الكتاب الذى وجده مدونا على ألف رق من الجلد بحروف من الذهب ، وهذه مجرد اسطورة ، كما تقول الروايات المتأخرة ان «الافستا» جمعت ودونت فى عهد الملك الفرثى «اولغاش» الاول (٥١ – ٧٧ للميلاد) ، ولكن الكتابة العائدة لشابور الاول الساسانى (٢٤١ – ٢٧٢ م) المنقوشة فى جدران معبد النار فى «نقش رستم» تشير الى ان الافستا لم تكن قد دونت بعد ، ويميل معظم الثقات المختصين الى ارجاع زمن الخط المدونة به الافستا الى منتصف القرن الرابع أو لعله القرن السادس للميلاد[١] • واشتهر الفرثيون تساهلهم الدينى ، حتى انهم اتخذوا فى بلاد ما بين النهرين (العراق) عبادات الاقليم الخاصة مع تحويرها بعض الشىء • وكانت «دورا يوروبس» (الصالحية الآن على الفرات) من أشهر معاقلهم المهمة ، ولكن لم يعثر المنقبون على معابد للنار فيها على الرغم من وجود مستعمرة ايرانية فى هذا المركز التجارى المهم • ويظهر تساهلهم الدينى أيضا فى معاملتهم لليهود الذين عدوا الحكام الايرانيين مدافعين وحامين لدياناتهم ، واتسعت اليهودية فى بلاد بابل فى العهد الفرثى ، حتى انه ظهرت دويلة صغيرة فى جهات الفرات فى حدود (٢٠ ق • م) ، هذا بالمقارنة مع اضطهاد السلوقيين والرومان • وقد ساعد الفرثيون اليهود فى ثوراتهم على الرومان فى القرن الثانى للميلاد •

٥ – ويبدو أن الفرثيين لم يبنوا مدنا كثيرة كما ان ما نعرفه من المدن التى أسسوها عدد قليل • فمن المواضع المشهورة الممثلة لعهدهم خارج بلاد ايران طيسفون (طاق كسرى) والحضر و «اولغاشية» فى العراق وفى ايران «درب جرد» (Darabgard) و «جور فيروز اباد» ، جنوبى شيراز ، وقد بناها أول الملوك الساسانيين حين كان تابعا للفرثيين ولكنه كان على أهبة الثورة على الفرثيين ولذلك فبامكاننا عدها من المواضع الفرثية • وتمتاز مثل هذه المدن الفرثية بميزات عامة مشتركة فى تصميمها ، فهى على الاغلب مدورة الشكل

---

(١) انظر حول الزرادشتية :ـ

H.W. Bailey, **Zoroastrian Problems** (Oxford), 1943).

تقريبا • وهذا نوع من خطط المدن كان معروفا فى الشرق الادنى قبل العهد الايرانى ، فكان الآشوريون يبنون معسكراتهم بهيئة دائرية • وهكذا كانت المدن الفرثية معسكرات فى أصلها ووظيفتها ، فطيسفون بنيت لتكون معسكرا فرثيا مقابل سلوقية ، واستمرت واتسعت فى العهد الساسانى ، وكانت الحضر حصنا قرب الحدود بين الامبراطوريتين الفرثية والرومانية ،وكثيرا ما استعملت قاعدة للدفاع عن العراق وايران ازاء الجيوش الرومانية •

وبالاضافة الى هذه المدن التى أسسها الفرثيون فان الفرثيين عمروا وانشأوا مقرات مهمة لهم فى جملة مدن مشهورة سابقة ولا سيما فى العراق نذكر منها المدينة الآشورية الشهيرة آشور (قلعة الشرقاط) حيث أبانت التنقيبات التى أجراها الالمان هناك (منذ عام ١٩٠٤) بقايا قصور فرثية مهمة ، ووجد المنقبون فى مدن العراق المهمة مثل نفر وبابل وغيرهما آثار أبنية وآثار مختلفة من العهد الفرثى • ونذكر ازدهار «دورا يوروبس» فى العهد الفرثى • واشتهرت المدن الفرثية بتزيين واجهات القصور فيها بالمنحوتات البارزة كما فى أبنية الحضر • أما بالنسبة الى بناء المعابد فلم يعثر المنقبون على نماذج منها فى بلاد ايران نفسها ، ولكن وجد منها عدة نماذج خارجها نذكر منها «تاكسلا» (Taxila) (فى الهند فى الضفة الشرقية من نهر الاندس) • وقوام مثل هذه المعابد حجرة مركزية مربعة يفصلها عن الخارج ممشى (ambulatory) وهو طراز مشتق من فن العمارة الاخمينى وصار السلم الذى كان فى العهد الاخمينى من الخارج داخلا فى ثخن الجدار ويؤدى الى السطح الموجود فيه المذبح المخصص للنار المقدسة • أما القرابين فكانت تجرى فى الخارج قرب المعبد • ولا يسعنا هنا أن ندخل فى موضوع الفن الفرثى بل نكتفى فى ذلك بالتنويه بالآراء الحديثة حول الموضوع ، فمن ذلك ان هناك نظريتين حول الفن الفرثى قد تبدوان متناقضتين الاولى ترى فيه تأخرا وعودة الى الطرق والاطرزة البدائية ، وترى النظرية الثانية فيه انه تظهر عليه مع ذلك روح جديدة تمثل لنا الروحية الايرانية الجديدة

فى الفن ، ولعل هاتين النظريتين كلتيهما صحيحتان من وجهتى نظر مختلفتين، فالاولى صحيحة اذا اعتبرنا اصول الفن وطرقه ومحاولة نبذ الاساليب الاغريقية الناضجة الماهرة - والثانية صحيحة اذا اعتبرنا مواضيع هذا الفن دون أساليبه ، فمن هذه الناحية يبدو الفن الفرثى وهو بداية فن ايرانى جديد منطلق من قيود العرف الفنى اليونانى ، وسنجد هذا الفن الجديد تتوضح معالمه أكثر فى العهد الساسانى •

٦ - كانت الامبراطورية الفرثية وبوجه خاص ايران والعراق واسطة مهمة للتجارة الدولية بين الغرب والشرق : تجارة الهند والصين وأواسط آسية حيث البضائع المهمة كالحرير والبهار والعاج والروائح العطرية • وقد ازدهرت الحياة الاقتصادية فى معظم العالم المتمدن ولا سيما فى القرن الاول ق•م بالمقارنة مع القرن السابق الذى تميز بالثورات والاضطرابات والقرصنة ، وفقدان الامان • وساعد السلم الذى أحله أول امبراطور رومانى (اوغسطس) على ازدهار التجارة الدولية ، وكان لذلك السلم أثر بالغ فى حياة الشرق الاقتصادية • ومما ساعد التجارة التحسن الذى طرأ فى وسائل النقل والاعتناء بالمحافظة على الطرق ، واعتنى الفرثيون عناية ملحوظة فى سلامة هذه الطرق بالنظر الى أهميتها البالغة لهم فى ضرائب تجارة «الترانزيت» • فكانت طرق البادية تجهز بالآبار والمنازل (الخانات) • وبنيت فى المدن التجارية المهمة مثل تدمر و«دورا يوروبس» والبتراء البيوت والخانات لايواء التجار والقوافل التجارية ، وتشير الوثائق التى عثر عليها فى «دورا يوروبس» على وجود شرطة للبادية للمحافظة على الطرق التجارية • كما استفاد الفرثيون من نظام البريد الذى رأيناه فى العهد الاخمينى ولا سيما تأسيس المحطات والمنازل لتبديل العربات لضمان السرعة ، ويقال ان «وردان» (Vardanes) لما ذهب لخلع أخيه «جو تارز» (Gotarzes) قطع ٣٥٠ ميلا فى يومين • واستعمل «نعل» الخيول لاول مرة فى هذا العهد لمساعدتها على الجرى السريع ، ولا يعلم أصل هذا الاختراع أهو من الشرق أم من الغرب • ومما يدل على تحسن



صورة رائعة منحوتة من الرخام تمثل الهة القمر (وجدت في الحضر ، من
أواخر القرن الاول للميلاد • من تنقيبات دائرة الآثار العراقية)

الصناعة الاقمشة الفاخرة والجلود والفخار والزجاج والاسلحة المختلفة •

هذا وقد سبق لنا أن نوهنا بالنظام الاجتماعي في العهد الفرثي وكيف ان الاقطاع كان قوام المجتمع • واتسعت في هذا العهد بوجه خاص اقطاعات الاراضي الواسعة بأيدي النبلاء من رؤساء الاقطاع ، حتى ان نظام الملكية الصغيرة اختفى من ايران تقريبا ، وفقد الفلاحون والمزارعون الصغار

حريتهم ، وأصابهم الاضطهاد من جانب الملاكين الكبار ، وارتفعت أسعار الاراضي بتزايد الطلب عليها لاستثمار رؤس الاموال فيها . وأصبحت معظم الاراضي أما ملكا للتاج أو للاقطاعيين الكبار .

ومن ناحية الاساليب الزراعية الناجعة ننوه بما قد حصل في العهد الهلنستي (منذ فتح الاسكندر) من طرق ناجعة علمية في الزراعة ، ولكن يبدو ان الفرثيين لم يستفيدوا من هذه الاساليب المحسنة ، ولكن حصل تقدم في فن تدجين الحيوانات ولا سيما الطيور والدجاج كما حصل نوع من التبادل في النباتات بين الصين وبين ايران على أثر المعاهدة التجارية التي أبرمت بين الاقليمين فقد أخذت الصين زراعة البرسيم والكروم والخيار والبصل والزعفران والياسمين وأخذت ايران دودة القز وبعض الأشجار المثمرة ، كما يحتمل ان بداية زراعة قصب السكر قد ادخلت الى ايران في هذا العهد ومصدره من الصين .

الساسانيون

تأسيس الدولة الساسانية(١) :ـ

لقد سبق لنا أن نوهنا في كلامنا على الفرثيين بعلاقة الساسانيين بهم ، ونعيد هنا بشيء من التفصيل كيفية قيام السلالة الفارسية الساسانية وتغلبها على الفرثيين . فتروي لنا المآثر ان «ساسان» (Sassan) ، جد السلالة الساسانية ، كان الكاهن الاعلى في معبد الالهة «اناهيتا» في اصطخر (برسيبوليس) وان ابنه بابك (Papak) الذي خلفه في تلك الوظيفة الدينية المهمة قد تزوج من ابنة حاكم الاقليم ، وانه ثار عليه فيما بعد واغتصب منه السلطة بالقوة . وقد عدت المآثر المتأخرة «بابك» مؤسس السلالة الساسانية الحاكمة ، وان تبوأه منصبه الجديد في تلك الامارة بداية عهد جديد في تأريخ ايران (٢٠٨ للميلاد) .

---

(١) اعتمدنا في ايجاز هذا البحث بالدرجة الاولى على المرجع القيم :ـ
Ghirshman, **Iran** (1954).

وكان الملك الفرثي آنذاك «ارطبان» الخامس فلم يعترف بمشروعية عمله وسلطته ، ورفض كذلك محاولته لتنصيب ابنه «شابور» (Shapur) مما أدى الى الانشقاق بين الملك الفرثي وبين تابعيه فى اقليم فارس • وكان اردشير الابن الثاني لبابك قائدا عسكريا فى «درب جرد» فى فارس ، ولما مات أبوه رفض الاعتراف بسلطة أخيه شابور ، ولكن لحسن حظ اردشير مات أخوه فكفاه ذلك مشقة الدخول فى نزاع مسلح معه ، فخلا الجو لاردشير وأعلن نفسه ملكا على فارس وأخضع الى سلطته جميع أمراء الفرس ، وكون من فارس مملكة موحدة قوية ، كما وسع سلطته الى اصفهان وكرمان • فأخاف ذلك الملك الفرثي ارطبان الخامس ، فأوعز الى ملك الاهواز (عيلام) التابع له أن يحارب اردشير ولكن غلبه اردشير فى معركة حاسمة ، ومن ثم استطاع أن يهزم جيوش الملك الفرثي فى ثلاث معارك متوالية ، واستطاع فى الملاقاة الثالثة النهائية فى بلاد السوس القضاء على الملك نفسه (٢٢٤ للميلاد)، وهكذا انفتح الطريق أمام «اردشير» الى العاصمة طيسفون فى العراق ، وتوج اردشير من بعد عامين ملكا شرعيا على جميع ايران (٢٢٦ للميلاد) ، وهكذا رجعت السلطة الى الفرس من بعد خمسة قرون ونصف القرن من سقوط الاخمينيين ، وكان العام الذى أعلن فيه اردشير نفسه ملكا على ايران بداية العهد الساساني ، ودام نيفا وأربعة قرون حيث انتهى بقضاء العرب المسلمين على الامبراطورية الساسانية فى حدود ٦٣٧ للميلاد (أو فى ٦٥١ م ، وهو العام الذى أغتيل فيه يزدجرد فى أثناء هربه من جيوش العرب) •

ومع أن اردشير استطاع أن يقضي على الملك الفرثي فانه واجه بعد قليل خطرا جسيما هدد عرشه ، اذ تألف اتحاد قوى لمقاومته واعادة السلطان الفرثي وكان مركز المقاومة فى هذا الاتحاد مملكة ارمينية التى كان ملكها خسرو الاول ، متحدرا من السلالة الفرثية الحاكمة ، كما ان رومة خشيت من ظهور هذه القوة الجديدة فى بلاد ايران فقدمت المساعدات ، وساعد الاتحاد أيضا ملك الكوشانيين الذى التجأ اليه أفراد أسرة ارطبان وانضمت

اليه جماعات من الاسكيثيين ، ومهما كان الحال فان اردشير تمكن من تحطيم الاتحاد في سلسلة معارك ، فانسحب الرومان والاسكيثيون وملك الكوشانيين. ولم يبق في الميدان الا ملك ارمينية حيث استمر هذا في مقاومته بيد انه دحر من بعد معارك دامت عشر سنين • ومن ثم أصبح اردشير سيد امبراطورية واسعة تمتد من الفرات الى مرو وهيرات وسستان ، فعمل اردشير على تقوية تخوم هذه الامبراطورية مما أدى الى الاصطدام بروما أحرز فيه الفرس سلسلة من الانتصارات على الرومان واستولى الفرس على حصنين مهمين هما نصيبين وحران •

شـــابور :ـ

حكم اردشير حكما طويلا دام نحو خمسين عاما استطاع في خلاله أن يدحر أعداءه الواحد بعد الآخر ، ونجح في اقامة أسس امبراطورية واسعة ولعل أهم أعماله التي يذكر من أجلها تحويله الجيوش الى أداة نظامية قوية ، وأشرك ابنه شابور الاول في الحكم ، ويروى انه نقل له العرش قبل موته ببضع سنوات • فورث شابور عن أبيه دولة موطدة نوعا ما ، ولكن لا تزال قائمة فيها الانظمة الفرثية وعلى رأسها النظام الاقطاعي فأبقى عليه ، ولكن حسن في هذا النظام بأن قوى فيه السلطة المركزية ، مضافا الى ذلك جيش نظامي حسن التدريب مما جعل الامبراطورية تقوم على أسس وطيدة مدة من الزمن •

لقد وجه شابور همه منذ البداية الى الشؤون الخارجية وبامكاننا أن نوجز أعماله في جبهتين رئيسيتين هما الجبهة الشرقية والجبهة الغربية • وكان أهم خطر شغل شابور في الجبهة الشرقية وجود مملكة قوية في تخوم المملكة الفارسية الشرقية هي المملكة الكوشانية التي تأسست منذ القرن الاول للميلاد (في العهد الفرثي) مما جعلها مصدر خطر جسيم من الناحية السياسية والاقتصادية ، اذ كانت المملكة الفارسية في الواقع محصورة بين قوتين خطرتين هما الامبراطورية الرومانية والكوشانيين • وتدخل في هذه المشكلة

من الحدود الشرقية مشكلة الدولة الارمينية • فوجه شابور قواه أولا على الكوشانيين ، وخلف أخبار انتصاره عليهم فى الكتابات المنقوشة فى جدران معبد (نقش رستم) حيث استولى على «بيشوار» عاصمة الكوشانيين الشتائية واستولى على وادى نهر السند ثم زحف شمالا وعبر هندوكوش واستولى على بلاد البخت ، وعبر سيحون ودخل سمرقند وطشقند وخلع الملك الكوشانى ونصب بدلا منه ملكا جديدا تابعا للفرس مع تقليص حدود المملكة وجعلها ولاية •

وبعد هذه التسوية الناجحة فى الجبهة الشرقية حول شابور جهوده الى الجبهة الغربية ، وكان الحظ حليفه فى الغرب أيضا فقد زحف على سورية وتوغل بعيدا فيها الى انطاكية ، ولكنه لاقى بعض الاندحارات وفيما كان مصمما على الانسحاب أغتيل الامبراطور الرومانى «غورديان» (Gordian) وأسرع خلفه فيلب الملقب بالعربى الى طلب الصلح دافعا جزية كبيرة الى فارس وتخلى عن بلاد ما بين النهرين وارمينية (٢٤٤ للميلاد) • ولكن نشبت الحرب مع رومة من بعد ١٥ عاما على هذه التسوية • واحرز شابور نصرا لامعا فيها حيث استطاع أن يستولى على أهم المدن السورية من بينها المركز المهم «انطاكية» • وفى موقعة كبرى قرب الرها (اديسا) وقع الامبراطور الرومانى فالريان (Valerian) [1] اسيرا بيد شابور ومعه زهاء (٧٠٫٠٠٠) جندى من الرومان من فرق «الليجون» الرومانية الممتازة ، فأخذ هؤلاء الى ايران ووطنوا فى مقار بنيت لهم على هيئة معسكرات رومانية فى خوزستان بالدرجة الاولى (٢٦٠م) ، وقد استفادت الامبراطورية الفارسية من اختصاص هؤلاء ، اذ كان بينهم المعماريون والمهندسون فشغلوهم فى الاعمال العامة كانشاء الطرق والجسور والاسداد ، وحصل شابور من هذه الانتصارات

---

(١) تروى لنا المآثر الرومانية (ولا سيما الكاتب والمؤرخ الرومانى امينيس مرشيلينوس) ان شابور عامل أسيره الامبراطور بمنتهى الخشونة والتحقير فكان يرتقى عليه عند امتطاء جواده ، ولما مات حشا جسمه وصار يستعمله للغرض نفسه •

اللامعة على غنائم واسلاب وفيرة ، ولكن حدث له فى اثناء عودته عن طريق شـمالى سورية حادث طريف لم يكن ليحلم به الملك الفـارسى • اذ عندما اقتربت جموعه من تدمر (Palmyra) العربية ، ارسل الملك اذينة (او كما تسميه المصادر الرومانية (Adenathus) هدايا ثمينة • ولكن الملك الفارسى رفض هذه الهدايا باحتقار متسائلا عمن يكون اذينة هذا ؟ ولم لم يجيء بنفسه ويسجد للملك العظيم ؟ فكان جواب اذينة ان ظهر بجموعه الاشداء (٢٦٥ للميلاد) فاوقع الرعب فى الجيش الفـارسى وحدثت الفوضى وسـلب الملك الفارسى جزءا من الغنائم الكثيرة ، ومع ذلك فلم يكن هذا الانتكاس امرا ذا بال بالنسبة الى انتصاراته على فاليران[١] • وكان هذا الحادث المهم قد بلغ الرومان فقربوا اليهم اذينة ولقبوه «بحاكم المشرق» ، وكان هذا لقبا عظيما ورثته عن اذينة زوجه الملكة زنوبيا (أو كما يسميها العرب الزباء أو زينب) وقد كانت هذه ملكة عظيمة وصفهـا المؤرخ الشهير «جيبون» (Gibbon) بانها كانت ملكة نابغة مشهورة بالصيد والفروسية وتصفها المصادر الرومانية بجمالها وثقافتها وانها كانت تحسن اللاتينية والاغريقية والمصرية علاوة على اللهجة السورية • وقد ورثت العرش عن زوجهـا الذى اغتاله احد اقاربه بالوصاية على ابنها «وهب اللات» •

وقد امتازت «الزباء» بطموحهـا الخارق فانها تحدت الامبراطورية الرومانية وشنت عليهـا الحرب واستطاعت أن تمد حدود مملكتها بحيث شملت ولاية مصر وقسما كبيرا من آسـية الصغرى حيث دحرت الجيش الرومانى هناك (عام ٢٧٠ للميلاد) واستولت فى العام نفسه على الاسكندرية وتوجت ابنها الصغير ملكا على مصر • واشتهر من قوادها الحربيين قائدان عظيمان يعزى اليهما تدبير خطط الملكة الحربية وهما «زباى» و«زبداء» • ولكن طموح «الزباء» الخـارق كلفهـا ثمنا غاليا فانها لم تكتف بتحـدى

(١) خلد شابور انتصاره على فاليران وجيوشه بالنقوش والمنحوتات البارزة فى جبال فارس •

الامبراطورية الرومانية بل انها أخذت تحارب الفرس ، ودحرت جيوش «سابور» مرتين وصلت في كل معركة منهما الى ابواب العاصمة «طيسفون» • ولما بلغت دولة تدمر هـذه القوة حل الرعب فى الرومان فعزم الامبراطور الرومانى «اورليان» وضع نهاية لدولة تدمر فبعد ان دحر القائد (زبدا) فى انطاكية وفى حمص هاجم فى ربيع عام ٢٧٢ تدمر نفسـها ، وبعد حصار شديد يأست الملكة من المقاومة فهربت واخذت بعدئذ مصفدة بسلاسل من الذهب وسارت امام عربة الامبراطور فى دخوله منتصرا الى رومة ، وبذلك انتهت حياة هذه الملكة • وخربت المدينة ونهبت كنوز معبدها الشهير المخصص لعبادة الاله الشمس واخـذت الى رومة الى معبد شيده الامبراطور للاله الشمس تخليدا لذكرى انتصاره هذا فانتهت حياة مملكة تدمر ، وخلفتها فى الاهمية التجارية بعض المدن السورية التى كونها الغساسنة مثل بصرى •

ومن الامور التى يجدر ذكرها عن عهد شابور الاول المدينة المهمة التى شـيدها فى اقليـم خوزسـتان فـى الموضـع المسـمى بالسريانيـة « بيت لافط » وموضعهـا الآن شـاه أبـاد وعرفت فـى المصـادر العربية باسم «جند يسابور» التى اشتهرت بمدرستها فى الطب وفروع المعرفة الاخرى مما كان لها اثر عظيم فى الطب العربى وظلت مزدهرة الى العهـد الاسـلامى • لقد بنى شـابور هـذه المدينـة تخليدا لانتصاره على الامبراطور الرومانى «فاليريان» وتدميره انطاكية وقد سـماها باسم طريف يعنى «أحسن من انطاكية مدينة شابور»[١] وصارت هذه من المراكز العلمية الشهيرة ، ولجأ اليها كثير من العلماء النساطرة بعد أن طردتهم بيزنطية فى القرن الخامس من اقليم اديسا (الرها) • واشتهر شابور بولعه بالحكمة والمعرفة والفلسفة وترجمة المآثر اليونانية فى ذلك •

---

(١) (Veh - az - Andev - i - Shâpûr) ثم سـميت بهيئـة (Gundê - Shâpûr) و (Jundi - Sâbûr) أى جنديسابور بالعربية •
(E. G. Browne, **Arabian Medicine** (1921), 20).

وبعد الاستطراد الذى اضطرنا اليه فى ذكر بعض الاشياء المفيدة عن تدمر نعود فنوجز ما تم فى عهد شابور من الاحداث المهمة ، وعلى رأس ذلك ما قام به هذا الملك العظيم ، بالاضافة الى اعماله العسكرية ، من التنظيمات الداخلية للامبراطورية مما بدأ به ابوه . واشتهر شابور بولعه بالمعرفة والكتب على ما ذكرنا من قبل حتى انه امر بترجمة جملة كتب يونانية وهندية تتضمن نواحى مختلفة من المعرفة كالطب والفلك والفلسفة . ومن الامور التى تستحق الذكر عن عهد شابور ظهور حركة مانى (Mani) الدينية حيث شمله هذا الملك الفارسى بحمايته واهتم بتعضيد حركته الدينية ولعله استهدف من ذلك تأسيس ديانة عامة عالمية فى امبراطوريته ولما كنا سنذكر اشياء اخرى عن هذه الديانة فى موضع آخر فنكتفى هنا بان نذكر انها حصلت على اتباع كثيرين فى جميع آسية الغربية ، ولكن وقع الاضطهاد فى صاحبها واتباعها من بعد موت شابور (٢٧٢ م) بزمن قليل فى عهد بهرام (وهرام (Vahram)) الاول حيث حكم على «مانى» بالموت .

خلفاء شابور

كان شابور من اعاظم ملوك السلالة الساسانية وقد حصلت من بعده اضطرابات وثورات مما احل فى المملكة فترة من الوهن والضعف . خلف شابور ابناه هرمزد (هرمز) الاول ثم بهرام الاول ، ثم بهرام الثانى فبهرام الثالث[١] . ونشبت حرب جديدة مع رومة فى عهد بهرام الثانى ، كما حدثت ثورة خطيرة فى التخوم الشرقية من الامبراطورية حيث اراد اخوه الذى كان واليا على «سستان» اغتصاب العرش وساعده فى ذلك امير مملكة كوشان مما جعل الخطر يشتد على بهرام فى جبهتين ، ولذلك عمد الى عقد الصلح مع رومة متخليا بموجبها عن بلاد ما بين النهرين وارمينية . ولم يحكم بهرام الثالث سوى بضعة اشهر (٢٩٣ م) حيث خلعه

---

(١) راجع كتب التأريخ العربية حول تسلسل الملوك الساسانيين ، وبوجه خاص الطبرى والمسعودى واليعقوبى .

اخوه «نرسى» (Narsah) (٢٩٣ – ٣٠٢ م) وهو سابع ملك من بعد اردشير وتجددت الحرب مع الرومان فى عهد «نرسى»، وكان قائد الجيش الرومانى «غاليريوس» وكان النصر حليف الملك الفارسى وتقهقر القائد الرومانى الى انطاكية حيث عززه الامبراطور الرومانى «ديوقليشان» الذى قاد الجيش بنفسه وهاجم الملك الفارسى فى السنة التالية، فاحرز الرومان نصرا ساحقا على الفرس حتى انهم اسروا جميع اسرة «نرسى» وعقدت معاهدة بين الطرفين سلخت بموجبها ارمينية الصغرى وجملة ولايات فارسية شرقى دجلة • وبلغ الضعف فى ايران مبلغا كبيرا فركن الساسانيون الى سياسة المصالحة مع الرومان ومع الكوشانيين حتى ان هرمز الثانى ابن نرسى وخليفته تزوج باميرة كوشانية • ولم تحدث فى عهد هرمز الثانى (٣٠٣ – ٣٠٩) حوادث تستحق الذكر • وتبوأ العرش الفارسى بعد موته ملك شاب هو شابور الثانى (سابور ذو الاكتاف كما سماه العرب) الذى دام حكمه زمنا طويلا نحو سبعين عاما (٣٠٩ – ٣٧٩ م) برهن فيه على كفاءته فى الحكم، وقد احتذى مثال شابور الاول وكان اول محك لقدرته توجيه قواه على مملكة الكوشانيين حيث حطم امبراطوريتهم وضمت الى ايران على هيئة ولاية تابعة يحكمها ولاة من الامراء الساسانيين فى مقرهم فى «بلخ»، ومما يذكر عن عهد هذا الملك القدير انتشار الثقافة الايرانية والفن الايرانى شرقا الى المدن التركستانية الصينية وحتى الى الصين نفسها واستأنف شابور الثانى من بعد استتباب الامور له فى الشرق نزاعه مع الرومان لازالة عار المعاهدات التى فرضتها رومة على بهرام الثانى و«نرسى» • وكان سير الحرب فى مبدأ الامر فى صالح الرومان، ولكن تغير الوضع الى صالح الفرس بعد التسوية التى تمت مع الكوشانيين والافتلاطيين [١] حيث ساعد

---

(١) (Ephthalites) وهو الاسم الذى ذكره المؤرخون البيزنطيون، ويعرفون باسم الهون البيض وهم قبائل كثيرة تورانية (تركية) وقد سماهم العرب باسم الهياطل (ج • هيطل)، ولكن المؤرخين العرب اطلقوا هذا المصطلح بوجه عام على جميع الشعوب والاقاليم التورانية فيما وراء جيحون كما فعل المقدسى، وكان نهر جيحون القديم الحد الفاصل بين الاقوام الايرانية والتركية، وسمى العرب جميع الاقاليم التى الى شماله بما وراء =

هؤلاء الاقوام البربرية الشديدة الجيوش الفارسية في حربها مع الرومان ، وكانت اولى المعارك العظمى في عهد الامبراطور الروماني قسطنطين[١] في سنجار ، فكان النصر حليف شابور وبعد ذلك توجه (شابور) الى نصيبين التي كانت قلعة رومانية محصنة كما ذكرنا وكاد ينتصر هنا لولا الارتباك الذي حدث في جيشه واضطراره على ترك الحرب والذهاب الى فارس ليخمد ثورة كانت قد نشبت هناك . وبعد اخماد الثورة رجع فقصد الشمال وحاصر (آمد) وقتل اهلها ومن بعد ذلك شغل الفرس انفسهم في تخريب بعض القلاع الرومانية . وفي اثناء ذلك جاء الى الحكم في رومة الامبراطور «جوليان»[٢] . وقد بدأ حكمه في غزوه الشرق وعبأ لذلك جيشا كبيرا ومعه اسطول من السفن . فبعد أن عبر الفرات سار متوجها الى حران وقسم هنا جيشه الى قسمين ارسل القسم الاول منه شرقا الى نصيبين وسار بنفسه مع الآخر باتجاه الفرات . وكان الاسطول يرافق الجيش الزاحف . وقد وصل الامبراطور الى بابل نفسها وكان قد دمر مدنا كثيرة خلال تقدم الجيش ومن ثم سار الجيش شرقا الى العاصمة «طيسفون» فنشبت معركة عظيمة بين

النهر وباسم الهيطل أيضا ، وسنرى مما يمر بنا من سير حوادث التاريخ الساساني ضغط هؤلاء وخطرهم على المملكة الساسانية ولا سيما في القرن الخامس للميلاد .

(١) ومما يقال عن النزاع الفارسي الروماني في عهد قسطنطين الكبير انه اتخذ شكلا جديدا فان اعتناق هذا الامبراطور للمسيحية وتحول ارمينية الى المسيحية قربت ما بين ارمينية وبين الرومان ، ولكن قسما من طبقة النبلاء في ارمينية ظل محتفظا بثقافته الايرانية وبميوله وولائه الى ايران ، فصارت ارمينية مسرحا للمنازعات الداخلية . ولما صارت المسيحية الديانة الرسمية للامبراطورية الرومانية تعرض المسيحيون التابعون للامبراطورية الفارسية الى الاضطهاد من جراء اتهامهم بميولهم الى رومة بسبب الروابط الدينية الجديدة .

(٢) نذكر هنا تسلسل أباطرة الرومان في هذه الفترة التي حكم فيها شابور فبعد حكم قسطنطين (٣٠٦ ـ ٣٣٧ م) حلت فترة اضطرابات دامت ربع قرن وحكم من بعدها الامبراطور جوليان (يوليان) (٣٦١ ـ ٣٦٣) ثم جوفيان (٣٦٣ ـ ٣٦٤) .

الفرس والروم على أبواب العاصمة كان النصر فيها الى الرومان • وكان الملك الفارسي آنذاك بعيدا عن العاصمة • فأسرع فى العودة ليخلص عاصمته من الحصار الروماني • يضاف الى ذلك ان الجيش الروماني الثاني لم يصل بعد باتجاه دجلة نظرا للمناوشات التي حصلت بينه وبين الارمن ، لذلك قرر مجلس الامبراطور الحربي أن يترك حصار العاصمة الفارسية ويذهب لاخضاع المقاطعات الشرقية وعزم الامبراطور على حرق اسطوله مخافة أن يقع بأيدى العدو • وبعد أن فعل ذلك سار متوجها الى بعقوبة ومنها الى جبل حمرين ، وكان الفصل صيفا فلاقى الجيش صعوبات عظيمة ، وبعد أيام ظهر جيش الملك الفارسي (شابور) الذى اعترض مرور الامبراطور من تلول حمرين الى كركوك ، وقد نشبت على أثر ذلك معارك غير حاسمة قتل فى احداها الامبراطور بسهم فى قلبه فمات على الاثر • فاضطرب الجيش من بعده ولما لم يتمكن من عبور جبال حمرين تقهقر قسم منه وعبر دجلة قرب سامراء ووصل الباقى بحالة مبعثرة الى انطاكية • وقد رافق حملة جوليان المؤرخ الروماني «مرشيلينوس» المشهور وكتب عن هذه الحوادث فى مؤلفاته التأريخية • وهكذا كانت نتيجة غزوة جوليان للشرق ، ومن نتائجها أيضا ابرام معاهدة بين الامبراطور الذى خلف جوليان وهو جوفيان وبين شابور حصل بموجبها الفرس على أقاليم مهمة من الامبراطورية الرومانية مثل سنجار ونصيبين وارمينية التى احتلت احتلالا عسكريا من جانب الفرس بقيادة مرزبان (أى أحد قواد التخوم) •

أحوال الدولة الساسانية بعد شابور الثاني

حلت من بعد موت شابور الثاني (٣٧٩ م) فترة ضعف فى حياة الدولة الساسانية شغلت زهاء القرن الواحد ودامت تقريبا الى عهد قباذ الاول (٤٨٨ – ٥٣١ م) وعمت فيها الاضطرابات من جراء التناحر والنزاع بين العرش من جهة من ناحية تولى الملوك وبين الطبقات الارستقراطية الاقطاعية التى حالفت طبقة الكهنة الزرادشتية • فعلى الرغم من الجهود التى بذلها

أوائل الملوك الساسانيين الاقوياء من أجل السيطرة على النبلاء الاقطاعيين وكبح قوتهم الا انهم عادوا الى استرجاع امتيازاتهم المأثورة ، وكان ذلك يظهر بوجه واضح ابان فترات الضعف الناشئة من ارتقاء العرش ملوك ضعفاء مثل الفترة التى أعقبت موت شابور الثانى ، كما ان المناصب التى أخذوها فى الدولة أصبحت وراثية ، وضعفت سلطة العرش بتدخلهم ومعارضتهم حتى آل الامر بالملك ان فقد حقه بتعيين خلفه ، وهى العادة التى كانت متبعة بين الملوك الساسانيين ، وصار الملك ينتخب من أفراد الاسرة الساسانية من جانب طبقة النبلاء الاقطاعيين ، فأدى ذلك الى تمزق العرش من جراء تناحر الاحزاب الموالية للامراء المتنازعين • وقد أخذ نفوذ هؤلاء النبلاء بالازدياد فى عهد اردشير الثانى (٣٧٩ ــ ٣٨٣) الذى خلف شابور الثانى واستمر فى الازدياد فى عهد شابور الثالث (٣٨٣ ــ ٣٨٨ م) وبهرام الرابع (٣٨٨ ــ ٣٩٩ م) الذى تمت فى عهده تسوية للمشكلة الارمينية • واشتهر يزدجرد الاول (٣٩٩ ــ ٤٢٠ م) بتساهله الدينى ازاء المسيحيين حتى انه لقب «بالملك المسيحى» وعين «جاثليقا» (Catholicus) فى سلوقية وخمسة مطارنة فى خمس مدن ، وسمح للقسس بحرية التنقل ، ولكن يبدو ان هؤلاء أساؤا هذا التساهل الملكى اذ شهروا بالمعابد الزرادشتية وبكهنتها مما حمل الملك على التخلى عن سياسة التساهل ازاء المسيحيين • ومما يذكر عن حكم يزدجرد الاول ما جرى من التصادم مع الافثلاطيين وهم الذين أسكنهم شابور الثانى فى تخوم كوشان وسمح لهم بتأسيس اتحاد مع ايران ، ولكن استطاع هؤلاء بمرور الزمن أن يؤسسوا مملكة قوية ازدادت فى البأس والقوة فى بداية القرن الخامس ويوسعوا حدودهم من هندوكوش وهددوا الهند •

وبعد موت يزدجرد الاول وقع نزاع حاد على العرش بين أبنائه فاستطاع أحدهم المسمى بهرام الخامس (بهرام جور) (٤٢١ ــ ٤٣٨ م) أن يحصل على العرش بسبب المساعدة العسكرية التى حصل عليها من أمير الحيرة العربى المنذر الاول بن النعمان (٤١٨ ــ ٤٦٢ م) ، حيث كان بهرام قد عاش فى بادية

الحيرة يوم كان شابا • وقد اشتهر بهرام الخامس من بين الملوك الساسانيين بكونه صيادا (ووصفه الخيام بالصياد الاعظم) وشاعرا وموسيقيا وقد صارت شخصيته مدار قصص وموضوعا للفنانين ، وكان مسالما ضعيفا حتى انه تحاشى مشكلة البلاء بأن تنازل عن امتيازاته ولكنه نجح بحرب قصيرة مع بيزنطية[١] ، كما تفاهم مع رومة[١] ، وأظهر المسيحيون ولاءهم للدولة الساسانية حتى ان مجمعا كنسيا أعلن استقلال كنيسة ايران عن بيزنطية • وخلف بهرام الخامس يزدجرد الثانى (٤٣٨ ـ ٤٥٩ م) ، واشتهر هذا بالاهتمام بالمناظرات الدينية ودرس الديانات الموجودة فى امبراطوريته ولكنه ظل زرادشتيا متحمسا لديانته واضطهد أخيرا المسيحيين واليهود وتدخل فى شؤون ارمينية الدينية محاولا تحويلها الى الزرادشتية مما سبب ثورة فيها أخمدها يزدجرد بصعوبة •

وازدادت أحوال الامبراطورية سوءا فى عهد فيروز (٤٥٩ ـ ٤٨٤ م) وحصلت فى عهده مجاعات فى المدن والارياف مما اضطر الملك الى تأجيل الضرائب وتوزيع الحبوب على الناس • ومما زاد فى الطين بلة وقوع المنازعات والاضطهادات الدينية • وانقسم مسيحيو الامبراطورية الفارسية فى عهده الى طائفتين النساطرة (الذين رأوا ان فى المسيح طبيعتين الاولى الهية والاخرى بشرية) واليعاقبة (أصحاب الطبيعة الواحدة)[٢] • وحارب فيروز الافتلاطيين (الهياطلة) فاندحر وأسر ولم يطلق سراحه الا بدفع فدية باهظة ، وأودع ابنه قباذ (Kobad) رهينة حتى دفع الجزية واستنجد برومة التى تدخلت فى شؤون ايران • ومع هذه النكبات فان فيروز أعاد الكرة بعد استجمام عدة سنوات نهجم على الافتلاطيين ، وقد كلفته الحرب فى هذه المرة حياته •

---

(١) ننوه هنا بانقسام الامبراطورية الرومانية الى قسمين غربى وشرقى وقد قام بهذا التقسيم الامبراطور ثيودوسيوس قبيل موته (٣٩٣ ـ ٣٩٥) حيث قسم الامبراطورية بين ولديه جعل على القسم الشرقى (ومركزه بيزنطية) اركاديوس وعلى القسم الغربى (ومركزه رومة) هنوريوس •

(٢) انظر كلامنا على ظهور المسيحية فى تاريخ بلاد الشام •

وصارت اليد العليا لهؤلاء الافثلاطين وأصبحت ايران تابعة لهم تقريبا زهاء أكثر من نصف قرن ، في عهد خلفاء فيروز الثلاثة[1]، وصار الهياطلة هم الذين ينصبون الملوك الفرس على عرشهم .

المزدكيـة :ـ

ساءت أحوال المملكة في عهد قباذ الاول (٤٨٨ - ٥٣١) فبالاضافة الى الاخطار الخارجية من الافثلاطين نشب نزاع وصراع حادان بين جماهير الشعب وبين الطبقات النبيلة ، وقد اتبع معظم الجماهير حركة دينية اجتماعية غريبة هي المزدكية التي ظهرت في هـذا العهـد ، أما قباذ فقد التزم جانب الجماهير مدفوعا على ما يرجح بحـافز القضاء على نفوذ الطبقـات النبيلة . وتنسب هذه الديانة الى مؤسسها «مزدك» وقد أسست على نظام وعقائد خاصة بالخليقة والكون مستقاة بالدرجة الاولى من تعاليم «ماني» ولها قواعد خاصة بالسلوك فكانت تتطلب من أتباعها الامتناع التام عن النزاع والبغضاء والحسد والتكالب . ولكن سر جاذبيتها يكمن في روحها النورية ونظريتها الاجتماعية التي تستند الى مبدأ التساوي العادل في توزيع الملكية والمقتنيات واقتسـام أملاك الاغنياء بين الفقراء وشـمل ذلك حتى النسـاء . واذا نظرنا الى هذه الحركة وهي في مجتمع مثل المجتمع الايراني حيث تقسيم الطبقات الاجتماعية والفروق بينها شديدة وحيث قوام المجتمع الاسرة والملكية الفردية الواسعة والفروق بين الطبقات وحيث الطبقات الاقطاعية بامتيازاتها وأملاكها ـ نقول لو نظرنا الى هذه الحركة على هذا الضوء لبدت لنا ثورة انقلابية لم يسبقها مثيل ، حتى انها وصفت بانها شيوعية ايرانية ، وهي مما لا شك فيه رد فعل عنيف من طبقات الفلاحين والارقاء وسـكان المدن والارياف الاحرار المعوزين ضد الارستقراطية الاقطاعية . فساند «قباذ» هذه الحركة الجريئة وأدخل جملة تشريعات جديدة يتعلق بعضها بمركز النساء . ولكن نشبت الثورة عليه فخلع عن العرش وسـجن وحوكم ولكن أبقى على حيـاته . ونصب على العرش

---

(١) وهؤلاء هم بلاش وقباذ الاول وجماسب .

الفارسى أخوه «جماسب» . أما قباذ فقد هرب الى الافثلاطيين والتجأ اليهم وعاد في عام ٤٩٩ مع جيش من هؤلاء، فخلع أخاه واستعاد عرشه، وغير سياسته ازاء الديانة الجديدة لا سيما وان المزدكية التجأت الى الثورة والعنف حيث نهبت أملاك النبلاء واختطفت النساء ، وازداد بغض الملك لاتباع مزدك لما عارضوا تعيينه لابنه كسرى خلفا له . وجرت مناظرة هجم فيها الكهنة الزرادشتيون والقسس المسيحيون على أتباع المذهب المزدكى ، فأوقعت بهؤلاء على أثر ذلك مذبحة وأحرقت كتبهم وصودرت أملاكهم . ولكن على الرغم من كبح جماح هذه الحركة الثورية الا ان آراءها ومبادءها ظلت وانتشرت سرا . حتى انه حدث بعد خمسين عاما أن ترأس أحد أبناء الخاقانات من الترك الغربيين الجماهير المعدمة واستولى على واحة بخارى وطرد الاغنياء والنبلاء ، ولكن انتصاره لم يدم زمنا طويلا اذا خمدت ثورته وقتل ومثل به . وظهرت ثورة أخرى في أزمان الفتوح العربية لايران ، اذ اعتنق مبادىء المزدكية في بداية القرن الثامن للميلاد الامير المسمى «خورزد» ، أخو شاه خوارزم ، فبعد أن استولى هذا على السلطة اضطهد الطبقات النبيلة في ذلك الاقليم وصادر أموالهم ونساءهم وبناتهم ووزعها بين الطبقات الفقيرة . فاضطر الملك على الاستنجاد بالعرب ، فأعاده القائد «قتيبة» الى عرشه وأخمد حركة «خورزد» .

ومع ان قباذ قلب ظهر المجن للمزدكيين الا انه ظل متأثرا بالآراء التى شاعت آنذاك حول العدالة الاجتماعية ، فحاول التخفيف من الاوضاع السيئة باصلاحات مالية ، الا ان الموت لم يمكنه من تنفيذ منهجه .

كسرى الاول

خلف قباذ كسرى الاول (٥٣١ ـ ٥٧٩ م) الذى عرف باسم كسرى انو شروان واشتهر باصلاحاته وعدله وصار (كما نجد صدى ذلك في المصادر العربية التى تلقبه بالملك العادل)[١] مثل الحاكم الصالح . وسيتضح مما سنوجزه من أعماله انه بامكان عد حكمه أزهى حقبة فى العهد الساسانى سواء

---

(١) وفى عهد كسرى ولد النبى محمد (ص) فى أواخر سنى حكمه (انظر الطبرى) .

كان ذلك من النواحي الثقافية أو الاجتماعية أو السياسية والانتصارات العسكرية ، وكانت أولى أعماله ان أعاد الاستقرار وسلطة العرش في المملكة، كما أعاد الاملاك التي اغتصبها المزدكيون الى أصحابها وجعل الدولة تعنى بشؤون النساء والاطفال الذين اغتصبهم أتباع مزدك ، ولما شب أبناء هؤلاء النبلاء ألحقوا بخدمة العرش فكانوا أكثر ولاء وتعلقا من النبلاء القدماء . وقام بمشاريع مهمة لانقاذ وضع الريف والاراضي الزراعية ، فأعيد بناء القرى ، وأصلحت الطرق والجسور والقنوات وادخلت الحكومة تشريعا خاصا لاصلاح النظام المالي فوضعت الاحصائيات للاراضي والاملاك وجعلت الضريبة على أساس الطبقة التي يعود اليها الفرد . والتفت الى الجيش فأصلحه، والظاهر ان هذا الملك قسم الامبراطورية من ناحية القيادة العسكرية الى أربعة أقسام كبرى عين على كل قسم منها قائدا عاما وهي فارس وماذي وبلاد البخت والعراق وأدخل التجنيد الالزامي ، وقوى المراكز الدفاعية في تخوم المملكة .

وعلى الرغم من معاهدة الصلح المعقودة مع بيزنطية قام كسرى انو شروان بغزو بلاد الشام (٥٤٠ م) واستولى على انطاكية وأحرقها ونقل سكانها الى مدينة جديدة بناها لهذا الغرض قرب طيسفون ، وسماها باسم يعني «أحسن من انطاكية مدينة كسرى[١]» ، كما وسع العاصمة طيسفون ، عاصمة الساسانيين في العراق ، فجدد المدينة ، ويحتمل انه هو الذي ابتنى الطاق العظيم واتخذه لاقامة الحفلات ، وهو اليوم أكبر طاق معقود في العالم ، حيث يزيد عرضه على (٢٥) مترا ويبلغ علوه عن مستوى التبليط زهاء (٣٧) مترا ، وقد مضى على بنائه نحو ١٥٠٠ عام وهو لا يزال قائما . والمعروف عن الملوك الساسانيين انهم كانوا يزينون جدران القصور كما يروى ذلك عن طيسفون حيث مثلت

---

(١) وبالفارسية القديمة (Veh - az - Andev - i - Kkusraw)

(راجع ما ذكرناه عن اسم «جنديسابور» التي بناها شابور الاول تخليدا لذكرى انتصاره على انطاكية ص ٤٩٥) .

فى بعض جدرانها مشاهد الاستيلاء على انطاكية ، كما جاء وصف ذلك فى قصيدة البحترى الشهيرة[١] .

وبعد ذلك خاض كسرى حربا موفقة ضد البيزنطيين فى ارمينية انتهت بالصلح ، وظل السلم حتى الايام الاخيرة من حكمه الذى دام زهاء نصف قرن ، ومما يجدر التنويه بعهد كسرى انه قضى على الافلاطيين فأعيدت حدود الامبراطورية فى جهة الشرق ، ووسع حدود الامبراطورية فى الجنوب حتى شملت اليمن وكان يحكم فى زمنه فى الحيرة الملك «المنذر» . واهتم كسرى بنشر الثقافة والتعليم فقد أنشئت فى عهده مدرسة للفلسفة والشعر والبلاغة قرب مدينة سوسه ترجمت فيها كثير من الآثار اليونانية الى اللغة الفارسية . وكان يميل بوجه خاص الى الفلاسفة الافلاطونيين المحدثين ، وأوثر عنه انه أرسل طبيبه «برزويه» (Burzuya) الى الهند فجلب هذا معه الشطرنج وكتاب كليلة ودمنة المشهور وكتبا مهمة فى الطب .

بامكاننا عد كسرى آخر الملوك العظماء فى السلالة الساسانية ، وقد خلفه سلسلة من الملوك معظمهم كان ضعيفا وساءت فى عهدهم أحوال الدولة . وأول هؤلاء هرمز الرابع (٥٧٩ – ٥٩٠ م) ، وكان هذا على شيء من المقدرة والحنكة وحب المعرفة ، فأراد متابعة سياسة أبيه ولا سيما الاحتفاظ بزمام السلطة على طبقات النبلاء والكهنة ولكن لم يوفق فى ذلك اذ تألب عليه النبلاء والكهنة الزرادشتية ، وساء الوضع ، ونجحت السياسة البيزنطية فى تأليب الجبهات المعادية ضد ايران ، وثار على الملك قائد عظيم وهو بهرام المتحدر من السلالة الارشاقية ، وساند النبلاء هذا الثائر الذى نجح فى القبض على هرمز وسجنه وتنصيب ابنه كسرى الثانى (ابرويز) بدلا منه (٥٩٠ – ٦٢٨ م) ،

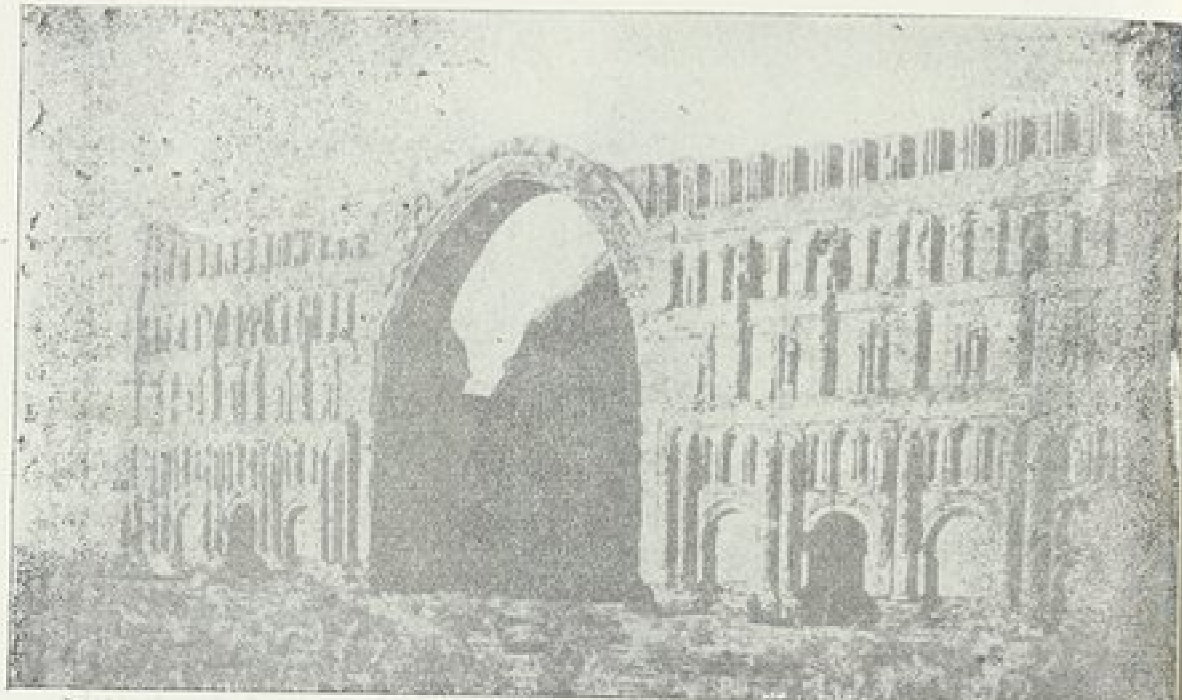
---

(١) لم يعثر على نماذج من هذه الصور الا ان « غريشمان » (Ghrishman Iran, 326) وجد فى ايوان « بيشابور » تبليطا من الفسيفساء منقوشة بالصور تدلنا على نوع الصور الجدارية لان المعروف ان صور الفسيفساء تستنسخ عادة من النقوش الجدارية .

(حول التنقيبات فى طيسفون ١٩٣١ – ٣٢ انظر (J. H. Schmidt, **in Syria**, 1934).

ولكن القائد بهرام المذكور طمح بأكثر من ذلك اذ كان يريد العرش فاستولى على العاصمة وأعلن نفسه ملكا الا ان الملك المخلوع استطاع بمساعدة عسكرية من بيزنطية ان يغلب القائد الغاصب ، ولكن تلك المساعدة البيزنطية كلفت الفرس ثمنا باهظا اذ فقدوا جميع ارمينيـة • ولكن لم يدم الوضع على هـذا الحال زمنا طويلا ، اذ استطاع كسرى الثانى بعد بضع سنين من أخذ المبادءة واليد العليا على البيزنطيين حيث تمكن الجيش الفارسى من استعادة ارمينية والاستيلاء على اديسا (الرها) ثم زحف عبر كبدوكية وأخذ قيصرية ووصل الى البسفور (٦١٠ م) ، ثم هاجم الجيش الفارسى فى العـام التالى انطاكية ودمشق ثم اورشليم ، فنهب ودمر وقتل كثيرا من المسيحيين ، وأخذ من فلسطين بعض الآثار الدينيـة (ومن بين ذلك جزء من الصليب الحقيقى) ، واستطاع الجيش أن يستولى أيضا فى عام ٦١٦ م على غزة ، وغزا مصر وأخذ بابليون (القاهرة القديمة) والاسكندرية ثم سار الجيش مع النيل الى تخوم بلاد الحبشة • وبذلك أحرز كسرى الثانى انتصارات لامعـة عجيبة ومد حدود المملكة الى جهات لم تعرفها الدول الفارسية الا فى عهد الامبراطورية الاخمينية • والاعجب من ذلك ان الجيش الفارسى تمكن من الاستيلاء على انقرة وضرب الحصـار على القسـطنطينية ، وتم لجيوش الملك الانتصار على الافلاطيين فى الوقت نفسه •

ولكن يبدو ان هذه الانتصارات الكاسحة السريعة كانت بمثابة صحوة الموت ، اذ اسـتطاع الامبراطور البيزنطى الجـديد هرقل (Heroclius) بهجوم مقابل أن يحرر آسية الصغرى ويطرد الجيوش الفارسية منها ، ثم غزا ارمينية وأوغل فى اذربيجان واستولى فيها على أهم معابد ايران • وبعد أن اتصل بحلفائه الخزر الذين عبروا القوقاز زحف الى وادى دجلة وحاصر طيسفون ، فأراد كسرى الهرب ولكن اغتاله ابن له من أميرة بيزنطية ولعلنـا نستطيع تفسير هذه النكسات المريعة بالمقابلة مع الانتصارات اللامعة التى سبقتها اذا درسنا سلوك كسرى الثانى الذى كرهه بأعين رعيته ، لما عرف عنه من القساوة والظلم والطمع وفرضه الضرائب الفادحة التى سحقت الشعب ، والى



طاق كسرى الشهير فى طيسفون (المدائن) . أخذت هذه الصورة قبل عام ١٩٠٩ قبل أن ينهدم الجناح الثانى من الطاق

ذلك كان سيء الظن بحيث انه كان يفتك بأقرب المقربين والموالين اليه ، كما ان انتصاراته العجيبة ازادت من سوء سلوكه بركوبه الغرور والطيش ، فأسرف اسرافا شديدا على ابهة بلاطه الذى كان يضم ألوفا من السريات والموسيقيين والحجاب والندمان ، كما انه أسرف فى استعمال قواه المحاربة فى فتوحه فوق طاقة موارده ، وهكذا فليس من المستغرب ان انعكست الآية وتحولت انتصاراته السريعة الى هزائم مماثلة . وقد ساهمت الطبيعة فى احلال الوهن فى العرش والبلاد فقد صادف أن فاض دجلة فيضانا طاغيا حول الارياف المزدهرة الى مستنقعات وسبب انهيار أجزاء من القصور الملكية فى طيسفون . ومن الحوادث التى لعلها كانت تبدو طفيفة بالنسبة الى كسرى ابرويز وهو فى أبهة بلاطه ولكنها كانت نذيرا بسقوط الفرس ، تلك هى استقبال ابرويز رسولا أرسله اليه شخص لم يسمع به من قبل ، ذلك هو محمد النبى

العربى الذى طلب منه الاسراع فى الدخول الى دين الحق الجديد »[١] .

ومن المحتمل جدا ان كسرى ابرويز تجاهل هذه السفارة وصاحبها وعجب لجرأة مرسلها ولكنه لم يدر بخلده ان سيستطيع اتباع صاحب هذه السفارة من اكتساح امبراطوريته بعد زمن لم يزد كثيرا على ١٤ عاما . اذ الواقع أن ١٤ عاما هى كل المدة الفاصلة بين موت كسرى ابرويز وبين مجىء يزدجرد الثالث آخر ملوك الساسانيين (٦٣٢ – ٦٥١ م) . ولكن العجيب فى هذه الفترة القصيرة ان ما لا يقل عن ١٢ ملكا قد تناوبوا على العرش الفارسى[٢] وانغمرت المملكة بالنزاع والحروب الداخلية بين الامراء والنبلاء المتخاصمين، وأصبح هؤلاء الملوك مجرد العوبة بأيدى الاحزاب المتنازعة ، وصارت طبقات النبلاء المتحاربة تضع على العرش حتى النساء ، والمثال على ذلك ابنتا كسرى (ابرويز) وهما «بوران» و«آزرمى دخت» . ولما دعت الحاجة فى عام ٦٣٢ الى تنصيب ملك من الامراء الساسانيين فتش النبلاء عن أمير كان مختبئا فى اصطخر خوفا على حياته من المؤامرات الدائرة ، وكان هذا يزدجرد الثالث الذى بلغ سوء الوضع فى عهده حدا لا ينصلح فيه الا بتغيير أساسى . وهكذا انفتح الطريق أمام الفاتحين العرب الذين بدأوا بنشر دينهم الذى ختم على مصير الامبراطوريتين العظيمتين ، امبراطورية فارس وبيزنطية . فقد أزالوا الامبراطورية الاولى من الوجود ، وقلصوا حدود الامبراطورية الثانية وحصروها فى جزء من آسية الصغرى ومركزها فى القسطنطينية . وفيما كان هرقل مشغولا بنزاعه مع كسرى كان الجيش العربى يغزو سورية . هذا وان سير الفتوح العربية التى أنهت الامبراطورية الفارسية معروف لدى دارس التأريخ الاسلامى وخارج نطاق بحثنا فلا ندخل فيها الا بان ننوه بانه على الرغم من كفاءة (رستم) قائد الجيوش الفارسية الا أن الجيش العربى أوقع فيه هزيمة منكرة فى

---

(١) كان مبعث النبى (ص) فى العام العشرين من حكم كسرى ابرويز كما ان الهجرة كانت فى عامه الثانى والثلاثين ووقعت فى عهده موقعة ذى قار الشهيرة (انظر البلاذرى حول رسالة النبى) .

(٢) حكم بعد ابرويز ابنه قباذ شيرويه الذى قتل أباه وانتشر الطاعون فى زمنه ولا سيما فى العراق .

موقعة القادسية الشهيرة قرب الحيرة (حزيران عام ٦٣٧ م) حيث قتل فى تلك الموقعة ثم تلى ذلك أخذ القائد العربى سعد للعاصمة طيسفون فى العام نفسه (المدائن كما عرفها العرب) ، ولكن مقاومة الفرس استمرت فى بلاد ايران ، فألف يزدجرد جيشا جديدا لصد سيل الفتوح العربية ، ولاقى الجيوش العربية فى سهل «نهاوند» جنوب همدان ، فانتصر العرب انتصارا لامعا وانهزم الملك مع حاشيته الى جهة الشرق كما فعل آخر ملوك السلالة الاخمينية (دارا الثالث) فى هربه من ملاحقة الاسكندر • وحل به نفس المصير اذ اغتيل بالقرب من مرو (عام ٦٥١) ، وبذلك انتهت حياة الامبراطورية الساسانية وانتهى حكم السلالة الساسانية بعد أن دام نيفا وأربعة قرون (٢٢٦ - ٦٥١ م) •

الحيرة :

وننهى بحثنا عن الدولة الساسانية بأن نذكر شيئا موجزا عن أخبار السلالة العربية التى كانت تحكم فى الحيرة فى أيام الساسانيين وقد كنا ذكرنا فى عدة مواضع من تاريخنا أن القبائل العربية كانت تهاجر الى الشرق من الجزيرة الى وادى الرافدين منذ أزمان بعيدة ، وفى حدود بداية القرن الثالث للميلاد جاءت بعض القبائل العربية الى الموضع الخصب غرب الفرات وقد دعت نفسها هذه باسم «تنوخ» وأصلها من عرب اليمن • ويحتمل ان مجيئها الى قرب الفرات صادف زمن الاضطراب الذى أعقب سقوط السلالة الفرثية وقيام السلالة الساسانية (٢٢٦ للميلاد) • وقد عاشت تنوخ فى مبدء أمرها فى الخيم ، ولكن مقراتها صارت ثابتة • وهكذا نشأت الحيرة (وتعنى الحيرة باللغة السريانية المخيم) الواقعة الى جنوب الكوفة بثلاثة أميال وقد اعتنق أهل الحيرة المسيحية (الفرع النسطورى منها) • وذهب فرع من تنوخ الى شمالى سورية • وينسب الدروز أنفسهم (وهم فرع من التنوخيين فى لبنان الجنوبى) الى ملوك الحيرة اللخميين •

وتذكر لنا المآثر ان مالك بن فهم الازدى (وقد اتحد الازد وتنوخ فى

قبيلة واحدة فى العراق) كان أول ملك على الحيرة ، وان ابنه جذيمة الابرش كان تابعا الى الملك الفارسى اردشير • ولكن مؤسس مملكة اللخميين الحقيقى هو عمرو بن عدى بن نصر بن ربيعة بن لخم بن اخت جذيمة • فجعل عمرو الحيرة عاصمة له ، ومنه اشتقت اسم السلالة اللخمية وقد جاءتنا منها أسماء من ملوكها (نحو عشرين ملكا) لا نعرف سوى أسمائهم وأكثر من نعرف منهم من الوجهة التاريخية امرؤ القيس الاول (٣٢٨ للميلاد) ويعد النقش الكتابى الذى جاءنا منه أقدم كتابة عربية تفرعت عن الخط النبطى • واشتهر من أبناء امرىء القيس النعمان الاول الملقب بالاعور (٤٠٠ ــ ٤١٨) ، المشهور فى الاشعار العربية ، وينسب اليه بناء الخورنق ويقال انه بناه الى بهرام جور بن يزدجرد الاول (٣٩٩ ــ ٤٢٠) الذى رغب أن يتربى ابنه فى البادية • وكذلك ينسب اليه بناء السدير وهو قصر فى البادية بين الحيرة والشام ، وانه كان وثنيا اضطهد أتباعه المسيحيين • واشتهرت الحيرة فى زمن ابن النعمان وهو المنذر الاول (٤١٨ ــ ٤٦٢) الذى عظم فى زمنه شأن الحيرة ولا سيما فى شؤون الامبراطورية الفارسية وقد بلغ من قوة المنذر انه أجبر الفرس على تتويج بهرام الذى التزم جانبه ضد مدع بالعرش • وقد حارب المنذر مع الفرس البيزنطيين فى عام ٤٢١ •

وحكم فى الحيرة فى النصف الاول من القرن السادس للميلاد ملك باسم المنذر أيضا (المنذر الثانى ٥٠٥ ــ ٥٥٤) وهو الذى يسميه العرب ابن ماء السماء وهو لقب أمه (مارية أو ماوية) • وكان هذا أشهر ملوك السلالة اللخمية ، وقد كان شوكة فى جانب الامبراطورية الرومانية حيث أقلقهم وأزعجهم فى بلاد الشام وكان يغزو البلاد ووصل الى انطاكية ، ولكن صده الغساسنة ، وكان يعاصره منهم الملك الحارث • وخلف المنذر الثانى ابنه الشهير عمرو الملقب بعمرو بن هند (٥٥٤ ــ ٥٦٩) ، الذى اشتهر باغداقه المال على الشعراء حتى ان ثلاثة من فحول الشعراء من أصحاب المعلقات وهم طرفه بن العبد والحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم كانوا ملازمين لبلاطه • وقد استفاد الملك من هؤلاء الشعراء ببث الدعاية اليه بين العرب • واشتهرت

أم الملك هند بانها كانت أميرة مسيحية من غسان أو من كنده وانها بنت ديرا مشهورا في الحيرة ظل حتى القرن الثاني للهجرة .

انتهت سلالة الملوك اللخميين بحكم النعمان الثالث وهو المكنى «أبو قابوس» (٥٨٠ - ٦٠٢) بن المنذر الرابع ، وكان هذا صاحب النابغة الذبياني . وقد اعتنق هذا الملك الديانة المسيحية ، فكان الملك الوحيد الذى تنصر من بين الملوك اللخميين . وصار الفرس يتدخلون مباشرة في شؤون مملكة الحيرة حتى ان ولاة منهم كانوا يحكمون في زمن «اياس بن قبيصة الطائي» الذى حكم الحيرة من بعد النعمان وظل الحال كذلك حتى العام ٦٣٣ حينما انحاز عرب الحيرة الى جانب خالد بن الوليد في فتوح العراق .

موجز عن الاوجه الحضارية

١ - المجتمع والتنظيمات الادارية :-

على الرغم مما طرأ من التخفيف في شدة النظام الاقطاعي وتقليص الدويلات شبه المستقلة مما كان في العهد الفرثي السابق الا ان المجتمع الايراني بقي في العهد الساساني وكأنه الهرم في تدرج طبقاته ، حيث يأتي في القمة «ملك الملوك» ، وهو رأس الدولة ، ثم تتدرج من بعد ذلك أربع طبقات تأخذ بالازدياد عددا والتضاؤل نفوذا كلما ابتعدنا عن قمة الهرم الى القاعدة ، ويتألف الصنف الاول مما يلي الملك من أتباع الملك من الاقطاعيين النبلاء والامراء الكبار والصغار الذين كانوا ملوكا صغارا تابعين الى الملك الايراني الكبير بصفته «ملك الملوك» . ويدخل في هذا الصنف أمراء السلالة الحاكمة الذين عهدت اليهم ادارة الحكومة في الولايات الكبيرة مثل اقليم «سستان» و «كرمان» ، وكذلك الولايات الكبرى التي ضمت بالفتح الى الامبراطورية الساسانية . وبالمقارنة مع العهد الفرثي الذى سبق الكلام عليه تقلص عدد السلالات المحلية الحاكمة ، كما زالت تقريبا من تخوم الامبراطورية حيث جعلت ذات مركز شبيه بمركز أقوام التخوم المتحدة في الامبراطورية الرومانية الذين وكل اليهم أمر الدفاع عن الاقاليم الخاصة بهم .

ويلي الامراء الكبار في السلم الاجتماعي رؤوس الاسر السبع ، وهي أسر نبيلة فارسية ظل عددها وامتيازاتها متوارثة من العهد الاخميني تقريبا ، اذ ورثها الساسانيون عن الفرثيين الذين شل النبلاء في عهدهم استقرار الدولة السياسي • ولكن الساسانيين حاولوا التخفيف من حدة النظام الاقطاعي ، واستطاع الملوك الاقوياء الاوائل أن يقلصوا هذا النفوذ الى موت شابور الثاني حيث انتعش النظام الاقطاعي من بعد ذلك وأخذت أخطاره على الدولة تزداد في عهود الاضطرابات والضعف التي دامت زهاء (١٢٥) عاما الى زمن اعتلاء كسرى الاول عرش المملكة الفارسية ، فاستطاع هذا هو والملوك الاقوياء القلائل الذين أعقبوه من تخفيف شرور النظام الاقطاعي ، ولكن سرعان ما استفحل شره • وكان كفاح الطبقات الارستقراطية الاقطاعية ضد العرش لحماية امتيازاتهم أهم العوامل التي نخرت في جسم الامبراطورية الساسانية وسببت سقوطها • هذا ولا يعلم الا أشياء قليلة عن طبيعة الامتيازات التي كانت تتمتع بها تلك الاسر النبيلة الكبيرة ، ولكن المرجح كثيرا انها كانت تمتد في نفوذها وسلطتها الى جملة ولايات كانت تجبي الضرائب من فلاحيها بالاضافة الى ما كان يجبى منها الى خزينة الملك • ومقابل هذه الامتيازات كانت تلك الاسر الاقطاعية تمد الملك بالمساعدات العسكرية وتجمع الجيوش من أتباعها كلما دعت الحاجة الى ذلك ، كما كان الحال في العهد الفرثي • وهناك صنف آخر من النبلاء يصح أن نطلق عليهم اسم الوجهاء أو الاشراف وكانوا بمثابة القوة المعادلة للاسر النبيلة الكبرى ، ويشمل هذا الصنف كبار موظفي الدولة والوزراء ورؤساء الادارة وبعض قواد الجيش • وقد صارت هذه الطبقة عنصرا جديدا مهما في نظام المجتمع الايراني • واستطاع الملوك بالاعتماد عليها وعلى الجيش أن يعيدوا تنظيم ادارة الدولة وتقويتها مما لم يكن معهودا في العهد الفرثي السابق •

ويأتي في سفح الهرم الاجتماعي في أولى درجاته طبقات الناس الاحرار من ملاكي الارض الصغار ورؤساء القرى الذين كانوا واسطة الاتصال بين جماهير الفلاحين الذين يأتون في أسفل الهرم وبين موظفي الحكومة المركزية

وممثليها ، فكان هؤلاء النبلاء الصغار مسؤولين الى الحكومة عن جمع الضرائب وجبايتها من الفلاحين • وكان الفلاحون يؤلفون الجمهور الاكبر من السكان وهم على الرغم من كونهم أحرارا من الوجهة النظرية والقانونية الا انهم كانوا في الواقع أشبه ما يكونون بالرق المربوطين بالارض حيث كانوا يباعون من الوجهة العملية مع الارض وينتقلون معها من مالك الى آخر •

٢ ــ الادارة

وكانت الادارة بدورها تؤلف هرما آخر يقوم فوق رأسه الوزير الاعظم (أو رئيس الوزراء) الذي كان بيده زمام السلطة التي يمارسها تحت سيطرة «ملك الملوك» • وكان الوزير الاعظم ينوب عن الملك في غيابه ، وهو مسؤول عن الشؤون السياسية والدبلوماسية ، حيث يوقع على المعاهدات والاتفاقيات ، وتوكل اليه في بعض الاحايين قيادة الجيش العليا ، كما كان رئيسا للوزراء أو الدواوين المختلفة حيث كان يدير كل ديوان «كاتب» أو سكرتير متطلع بالشؤون الادارية واصول تحرير التقارير وصياغة المعاهدات والمراسلات المهمة • ويأتي على رأس الدواوين ديوان العدل وديوان الرسائل وديوان التعيين في الوظائف وديوان الحرب وديوان المالية • وكان لديوان المالية أهمية خاصة ويديره الموكل بالضرائب يتبعه جيش من المحاسبين والجباة والعملاء • وعلى هذا الديوان وحسن ادارته كان يقوم نفس وجود الدولة •

وكان الملك القاضي الاعلى في الشؤون القضائية ، وأعلى محكمة للاستئناف • والى جانب القضاة المدنيين كان رجال الدين يتولون جزءا عظيما من الشؤون القضائية لان القانون والشريعة والاخلاق كانت مرتبطة بالديانة أشد الارتباط • ولا يعلم هل كان للساسانيين شريعة مدونة الا ان الكتب الزرادشتية المقدسة كانت تضمن فصولا مهمة خصصت للشريعة والقانون ، وتحتوي على فصل في الجرائم التي ترتكب ضد الملك وضد الدولة وضد الجار الخ • وكان الامتحان لاظهار البينة (Ordeal) والتعذيب أمرين مألوفين في أصول التقاضي عند الساسانيين •

وكانت ادارة الامبراطورية تستند فى تنظيمها الى تقسيمها الى ولايات أو أقاليم كما كانت فى العهد الاخمينى ، وكان يختار لادارة الولايات الوجهاء من أعضاء الاسرة المالكة ومن النبلاء ومن قواد الجيش أحيانا • ولم تكن الحدود الادارية بين ولايات الامبراطورية ثابتة على الدوام • وبالنظر الى سعة الولايات كانت كل ولاية تقسم بدورها الى وحدات ادارية يحكمها حكام خاصون ، ثم تقسم هذه الوحدات أيضا الى مناطق ادارية أصغر حتى تصل الى القرية حيث يكون رئيسها مسؤولا الى الموظفين الاداريين • واذا ما أتينا الى بلاط الملك الفيناه فى ادارته معقدا ومتدرجا فى الرتب مثل ادارة المملكة نفسها فهناك الطبقات والرتب المختلفة من الحجاب ، ويحتل أعضاء الاسرة المالكة وفرسان الملك وحرسه مقاما عاليا ، ومن حاشية البلاط الهزالون والمجان والموسيقيون الذين كانوا أيضا على مراتب مختلفة بحسب مهارتهم وآلاتهم •

أما مصدر النفقات الباهظة التى تتطلبها ادامة البلاط وحاشية الملك المؤلفة من عدة آلاف ونفقات الموظفين والجيش والمشاريع العامة فكل ذلك مصدره من الضرائب ومن الواردات الخاصة الآتية من الاراضى العائدة للدولة والتاج • ومن الموارد المهمة استغلال الدولة للمناجم وسك النقود وواردات الدولة من غنائم الحروب الخارجية الجسيمة • ان هذه الموارد التى عددناها كانت تدر على خزائن «ملك الملوك» مقادير جسيمة من الثروة ، وعلى الرغم من أن أكثر الملوك الصالحين العادلين كانوا يصرفون هذه الموارد الغزيرة فى اصلاح شؤون المملكة والناس الا انها كانت تبذر ومع التبذير كانت مقادير كبرى منها تخزن عاطلة ، وكما سقطت خزائن أموال الاخمينيين بيد الفاتح الاسكندر ، كذلك صارت الكنوز التى غنمها العرب الفاتحون مما وجدوه باقيا فى خزائن الملوك الساسانيين مضرب أمثال المؤرخين •

٣ ــ الجيش :ــ

كانت قيادة الجيش فى خلال القرون الثلاثة الاولى من العهد الساسانى بيد «قائد الجيش الاعلى» ، وكانت هذه وظيفة وراثية تقريبا يشغلها أحد أفراد الاسرة المالكة ، وكان يعمل تحت أمرته قائدان أحدهما القائد المساعد والثانى

قائد الخيالة ، وكان يعين الى هاتين الوظيفتين من أفراد الاسر النبيلة فى المملكة • ولكن كسرى الاول بدل هذا النظام من أساسه ، فقد ألغى منصب القائد العام ، ووكل قيادة جيوش الامبراطورية ، على ما بينا سابقا ، الى أربعة قواد ، كل قائد مسؤول عن جهة من جهات المملكة الحربية : الشمال والجنوب والشرق والغرب ، وعين مساعدا مع كل من هؤلاء القادة الاربعة • وكان الهدف من هذا التنظيم الجديد تحاشى حصر جميع الجيوش تحت قيادة فرد واحد يستطيع اذا ثار أن يزيح الملك عن عرشه ، ولكن مع ذلك فان هذا التنظيم الجديد ولد بدوره شرورا جديدة ، وصار القواد الاربع من العوامل التى حطمت المملكة فى أيامها الاخيرة •

كان الجيش الساسانى ، كما كان الحال عليه فى العهد الفرثى ، يقوم على وحدة أساسية مهمة فيه ، هى نظام الفرسان المسلحين تسليحا ثقيلا[١] ، وكان مصدر هؤلاء الفرسان من تجهيز طبقات النبلاء الفرس حيث هم يمدون به جيوش الملك • وهناك صنف آخر من الفرسان الخفيفى السلاح من رماة السهام ومصدر هؤلاء مما يجهز النبلاء الصغار ، وكان هذا الصنف بمثابة حماية للصنف الاول ، وكلا الصنفين كانا يستعملان فى الالتحام حيث يلحق بهما نظام الفيلة الذى لم يستعمله الفرثيون كما بينا من قبل • أما ساقة الجيش (مؤخرته)[٢] فقوامها المشاة من جماهير الفلاحين المسلحين بأسلحة فقيرة ، فلم يكونوا على أهمية كبيرة من الناحية العسكرية • وكان يلحق بجيش الفرس جيوش مهمة مساعدة مصدرها من الشعوب التابعة ولا سيما من الاقاليم الكائنة فى تخوم الامبراطورية وقد اشتهر بعض هذه الجيوش شهرة خاصة مثل جيش «سستان» و «كوشان» والجيش المؤلف من الهياطلة (الترك الافثلاطيين) ، كما اشتهر الفرسان الارمن بكفائتهم وأهميتهم فى جيش الامبراطورية الفارسية •

---

(١) (Cataphract) ، وهو نظام دخل فى تنظيم الجيوش العربية ولا سيما فى العهد العباسى •

(٢) (rear-guard)

ومن الملاحظات المفيدة التى نختتم بها كلامنا على الجيش الفارسى أنه كان مقسما الى قطعات كبرى أو ما يسمى بالجحافل (Corps) يتألف كل منها بدوره من عدة فرق ، وهذه تنقسم أيضا الى وحدات أصغر فأصغر • وقد سبق أن لاحظنا ان آلات الحصار الحربية كانت بدائية غير ناجعة فى العهد الفرثى ، ولكن تحسنت هذه كثيرا فى العهد الساسانى ، حيث اتقن فن الحصار بحيث أصبح الساسانيون يضاهون الرومان فى ذلك ، كما ان هناك أدلة غير مباشرة على ان الفن العسكرى أصبح موضوع بحث • حيث كتبت فيه مؤلفات ومقالات •

٤ ـ الديانة :ـ

تروى المآثر المتأخرة ان الديانة الزرادشتية قد حفظت بأصلها فى اقليم فارس ، وان اردشير بن بابك قد جعلها ديانة الدولة الرسمية ، ولكن البحوث الحديثة فى الديانة الساسانية لم تؤيد هذه المآثر ، اذ الواقع ان هذه الديانة التى حوفظ عليها فى فارس هى الديانة القديمة التى لم تستطع ان تزيلها ديانة زرادوستر • فقد رأينا كيف ان عبادة الآلهة القديمة قد ظلت وبرزت فى أهميتها من بعد عهد دارا الاول وكيف ان الملك الاخمينى ارتحششتا قد اعترف رسميا بعبادة آلهة قديمة ولا سيما الالهة «اناهيتا» ، حتى انه صنع لها صنما لعبادتها على عادة الديانة البابلية واليونانية • وهكذا فانه حينما أخذت السلالة الساسانية حكم ايران وجدت الاقليم الذى ظهرت فيه ، وهو اقليم فارس ، مركزا مهما لعبادة «اناهيتا» وعبادة الاله «اهورا مزدا» أيضا • هذا وقد رأينا كيف ان أجداد السلالة الساسانية كانوا رؤساء الكهنة فى معبد النار المهم فى اصطخر • كما ان شابور الاول أسس معبدا مهما فى «بيشابور» ، وانه جلب الى هذا المعبد ماء طاهرا من مسافة بعيدة حيث يجرى حول الحجرة الوسطية فى المعبد فيبدو ان هذه العبادة المقترنة بالماء (والالهة اناهيتا الهة المياه) كانت أيضا مقترنة بالنار •

ان هذه الديانة سادت فى القسم الجنوبى الغربى من ايران ، أما فى

الشمال الشرقي فان ديانة هذا الاقليم كانت تتمركز في المعبد المهم المقام في «شيز» ، حيث الكهنة المجوس القدماء يقومون بالطقوس الخاصة به • هذا ولا نعلم وجه الصلة بين هذين المعبدين وهاتين العبادتين ولا أيهما الاهم •

المـــانوية :ـ

وهكذا فيبدو انه لم تكن في ايران في العهد الساساني ديانة عامة توحد جميع الناس ، وقد شعر بهذه الحاجة بوجه خاص «شابور» الاول في الوقت الذي كانت تحرز فيه الامبراطورية الساسانية انتصاراتها المهمة في الخارج وكانت بحاجة لتوحيد الايرانيين وتعبئة جميع مواردها الوطنية في كفاحها وصراعها مع رومة • ولعل هذا يفسر لنا اتجاه شابور بالنسبة الى «ماني» الذي ظهر في عهده حيث قربه واصطفاه • وكان «ماني» هذا من أصل نبيل وادعى انه نبي مرسل من الله لانجاز ما أوحاه اليه • فبشر بديانة عالمية يدخل فيها جميع البشر بمختلف طبقاتهم وأشكالهم وألوانهم • والذي عليه البحث الحديث ان الطقوس والعبادات التي فرضها «ماني» مشتقة بالدرجة الاولى من عبادات بابل وايران القديمـة كالزرادشتية وأثرت فيهـا أيضا البوذية والمسيحية • وكانت الاسس العقائدية في هذه الديانة تقوم على مبدأ «التثنوية» و «الضدية» أو الصراع بين عنصرين يسـودان الكون هما النور والظلام ، والخير والشر • ومن هذين العنصرين أو المبدأين المتضادين المتحاربين خلق الكون • ان روح الانسـان «نور» ولكن جسـمه «ظلام» ، فترمي التعاليم الاخلاقية المانوية الى تحرير الروح أو النفس من الجسم • ولما ان يتحرر جميع النور وكل النفوس المحبوسـة بالمـادة فتصعد الى الشمس ، عندئذ ستتحطم الارض والسماء ، ولكن مملكة النور ستدوم الى الابد • وقسم أتباع هذه الديانة الى طائفتين طائفة المقربين «المصطفين» وطائفة «السامعين» المطيعين• فيدخل في الطائفة الاولى صنف الكهنة الذين فرضت عليهم العزوبة وحرم عليهم أكل اللحم وطهرت نفوسهم من الغل والحسد والكذب • أما «السامعون» فقد سمح لهم بالزواج ، وهم كالناس الاعتياديين الا انهم ينبغي أن يتحلوا

بالفضيلة ويتجنبوا السعى وراء المادة والثروة • وفرضت هذه الديانة نوعا من الصلوة والصيام ، الا انهـا خلت من القرابين والتضحيـات وعبادة الصور والاصنام • ومارست المانوية أيضا ما يشبه بعض الاسرار(١) المسيحية كالتعميد والتوبة والقداس الالهى والغفران من الذنوب عند الاحتظار • والعجيب فيها انها لم تعترف بالديانة اليهودية واعتبرت موسى والانبياء شياطين وان ربهم رب الظلام • وتأثرت بمبدأ الغنوسـطية(٢) فى العقـائد الميتافيزيقية بالكون وأصل الاشياء ، وتأثرت المانوية فى معتقداتها بالزرادشتية أيضا ، واشتقت أسماء الملائكة من المصادر السريانية • وتأثرت بالبوذية فى اعتقادها بتقمص الارواح وانتقالها أو تناسخها(٣) •

وحصل رد فعل عنيف من جانب الكهنة المجوس ضد المانوية من بعد موت شابور ، حيث حوكم «مانى» وحكم عليه بالموت ، واضطهد أتباعه ونكل بهم فهربوا خارج ايران متفرقين فى أنحاء شتى فقد اتجه بعضهم الى الانحاء الشرقية حيث بشروا بمذهبهم فى آسية الوسطى ، وهرب بعضهم الى سورية ومصر ، واعتنق العرب فى الحدود الغربية من ايران العقائد المانوية • هذا وقد سبق أن تكلمنا على الحركة المزدكية التى ظهرت فى عهـد قباذ الاول (٤٨٨ ـ ٥٣١) فننهى بحثنا فى الديانة فى عهد الساسانيين •

٥ ـ شىء عن الفن :ـ

يمثل الفن الساسانى مرحلة أو طورا متأخرا من فن شرقى كان فى الوجود زهاء أربعة آلاف عام ، وكان خلفا مباشرا للطور الاخير من الفن

---

(١) (Sacrament)

(٢) (Gnosticism) معنى هـذا المصطلح اللغوى مأخوذ من المعرفـة والتبحر فيها وهو مبدأ فلسفى دينى ظهر قبيل المسيحية وظل من بعدهـا واعتنقته جماعات من المسيحيين ومبدؤه الاساسى ان الخلاص وتحرير النفس لا يتأتى الا عن طريق المعرفة (gnosis) التى تساعد الحائز لها على التحرر من قبضة ارجاس المادة •

(٣) metempsychosis

الفرثي الذي كان فنا ايرانيا بوجه أساسي • وقد أثرت في الفن الساساني مؤثرات خارجية ، ولكن مثلت هذه التأثيرات وحورت لتلائم الروح الايرانية وهذا مظهر من مظاهر قابلية الاخذ والتكييف عند الايرانيين • وأحسن ما يمثل لنا فن العمارة الساساني كما هو في العمارة الاخمينية بناء القصور وأبرز مثال على ذلك قصر طيسفون ، ومع ان نظام العمد اليوناني(Colonade) قد دخل الى الشرق من بعد فتوح الاسكندر واستعمل في برسيبوليس في زمن الاخمينيين الا ان الساسانيين أحيوا طراز الطاق والعقادة ، ومع انه لم يبق من جدران قصر طيسفون ولا من نقوشه التي اشتهرت في الأخبار العربية الا ان ما لاحظناه عن ولع الساسانيين بزخرفة جدران القصور بالرسوم الزاهية قد أيدته الادلة الاثرية[١] • ومن المدن التي خلف فيها الساسانيون أمثلة عن فن العمارة مدينة «فيروز اباد» التي أسسها اردشير حينما استقل بالحكم عن الفرثيين ، وكانت هذه أقدم المدن الساسانية وهي مدورة على الطراز الفرثي ، ولكن شابور الاول عدل عن هذا النوع من التصميم لما بنى مدينة «بيشابور» حيث شيدها على طراز غربي وجعلها مستطيلة وباستثناء هذه الامثلة لا نعرف بقايا مدن أخرى ساسانية باستثناء جملة مقار أسسها الملوك الساسانيون لتوطين الاسرى الرومان ، فقد شيد شابور الاول واحدا من هذه المقار في «جنديسابور» بين دزفول وششتر وهي ذات مخطط مستطيل[٢] ،

---

(١) انظر ما سبق ان لاحظناه والاستشهاد عن ذلك بالمرجع
(Ghirshman, **Op. Cit.**, 326).

(٢) ومن الآثار المهمة التي يجدر التنويه بها مما خلفه الساسانيون في العراق المدينة المسماة «دستجرد» (دستجرد كسرى)أو الدسكرة أو دسكرة الملك ، كما جاءت في المصادر العربية • وهي تقع في الطريق المهم بين طيسفون وهمدان وتعرف خرائبها الآن باسم الزندان (السجن) وباسم بنت الامير القريبة من شهربان • انظر ابن رسته و
(Sarre-Herzfeld, **Arch. Reise**, II, 76).

كما يجدر التنويه بالحصن المعروف بقصر شيرين الواقع على طريق خانقين • واظهرت التنقيبات في كيش آثار قصور مهمة مزخرفة بالزخارف الجصية التي يوجد في المتحف العراقي نماذج منها (راجع تقرير التنقيبات للبعثة =

وحافظ الساسانيون على معظم المآثر الفرثية مثل استعمال الحجر فى بناء القصور وتزيين قطع الحجر فى الجدران بالمنحوتات البارزة التى تمثل مشاهد تأريخية تذكارية للملوك ، كما يلاحظ ذلك واضحا فى الحضر من العهد الفرثى • وكذلك يقال فى بناء المعابد ولا سيما معابد النار مثل معبد «بيشابور» وبقايا الاثر الموجود فى العراق فى الموضع المسمى «باى كولى»(١) المرجح أنه معبد نار على هيئة برج ، وقد سبق أن أوجزنا صفة معبد النار الساسانى •

ومن فن النحت نذكر أشهر ما يمثله من المنحوتات التذكارية المنقوشة على الجبال ، وقد عثر على أكثر من ثلاثين مشهدا منحوتا بالمنحوتات البارزة فى جبال نجد ايران ، ومعظمها فى فارس ، مثل النحت الضخم العائد لاردشير الاول وشابور الاول فى الموضع المسمى «نقش – رستم» قرب برسيبوليس ونقش كسرى (تمثاله) فى «طاق بستان» ، قرب كرمنشاه • وكان هذا موضع منتزه مشهور فى العهد الساسانى •

وننهى كلامنا على الفن الساسانى بالتنويه بمهارة الفنانين الصاغة فى

= المشتركة بين جامعة اوكسفورد ومتحف فيلد) • ونذكر ايضا مدينة الانبار المنسوبة الى شابور الاول الواقعة قرب الفلوجة بنحو ٤٠ ميلا شمال غربى بغداد فى الضفة اليسرى من الفرات ، حيث بنى السفاح مقرا اسمه الهاشمية (انظر ياقوت) •

(١) لقد زار المؤلف (مع زميله الاستاذ فؤاد سفر) موضع «باى كولى» (فى تموز عام ١٩٥٤) وقد سبق للمستشرق المشهور «هرزفيلد» أن زاره فى عام ١٩١١ و ١٩١٣ واستنسخ كتاباته الفارسية (البهلوية الفرثية والبهلوية الساسانية) على الاحجار المتساقطة (انظر Herzfeld, **Paikuli** 1924) ويعود هذا الاثر الى الملك الساسانى «نرسى» (٢٩٣–٣٠٢م) ذكرى حربه مع أخيه بهرام الثالث ويقع على السفح الغربى من جبال قره داغ فى الفتحة المعروفة باسم «دربند باى كولى» بحوالى ٤ أميال من الضفة اليمنى من ديالى ويمكن الوصول اليه من كفرى الى مركز ناحية «بيباز» ثم الى قرية «بونكلة» فقرية «بيسكان» ثم قرية بيكال التى يشاهد منها موضع الاثر • كما يمكن الوصول اليه باخذ الطريق المحاذى الى الضفة اليمنى من ديالى (طريق مشروع دربندخان) المؤدى من «بيباز» الى «يانى خيلان» ومنها الى «باى كولى» بسلوك سفوح قره داغ •

الفضة والذهب حيث جاءتنا جملة صحون منقوشة ، كما دخلت صناعة الحرير الى ايران فى العهد الساسانى من الصين واشتهر الحاكة الايرانيون بمهارتهم الفنية فى النقوش الجميلة حتى قلدت فى اوربة فى العصور الوسطى •

مراجع مختارة عن القسم الرابع

(1) R. Ghirshman, **Iran** (Pelican Book, 1954).
(2) H. Herzfeld, **Archaeological History of Iran** (1935).
(3) ——————, **Iran in the Ancient East** (1941).
(4) V. Childe, **New Light on the Most Ancient East** (1952).
(5) **Cambridge Ancient History.**
(6) G. G. Cameron, **History of Early Iran** (1936).
(7) N. C. Debevoise, **A Political History of Parthia** (1938).
(8) A. T. Olmstead, **History of the Persian Empire** (1948).
(9) P. Sykes, **Persia** (1922).
(10) Jacques Duchesne - Guillemin, **Zoroastre** (Paris, 1948).
(11) H. Frankfort, **History of Art and Architecture in The Ancient Orient** (1954).
(12) Arthur Upham Pope, **A Survey of Persian Art** (6 vols., 1938).
(14) The **Legacy of Persia** (1953).
(15) M. Rostovtzeff, **The Social and Economic History of the Hellenistic World.**
(16) Will Durant, **The Story of Civilization** (1942).
(17) Erich Schmidt, **Persepolis,** I, (1951).
(18) H. S. Nyberg, **Die Religionen des alten Iran** (1938).
(19) A. Christensen, **L'Iran sous les Sassanides** (1944).
(20) E. Schmidt, **Flight over Ancient Cities of Iran** (1940).
(21) G. Cameron, **Persepolis Treasury Tablets** (1947).
(22) V. Scheil, **Inscriptions des Achéménides à Suse** (1929).
(23) F. H. Weissbach, **Keilinschriften der Achaemeniden** (1911).
(24) W. Tarn, **Alexander The Great** (2 vols. 1947).
(25) Nöldeke, **Geschichte der Perser und Araber** (1879).

القسم الخامس

اليونان والرمان

الفصل السادس والثلاثون

موجز تاريخ اليونان

مقدمة في الحضارة المينية (الايجية) :-

قبل ان نبدأ بايجاز تأريخ اليونان والحضارة اليونانية نقدم ذلك بذكر ملاحظات موجزة عن الحضارة الايجية أو كما تسمى الحضارة المينية التى اتصل بها اليونان بعد هجرتهم وأخذوا عنها عناصر حضارية مهمة فقد نشأت في الجزر الايجية حضارة مهمة ازدهرت في جملة جزر مثل «مسينية» وكان مركزها في كريت (اقريطش) • وقد سميت بالحضارة «المينية» نسبة الى أحد ملوكها المسمى «مينوس» ، وقد ظهرت منذ بداية الالف الثالث ق• م والمرجح كثيرا ان هذه الحضارة من الحضارات البشرية الاصلية نشأت من الاطوار البدائية • ولكنها على كل حال تأثرت بحضارة مصر القديمة بالدرجة الاولى وبحضارة العراق القديم •

عولت الحضارة «المينية» ، مثل الحضارة الفينيقية ، على البحر فأنشأت السفن واتقنت فن الملاحة الذى در عليها الخيرات والثروة من التجارة الخارجية وقد عاشت في أطراف مركز هذه الحضارة قبائل من الاقوام الهندية الاوربية منها القبائل الاغريقية الهمجية التى تعلمت منها أصول الحضارة وأنشأت حضارة فرعية مشتقة هي الحضارة الاغريقية التى أضافت الى تراث الحضارة «المينية» كثيرا من العناصر الجديدة في تأريخ الحضارة البشرية • وكانت القبائل الاغريقية هي التى قضت على آخر دولة «مينية» وقد هاجرت فلول من «المينيين» (أى الايجيين) بعد القضاء على كيانهم السياسى الى أنحاء الشرق الادنى ، وجاء فرع منهم واستوطن سواحل البحر المتوسط الجنوبي ، وقد عرف هذا الفرع بـ «الفلستينيين» أو «الفلسطينيين» ومنهم

اشتق اسم فلسطين ، وذهب فرع آخر منهم الى آسية الصغرى فارتطم بالحثيين وقضى على كيان الامبراطورية الحثية فى حدود ١٢٠٠ ق • م •

لقد أظهرت التنقيبات التى أجريت فى جزيرة «كريت»[١] وبعض الجزر الايجية الاخرى وجود عصر حجرى طويل العهد جاء من بعده العهد البرونزى (فى حدود ٣٠٠٠ ق • م) الذى كان عهد الحضارة «المينية» الناضجة • وقد أمكن تقسيم هذا العهد ، أى عهد البرونز أو عهد الحضارة المينية ، الى ثلاثة أطوار تدعى بالعهد «المينى» القديم والعهد «المينى» المتوسط والعهد (المينى) المتأخر • وأمكن كذلك تقسيم كل من هذه الاطوار الثلاثة الى ثلاثة أدوار فرعية فيكون مجموع أدوار الحضارة المينية تسعة أدوار أما تأريخ هذه العهود فقد أمكن ضبطهــا بالمقايسة مع ما يضاهيها من آثار الحضارة المصرية لوجود أوجه شبه بين آثار الادوار المختلفة فى كل من الحضارتين • فيرجح ان العصر الحجرى المتأخر الايجى يقع فى عصر ما قبل السلالات المصرى ويقابل بداية العهد البرونزى ، أى بداية طور الحضارة المينية القديم ، السلالات المصرية الاولى والسلالات السومرية الاولى فى العراق فى عصر فجر السلالات وعلى ذلك فتكون بداية الحضارة المينية فى بداية الالف الثالث ق • م • كبداية الحضارة فى كل من العراق ومصـر تقريبا • ودام العهد (المينى) القديم زهاء ثمانية قرون • وأمكن تأريخ العهد (المينى) الوسيط بالمدة الواقعة بين القرن الثانى والعشرين أو القرن الواحد والعشرين وبين النصف الاول من الالف الثانى ق • م • وأورخ العهـد المينى الاخير فى النصف الثانى من الالف الثانى ق • م • ويبدو ان الحضارة المينية قد انتهى مصيرها فجأة فى أواخر الالف الثانى بسبب هجرات الاقوام الهندية الاوربية ولا سيما القبائل اليونانية التى كونت الحضارة اليونانية ، وقد استعملت الحضــارة

---

(١) انظر المراجع الآتية :ـ

(1) Sir A. J. Evans, **The Palace of Minos,** vols. I — III (1921-30).

(2) Helen Gardner, **Art through the Ages** (1936) 101 ff.



مشهد معركة بحرية فى تاريخ اليونان القديم فى عهد الملوك صور على اناء فخارى جميل ويشاهد اسم الفنان الذى نقشه مكتوبا بالحروف (ارستونوثوسس)

المينية نوعا من الخط الصورى على غرار الهيروغليفى المصرى ، لم تحل رموزه بعد ، فلذلك لا نعرف أشياء كثيرة عن الاقوام التى انشأت الحضارة المينية ولا سيما لغتهم وأصلهم وكثيرا من أوجه حضارتهم الروحية والعقلية .

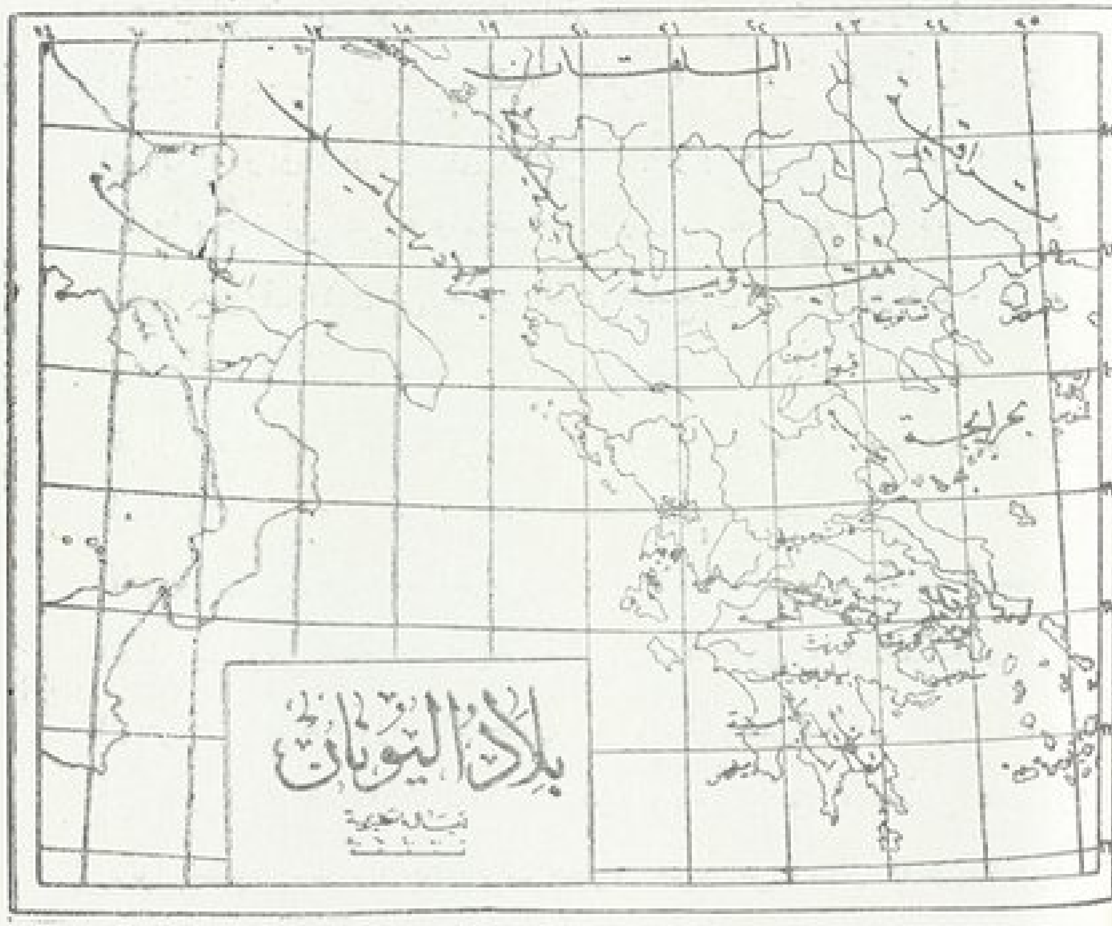
هجرة اليونان وموجز تاريخهم :-

اليونان من الاقوام الكثيرة التى تعرف بعائلة لغاتها «الآرية» أو اللغات الهندية الاوربية والاقوام التى تتكلم بهذه العائلة اللغوية ليست من جنس (عرق) واحد خالص بل كانوا على الارجح نتيجة اختلاط ما لا يقل عن ثلاثة عروق كعرق البحر المتوسط والاقوام المينية ولا سيما من كريت مع الاقوام الآرية ، ويغلب على الاثينيين عرق البحر المتوسط ، أما الاسبارطيون فهم أقرب الى النورديين . ويرجح كثيرا ان مهدهم القديم كان فى مكان ما فى الواحات ومناطق المراعى فى جنوب روسية الى بحر قزوين . ويرجح البعض أن يكون وادى الدانوب الاعلى هو مهدهم الاصلى . ويقدر الزمن الذى



مشهد بيت عروس يونانية حيث تشاهد فى الجهة اليمنى وبصحبتها صديقاتها • لاحظ الازياء وأوعية الفخار المزينة المستعملة للازهار

بدأت فيه فروع من هذه الاقوام تهاجر من مهدها الاصلى بحوالى بداية الالف الثانى ق • م • واتخذت فى هجراتها اتجاهات مختلفة الى اوربة الجنوبية والغربية والى الشرق الادنى والهند • وقد جاء بعضهم الى العراق وأثروا فى الحضارة البابلية والآشورية وفى الاقوام الاخرى فى الشرق الادنى فسببوا اضطرابا فى توزيع السكان وأحدثوا هجرات أخرى ذهب بعضها الى مصر • ولنا أن نتصور هؤلاء القبائل الهندية الاوربية مقسمة الى عشائر وقبائل ذات خيول وماشية وأغنام ، وهم رعاة بالدرجة الاولى ولكنهم كانوا يعرفون الزراعة وكان لديهم العربات ذات العجلات • ولا شك فى انهم اقتبسوا البرونز من حضارات الشرق القديم ، وأخذوا الحديد كذلك فيما بعد • هذا ولا نعلم بوجه التأكيد العوامل التى سببت هجرات هؤلاء الاقوام الى الغرب والجنوب والشرق • ولعل من جملة الاسباب انجذابهم الى خيرات الحضارات فى الشرق القديم وتكاثر السكان ، ومواسم القحط الدورية التى كانت تحدث فى مواطنهم الاصلية ، وكذلك دفع هذه القبائل بعضها بعضا • وقد استمرت هجراتهم قرونا كثيرة ، وكانت بدرجات مختلفة من الشدة فقد تكون بهيئة جماعات قليلة تأتى الى مواطن الحضارات ، أو بهيئة غزوات متعاقبة أو هجرات كبيرة بمقياس واسع • وكان بعض الاقاليم التى اندفعوا اليها ليس



بأكثر مدنية منهم مثل اوربة الغربيــة وايطالية والقســم الشــمالى من بلاد الاغريق • وبعضها كان متحضرا أو على شيء من الحضارة مثل الشرق الادنى وفارس والجزر الايجية وآسـية الصغرى والهنـد وقد عمدوا فى كثير من الاحايين على تحطيم الحضارات التى غزوها وحلت لغاتهم محل اللغات الاصلية[١] •

وكان من جملة هذه القبائل قبائل اتجهت منذ الالف الثاني ق • م الى جزر بحر ايجه التى كانت فيها على ما بينا حضارة مزدهرة منذ الالف الثالث ق • م وعاشت هذه القبائل فى أطراف الحضارة الايجية وأخذت تقتبس منها • وكانت هذه القبائل خليطة ، ولعل بينها عناصر من النورديين • ومن

---

(١) راجع ما ذكرناه عن هجرات الاقوام الهندية الاوربية فى كلامنا على تاريخ ايران •

المحتمل ان عناصر حوض البحر المتوسط التى كانت موجودة قبل مجىء الهيلنيين قد دخلت فى تكوين القبائل الاغريقية التى عرفت فى تأريخ اليونان. أى ان الاغريق المعروفين فى التأريخ لم يكونوا من عرق خالص ولكنهم صاروا وحدة فى القرابة والاختلاط • وان الاشعار الهومرية قد نشأت فى شكلها المعروف الآن فى حدود القرن التاسع ق • م ولكن فيها مآثر من أزمان أقدم ، ولذلك فبامكاننا أن نستفيد منها لمعرفة أشياء مفيدة عن حياة القبائل (الآخيه) ، أقدم قبائل الاغريق ، وعن دويلاتهم القديمة • ولعل غزو طرواده الوارد فى تلك الاشعار حقيقة تأريخية حدثت فى أثناء انتشار الاغريق الى سواحل آسية الصغرى وتشير الاشعار الهومرية كذلك الى حضارة اتصلوا بها وهى الحضارة الايجية بالدرجة الاولى • وعندما جاءت أولى الهجرات الاغريقية (وهم الآخيون) الى (البيلوبونيس) كانت هذه الحضارة فى طور ازدهارها ولذلك لم يستطع هؤلاء الاغريق من الانقضاض عليها بل كانوا يتعلمون منها ، ولكن جاءت هجرة أخرى من القبائل الاغريقية (وهم الدوريون) منذ ١٥٠٠ ق • م ، فأخذت هذه تخضع القبائل الاغريقية السابقة أى القبائل الآخية ثم بدأت تغزو الحضارة الايجية وتخضع مدنها • وفى حدود ١٣٠٠ و ١٠٠٠ ق • م بدأت قبائل أخرى تستحوذ على مواطن الحضارة الايجية • ومن هؤلاء الاغريق الايونيون ويمكننا ان نعد نهاية الحضارة الايجية فى حدود ١٢٠٠ ـ ١١٠٠ ق • م وقد اقتسمت القبائل الاغريقية اليونان والجزر الايجية وكذلك سواحل آسية الصغرى فيما بينها • فتمكن الدوريون فى الجنوب والايونيون فى الوسط والايليون فى الشمال • وكان مصير الايجيين اما القتل أو الخضوع أو الهجرة كما فعل بعض الايجيين وهم المعروفون بالفلسطينيين الذين استقر بهم التشريد والجلاء الى فلسطين (جنوبى فلسطين) بعد أن فشلوا فى الذهاب الى مصر حيث حاربهم رعمسيس الثالث فالتجأوا الى ساحل فلسطين الجنوبى كما ذكرنا سابقا • لقد استوطن

اليونان في موطنهم[1] الذي يمتاز بتنوع مناظره ومناخه ولعل أبرز ظاهرة تجلب الانتباه في صفة بلاد اليونان الجغرافية كثرة الجزر والخلجان كما ان الجبال تقسم بلاد اليونان الى وحدات صغيرة كثيرة ومناخه شبه استوائي متنوع من ناحية الامطار والشمس ، ولكن ليس فيه تطرف في الحرارة والبرودة • وبلاد اليونان بكثرة جزرها وخلجانها نصفها برى ونصفها بحرى •

٢ ـ موجز عهود التاريخ اليوناني :ـ

بامكاننا أن نقسم تأريخ اليونان الى العهود الآتية :ـ

١ ـ عهد الملوك (١١٠٠ ـ ٧٥٠ ق • م)

٢ ـ عهد النبلاء (٧٥٠ ـ ٦٢٥ ق • م)

٣ ـ عهد الطغاة (٦٢٥ ـ ٥٢٥ ق • م)

٤ ـ عهد الديمقراطية (٥٢٥ ـ ٤٠٠ ق • م)

١ ـ عهد الملوك :ـ

هذا العهد أقدم العهود في تاريخ اليونان بعد أن هاجروا الى موطنهم وقضوا على الحضارة الايجية ، ويبدو أن النظام الملكي كان من جملة الاشياء التي اقتبسها اليونان من الحضارة الايجية فاتخذوا لهم ملوكا من قوادهم في الحرب وزعمائهم الدينيين ، وكانوا في مبدأ أمرهم ملوكا ساذجين أشبه ما يكونون برؤساء القبائل الرعاة عندما اتخذت القبائل الاغريقية الزراعة واستقرت في قرى • وكان هذا العهد القديم من تأريخ اليونان حافلا بالتطور والتكيف وقد جابه اليونان فيه قضايا كثيرة نشأت بعد استيطانهم وتكوينهم المجتمعات الآخذة في التحضر ، وقد نشأ معظم هذه المشاكل عن الزراعة

---

(١) سمى اليونان انفسهم هيلنيين نسبة الى جد اسطورى اسمه (Hellen) كما سموا بلادهم هيلاس (Hellas) ، أما اسم يونان فنسبة الى الايونيين • وكانت هناك قبيلة يونانية تعيش في اقليم بوشيه من اليونان اسمها «غراى» سمى باسمها الرومان جميع الهلينيين حيث اطلقوا عليهم اسم اغريق (Graici)

والاراضي وكذلك عن العلاقات الاجتماعية المختلفة • دام هذا العهد زهاء ثلاثة قرون (١١٠٠ أو ١٠٠٠ الى ٧٥٠ ق • م) وكان هذا هو العهد الذي نشأت فيه حضارة الاغريق • وقد تطورت القرى الى مدن ونشأت عن المدن دويلات المدن التي كانت كل منها مملكة مستقلة لها قوانينها وجيشها وآلهتها على طراز نظام دويلات المدن في العراق القديم في العصور التي سميناها بعصور فجر السلالات • ولم يتعد الاغريق في أنظمة الحكم نظام «دولة المدينة» (City - State) • وقد صار الملك محترما وحاكما قويا تقع على عاتقه حماية المدينة وكان يساعده في الحكم وفض الخصومات مجلس شورى أو دار ندوة تجتمع للقضاء بين الناس • وقد بلغ عدد دويلات المدن المئات في بلاد الاغريق وفي السواحل وفي الجزر الايجية • وقد اقتبس الاغريق في هذا العهد معدن الحديد اذ بدأ عندهم في حدود ١٠٠٠٠ ق • م وقد جاءهم بعد أن انتشر استعماله في آسية الصغرى من الحثيين منذ القرن الثالث عشر ق • م ، وتكون الحضارة الايجية قد انتهت قبيل العصر الحديدي وانها شغلت معظم العصر البرونزي (٣٠٠٠ – ١٠٠٠ ق • م) •

لقد ظل الاغريق زمنا بعد (١٠٠٠ ق • م) وهم لم يبلغوا طور المدنية الناضجة ولكنهم مع ذلك كانوا يسيرون الى طور النضج بالتراث الذي ورثوه عن الايجيين وبتأثير حضارات الشرق القديم ولا سيما حضارة مصر وحضارة العراق وبتأثير الفينيقيين الذين كانوا نقلة الحضارة ، وقد اقتبسوا بعد ٩٠٠ ق • م حروف الهجاء عن الفينيقيين مع الورق (البابيروس) وقد اغرم اليونان في عهد الملوك بالحروب التي كانت تتصف بالبربرية والقسوة ونشأ عن التغني باعمال الحرب وابطال الحرب اشعار غنائية لتخليد اعمال الابطال فكان شعر الملاحم مثل اشعار هوميروس التي هي أقدم آداب الاغريق • وقد خلفوا لنا من ذلك «الالياذة» و «الاوديسة»[١] المنسوبتين الى

---

(١) الالياذة نسبة الى «اليوم» وهو الاسم الذي دعا الاغريق به طروادة أما الاوديسة فنسبة الى بطل الملحمة «اوديسوس» حيث تصف اسفاره ومغامراته بعد رجوعه من طروادة •

هوميروس • وكانت اشعار هوميروس بمثابة الكتاب المقدس عند الاغريق اذ فيها اخبار الآلهة وحياتها وعلاقاتها بعضها ببعض واعمالها ، كما كان الحال في التوراة عند اليهود • وعلى هذا فالى قيمة هذه الاشعار الادبية والتاريخية فان فيها معلومات قيمة عن ديانة الاغريق القديمة وعن مراحل تطورها •

ويقع ضمن عهد الملوك طور حضارى تميز بنوع اوانيه الفخارية المزينة باطرزة هندسية يعرف باسم الطور الهندسى[1] •

٢ ـ عهد النبلاء

يتميز اواخر العهد السابق ، أى عهد الملوك ، بنشوء طبقة خاصة من الملاكين • فقد تجمعت الثروة ، أى ملكية الاراضى ، بيد طبقة خاصة نسميهم النبلاء أو امراء الاقطاع الذين استحوذوا على الاراضى واغتصبوا الملاكين الصغار والفلاحين • واصبحت ملكية الاراضى وراثية خاصة بهذه الطبقة الارستقراطية[2] ، وبلغ النبلاء قدرا عظيما من البأس والقوة فقضوا على الملوك من بعد ٧٥٠ ق٠م وبدلوا نظام الحكم من الملكية الى نظام الحكم الاولىغاركى (حكم الاقلية) الذى يشبه نوعا ما نظام الاقطاع فى تاريخ اوربة فى العصور الوسطى • وكان ديدن النبلاء السرقة والقرصنة وقد اصبحت فى عهدهم طبقة الفلاحين وعامة الناس فى وضع يتميز بالبؤس والشقاء ولكن يمتاز هذا العهد الجديد بنشوء التجارة البحرية فى حضارة الاغريق وبناء السفن ، وقد بدأوا فى بناء سفنهم على غرار سفن الفينيقيين • واشتهر الايونيون منهم بالتجارة البحرية • وأدى ظلم النبلاء الى أمر مهم آخر هو هجرة الفلاحين وغيرهم من الطبقات المرهقة المظلومة فقد جلى كثير منهم الى اقاليم ما وراء العالم الايجى واليونانى، فنشأت من الاغريق مستعمرات مهمة حوالى البحر الاسود الى اراضى الزرع فى الدانوب الاسفل • وقد اصطدم الاغريق

---

(١) (Geometric Pottery) (١١٠٠ ـ ٨٠٠ ق٠م) أى انه استغرق معظم عهد الملوك •

(٢) وتسمى هذه الطبقة بـ (Eupatrids)

الذين انتشروا الى سواحل آسـية الصغرى الجنوبية بالآشوريين ، وقد حاربهم فعلا الملك الآشورى سنحاريب حيث دحر جيشا منهم فى كيليكية فى حدود ٧٠٠ ق٠م ٠ وتكون من الاغريق مستعمرة فى قبرس ٠ وهاجر جماعة منهم الى دلتا مصر وتغلغلوا هناك بصورة سـلمية واسـسوا مدينة تجارية قرب الاسكندرية[١] وأسسوا الى غرب الدلتا قيرين[٢] (فى طرابلس الآن) ٠ وكذلك انتشروا الى ايطالية فى صقلية وفى جنوبى ايطالية وقد دعى القسم الجنوبى من ايطالية «بلاد الاغريق الكبرى» ٠

ومما يقال فى عهد النبلاء أن الثروة فى داخل بلاد الاغريق كانت بالدرجة الاولى ثروة زراعيـة ، ولكن انتشـار الاغريق وازدياد التجارة عندهم ونشوء بعض الصناعات قد غير الاحوال الاقتصادية فنتج ذلك تغيرا فى نظام المجتمع وفى نظام الحكم ، وسنلخص ذلك فى الكلام على عهد الاغريق الثالث ، أى عهد الطغاة ٠

٣ ـ عهد الطغاة (٦٢٥ ـ ٥٢٥ ق ٠ م)

لقد ذكرنا فيما سبق أن الاتسـاع الاسـتعمارى للاغريق وكذلك اتساع التجارة ونشوء الصناعات كل ذلك احدث تغييرات بعيدة المدى فى حياة اليونان فقد صـارت المستعمرات الاغريقية الجديدة اسواقا مهما للتجـارة اليونانية من بلاد اليونان نفسها ٠ وان حاجات هـذه المستعمرات والطلب المتزايد على البضـائع من بلاد الاغريق كان حافزا لمدن الاغريق ولا سيما المدن الايونية الى توسيع صناعاتها وتجارتها ، واخذت المدن الاغريقية تزدهر

---

(١) سميت بسيدة السفن أى (Naucratis)

(٢) (Cyrene) وهى قيرين أو «قورينا» كما جاءت فى «اخبار الحكماء» للقفطى حيث تنسب الى هذه المدينة مدرسة «القورنيائيين» الفلسفية التى أسسها الفيلسوف اليونانى «ارسطبس» ٠ وينبغى عدم الخلط بين قيرين والقيروان التى قامت على موضع بيزنطى قديـم هو «قمونية» أو «قمودة» (Caput - Vada) ٠ واقليم قيرين (Cyrenaica) هو بنغازى

وهذا ما حدث لاثينة وكورنث وغيرهما . وقد حفز مدن اليونان حافز آخر هو منافسة الشرق ولا سيما الفينيقيين . وكانت الصناعة الاغريقية فيالقرن السابع دون الصناعات الشرقية ولكن اخذت صناعات المدن الاغريقية تزاحم الشرق منذ ٦٠٠ ق . م وتتفوق عليها في صناعة الحديد والفخار وتصدير زيت الزيتون . ومما سهل التجارة والصناعة فى مدن الاغريق أن الاغريق بدأوا يستعملون النقود المسكوكة منذ القرن السابع ق.م ،وقد اقتبس الايونيون فى سواحل آسية الصغرى طريقة التعامل بالنقود من آسية الصغرى حيث يظن أن الليدين هم الذين اوجدوا النقود المسكوكة فى حدود ٧٠٠ ق. م[١] . هذا ولا ينكر ما للنقود من أهمية عظمى فى المعاملات التجارية.

وموجز القول كان القرن الذى دامه عهد الطغاة حافلا بالانقلابات الصناعية والازدهار الاقتصادى بحيث يصح أن نعده انقلابا صناعيا مهما مهد لازدهار حضارة الاغريق فى القرن الخامس وهو القرن الذى كان حافلا بالاختراع والابداع فى تاريخ البشر ، كما سيمر بنا ذلك عند الكلام على حضارة الاغريق .

وكان من نتائج اتساع التجارة والصناعة القضاء على النظام السابق فى عهد النبلاء . اذ كانت سلطة هؤلاء ناشئة عن الثروة الزراعية والحيوانية ، ولكن ضوءل شأن هذا النوع من الاقتصاد على أثر اتساع التجارة والصناعة وهكذا حل محل عهد النبلاء المؤسس على الزراعة عهد جديد هو العهد الذى سنسميه بعهد الطغاة ، وهم من المثرين بالثروة الجديدة[٢] كما حدث فى اوربة بعد عهد الاقطاع . وقد تبدل نظام الحكم فى هذا العهد حيث كان الحكام فيه من الغاصبين وبمثابة الملوك وقد دعى الاغريق انفسهم مثل هؤلاء

---

(١) لاحظ ما ذكرناه عن نشوء النقود فى الاقسام السابقة من هذا الجزء

(٢) وهم طبقة البلوطوقراطية (Plutocry) اى حكم أصحاب الثورة الذى حل محل الحكم الاوليغاركى .

الحكام باسم الطغاة أو المستبدين ويعني ذلك الحاكم الاعلى • وقد بدأ مثل هؤلاء الحكام يظهرون منذ ٦٥٠ أو ٦٢٥ ق• م في المدن الايونية في آسية الصغرى وفي الجزر القريبة ، واشتهر منهم في اثينة اعلام مشهورون مثل «دريكو» و «صولون» • وانتهى عهد الطغاة في اثينة باغتيال الطاغية (هبارخوس) وطرد طاغية آخر ، فحل ذلك حكم الشعب أي الديموقراطية وهي كلمة جاءتنا من الاغريق وكان هذا هو نظام الحكم في العهد التالي لعهد الطغاة •

قوانين الاغريق المدونة :ـ

ومما يمتاز به عهد الطغاة نشوء اقدم القوانين المدونة عند الاغريق • واذ رأينا أن القوانين المدونة قد بدأت في حضارة العراق منذ ازمان قديمة جدا فان الشرائع كانت عند الاغريق تعتمد على العرف المتداول الى حدود ٦٢٤ ق• م حيث بدأت الشرائع المدونة تظهر منذ هذا التاريخ • وكان اول قانون مدون هو القانون الذي اصدره «دريكو» وقد اشتهر هذا القانون بالصرامة والشدة حتى ان صفة «دريكوني»[١] قد صارت تستعمل في بعض اللغات الاوربية لتعني «الصارم ، الشديد» وكان سبب تدوين هذا القانون رغبة الاثينين وكفاحهم المستمر لتكون لهم شريعة مدونة ، حتى لا يساء استعمال التقاليد القانونية غير المدونة • ومن اعلام هذا العهد «صولون» المشهور الذي كان من التجار المثرين وينتسب الى احدى الاسر الملكية القديمة • وقد اكتسب هذا شهرة وزعامة عند الاثينين على اثر حرب نشأت بين اثينة وبين احدى الدويلات المجاورة فاثار صولون حماس قومه وتزعمهم فانتصروا على الدولة المعادية وجازوا زعيمهم بان انتخبوه في ٥٩٤ ق• م «ارخونا» (أي القاضي أو الحاكم الاعلى) ، وخول السلطة المطلقة للاصلاح العام وبوجه خاص رفع الظلم والحيف عن الفلاحين والزراع وقد اصدر صولون ، في سبيل الاصلاح ، قانونا اشتهر باسمه ، وقد امتازت شريعته

---

(١) (Draconic)

بضمان احقاق الحقوق وباصول التقاضى مثل نظام المحلفين ، وقد ساوت الشريعة بين جميع المواطنين الاحرار • والى هذا اصدر صولون دستورا للدولة اعطى فيه لجميع المواطنين حقا فى الحكومة وادارة شؤونها • وقد قسم الشعب بحسب هذا الدستور الى اربع طبقات بحسب دخلهم من الثروة فاقتصرت الوظائف العليا للحكومة على طبقة النبلاء ، وسمح للفلاحين فى ادارة الوظائف الصغيرة ، وهكذا بقيت الحكومة بيد النبلاء ، ولكن اعطى الحق لجميع الشعب فى التصويت فى انتخاب «مجلس الشعب» • واشتهر صولون بالاعتدال والزهد فى الحكم حتى انه لما اتهم بميله الى ان يكون طاغية تخلى عن الحكم مختارا وترك اثينة عدة سنين وخلى المجال لغيره فى الحكم • ومما يقال عن صولون وعهده بوجه عام ان اصلاحاته المهمة قد انقذت اثينة من ويلات ومحن وتسنى لها أن تسير قدما فى نهضتها الصناعية والتجارية •

لقد أعقب صولون فى الحكم فرد من طبقة النبلاء القديمة هو (فيستراتوس)[1] الذى تقلد الحكم بالقوة عندما عاد من المنفى وهو على رأس جيش من المرتزقة وقد اشتهر حكمه بالرزانة والتعقل وبنى اسطولا من السفن استولى به على الدردنيل فساعد ذلك اثينة كثيرا فى تجارتها مع بلدان البحر الاسود وقام باصلاحات عامة كثيرة وازدهرت فى زمنه الصناعة والتجارة فى اثينة ، ويصح أن نعده واضع أسس عظمة اثينة التى حققتها فيما بعد • وخلف هذا فى الحكم ابناه[2] اللذان كان حكمهما نهاية عهد الطغاة فى تأريخ الاغريق • وقد ثار عليهما الشعب ومقتهما واغتال أحدهما وهو (هيبارخوس) طالبان فى اثينة وفر الثانى بعد اغتيال أخيه • وقد خلد النحاتون الاغريق هذين الطالبين الشابين بتمثالين يمثلانهما فى حالة الانقضاض على الطاغية • ومن الطريف فى أمر هذا النحت ان الفرس أخذوه بعد موقعة سلاميس

---

(١) (Pisistratus) (٥٤٠ ـ ٥٢٨ ق • م)

(٢) وهما (Hipparchus) و (Hippias)

فصنع الاثنيون نسخة له ولكن الاسكندر الكبير أرجع النحت الاصلى الى بلادالبونان • وقد انتهى عهد الطغاة قبل ٥٠٠ ق٠م (فى حدود ٥٢٥) بعد أن دام قرنا واحدا • ومما يذكر عن نظام الطغـاة أن أحـد الاثينين وهو كليسثينيز أراد أن يضمـن عـدم رجوع النظـام القديـم فاوجـد طريقـة الاقتراع السـنوى ، ذلك بأن يصوت عامـة الشعب فى كل عـام فيعلنوا رأيهم حول أى مواطن يخشى خطره على الدولة وبعـد التصويت ينفونه مدة عشر سنوات • وكانت طريقتهم فى الاقتراع على شىء من الطرافة اذ كان كل مصوت يلتقط كسرة من آنية فخار ويكتب فيها اسم الشخص الذى يعتقد بانه خطر على حيـاة الشعب وتودع تلك الكسرة فى وعاء من الفخار (صندوق الانتخـاب) • ولما كانوا يسمون الكسـرة من الفخـار (اوستراخون (Ostracon))فانهماشتقوا منها فعلا (مثل الانكليزية (Ostracise) ليعنى نفىذلك الشخص وانهاء عمله السياسى • وهذا بداية العهد الديمقراطى فى اثينة •

•

وكانت مدينة اسبارطة فى حوالى تلك الازمان قد ازدادت فى القوة والبأس واتسعت فتوحها حتى انهـا أخذت جزءا كبيرا من شبه جزيرة (البيلوبونيس) وقد حققت فى حدود ٥٠٠ ق٠م اتحادا بالقوة يضم الدويلات المجاورة عرف باسم «العصبة الاسبارطية» • ولما كانت اسبارطة زعيمة هذه العصبة فقد صارت العصبة أو الجامعة الاسبارطية (The Sparten League) اقوى دولةفى عالم الاغريق • وامتازت مدينة اسبارطة بنظام الحرب والشدة ، وكانت خالية من الصناعات فلم يكن فيها ازدهار صناعى وتجارى • كما انها لم تخضع الى نظام الطغاة فى حكمها وانما ظلت على نظام حكم الملوك • ولتوزيع سلطات الملك كانت تعين ملكين يحكمان فى آن واحـد وكانت تمقت نظام الحكم الديمقراطى فلذلك كانت تنظر بعين الحسـد والاشمئزاز الى الديمقراطية الاثينية • وكان حكم «الملكين» تسيطر عليه جمعيـة من الشيوخ • ولعل

احسن ما توصف به اسبارطة في نظام حكمها انها كانت عبارة عن قبيلة محاربة مخيمة ضمن رعايا اخضعتهم واستعبدتهم •

٤ ـ عهد الديمقراطية :ـ

نستطيع أن نعد بداية هذا العهد من اغتيال آخر طاغية فى اثينة فى حدود ٥٢٥ ق• م • ويمتاز هذا العهد باحداث مهمة فى تأريخ الاغريق جميعهم وفى تطور حضارتهم ، وبوسعنا أن نعد الازدهار الاقتصادى والتجارى الذى انجزه الاغريق فى عهد الطغاة سببا لازما ومقدمة تمهيدية لازدهار حضارة الاغريق فى عهد الديمقراطية أما هذه الاحداث فابرزها واهمها ما يأتى :ـ

(١) انتقال دولة اثينة وهى أهم دولة فى الاغريق الى نظام الحكم الديمقراطى •

(٢) الحروب اليونانية الفارسية •

(٣) الامبراطورية الاثينية •

(٤) الحرب بين اثينة واسبارطة •

(٥) ازدهار حضارة الاغريق (القرن الخامس ق• م) •

فلنوجز كلا من هذه الاحداث المهمة • وسنفرد لحضارة الاغريق بحثا خاصا •

١ ـ الحكم الديمقراطى :ـ

مر نظام الحكم الديمقراطى بمراحل متعاقبة يميز كل مرحلة منها علم من اعلام التأريخ اليونانى فى هذا العهد مثل «كليستينيس» (Clisthenes) و «ثيمستوكلس» (Themistocles) احد ابطال مراثون و «سيمون» (Cimon) و «بريقلس» (Pericles) • وبلغت الديمقراطية فى عهد «بريقلس» (٤٦٠ ـ ٤٣٠ ق• م) انضج مرحلة فى تأريخ الانسان ، على الرغم من نهايتها بعد عهده • ومن المهم أن نذكر هنا أن التجربة التى قامت بها

اثينة فى هذا النظام من الحكم قد كانت نتيجة تغييرات اقتصادية واجتماعية كبيرة أفضت الى حصر السلطة بايدى جماعة من المثرين من الطبقة الوسطى يتبعها العمال والاجراء وطبقة العبيد • وكان النزاع بين الاحزاب المختلفة فى اثينة ، كما فى جميع بلاد الاغريق ، قائما مستمرا • ويمكننا تمييز حزبين واضحين من هذه الاحزاب فجماعة كانت تريد حكما ارستقراطيا أو اوليغاركيا بيد اقلية تنحصر فيها الامتيازات والجماعة الاخرى كانت تهدف الى الحكم الديمقراطى أى حكم الشعب كما ان بعض الطغاة القديرين استطاعوا أن يحتفظوا بحكمهم كما كان الحال فى «سرقوسه» • أما اثينة فكانت بطلة الديمقراطية فى جميع الاغريق • فى حين ان اسبارطة كانت تمثل الحكم الاوليغاركى •

وتشترك جميع الدول اليونانية بوجه عام بانقسام السكان فى كل منها الى طبقات ، اما بالنسبة الى المال أو الحسب أو المركز الاجتماعى ، أو المهنة • وكانت الجنسية الاتيكية فى دولة اثينة تمنح الى كثير من الرعايا بسخاء • ولكن مما يلاحظ ان الاجانب القاطنين فيها والمقيمين كان بيدهم كثير من الصناعة والتجارة وأعمال البنوك • اما فى اسبارطة فان حق المواطنة الكاملة لم يكن الا فى بضعة آلاف من العائلات ، ومع أن الجماعات الاخرى كان قسم كبير منها حرا ولكنه كان قليل الامتيازات والحقوق ، وكانت عامة الشعب فى الواقع عبيدا للارض وكان نظام الرق جزءا من حياة الاغريق الاقتصادية ومن الاسس التى قامت عليها حضارة اليونان ، وكان يعد نظاما مرغوبا فيه ، أما القسم الاعظم من العبيد فكان من غير الاغريق • ومما يقال فى حال العبيد أنهم لم يكونوا بوجه الاجمال فى اسوأ وضع باستثناء الذين كانوا يشتغلون فى المناجم وكان من الممكن لبعضهم أن ينال الحرية بعد جهد وعمل شاقين • ومما تمتاز به الديمقراطية الاثينية الحصة الكبيرة التى كانت تصيب الفرد المتوسط من العمال والمزارعين فى الحياة السياسية والثقافية • وبخلاف ما كانت عليه اثينة من الديمقراطية والازدهار والتطور ظلت اسبارطة

محافظة راكدة على أوضاعها القديمة البدائية •

ولكي ندرك الفروق بين اثينة وباقي دويلات الاغريق ولا سيما اسبارطة نوجز هنا تطور بلاد الاغريق والحوادث التي وقعت فيها في خلال أربعة القرون المحصورة بين ٧٢٥ و ٣٢٥ ق • م ، أي منذ عهد النبلاء ، وقد أثرت هذه الحوادث في سير التأريخ اليوناني •

فبعد بداية عهد النبلاء بزمن قليل جابهت بلاد الاغريق جميعها مشاكل أساسية أهمها حاجة السكان المتكاثرين الى وسائل العيش والقوت وكانت الشعوب اليونانية تؤمن تلك الوسائل باقتصارها على المنتوجات الزراعية بالدرجة الاولى وهي المحاصيل التي تنتج في بلاد الاغريق وتستهلك في داخلها ولكن الازمة اشتدت ولم تكف تلك المحصولات لسد حاجات السكان • فسلكت دويلات المدن المختلفة سبلا مختلفة في حل تلك المشكلة • فعمد بعضها مثل «كورنث» و«كالسيس» (خالسيس) الى الاستيلاء على أراض زراعية واستعمارها فيما وراء البحار خارج بلاد الاغريق مثل صقلية وجنوبي ايطالية وتراقية وغيرها • ولكن دويلات أخرى اتبعت سبلا أخرى لحل المشكلة غيرت من أسلوب حياتها • فقد اشبعت دولة اسبارطة مثلا حاجة سكانها الى الارض باستيلائها على جيرانها من الاغريق واستعبادهم ، وقد دفعت عن ذلك ثمنا باهظا هو الحروب المستمرة مع جيرانها الذين من شاكلتها ، ولكي يأمن زعماء اسبارطة دوام هذا الحل جعلوا من الحياة الاسبارطية حياة عسكرية كلها من الرأس الى القدم ، وقد حققوا ذلك باحيائهم أنظمة اجتماعية بدائية كانت معروفة عند جماعات من الاغريق في الازمان القديمة وكانت على وشك الزوال حتى في اسبارطة نفسها •

ولكن اثينة أقبلت على حل مشكلة السكان بوجه يختلف عن ذلك تماما فقد أقدمت على الصناعات والتصدير بالتجارة الخارجية ثم غيرت أنظمتها السياسية ونشئها بحيث أشركت في السلطة السياسية الطبقات الجديدة التي استتبع تكوينها نشوء تلك الاساليب الاقتصادية الجديدة • ثم انها بدأت بزراعة

أراضيها ولا سيما جبال أراضيها الجرداء بأشجار الزيتون التي اصبحت موردا تجاريا مهما ، وقد رأينا استغلالها للنقود في ترقية تجارتها الخارجية ، كما انها صنعت السفن ونشئت صناعات جديدة طريفة من بينها أواني الفخار الجميلة لتصدير زيت الزيتون ، وعمدت الى فتح مناجم الفضة • ويمكننا أن نوجز ما قامت به اثينة أنها تفادت الثورة الاجتماعية بأن حققت تحقيقا ناجحا انقلابا اقتصاديا وسياسيا بدلا منهـا ، وقد رأينـا فيمـا سبق نشـوء النظـام الديمقراطي فيها • وبذلك فان اثينة قد فتحت سبيلا جديدا لسير المجتمعات اليونانية ولعل هذا هو ما عناه «بريقليس» عندما قال عن اثينة بأنها «معلمة بلاد هيلاس» (أي بلاد الاغريق) • وبهذا السبيل اختلف تأريخ اسبارطة عن اثينة ، ولم يكن هـذا الاختلاف ناشئا عن سجايا أو جبلات خاصة تميز الاسبارطيين عن الاثينيين •

وقد سبق أن ألمحنا بأن هذا الازدهار الاقتصادي الذي حققته اثينة قد مهد السـبيل لازدهار آخر حققتـه تلك الدولة في القرن الخـامس ، اذ ازدهرت على يدها حضارة الاغريق ونتجت للتراث البشري الفلسفة اليونانية وفن الرواية والعلوم مما سنأخذ عنه بعض الشيء في البحث الخاص بحضارة اليونان •

٢ ـ الحروب الفارسية اليونانية :ـ

لقد ذكرنا في أخبار الدولة الفارسـية الاخمينية ان كورش قبل أن يغزو العراق ويأخذ بابل قد غزا آسية الصغرى وقضى على مملكة الليديين بتغلبه على ملك ليدية «قارون» (Croesus) واستيلائه على العاصمة «ساردیس» (٥٤٦ ق • م) ثم ضم المدن الايونية في آسية الصغرى الى الامبراطورية الفارسية وتقدم الفرس الى جزر ايجـة بجوار الدول اليونانيـة ، وبذلك اصطدم العالم الاغريقي بامتداد النفوذ الفارسي ، وكانت بوادر النزاع ثورة المدن الايونية على الاستعمار الفارسي ، وقد سـاعد بعض الدويلات اليونانية وبخاصة اثينة الايونيين بارسالها قطعات من السفن • فأغاض هذا العمل الدولة

الفارسية وصمم الملك دارا الاول (٥٢١ ـ ٤٨٥ ق ٠ م) على تأديب الاغريق فأرسل حملة كان نصيبها الفشل (٤٩٢ ق ٠ م) بغرق الاسطول المرافق للحملة ٠ ثم أعقب ذلك من بعد عامين ارسال حملة أخرى من الاساطيل فحدثت بين الطرفين المعركة الشهيرة مراثون (٤٩٠ ق ٠ م) وكانت الحملة موجهة على اثينة التى استطاعت جيوشها وحدها أن تهزم جموع الفرس مع تفوقهم بالعدد والعدة ٠ وقد أبدى القائد الاثينى «ملتيادس» (Miltiades) مهارة وبراعة عظيمتين فى كسبه هذه المعركة العظمى التى شجعت الاغريق وأنقذتهم من عبودية الفرس ٠

لقد اشتهر فى معركة مراثون[١] سياسى محنك اشتهر ببعد النظر واصالة الرأى هو «تميستوكلس» (Themistocles) الذى كان (ارخونا) ، أى أعلى حاكم فى دولة اثينة فقد ارتأى بناء اسطول بحرى فنجح فى اقناع الاثينيين ببناء الاسطول بعد معركة مراثون ، وقد مات الملك دارا بدون أن يثأر من اثينة وخلفه فى الحكم (احشويرش) (٤٨٥ ـ ٤٦٥ ق ٠ م) الذى أخذ على عاتقه هذه المهمة ، وأخذ يدبر الخطط للانقضاض على جميع الاغريق ، ولكى يضمن ذلك سيطر على بعض مدن الفينيقيين واستمال المدن الاخرى الى جانبه ٠ وأصبح الاسطول الفارسى اسطولا ضخما ٠ وبعد عشر سنين من معركة (مراثون) هجم الملك الفارسى على اليونان بالاسطول وبالقوات البرية ٠ فوصل الجيش البرى الى مجاز «ترموبيلى» المطل على خليج سلاميس ووصل بالقرب منه اسطول كبير قوامه ٥٠٠ سفينة ٠ وكان ملك اسبارطة «ليونيداس» (Leonidas) ومعه زهاء الـ (٥٠٠٠) رجل يحمى ممر «ترموبيلى» (Thermopyae) وتهيأ الاسطول الاغريقى (وكان يحتوى على نحو ٣٠٠ سفينة) لضرب الاسطول الفارسى ٠ ومما يذكر فى هذه الحرب البطولة التى أبداها ملك اسبارطة فى الدفاع عن المجاز فقد استطاع أن يمنع جموع الفرس الكثيرة يوما كاملا ولكن الفرس استطاعوا أن يقضوا على جيشه بحركات

---

(١) سهل مراثون فى ولاية اتيكة التى تقع فيها اثينة ٠

التفافية فمات الاسبارطيون جميعهم ومعهم ملكهم وقائدهم • واشتبك من بعد ذلك الاسطول الاثيني مع اسطول الفرس بمعركة بحرية عظمى هي معركة «سلاميس» (٤٨٠ ق • م) انتصر فيها الاغريق بعد معركة دامت طوال اليوم الى الليل وتحطم فيها اسطول الفرس بأجمعه تقريبا وكانت النتيجة أن اثينة أصبحت سيدة البحر • وتحقق بعد النظر الذى أظهره ذلك السياسي العظيم «ثيمستوكلس» حيث انقذ اثينــة ومعهـا بلاد اليونان وحضـارة اليونان من الزوال • وقد أسرع احشويرش الى آسية مخافة أن يقطع عليه اسـطول الاغريق خط الرجعة • والواقع ان الداهية «ثيمستوكلس» قد حاول ما كان يخشـاه الملك الفـارسي ولكن اسـبارطة لم توافق على ذلك • وقد اشتبكت قرطاجة في حدود هذا الزمان بحرب مع صقلية بعد أن عبر اسطولها من افريقية • أما النتيجة فكانت اندحار قرطاجة • ولكن مع هذه الانتصارات لم يتخلص العالم الاغريقي من خطر الفرس اذ ان الملك الفارسي ترك جيشا كبيرا مع أحد قواده لتمضية فصل الشتاء في «تسالية» (Thessaly) • ولذلـك فمهما بدت لنا نتائج السياسة التي اتبعها «ثيمستوكلس» واضحة بالنسبة لفائدة الاغريق فان الاثينيين لم ينظروا اليها كذلك • فكان جزاؤه أن نحي من الحكم • وعندما قارب الشتاء على الانتهاء توجه الجيش الفارسي المرابط في «تسالية» الى «اتيكة» • فحـل الرعب من جديـد في اليونان ، وبعـد لأي اشتركت اسبارطة بجيشها في هذه الحرب الجديدة ، وصارت القيادة العامة بيد ملكها الذى قاد زهاء الـ ٣٠ ألف رجل من الجند المسـلحين تسـليحا ثقيلا • وتقابل الجيشان في «بلاتية»(Plataea) (٤٧٩ ق • م) وبدأت المعركة بخسائر من جانب اليونان بسبب السهام الفارسية المميتة ولكن رماح الصفوف الاغريقيــة كسبت لليونان الموقف واحلت الهزيمــة في جموع الفرس ولم يحاول الفرس من بعد ذلك غزو الاغريق وهكذا برهن المواطنون الاغريق الاحرار كيف ان شعبا صغيرا حرا استطاع أن ينتصر على أعظم امبراطورية عرفها العالم القديم •

٣ ـ امبراطورية اثينة ومنشأ النزاع بينها وبين اسبارطة :

نتجت الانتصارات التى أحرزها الاغريق فى حربهم مع الفرس نتائج خطيرة فى حياتهم وفى علاقات الدول الاغريقية بعضها ببعض • وقد ألمحنا فيما سبق الى الاختلافات الاساسية بين اسبارطة واثينة ليس فى نظام الحكم فحسب بل فى جميع نواحى الحياة بحيث يصح أن نعد الدولتين تمثلان حضارتين مختلفتين وقد عملت نتائج الحرب مع الفرس على اتساع هذه الاختلافات بين الدولتين • فمن جهة شعرت اثينة بعظم الاعمال التى أنجزتها فى حربها مع أعظم امبراطورية وأخطر عدو هدد حياة اليونان ووجود اليونان • وقد أحرزت اثينة أولى الانتصارات العظيمة (مراثون) وحدها بدون أن تساعدها اسبارطة • فشعر الاثينيون بشعور جديد هو الاطمئنان الى قابليتهم وعظمة مدينتهم وخرجوا من الحرب وهم على أشد ما يكونون من الطموح واتجهوا فى أفكارهم الى عالم جديد واتجاه جديد فى الحياة • ومهما خالط هذا الطموح من الغرور والزهو والاعتداد بالنفس فانهم لا شك أدركوا أسرار انتصارهم وأحسوا بقيمة الحرية السياسية وبقيمة نظام الحكم الديمقراطى عندهم • فصارت اثينة ممثلة للديمقراطية والتقدم وسيادة الشعب وبطلة حرية الفكر وحريات الانسان بوجه عام • وبعكس هذه الصورة كانت اسبارطة وهى الدولة الثانية العظيمة من بين الدويلات اليونانية • فقد خرجت اسبارطة من الحرب وهى صغيرة وظلت محافظة اقتصرت أنظمتها وحضارتها على نظام الجندية القاسى • فكان المواطنون فيها كلهم جنودا يأكلون فى مطاعم عامة تهيؤها لهم الدولة • ولم يكن المواطن الاسبارطى يعرف شيئا أو يشغله شىء سوى الحرب والتهيؤ للحرب • وكان العبيد يزرعون له أرضه • فكانت دولة اسبارطة بوجه الاختصار عبارة عن جيش فقط • والى ذلك كله كان عدد الجنود أى المواطنين الذين لهم حق الجنسية الاسبارطية محدودا لا يتجاوز بضعة آلاف من المحاربين يحكمون بالقوة والقسوة عددا كبيرا من السكان فى داخل مملكتهم ومن الاقوام المجاورة لها التى استعمروها • وكان الشغل الشاغل لهذه الطبقة الحاكمة الحرب فلم تعن بالتجارة أو الصناعة أو أى شىء

من مظاهر الحياة الاخرى حتى ان مدينة اسبارطة لم تكن سوى مجموعة قرى لا تستحق أن يطلق عليها اسم مدينة ، بل كانت أقرب ما تكون الى معسكر . ولم تبعد كذلك فى نظام حكمها النظام الملكى ، وكان الملكان اللذان يشتركان فى الحكم قائدين عسكريين دون أى شيء آخر . وكان عالم هؤلاء الجنود المواطنين وافق تفكيرهم محدودا ضيقا . واذا طمح هؤلاء بأن يكونوا زعماء الاغريق العسكريين فانهم كانوا يتهيبون من هذه الزعامة وما كان يتطلبه العصر الجديد من اتساع النظر الى امكانيات مستقبل جديد عظيم . وكانت هذه الامور من جملة الاسباب التى جعلت عالم الاغريق منقسما على نفسه ولم يتحد فى دولة واحدة بل كانت الامور تسير الى عكس ذلك اذ أدى التنافس والنزاع بين أعظم دولتين من دول اليونان ، أى اثينة واسبارطة الى خصام وحروب دامت زهاء قرن واحد .

نشوء امبراطورية اثينة وانتصار الديمقراطية :ـ

ان انتصار اثينة فى مراثون وسلاميس على الفرس ولد الرغبة فى الاثينيين فى جلب جميع الاغريق تحت سلطان اثينة وقد رأينا كيف انها حاربت فى الموقعة الاولى وحدها ، وفى الموقعة الثانية كانت بيد الاثينيين قيادة الاسطول الذى قضى على غزو الفرس . وقد أدركت اثينة بتحريض «ثيمستوكلس» وارشاده ان خير سبيل لانعاشها واتساعها انما يكون فى انشاء اسطول بحرى جعل اثينة سيدة البحار . واستغلت اثينة خوف الاغريق من عودة الفرس للغزو فاستطاعت ان تقنع المدن الاغريقية فى آسية الصغرى ودويلات أخرى فى جزر ايجة فانظمت تحت زعامتها فى عصبة عرفت بالعصبة أو الجامعة «الديلية» (نسبة الى جزيرة صغيرة اسمها ديلوس (Delos) حيث وضعت العصبة ماليتها المشتركة فى معبد لابولو هناك) . وقد ساهمت المدن الغنية بامداد العصبة بالسفن وكانت المدن الاخرى تؤدى مالا معينا كل عام . ولكن تحولت هذه العصبة أو الاتحاد بالتدريج الى امبراطورية مؤلفة

من دويلات تحت زعامة اثينة أو حكمها • فأغاض ذلك المدينة المنافسة اسبارطة • ونشأ من ذلك ان انقسم الرأى فى اثينة الى حزبين بالنسبة الى ما يجب أن تتخذه اثينة من سياسة تجاه اسبارطة • وكان أحد الحزبين بقيادة «سيمون» أحد القواد البحريين المشهورين وابن القائد المشهور «ملتيادس» بطل مراثون • وكان هذا الحزب يرى اتخاذ سياسة الصداقة مع اسبارطة ، وكان يتألف على الاغلب من الطبقة المثرية والنبلاء والاشراف والمحافظين ، ولكن الحزب الآخر ، وقد تزعمه «ثيمستوكلس» ، كان يرى سياسة الشدة تجاه اسبارطة • وقد كان هذا الحزب يضم معظم الاثينيين الاحرار الديمقراطيين المتجددين • وحدثت من بعد ذلك أحداث هامة فى سياسة اثينة الخارجية والداخلية • فأولا دحر الزعيم «ثيمستوكلس» فى المجلس العام وصوت المجتمعون بعدم الثقة به واعقب ذلك انهم اتهموه بالخيانة العظمى ففر هاربا والتجأ الى الملك الفارسى وهكذا كانت نهاية هذا الزعيم الفذ الذى جعل اثينة سيدة البحار • أما سيمون فقد صفا له جو الزعامة أمدا قصيرا وقد اشتبك بحرب بحرية مع الفرس انتصر فيها (٤٦٨ ق • م) ، وطلبت فى زمنه اسبارطة من اثينة مساعدة بالجيش للقضاء على ثورة قام بها بعض رعاياها فتقدم سيمون بالنجدة ولكن الاسبارطيين ألحوا بخشونة أن يرجع الجيش الاثينى حتى قبل أن يقضى على الثورة فظهر للاثينيين خطل سياسة سيمون التى ترمى الى صداقة اسبارطة فصوتوا على تنحيته عن الحكم (٤٦١ ق • م) • وكانت اقالة سيمون انتصارا للشعب على الاشراف والنبلاء • وأتبع الشعب انتصاره بأن ضيق على مجلس الشيوخ (المكون معظمه من النبلاء) وحدد سلطته الى أضيق الحدود وأصدر قانونا فى سلب مجلس الشيوخ جميع سلطاته السياسية وقصر سلطاته على بعض الشؤون والقضايا كالنظر فى قضايا القتل ونشأ فى غضون ذلك مجلس عام للشورى من الشعب قوامه ٥٠٠ عضو أخذ لنفسه ادارة معظم شؤون الدولة • وكانت الطريقة فى ممارسة حقوقه فى تقسيمه الى عشر لجان قوام كل منها (٥٠) عضوا كانت تحكم كل لجنة مدة تربو على الشهر بقليل من كل عام • ومن مظاهر انتصار حكم الشعب

الديمقراطي اتساع مجالس المحلفين للنظر في الخصومات والقضاء ، وصار عدد المواطنين المشتركين بنظام التحليف ستة آلاف فرد كانوا يقسمون الى مجالس صغرى من المحلفين • وكان كل مجلس من هذه المجالس في الواقع مجلسا من القضاة لوقت محدود لتقرير الاحكام الخاصة بالقضايا التي تعرض عليهم • واذ كان المشتركون في هذه المجالس من الطبقات العاملة ومن الفلاحين وغيرهم ممن يعيش على الكسب والعمل فقد كان يدفع لكل عضو من هذه المجالس رواتب لاعالتهم • وقد اكتسبت هذه المجالس من الحول والقوة بحيث أصبحت من أهم مصادر التشريع في اليونان ، بل كانت مع مجلس الشورى مصدر التشريع واصدار القوانين • وهذا في الواقع هو حكم الشعب بنفسه كما يفهم من كلمة الديمقراطية في اللغة اليونانية • ومن مظاهر الديمقراطية اليونانية في هذا العهد اتساع حق الترشيح الى منصب الحاكم الاعلى (ارخون) بحيث شمل جميع المواطنين باستثناء العمال الذين لم تكن لهم أية ملكية • كما ان حق الانتخاب والتصويت قد اتسع فشمل جميع طبقات المواطنين • وكذلك اتسع حق الانتخاب الى الوظائف فشمل جميع درجات الشعب باستثناء وظيفة القائد الحربي الذي بقي حق الانتخاب اليه في جماعة من القواد والمتنفذين • وكان عدد هؤلاء القواد عشرة كانوا ذوي نفوذ في شؤون ادارة الدولة وفي الشؤون الخارجية كما ان قائد العشرة كان ذا نفوذ عظيم في الدولة ولا سيما اذا استطاع بخدماته أن يقنع مجلس اثينة العام بخططه وقيادته • واشتهر «بريقلس» الذي جاء الى الحكم بعد سقوط سيمون بسياسته في توسيع نفوذ اثينة وبناء امبراطورية لها • وقد تزعم الطبقات التي تميل الى التجدد والتقدم واستطاع أن يحوز على ثقة الشعب فكان انتخابه قائدا يتجدد كل عام وصار حاكم اثينة الفعلي ، ودام سلطانه من ٤٦٠ ق • م حتى موته من بعد ثلاثين عاما • وتعاظمت تجارة اثينة وصناعتها من بعد الحروب الفارسية ودرت عليها الخيرات والثروة فزاد السكان والى هذا كان لدولة اثينة موارد مهمة لشؤون الحكومة واهمها مناجم الفضة في اتيكة وكذلك الضرائب وموارد المكوس • اما اسبارطة فلا

يمكن قياس وارداتها بالنسبة الى ثروة اثينة وكان هذا من الاسباب التى زادت فى الخصومة بين الدولتين ٠

٤ ـ الحروب بين اثينة واسبارطة :ـ

وعلى الرغم من ازدهار اثينة فى الداخل تحت قيادة «بريقلس» فقد سارت سياستها الخارجية الى التردى ولا سيما فى علاقاتها مع الدويلات اليونانية وقد اخذت تستعمل الشدة والقوة فى اكراه بعض الجزر الداخلة فى امبراطوريتها فى الاستمرار على تبعيتها ودفع الجزية وكان اسطولها يمخر بحر ايجة على الدوام لابتزاز تلك الجزية التى كانت تجمعها وتصرفها كيفما شاءت ، فكانت ديمقراطيتها فى الواقع محصورة فيهـا ولم تشمل الاجانب التابعين لها ، حتى انها ألغت حق المواطنة لهم ، وتمادت فى تعسفها بحيث انها كانت تكره الشعوب الداخلين فى امبراطوريتها على التقاضى أمام محاكم المحلفين الاثينية ٠ ومما أساء فى الوضع ان مجلس الممثلين من جميع دول الامبراطورية الذى كان يجتمع للنظر فى شؤون الامبراطورية قد أصبح معطلا تقريبا ٠ فأصبحت اثينة بوجه الاجمال دولة مستبدة مستعمرة مما حفظ ذلك التابعين لها ولا سيما أنهم كانوا يوازنون بين حالهم وبين حسن حال الدول التابعة الى العصبة الاسبارطية فبدأ بعضهم يتصل باسبارطة سرا لطرح نير اثينة والانضمام الى اسبارطة ٠ فشجع كل ذلك اسبارطة على المجاهرة بحقدها على اثينة ٠ وعمت هذه الروح جميع اليونان تقريبا ، وجعلت الحرب بين اثينة واسبارطة أمرا لا بد منه ٠

وقعت أولى الحروب بين اثينة واسبارطة بعد تثبيت زعامة بريقلس بزمن قليل (٤٥٩ ـ ٤٤٦ ق ٠ م)[١] وقد دامت حوالى الـ ١٥ سنة وكانت سجالا بين الطرفين ، ومما زاد فى ضعف اثينة انها ساعدت فى أثناء ذلك مصر فى ثورتها ضد الفرس فى عهد ارتحشستا الاول (٤٦٥ ـ ٤٢٤ ق ٠ م) وأرسلت

---

(١) سببت هذه الحروب الانتحارية تدهور حياة اليونان وقد وصفها المؤرخ اليونانى ثوسيدا يدز الشهير بانها (بداية الشرور الكبرى فى هيلاس)

لهذا الغرض اسطولا قوامه (٢٠٠) سفينة فقدت جميعها • وفي ختام هذا الاصطدام أبرمت بين اثينة واسبارطة معاهدة صلح (٤٤٥ ق • م) أمدها ثلاثون عاما • وكانت هذه الحرب الاولى مما يدعى بالحروب «البيلوبونيسية» (Peloponessian) ومع معاهدة الصلح المعقودة فان النزاع والتنافس الكامنين بين الدولتين لم تستأصل جذورهما بل ظلت المدينتان تتنازعان زعامة الاغريق • وقد نشبت الحرب الثانية بعد نحو ١٥ عاما من ابرام معاهدة الصلح (في عام ٤٣١ ق • م) • فتألبت جميع الدول غير الداخلة في امبراطورية اثينة عليها • وبدأت الحرب ووضع اثينة المالي على أحسن ما يرام وتحت قيادتها اسطول جعلها سيدة البحر بدون منازع • ولكنها كانت ضعيفة تجاه جيوش الاعداء البرية التي جاء منها زهاء (٣٠٫٠٠٠) رجل من الاشداء الى أبواب اثينة • وكانت خطة بريقلس الحربية الاهتمام بالقوة البحرية والاعتماد عليها واهمال شؤون الدفاع عن «اتيكة» • ونصح هذا الزعيم سكان اتيكة أن يجلوا عن بيوتهم ويلتجأوا الى اثينة المحصنة • وعمدت اثينة لمقابلة تخريب الجيوش المعادية لبلادها الى الغزوات البحرية وتخريب مدن الاعداء كذلك وفرض الحصار البحري • ولكن لم تجد هذه التدابير نفعا اذ اضطرب السكان المحصورون في اثينة وحل فيهم لسوء الحظ وباء قضى على ما يقرب من ثلث السكان ، وبالاضافة الى ذلك كانت جيوش الاعداء تضرب الحصار على المدينة التي لم تستطع أن تدخل معها في قتال فكان كل ذلك سببا قويا في سخط الاثينيين على بريقلس وقد بلغ بهم الحال ان حاكموه وخلعوه ، ولكن عدلوا عن ذلك بعد حين لانهم شعروا بخلو مكانه الذي لم يستطع أحد من السياسيين الاثينيين أن يشغله فأعادوا انتخابه • ولكن ماجريات الامور كانت تسير على عكس ذلك اذ فقد زعامته ومات ابناه بالطاعون ثم مات هو نفسه من بعد ذلك (٤٢٩ ق • م) وهكذا ترك هذا الرجل اثينة بدون زعيم وهي في محنة شديدة فاضطربت الامور فيها وتخبط زعماء مجلس الشورى من سياسة الى سياسة بدون هدى • وقد جاء وصف هذه الاحوال في روايات الشاعر الشاب «ارستوفانيس» الكوميدية • ومع هذا التردي فان سلطان اسطول اثينة قد دام

زمنا أطول ، ولكن نضبت موارد اثينة المالية ولم يستطع «كليون» «الدباغ» زعيمها الجديد انقاذهـا من ذلك • وبعد عشـر سـنين من الحروب طلب خلفه عقد الصلح مع اسبارطة (٤٢١ ق • م) وقد قبل الطرفان بموجب هذا الصلح التنازل عن جميع ما حصلا عليه من فتوح وارجاع الحال الى ما كان عليه قبل الحرب • وهكذا انتهت الحرب الثانية التى انهكت قوى الدولتين المتنازعتين ومعهما جميع الاغريق •

ولكن برهنت شروط معاهدة الصلح على تعذر تطبيقها فاندلعت الحرب بين الطرفين مرة ثالثة وكانت نتيجتها هذه المرة تحطيم امبراطورية اثينة • وقد ارتكبت فى هذه الحرب ، كما فى الحروب السابقة ، فضائع وحشية • ولعل أشد صدمة أصابت اثينة فى أثناء هجومها على (سرقوسه) أسر أسطولها وجيشها هناك (٤١٣ ق • م) • وبعد ذلك دخلت اسبارطة فى النزاع ومما يذكر عن هذه الحرب الثالثة ان الحاكم الفارسى فى آسية الصغرى سـاعد اسطول اسبارطة بالمال[١] • وقد دامت الحرب بين الدولتين تسع سنوات (٤١٣ـ ٤٠٤ ق • م) ، وآل الأمر بأثينة ان استسلمت للملك الاسبارطى الذى كان يحاصرها فى ٤٠٤ ق • م وبذلك قضى على امبراطوريتها •

وهكذا فشلت اثينة فى فرض زعامتها على العالم اليونانى ، وأخـذت اسبارطة تلك الزعامة زمنا ما ، ولكنها لم تكن لائقة لتلك الزعامة لانها كانت اقتصرت فى نشاطها على الناحية العسكرية ، واستخدمت القوة والاضطهاد فى اخماد النظم الديمقراطية فى مدن اليونان التى حكمتها حكما عسكريا ، وهو حكم أقلية من طبقة النبلاء مستند الى القوة العسكرية وقد دعا الاغريق هذا النظام «اوليغاركى» (ومعناه بلسـانهم حكم الاقلية) • ومع تعسف هـذا النوع من الحكم وعدم صلاحـه للاغريق ، فان الناس المفكرين قد زهدوا بالحـكم الديمقراطى وعدوه فاشلا ولا سيما نظام الحكم الشعبى الذى اشتهرت به

---

(١) راجع ما ذكرناه عن تدخل الفرس الاخمينيين بشؤون اليونان من ارشاء الدويلات اليونانية لتحارب بعضها بعضا بعد ان اخفقوا فى ضم اليونان بالقوة (ص ٤١٠ ـ ٤١١) •

اثينة[١] ، ومما يقال فى هذا العهد الجديد انتشار الروح العسكرية والفن العسكرى وصيرورة العسكرية مهنة وفنا ليس فى خدمة الدولة بل مهنة عسكرية فكان الرجال يمتهنون العسكرية فى خدمة دول وحكومات اجنبية ، وقد اشتهر الاغريق المرتزقة فى ذلك ، والمثل على ذلك ما مر بنا فى الكلام على حملة زينفون • فقد اشتهر فى اثينة من هؤلاء القواد المحترفين جماعة أكسبتهم مغامراتهم الحربية شهرة عظيمة • ولعل أعظم هؤلاء «زينفون» الاثينى الذى دخل الخدمة العسكرية مع «كورش» الامير الفارسى فى آسية الصغرى فى (٤٠٠ ق•م) الذى أراد التغلب على أخيه الملك ، كما مر بنا •

وقد خلف لنا «زينفون» عن حملته هذه الى أراضى الامبراطورية الفارسية أخبارا طريفة فى كتابه «الصعود» (Anabasis) على ما بيناه فى كلامنا على الدولة الاخمينية •وشرح فيه كثيرا من المواقع الحربية، فيكون هذا الكتاب من الكتب العسكرية التى بحثت فى العلوم الحربية• ومما يقال عن الفنون الحربية عند الاغريق انهم لم يعرفوا آلات الحصار الضخمة وظلوا كذلك حتى بعد زمن «بريقلس» • ولكن جاءت آلات الحصار اليهم عن طريق الفينيقيين والقرطاجنيين •

الحرب بين اسبارطة والفرس :

ويبدو ان المهارة التى اشتهرت بها حملة زينفون قد شجعت اسبارطة على حرب الفرس فى آسية الصغرى ، احدى ولاياتهم ، واستخدمت لذلك من بقى من عشرة الآلاف رجل فنجحت فى عدة مواقع ، ولكن أعقبت ذلك ثورات قامت بها بعض مدن الاغريق على اسبارطة ، ونتج عن هذه الاضطرابات تكوين حلف من اثينة وطيبة ضد اسبارطة ، وقد ساعد الفرس هذا الحلف لاضعاف اسبارطة فاشترك اسطول من اثينة مع الفرس لفرض السلطان الفارسى على مدن الاغريق فى آسية الصغرى • وهكذا دخل الاغريق مرة ثانية فى حرب أخرى فيما بينهم وقد دامت ثمانى سنوات وعرفت بالحرب «الكورنثية» • وقد استطاعت اثينة ان تبنى اسطولا استطاعت أن تحطم به

---

(١) قارن تشهير افلاطون بهذا النظام فى جمهوريته •

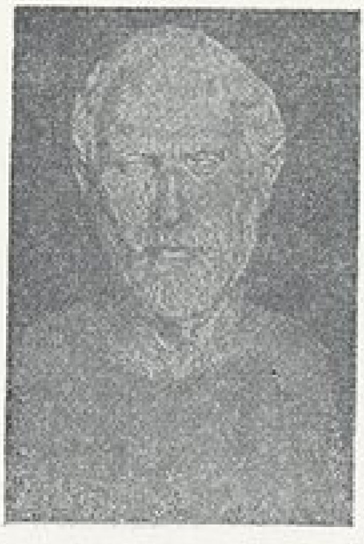
اسطول اسبارطة . ولكن الفرس شعروا بفقدان التوازن بعد انتصار اثينة البحرى وخشوا من خطرها على مستعمراتهم فسهل ذلك على اسبارطة أن تعقد الصلح مع الفرس ، وكذلك رغبت الدويلات المعادية لاسبارطة أن تعقد الصلح معها . وقد تدخل الملك الفارسى أرتحششتا الثانى فى ابرام هذا الصلح ولذلك عرف «بصلح الملك» (٣٧٨ ق.م) . ومع هذا الصلح فان الخصومات والمشاكل فى العلاقات بين الدويلات الاغريقية لم تحل حلا نهائيا .

سقوط اسبارطة وزعامة طيبة

ظلت اسبارطة تجهد فى أن تتمسك بسلطانها على العالم اليونانى زهاء ٢٥ عاما منذ نهاية آخر حرب من الحروب البيلوبونيسية ، وقد سببت شدة النظام الاسبارطى كره الاغريق للاسبارطيين كرهـا فاق كرههم لاثينة فى ابان زعامتها . وقد بدا هذا المقت فى ثورة جماعة من أهالى طيبة على الحكام الاسـبارطيين الطغاة وقتلهم اياهم ، فنجح أهالى طيبة فى ادخال نظام الحكم الديمقراطى بدل الحكم الاوليغاركى . واستطاعت اثينة فى الوقت نفسه من تأليف اتحاد منها ومن طيبة ومن بعض المدن الاغريقية الاخرى مما أقلق بال اسبارطة . ونتجت المصادمات خسـران اسبارطة فى المعركة البرية ، وعندما دحرت اثينة اسطولها ، تقدمت اسبارطة الى الصلح . واجتمعت جميع الدويلات اليونانية فى وفود فى اسبارطة لعقد ذلك الصلح ، وعندما اجتمع المؤتمرون وعرضت عروض الصلح تعقدت الامور برفض اسـبارطة تمثيل «طيبة» لولاية «بوشية» التى تقع فيها . وهكذا ظلت اسـبارطة وطيبة بعـد مؤتمر الصلح فى حالة حرب . وكان جميع الاغريق ينتظرون سحق طيبة بالصفوف الاسبارطية . ولكن عندما نشبت المعركة بين الطرفين لم تفد شهرة نظام الصف الاسبارطى تجاه تعبية جديدة قام بها قائد جيش طيبة . وهكذا تحطم الجيش الاسبارطى (فى عام ٣٧١ ق.م) بعد أن احتفظ بزعامة القيادة زهاء ثلاثين عاما ، منذ ٤٠٤ ق.م . فانتقلت الزعامة الى دويلة ثالثة بعد اسبارطة وهى دويلة طيبة ولكن هذه بدورها آل أمرهـا الى التحطيم بعـد ان خسرت فى المعارك البحرية والبرية مع اسبارطة مرة أخرى فى ٣٦٢ ق.م . وهكذا

قضت الدول الكبرى الثلاث بعضها على بعض وحطمت بعضها بعضا ، وانتهت حياة الاغريق السياسية ولم يحققوا الوحدة السياسية التى حاول كل من هذه الدول الثلاث فرضها على بلاد اليونان . وعندما جاءت دولة اجنبية لفرض سلطانها على الاغريق وجدت عالم الاغريق منقسما على نفسه . وكانت هذه الدولة هى «مقدونية» التى استطاع ملكها فيلب أبو الاسكندر الكبير أن يقضى على الجيش اليونانى فى عام ٣٣٨ ق. م فاعترفت به الاغريق الا اسبارطة التى اخضعت بالقوة ، وأكمل عمله ابنه الاسكندر الذى انتخب قائدا لجميع الاغريق فى حملته على فارس .

ومع هذه النزعة عند الاغريق الى عدم الاتحاد والانضمام الى دولة يونانية واحدة وعلى الرغم من فشلهم فى الحياة السياسية العملية فان حضارة الاغريق قد حققت انجازا رائعا من الخلق والابداع فى تاريخ الحضارات البشرية وكان لها تراث ضخم فى جميع الحضارات التى أعقبتها . وسنأخذ طرفا من مظاهر حضارتهم فى الصفحات الآتية .



تمثال «ديموسثينيز» الخطيب اليونانى الشهير الذى عاش فى اثينة فى عهد فيلب ابى الاسكندر وكان زعيم الحزب المناوىء لسياسة الاعتراف بسلطة فيلب على اليونان

الفصل السابع والثلاثون

الحضارة الهلينية (الاغريقية)

يظهر مما عرضناه سابقا من تأريخ اليونان ان تأثير اليونان وأهمية تأريخهم ليس من الناحية السياسية ، وانما في تراثهم الثقافي • ومع ان الاغريق صدوا الفرس ولكن أهمية هذا الانتصار تنحصر في أنه مكنهم من المحافظة على طراز حياتهم من أن يسحق بالطغيان الفارسي وبالاستعمار الاجنبي • كما ان الحروب الفارسية كانت احدى طرق الاتصال الهمة بين اليونان وبين حضارات الشرق القديم • وقد امتاز الاغريق بانتشارهم من موطنهم وولعهم بالهجرة بهيئة تجار أو مستعمرين الى جهات متأخرة في مضمار الحضارة ، فنتج عن ذلك بث كثير من عناصر الحضارة اليونانية • وكان الرومان من بين الاقوام التي تعلمت من الاغريق وعن طريق الرومان ، في خلال العصور الوسطى ، جاء تراث اليونان الى العالم الحديث ولا سيما الحضارة الاوربية • والى ذلك فان هذه الحضارة الغربية قد تأثرت تأثرا عميقا بالحضارة اليونانية بصورة مباشرة في عهد النهضة الاوربية واحياء المآثر الكلاسيكية • والحضارة الغربية تعد حضارة مشتقة من الحضارة اليونانية ــ الرومانية ، التي يصح أن نسميها بالحضارة «الهلينية» • وقد ألمحنا سابقا الى علاقة هذه الحضارة بالحضارة المينية التي ازدهرت في جزر بحر ايجة ، اذ أكدنا على صلتها بهذه الحضارة • والى هذا كله أخذت الحضارتان المينية والهلينية أشياء أساسية من حضارات الشرق القديم ولا سيما من حضارات العراق وحضارة مصر ، ولكن فضل الاغريق مع ذلك كبير على البشر لانهم اضافوا اشياء جد مهمة ، وكلها من خلقهم وابداعهم ، ونخص بالذكر روح العلم الحديث والفلسفة واشياء اخرى لا تزال جزءا مهما من

التراث البشرى • ولعل اهم فرق بين الحضارات القديمة وحضارة الاغريق ليس في صحة المعلومات والملاحظـــات عن هذا الكون وكثرتها وانما في المنهج وطريقـة البحث بحيث يصح ان نعد الاغريق موجدى «منهج العلم» الحديث ، وذلك بطريقة ملاحظاتهم واستخراج القواعد والضوابط لتفسير الحقائق المشاهدة ، وتعليل الاشياء والحوادث بعلل لا تمت الى الاساطير وما بعد الطبيعـة بصلة • أى انهم فصلوا اللاهوت عن العلم ، وبحثوا عن علل الاشياء ضمن الحوادث الطبيعية • وسيتضح ذلك كثيرا فيدرسنا أهم المقومات في الحضارة الهيلينية •

١ ـ الـدين :ـ

ونبدأ من حضـــارة الاغريق بدرس شيء موجز عن دياناتهم لتأثيرها العظيم في جزء كبير من نتاجهم الادبي والفني بوجه خاص وفي حيـــاتهم الاجتماعية بوجه عام •

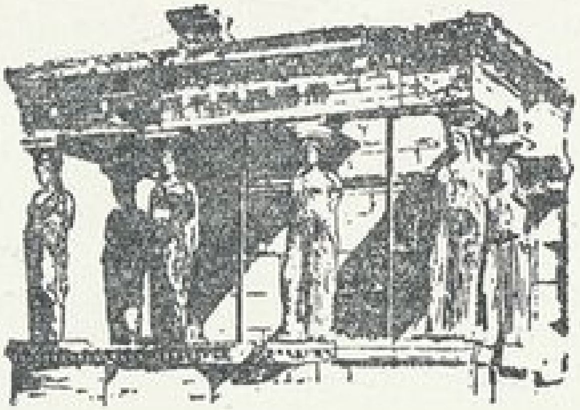
وديانة الاغريق تشـــبه من وجوه كثيرة ديانات الحضارات القديمة في الشرق كحضارات العراق ومصر • فهي ديانة وثنية مبنية على الشرك أي تعدد الآلهة ، وينسب الاغريق الى آلهتهم الكثيرة ، كما كان الحال عند قدماء العراقيين والمصريين ، صفات البشر سواء أكان ذلك في شكلهم أم في عواطفهم أم حياتهم • وهذا ما سميناه بمبدأ التشبيه • فنجد الآلهة المذكورة في العصر الهومرى تسكن في جبل شامخ في ســـهل «تسالية» هو جبل «الاولمبوس» • واختص كل اله بظـاهرة طبيعيـة أو بأمر خاص من امور الكون • وتؤثر الآلهة في مصائر البشر فكان الاله «زوس» أو «زفس» ، أبا الآلهة ، حاكم السماء والجو وللاله «بوزيدون» البحر ، مثل الاله البابلى «اياء» ولابولو الشمس • وافروديت الهة الحب وتضاهى عشتار البابلية • وتعنى الآلهة بشـــؤون الافراد الذين يقدمون لهم الخضوع والقرابين • وتريد الآلهة من الناس ان يكونوا اخيارا عادلين • ولكن اتصفت الآلهة اليونانية بالقوة والبطش فينبغى للبشر أن يحصلوا على مرضاتها •



مشهد معبد البارثينون المشهور في الاكروبوليس في اثينة قبل اعادة تعميره (انظر الصورة في ص ٥٦٥)

ومهما بدا دين الاغريق في العهد الهومري ساذجا فانه مع ذلك يمثل مرحلة تطورية بالنسبة الى ما كانت عليه دياناتهم في العهود السابقة ولا سيما عندما كانوا في عهد البداوة والسذاجة ، فكانت دياناتهم تتصف على ما يحتمل بما يعرف بمبدأ الحيوية ، كما هو الحال عند كثير من الشعوب البدائية • وفحوى هـذا المبدأ كما مر بنا في الديانة البابلية عزو الحياة والقوة الى مظاهر الطبيعة المختلفة • فقد كانوا يجسمون قوى الطبيعة القاسية ويستعطفونها ويسترضونها لدرأ شرها وجلب مساعدتها • وعندما بدأ الاغريق يستوطنون السواحل الايجية فيما بعد ١٤٠٠ ق• م اتخذوا بعض الآلهة التي وجدوها في مواطنهم الجديدة وأخذوا كذلك بعض الآلهة عن جيرانهم في آسية مثل افروديت التي انتشرت عبادتها من العراق القديم واخذوا من الآلهة المصرية عبادة الالهة ايسيس والاله «اوسيريس» • ولكن عندما بدأ الاغريق وهم في عنفوان حضارتهم يفكرون في الكون بطرقهم الفلسفية أخذ الدين بالتفسخ والانهيار •

ومما يمتاز به الدين عند اليونان أنه لم ينتج في جميع أطواره نظاما



واجهة ايوان جميل الفن والعمارة بنى لتزيين أحد معابد الاكروبوليس (في اثينة) المخصصة للالهة «اثيناء والمعروف باسم «ايريختيوم»(Erechtheum) وهو اسم أحد الملوك اليونان القدماء حيث كان المعبد يقوم في قلعته القديمة

الكهنة أو الكتب المقدسة كما في بعض الاديان الاخرى • ولذلك سلم اليونان من شرور حكومة الكهنة الدينية (Theocracy) ولكن كانوا يقدسون بعض المآثر الادبية التي صارت عندهم بمثابة الكتب المقدسة مثل مآثر هوميروس وهزيود • وكان رئيس العائلة هو الذي يتولى أمر عبادة الآلهة في معبد أو مذبح في بيت العائلة نفسها • وكان الفرد بوجه عام كاهن نفسه من ناحية العبادة • أما الكهنة الذين يخدمون في المعابد العمومية فكانت الدولة هي التي تستخدمهم • وبسبب سلطة الدولة الشاملة لم ينشأ في تأريخ اليونان نزاع بين رجال الدين والكنيسة وبين السلطة الزمنية على نحو ما حدث في تأريخ حضارات أخرى ولا سيما الحضارة المسيحية •

المعبد :

ونستطيع أن نجد أصل المعبد العام في قصر الملك • اذ لما كان الملك ، في عهد الملوك رأس المجتمع ، فقد كان يقيم في ساحة قصره مذبحا للعبادة فصار هذا معبد المدينة أي معبد دولة المدينة • وعندما انقضى عهد الملوك (فيما



مشهد من منحوتات جميلة في هيكل الاله «زوس» في مدينة «برغاموم» من العهد الهلنستي يرينا معركة اسطورية بين الآلهة والعمالقة

بعد ٨٠٠ ق • م) واختفت مع الملوك قصورهم ، حافظ الناس على تلك المزارات وعلى تماثيلها المعدة للعبادة • وبنوا لهذا الغرض بيوتا خاصة بالمزارات ، فصارت هذه بيوتا خاصة للعبادة ، أي صارت معابد • وكانت التلول خارج أثينة ، ولا سيما المرتفع المعروف بالاكروبوليس ، مواضع سكنى الملوك المحصنة ، وعندما اختفى الملوك صار «الاكروبوليس» موضع الآلهة المقدس وشيدت عليه بيوت للعبادة كانت آية في النفاسة • وكان أشهر هذه المعابد «البارثينون» الذي كان عبارة عن معبد خاص بمدينة اثينة لعبادة الهة خاصة كانت حامية اثينة وهي «بارثينوس» أي «اثينة العذراء» (انظر الشكل في ص ٥٥٧ و ٥٦٢) ومثل معبد «الايريختيوم» (ص ٥٥٨) • وقد امتازت بعض معابد الاغريق الاخرى بكونها معابد وطنية عامة لجميع اليونان تقريبا • ومن بين هذه معبد «ابولو» في «دلفي» ومعابد أخرى في اقليم «الاولمبوس» • وقد ساعدت مثل هذه المعابد الوطنية العامة بعض الشيء على تقوية

وحدة الاغريق الوطنية الضعيفة ، فقدرأينا كيف ان الاغريق لم يتحدوا اتحاداسياسيا بل كانوا منقسمين على أنفسهم • وكان معبد (ابولو) فى دلفى كذلك موضع العرافة والكهانة فكانت الاجابة على الاسئلة الخاصة بالتنبؤ والعرافة تأتى على لسان كاهنة المعبد وقد حملتهم الرغبة فى التعرف على مصائرهم وكشف المستقبل على ان يلتجأوا الى طرق العرافة والكهانة كما كان الحال فى حضارات الشرق القديم •

واعتقد الاغريق بعالم آخر وبحياة أخرى يجازى فيها المسىء والصالح وكانوا يعتقدون بموضع للعذاب أو جهنم هى هادس (Hades) [١] ، وكما كانت هذه دارا للعقاب فقد اعتقدوا بدار للثواب موضعها فى «الجزر المباركة» • ولكن أهم ما يمتاز به الخلود عند اليونان ولا سيما المتنورين منهم انه خلود النفس وليس بعثا للجسم المادى بل انه أشبه ما يكون بالتصوف الروحى • وكان من بين الوسائل للوصول الى هذا الفردوس نوع من العبادة والرياضة السرية التى كانت تقام فى معبد فى «الوسيس» ، ونشأت من ذلك طبقة من الكهنة أو الدراويش المتجولين الذين كانوا يعلمون العامة أشياء غريبة • وقد دونت هذه الامور فى كتاب صار لدى أوساط الناس بمثابة الكتاب المقدس • ولكن انتشار التعاليم الفلسفية والعلوم التى بدأها الفلاسفة الايونيون فى ساحل آسية الصغرى الغربى ولا سيما «مليطس» وتأثير روايات الادباء المشهورين ولا سيما مسرحيات «ارستوفانيس» الكوميدية كل ذلك أدخل الشكوك والريب فى قلوب كثير من عامة الناس ، ومن باب أولى فى خاصة الناس من الطبقة المثقفة فتزعزعت العقائد الدينية ونبذت الاساطير والخرافات والمتناقضات المعزوة الى الآلهة • وسوف يتجلى لنا من بحثنا فى الفلسفة اليونانية أن الفلاسفة كانت لهم آراؤهم ومعتقداتهم الخاصة ، وهى تتصف بخلوها من خرافات العوام وأوهامهم • وسنجد بعضهم يقول بمبدأ التوحيد والحلول

---

(١) وهادس أيضا اله العالم الاسفل واخو الاله زوس ، ولليونان اسم آخر لاله العالم الاسفل هو «بلوتو» أو «بلوتون» (Pluto) الذى يضاهى الاله الرومانى ديس (Dis)

ويرفض بعضهم مبدأ التشبيه بالنسبة الى صفات الآلهة فى الديانة الاغريقية ، أى عزو صفات البشر المادية والروحيـة الى الآلهة • وعلى الرغم من خلو ديانة الاغريق من كتب مقدسة كما فى بعض الديانات الاخرى غير ان الملاحم الشعرية المنسوبة الى هوميروس كانت للاغريق كما نوهنا بذلك بمثابة تلك الكتب المقدسة ، اذ انها حوت أخبار الآلهة وعلاقاتها بعضها ببعض وتأثيرها فى شؤون البشر • هذا ولم يبق الاغريق فى حالة واحـدة من ناحية المعتقدات منـذ الازمـان القديمة ، فقد شرعوا منذ القرن السادس يفكرون فى حياتهم وفى عصرهم وفى سلوك الانسان والتميز بين الصحيح والفاسد ، بين الخير والشر • ولم يعد الناس يصدقون ان الآلهة قد عاشت تلك الحيـاة الشريرة التى تصورهـا الاغانى الهومرية • وأخذوا يصححون آراءهـم بالنسـبة الى الاله «زوس» وأتباعه من آلهة «الاولمبوس» ولا سيما بالنسبة الى ما يعزى اليهم من أعمال الشـر • وقد سببت آراء الفلاسـفة الايونيين تغيير كثير من العقائد بالنسبة الى الآلهة ، وهم الفلاسفة الذين سنراهم يبحثون فى هذا الكون وظواهره وفى الاشياء ويبحثون عن أسباب وعلل طبيعية لها • وقد استطاع بعض هؤلاء العلماء الفلاسفة ، وهو طاليس (القرن السادس ق • م) من التنبؤ بكسوف الشمس بالاستعانة بالاثبات البابلية التى جمعها الفلكيون البابليون عن حدوث الكسوف • وقد حصل من ذلك على شهرة عظيمة ونتج من ذلك نتائج بعيدة المدى فى نظر الناس الى المعتقدات الدينية • فكانوا يعتقدون أن حـوادث الكسوف وغيرها من ظواهر السـماء انما هى نتـائج لغضب الآلهة وتقلب أطوارها • ولكن طاليس أظهر ان حركات الاجرام السماوية تجرى وفق قوانين ثابتة •

وقبل أن ننهى البحث فى ديانة اليونان نذكر التأثيرات الدينية الخارجية التى أثرت فى حياة الاغريق الدينية • والواقع ان ميناء اثينة المسمى «بيروس» لم يقتصر على البضائع التجارية الصادرة والواردة بل انه وغيره من طرق الاتصال بالخارج كان واسطة لنقل التأثيرات الخـارجية الى عالم الاغريق ،

ومن بين ذلك التأثيرات الدينية • فقد دخل بتلك الواسطة بعض الآلهة الغريبة من الحضارات الاخرى • من بينهـا «الالهة الام» من اسية الصغرى بهيئة افروديت أو سيبله التى يرجع أصلهـا الى وادى الرافدين ، وجاءت الآلهة المصرية «ايسيس» كما ذكرنا من قبل ، وكذلك دخلت عبادة الاله المصرى «امون» • ومما يذكر فى ذلك ان الشاعر اليونانى الشهير «بندار» قد نظم قصيدة فى تمجيده وأقام له تمثالا • وصار امون الها للتنبؤ عن المستقبل وحاز عند الاغريق على شهرة عظيمة ضارعت شهرة «ابولو» اله دلفى وسنقف من الكلام على الفلسـفة اليونانية والادب اليونانى على التـأثيرات الداخلية التى غيرت وحورت من ديانة اليونان •

وانتشرت بين اليونان جملة عبادات تقوم على طقوس وشعائر سرية ، وكان بعضها على هيئة جماعات «أخوة» خاصة ، والغريب فى طقوس بعضها انها تتصف بالتهتك والانغماس وبعضها يذهب الى التطرف فى سلوك التقشف، فمن هذه الطقوس الغريبـة الاحتفـالات والطقوس التى كانت تقـام للاله «ديونيسوس» (Dionysus) ، وهو اله الـكروم والخمر ، واتصفت هـذه الاحتفالات بالتهتك فى الشرب حيث يتم الاتحاد مع هذا الاله ، وقد أخذ الرومان هذه الطقوس حيث عرفت بالعـبادة البـاخية نسـبة الى «باخوس» (Bacchus) وهو اسم ديونيسوس أيضا ولا سيما عند الرومان ، وأثرت هذه العبادة والاحتفالات فى فن التمثيل عند اليونان مما سنشير اليه فى كلامنا على «الدراما» اليونانية ، وعلى الضد من هذه الطقوس كانت العبادة الاورفية[١]

---

(١) (Orphism) ومنه اسم العبادة ، وارفيوس (Orpheus) كان بحسب الاساطير اليونانية مغنيا وموسيقيا من تراقية اشتهر بمهارته فى التوقيع وشجاوة صوته بحيث انه كان يحرك الصخور والاشجار ، حتى انه أطرب اله العالم الاسفل «بلوتو» لما ذهب الى هناك ليعيد زوجته الى الحياة فوافق الاله على ذلك بشرط الا يلتفت اورفيوس وراءه ولـكنه أخل بهذا الشرط فلم يفلح فى مهمته •

تلتزم سلوك الامتناع والزهد ، ولكن فيها شعائر سرية لتلقين التابعين لها وتعليمهم واعدادهم ، كما فيها طرق خاصة بالشعوذة لطر الشياطين وأعمال السحر حيث كان يبشر بها نوع من الدراويش انتحلوا هذه العبادة حيث الاعتقاد بوجود السعادة الابدية فى حالة التزام التعاليم الخاصة بها وكذلك وجود العذاب الدائم والتناسخ وانتقال الارواح • واشتهر الفيثاغوريون بالزهد والتقشف ولعلهم كانوا يعتقدون بالتناسخ حتى انهم التزموا الاغذية النباتية وامتنعوا عن أكل لحوم الحيوانات لان ذلك عندهم بمثابة أكل لحوم الانسان•

٢ ـ الفنون الجميلة (العمارة ـ النحت ـ النقش ـ الموسيقى)

يظهر الفن حالما ينشأ عند الاقوام البدائية قوى عقلية نشيطة وحس بالجمال وميل الى التهذيب والذوق الانيق ، فتصير هذه الملكات عندهم وسيلة للتعبير • ومما لا شك فيه ان الاغريق تعلموا من الفنانين والصناع الايجيين • ولكن لم ينشأ عند الاغريق حافز التعبير عن أنفسهم بالفنون الا بعد أن اتصلوا مع الفن المصرى والفن البابلى ، ولم يبدؤا بالانتاج الفنى الا فى حدود ٦٠٠ ق• م حيث دخلوا منذ ذلك التأريخ فى طور الخلق والابداع الفنيين اللذين ما زالا مصدر الهام للبشر حتى يومنا هذا •

لقد جرت العادة على تقسيم الفن الى صنفين : الفنون الرئيسية(١) وتدعى الفنون الجميلة وهى العمارة والنحت والنقش والموسيقى والفنون الصغرى أو الفرعية(٢) كالصناعات الفنية مثل الفخار والحياكة وصناعة المعادن وغيرها من الفنون أو الصناعات الاخرى • ولكن هذا تصنيف اصطلاحى لانه بوسعنا أن نحس بنفس الحاسة الفنية والذوق الفنى بنتاج كلا الصنفين •

---

(١) Major or Fine Arts (٢) Minor Arts

فقد خلف الاغريق لنا نماذج جميلة من أوانى الفخار المنقوشة ومن أدوات البرونز وقطع النقود والاحجار الكريمة المصنوعة وغير ذلك مما نستطيع أن نستشف فيها نفس الابداع والذوق اللذين نحســـهما فى الفنون الجميلة أو الفنون الرئيسية بحسب التقسيم الذى أوردناه • ولكن مع ذلك تتطلب الفنون الرئيسية مدارك عقلية أوسع وخيالا أكثر وتحتاج كذلك الى مهارة فنية مما جعل النقاد يفردون الفنون الرئيسية بكونها المعيــار الصحيح لمعرفة الذوق اليونانى والنبوغ اليونانى •

أ ـ الموســيقى والنقش

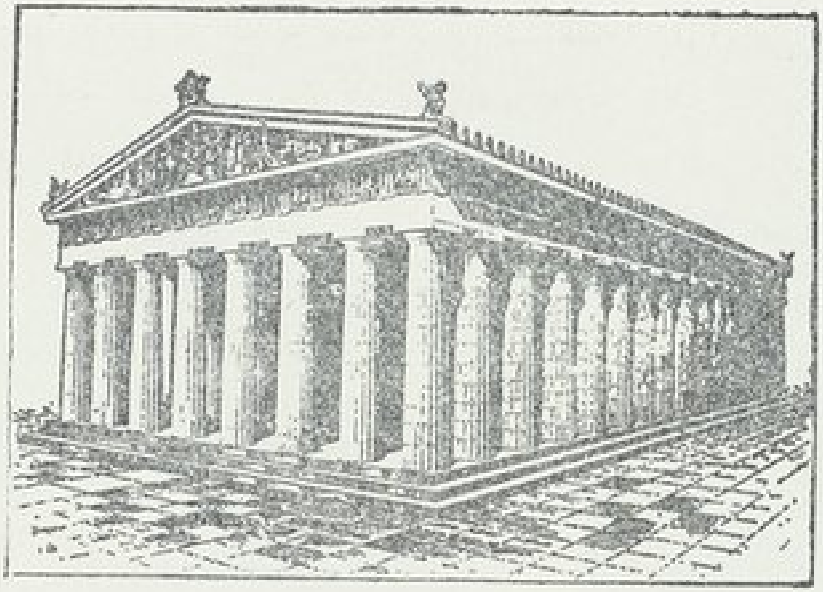
أما ما يخص الموسيقى والنقش من هــذه الفنون الجميلة فليس لدينا لمعرفتها الا الحزر والتخمين تقريبا ، ذلك لان الاغريق لم يخلفوا لنا شيئا من بدائعهم فى هذين الفنين • ويهون الامر قليلا فى أمر النقش اذ بوسعنا أن نعرف بعض الشيء عنه من نقوش الاوانى الفخارية ومن نماذج وأمثلة قليلة من العهد «الهلنستى»[١] وكذلك من نسخ رومانية • فالفخارون الذين عاشوا فى أحسن العهود (فيما قبل ٥٠٠ عام ق • م وما بعد ذلك) كانوا كذلك نقاشين فنانين من الطراز الممتاز • وتبرهن أوانى الفخار الجميلة التى خلفوها لنا على اتقان ومهارة عظيمين فى الرسم وفى الالوان ويتجلى فيها شعور راق بالزخرفة مما أضفى عليها سحرا خالدا •

ب ـ العمــارة والنحت :ـ

ومما يؤسف له أن المآثر الاصلية التى جاءتنا عن فن العمارة والنحت جزء ضئيل من الانتاج الاصلى • فقد اندرس معظم المعابد والقليل الباقى منها كان فى وضع متداع مائل الى البلى • وليس لدينا من فن النحت اليونانى الاصلى الا نسخ من العهود الرومانية باستثناء نماذج أصلية قليلة جاءتنا مثلا من أجزاء

---

(١) راجع البحث عن الحضارة الهلنستية •



اعادة بناء معبد البارثينون فى اثينة كما كان عليه فى الاصل فى القرن الخامس ق . م حيث اشاده بريقليس الشهير على يد المعمار «ايكتينوس» والنحات الشهير «فيدياس»

من البارثينون و «الايجينا» و «الاولومبيا» ومثل تمثال هرمز (انظر الشكل فى ص ٥٦٦) .

ومما يقال عن العمارة عند الاغريق ، ان الاغريق لم يكونوا بنائين من بناة الابنية التذكارية الضخمة كما فى حضارة مصر وحضارة العراق القديم. لقد كانت أثينة حتى فى ابان أدوار ازدهارها مدينة من الطراز المتوسط فى الابنية . وكانت بيوتها ذات طابق واحد مبنية من اللبن وشوارعها ضيقة متعرجة قذرة ، ولكن مهارة اليونان فى فن العمارة خصصت للمعابد والمبانى العامة، وكانت تشيد فى زمن الملوك من الخشب ولكن بنيت بالرخام والحجارة فيما بعد ، ويمتاز المعبد اليونانى بروعته وبساطة تخطيطه وبصفوف عمده الجميلة ، والاعمدة من خصائص العمارة الاغريقية التى لم تعرف العقادة والقوس ،



التمثال الشهير الذي يمثل الاله هرمز (Hermes) يلاعب الاله الطفل «ديونيسوس» • لقد كسرت الذراع اليمنى • يعد هذا النحت قطعة خالدة في فن النحت اليوناني مما جاءنا من القطع القلائل الاصلية
(من صنع النحات المشهور براكستيليز ، القرن الرابع ق.م)

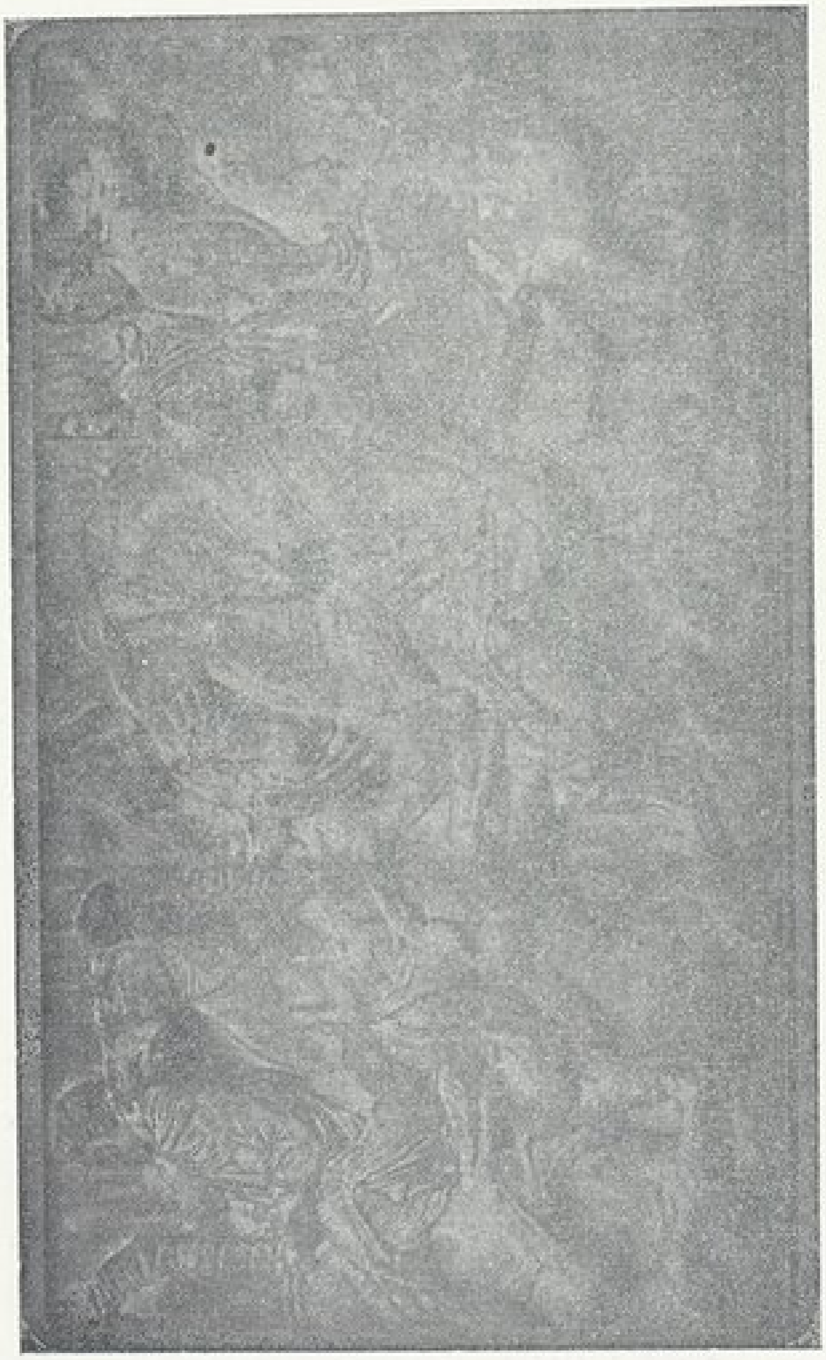
وزينت المعابد بآيات من فن النحت ، وبوسعنا ان نقتفي بداية النحت من بداية القرن السابع ق.م وبلغ ذروته ونضجه بعد أقل من ثلاثة قرون في منحوتات (البارثينون) • ويمتاز النحت عند الاغريق انه لم يقف على حال جامدة واحدة وانما كان في اندفاع مستمر ، ونستطيع أن نتبين ذلك جليا من زمن النحات

العظيم (فيدياس) الذى أشرف على بناء البارثينون (فى حدود ٤٣٠ ق٠ م) (انظر ش ص ٥٦٥) ونحاتى القرن التالى مثل «براكستيلز» (انظر ش ص ٥٦٦) و « سكوباس » ثم نحاتى القرن الثالث ، اذ نلمس حركة مستمرة عند النحاتين تتصف بالانسانية الواسعة وبالاقتصاد العظيم فى العمل ولكننا نشاهد كذلك ان الاخلاص فى التعبير الذى اتصف به النحاتون الاقدمون قد حلت محله المهارة اليدوية • واذا كان ليس فى الوسع الدخول فى تفاصيل أخرى عن الفن اليونانى فنكتفى بما ذكرناه ونضيف اليها ملاحظات أخرى نذكر فيها أبرز خصائص ذلك الفن وميزاته •

لقد ساق بعض الباحثين ثمانى ميزات أساسية فى النفس اليونانى[١] هى :ـ (١) الروح الانسانية (Humanisim) (٢) البساطة (Simplicity) (٣) التناظر والتناسق والانسجام (Balance & measure) (٤) الواقعية أو التمثيل الطبيعى (Naturalism) (٥) نشدان المثل الاعلى (Idealism) (٦) الصبر (Patience) (٧) المتعة (Joy) (٨) الشركة (Fellowship) •

ونعنى بالميزة الاولى ان الفن اليونانى كان أول فن فى التأريخ اهتم بتمثيل الانسان ورفعه الى مستوى عال ، ويتضح الاهتمام بالانسان والانسانية فى الفلسفة التى أعقبت الفلاسفة الطبيعيين ولا سيما منذ سقراط ، فصار الانسان «مقياس جميع الاشياء» ، ومثلوا الآلهة بأجمل أشكال الجسم الانسانى وتفننوا فى ابراز أسمى ما فى الجسم البشرى من جمال ليبلغوا بالانسان مستوى صور الآلهة ، وهذا ما تهدف اليه الميزة الخامسة أى نشدان المثل الاعلى فى الفن ولا سيما فى تمثيل جمال الجسم البشرى • أما الميزة الثانية ، أى البساطة ، فانها لا تعنى السذاجة وانما هى من قبيل السهل الممتنع فى قوة التعبير ووضوحه ومفهوميته ، مما يميز كبار الفنانين والادباء والشعراء ، وتعنى أيضا خلو الفن اليونانى مما يسمى بالرمزية أو الانطباعية ، وأكثر ما يتجلى ذلك فى فن النحت • وتتجلى الصفة الثالثة فى وجود مبدأ التناسب والانسجام والايقاع والتناظر • ولعل الاغريق كانوا

(١) The Legacy of Greece, P. 353 ff.



جزء من الافريز الذى نحته النحات الشهير «فيدياس» (القرن الخامس ق٠م)٠
يمثل النحت شبانا يركبون الجياد فى موكب خاص بأحد الاعياد الاثينية

أعظم شعوب العالم القديم فى درسهم الطبيعة وشكل الجسم الانسانى وتشريحه • وعلى الرغم من نزوع النحات اليونانى الى بلوغ المثالية فى تمثيل الجسم الانسانى الا انه تميز بنجاحه فى تمثيل الاشخاص والافراد مما يصح تمييزه بالفردية (Individuality). وهذا ما تعنيه الميزة الرابعة أى التمثيل الطبيعى •

هذا وقد سبق أن نوهنا بالميزة الخامسة وهى المثالية بنشدان الجمال فى تمثيل الجسم الانسانى ، وقد فاق الاغريق فى تمثيل الجسم البشرى جميع الشعوب الاخرى • وبامكاننا أن نميز تأريخ الفن اليونانى بانه كان فى البحث عن الجمال ، فأدركوا ان الطبيعة لم تنجح النجاح الكلى فى انتاج الجمال الفردى ، بل هى دون المثل الاعلى ، ولذلك فيلزم على الفنان أن يتعاون مع الروح الخالقة فى تحسين ما أنتجته الطبيعة باكمال نواقص انتاجها • وتتجلى هذه الروح حتى فى ألعابهم الرياضية ، فلم ينظروا الى الرياضى على ضوء قابليته على القفز والنط والعدوى بل من ناحية رشاقة قوامه وشكل جسمه (form) ، حتى ان جميع تمارينهم الرياضية كانت تجرى على أنغام الناى • وقبل أن نترك الكلام على هذه الميزة ننوه بأمر مهم فى تقدير الفنانين الاغريق لجمال الجسم البشرى ، فقد كان نشدان الجمال مركزا على جسم الذكر أكثر من جسم الانثى ، بل ان تمثيل الجسم الانثوى قد تأخر فى الفن اليونانى بعد عهود تمثيل أجسام الذكور ، ومع ظهور هذا التمثيل فان الفنانين الايونيين والاتيكيين لم يجرؤا على تمثيل جسم الانثى عاريا بعكس أجسام الرجال • ولكن الفنانين فى العهود الاخرى مثل «سكوباس» (Scopas) و «براكسيتيلز» مثلا آلهة الحب على هيئة امرأة عارية • وقد صارت تماثيل الالهة افروديت من القرن الرابع ق • م مثالا لجمال جسم الانثى عند مختلف المدارس الفنية الى الازمان الحديثة ، ويوجد تمثال للالهة ارطميس هو مثل أعلى آخر على جمال جسم المرأة •

والطريف ذكره بهذا الصدد ان أحد الفنانين كلف بصنع تمثال لاحدى الالهات فجمع هذا أجمل عشر فتيات ودرسهن فركب من صور الجمال التى

كونها فى ذهنه صورة مثالية لما ينبغى أن يكون عليه المثل الاعلى للجمال •

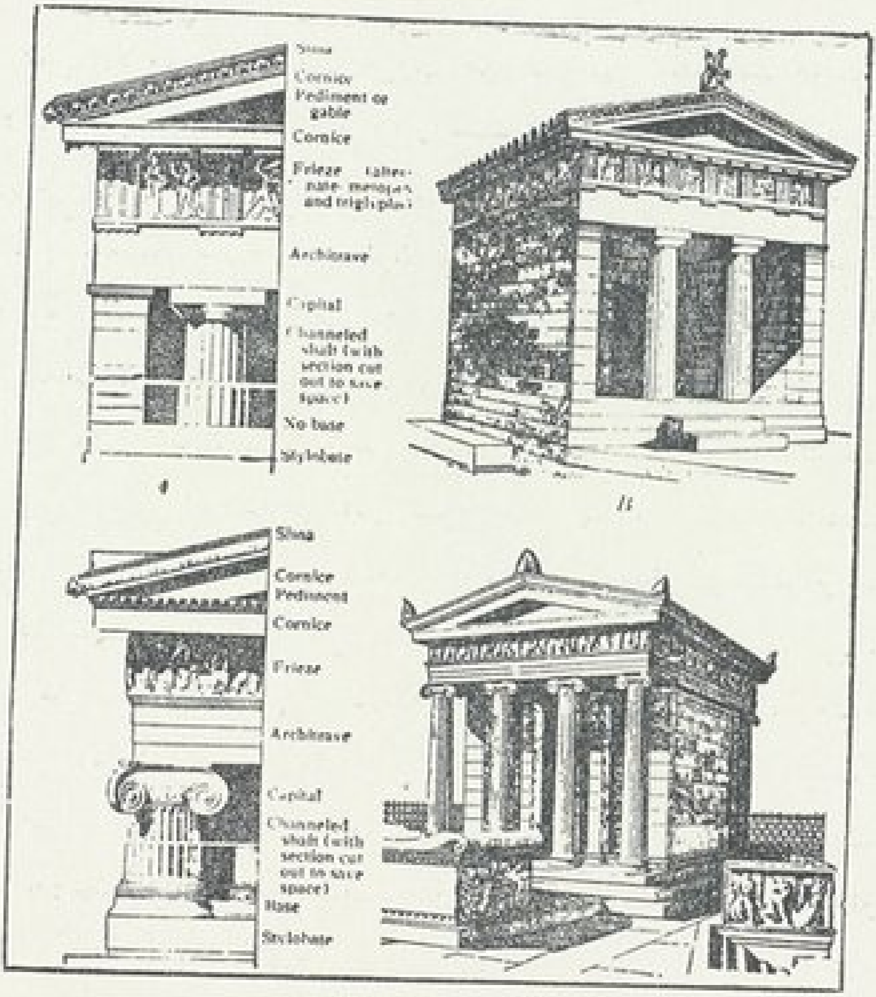
ولا حاجة بنا الى اسهاب القول فى الميزات الاخرى كالصبر ، فقد كان الفنان الاغريقى فنانا ينتج للمتعة وليس للتجارة فلم يبال بصرف الوقت ، ويروى عن أحد فنانى الاغريق انه صرف سبع سنين فى انجاز شكل واحد ، والمرجح انه لم يكن ليضجر من صرف أعوام أخرى لو رأى فى ذلك مما يزيد فى كمال تمثيله • وتتصل بهذه الميزة الميزة السابعة وهى الفن من أجل المتعة واشباع الحس الفنى حيث اللذة والحبور فى الانتاج الفنى ، اذ كان الفنان يستمتع بنتاج المتعة واللذة ، وليس أدل على ذلك من صرف الجمهور أوقاته فى مشاهدة الروايات التمثيلية من الصباح الى المساء •

ونعنى بالميزة الثامنة ، أى روح التعاون والشركة ، ما كان يتحلى به الفنانون من التعاون فى الانتاج الفنى ويتضح ذلك فى تجميل المعابد وتزيينها بالمنحوتات مما كان يشترك به عدة فنانين •

٣ ـ الادب اليونانى

أ ـ الاشعار الهومرية :ـ

خلت قصة انتصار الاغريق على طروادة فى ذاكرة خيال المنتصرين وفى أفكارهم زمنا طويلا • فانشأ شعراؤهم الاغانى الشعرية لتخليد أعمال أبطالهم ، فكانت هذه تنشد فى قاعات الملوك والنبلاء وانتشرت هذه الاغانى من بلاد الاغريق الى المواطن الايونية فى سواحل آسية الصغرى • وكانت الكتابة أى التدوين غير معروفة عند الاغريق ، ولكن توارث الناس تلك الاشعار جيلا عن جيل بالرواية • وكان كل جيل يضيف اليها عناصر وأشياء جديدة وحدث فى الاغانى الاصلية حذف وتغيير فتحورت الحقائق والوقائع الاصلية ولم يحتفظ الناس الا بالاشياء المثيرة للشعور المغذية للعواطف وللحاجات النفسية ، فاكتسبت هذه القصص مظاهر خارقة للعادة وفوق أعمال البشر • أى انها دخلت فيها أعمال الآلهة والقوى فوق الطبيعة • وكانت الآلهة فى تصور الاغريق كوائن فوق البشر أو انهم بشر سامون (سبرمان) ،



الطرازان الرئيسان فى فن العمارة الاغريقى وهما الطراز الدورى (A,B)
والطراز الايونى (الى الاسفل)

فأخذت الآلهة تطغى شيئا فشيئا على قصص الابطال والملاحم وهكذا نشأت مجموعات من أشعار الملاحم ما بين ١٠٠٠ و ٧٠٠ ق • م تدور على تأريخ اليونان القديم وعلى علاقة الآلهة بشؤون البشر وتأثيرها فيها • وكان أشهر جزء من هذا التأريخ «حرب طروادة» التى جاءنا عنها نموذجان كاملان من تلك الملاحم الشعرية • ولكن ينبغى لنا الا نغفل شأن الملاحم الاخرى مثل القصص المتعلقة بمدينة طيبة وهى القصص التى اخذت الروايات المسرحية منها اشياء كثيرة واشتق منها كثير من الآداب الرومانية •

فمن الملاحم المشتقة من حروب طروادة التي المحنا اليها مجموعتان من الاشعار عرفتا «بالاليــاذة» و «الاوديســة» وهما اللتان تعزيان عادة الى هوميروس • ولكن الواقع اننا لا نعرف شيئا مؤكدا عن هوميروس حتى ان وجوده وشخصيته التأريخية مشكوك فيهما بيد ان اسم هوميروس معروف بكونه من المغنين المشهورين في عهد الابطال والملاحم فقرن هــذا الاسم بهاتين المجموعتين وظل كذلك عندما دونتا • ومما يقال عن الالياذة والاوديسة انهما خير مثالين جاءانا من الملاحم والاشعار الشعبية التي تعكس لنا عادات الاغريق وروحهم الوطنية في ابان نشوء حضارتهم على انقاض الحضــارة الايجية • ثم انهما لم ينفرد في نظمهما وتأليفهما شخص أو شاعر واحد ، وانما هما مجموعات من الاغاني الشعبية القومية ، ولكنهما جمعتا من تلك المصادر على نحو ما تجد في مجموعة القصص المعروفة بألف ليلة وليلة • ويصح على ذلك أن نقول ان مؤلفي هذه الاشعار هم الشعراء المغنون وجماهير الناس فقد ســاهم الشعراء بالنظم والجماهير بالاستماع اليها واستحســانها وطبعها بذوقهم وميولهم ولكن فيهــا علاوة على ذلك افكار اليونان وآراؤهم عن الآلهة وقد عدها الاغريق الذين عاشوا فيما بين ٧٠٠ ـ ٤٠٠ ق٠م سجلا مهما عما كان يعتقده اجدادهم وكذلك بالنسبة الى عقائدهم ايضا ، فكانت لهم بمثابة الكتابات الدينية عنـد اليهود ، الا ان ســر القوة في تلك الاشعار لم يأت من وحي الهي جاء الى انبياء كانبياء كتب اليهود الدينية وانما تكمن قوة تلك الملاحم في سحر شعرها وخيالها وفي ادبها الرفيع الذي اسر الباب الاغريق وتمكن من مشاعرهم • والى ذلك كانت الاشعار الهومرية تراثا عاما لجميع الاغريق فصارت بذلك من العوامل المهمة في التخفيف من روح الانقسام التي طغت عليهم وحالت دون وحدتهم السياسية •

ب ـ الاشــعار الغنــائية :ـ

كان الشعر لدى الاغريق يختلف عما هو عليه في الاشعار الأوربية الحاضرة التي هي نتائج ادبي لغرض القراءة • ولكن الشعر عند الاغريق

كان نوعا من الموسيقى لانه كان يغنى به على الدوام سواء اكان بصوت انسان على توقيع القيثار[١] أم جماعة من المغنين ينشدونه فى الاعياد المختلفة الخاصة بالآلهة ، ويكون النوع الثانى بمثابة العبادات الدينية عند الاغريق وقد مهد السبيل لظهور فن الرواية التراجيدية عندهم كما سيتضح لنا ذلك فيما بعد •

وقد اشتهر من شعراء الشعر الغنائى جماعات نشأ اكثرهم فى جزر بحر ايجه وليس فى بلاد اليونان الخاصـــة ومنهم «أليكوس» من جزيرة «ليسبوس» (فى حدود ٦٠٠ ق٠م) ، وقد نظم ببحر خاص من الشعر اشتهر باسمه[٢] وقد قلده ونظم فيه الشاعر الرومانى «هوراس» • ونظم «الكيوس» فى مواضيع مختلفة فى الحب والحرب والاسفار • وكانت تعاصره الشاعرة المشهورة «ســافو» (فى حدود ٦٠٠ ق٠م) التى رفضت حبه وهيامه بها • وكانت هذه الشاعرة كذلك من جزيرة «ليسبوس» وعدت اعظم شـاعرة ، واشتهرت اشعارها فى العهد «الهلنستى» والرومانى ونظمت فى بحر خاص اخترعته ودعى باسمها[٣] وقد قلده كذلك بعض شعراء الرومان وقد طغى موضوع الحب على اشعارها • وكان الحب عند الاغريق بوجه عام يختلف عن مفهومه فى وقتنا هذا ، فلم يكن ليعنى عندهم حب رجل لامرأة بل كان عندهم نوعا من الصداقة المتسامية أو عاطفة شديدة يحملها بشر لبشر آخر ، وكان كذلك نشدان الجمال فى الجسد والروح أما الجمـال فلا ينحصر عندهم بجنس المذكر أو المؤنث بل انه صفة انسانية كثيرا ما يجده الرجال بين الرجال والنســاء بين النساء • وعلى ضوء ذلك ينبغى أن نفهم اشـــعار «سافو» وغيرها • وامتازت اشعار هذه الشاعرة بحرارة العاطفـــة المتأججة وبالصراحة والعنف فى التعبير ثم بالبساطة •

اشتهر فى الشعر اليونانى نوع خصص للتغنى والاشادة بالرياضيين

---

(١) اى (Lyre) ومن ذلك (Lyric Poetry) وهو الشعر الغنائى •

(٢) (Alcaics)

(٣) Sapphic Stanza.

المنتصرين فى الألعاب الرياضية المشهورة ولا سيما الالعاب الاولمبية و «الفيثية»[١] وكان لهذه الالعاب صفة دينية حيث كانت جزءا من الاعياد الدينية • فالالعاب الاولمبية مثلا خصصت لتمجيد الاله (زوس) و (الفيثية) خاصة بالاله (ابولو) • وقد نظم كثير من شعراء اليونان الاغانى لتمجيد المنتصرين فمن هؤلاء الشعراء الشاعر المشهور (بندار) (Pindar) الطيبى (٥٢٠ ـ ٤٤٠ ق• م) الذى اشتهر كذلك بتغنيه بالجمال واودع اشعاره تلاحين وايقاعات لذيذة وموسيقى خاصة جعلته من اصعب الاشعار عند ترجمته الى لغة اخرى • وقد قلد (بندار) شعراء كثيرون واستوحى منه شعراء فرنسة فى القرن السادس عشر • ومن الاشعار الاغريقية كذلك اشعار الروايات التراجيدية التى سنأخذ عنها بعض الشىء •

ج ـ التراجيدى (المأساة) :ـ

منشأ الرواية التراجيدية[٢] عند الاغريق من الاشعار الغنائية التى كان ينشدها جماعة من المغنين (Chorus) مصحوبة بالرقص والايقاع وعندما ادخل شخص قصاص وظيفته توضيح القصة الشعرية واضافة شخص ثان الى القصاص نشأ ما يعرف بالمحادثة الثنائية(Dialogue) ونشأ فن الرواية التراجيدية • وكانت تلك الاغانى تغنى فى مناسبات دينية اشهرها اعياد خاصة بالآلهة مثل عيد الاله (ديونيسوس) ابن الاله (زوس) واله الخمر الذى يقابله عند الرومان الاله (باخوس) • وبوسعنا ان نحلل التراجيدى الاغريقية الى ثلاثة امور مهمة :ـ

فاولا كانت احتفالا دينيا • وثانيا كان هـذا الاحتفال عاما أى خاصا

---

(١) Pythian

(٢) كلمة تراجيدى (Tragedy) اغريقية ولا يعلم بوجه التاكيد أصل اشتقاقها ويظن انها مركبة من الكلمتين الاغريقيتين (Tragos) أى عنزة و (Ode) أى اغنية ، ولعل ذلك ناشىء من لبس الممثلين جلد العنزة فى أثناء الرواية لتمثيل الاله «ساتر» (Satyr) الذى تمثل أجزاء من جسمه بهيئة العنزة •

بالمجتمع • وثالثا كانت احتفالا موسيقيا وبذلك يدخل فيها الدين والدولة والفن فبوصفها احتفالا دينيا كانت محدودة من جهة الموضوع وطريقة التمثيل فكان يتطلب منها ان تروى عن ابطال الاساطير وتشيد بالآلهة وقوتها وحولها ويجب كذلك ان يدخل فيها عنصر مهم هو رقص المغنين وهو الرقص المستمد من عيد الاله «ديونيسوس» • والحقيقة ان هذه القيود كانت لفائدة المؤلف اذ يكون بها على بينة من ذوق مستمعيه وتجعل موضوعه ذا وحدة معلومة واتجاه معلوم • وافادت صفة التراجيدى الثانية كذلك فى ترقية هذا الفن ، اذ بمشاركة المجتمع فيها دخل فيها عنصر التنافس بين المؤلفين ، فكانت الروايات تقام مثلا فى كل ربيع وكان يجرى فيها نوع من الاختيار بتصويت الجمهور ومنح الجائزة لمن يحوز على رضا الجمهور • وكانت تمنح جائزة اخرى لجماعة المغنين ، ويشترك فى هذه المناسبات مئات من الجمهور وتكون التراجيدى وكذلك الكوميدى على ذلك بمثابة ناد للتمثيل اهتم بترقيته وليس فى الانتاج التجارى • فكانت الروايات تهدف الى المثل العليا للجمهور • فاذا اراد مؤلف ان تنجح روايته فيجب عليه أن يودعها هذه المثل ويمثل فيها رغبات الشعب وعقائدهم وحاجاتهم وآمالهم • أما الناحية الموسيقية فيها فقد جعلتها اشبه ما تكون «بالاوبرا» ولنقل انها مثل «الاوبرا» المعروفة باسم «برسيفال» (Parsifal) لمؤلفها «واجنر» الشهير حيث تشترك فيها الموسيقى والكلام والغناء والتمثيل •

ولنأخذ الآن اشهر شعراء التراجيدى عند اليونان :ـ

ايسكيلوس :(١) (٥٢٥ ـ ٤٥٥ ق • م)

وكان هذا هو الذى ادخل ممثلا ثانيا[٢] بالاضافة الى الممثل الاول[٣] (أى الذى سميناه بالقصاص) • وامتازت رواياته القديمة بقلة التمثيل وكثرة غناء المغنين ، ولكن حقق فى رواياته الاخرى التالية التناسب

---

(١) (Aeschylus) (٢) (Deuteragonist) (٣) (Protagonist)
(انظر Will Durant, **The Life of Greece,** 383 ff.

بين التمثيل والغناء[١] • ومما يقال فى «ايسكيلوس» انه مثل الشاعر «بندار» يمثل العهد القديم ، فانه يمتاز بمزاج دينى فهو طالما «فسر الشقاء والبؤس بانها نتيجة للذنوب والآثام» •

سوفوكلس : (Sophocles) (٤٩٦ ــ ٤٠٦ ق • م)

وقد خلف (ايسكيلوس) ويمتاز عليه بتقدم فنه التمثيلى ، وقد اضاف الى رواياته ممثلا ثالثا فزاد عامل التمثيل وامتاز فى احباك مواضيع رواياته فزادت قابليته «الدراماتيكية» • ولكن يكمن سر عبقريته ومجده الفنى بتفسيره عاطفة الانسان وميوله على ضوء الخبرة البشرية الواسعة العامة • وهذه فى الحقيقة اعظم ميزات الادب الكلاسيكى • فلم يعن هذا الشاعر وغيره بفرد خاص من الناس وفى حال معينة خاصة من الحياة البشرية ولكن بالانسان مطلقا ، أى البشر جميعا وفى احوال عامة تحدث لجميع الناس والبشر • فمواضيع «سوفوكلس» مثلا مواضيع المأساة العامة الخالدة التى تحدث فى هذه الحياة لبطل الرواية لضعف او نقص فيه ، وهو شخص نبيل كريم لولا هذه النقائص فى شخصيته ، ولكن يكمن وراء كل ذلك سر القدر ولغزه • ويشبه هذا الشاعر سلفه «ايسكيلوس» فى نزعته الدينية ، فكان دأبه وديدنه تبرير اعمال الآلهة بالنسبة للانسان • وعلى ذلك فتكون اغراض رواياته اخلاقية بالدرجة الاولى ترمى الى اظهار قيمة الصلاح والعدل والفضيلة وهذه أمور كانت لدى الاثينيين مرادفة للجمال كذلك أو انها لا تتضارب مع الجمال وبذلك حقق «سوفوكلس» فى رواياته دمج الفضيلة بالجمال • وقد احبه الاثينيون حتى انه نال الجائزة الاولى والثانية ثمانى عشرة مرة وقد غلب الشاعر «ايسكيلوس» وهو فى سن الثامنة والعشرين •

---

(١) ونجد ذلك جليا فى روايته المشهورة (Prometheus Boud) وروايته اغا ممنون (Agamemnon) • والمشهور انه ألف سبعين دراما (ويروى تسعين) ، لم يأت الينا منها سوى سبع روايات •



تمثال نصفي للروائي اليوناني «يوريبيدز» (وقد كتب اسمه بالحروف اليونانية في أسفل التمثال)

ومن رواياته المشهورة عدا ما ذكرنا «الملك اوديبوس»[١] (أوديب) ٠

يوريبيدز (Euripides) (٤٨٠ ـ ٤٠٦ ق ٠ م)

وكان هذا معاصرا للشاعر سوفوكلس ٠ وهو اول من عبر عن التيارات الجديدة والاتجاهات الحديثة في حياة الاثينيين التي كانت تتجه بالدرجة الاولى الى المذهب الواقعي والعقلي[٢] فلم يحض بالشهرة الشعبية كما كان عليه الشعراء الاقدمون ، فكان اقرب الى الحياة العصرية الحديثة من اسلافه الذين خالفهم بان عني بتمثيل عواطف اشخاص حقيقيين ، وانزل ابطال رواياته الى منزلة الناس الحقيقيين الذين كانوا في زمنه حتى وجد اوساط الناس وجمهورهم محلا لهم في رواياته ولا سيما في وصفه النساء وتحليلهن ،

---

(١) (Oedipus Rex) و (Oedipus Tyranus) وتدور هذه الرواية على الاسطورة الاغريقية في قتل اوديب أباه وتزوجه بأمه وقد اشتقت من اسم «اوديب» العقدة النفسية عند أصحاب التحليل النفسي في علم النفس ٠ والمأثور عن سوفوكلس انه كتب ١١٣ رواية لم يأتنا منها سوى سبع روايات ٠

(٢) (Realism) و (Rationalism)

وقد اظهر في هذه الناحية مقدرة في معرفة النفس البشرية • واذ كان ايسكيلوس وسوفوكلس ذوا نزعة دينية وعقيدة راسخة بالآلهة كما يظهر ذلك في اظهار أقدارهم المقدسة في حياة الناس ، فقد كان عقل يوربيدز وقلبه قد تملكتهما الشكوك والريب • فلم ير الحياة كما رآها سلفاه بسيطة مطردة مفهومة • وقد أثار الفلاسفة ولا سيما السفسطائيون منهم الشكوك بين الناس وكانت المسائل التي أثاروها تتطلب حلولا عقلية مستمدة من تجارب الانسان وحياته ومعارفه وليس من قضاء الآلهة وقدرها • ولذلك امتازت روايات يوربيدز بتعقيدها في تحليل الحوادث وبتعدد نواحيها وأوجهها مما جعلها عصرية حديثة • ومن موضوعاته المحببة له الصراع المحتدم في داخل الفرد ، صراع الحب والعاطفة ، وصراع الحب والاخلاص والحب والواجب وكان بمثابة فولتير في عصر التنوير الاغريقي ، وتأثر بتعاليم السفسطائيين واشتهر بادخاله الى فن المرسح ما يعرف باسم «الاله من الماكنة» (deus ex machina) أي ادخال شخصية تمثل الاله لحل بعض حوادث الرواية وليضفي التدين والاعتقاد بالآلهة في رواياته ، مغطيا بذلك على سخريته وازدرائه بمعتقدات القوم بالآلهة • وقد استطاع سقراط أن يجد حلولا لشكوكه قبل أن يوافيه الاجل[١] •

د ـ الكوميدي :

منشأ الكوميدي الاغريقية مثل «التراجيدي» من الاعياد الدينية ولا سيما الشعائر الدينية المصحوبة بالرقص والتمثيل الخاصة بالاله «ديونيسوس» • ولكنها نشأت بعد التراجيدي ، ولذلك فبالرغم من أخذها شيئا كثيرا من طرق التمثيل القديمة فانها فقدت جميع العناصر الدينية فيها وصارت روايات انتقادية هزلية للتسلية والمتعة • وقد اعتاد المؤرخون على تقسيم تأريخ الكوميدي الاغريقية الى ثلاثة عهود : الكوميدي القديمة (الى ٤٠٠ ق • م) • والكوميدي

---

(١) تنسب المآثر الى يوربيبدز انه الف (٧٥) رواية لم يأت الينا منها سوى (١٨) رواية • (انظر .Will Durant, **Op. Cit.**, 401 ff)

الوسيطة (٤٠٠ – ٣٣٦ ق ٠ م) والكوميدى الحديثة (٣٣٦ – ٢٥٠ ق ٠ م) ولعل أبرز ما تمتاز به الكوميدى القديمة سلاطة سخريتها وبذاءتها وابتذالها واسفافها الى هزل الغوغاء ، وكانت تتسم بطابع أعياد السكر والعربدة التى نشأت منها وقد وجهت السخرية والانتقاد الى شخصيات معروفة ومشهورة لدى الجماهير ولكنها اتسعت أغراضها الانتقادية فشملت جميع الآراء السياسية والفلسفية فى زمنها ومن ناحية الفن آل تطورها الى تمثيلية موسيقية، وكان من مشاهير عهد الكوميدى القديمة «ارستوفانيس» (٤٤٥ – ٣٨٨ ق٠م) الذى جاءنا من رواياته الاربعين احدى عشرة رواية ، وتدور رواياته على الانتقاد الهزلى والسخرية ، ولكنها لا تنتهى بهذا الغرض وانما كان يحملها من الصناعة اللغوية الشيء الكثير ولم يكن لهزله وسخريته حدود تقف عندها حتى انه طالما نعت بالكاتب البذيء ، ولكن تتوقف هذه الصفة فى الواقع على أذواق أهل الجيل ومشاربهم التى تتغير من عهد الى عهد ٠ وفى رواياته ميزات أخرى خاصة ظاهرة أهمها النقد اللاذع القوى المنصب على الناس وعلى العادات ويظهر ذلك جليا فى سخريته من الاوضاع السياسية فى دولة اثينة فى عهده فى أثناء الحروب البيلوبونيسية حتى انه جعل السلم يحل فى احدى رواياته بنتيجة اضراب النساء عن أزواجهن وامتناعهن عنهم وقد كانت رواياته الاخيرة انتقالا الى الكوميدى من العهد المتوسط حيث حدثت فى هذا الفن تغييرات أبرزها التقليل من أدوار المغنين ولعل ذلك قد نشأ بنتيجة اندحار اثينة فى حربها مع اسبارطة (٤٠٤ ق ٠ م) وحذف الانتقاد الشخصى وقد حدث ذلك بقانون حرم السخرية من أشخاص معينين ، ثم انتظام الموضوع ووحدته ، ومما يؤسف له أنه لم يخلف لنا شعراء الاغريق نماذج من رواياتهم الكوميدية فى هذا العهد وكذلك الحال فى الكوميدى الحديثة ويمثل روعة الكوميدى الحديثة الشاعر «ميناندر»[١] (٣٤٢ – ٢٩١ ق ٠ م) ولكن سبيلنا للتعرف على رواياته من تقليد شعراء الرومان لها ومن أجزاء أصلية اكتشفت حديثا ٠ ولعل أول شيء نلاحظه الذوق الرفيع والاناقة ودقة الملاحظة فى فهم أوضاع المجتمع

(١) (Menander)

وفهم الطبيعة البشرية مع العطف عليها واحتذت على مثاله اوربة فى عهد النهضة أولا فى ايطالية ثم فى فرنسة (كما فى روايات موليير) وبالتالى فى اوربة جميعها وفى امريكة كذلك •

العلم والفلسفة والتاريخ

أ ـ العلم :ـ

لقد سبق أن نوهنا بفضل الاغريق على البحث العلمى الحديث بجمعهم حقائق ومجموعات من المعارف وتنظيمها وسوق العلل لتفسيرها ، وقد استفاد الاغريق كثيرا من المعارف والمعلومات الكثيرة التى وصلت اليها حضارات الشرق القديم ولا سيما حضارة وادى الرافدين ووادى النيل •

كان الاغريق الاقدمون البدائيون يصفون الظواهر الطبيعية بلغة الاساطير وكانوا يعزون جميع ما يحدث فى الكون وهم مدفوعون بالشعر والخيال الى أفعال الآلهة نفسها مباشرة دون أن تنتج عن أسباب صادرة منها • الا ان الاغريق الايونيين كانوا ، بسبب قربهم من مراكز الحضارات القديمة ، أول من خطا خطوات أخرى وتعدى دائرة الاساطير فى تعليل حوادث الطبيعة وظواهرها وقد عاش فى مدينة «مليطس» فى حدود ٦٠٠ ق• م جماعة من المفكرين أولهم طاليس المشهور الذى شغل تفكيره بالبحث فى المادة وفى جوهر الاشياء • وقد جهد هؤلاء المفكرون فى تفريد مادة عامة وتجريدها من بين جميع الموجودات وجعلها المادة الاولى فى تركيب الاشياء وفى تفسير اختلافاتها وتغيراتها • فرأى طاليس فى عنصر الماء هذه المادة الاولى • ولكن نظرية العنصر الواحد هذه فندها مفكر محدث هو «امبيدوقلس» الذى قال بنظرية العناصر الاربعة : أى التراب والهواء والنار والماء لتفسير الظواهر الطبيعية المختلفة وقد اعتقد فى هذه العناصر الاربعة انها غير مشتقة أى بسيطة لا تفنى ولا تتغير من حيث الكيف ، ولكن لها قابلية الانقسام الميكانيكى والحركة فتستطيع أن تغير فى نسبها وتركيبها • وتتألف الاشياء من هذه العناصر البدائية بنسب مختلفة وتفنى الاشياء بانفصال هذه العناصر بعضها عن بعض •

وقد نشأ عن هذه النظرية بمرور الزمان النظرية الذرية التي قال بها بعض فلاسفة الاغريق ولا سيما «لوسيبوس» و «ديموقريطس» ، وأساسها الاعتقاد بوجود عدد غير محدود من الجزئيات غير المرئية تسمى ذرات (Atoms) تتحرك في فراغ غير محدود . وتتحد هذه‌الذرات لتكوين الاجسام والاشياء الموجودة في الكون . فالشيء ليس الا مجموعة من الذرات . وتتصف هذه الذرات بتشابهها وعدم اختلافها من حيث الكيف ولكنها تختلف من حيث الحجم والشكل وان هذه الفروق الكمية في المادة الاولى كانت عند الفلاسفة الذريين كافية لتفسير أنواع الاشياء والموجودات التي لا حصر ولا عد لها ومن بينها الشعور والفكر والنفس . ولعل هذه النظرية الذرية أقرب الى ما وصل اليه العلم الحديث من جميع النظريات التي قال بها فلاسفة الاغريق في تفسير الظواهر الطبيعية ولكن مع ذلك كان في نظريتهم نزعة ميتافيزيقية أكثر من النزعة العلمية . ويعزى ذلك الى ان هؤلاء العلماء الاغريق لم يحققوا نظرياتهم وفرضياتهم بالاختبار والامتحان ولذلك فكان علماؤهم فلاسفة وظل علمهم فلسفة محضة .

ولما كان العلم والفلسفة شيئا واحدا تقريبا عند مفكري اليونان فاننا سنقف من كلامنا عن بعض فلاسفتهم على بعض الامور المهمة مما وصل اليه هؤلاء المفكرون في حقل العلوم والمعارف . ولكننا نذكر هنا شيئا موجزا عن العلوم الرياضية في الحضارة اليونانية . ولعل أول شيء بارز في تاريخ الرياضيات عند اليونان ما سبق أن ذكرناه في الكلام على الرياضيات في حضارة وادي الرافدين من أن عبقرية اليونان تفردت بالشكل (الهندسة) دون العدد بخلاف الرياضيات في وادي الرافدين التي بدأت بداية جبارة واتجهت الاتجاه الصحيح ، ولكن حيد الاغريق عن هذا الاتجاه الصحيح كان في الواقع انتكاسا في سير تطور الرياضيات ، مع ان المرجح كثيرا ان اليونان وقفوا على تراث البابليين في الجبر ، ولكن الحضارة اليونانية ــ الرومانية لم تهتم بالجبر الا في القرن الثالث للميلاد على يد بعض رياضي اليونان مثل «ديوفانتوس» (ديوفنطس) . والذي يعجب له أنه حتى الذين اهتموا منهم بالعدد مثل

الفيثاغوريين لم ينظروا الى العدد نظرة علمية واقعية بل نظرة تقديس أو نظرة صوفية • ومع هذه النقائص فللاغريق فضل كبير فى تطور المعارف البشرية لا سيما فى بحثهم المنظم واهتمامهم بالبرهان والتدليل ووضع القواعد والنواميس العامة مما يميز منهج العلم الصحيح ، ويتجلى ذلك فى هندستهم ونظرياتهم الهندسية وانهم مع احتمال أخذهم الكثير من الحقائق الهندسية من حضارات الشرق القديم الا انهم برهنوا على هذه الحقائق وحققوها ووضعوها بهيئة قواعد عامة •

ب ـ الفلسـفة :ـ

ومما تجدر ملاحظته ان كلمة العلم (Science) ليست من أصل يونانى• فقد أطلق المفكرون اليونان الذين بحثوا فى الاشياء وفى أصلها وفى العناصر الاولى على بحوثهم اسم «الفلسفة» ، وهى كلمة يونانية مركبة تعنى «حب الحكمة»(١) ، وبذلك كان «حب الحكمة» هذه أى الفلسـفة عند مفكرى اليونان يشمل البحث فى الظواهر الطبيعية الذى ندخله فى العصر الحديث فى دائرة العلم ، أمـا التفكير والنظر فى تجاريب البشـر وحيـاتهم وفى الغـايات والعلل الاصليـة فـندعوه الآن فلسـفة • ولذلك ينبغى لنـا أن نفهم من الفلسـفة الاغريقية هـذين الشيئين وهمـا البحث فى ظواهر الطبيعة الذى بدأ به الفلاسفة الايونيون مثل طاليس وغيره وكذلك البحث فى القضايا الخاصة بأصل الحياة ومعناها ، وهى القضايا التى كان

---

(١) تنسب المآثر الى فيثاغورس (الذى اسس جمعية أو اخوة فلسفية فى جنوبى ايطالية فى منتصف القرن السادس ق • م) انه أول من استعمل مصطلح فلسفة • وأصل نشوء هذا المصطلح من رأى اليونان فى ان الانسان يحتل مركزا وسطا بين الله والحيوان • فبالقياس الى الآلهة يكون مجرد مخلوق معرض للخطأ والضلال والموت والفناء ، ولكنه بالمقارنة مع الحيوانات ذو مركز رفيع مستعد للفهم والادراك وبما ان الانسان معرض للخطأ والضلال فيستحيل عليه ادراك «الحكمة» (Sophia) بكامل معناها ، لان ذلك خاص بالله وحده • ولكنه مع ذلك فاذا لم يستطع أن يكون حكيما فبامكانه أن يكون محبا للحكمة أى (Philo-Sophus) متمثلا بالله بقدر الامكان كما يقول افلاطون فى «طيماوس» (The Legacy of Greece, 27)

أول من عني بها جماعة من المفكرين عرفوا بالسفسطائيين • وبالاجمال كان مفهوم الفلسفة لدى اليونان جهودا جدية رزينة من جانب المفكرين لفهم العالم والانسان وهدفها الرئيسى اكتشاف الطريق الصحيح فى العيش والحياة وحمل الناس على السير فيه • وكان الفلاسفة السفسطائيون فى القرن الخامس ق • م أشبه ما يكونون بمحاضرين جوالين يجوبون فى جميع بلاد اليونان ، فيقفون فى الاسواق وفى المواضع الاخرى التى يجتمع فيها الناس ويخطبون بالجماهير فى شؤون تشغل بالهم مثل النفس أو الروح والسعادة والحياة وما بعد الموت • وكانوا الى ذلك يعلمون الخطابة والبحوث السياسية • وظهر أخيرا مفكر اثينى لم يتجول كما فعل السفسطائيون وقد عمل على توجيه آراء السفسطائيين المشوشة الى ناحية مثمرة من البحث هى قضية السلوك والفضيلة وعلاقة المواطن فى الدولة والناس • وهذا هو سقراط الذى سنأخذ موجز ترجمة حياته •

ومن الممكن تقسيم تأريخ الفلسفة اليونانية الى ثلاثة عصور متميزة يتجلى فيها تدرج تطور الفكر اليونانى • وقد شغل الاغريق أنفسهم فى أقدم هذه الاطوار بالنظر فى الكون ، وفى الطور الثانى النظر فى الانسان نفسه وامتاز الطور الثالث بالبحث المنظم •

أما الطور الاول فيتضمن تأريخ المفكرين اليونان قبل سقراط • وقد سبق لنا أن أشرنا الى فلاسفة هذا الطور بصفتهم علماء فلنأخذ عنهم بعض الامور الاخرى ، فقد شغل المفكرون الاوائل نشاطهم فى النظر فى الطبيعة ودرس قضاياها ومسائلها ، وبدأوا فى العالم الخارجى من مسائل الطبيعة والفلك والجغرافية ولا سيما الظواهر الاساسية • وكان من بين القضايا الدائمة التى شغلت الفكر البشرى مادة الاشياء الاولى أو جوهرها الذى تتألف منه جميع الاشياء وترجع اليه جميع الاشياء وقد رأينا كيف شغلت هذه القضايا فكر الانسان وظهرت فى حضارات وادى الرافدين ووادى النيل • فبحث فلاسفة اليونان الطبيعيون فيما قبل سقراط عن أساس الاشياء الذى لا تطرأ عليه التغيرات والتقلبات وتكون منه هذه الاشياء المختلفة فى مظاهرها •

وقد سألوا أنفسهم : ما أساس الاشياء وجوهرها الذي يبقى مع كل التغييرات العارضة ؟ وكيف يتحول ذلك الاســاس الى تلك الاشياء ؟ وكيف تتحول الاشياء وترجع اليه ؟ وقد اتجه الفكر اليوناني دائما الى تصور ان هذه الكثرة الوفيرة من الاشياء التي يتكون منها العالم المنظور انما تتألف جميعها من أصل وجوهر هو أصل الاشياء فبحث فلاسفة اليونان الاولون في أصل الاشــياء وأجابوا على تلك الاسئلة باسلوب لا تدخل فيه الاساطير والعلل السماوية ٠ وقد رأينا كيف عبر المفكرون الاقدمون في وادي الرافدين عن أصل الكون بالاساطير وقالوا بنظرية العناصر الاربعة تقريبا ، وكان معظم الفلاسفة اليونان من الطور الاول يعيشون في «ايونية» في ساحل آسية الصغرى الغربي ٠ وبالرغم من ان أجوبة هؤلاء كانت ساذجة الا انها تمثل مرحلة مهمة في مراحل الفكر اليوناني ٠ فقد رأينا كيف أن طاليس (٥٨٥ ـ ٥٥٠ ق ٠ م) أجاب على تلك الاسئلة بأن رأى في الماء مادة الاشياء الاولى ، ورأى فيلسوف آخر اسمه «انكسمينيس» (٥٩٠ ـ ٥٠٠ ق ٠ م) انها الهواء ، وامتاز عنهما «انكسيمندر» (٦١٠ ـ ٥٤٥ ق٠ م) بأن فكر في ان مادة الاشياء الاولى يجب أن تكون شيئا يختلف عما نعرفه من صور المادة ، ويجب أن يكون غير محدود ولا معين ، تتكون منه بعض الاشياء المحدودة مثل النار والهواء والماء والتراب ٠ ومن هنا يتضح لنا ان مرحلة الاساطير قد انتهت وان الانسان لم يشغل نفسه بالسؤال عمن خلق عالم الاشياء وانما بدأ يوجه فكره الى سؤال آخر وهو ما الاساس الذي تتكون منه الاشياء وقد رأى بعض هؤلاء المفكرين ولا سيما «انكسمينيس» ان الطريقة التي تتحول فيها المادة الاولى الى الاشياء المختلفة هي طريقة التمدد والتقلص ٠ وأرجع هؤلاء المفكرون أصل جميع الاشياء الى أصل مادي والى طريقة مادية وان المادة أزلية تتصف بالحياة ، فقد عدوا جميع الاشياء تتركب من مادة ليست ميتة جامدة بل مادة حية ٠

وقد أدخل فيثاغورس (٥٧٠ ـ ٥٠٠ ق ٠ م) ومدرسته مبدءا ورأيا

جديدين فى طبيعة أصل الاشياء أو المادة الاولى التى تتألف منها الاشياء ٠ فكان هو وأتباعه يؤكدون على صور الاشياء دون المادة ، وكانوا يرون ان هذه الصور وليس المادة هى الحقيقة الثابتة فى هذه الاشـياء ٠ وقد أداهم درسهم الموسيقى الى اكتشاف مبدأ التناسب أو النسبة ٠ فطبقوا هذه الفكرة فى حقول ومواضيع أخرى فصحة الجسم مثلا عدوها نتيجة من تناسب معين بين صفات الجسم الاساسية (كالحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة) ، فاذا تغير التناسب فيما بينها الى تناسب آخر نشأت العلل والامراض ٠ وبتطبيق هذا المبدأ على أصل الاشياء رأوا ان مبدأ الاشياء وجوهرها يجب البحث عنه فى الصور المختلفة لهذه الاشياء ٠ وعبروا عن هذه الفكرة بما أوثر عنهم من ان «جميع الاشياء أعداد» ٠ وكان من السهل مطابقة الاعداد بالصور والاشكال فى تلك الايام ، لان الاعداد كانت تمثل فى الغالب بنقاط وأشكال تترتب فى أشكال هندسية معينة ، فكان من السهل تعيين الوحدة العددية بنقطة أو شكل ٠ فمن الممكن تحليل الخطوط الى نقـاط والسطوح المسـتوية الى خطوط والاجسام الى سـطوح مستوية ، أى ان النقط تكون الخطوط والخطوط تكون المستويات وهذه تكون الاجسام ، وهكذا فان جميع الاشياء مؤلفة من الاعداد لان الوحدة فى الاعداد (أى الواحد) هو النقطة بعينها ٠

لقد أسس المدرسة الفيثاغورية فى جنوبى ايطالية لاجىء ايونى بعد استيلاء الفرس على «ايونية» ٠ وقد ملأ غزو الفرس لايونية الاغريق بنوع من الشعور الدينى بنتيجة ما لاقوه من الاضطهاد ، وكانت المدرسة الفيثاغورية أشبه ما تكون بأخوة دينية مؤسسة على آراء فلسـفية ٠ وكان هناك جماعة أخرى من الفلاسـفة فى جنوبى ايطالية هم الايليون (نسبة الى ايلية وهى مستعمرة اغريقية) ، واشتهر من هؤلاء «زينوفانيس» (٥٧٠ ـ ٤٨٠ ق ٠ م) الذى هاجم ما كان يتصوره الناس عن الآلهة وكيف كانوا يرون فيهم تصور البشر ، وقد اشتهر بقوله المأثور : « يعتقد البشر بأن الآلهة جاءت الى الوجود كما جاؤا هم أنفسهم ، وان لها جوارح وأصوات وأجساما ٠٠٠ ولكن لو

كان الثيران أو الاسود أيدى ، لرسمت الثيران الا لهة مثل الثيران وجعلت الخيول الا لهة خيولا مثلها » • وقد كان هذا المفكر يخالف آراء زمنه فى فكرة التشبيه أى الاعتقاد بأن الا لهة مثل البشر وكذلك عارض فكرة الشرك أى تعدد الا لهة ، واعتقد « باله واحد عظيم لا يشبه البشر فى جسمه أو فى فكره » وعلى ذلك فيكون هذا أول موحد فى الغرب ، وينسب اليه ارسطو فكرة الحلول وله القول المأثور « الكل واحد ، والواحد هو الله » • وقد شارك فى آراء هذا الفيلسوف مفكرون آخرون من أهل «ايلية» •

وعلى النقيض من «الايليين» كان «هرقليطس» (٥٤٠ — ٤٧٥ ق • م) لا يرى وحدة الأشياء بل كثرتها وتنوعها وتغيرها الدائم ، ولكنه اتفق معهم فى ازلية المادة الاولى • وقد تصور حدوث دورات كونية من التغير ، حيث تبدأ كل دورة وتنتهى بكتلة نارية • ولعل أثمن شىء فى تعاليم «هرقليطس» ما يعتقده من الانتظام فى الظواهر والوقائع الطبيعية • فيقول ان جميع التغيرات تحدث وفق قانون • وان هذا الانتظام فى ظواهر الكون وتغيراته عنده دليل على وجود «عقل أو سبب عام» أما انه موجود فى طبيعة المادة الاساسية أو انه يسير الى جانبها • وقد اتسع مبدأ التنوع والكثرة على يد فيلسوفين آخرين هما «انكساغوراس» (٥٠٠ — ٤٢٨ ق• م) و «امبيدوقلس» (٤٨٣ — ٤٣٠ ق • م) الذى يعزى اليه انه أول من قال بنظرية «بقاء الاصلح» وانتهى أمره الى النظرية الذرية الخاصة بديموقريطس (٤٦٠ — ٣٧٠ ق • م) ، فكان الاولان يريان ان المادة الاولى ليست من جوهر واحد بل من مجموعة من «البذور» أو «الجذور» تتكون من اتحادها الاشياء • وهذه البذور أو الجذور التى تتكون منها جميع الاشياء معروفة عندنا بنظرية العناصر الاربعة — أى النار والهواء والماء والتراب • وقد أورد «انكساغوراس» مبدأين لتكوين الاشياء من اتحاد هذه العناصر الاربعة وانفصالها وهما مبدأ الجذب والدفع (أو الحب والبغض كما سماها) •

والظاهر ان النظرية الذرية قد أوجدها أولا «لوسيبوس» (٥٠٠ — ٤٣٠

ق • م) ولكنها تعزى عادة الى تلميذه «ديموقريطس» الذى لقب بسبب ذلك «بأبى الفيزياء» كما يصح القول انه مؤسس الفلسفة المادية • ويرى هذا ان الحقائق الثابتة فى تركيب الاشياء هى «الذرات» (Atoms) و«الفراغ» وتختلف الذرات فى الحجم والشكل ، وتتكون الاجسام المركبة جميعها منها • أما الفروق الموجودة فى الاجسام المركبة فمنشؤها اختلاف الذرات المكونة منها من حيث أشكالها وحجومها ومن حيث وضعها وترتيبها فى تركيب تلك الاجسام • واعتبر الذرات بوجه عام وكأنها حروف الهجاء فى سفر الكون • وان هذه الذرات ليست ثابتة بل تتصف بالحركة وتتحرك فى جميع الاتجاهات فتصطدم بعضها ببعض وتتحد بعضها ببعض وتؤلف أجساما مركبة ، وتصطدم هذه الاجسام المركبة بعضها ببعض فتتحول الى ذرات منفصلة • وبوجه الاجمال حاولت هذه النظرية تفسير الكون تفسيرا ماديا ميكانيكيا صرفا • أى تفسيرا يدور على المادة والحركة • أما صفات المادة الثانوية من لون وذوق الخ فهى بحسب هذه النظرية أمور مصطلح عليها تتكون بالمران أى أن الاحساسات مجرد تعويد ومران ، والحقيقة الوحيدة فى وجودها هى الذرات• ونشأ عن ذلك نوعان من الصحة أو الحقيقة : فهناك حقيقة مصطلح عليها وحقيقة موضوعية ثابتة • وقد أخذ هذه الفكرة الفلاسفة السفسطائيون ، وفسرت فلسفة «ديموقريطس» الروح بانها ايضا نوع من جماع الذرات اللطيفة الدقيقة الملساء ، وتتولد ظواهر الحياة وفعاليتها عن حركة هذا النوع من الذرات • لقد أخذ هذه الفلسفة الابيقوريون وتأثر بها الرواقيون أيضا ، ولكنها أخذت تفقد مكانتها بسبب اصطدامها بفلسفة سقراط وافلاطون وارسطو وظلت كذلك فى العصور الوسطى ولكنها بعثت من جديد منذ عهد النهضة الاوربية الحديثة بتأثير العلوم الطبيعية فظهرت بوادرها فى فلسفة ديكارت وبيكون و «هوبز» •

الطور الثانى من الفلسفة والسفسطائيون :ـ

لقد نتج غزو الفرس لـ «ايونية» تشتيت الفلاسفة الايونيين وانتشار الاهتمام بالفلسفة كما ألمحنا الى ذلك فيما سبق • ونتج انتصار الاغريق على

الفرس نتائج أبعد من ذلك ٠ فقد سبب ذلك الانقلاب العظيم روحا غير مستقرة ولا قانعة فى الاحوال والاوضاع الجارية ولا سيما فى الآراء والمعتقدات وأيقظت روحا جديدة اتجهت الى الاهتمام بالمعرفة ، وكان ذلك الطور الثانى فى تاريخ الفلسفة اليونانية ، حيث بدأ الفكر اليونانى يتحول الى البحث فى الانسان نفسه ، وصارت أعمال الانسان موضوع البحث ، وأغفل النظر فى العلم الطبيعى الذى كان فيما سبق موضوع الفلسفة بل اتجه البحث الى قوى الانسان الباطنية ، فبحثوا فى القوى المفكرة وقوة الارادة ، أى الفكر والارادة ، ونشأت فى عقول المفكرين مسألة جديدة فيما يتعلق بالمعرفة البشرية وثبات حقائق الاشياء ، والصواب والحق والخير وهل هناك حق أو صواب أو خير قائم بنفسه لا علاقة له بآرائنا الشخصية ٠ وظهرت فى هذا الطور الذى يصح أن نسميه بالعصر الانسانى ، القضايا الاخلاقية والمنطقية والنفسية «السيكولوجية» ٠ واشتهر فى هذا العصر السفسطائيون ٠ وكان هؤلاء صنفا من المدرسين المحترفين الذين استجابوا الى حاجة العصر الفكرية٠ ومعنى اسمهم «الحكماء» ، وقد عملوا على نشر الثقافة العامة ، ونشأ عن نقدهم للآراء والمعتقدات السائدة ان اتجه المفكرون الآخرون الى البحث فى قضايا الحياة البشرية ، وهم الذين قالوا بالتمييز بين القيم الحقيقية وبين القيم بحسب ما نصطلح عليه أى بحسب آرائنا الشخصية ٠ ويعزى اليهم القول المشهور «ان الانسان مقياس جميع الاشياء» ٠ وهذا فى الواقع سبق مبدأ الفلسفة الحديثة المعروفة بفلسفة الذرائع أو «البراغمطية» فى قولها بنسبية الحق والصواب والخير بالنسبة الى حاجات الانسان العملية ، وقد صارت اثينة فى هذا العهد مركز الفلسفة الاغريقية التى وصلت الى ذروتها وأوجها فى عهد ثلاثة من عباقرة مفكريها وهم سقراط وافلاطون وارسطو ، وسنأخذ موجز تراجمهم٠

الطور الثالث من الفلسفة :ـ

بامكاننا أن نعد الطورين الاولين من تاريخ الفلسفة اليونانية مقدمة لاعظم رقى حدث للفكر اليونانى ، وقد ظهر هذا الرقى فى الطور الثالث ، وهو

عصر البحث المنظم ، وبلغ أوجه فى عهد الفلاسفة العظام الذين ذكرناهم • ففى الطورين الاولين أى طورى البحث فى الكون والانســـان كان بحث الفلاسفة مقصورا على عدد محدود من المسائل • ولكن اتسع البحث فى الطور الثالث فشمل قضايا كثيرة منها قضايا النفس والطبيعة وقد استفاد عظماء هذا الطور من المعـارف التى وصل اليها من سبقهم ، وامتاز بحثهم فى الاشياء بالمنهج العلمى • ويعد ارسطو خاتمة نضج الفلسفة اليونانية وفاتحة عصر العلوم التى تميزت وتفرعت حيث تخصص كل علم منها لبحث خاص مما لم يعرفه اليونان فى عصورهم الاولى بل كانت موضوعات العلوم ممتزجة بعضها فى بعض ، كما كان العلم والفلسفة شيئا واحدا • ولنأخذ تراجم مشــاهير هذا الطور :ـ

سقراط (٤٧٠ ـ ٣٩٩ ق • م)



تمثال لسقراط الشهير على شىء من الاهمية التاريخية لانه يحمل كتابة باليونانية هى جزء من دفاع سقراط فى محاكمته التى انتهت بالحكم عليه بالموت (كما جاء ذلك فى أحد كتب تلميذه افلاطون المسمى بالدفاع)

هجر هذا المفكر بحوث الايونيين العلمية ولعله لم ير فيها حاجة الزمان

ومتطلباته • بل انه وجه بحثه الى الاخلاق ولا سيما قضايا مهمة مثل الصلاح والحق والجمال والامانة والعدل • فقد رأى انه اذا لم يتحل المواطنون بهذه المبادىء الفاضلة فان الدولة تنهار حتما ، ولكن ينبغي للناس قبل أن يسلكوا بالسلوك الفاضل أن يتحلوا بالمعرفة وكانت طريقة سقراط التحليل المنطقى للاضداد بطريق السؤال والجواب حيث يمكن اظهار الزائف الباطل ونبذه وتبقى من بعد ذلك الحقيقة •

ومما يجدر ذكره عن سقراط أنه ناوىء السفسطائيين الذين رأيناهم ينكرون جميع الاشياء الثابتة ويقولون بأن الباطل والحق والخير والشر وما الى ذلك من القيم ان هى الا أمور نسبية أى بالنسبة الى الفرد • فحارب سقراط هذا الخطر وقرر ان هناك حقائق ثابتة لا نسبية فالخير ما طابق الخير فى الواقع وليس ما اعتقده الفرد خيرا • ثم ان سقراط خطأ السفسطائيين بما كانوا يرونه من ان الحواس وحدها هى سبيلنا لادراك الاشياء فأبان أن التأمل والتفكير هما كذلك سبيلنا للمعرفة ، وان عمل الحواس هو ادراك الجزئيات لا الكليات التى لا يدركها الا العقل •

ومما يؤثر عن سقراط ما قلناه من انه وجه الناس الى النظر فى الانسان وفى نفس الانسان بعد أن كان هم الفلاسفة مقصورا على النظر فى العالم الخارجى • واليه ينسب القول المأثور «اعرف نفسك» •

لقد جذب سقراط الى جانبه حشدا من الشباب الموهوبين من جميع الطبقات وكان سبيله نبذ كل شىء والشك فى كل شىء لا يخضع للعقل والفكر ليحرر العقل البشرى من عبء الخرافات والترهات ويبنى الحياة ، كما كان يعتقد ، من جديد على أساس العقل والفكر • وكان هذا فى الواقع تحديا يتصف بالاصالة وقد دوى صوته فى جميع العصور والازمان ولم يحرم من تابعين مناصرين • ولكن عرضته تعاليمه هذه الى سخط الحافظين من أبناء مدينته الذين عدوها خطرة • اذ رأوا فى تحديد علاقات الانسان بالانسان وبالمجموع على أسس العقل انكارا لافعال الآلهة وسلطاتها • ومما عجل المأساة التى حلت بسقراط اندحار اثينة فى حربها مع اسبارطة (٤٠٤

ق ٠ م) فهاج كثير من المحافظين الذين علم سقراط أبناءهم وعزوا اليه افساد الشباب وحملوه بأنه هو سبب النكبة التى حلت بأثينة لتعاليمه المتصفة بالكفر وانكار سلطان الآلهة ٠ فرمى بالخيانة العظمى وحوكم فحكم عليه بالموت فى حدود ٣٩٩ ق ٠ م وقد تناول بيده السم ٠

افلاطون : (٤٢٧ – ٣٤٧ ق ٠ م)

أشهر تلاميذ سقراط وكان من عائلة مثرية مشهورة فى اثينة ، فكان من البديهى أن يطمح بالاشتراك فى حكم الدولة ٠ ولكن زمنه كان عهد الديمقراطية الاثينية أى حكم الجمهور أو «الرعاع» فكان يقتضى من افلاطون مداراة الشعب وكسب ثقته لينال حصة فى الحكم ولكنه كان يأنف من ذلك ٠ فاتجه الى ناحية أخرى من الحياة ، الى البحث والدرس والفلسفة تحت ارشاد معلمه سقراط ٠ ومما امتاز به سقراط انه اقتصر فى بث تعاليمه على التلقين والرواية الشفهية ولم يعن بتدوينها على نحو ما يفعل أغلب المؤلفين الطامحين فى تخليد ذكرهم وقد فعل افلاطون مثل معلمه بأن صار يعلم شبان اثينة فى مدرسة أسسها لهذا الغرض وهى الاكاديمية(١) المشهورة فى اثينة ٠ ولكنه عمد قبل ذلك الى تدوين كتب وضعها لقرائه على انها تمثل تعاليم سقراط معلمه المحبوب ولعل ذلك خرافة غير حقيقية وان الكتابات التى خلفها افلاطون على انها تعاليم معلمه هى فى الواقع آراؤه وأفكاره نفسه ٠ ونستطيع أن نستنتج بدون أن نسىء الى أى من الفيلسوفين العظيمين ان افلاطون قد تمثل أفكار معلمه وسلفه وتأثر بها بحيث أصبحت أفكاره بالذات وذلك عندما كان تلميذا لسقراط وأضاف اليهـا بعد ان تمثلهـا عندما استقل وبلغ نضجه العقلى والفلسـفى ٠

وكان افلاطون الى كونه مفكرا فنانا موهوبا ممـا جعل مؤلفاته تمتاز

---

(١)(Academy) مشتقة من اسم بستان قرب اثينة كانت تعود بالاصل الى بطل اسمه «اكاديموس» ٠

بجاذبيتها للقراءة والتتبع ، وقد استعمل طريقة الحديث بالسؤال والجواب في عرض آرائه الفلسفية ، واستخدم لذلك الامثال والاساطير والهزل اللاذع مما حبب مؤلفاته للقراء وخفف من جفاف آرائه الفلسفية المجردة • وتناول في بحوثه وآرائه كثيرا من المسائل والقضايا التي لا تزال تحتل مكانتها من تفكير البشر في هذه الازمان فبحث في النفس وفي الخلق وفي الصور أو الافكار الثابتة (المثل) (Ideas) التي تكمن وراء مظاهر الحياة والكون المتغيرة فكانت هذه المثل عند افلاطون حقائق موجودة في الخارج بنفسها ومستقلة عن عالم الحس الذي هو مجرد انعكاسات أو خيالات لعالم المثل الحقيقي الذي ينبغي أن يكون هدف المعرفة البشرية • ولذلك فيميز افلاطون بين ضربين من المعرفة فمعرفة تتعلق بعالم المثل الحقيقي ومعرفة تخص عالم التغير والحس • وخالف افلاطون فلسفة ديموقريطس المادية ورفض تفسير الكون تفسيرا ميكانيا بل رأى ان في الكون هدفا وغاية هو الخير الذي تهدف اليه جميع الاشياء • والذي يذكر عن افلاطون انه حاول التوفيق بين آراء سقراط وفيثاغورس وهيراقليطس • وبحث في مسائل السياسة وقد أعمل فكره مثل معلمه في سياسة دولة المدينة وتهذيب شؤونها وتخليصها من الشرور والاخطار التي أحسها فيها • وقد أودع آراءه السياسية في «جمهوريته» المشهورة التي تعكس لنا آراء الفيلسوف في زمن نضجه الفكري • وجمهوريته في أساسها لا تعدو أن تكون «طوبائية[١] Utopia » كان الدافع اليها كره انظمة الحكم الجائرة ونظام اثينة الديمقراطي ونشدان دولة مثالية هي المدينة أو الدولة الفاضلة • ويرى افلاطون ان مثل هذه الدولة ينبغي أن تشاد على العدل وينبغي لحكومتها أن لا تكون من طبقة الساسة المحترفين أو التجار بل يجب أن يكون حكامها طبقة خاصة يربون تربية خاصة ويعدون لغرض الحكم ويجب أن ينتخبوا من طبقة الفلاسفة الذين يستطيعون دون غيرهم أن يحكموا أخوانهم بموجب أنظمة وقوانين واضحة وبهدى المثل الخالدة (وهي مثل افلاطون) • ومما يجدر

---

(١) ومعنى هذه الكلمة في اللغة اليونانية «مكان غير موجود» •

التنويه به ان معظم المفكرين الخياليين الحالمين أمثال افلاطون من أصحاب «الطوباثيات» قد تأثروا بافلاطون وساروا على هديه، كما انه بوسعنا ان نقول ان أكثر الآراء التي قال بها أصحاب الاصلاح الاجتماعي الانقلابي (الراديكالي) قد نوه بها مؤلف «الجمهورية» العظيم .

الافلاطونية الحديثة

لقد ظلت آراء افلاطون عنصرا هاما وأساسا في أفكار الاجيال التي أعقبت افلاطون ، ولم تقتصر فلسفته على تأثيرها في فلسفات الحضارة الاغريقية الرومانية بل انها أثرت في جماعة كبيرة من الفلاسفة من مفكري العرب المسلمين وبعض المفكرين اليهود وأثرت في أفكار المسيحية في ابان نشوئها وتكوينها . وقد تبنى مآثر افلاطون وشرحها للناس مفكر اسمه «فلوطين» (Plotinus) من فلاسفة العهد الهلنستي ، وكان هذا ذا آراء أصيلة وقد علم في رومة في منتصف القرن الثالث للميلاد وكان قد ظهر في الاسكندرية في أواخر القرن الثاني للميلاد (٢٠٤ م) . وصارت تفسيراته وتعليقاته وعرضه لآراء افلاطون بعد أن تمثلها فلسفة خاصة عرفت بالافلاطونية الحديثة وكانت ذات تأثير عظيم في أفكار الناس . وقد دخلت في آراء رجال الدين المسيحي وفي طرقهم اللاهوتية وكانت تراثا مهما في العصور الوسطى وفي الفلسفة العربية الاسلامية حيث أثرت تعاليمه فيها أثرا كبيرا كما يتضح ذلك في فلسفة «اخوان الصفاء» ولا سيما آراؤه عن فكرة «الفيض» الالهي والعقل والنفس و «الاحد» أي الله . ولما اكتشف فلاسفة العرب المسلمين فلسفة افلاطون وارسطو صاروا يبحثون فيهما وهم متشبعون بالافلاطونية الحديثة . ومما يقال في فلسفته انها مزيج من الفلسفة والدين ، وحاول افلوطين أن يوفق في فلسفته بين المسيحية والمذاهب الشرقية وآراء اليونان ولا سيما آراء افلاطون ، وفي فلسفته شيء من التصوف الديني .

ارسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق . م)

بامكاننا أن نعد ارسطو ممثلا أوج ما وصلت اليه المعارف عند الاغريق وقد عد الاغريق أنفسهم ارسطو كذلك فقد حصل في زمنه على شهرة واسعة

وظلت شهرته ومعارفه تتوارثها القرون التالية ، وكانت مصنفاته الكتب المعول عليها حتى عهد النهضة الاوربية حينما بدأت اوربة تسير الى عهد العلم الحديث . ويعد ارسطو وارث الفلسفة الاغريقية التى بدأت منذ ٦٠٠ ق . م ومتشبعا بجميع فروعها وبحوثها ، وامتاز بعقل وفهم نادرين وامتازت فلسفته ومعرفته بالبحث فى جميع فروع الفلسفة والقضايا التى عالجها حكماء الاغريق منذ طاليس الى سقراط وافلاطون فبحث فى العلوم الطبيعية وفى قضايا الانسان والمجتمع وفى الاخلاق والسياسة .

وكان أبو ارسطو طبيبا شهيرا فاكتسب منه الاتجاه العلمى الرزين الذى يمتاز به البحث الطبى . وظهر اتجاهه العلمى فى مدرسته التى أسسها فى «الليسيوم» بعد موت افلاطون . وكانت خارج اثينة قرب الملعب الرياضى ، ولكنه لم يترك التفكير والتأمل الفلسفى الذى ورثه عن سلفيه العظيمين سقراط وافلاطون .

واذا كان من المتعذر الكلام فى جميع البحوث والمعارف التى خاضها ارسطو فاننا نوجز ما حققه فى أربعة حقول مهمة تمثل أبرز النواحى فى بحوثه وهى (١) المنطق (٢) البيولوجيا (٣) الاخلاق (وبضمن ذلك السياسة لان السياسة عند الاغريق لم تكن لتنفصل عن موضوع الاخلاق) (٤) الجمال.

١ ـ المنطق :

وكان مفهوم المنطق عند ارسطو فن التفكير الصحيح ومنهجه ولذلك عد المنطق أساس الفكر والعلوم . وقد بحث ارسطو فى مواضيع المنطق فى عدة مقالات أو كتب ، ودعيت البحوث هذه باسم الآلة (Organon) لان المنطق مثل الآلة بالنسبة للفكر والعلوم . وقد سار كل من ارسطو وافلاطون فى نفس المنهج الذى سار عليه سقراط ولا سيما فى طريقة جدلهما ومناظرتهما فكانا يحذران من استعمال الكلمات والمصطلحات على غير وجهها ومفهومها الصحيحين وقالا بوجوب تحديد معانى الكلمات . ولكن ارسطو يمتاز عنهما بانه أول من أسس طريقة علمية للتفكير السليم ومعاييره وقد حقق ذلك باتقان يدعو الى الدهشة حتى ان طريقته أصبحت منهجا لازما

لسير الاجيال التى أعقبته ولا تزال كذلك الى يومنا هذا •

٢ ـ البايولوجيا : (علم الحياة)

وامتاز ارسطو بدقة ملاحظته ودرسه للعالم الطبيعي فترك لنا جملة مؤلفات مهمة تبحث في الفروع المختلفة للعلوم الطبيعية • وأكثر ما تظهر عبقريته وأصالة بحثه في انه كان أول باحث انتقل من النظر في المادة غير العضوية الى المواد العضوية أي الى الاحياء ، مؤسسا بذلك علم الحياة «البايولوجيا» بكلا فرعيه : علم النبات (Botany) وعلم الحيوان (Zoology) وقد استدعي وهو في سن الاربعين وقبل ان يفتح مدرسته الى بلاط الملك المقدوني «فيلب» لتعليم ابنه الاسكندر الذي صار الاسكندر الكبير • وعندما تسنم الاسكندر العرش لم ينس ارسطو الذي كان يدعوه بأبيه الروحي وعندما حل ارسطو في اثينة وشرع في البحث والدرس وهبه الملك مبالغ كثيرة من المال ليصرفها على بحوثه وجمع معارفه ، فتمكن من جمع معلومات واسعة ثمينة عن نباتات منطقة البحر المتوسط وحيواناتها لا يستطيع انسان بمفرده أن يجمعها ، بل كان سبيل ارسطو اليها بذل المال وارسال التلاميذ والمساعدين الى البلدان المختلفة ، كما تفعل المؤسسات العلمية الحديثة ، هذا ولا يشين بحوث ارسطو في هذا الموضوع كثرة الاخطاء لانه في الواقع كان أول عمل علمي من نوعه •

٣ ـ الاخلاق والسياسة :

يرى ارسطو في أخلاقه في كتابه (نيقوماخيا) ان الخير والصلاح هو «ما تهدف اليه جميع الاشياء» وغاية أعمال الانسان جميعها وينبغي أن يكون شيئا يبحث عنه لنفسه بل انه هو الغاية وليس واسطة لبلوغ شيء آخر • فما هو هذا الخير الاعلى ؟ يرى ارسطو ان صلاح أي شيء يكون في تحقيق وظيفة ذلك الشيء والانسان يشارك عالم النبات في الغذاء والتناسل ويشارك عالم الحيوان في الحس • ولكنه ينفرد في حيازته على الحياة العقلية وعلى ذلك ، فان وظيفة الانسان أن تعمل الروح أو النفس وفق العقل • ووظيفة

الانسان الصالح أن يكون ذلك العمل صالحا خيرا ويكون الخير الاعظم عند الانسان «العمل الفاضل» ويدعو ذلك ارسطو بكلمة خاصة هي «يوديمونيا» (Eudaimonia) التي يمكن ترجمتها بالسعادة أو الوجود السعيد . ولكن ينبغي لنا أن لا نخلط بين هذه السعادة وبين اللذة أو السرور ، لان اللذة والسرور، كما يرى ارسطو ، ليسا غايتين لذاتهما بل انهما نتاج يستتبع العمل الفاضل أو العمل الصالح .

واذا كانت السعادة نتيجة للعمل الصالح أو هي العمل الصالح فما هي الفضيلة أي ما هو هذا العمل الفاضل ؟ يرى ارسطو ان الفضيلة على ضربين فضيلة عقلية وفضيلة أخلاقية . أما مبعث الاولى وموطنها فهو الفكر ومقر الثانية الارادة . ولما كان الفكر وظيفة خاصة بالانسان ، فتكون أعلى فضيلة للانسان في حياة الفكر الخالص والتأمل المجرد ولكن مثل هذه الحياة لا تكون ممكنة الا بفضل الجزء الالهي (المقدس) الموجود فينا . أما الذين لا يستطيعون منا أن يصلوا الى هذه المرحلة العليا من التأمل النظري فيكون بمستطاعهم نوع آخر من الحياة العقلية ، وهي الحياة العقلية العملية التي تسيطر على رغباتنا وتنتج عندنا الفضيلة الاخلاقية .

وتحتل الفضيلة الاخلاقية عند ارسطو مكانة خاصة فهي عنده «عادة أو مزاج تنطوي على غاية أو اختيار مقصودين» ويمكن تمكينها وتثبيتها بالمران والرياضة . ومدار هذه العادة على «الوسط» بين متناقضين ، بين التفريط والافراط (خير الامور أوسطها) . فالشجاعة مثلا (وسط) بين التهور والجبن وان هذا الوسط شيء نسبي بالنسبة لنا أي انه يختلف باختلاف الافراد والاحوال وعلاوة على ذلك فان تقرير هذا الوسط من وظائف العقل العملي . وبوسعنا أن نستشف من وراء هذا (الوسط) الذي قال به ارسطو مثل الاغريق الاعلى في التناسب والقياس والانسجام .

والاخلاق في فلسفة ارسطو مادة العلم العملي وهو السياسة . فالانسان بطبيعته «حيوان سياسي» لا يستطيع أن يحقق قابلياته وامكانياته العليا الا في

حالة كونه عضوا فى دولة أو فى مجتمع • وتعنى الدولة عنده «دولة المدينة» التى لم يتعد حدودها العقل الاغريقى حتى فى أيام الاسكندر الكبير • ولما كان كمال الحياة وتكميلها لا يتحققان الا فى الدولة ، فتكون الدولة نظاما طبيعيا لازما ، وهى بهذا المعنى لها الاسبقية على الافراد الذين يؤلفونها ، وهى هدف الحياة الانسانية ومصدرها •

وقد هاجم ارسطو اشاعة الملكية والنساء التى حبذها افلاطون للطبقات العليا فى دولته المثالية • ويصر بدلا من ذلك على الملكية الخاصة فى المال وفى العائلة • ولما كان عنده مبدأ «ان شؤون شخص لا تعنى شخصا آخر» فقد أبان ان الملكية العامة تؤول الى التخريب وانعدام التعاون ، وهو التعاون الذى أراده افلاطون • ولكنه يتفق مع افلاطون بأن الحكام فى الدولة الصحيحة يجب أن يكونوا أحسن الجميع ويهدفون لصالح المجموع •

ولما كان ارسطو يعتقد بعدم المساواة بين الناس فقد برر نظام الرق عادا اياه نظاما طبيعيا • فان البعض لائقون بجبلتهم للحكم والبعض للخضوع • وكان ارسطو يحتقر العمل اليدوى ، وقد شارك هذا الاحتقار جميع الاغريق تقريبا • ولما كانت وظيفة الدولة تثبيت الحياة الصالحة فان العمال والصناع وجميع الذين لا تمكنهم أعمالهم من التفرغ لانماء الفضيلة يجب اخراجهم من حق المواطنة •

٤ ـ الجمـال :(١)

اشتهر ارسطو بكتاباته فى موضوع الجمـال (ولا سيما قسم البيوتيقا أى الشعر) وقد اتخذت آراؤه مقياسـا للنقد الفنى فى العصور القديمـة والوسطى والى العصور الحديثة ولا تزال كذلك تحتل مكانا مهما فى النقد

---

(١) يتضح من بحث ارسطو وغيره من فلاسـفة اليونان فى الجمال ان البحث فى هذا الموضوع أقدم من اسم علم الجمال فى الوقت الحاضر وهو «الاستتيقى» (Aesthetics) وكان أول من استعمل هذا المصطلح «بومجارتن» (١٧١٤ ـ ١٧٦٢) أحد اتباع الفيلسوف الالمانى «وولف» وكان أول من جعله فرعا مستقلا من فروع الفلسفة •

الفنى الحديث ان لم يكن بين الفنانين المعاصرين والا بين أساتذة الكليات والجامعات ومن أقواله المأثورة «ان الفن يقلد الطبيعة» وكان هذا فى الواقع شعارا أو رمزا عند الناس وليس حقيقة ، لان «التقليد» عنده فى هذا الباب لا يعنى بتقليد الظواهر الخارجية بقدر ما يعنى بالمعانى أو الحقيقة الداخلية .

ويؤكد فى موضوع الرواية (الدراما) على وحدة الفعل فى موضوع الرواية ولم يقل بالوحدات الثلاث وهى الزمان والمكان والفعل وهو المبدأ الذى ألصقه به الكتاب المتأخرون .

وامتاز ارسطو عن افلاطون فى قضية المادة والصور (forms) أو المثل عند افلاطون حيث لم ير مثل افلاطون عالم المثل منفصلا مستقلا عن عالم الحس ، بل حاول التوفيق بين الكليات والجزئيات ، وعنده ان هذا التوفيق ضرورى فى تكوين عالم الحقيقة والمعرفة وتدور محاولته على فكرة «المادة» «والصورة» وهما اللتان كانتا منفصلتين عند افلاطون فأعاد التوفيق فيما بينهما . واذا كان الايونيون ، كما رأينا قد أكدوا على المادة فقط والفيثاغوريون وافلاطون على الصورة فقط ، فان ارسطو ذهب الى ان الصورة والمادة يتعلق كل منهما بالآخر ، فالصورة ملازمة للمادة أى ان الكلى ملازم للجزئى ، ومن الممكن ان يتميزا ولكنهما لا ينفصلان . ويتعلق بهذا المذهب الخاص بالصورة والمادة مبدأ العلل الاربع عند ارسطو ، وملخص هذا (١) اذا أردنا أن ندرك أشياء معينة ادراكا صحيحا فينبغى أن نعين أربعة امور فيها أو أربع علل ، وهى : (العلة المادية) (Material Cause) أى المادة التى تتكون منها تلك الاشياء أو المصنوعة منها تلك الاشياء (٢) العلة الصورية (Formal Cause) أى الصورة أو القانون فى كيفية تركيب تلك الاشياء أو صنعها (٣) العلة الفاعلية (Efficient Cause) أى العامل أو الفاعل الذى تكونت بواسطته تلك الاشياء (٤) العلة الغائية (Final Cause) أى الغاية التى من أجلها تكونت أو صنعت تلك الاشياء . وقد أوضح ارسطو انه ليس من الضرورى ان توجد جميع هذه العلل فى جميع الاشياء ، فبعض الاشياء

يمكن فهمها بأخذ بعض من تلك العلل • ومما يجدر التنويه به عن فلسفة ارسطو أن فلسفة ابن سينا (٣٧٠ – ٤٢٨ هجرية) أقرب فلسفات المسلمين اليها ، كما ان ابن رشد (٥٢٠ – ٥٩٥ ه) شرح تعاليم ارسطو ولا سيما في كتابه الشهير «تهافت التهافت» الذى رد به على الغزالى فى طعنه بالفلاسفة والفلسفة •

شيء عن الفلسفة اليونانية بعد ارسطو :

استمرت الفلسفة اليونانية عدة قرون من بعد ارسطو ، ومع ذلك فانه بوسعنا أن نلاحظ ان روحا جديدة قد طغت عليها حتى فى أثناء حياة ارسطو • وكان ذلك نتيجة لفقد الاغريق استقلالهم على يد المقدونيين فى موقعة «خيرونية» (٣٣٨ ق• م) • فلم تترك الشدائد التى حلت بالاغريق من جراء السيطرة المقدونية ميلا أو متسعا الى الفلسفة البحتة • بل احتاج الناس بدلا من ذلك دواءا يقويهم ليس من الفلسفة بل من الدين والاخلاق • وبذلك صارت الفلسفة من بعد العهد الارسطوطاليسى تطغى عليها النزعة الاخلاقية والدينية • وهكذا شغل الرواقيون (Stoics) أنفسهم والابيقوريون والشكاك فى مسائل الحياة من السلوك المثالى ، ويتجلى ذلك فى مذاهبهم بالتوصية بالاتزان ورباطة الجأش وراحة العقل وسلامته وتحرير النفس من قيود الاوضاع والاحوال الخارجية • وقد اتخذ الابيقوريون بغض النظر عن فلسفتهم الاخلاقية الفلسفة الذرية الخاصة بديموقريطس التى ذكرناها فيما سبق ،[1] واشتهر الرواقيون فى مذهب الحلول وكذلك فى نظرتهم العامة

---

(١) استخدم الابيقوريون هذه الفلسفة فى نواح اجتماعية ولا سيما فى تطمين الاغنياء المترفين فى العصور الهلنستية الذين خافوا من عاقبة ما بعد الموت ، فبموجب تفسير ديموقريطس للروح بكونها اتحاد ذرات لطيفة تتحرك بانتظام ما دام الجسم حيا ثم تتفرق وتتشتت بالموت ، لا يكون ثمت وعى أو حس أو ألم • كما ان الابيقوريين وصفوا الآلهة بأنها أرواح مخلدة فى السماء ولا شأن لها بما يحدث فى الارض ، كما انها عديمة الاثر فى سير الحياة التى تسيرها سنن الضرورات الطبيعية ولهم رأى خاص بالسعادة ، حيث يتم الحصول عليها بالابتعاد عما يثير القلق الروحى بالانصراف الى الفلسفة ولذة التأمل والفكر •

وعدم التفريق في مسألة الوطن والمواطنة • وتأثر الرواقيون أيضا بمادية ديموقريطس ولكنهم خالفوا الابيقوريين في سلوكهم وقالوا بمبدأ الفضيلة من حيث استجابتها للضروريات المادية الطبيعية • وقد وضع الشكاك الاسس التي سار عليها أصحاب فلسفة الشك فيما بعد • وقد كان للشرق أثر مهم في الفلسفة الاغريقية في هذا العهد ، وهو العهد الذي أخذنا عنه بعض الشيء في كلامنا على عصر «الهلنستي» • وعندما صارت بلاد اليونان جزءا من المملكة الرومانية (سنة ١٤٦ ق • م) نشأ عهد جديد في تاريخ الفلسفة يصح أن نسميه بعهد الفلسفة «الرومانية ــ اليونانية» ومما يميز به هذا الدور بوجه الاجمال انه كان نهاية البحث المنظم والابداع وحل محله ميل الى الشروح والتفاسير المطولة ، وكان في الوقت نفسه عصر حصل فيه اتجاه الى تحصيل العلوم والاتساع في الاطلاع والاقبال عليها وصارت العلوم متميزة بعضها عن بعض في مواضيع بحثها بخلاف ما كانت عليه في زمن ازدهار حضارة الاغريق حيث كانت كلها تنتظم تحت الفلسفة •

التـــاريخ

هيرودوتس :

يلقب هيرودوتس بأبي التأريخ • وقد ولد في « هليكارناسوس » بين ظهراني اولئك الاغريق في غربي آسية الصغرى الذين بدأوا نهضة الاغريق العقلية • ويرجح انه ولد في العام ٤٨٥ ق• م (أو ٤٨٠) وتوفي في حدود ٤٢٥ ق• م ، وقبل أن يموت بست سنوات كانت رحى الحروب البيلوبونيسية تدور • وقد شغف مثل حكماء الاغريق بالحياة العقلية ، ولكن وجه همه الى الانسان وشؤونه وبعد ان نفي من المدينـــة التي ولد فيهـا بسبب ثورة سياسية ، اتجه الى الرحلات والاسفار فسافر الى مصر وفارس والاقاليم التي حوالي البحر الاسود والى بلاد الاغريق والى ايطالية ولعله الى العراق وفارس فحصل باسفاره على معلومات ثمينة عن معظم العالم المعروف • ولا يسعنا ان نبت في هل انه كان يفكر بمشروع تأريخه عندما قام بتلك الاسفار ليجمع

المادة له أو ان تلك الاسفار هي التي حفزته على كتابة ذلك التاريخ • ومهما يكن واقع الحال فقد جاء في مقدمة تاريخه «هذا تقديم بحث[١] هيرودوتس الهليكارناسي لكيلا يمحو الزمان اعمال الاغريق والبرابرة[٢] العجيبة ، وبوجه خاص لئلا تنسى الاسباب التي من اجلها شنوا الحرب فيما بينهم» وبوسعنا ان نستنتج من ذلك ومن كتابه ايضا حقيقتين مهمتين : الاولى انه دون بالنثر حوادث تأريخية محدودة (وفي هذه الحالة الحروب التي شنتها فارس على بلاد اليونان في زمن دارا الاول واحشويرش) وهو عمل لم يسبق به على ما نعلم احد من كتاب الاغريق والثانية انه اتبع في ذلك طريقة دعاها هو «التحري أو البحث اي Historia »[١] ، فصارت هذه الكلمة تطلق على جميع البحوث التأريخية المماثلة في معظم اللغات الاوربية •

ويمكننا ان نشيد بفضل هيرودوتس في بحثه التأريخي لا سيما اذا اعتبرنا الصعوبات التي جابهها في جمع مادته حيث لم يكن تحت متناول يده وثائق أو سجلات محفوظة او مكتبات منظمة او أي كتاب سابق يرجع اليه • وحسنا ما فعل عندما دعى تاريخه «البحث او التحري» لانه كان مضطرا الى جمع حقائقه ومراجعه بنفسه بالاتصال بالناس الذين كانت لهم معرفة بتلك الحوادث والحقائق ولكن مما سهل عليه جمع حقائقه قرب العهد • اي عهد حوادث الحروب بين الاغريق والفرس ، حتى انه كان باستطاعته الاتصال باناس حاربوا بالفعل في تلك الحروب ولا زالوا على قيد الحياة في زمنه • وقد يجد قراء تأريخ «هيرودوتس» نوعا من الخلط بين الاساطير والحقائق التأريخية بدون أن ينبه على الحد الفاصل فيما بين الاثنين وبوسعنا ان نتفق في ان هيرودوتس قد اغرم بسرد الحكايات والقصص الغريبة وانه كان عنده ميل اشبه مايكون بميل الاطفال الى القصص الخيالية[٢] •

---

(١) وهذا ما تعنيه كلمة (History) في أصل ما وضعها هيرودوتس وراجع مقدمة الجزء الاول •

(٢) يقصد بذلك الفرس • راجع ما اخترناه من تاريخ هيرودوتس في قصة كورش واستياجز •

ولكن ذلك لا يعني اغفال قيمة تأريخه بل ينبغي للقارىء ان يستعمل النقد • ومع ذلك فان تلك الخصائص التي نجدها ما هي الا ظاهرية اذ نجده يسرد الامور على سبيل الرواية بان يقول «يقال» او «يقولون» أي انه لم يصدق بما يروي وانما يذكره على سبيل الرواية • واذا ظهر هيرودوتس بصفة التحيز الى جانب اثينة فانه اظهر الاعتدال والصدق في ما كتبه عن الاقوام الاخرى من غير الاغريق ، وهم الذين يسميهم البرابرة ولا سيما الفرس أعداء اليونان • وتظهر على تأريخه ما كان يتصف به من الروح الدينية ، والظاهر ان مبادىء السوفسطائيين الفلسفية في زمنه لم تؤثر فيه بل بقي معتقدا بان الانسان تحكمه وتقدر مصائره الآلهة غير المنظورة • وبوسعنا ان نعد هيرودوتس اول من جمع مادة مهمة عن عادات الاقوام وازيائها وبحث فيها وهو ما يدخل الآن ضمن فروع علم الانسان (أي الانثروبولوجيا) •

ثوسيدايدز (Thucydides) (٤٧٠ ؟ ـ ٤٠٠ ق • م)

بعد مضي بضعة اشهر على موت هيرودوتس (٤٢٥ ق • م) حدث ان قائدا اثينيا اسمه «ثوسيدايدز» قد عزل من منصبه لفشله في احراز النصر • فاعتزل هذا في الريف في «تراقية» وتفرغ لكتابة تأريخ عن الحروب بين اثينة واسبارطة وهي الحروب التي نكب بسببها • وكان سلفه هيرودوتس قد استمر في ذكر حوادث الحروب الفارسية الاغريقية الى ما بعد موقعة سلاميس بقليل (٤٨٠ ق • م) • فلم يملأ «ثوسيدايدز» الفترة الطويلة بين سلاميس وبين نشوب الحروب البيلوبونيسية (٤٣١ ق• م) الا بمقدمة عامة • ووجه همه الى كتابة التأريخ المعاصر فقط ، لانعدام الوثائق والمراجع • ولانه وضع نصب عينيه التحري عن الحقائق وحدها ونبذ الاساطير والحكايات ، ورأى ان خير سبيل للعثور على الحقائق تسجيل الحوادث والوقائع ابان حدوثها او حوالى ذلك دون التعويل على روايات الناس بعد زمن جيل او جيلين عندما يحورها ويغيرها خيال الناس وهو الخيال الذي لا يمكن السيطرة عليه • ولا بأس ان ننقل نص ما قال بشأن منهج بحثه :

«لم اركن الى المجازفة فى التحدث عن وقائع الحرب من اى مصدر كيفما اتفق او من فكر من افكارى • ولم اصف اى شيء لم اشاهده بنفسى او آخذه من الآخرين الذين دققت عنهم وفحصت رواياتهم» • والواقع ان المؤرخ «توسيدايدز» كان مفكرا نقادا من الطراز الاول لا قياس له بسلفه هيرودوتس الذى اتصف بالتدين وقبول القيم المأثورة للحياة ، وهذا يفسر لنا الفرق بين تأريخي كل من الرجلين • ولان بحث «توسيدايدز» بحث خاص بحقائق محدودة وبموضوع محدود فقد امتاز تأريخه بالوحدة الفنية وبوحدة الموضوع بخلاف تأريخ سلفه • ومع ذلك ففي تأريخ هيرودوتس نوع من السحر والجاذبيــة بسبب تنقله فى بحثه وشمول تأريخه مواضيع مختلفة لا نجدها فى تأريخ خلفه • وملخص القول يمكننا ان نعد كلا من التأريخين يمثل طريقة خاصة فى البحوث التأريخية لا تزال كل منهما متبعة فى كتابة التأريخ الى يومنا هذا • فقد احتذى على مثال «توسيدايدز» جماعة كبيرة من المؤرخين عنوا من الوقائع والحوادث التأريخية بتأريخ الدولة ـ أى «السياسية والحروب» • ولكن ترى جماعة اخرى من المؤرخين ان التأريخ ينبغى ان يكون شاملا اوسع من موضوع السياسة والحرب أى موضوع «توسيدايدز» بل يجب ان يكون واسعا عاما كالحياة البشرية نفسها وهذا هو (تأريخ الحضارة) الذى بدأ بوضع أسسه شيخ المؤرخين هيرودوتس •

ونبغ فى العهد الرومانى مؤرخان اغريقيان احدهمــا (بوليبيوس)[١] والثانى (فلوطرخ) • وكان اولهما من جملة الرهائن الذين جلبهم الرومان من الاغريق بعد القضاء على اســتقلال الاغريق وضم المدن الاغريقية الى رومه (١٤٦ ق• م) وكان (بوليبيوس) من السياسيين ، وعلى قدر عظيم من الثقافة والتهذيب وقد الحق بعائلة (سكيبيوس) القائد الرومانى وشاهد بنفسه الحملات الحربية العظيمة فكتب بالاغريقيــة تأريخا خالدا دون فيه اخبار الحروب الرومـانية الكبرى • اما فلوطرخ (٦٤ ؟ ـ ١٢٠ م ؟) فقـد عاش فى عهد

(١) Polybius و (Plutarch)

الامبراطور الروماني تراجان ، وقد اشتهر بتراجمه النفيسة[١] التي كتبها عن مشاهير الاغريق والرومان وصارت هذه المرجع الاساسي للاجيال التالية في معرفتها باشياء كثيرة عن الاغريق والرومان .

وفيما عدا هيرودوتس وثوسيدايدز ، ظهر في الاغريق بعض المؤرخين من الازمان القديمة وأشهر هؤلاء (هيكوس) (Heacetaeus) ، وكان هذا معاصرا الى الفيلسوف الايوني (طاليس) وعاش في القرن السادس ق. م ، وهو اول مؤرخي اليونان . وقد اشتهر بما كتبه عن تأريخ اليونان واصلهم وهجراتهم الاولى . وهو يشبه المؤرخين العظيمين بنعته نفسه بانه يتحرى الحقيقة وقد تحلى بالروح العلمية ويؤثر عنه انه قال : (ان ما اكتبه هنا هي القصة التي اعتقد بانها حقيقة صحيحة ، لان اساطير الاغريق كثيرة ، وهي برأي مستحيلة التصديق) . وقد اعقب هذا المؤرخ هيرودوتس الذي اوجزنا ترجمته .

---

(١) Plutarch, Lives

الفصل الثامن والثلاثون

موجز تأريخ الرومان

تأريخ الرومان والحضارة الرومانية موضوع بحث مستقل لا يمكن الاسهاب فيه في هذا الكتاب ، ولكن هذا القسم الذي خصصناه للرومان ، مع ايجازه ، كاف لتكوين فكرة عن خطوط التأريخ الروماني وعن ابرز ميزات الحضارة الرومانية • ولما كانت حضارة الرومان فرعا من حضارة اعم ، وهي الحضارة الهلينية فان ما ذكرناه عن تلك الحضارة (أي الحضارة الاغريقية) يساعد على فهم حضارة الرومان واصولها وتراثها • وقد اثر التأريخ الروماني في حياة الشرق القديم في الايام الاخيرة من تأريخه القديم ، ونشأت علاقات مهمة بين الرومان وبين الدول الشرقية التي قامت على انقاض دول العراق القديم كما مر بنا في الكلام على الدولتين الفرثية والساسانية ، وكان العراق بوجه خاص ميدانا لحروب كثيرة نشبت بين الرومان وبين تلك الدول • والى ذلك سيطر الرومان على جميع الاقاليم الكائنة في شرق حوض البحر المتوسط زهاء خمسة قرون • وكانت هذه الاقاليم ملتقى حضارات الشرق القديم والحضارة الاغريقية (الهلينية) •

واذ كان من المتعذر ، كما قلنا ، الاحاطة بتأريخ الرومان بوجه التفصيل فاننا مع ذلك نستطيع أن نكون صورة جامعة عن ذلك التأريخ بتقسيمنا اياه الى عهدين كبيرين أساسيين وهما : (١) عهد الدولة أي الجمهورية الرومانية و (٢) عهد الامبراطورية •

١ – عهد الدولة الرومانية (الجمهورية)

ونذكر من هذا العهد النقاط البارزة أي الحقائق الاساسية في التأريخ الروماني على الوجه الآتي :–

١ – جاءت القبائل الايطالية الى شبه الجزيرة التي دعيت فيما بعد «ايطاليا» ، وكانت هذه القبائل جزءا من هجرات الاقوام «الهندية–الاوربية» ، وكانت في بداية أمرها ، كما كان الحال في قبائل الفرس والاغريق ، قبائل شبه همجية ، ولكنها أخذت تتعلم أصول الحضارة بالتدريج من اتصالاتها بالمدنيات المجاورة • وتعلمت بوجه خاص من جماعات كانت تقطن في ايطالية نفسها قبل مجيء «الايطاليين» ، وهم «الاتروسكيون» الذين يحتمل أن يكون أصلهم من آسية الصغرى وكانوا مسيطرين على ايطالية في القرن السادس ق • م ، من مدنهم المحصنة التي كانت في الاقليم المسمى «توسكاني» ثم تعلمت من اليونان وأخذت عن القرطاجيين أشياء مفيدة من عناصر الحضارة •

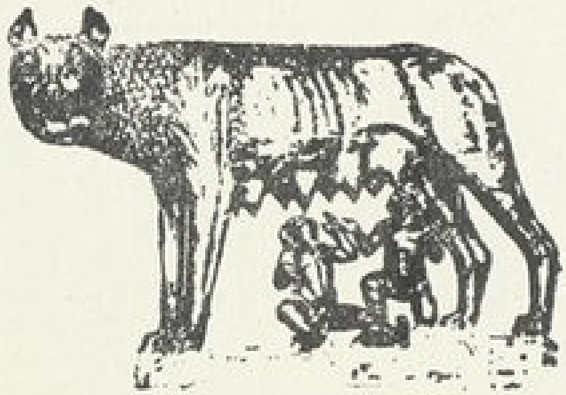
٢ – وكان الرومان في مبدأ أمرهم يحكمهم ملوك لا يمتون اليهم بصلة ويرجح كثيرا أن يكونوا ملوك الاتروسكيين أنفسهم ، ولا نعلم كم دام هذا العهد • ولكن المرجح كثيرا ان الايطاليين أنشأوا جمهورية قوامها «دولة المدينة» ولا سيما في روما في حدود ٥٠٨ ق•م[١] لا تفرق كثيرا عن دويلات المدن الاغريقية ، وكان في ايطالية دويلات مدن أخرى غير دولة رومة ، ولكن رومة أخذت تسيطر عليها بالتدريج وتضمها اليها مكونة مملكة واحدة وبوسعنا أن نلخص توطيد سلطان رومة في جميع ايطالية بالمراحل الآتية :– (١) ظلت دولة رومة حتى ٣٢٥ ق • م في حروب مع الاتروسكيين ومع منافسين آخرين من اللاتين وكذلك صدت هجمات الغاليين واستطاعت أن تنجح في جميع ذلك وتحرز السيادة ، وكانت في أثناء ذلك قد اكتسبت كثيرا من عناصر الحضارة ومن بين ذلك الحروف الهجائية المشتقة من الخط الاغريقي

---

(١) تروي المآثر الرومانية ان مدينة رومة تأسست في حدود ٧٥٣ ق• م وان الذي أسسها الاخوان التوأمان رومولوس وريموس (انظر الصورة في ص ٦٠٨) •



(٢) بدأت رومة بصفتها زعيمة الدويلات اللاتينية في (٣٢٥ – ٢٨٠) في دحر الاقوام الايطالية الاخرى في وسط ايطالية وفي جنوبها (ومن بين ذلك القبائل المعروفة بالسامنية) وكذلك الاتروسكيين والغاليين (٣) وأخيرا رضخت بعض المدن الاغريقية في ايطالية الى سيادة رومة ،واستطاعت في حدود (٢٨٠–٢٧٥) أن تصفي الحساب مع منافسيها فتقضي على مقاومتهم (٤) اتخذت رومة سياسة حكيمة باتخاذ القبائل الايطالية التي كانت تخضعها حلفاء لها وأعطت الجماعات الاخرى الحكم الذاتي المحلي ، واذا أضفنا الى هذا العامل الطرق الرومانية الشهيرة أدركنا العوامل التي استطاعت بها رومة أن تؤسس دولة قوية موطدة استطاعت أن تقف بوجه كثير من الصدمات التي حلت بها فيما بعد .



صورة ذئبة من البرونز · قديمة العهد (من صنع فنان يونانى علش فى ايطالية فى القرن السادس ق· م) ، وتمثل الصورة الاسطورة الخاصة بالاخوين التوامين «رومولوس» و «ريموس» اللذين ارضعتهما وربتهما ذئبة · وتنسب المآثر تأسيس رومة الى هذين الاخوين

وقبل أن نتابع ايجاز الوقائع الاساسية فى تأريخ الرومان نقول كلمة مختصرة عن نظام الحكم فى رومة قبل أن تصير امبراطورية وهو النظام الذى نشأ مع نشوء الدولة الرومانية · ويبدأ ذلك منذ أن تخلصت رومة من حكم الملوك الاتروسكيين وأخرجتهم من المدينة فى حدود (٥٠٠ أو ٥٠٨ ق·م) ، وكان العامل المهم فى طرد هؤلاء الملوك طبقة النبلاء الرومان (الباتريشى) ، فأخذ هؤلاء زمام الحكم بيدهم ، ولكن لم يستطع أحد منهم أن يكون ملكا ، بل انهم وافقوا لعله ارضاءا للناس ، على أن ينتخب اثنان منهم يسميان «القنصلين» لرآسة الدولة وكانت مدة انتخابهما سنة واحدة وكانا متساويين فى السلطات · وكانت طريقة انتخابهما تتم فى كل عام من مجمع يضم جميع القادرين على حمل السلاح أى جميع المحاربين · ويكون نوع الحكومة هذا النظام الجمهورى تقريبا ولكن كان للجمهورية رئيسان · ولما كان حق اختيار القنصلين محصورا فى طبقة النبلاء فقد صارت حكومتهم تتصف بالاستبداد · ولكن العوام (البليبون وهم على الاكثر من القبائل اللاتينية) رفضوا الخضوع الى استبدادهم وحيث كان النبلاء فى حاجة ماسة الى العوام اذ هم مادة الدولة وجنودها ، فقد استرضوهم وأعطوهم حصة كبيرة فى الحكم بأن سمحوا لهم بانتخاب جماعة من الموظفين من مجمعهم ، وسمى هؤلاء

الموظفون «تربيون» وكان لهؤلاء الحق في نقض أي قرار أو قانون حتى ما كان يصدر من القنصلين . فاذا ما شعر مواطن بهظم حق له من جانب القنصل فانه كان يرفع ظلامته الى «التربيون» الذى كان باستطاعته أن ينقض الحكم حتى الحكم الصادر بالاعدام ، وهكذا حصل «التربيون» على سلطات واسعة وعندما زادت أعمال الحكومة زاد عدد أعضاء مجلس «التربيون» ونشأت طبقات جديدة من الموظفين لمساعدة القنصلين اللذين كانت أعمالهما كثيرة كقيادة الجيوش وتنفيذ القوانين والهيمنة على موارد الدولة الى غير ذلك من شؤون الحكومة ، فعين موظفون لادارة الشؤون المالية[١] ، ثم موظفون عامون[٢] أنيطت بهم احصاء النفوس وتخمين الضرائب المترتبة على الافراد وتنظيم أمور الانتخاب ومراقبة سلوك الناس وكذلك عين القضاة للبت في القضايا[٣] . واعتاد الرومان في ابان الازمات الوطنية أن يعينوا حاكما عاما ممن يثقون بهم وبنزاهتهم يعطى السلطة العليا المطلقة وهذا هو الدكتاتور الذى كان يعين زمنا قصيرا محدودا . ونشأ عند الرومان مقابل «التربيون» مجلس (السنات) أى مجلس الشيوخ[٤] يؤلف من النبلاء (أى الباتريشيين) والواقع ان مجلس الشيوخ يرجع في أصله الى زمن الملوك الاتروسكيين الذين كانوا يجمعون مثل هذه المجالس للشورى وكان هذا يسيطر على القنصلين والسلطة التنفيذية . ومع سلطة «التربيون» بحق النقض ورفع الظلامات عن طبقة العوام ، فلم يكن بوسعه أن يضمن حقوق العوام وتمتعهم بحق المواطنة والحقوق السياسية ومحافظة ممتلكاتهم الى غير ذلك ، ولذلك لم تكتف طبقة العوام بحصولها على مجلس العوام (أى التربيون المنتخب منهم) بل استمرت في انتزاع حقوقها من الطبقة المتنفذة المثرية ، واستمر النزاع

---

(١) يسمى أحدهم (Quaetor)

(٢) ويسمى أحدهم (Censor) اى الرقيب ومنه اشتقت الكلمة الانكليزية بهذا اللفظ والمعنى .

(٣) ويسمى أحدهم (Praetor)

(٤) وهو مشتق من (Senex) اى الشيخ .

وكان شبيها بما حدث فى اثينة وبعض الدويلات الاغريقية الاخرى فى أثناء انتقالها الى الحكم الديمقراطى ولكن تطور النزاع فى رومة الى نتائج أفضل ووصلوا الى تسوية أحسن والواقع ان الرومان كافحوا كفاحا شديدا ، ولكن بدون اراقة دماء أو ثورات ونجحوا نجاحا كبيرا فى خلال القرنين اللذين أعقبا تأسيس الجمهورية • فمن جملة ما طالبوا به وأحرزوا فيه النجاح تدوين القوانين المتعارف عليها ، فلم يكد يمضى خمسون عاما على تأسيس الجمهورية حتى دونت القوانين الرومانية القديمة على اثنى عشر لوحا من البرونز (٤٥٠ ق • م) ، وطالب الشعب فى الوقت نفسه أن يكون له نصيب فى وضع القوانين الجديدة • ونشأ فى رومة مجلسان مهمان[١] صارا مجلسين تشريعيين لجميع الدولة الرومانية • وقد استطاع العوام الحصول على حقوق متساوية فى انتخاب هذين المجلسين ، وهكذا أصبحت للعوام حقوق مهمة فى التشريع وزادت حصتهم من ادارة الدولة وحفظت حقوقهم[٢] •

٢ ـ الامبراطورية الرومانية

أ ـ أسباب نشوء الامبراطورية ومقدماتها :ـ

ان العوامل التى سببت انتقال الدولة الرومانية من النظام الجمهورى الى النظام الامبراطورى (فى عهد اوغسطس) لم تقتصر على اتساع الدولة الرومانية بالفتوح الخارجية وضم الاقاليم الخارجية فحسب بل لنشوء هذا النظام من الحكم أى النظام الامبراطورى[٣] عوامل أخرى من جملتها عامل الاتساع

---

(١) أحدهما (Centuriate) (المئوى) والآخر (Tribal) (القبلى) أو باللاتينية (Comitia Tributa) والآخر (Comitia Centuriata)

(٢) يراجع ما ذكرناه عن قرطاجة وعلاقتها مع الرومان فى تاريخ بلاد الشام •

(٣) سيتضح من الكلام على العهد الذى نشأت فيه الامبراطورية فى زمن اوغسطس انه بالرغم من نشوء الامبراطوريات فى الشرق بوجه خاص ، فان هذه الامبراطوريات لم تؤثر فى صميم نظام الحكم المتبع فى تلك الدول وانما اقتصر أمرها على اتساع الدولة بالفتوح الخارجية وضم الاقاليم الاخرى اليها • أى ان نظام الحكم ومراكز الملوك فى تلك الدول لم يتغير كما حدث =

الخارجي وبوسعنا أن نحصر هذه العوامل في ثلاثة أصناف :ــ

أ ــ العوامل السياسية :

تنجت هذه العوامل من النقص السياسي في نظام الحكم نفسه ، وبالدرجة الاولى عجز مجلس الشيوخ الروماني في تنظيم ادارة عادلة لائقة تشمل جميع الممتلكات والبلدان التي دخلت في حوزة الدولة الرومانية على أثر الفتوح الخارجية وقد أصبح التفسخ والفساد مزمنين ولا سيما من جانب الحكام المستبدين الذين كان همهم سلب خيرات الاقاليم التابعة الى الدولة الرومانية •

ب ــ العوامل الاقتصادية :ــ

وقد أدى نهب الاقاليم وابتزاز ثرواتها تجمع الثروات في أيد قليلة من الحكام الارستقراطيين وأصحاب المصالح والاعمال وجامعي الضرائب . فنشأ في رومة نظام رأسمالي مركز نتج عنه الاستحواذ على الاراضي والاملاك بأيد قليلة وافقار الفلاحين والمزارعين الصغار • ومما زاد في الطين بلة نظام الرق، حيث صار الملاكون يستخدمون العبيد في زرع الارض فحلت البطالة والمجاعة في طبقات كثيرة من الناس •

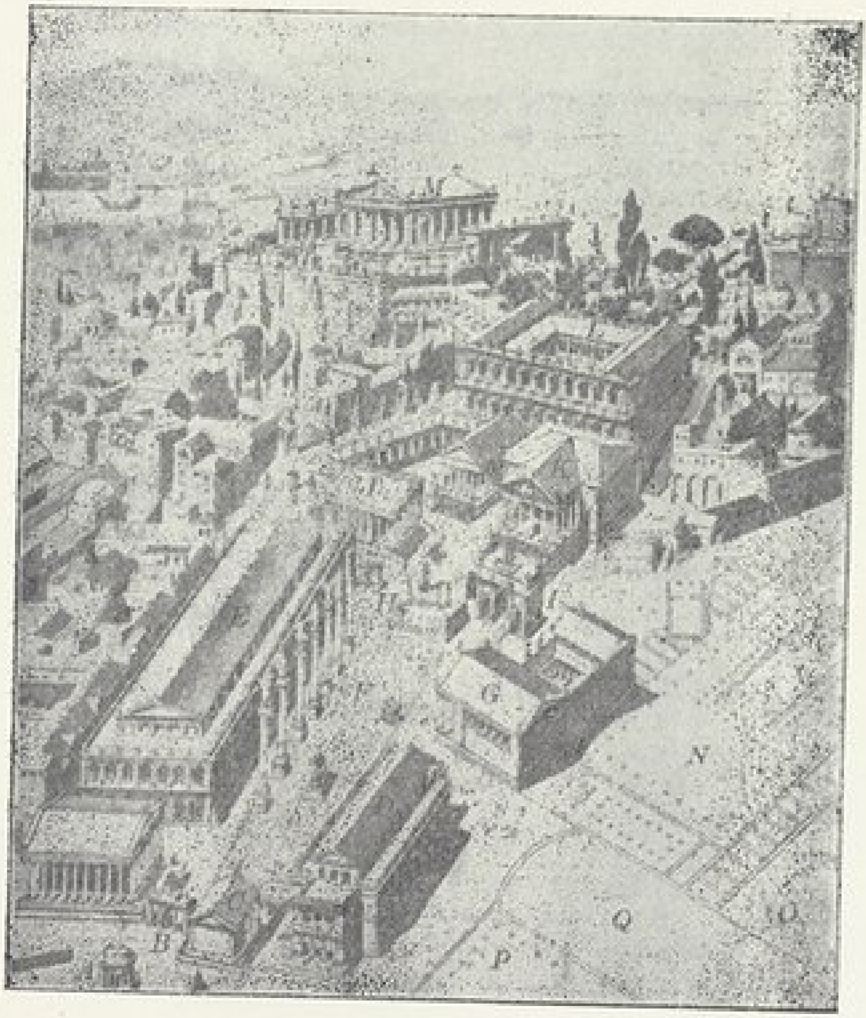
ج ــ العوامل الاجتماعية

وكان أبرز النتائج الاجتماعية التي نتجت عن تلك الشرور ازدياد البطر والبذخ عند الاغنياء وافقار الجماهير من السكان وازدياد العبيد وعملهم فالتجأ الفلاحون الذين طردوا وحل محلهم العبيد الى الهجرة الى رومة فازداد عدد الجماهير الفقيرة البطالة ، وخلقت من ذلك هوة سحيقة بين الاغنياء المتنفذين وبين الفقراء وازداد فيما بينهم الحقد والكراهية •

= في «رومة» عندما نشأ فيها النظام الامبراطوري حيث حدث تغيير دستوري في نظام الحكم ولذلك فيصح أن نطلق على الامبراطوريات القديمة اسم (Inorganic Empires) تمييزا لها عن الامبراطورية الرومانية التي نسميها (Organic).

ان جميع هذه العوامل حتمت نشوء نظام جديد غير النظام الروماني الجمهوري العتيق وهو النظام الذي نشأ يوم كانت رومة «دولة مدينة» أما الآن فقد رأينا كيف انتقلت دولة المدينة هذه أولا الى دولة موحدة ضمت جميع شبه الجزيرة ثم بسطت سلطانها على أقاليم أخرى ، فشملت الدولة شعوبا وأقواما مختلفة ، وقد أصبح مجلس الشيوخ الذي تتركز في يده السلطات عاملا في اضعاف رئاسة الدولة والسلطة التنفيذية ، وكانت ادارة الدولة الواسعة وحكمها يتطلبان الحزم والسرعة في تقرير الاوامر وتنفيذها وحفظ الامن وصيانة الحدود التي تستلزم قيادة عسكرية حكيمة واسعة النفوذ ، ومما زاد في الطين بلة ان الاغنياء من النبلاء كان منقسمين على أنفسهم وفي نزاع فيما بينهم على استلاب الثروات .

ولما يئس العوام من الاصلاح قاموا بعدة ثورات لنيل حقوقهم وانضم اليهم كثير من النبلاء لجلب العوام اليهم وتوسيع نفوذهم في الحكم منافسة لغيرهم من النبلاء وقام قسم من هؤلاء المؤيدين للعوام ببعض الاصلاحات التي مست بحقوق مجلس الشيوخ (السنات)وأغضبته فحدثت اغتيالات ومؤامرات، وبرز قواد وزعماء ، وكان من جملة النبلاء المتقربين من العوام قائد شهير اسمه«بومبيوس» (بومبي)فانتخب قنصلا(في عام ٧٠ق٠م)والغى هذا بعض الانظمة والقوانين المضرة بمصالح العوام واستطاع أن يحافظ على الامن ويقضي على القرصنة البحرية التي كانت منتشرة في البحر المتوسط وثبت سلطة رومة بالقضاء على الثورات التي نشأت في ايطالية واسبانية وآسية الصغرى ، واستطاع أن يفتح الاقاليم في سواحل البحر الاسود وفتح سورية وجعلها اقليما رومانيا(٦٤ق٠م)وفتح القدس كذلك حتى انه أوصل حدود الدولة الى الفرات كل ذلك عمل على ازدياد نفوذ «بومبيوس» فخافه مجلس الشيوخ وخشي استبداده بالحكم فأخذ يعارضه ويقاومه ، وبرز من المعارضين له قائدان هما «كراسوس» و «يوليوس قيصر» ، ولكن استطاع بومبيوس أن يتفق معهما



بناء «الفورم» الرومانى (كما يجب أن يكون عليه فى الاصل) ويشاهد فى الصورة الابنية العامة التى اشتهر بها هذا الموضع فىعهد الامبراطورية القديم

وتألفت على أثر ذلك حكومة ثلاثية[1] (٥٩ ق ٠ م) وقد صار قيصر فى أول سنة من الحكم قنصلا ، ثم صار الاتفاق على أن يحكم قيصر بلاد الغالة (فرنسة) مدة خمس سنوات وأن يبقى بومبيوس فى رومة ويكون صاحب

---

(١) (Triumvirate)

الامر • أما «كراسوس» فقد ذهب بحملة حربيــة مع الفرثيين[١] فقتل فى الحرب •

يوليوس قيصـر :

أخذ يمهد لنفسه ويبسط نفوذه ، وقد تقرب من العوام (وهو من طبقة النبلاء) وقد أظهر نفسه سياسيا ممتازا وعندما ذهب الى فرنسة أبدى مهارة عسكرية فائقة ، واستطاع بعد حروب دامت ثمانى سنوات أن يبسط نفوذه على جميع فرنسة من جبال الالب حتى بحر المانش ، ومن نهر الراين حتى ساحل المحيط الاطلسى[٢] وقد غزا انكلترة مرتين • واستطاع قيصر أن يكسب رضا جنوده ويستميلهم اليه بحسن المعاملة وزيادة الرواتب وكانت أخبار انتصاراته وأعماله العسكرية قد أكسبته عند الرومان مكانة مرموقة ، كل ذلك جعل بومبيوس ومعه مجلس الشيوخ الرومانى يخشى نفوذ قيصر واستبداده • وعندما قربت مدة حاكمية قيصر على بلاد الغال من الانتهاء صار أتباعه فى رومة ، بتوصية منه ، يمهدون له السبيل لانتخابه قنصلا ، فخشى مجلس الشيوخ من رجوعه الى رومة وهو مزهو بالانتصارات العسكرية ، فأخذ «بومبيوس» جانب مجلس الشيوخ متخليـا عن زعامة العوام وجماهير الناس • وكانت أولى بوادر النزاع ان مجلس الشيوخ أصدر أمرا الى قيصر بتسريح جيشـــه وهو الجيش المـــاهر الذى لا يرتبط الا بقيصـر بصفته قائده العظيم المحبوب • فسلك قيصر تجاه ذلك خطوة جريئة سريعة بأن سار بجيشـــه الى رومة وأخذ خصومــه على حين غرة (٤٩ ق • م) ، فلم يسع بومبيوس أن يقابل جيوش قيصر الزاحفة فهرب ومعه كثير من أعضاء مجلس

---

(١) راجع البحث الخاص بالفرثيين •

(٢) ومما يذكر عن قيصر انه مع انشغاله فى الحروب والحملات فقد وجد متسعا من وقته فالف تاريخا فى الحروب الغالية . ويعد تاريخه من أحسن أنواع النثر اللاتينى ، وان كان الغرض من وضعه دعاية سياسية لنفسه أظهر فيها قيصر الاعمال العسكرية المجيدة التى قام بها فى سـبيل الرومـان •

الشيوخ والنبلاء الى بلاد اليونان ليشن الحرب من هناك وكان معه اسطول عظيم ، وله جيش في اسبانية ، وهكذا كان على قيصر أن يحارب قوات الاعداء في جبهتين في الغرب والشرق • وقد بدأ حربه في اسبانية وبحركات بارعة وبقطع الامدادات اضطر جيش «بومبيوس» في اسبانية على التسليم بدون حرب تذكر (٤٩ ق • م) فتفرغ قيصر لحرب خصومه في اليونان (٤٩ ـ ٤٨ ق • م) وقضى عليهم في معركة مشهورة (٤٨ ق • م) ، فهرب «بومبيوس» الى مصر وقتل هناك بتحريض من قيصر • وهكذا تخلص قيصر من أعدائه ومنافسيه وأصبح سيد الامبراطورية الاوحد • فوجه همه من بعد ذلك الى توطيد أمور الامبراطورية في الخارج ، واستغل فرصة النزاع على عرش مصر بين بطليموس واخته كليوبطرا ، فتوجه بجيشه الى الاسكندرية وحارب بطليموس وقتله وأجلس كليوبطرا على العرش وبقي معها عدة شهور[١] (من تشرين الاول ٤٨ الى حزيران ٤٧ ق • م) وأبدى ضعفا وانجذابا أمام الملكة الجميلة ، وعاش معها في الاسكندرية[٢] • وقد حدثت من بعد ذلك ثورة في آسية الصغرى فأخمدها قيصر في بضعة أيام • ومما يؤثر عن قيصر كلماته المشهورة التي أرسلها الى مجلس الشيوخ الجديد (أتيت ـ رأيت ـ ظفرت)[٣] ، وهي تدل على اعتداد قيصر بنفسه وبقابلياته • وعاد قيصر الى ايطالية ، وكانت انتصاراته قد رفعت منزلته في نفوس الشعب الذي وجد منه العطف على مصالحه والرغبة في الاصلاح ، فكافأه مجلس الشيوخ وعينه دكتاتورا طوال حياته (سنة ٤٥ ق • م) ومما يقال عن قيصر بوجه الاجمال انه استعمل قوته ونفوذه باعتدال ، فلم ينتقم من أحد ومنح الشعب حريته وقضى على الفوضى ونشر الامن • وضرب على أيدي الموظفين والجباة المختلسين

---

(١) كليوبطرا المشهورة بالجمال وهي سابعة امرأة بهذا الاسم من البطالسة وكانت آخر البطالسة في مصر •

(٢) وقد حدثت مرة اضطرابات أحدثها الغوغاء والعوام فهوجم قيصر ولكنه نجا بصعوبة وقد أحرقت مدينة الاسكندرية المشهورة في أثناء ذلك ومعها مكتبتها الشهيرة •

(٣) Veni, Vidi, Vici

ووزع الاراضى على جنوده وشغل المواطنين العاطلين ، ومنح حق الرعوية الرومانية لجميع سكان البلاد التابعة ، ووضع تقويما جديدا هو التقويم الذى لا يزال مستعملا حتى اليوم ويسمى باسمه (التقويم اليوليانى) وأطلق اسمه على أحد الشهور «يوليو» (تموز) .

قام قيصر بهذه الاعمال على الرغم من انه لم يعش الا خمس سنوات منذ أن دخل الى ايطالية (٤٩ – ٤٤ ق . م) ، قضى أربعا منها بالحروب . وقد عين اليوم الثامن عشر من آذار سنة ٤٤ لقيامه بحملة على الفرثيين شرق الفرات ولكن المؤآمرات كانت تحاك ضده ، لان قسما من الرجال المشهورين من أعضاء مجلس الشيوخ كانوا يمقتون حكم رجل واحد ، وكانوا يحاولون اعادة النظام الجمهورى العتيق الذى حكم التاريخ بزواله وعدم صلاحيته . فأغتيل قيصر فى قاعة مجلس الشيوخ فى ١٥ آذار سنة ٤٤(١) وكان من جملة قتلته البارزين «بروتس» و «كاسيوس» .

انطونيوس والحرب الاهلية :ـ

كان قيصر محبوبا لدى الشعب فأثار اغتياله سخطه واستغل ذلك «انطونيوس» صديق قيصر وأهاج الشعب على قاتليه الذين أخذوا الحكم من بعده واضطرهم على الهرب الى مقدونية ، وأخذ انطونيوس الحكم لنفسه ، ولكن كان لقيصر قريب شاب يسمى «اوكتافيوس» كان قيصر قد تبناه وأوصى بأن يكون وريثه فأسرع هذا الشاب الى رومة وطالب بحقه واستطاع بما أبداه من الحنكة والسياسة أن يستميل اليه قسما من الجنود ونجح فى انتخابه قنصلا (٤٣ ق . م) واستطاع أن يكون اتحادا ثلاثيا منه ومن انطونيوس ومن زعيم آخر هو «ليبدوس» وتكونت من الثلاثة حكومة ثلاثية(٢) ، على أن يحكم انطونيوس القسم الشرقى من الامبراطورية واوكتافيوس القسم

---

(١) وهو التاريخ المشهور (The Ides of March) . راجع بهذه المناسبة رواية «يوليوس قيصر» لشكسبير .

(٢) وهى الحكومة الثلاثية الثانية من بعد زمن قيصر .

الغربى منها ويحكم الثالث شمالى افريقية عدا مصر • وبموت الثالث بعد مدة قصيرة أصبحت الامبراطورية مقسمة بين «انطونيوس» و «اوكتافيوس» ، أخذ أولهما القسم الشرقى منها وأخذ الثانى القسم الغربى • وكان أول شيء قامت به هذه الحكومة القضاء على قتلة قيصر فى معركة «فيلبى» عام ٤٢ ق•م• وأخذت تظهر من بعد ذلك مقدرة الرجلين ومواهبهما • وقد بدا للرومان ان انطونيوس دون صاحبه فى الحكمة والكياسة ، وازدادت ضآلة شأن انطونيوس على أثر فشل مريع فى حرب قام بها مع الفرثيين ، فالتجأ الى مصر ، الى كليوبطرا الملكة الفاتنة التى سحرت قلبه فأحبها وهام بها ، وقد بادلته هذه الحب رغبة فى المحافظة على عرشها ، فعزم على أن يتزوجها ووعدها بمملكة مصر وبمنح أولادها افريقية وسورية ، فانتهز ذلك غريمه «اوكتافيوس» ، ولما وصلت الاخبار الى رومة ثار سخط الشعب وقرر مجلس الشيوخ اعلان الحرب على انطونيوس • وقاد اوكتافيوس الاسطول الرومانى والتقى باسطول انطونيوس فى (اكتيوم) على الساحل الغربى لبلاد اليونان فنشبت معركة عنيفة انتصر فيها «اوكتافيوس» فهرب انطونيوس بقسم من الاسطول ومعه كليوبطرا وتخلى عن جيوشه ، والتجأ الى مصر مرتميا فى أحضان كليوبطرا ، وسار اوكتافيوس فى السنة التالية الى مصر فدخلها بدون مقاومة تذكر ، وانتحر انطونيوس لعله بسبب تخلى كليوبطرا عنه • واعقب من بعد ذلك انتحار كليوبطرا بعد أن يئست من استمالة اوكتافيوس واسترضائه فخشيت ما سيحل بها من المصير المحزن وهو أخذها أسيرة الى رومة وهى سليلة البطالسة وآخر ملوك مصر ، فانتحرت بأن تجرعت السم بيدها وبذلك انتهت دولة البطالسة فى مصر وأصبحت مصر ولاية تابعة الى الامبراطورية الرومانية (٣٠ ق • م) •

وهكذا انتهت الحروب الاهلية والقلاقل وأخذت أمور الامبراطورية تستتب وتستقر وبدأ عهد جديد هو عهد الامبراطورية امتاز بالهدوء وانتشار السلام مدة طويلة ، زهاء القرنين بدأتا فى عهد اوكتافيوس ولا سيما من بعد قضائه على غريمه انطونيوس وضم مصر الى الامبراطورية •

ب ـ النظام الامبراطورى : اوغسطس :

عندما عاد «اوكتافيوس» الى رومة منتصرا استقبل بحماس وحفاوة ، ولم يبق له منافس فى الحكم ، وبدأ عهدا جديدا دام زهاء القرنين يعد من أمجد عهود التأريخ البشرى من حيث السلام والهدوء فى معظم اجزاء العالم المتمدن • وشعر الرومان بالطمأنينة بعد قرن كان مليئا بالثورات والحروب الاهلية والتخريب ، وشعروا كذلك بضرورة سيطرة حاكم واحد على اجزاء الامبراطورية الواسعة • وبدأ هذا العهد الجديد بحكم اوكتافيوس الذى دام اربعا واربعين سنة (٣٠ ق• م ـ ١٤ م•) ساد فيها الامن والسلام ، وانصرف هذا العاهل الى العمران والحضارة ، وأحبه الشعب حبا جما حتى انهم لقبوه «اوغسطس» أى «المبجل» أو «الموقر» • وكان اعظم عقبة فى حكمه تبديل النظام القديم للحكومة وتثبيت ما حصل عليه من السلطة بالطرق الشرعية القانونية • ولكن لم ينهج سبيل العنف واحترم النظام القديم ولم يرغب فى ان يكون ملكا على طراز ملوك الشرق • وأول ما بدأ به انه لم يناوىء مجلس الشيوخ بل حسن فيه عن طريق الاعضاء اللائقين ، والواقع انه تنازل الى هذا المجلس والى الشعب الرومانى (فى عام ٢٧ ق• م) عن جميع سلطاته • ولكن مجلس الشيوخ شعر بعدم استطاعته فى ادارة شؤون الدولة معتبرا بالتجارب الماضية ، فمنح اوغسطس رسميا قيادة الجيش وحق ادارة اهم الولايات التابعة الى الامبراطورية ، فاستطاع ان يأخذ لنفسه اهم حقوق مجلس العموم (التربيون) مما جعل سلطانه فى الدولة يستند الى اساس شرعى ، ومنحه مجلس الشيوخ عدا لقب اوغسطس لقبا آخرا هو «الامبراطور»[١] • وقد عد اوغسطس نفسه موظفا يعينه مجلس الشيوخ ولم يكن تعيينه دائميا بل لعدد محدود من السنين ثم اعيد تعيينه • وعلى ذلك فان الامبراطورية

---

(١) وكان من جملة القابه الجديدة المواطن الاول (Princeps) ، أما لقب الامبراطور فهو لقب قديم كان يلقب به القائد المنتصر وهو مشتق من أصل يعنى «قاد أو حكم» أى (Imperator) .

الرومانية في هذاالعهد الجديد كانت تدار بحكومة ثنائية من مجلس الشيوخ ومن الامبراطور أو المواطن الاول ولكن سلطات اوغسطس كانت تسير الى التزايد لا سيما وقد كانت بيده السلطة على الجيوش • وقبل ان نذكر شيئا عن نظام الامبراطورية تابع الايجاز في الكلام عن عهد اوغسطس الذى يشبه بعهد «بريقليس» في تأريخ اليونان • وامتـــاز أول الاباطرة بالحزم والادارة ، ومما يؤثر عنه أنه قام بجولات في انحاء الامبراطورية ليقف بنفسه على حاجات سكانها وسير ادارتها • وقد ادرك ضرورة انشـاء جيش ثابت لحماية الامبراطورية الواسعة ، فألف جيشـا ضخما (بلغ عدده ٤٠٠ الف جندى) وزعه في الحدود والاقاليم بحسب الحاجة • وحارب الأقوام التى هاجرت من اواسط آسية واستوطنت في اواسط اوربة وشمالها مهددة تخوم الامبراطورية ، واستطاع أن يكسر شوكتها ويدرأ خطرها الى حين •

وقد انتهت حياة اوغسطس بموته في شهر آب عام ١٤ م فاطلق اسم الامبراطورية على ذلك الشهر (أى اوغسطس ــ آب) تخليدا له ، وقد اقام له الرومان تمثالا عظيما كانوا يسجدون له اجلالا وتعظيما •

خلفاء اوغسطس الى سقوط رومة(١)

وبعد أن اجملنا كيفية انتقال نظام الحكم الروماني من النظام الجمهورى الى النظام الامبراطورى نوجز احوال هذه الامبراطورية الرومانية من بعد أول امبراطور فيها وهو أوغسطس فقد اعقبه في الحكم ربيبه أو ابنه بالتبنى طبيريوس (١٤ ــ ٣٧ م) الذى حكم حكما مطلقا واساء في استعمال السلطة ولا سيما بعد مضى بضع سنوات على حكمه حيث ارتكب الظلم والاضطهاد لما لقيه من المقاومة في العاصمة ،واشتهر حكم طبيريوس بانه تم فيعهده صلب السيد المسيح • وخلفه في الحكم «كاليجولا» (Caligulla) (٣٧ ــ ٤١ م) ،

---

(١) تراجع الحوادث المهمة ولا سيما علاقات الحروب بين الرومـان والفرس الفرثيين والساسانيين مما سوف لا نتطرق اليه في هذا الموجز •

ولكن هذا لم يكن كفوءا بل كان شبه مجنون ، فانصرف الى الملاذ حتى انه صار يشترك فى المصارعة مع اللاعبين • واغتاله أحد الضباط بعد حكم أربع سنين • وتميز حكم الامبراطور الذى خلفه وهو كلوديوس (٤١ - ٥٤ م) بادخاله بدعة فى الدستور الرومانى تلك هى سماحه للنبلاء الغاليين بدخول مجلس الشيوخ ومناصب القضاء ، كما افتتحت بريطانية فى عهده من بعد غزو يوليوس قيصر لها بنحو مائة عام فصارت ولاية تابعة الى الامبراطورية (عام ٤٣ م) ، وقامت فيها مدن تطورت بمرور الازمان الى مدن انجليزيـة مهمة • وأحاط كلوديوس نفسه ببطانة شريرة ولا سيما زوجاته وآل أمره الى ان سمته احداهن المسماة «اغربينا» وكانت هذه أم نيرون فقامت بفعلتها تمهد لابنها اعتلاء العرش • وكان نيرون (٥٤ - ٦٨ م) تلميذا للفيلسوف الكبير «سنيكا» ، ولكن لم تقوم فلسفة هذا الفيلسوف من غرابة أطوار نيرون فقد ارتكب آثاما وشرورا كثيرة ، وتنسب اليه المآثر انه هو الذى أحدث الحريق الكبير فى رومة لكى يشيدها من جديد على طراز أحسن وانه صعد على سطح قصره يمتع نظره بمشـــهد النـار عازفا قصيدة من نظمـــه بعنوان «نهب طروادة»[١] ، وانه لكى يدرأ عنه الشبهة اتهم المسيحيين مستغلا ما كان يتنبأ به بعضهم من قرب مجيء المسيح بعد هلاك العالم بالنار ، فاضطهد المسـيحيين اضطهادا وحشيا ، والمأثور ان بطرس وبولس هلكا بنتيجة هذا الاضطهاد • وفيما كان نيرون بعيدا عن رومة فى الشرق حاكمه مجلس الشيوخ فى غيابه وحكم عليه بالموت بتهمة الخيانة العظمى ، فلما علم هذا انتحر ، وكان نيرون سادس امبراطور من سلالة يوليوس قيصر • وبعد موته وقعت الاضطرابات والمنازعات حول تولى العرش فخلفه ثلاثة أباطرة خاملى الشأن لم يدم حكمهم

---

(١) اذا صحت نسبة الحريق الى نيرون فيكون هذا مصابا بالجنون المعروف بجنون النار (Clyptomania)

زمنـــا طويلا (٦٨ – ٦٩) ، ثم تغلب على عرش الامبراطوريـة قائـد الجيش الفلسطيني فسباسيان (٦٩ – ٧٩ م) ، وكان هذا شيخا محبوبا ، وحدثت في عهده ثورة اليهود المشــهورة ضد الرومان فدمرت اورشـــليم بقيـادة ابنه «طيطوس» • وأوقعت مذبحة مريعة باليهود على ما بينا في كلامنا على تاريخ الشام • ومات فسباسيان موتا طبيعيا فخلفه ابنه «طيطوس» (٧٩ – ٨١ م) ، الذي امتاز بتساهله ، ولكن وقع في عهده حدثان مهمان أحدهما حدوث حريق آخر في رومة كالذي حدث في زمن نيرون ، كما ثار بركان فيزوف الشهير فدمر أشهر مدن «كمبانيه» وهما «بومبي» ومدينة «هركو لانيوم» ، فطمرت المدينتان بحمم البركان • ومن الطريف ذكره بهـذا الصـدد ان المؤرخ الشهير «بلني» ذهب لمشاهدة الحدث ودرســه فأهلكه البركان[1] • وجاء من بعد طيطوس أخوه «دوميشان» (٨١–٩٦م) وبعد أن أمضى السنين الاولى امتلأ حكمه بالقتل واغتصاب الاملاك ، فحدث نزاع حاد بينه وبين المجلس الاعلى الروماني ، ولكن مات هـذا الامبراطور باغتيـاله من جانب أسرته وأعقب عهده حكم خمسة أباطرة لقبوا بالاباطرة الصالحين (٩٦ – ١٨٠ م) وهم نرفا (٩٦ – ٩٨ م) وتراجان (٩٨ – ١١٧ م) وهادريان (١١٧ – ١٣٨ م) وامبراطوران يسمى كل منهما انطونيوس (١٣٨ – ١٨٠) • هذا وقد سبق أن نوهنـا بعلاقات بعض هؤلاء وحروبهم في كلامنا على الدولة الفرثية • فلا نكرر ذلك الا بذكر بعض الملاحظات المفيدة عن بعض هؤلاء الاباطرة ولا سيما تراجان الذي كان جنديا اسبانيا ، وهو أول من ارتقى عرش القياصرة من أهل الولايات الرومانية التابعة ، ففتحت هذه الســابقة

---

(١) وبعد انطمار المدينتين بنحو ١٦ قرنا اكتشفتا بالصدفة في عام ١٧١٣ م ثم أجريت التنقيبات فيهما من جانب السلطات الايطالية ، فظهر القسم الاعظم من بومبي كبيوتها ومسارحها وحماماتها ومعابدها وفنونها الخ

الباب لازدياد شأن أهل المستعمرات فى مصائر الرومان ، وقد وسع تراجان من حدود الامبراطورية الرومانية كثيرا ففى الناحية الاوربية تجاوز الدانوب الذى جعله اوغسطس حد الامبراطورية فى اوربة ، وتجاوز الفرات أيضا ، حد الامبراطورية فى آسية ،حيث اجتاز الفرات وأخضع ارمينية وأخذ العراق من الفرثيين • ومن ملوك هـذه الفترة مرقس اوريليوس الذى خلفه ابنه «قومودوس» (١٨٠ – ١٩٢ م) ، وكان هذا قاسيا غريب الاطوار حتى انه امتهن المصارعة •

وحل من بعد حكم «قومودوس» عهد ضعف وفوضى فى الامبراطورية دام زهاء القرن الواحد (١٩٢ – ٢٨٤ م) بسبب تدخل الجند فى شؤون انتخاب الاباطرة اذ صار الجند فى الواقع هم الذين ينصبون الاباطرة • وقد حكم فى هذه الفترة خمسة وعشرون امبراطورا ماتوا قتلا باستثناء أربعة منهم فقط • ومما فاقم الاضطرابات الداخلية ازدياد غزوات البرابرة واحلال الدمار والخراب فى تخوم الامبراطورية ، وابتدأ هذا العهـد ببيع الجنود الحرس عرش الامبراطورية لمن كان يدفع فيه مالا أكثر ، وعند ذاك ثارت الفرق الرومانية الاخرى المعسكرة فى أنحاء الامبراطورية ونادى كل جيش منها بقـائده امبراطورا ، ونجح أحـد هؤلاء ، وهو «سويروس» قائد جند الدانوب اذ هجـم على رومـة وأزاح الامبراطور الذى باعـه الحرس الامبراطورى العرش • وخلفه كرا كاله (٢١١ – ٢١٧ م) الذى كان طاغية سفاحا انتهى أمره بقتله فى سورية[١] ، ولكنه قام بعمل مهم هو انه شمل بالرعوية الرومانيـة جميع أحرار الامبراطورية ، ولعله كان مدفوعا بطمع الحصول على الضرائب الفردية ، تلك الضرائب الشخصية التى كانت تجبى من المواطنين الرومان • وحل بعد موت «كرا كاله» قرن آخر ملىء بالفوضى وبسرعة انتقال العرش من امبراطور الى آخر كما تفاقم فى هذه الفترة خطر

---

(١) انظر حروبه مع الفرثيين فى تاريخ الفرثيين •

البرابرة فصاروا يتوغلون فى غزواتهم الى الولايات الرومانية المختلفة • وحكم من بعد ذلك جملة أباطرة طغاة امتازوا بالكفاءة أشهرهم «كلوديوس» و «اورليان» و «تاسيتوس» • وحكمت زنوبيا الملكة العربية الشهيرة فى زمن اورليان ولقبت نفسها بملكة الشرق ، فجهز عليها الامبراطور اورليان جيشا قاده بنفسه على ما بينا ، وبعد حصار طويل فتحت تدمر •

انتهى قرن الفوضى بتولى عرش الامبراطورية الرومانية الامبراطور «ديوقليشان» (٢٨٤ ـ ٣٠٥) الذى اشتهر بما أدخله من الاصلاحات فى المملكة ولا سيما اصلاح نظام تولى الاباطرة للقضاء على هذه الفوضى وايقاف قتل الاباطرة وتنصيبهم بالاساليب الكيفية ولكن نظامه لم يخفف من الوضع كثيرا كما انه اتخذ نظام الحكم المطلق على طراز ملوك الفرس الساسانيين • فأولا أشرك معه فى الحكم خليفته وجعل لنفسه ولهذا الخليفة مساعدا لقب بلقب القيصر ، أما «ديوقليشان» وخليفته فقد لقبا بلقب اوغسطس • ومما يذكر عن عهد ديوقليشان فى أواخر حكمه ما أحله من الاضطهاد الشامل بالمسيحيين من رعايا الامبراطورية ، وقد تفنن القوم فى انواع الامانة والتعذيب فبالاضافة الى القاء الضحايا فى غياهب السجون كانوا يلقون أمام السباع فى الملاعب ليتسلى بهم الجمهور كما كانوا يحرقون بنار خفيفة • وبعد أن حكم ديوقليشان عشرين عاما حكما موفقا سئم الحكم فاعتزل العرش، وجعل خليفته يستقيل أيضا فحدثت المنازعات حول العرش ونادى الجند بقسطنطين امبراطورا (٣٠٦ ـ ٣٣٧ م) ، ولكنه ظل يحارب المنازعين له زهاء ١٨ عاما • واشتهر قسطنطين باعتناقه للمسيحية (فى ميلان عام ٣١٣ م) جاعلا اياها ديانة رسمية بل ديانة الدولة الرسمية ، كما انه بدأ البداية التى جعلت من الكنيسة مؤسسة مالكة عظيمة تملك العقارات والاراضى فقد سمح للهيئات والمؤسسات المسيحية بقبول العطايا والهبات والاوقاف كما انه نفسه أقطعها

الثروات والاراضى • واعترف قسطنطين بيوم الاحد ليكون يوم راحة وعطلة رسمية ، وكان الاحد عند الرومان «يوم عبادة الشمس» •والى قسطنطين يعزى اجتماع مجمع نيقية الكنسي فى آسية الصغرى (٣٢٥ م) الذى جرت فيه المناظرة الدينية الشهيرة بين أتباع «اريوس» وبين أتباع «اثناسيوس» (وكلاهما من أساقفة الاسكندرية) ، فأقر المبدأ الاثناسى ورفض المذهب الاريوسى الذى كان ينكر كون طبيعة المسيح مساوية لطبيعة الله أو مادته[١] • ونذكر عن قسطنطين أيضا اختياره لبيزنطية لتكون عاصمة جديدة للامبراطورية تبرما منه بروما وبوثنيتها ، وكان أيضا مدفوعا فى اختياره هذا بعوامل حربية استراتيجية حيث أعداء الرومان الشرقيون ، وهم الفرس الساسانيون • واجرى قسطنطين أيضا اصلاحات مهمة فى نظام الحكومة ، حيث قسم الامبراطورية الى أربع ولايات كبرى قسمت كل منهما بدورها الى أقسام ادارية أخرى •

وخلف قسطنطين الكبير جوليان (٣٦١ - ٣٦٣) الذى عكس سياسة سلفه بالنسبة الى المسيحية اذ عمل على ارجاع الوثنية • ومما يميز العهد الذى أعقب موت قسطنطين حلول فترة اضطرابات وضعف دامت زهاء (٢٥) عاما ، ثم استولى على العرش جوليان المذكور ، وخلفه جوفيان (٣٦٣ - ٣٦٤) الذى أرجع المسيحية الى سابق عهدها •

لقد عاشت الامبراطورية الرومانية فى الغرب قرنا آخر من الزمان من بعد عهد جوفيان بقليل (٣٧٦ - ٤٧٦ م) وقد شغل هذا القرن بالنزاع ورد غزوات البرابرة ولا سيما القبائل الجرمانية ، ودشن هذا القرن بحادثة طريفة فى علاقة الرومان بالبرابرة هى فرار القوط الغربيين من قبائل الهون الهائلة (٣٧٦ م) حيث فروا من شمال الدانوب الاسفل فاستعطفوا السلطات الرومانية بالسماح لهم بعبور النهر والاقامة فى تراقية هربا من تلك القبائل المغولية المحاربة فسمح لهم الامبراطور «فالنس» بالاقامة بشرط اعطاء أولادهم

(١) انظر كلامنا على نشوء المسيحية فى تاريخ بلاد الشام •

رهائن ، وبعد فترة قصيرة جاءت بأثرهم قبائل كثيرة من الغوط الشرقيين الذين طردهم من مواطنهم «الهون» أيضا فرفض الامبراطور السماح لهم بالعبور ، ولكنهم عبروا الدانوب عنوة بأسلحتهم فدخلوا حدود الامبراطورية وانضم اليهم أقرباؤهم الغوط الغربيون وأحدثوا الدمار فى الولايات المتاخمة للدانوب ، وجرت بينهم وبين الرومان معارك قتل فيها الامبراطور نفسه فى ادرنة ، وظل شريكه فى الحكم الامبراطور غراشيان (الذى كان مركزه فى رومة) واختار معه فى الحكم «ثيودوسيوس» الشهير الذى أخضع الغوط ولكنه أدخل منهم جندا كثيرين الى الجيوش الرومانية . حكم ثيودوسيوس من ٣٩٢ الى ٣٩٥ م ، وقام قبيل موته بتقسيم الامبراطورية بين ولديه الى قسم شرقى ومركزه القسطنطينية وعلى رأسه «اركاديوس» والى قسم غربى وعاصمته رومة وعلى رأسه «هنوريوس» . وقد دامت الامبراطورية الشرقية ما يربو على ألف عام ، الى فتح العثمانيين القسطنطينية (١٤٥٣ م) .

أما مصير الامبراطورية الغربية فنكتفى هنا بالتنويه بأن البرابرة كانوا يتأهبون للانقضاض عليها بعد موت «ثيودوسيوس» بسنوات قليلة . وكان آخر انتصار للرومان على البرابرة النصر الذى أحرزه القائد الوندالى «ستيليكو» قائد هنوريوس على الغوط الغربيين الذين تدفقوا من تراقية بقيادة زعيمهم «الرك» واندفعوا من مضيق ثرموبيلى ودمروا بلاد اليونان وعبروا الالب وأوقعوا الرعب فى ايطالية (٤٠٢ — ٤٠٣ م) ولكن القائد الرومانى دحرهم ، فاحتفى الرومان بهذا النصر احتفاء عظيما (٤٠٤ م) ، ولكن ارتكب الامبراطور حماقة لا تغتفر ، ذلك لانه أعدم قائده العظيم «ستيليكو» خوفا من مزاحمته . فثار الجنود الغوط لقتل أزواجهم وأولادهم الذين كانوا رهائن فى ايطالية ، فتأهب الزعيم الغوطى «الرك» مرة ثانية واجتاز الجبال وقاد جيوشه الى أبواب رومة وحاصرها ولكنه تخلى عن تدميرها مقابل فدية عظيمة ، ثم أعاد الكرة «الرك» (عام ٤١٠ م) على رومة وكان هجومه عليها

ليلا فألقى الرعب والهلع فى أهلها ، ولكن الغريب فى أمر هذا الفاتح البربرى انه أمر جنوده بالابقاء على حياة الناس والا ينتهكوا المعابد المسيحية ، ولكنه أباح لهم أموال السكان ، وظل الغوط ينهبون المدينة ستة أيام بلياليها . ومات الرك (٤١٠ م) فانسحب أتباعه واجتازوا الالب وأقاموا معسكراتهم ومضاربهم فى جنوبى فرنسة وشمالى اسبانية مكونين ما يعرف بمملكة الغوط الغربيين ، وكانت القبائل البرابرة الاخرى تؤسس ممالك لها فى ولايات الامبراطورية الاخرى مثل الفرنك ، والوندال القريبين من الغوط حيث نزحوا من مواطنهم فى «بانونية» واجتازوا فرنسة وجبال البرنيس الى اسبانية واستقروا زمنا ما فى اقليم فى اسبانية اشتق اســمه من اسـمهم هو «الاندلس» . وفيما كان البرابرة يعيثون فى أنحاء الامبراطورية ويقتسـمونها مؤسـسين نواة الدول والممالك الاوربية فيما بعد ظهرت قبائل «الهون» المغول مرة أخرى وكان اندفاعهم فى هذه المرة عنيفا قويا ويقودهم قائد شديد المراس هو «اتيلا» العاتى سلف «هولاكو» ، فهزم جيوش الامبراطورية الشرقية ولم تسلم القسطنطينية ' بدفع الجزية ، ثم اتجه بجموعه الهائلة الى الغرب وعبر الراين الى فرنسة ؛ الهجوم على ايطالية والقضاء على رومة ، فدب الهلع فى اوربة .

ع اتحد الجرمان والرومان والغوط الغربيون ، وهجموا
ظار الهجوم فى سهول «شالون» فى شمالى فرنسة ،
خذال الهون ، فرجع «اتيلا» متقهقرا بجيشه
ر يعد من الانتصارات الحاسمة التى
يتخل عن خطته فى تدمير
، وهددت جيوشـه
كان بسبب
وراء

موته من التأريخ حيث اختلطوا بالاقوام الاوربية الآرية ، وكانت امبراطورية «اتيلا» تشمل أقواما من غير المغوليين أيضا من بينهم أقوام جرمانية وتمتد من الراين عبر السهول الى أواسط آسية • وكان يتبادل السفراء مع الصين ، أما مخيمه الرئيسي فكان فى سهل هنغارية ، شرق الدانوب ، وجاءه الى مقره هذا سفراء من القسطنطينية ، وقد خلف لنا أحدهم «فريسكوس» (Priscus) أخبارا عن اتيلا وحكومته •

لم تظل الامبراطورية بعد هذه الحوادث سوى بضعة أعوام ، وتوالت على رومة التى انحصرت فيها وفيما جاورها تلك الامبراطورية ، المصائب والمحن • فقد نهبها الوندال (٤٥٥ م) الذين جاؤا من شمال افريقية ، من المملكة التى كونوها هناك واشتهرت بقرصنة البحار ، وأخيرا سقطت رومة على يد أحد قواد القبائل الجرمانية المسمى «اوداسر» وخلع آخر امبراطور عن العرش (٤٧٦ م) وأرسل شعار الامبراطورية الى «زينون» ، امبراطو القسطنطينية سائلا اياه ذلك الزعيم الجرمانى أن يحكم فى ايطالية باس فأقره على الاقتراح وصارت ايطالية ولاية من ولايات الامبراطورية اك

ومن الصدف الغريبة ان الامبراطور الرومانى الذى خلعه اودا «روملوس اوغسطولس» المركب من اسم «روملوس» الذى ت تأسيس مدينة رومة ومن تصغير اسم اوغسطس مؤ الرومانية •

نظام الامبراطورية الرومانية :

ولنأخذ الآن أبرز ما يمتاز به نظام الامب تأريخها :ـ

(١) رأينا فيما سبق كيف أن عو الامبراطورى فى زمن اوغسطس (• العهد قرن كان مملوءا بالاضطرا الامبراطورية الرومانية تيفا و

موطدة متماسكة وعلى مستوى عال من المدنية والرفاد • ولكن بدأ يحل فيها في القرن الثالث للميلاد تغييرات كانت تسير بها الى الانهيار والتفسخ ، وقد نشأت هذه النكسات من جملة عوامل معقدة ـ سياسية واجتماعيــة وثقافية واقتصادية • وعلى الرغم من مجهودات الاباطرة الاقوياء لايقاف التدهور ، فان أمور الامبراطورية كانت تسير الى الافول والتدهور ، وآل الامر الى فقدان الجزء الغربي من الامبراطورية تقريبا بهجمات البرابرة في نهاية القرن الخامس •

(٢) لقد أثرت خمسة القرون التي حكمت فيها الامبراطورية في تأريخ حوض البحر المتوسط من الناحية الحضارية والسياسية ، وكان هذا التأثير عميقا ثابتا ، يتجلى بوجه واضح في تأريخ الحضارة الاوربية ويظهر كذلك تأثير التراث الروماني في الحضارة العربية الاسلامية ، واذ كنا قد أكدنا في درسنا حضارة الاغريق الناحية الفكرية : علومها وفنونها وفلسفتها وأدبهـا فينبغي لنا بدراستنا رومة أن نؤكد من حضارتها ومن تراثها نواحي أخرى أهمها ـ التنظيم والطرق والحكومة والادارة والقانون •

(٣) ويصح أن نشبه الامبراطورية الرومانية بـ «بودتقة» انصهرت فيها الشعوب والتقت الحضارات وامتزجت الآراء ، ولا تعدو الواقع اذا قلنا أن المثل الاعلى لهذه الامبراطورية كان دمج البشــر في حكومة عالمية ، وهي الفكرة التي استولت على عقل الاســكندر الكبير • وقد التقت ضمن هــذه الامبراطورية حضارات الشرق مع الحضارة الهلنستية ، ونشأت في أحضانها المسيحية فاختلطت هذه التيارات بعضها مع بعض وأثرت على شعوب مختلفة كانت تعيش ضمن الامبراطورية وانتشرت الى الاقوام البربرية من التيوتون والسلاف فيما وراء تخوم الدانوب •

(٤) وبوسعنا ان نعد الامبراطورية الرومانية نتيجة خبر وتجارب بشرية دامت زهاء ألفي سنة كانت ترمي الى دمج أقاليم وأقوام كثيرة متنوعة تحكمها دولة مركزية قوية • فبدأ الاكديون في العراق بهذه التجربة ثم البابليون

والمصريون والحثيون[١] والآشوريون والفرس والاسكندر الكبير والسلوقيون ومعاصروهم الفرثيون والساسانيون ـ وكل من هؤلاء قد كون من هذه التجارب أنظمة ومآثر خاصة استفاد من تراثها قياصرة الامبراطورية الرومانية ، وعلى ذلك فيمكننا عد الامبراطورية الرومانية آخر المراحل التطورية التى وصل اليها هذا النظام من الحكم • ولعل ذلك هو السبب الذى جعل الامبراطورية الرومانية تتصف بالثبات وحسن التنظيم ونظام الرعوية والقانون الذى تطور عند الرومان من قانون عتيق خاص بالرومان الى قانون يسرى على أقوام وشعوب كثيرة من البشر وهذا هو قانون الشعوب كما سنرى ذلك فيما بعد •

(٥) ولم يشذ الرومان عن الدول الاستعمارية الاخرى فى كثير من الامور اذ يحتمل انهم لم يعتقدوا أنهم كانوا فاتحين غزاة ، مدفوعين بالانانية والنهب واستغلال الاقوام الضعيفة • بل لعلهم كانوا يميلون الى الاعتقاد بانهم لم يحاربوا الا ليدافعوا عن أنفسهم ويدفعوا خطر الاقوام التى ادعوا بانها تهددهم ، ولعله تولد عندهم نفس الشعور الذى تولد عند المستعمرين الاوربيين فى الوقت الحاضر فى تبرير الاستعمار بانهم كانوا ذوى رسالة يؤدونها وهى نشر السلام والعدل والحضارة • ومما يجدر ذكره بهذا الصدد ان الاقوام التابعة الى الامبراطورية كانت راضخة للحكم الرومانى وراضية فى القرنين الاولين من تاريخ الامبراطورية ولم يبد على معظم الاقاليم التابعة ، بعد أن كانت تكتسب الرعوية الرومانية ، ميل للانفصال فكانت فى الواقع منجذبة الى المركز بعوامل كثيرة منها حسن الادارة والعدل والسلام والزعامة الصحيحة ، ولكن لم تستمر هذه الصفات عند الرومان الحاكمين زمنا طويلا اذ حل فى الامبراطورية التفسخ منذ القرن الثالث للميلاد وفقدت أهليتها

---

(١) لقد سبق أن نوهنا بالوثيقة التاريخية المهمة التى جاءتنا من الحثيين من عاصمتهم بوغاز كوى المتضمنة أقدم قانون أساسى أو دستور من نوعه (منتصف الالف الثانى ق • م) ، ويعزى هذا القانون الاساسى الى الملك (تيليبينوس) وقد كتب بالخط المسمارى واللغة البابلية القديمة (راجع الجزء الاول من الكتاب ص ٣٨٧ ـ ٣٨٨) •

للحكم ، فبدأت الاقوام التابعة تنفصل عن المركز ، وانهارت الامبراطورية من بعد ذلك •

(٦) تخوم الامبراطورية وحمايتها : لعل أهم القضايا التى جابهت الامبراطورية منذ تأسيسها كانت قضية الدفاع عن الاقاليم التابعة والمحافظة على حدود الامبراطورية ثم قضية التنظيم الادارى الذى كان يتوقف عليه الرفاه الاقتصادى واذا استثنينا ما أضيف الى الامبراطورية من بعد اوغسطس مثل بريطانية وارمينية وشمالى بلاد ما بين النهرين فان حدود الامبراطورية ظلت كما كانت عليه فى أيام اوغسطس • فكان الراين والدانوب تخوم الامبراطورية تجاه البرابرة الاوربيين والفرات الحد تجاه الفرثيين أولا ثم الفرس الساسانيين • وكانت جيوش الامبراطورية موزعة بين هذين الاتجاهين ، واشتهر الرومان بطرقهم الهندسية العجيبة التى سهلت حكم أجزاء الامبراطورية ، يضاف الى ذلك انشاء الاسوار والحصون والاساطيل وقد سبق أن ذكرنا بعض الحصون المهمة التى نشأت فى شمالى العراق وفى سورية فى التخوم بين الفرثيين والفرس الساسانيين من بعدهم وبين الامبراطورية الرومانية • أما الجنود فكانوا من المحترفين المدربين ، وكانوا يجندون مدة طويلة وكثيرا ما استخدموا فى حالة انتفاء الحروب فى تعبيد الطرق وما شابه ذلك • وامتازت الجيوش الرومانية بالعدة الممتازة وبالضبط والتدريب العسكريين وكان يقودها أمهر القواد وأكثرهم خبرة بالحرب ، وهذا مما جعلها أحسن ما عرفه التأريخ من نظام الجند ، وبالوسع تقدير هذه الجيوش بمعدل بين (٢٢٥٫٠٠٠) و (٣٥٠٫٠٠٠) مقاتل ، قوامها أولا من الرومان والايطاليين ولكن أخذت الدولة فيما بعد تجند كثيرا من سكان الولايات التابعة لها ، ثم من البلدان القاصية المتأخرة حتى شمل التجنيد كثيرا من القبائل الاوربية من البرابرة ، وبذلك صار نظام الجيش الرومانى وسيلة مهمة للتهذيب والوحدة بين شعوب العالم ، ولكن كان لذلك نتيجة أخرى مغايرة صارت من جملة الاسباب المهمة فى القضاء على الامبراطورية حينما

أخذت هذه الجنود الخليطة تفقد شعورها بالاخلاص والولاء الى الامبراطورية، ويدب فيها التذمر عندما فكرت فى الرفاه والنعيم اللذين كانت تنعم بهما الطبقات الموسرة المرفهة • وآل الامر فيما بعد (منذ ٢٣٥) الى أن صار الجيش يتدخل فى الحكومة ، يعزل قيصرا ويتوج قيصرا • وكثيرا ما كان الجيش يعزل القيصر الارستقراطى ليحل محله قيصرا من طبقته ولا يهمه من ذلك سوى زيادة الرواتب أما المحافظة على الحدود فلم يكن يهمه فى شىء • والواقع ان تدخل الجيش بدل كيان الامبراطورية من أساسه • واذا كان باستطاعة القياصرة العسكريين الآتين الى الحكم بتدخل الجيش أن يوطدوا الامور بعض الشىء ويوقفوا انهيار الامبراطورية ، فان النهاية كانت محتومة لا بد منها • ومهما كان الحال فان تفسخ نظام الجيش كان جزءا من سلسلة أعم من التدهور العام الذى شمل النواحى الاقتصادية والاجتماعية والعقلية بيد أن تفسخ الجيش كان السبب المباشر فى شل قوى الامبراطورية وجعلها لا تقوى على محافظة تخومها •

(٧) الحكومة :ـ لكى نفهم نظام الحكومة فى عهد الامبراطورية نستعيد هنا أبرز الامور التى كان يمتاز بها نظام الحكم الرومانى القديم قبل نشوء الامبراطورية • وبوسعنا أن نلخص ذلك بما يأتى :ـ (١) سيادة الشعب سيادة من الوجهة النظرية ، أى سيادة المواطنين الرومان الممثلين فى المجالس (٢) تقسيم السلطة التنفيذية وتوزيعها على موظفين اداريين كانوا ينتخبون مددا قصيرة وكان كل من هؤلاء بمثابة الرادع المراقب لغيره (٣) مجلس الشيوخ (السنات) ، الذى كانت سلطته فى الاصل محصورة بابداء المشورة وبالسلطة المعنوية ولكنه صار فيما بعد أهم السلطات الحاكمة • ومقابل هذا النظام القديم نجد النظام الامبراطورى يهدف الى تمركز السلطات بيد السلطة التنفيذية وعلى رأسها حاكم واحد هو الامبراطور الذى أخذ بيده السلطة المطلقة تدعمها أهم وظيفة أخذها وهى قيادة الجيش العليا التى أعطيت لاول امبراطور وهو اوغسطس ، والى ذلك كله أخذ الامبراطور جميع السلطات

التى كان يتمتع بها مجلس العوام (التربيون) • ولم يترك لمجلس الشيوخ فى الواقع الا ظاهر السلطة • ومما ساعد على حصر السلطان المطلق بيد الامبراطور بصفته رأس الادارة المدنية والعسكرية الاحوال التى أحاطت بأول امبراطور ونعنى به اوغسطس فان انتصاراته ووضعه حدا للثورات والحروب الاهلية المرهقة التى استغرقت زهاء قرن واحد وتقدير الشعب وحبه له جعلهم يظهرون تقديرهم وحبهم باغداق السلطات والحقوق عليه فصارت امتيازات للاباطرة الذين أعقبوه •

وكانت الامبراطورية فى ادارتها مقسمة الى ولايات ، بعضها تحت ادارة مجلس الشيوخ نفسه والاخرى ، وبضمن ذلك الولايات فى تخوم الامبراطورية ، كانت تحت ادارة الامبراطور نفسه • ولكن انتقلت الولايات التى كانت تحت ادارة مجلس الشيوخ الى ادارة الامبراطور ولا سيما من بعد القرن الثانى • وشغل الاباطرة فى القرنين الاولين من تأسيس الامبراطورية فى اصلاح طرق جباية الضرائب ، وكان حكام الولايات يعينون برواتب معلومة وهم تحت مراقبة وسيطرة تامتين • وبمرور الزمن نشأت طبقة خاصة اختصت بالتوظيف والخدمة العامة فنشأت طبقة الموظفين الذين صار التوظيف مهنة وفنا لهم • ومما يقال فى طبقة الموظفين انها فى أحسن العهود كانت تمتاز بحسن الادارة والكفاءة ، ولكن كثيرا ما عانى الاباطرة فى المحافظة على المستوى العالى لطبقة الموظفين ومنعهم من الصيرورة جهازا «روتينيا» أو جهازا ظالما همه الرشوة وابتزاز المال ، وقد تمتعت بعض الولايات بقسط من الحكم الذاتى ، وكان هم المراقبين من الحكومة المركزية مقصورا على مراقبة انتخاب الموظفين المحليين وسماع الشكاوى ضدهم • ولكن أخذ الحكم المحلى يضعف بمرور الزمن وازدادت السيطرة من جانب الحكومة المركزية • واتسعت حقوق المواطنة والرعوية الرومانية بالتدريج فشملت سكان الاقاليم ولكن كان يتبع هذه الحقوق واجبات باهظة وصارت هذه الواجبات فى الايام الاخيرة أغلى من تلك الحقوق وعبئا ثقيلا كان من جملة العوامل فى انهيار الامبراطورية •



تمثال الامبراطور اوغسطس (اول امبراطور فى الرومان)

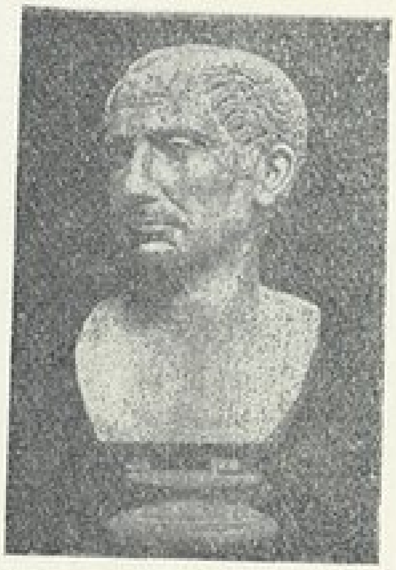
(٨) نظام تولى الاباطرة :ـ نظـام تولى الاباطرة نظام غريب لا هو بالوراثى الخالص ولا بالانتخابى الخـالص • فمن الوجهـة النظرية كان الامبراطور ينتخب انتخابا ويتم توليه الحكم بارادة تأتى من مجلس الشيوخ ولكن الامبراطور كان يعين خليفة له وظلت هذه الطريقة معمولا بها زهاء قرنين وقد ضمنت تتابع مجىء قياصرة قادرين بالطرق السلمية فيكون نظام الامبراطورية فى هذين القرنين الاولين من عمرها أشبه ما يكون بالخلافة فى المهد الاموى والعباسى ـ تعيين الخليفة وبيعته من قبل المسلمين • وقد حكم فى هذا العهد عدة أسر من الاباطرة وغالبا ما كان الامبراطور المعين خليفة من أقارب الامبراطور المرشح أو قريبه بالتبنى أو المقربين اليه ممن يعتمد عليهم • أما القرن الثالث فقد شغل معظمه بتمزق الامبراطورية بالحروب الاهلية بسبب النزاع على تولى منصب الامبراطور ، وكان الجيش فى الواقع هو الذى يعين ويخلع الاباطرة وكان معظمهم من قواد الجيش وقد تردى الحال فى القرن الرابع وتغير روح نظام الامبراطورية وأصبح حكما مستبدا ، ونشأت فى هذا القرن

عاصمة شرقية في القسطنطينية . واعترف في هذا العهد أيضا بالدين المسيحي بصورة رسمية ، وتمت سيادة هذه الديانة قبل نهاية القرن الرابع . وبدأ البرابرة في الربع الاخير من القرن الرابع بهجماتهم على الامبراطورية التي كانت بوجه العموم سائرة الى الافول .

وقبل أن نذكر طرفا من الحضارة الرومانيــة نتمهل قليلا في التفكير بأسباب انهيار الامبراطورية الرومانية وسقوطها .

كانت الامبراطورية الرومانيــة تهدف منذ تأسيسها الى الوحدة ، أي تماسك أجزاء الامبراطورية وتعلقها بالحكومة المركزية ، وقد اتخذت لذلك سبلا مختلفة منهـا طرق القوانين والادارة والتنظيـم ، ولكن بنيت وحـدة الامبراطورية الرومانية في الواقع على أساس القوة العسكرية ، ولم يمض زمن طويل على تأسيسها على أساس القوة العسكرية حتى أخذت ظواهر الحال في هذه الامبراطورية تشير الى وحدة ناشـئة من المصالح والنفع المتبـادل بين الاقوام المختلفة التي كانت تؤلفهـا ، ومما زاد في ذلك انتشـار الحضارة الهلنستية ودخول هذه الاقوام فيها وكانت هذه الاقوام كذلك تعتمد بعضها على بعض من الناحية الاقتصادية ومن ناحية الدفاع المشترك وبوسعنا أن نجمل أهم الروابط التي عملت على تماسك الامبراطورية كالآتي :ـ

(١) حكومة منظمة تنظيما راقيا وادارة صالحة مسؤولة الى الامبراطور (٢) نمو قوانين وشرائع طبقت على أقوام مختلفة (٣) حسن المواصلات وتسهيل الاسفار في البر والبحر (٤) وقد انتشرت اللغتان اللاتينية والاغريقية وأصبح يتكلم بهما البشر المتمدن (٥) ازدهار التجارة والمعاملات التجارية التي أصبحت موحدة تقريبا باستعمال نقد واحد وموازين موحدة وكذلك في طرق تنظيم ايداع الاموال والمعاملة فيهـا (البنوك) (٦) اتساع الجـاليات والمستعمرات اللاتينية وانتشارها واتساع اعطاء حق الرعوية الرومانية الى جميع سـكان الولايات الاحرار (٧) انتشار التربية والتهذيب تحت رعاية الدولة في جميع المدن المهمة (٨) ومما يدل على الاتجاه الى التمسك بالوحدة والعالمية انتشار



تمثال يعزى الى يوليوس قيصر

فكرة القـانون الطبيعى المنطبق على جميع البشـر وكذلك فكرة المواطن العـالمى •

ومع كل هذه الأسباب العاملة على الوحدة فان الامبراطورية انهارت[1] فى النهاية ويمكننا اعتبار سقوط رومة (٤٧٦) تأريخ سقوط الامبراطورية • فما هى الاسباب التى عملت على سـقوط امبراطورية رومة ذلك السقوط المفـاجىء ؟

والواقع صار سقوط رومة من القضايا التى بحث فيها مؤرخون كثيرون وعددوا لذلك «قائمة» من أسباب التدهور والسقوط معظمها يبدو لاتما كأنه صحيح ولكنه غير مقنع القناعة الكافية • ولعله مما يحير الباحث انالامبراطورية

---

(١) نشأت مدينة رومة بحسب المآثر الرومانية فى ٧٥٣ ق ٠ م ، وصارت جمهورية فى حدود ٥٠٨ ق ٠ م ، وتأسست الامبراطورية فى حدود ٢٧ ق ٠ م وسقطت رومة فى ٤٧٦ م ولكن توالت فى الامبراطورية الشرقية فى القسطنطينية سلسلة من الاباطرة حتى ١٤٥٣ م ٠ وحكم فى اوربة الغربية حكام منذ ٨٠٠ الى ١٨٠٦ م كانوا يسمون أنفسهم بـ «الامبراطور الرومانى» تقليدا للامبراطورية الرومانية ٠

الشرقية تعرضت لمثل ما تعرضت له الامبراطورية الغربية من الهجمات وأسباب الضعف الداخلى التى يعددها المؤرخون ولكنها لم تتحطم ، ولعل أحسن منهج للبحث فى أسباب انهيار الامبراطورية وسقوطها أن يبحث المؤرخ فى سلسلة متشابكة من العوامل المختلفة التى تقسم الى أمراض سياسية واجتماعية واقتصادية وروحية • ويجدر بنا أن نشير الى ان البحوث القيمة التى كتبها المؤرخ المعاصر توينبى فى أسباب نشوء الحضارات ونموها وتدهورها وانقراضها ومن ذلك أسباب سقوط الامبراطورية الرومانية فيها كثير من الوجاهة من ناحية موضوعنا فليراجعها القارىء المتتبع ، وسيمر بنا بعد قليل التنويه بهذه الآراء ولا سيما فى تفسير الامبراطورية الرومانية وعلاقتها بالحضارة «اليونانية ـ الرومانية» وان نشوء هذه الامبراطورية كان فى الواقع بادرة الانهيار فى تلك الحضارة ، أما فعل البرابرة فى القضاء عليها فهو انهم وجهوا الضربة القاضية الاخيرة ، بل يمكن تشبيه عمل البرابرة بالطيور الجارحة التى تنقض على الفريسة وهى موشكة على الموت أو فى دور الاحتضار • وبالاضافة الى هؤلاء البرابرة عملت الشعوب والاقوام التابعة الى الامبراطورية من الداخل على الانفصال عن السلطة الحاكمة الرومانية وتكوين حضارة فرعية نمت حول قوة مركزية هى الكنيسة المسيحية • وخلاصة القول حصل فى جسم الحضارة «اليونانية ـ الرومانية» انشقاق وانهيار : فى الخارج بخروج الاقوام الاوربية التى كانت تعيش فى حدود الامبراطورية وتتعلم من الحضارة التى تمثلها هذه الامبراطورية ، ولكنها كانت منجذبة اليها ابان قوة هذه الحضارة وازدهارها • وانشقاق فى الداخل بخروج الطبقات المحكومة من مختلف الاقوام والشعوب • وبعد فترة من الفوضى نشأت على أثر سقوط الامبراطورية على انقاض الحضارة «اليونانية ـ الرومانية» حضارة فرعية جديدة هى الحضارة الاوربية •

الفصل التاسع و الثلاثون
المامة عن الحضارة الرومانية

بعد أن عرفنا الخطوط الاساسية للتأريخ الرومانى توجز الآن فى فصل واحد أبرز المقومات والعناصر فى الحضارة الرومانية ، وقد سبق لنا أن نوهنا بصلة الثقافة الرومانية بالحضارة اليونانية وأثر هذه الحضارة فيها • وكنا كثيرا ما أشرنا الى امكان دمج الثقافتين اليونانية والرومانية تحت اسم واحد هو الحضارة «الهلينية» جريا على ما ذهب اليه بعض الباحثين فى تأريخ الحضارات[1] حيث يفسر الامبراطورية الرومانية بانها «الدولة العالمية»[2] التى أنشئت لمسك تلك الحضارة وضم الداخلين فيها بالقوة بعد أن فقدت هذه الحضارة قوة جذبها للشعوب والأقوام التابعة لها فى الداخل والخارج عندما اجتازت طور النمو والابداع ودخلت فى مرحلة الانحلال والانهيار • ومهما كان الحال فان الثقافة الرومانية تميزت عن الثقافة اليونانية بخصائص تفردت بها ، ومن ذلك انها لم تعن بالفلسفة التى تفردت بها عبقرية اليونان ولكنها ميزت نفسها بامور أخرى منها القانون والشريعة وطرق الادارة والتنظيم المدنى والعسكرى والاهتمام بطرق المواصلات والعمارات المدنية العامة ، ومن ذلك بوجه خاص الحمامات الرومانية الشهيرة ، وغير ذلك مما سنوجزه بعد قليل • ومع ان هذا الفصل الموجز الذى خصصناه للحضارة الرومانية لا يفى فى الاحاطة بجميع أوجه هذه الحضارة بوجه التفصيل الا انه يكفى ليكون المامة بالحقائق الاساسية فيها ومقدمة بتعريف أوجه تلك الحضارة ، ونبدأ من ذلك بالقانون الرومانى •

---

(١) وهو « توينبي » فى بحوثه المعنونة « بحث فى التاريخ » • (انظر ترجمة المؤلف لموجز بحوثه) •

(٢) Universal State

القانون الروماني

تأتي القوانين الرومانية في مقدمة التراث الروماني الذي جاء الى اوربة ومنها أثر في أمم وشعوب أخرى غير الامم الاوربية .

ولعله من المفيد ، للالمام بشيء عن القانون الروماني ، أن نجري على منهج الفقهاء الرومان في التمييز بين القانون المدني (Jus Civile) ، وقانون الشعوب (Jus Gentium) والقانون الطبيعي (Jus Naturale) فالاول هو القانون الروماني القديم الذي اقتصر في تطبيقه على الرومان وحدهم . أما قانون الشعوب فهو بعرفهم القانون المشترك بين جميع الشعوب وكانوا يستمدون منه الاحكام التي تطبق على الاجانب في الامبراطورية ، واصطلحوا على القانون الطبيعي ذلك القانون الذي تخضع له جميع الكائنات الحية من الانسان والحيوان والنبات ، وقد أثر قانون الشعوب في القانون الروماني المدني اذ وسعه وهذب فيه . أما فكرة القانون الطبيعي فقد أخذها الرومان من الفلسفة اليونانية . ولكن قانون الشعوب كان عند الرومان كالقانون الطبيعي عند اليونان[١] .

---

(١) يذهب أصحاب القانون الطبيعي الى وجود قانون يكمن في طبيعة العلاقات والروابط الاجتماعية وان هذا القانون ثابت لا يتغير بالنسبة الى الزمان والمكان وبوسع عقل الانسان أن يكشف قواعده وأحكامه فهو بذلك مثل النواميس التي تجري بموجبها ظواهر الكون والطبيعة . وطريقة الكشف عن هذا القانون في الظواهر الاجتماعية ان يجهد العقل البشري في درس المجتمع فيقف منه على السنن التي تنظم الروابط الاجتماعية فيه فيستنير بها في وضع القانون الوضعي . ونشأت فكرة القانون الطبيعي على هيئة فلسفة عند اليونان ، فمثلا ميز ارسطو بين ما سماه بالقانون العام (وهو القانون الطبيعي) وبين القانون الخاص الذي هو من وضع البشر . واخذ الرومان فلسفة القانون الطبيعي واتخذوه بصورة عملية حيث صيروه قانونا أدخلوا فيه قانون الشعوب أو هو قانون الشعوب نفسه . ومن الجدير بالذكر ان المعتزلة في الاسلام قالوا بفكرة القانون الطبيعي حيث ميزوا بينه وبين الدين وجعلوا الوحي مصدر الثاني والعقل هو الكاشف عن القانون الطبيعي (انظر «اصول القانون» تأليف الدكتور عبدالرزاق احمد السنهوري بك والدكتور احمد حشمت ابو شيت (١٩٣٨) الص ٤٠ فما بعد ومن ١٠٩ ـ ١١٣ حول الفقه والقضاء في تكوين القانون الروماني) .

بدأت القوانين الرومانية على هيئة مجموعة من العرف والعادات المصطبغة بالصبغة الدينية ، وقد ذكرنا فيما سلف كيف ان الرومان نجحوا فى عهد الجمهورية فى حمل السلطات على تدوين القوانين المتعارف عليها ، اذ لم يكد يمضى خمسون عاما على تأسيس الجمهورية حتى دونت القوانين القديمة فى اثنى عشر لوحا من البرونز (٤٥٠ ق ٠ م) ٠ وهذا أقدم تدوين أو «تقنين»[١] للقوانين الرومانية وقننت الشريعة الرومانية مرة أخرى فى نهاية المراحل التى نما فيها القانون الرومانى وذلك فى تقنين جستنيان الشهير (سنة ٥٢٨ – ٥٤٣ م) وكان هذا التقنين على قدر عظيم من الاهمية بالنسبة الى القانون الرومانى الذى تعددت مصادره فعسرت معرفة الاحكام الواجب تطبيقها ، فرأى الامبراطور البيزنطى جستنيان ان يجمع قواعد القانون المبعثرة فى مصادر شتى ويضعها فى كتاب واحد بعد ازالة المتناقضات منه ولذلك ألف لجنة خاصة قامت بالعمل، وسمى هذا التقنين المهم باسم (Corpus Juris Civile) وقد جاء واضحا منسجما وصار معينا ومصدرا مهما للقوانين الاوربية جميعها ٠

والقانون الرومانى المدنى العتيق فى الواقع كان ضيقا متشوه ، كما سبق ان ذكرنا ، العرف والعادة والدين وكان قبل أن يدون فى الالواح الاثنى عشر سرا بيد رجال الدين ثم نجح العوام فى حمل السلطة على تدوينه ، وقد اقتصر فى مبدأ أمره فى عهد الجمهورية على الرومان وبعض الناس الذين كانوا يتمتعون بحقوقه بموجب معاهدة خاصة ٠ ولكن تغيرت الاوضاع فى الدولة الرومانية فى عهد الامبراطورية ، فقد اكتسب معظم سكان الامبراطورية الاحرار فى القرن الثالث للميلاد حق الرعوية الرومانية ، وبدأ منح الجنسية الرومانية بمرسوم أصدره الامبراطور «كراكاله» فى عام ٢١٢ م ٠ أما بالنسبة الى سكان الاقاليم فكانت تطبق عليهم فى مبدأ الامر قوانينهم القديمة الخاصة بهم ، ولكن بمرور الزمن وبتأثير فكرة القانون الطبيعى المشترك بين جميع

---

(١) Codification

البشر (والمستمد بالدرجة من الفلسفة الرواقية) وبتأثير الفقه والقضاء (كما سنبين فيما بعد) نشأ قانون عام هو قانون الشعوب الذى أثر بدوره تأثيرا عظيما فى القانون المدنى الرومانى •

يفصل بين زمن تدوين القانون الرومانى العتيق فى الالواح الاثنى عشر (٤٥٠ ق • م) وبين تقنين جستنيان الشهير (٥٢٨ ـ ٥٤٣) زهاء ألف عام طرأ فيها على العرف القانونى تطورات كثيرة مهمة ، واذ كان العرف والعادة المصدر الاساسى الذى اشتق منه القانون العتيق فقد تعددت المصادر لنشوء القانون الرومانى المدنى وبوسعنا أن نحصر هذه المصادر فى (١) التقنين (Codification) الذى سبق أن أشرنا اليه (٢) القضاء (٣) الفقه (٤) التشريع • أما عن القضاء فقد بدأت الحركة القضائية منذ أن تولى «البريطور» الرومانى شؤون القضاء • و «البريطور» كان أعلى قاض فى الدولة الرومانية يلى القنصل فى أهمية المنصب وكان هناك «بريطور» خاص بالرومان وآخر للاجانب ، الاول لتطبيق القانون الرومانى المدنى والآخر لتطبيق قانون الشعوب • وقد اعتاد «البراطرة» ، (جمع بريطور) أن يصدروا ما يسمى «بالمنشورات»[١] القضائية يعلن فيها كل «بريطور» للناس فى أول ولايته للقضاء[٢] ما اعتزم على اتباعه من القواعد القانونية وكذلك ما يرتأيه فى كيفية تطبيقه وتفسيره للقوانين ، وكان «البراطرة» بهذه الوسيلة يحدثون تعديلات مهمة فى القانون الرومانى العتيق بمقتضى الازمان وكان للبريطور حقوق مهمة فى تنظيم الدعاوى ، باعطاء الدعوى وسلبها بحسب مقتضى الاحوال والعدالة • وبمرور الازمان توالت هذه المنشورات القضائية وصارت سوابق للبريطور التالى يستقى منها الصالح • وبقى الحال كذلك الى زمن هادريان الذى جمع «المنشورات القضائية»[٣] وحرم اضافة أشياء اليها • وتألف من هذه المجموعات قانون

---

(١) Edicts

(٢) وكان البريطور الرومانى يلى القضاء الرومانى سنة واحدة •

(٣) وسمى هذا الجمع بالمنشورات الدائمة ويعد القانون البريطورى أصل قانون العدالة (Equity law)

يصح أن نسميه بالقانون البريطوري الذي بقي منفصلا مستقلا عن القانون المدني الى عهد جستنيان حتى امتزج القانونان ودخلا في تقنين هذا الامبراطور فيستبان من ذلك ان القانون الروماني كان من صنع القضاء الى حد كبير ثم ان القضاء سبق عهد الفقه العلمي الذي ظهر فيه الفقهاء المشهورون ، وعلى ذلك، فيكون القضاء مصدرا أسبق من الفقه ومع ذلك فيصح القول ان القانون الروماني كان من صنع الفقه أيضا • واذا كان من المتعذر تتبع تاريخ الفقه الروماني فاننا نوجز أهم مراحل تطوره • فقد مر الفقه الروماني في أدوار من التطور كان في أقدمها سرا واحتكارا بيد رجال الدين ، واعقب ذلك دور ثان صار الناس يتعلمون فيه الاجراءآت القانونية ويستفتون رجال القانون • وكان يوجد الى جانب «البريطور» قضاة وظيفتهم شبيهة بالمحلفين الآن يبتون في الوقائع ويستفتون في القانون من جانب رجال القانون الذين لم يتبحروا فيه • ونشأ بمرور الزمن جماعة من المجتهدين في القانون يدرسونه ويفتون به للناس بدون أجر ولعل أصح ما يتميز به هذا الدور انه دور الفقه العملي • اذ أعقبه دور ثالث دخل فيه الفقه السبيل العلمي فأُلف في القانون وصار يتبع في تدريس القانون المنهج العلمي ، واعترف بالفقه على انه مصدر رسمي للقانون الروماني ، فقد صار لبعض الفقهاء المتبحرين حق الفتوى القانونية الملزمة للقضاة في أحكامهم[1] ، ولكن صار الامبراطور من بعد القرن الثالث للميلاد السلطة النهائية في عمل القانون وفي تفسيره واستأثر الاباطرة بامور القانون حتى انهم منعوا الترخيص للفقهاء بالفتاوى الملزمة ، فنشأ بذلك مصدر جديد للقانون الروماني هو التشريع من جانب السلطة الامبراطورية ولكن بعض الاباطرة كانوا يميلون الى الاخذ بكتب بعض الفقهاء وآرائهم حتى ان

---

(١) نشأت في هذا الدور مدرستان زعيم أحداهما «لابيو» ولكنها عرفت باسم تلميذه «بروكيليان» وعلى رأس الثانية «كابيتو» عرفت كذلك باسم تلميذه «سابينيان» أما الاختلاف بين المدرستين فكان أكثره يدور على التفصيلات ، مع ميل المدرسة البروكيلية الى المحافظة على المبادىء الجمهورية حتى بعد استقرار الامبراطورية ، وسارت المدرسة السابينية على المبادىء الامبراطورية الجديدة •

الاباطرة التزموا فى أوائل القرن الخامس الميلادى آراء بعض الفقهاء المشهورين ولا سيما خمسة من مشاهيرهم وجعلوها المرجع ، وهكذا فعل «جستنيان» في مجموعة قوانينه حيث اعتمد كثيرا على مذاهب اولئك الفقهاء الخمسة[١] .

تراث القانون الرومانى :

ظلت القوانين الرومانية فى الامبراطورية الشرقية بعد سقوط رومة ، مع تحويرات وتبديلات اقتضاها مرور الزمان ، وبقيت حتى استيلاء الاتراك على القسطنطينية فى عام ١٤٥٣ . واقتبس الاتراك وقبلهم العرب جزءا لا يستهان به من الانظمة والقوانين الرومانية ، وسمح الاتراك بتطبيق احكام من القانون الرومانى على رعاياهم المسيحيين . وفى الغرب حافظت الممالك التى انشأتها القبائل الاوربية على اجزاء من القوانين الرومانية ، وان كانت مبسطة محورة واختلطت هذه بالعرف التيوتونى ونشأ من الاثنين القانون الاقطاعى . وساعدت الكنيسة في المحافظة على بعض مبادىء القانون الرومانى ونشط الاهتمام بالقانون الرومانى فى حدود القرن الحادى عشر حينما بدأ الحكام يبسطون ادارتهم وسلطانهم السياسى على رعاياهم .

ومع وجود الشيء الكثير من القانون العام (Common law) فى القانون الانجليزى والامريكى ، فان هذا القانون قد أخذ كثيرا من مبادىء الفقه الرومانى ومن مبادىء القانون الرومانى . وحافظت معظم اوربة على كثير من القانون الرومانى وطبقته بوجه اكثر . واذا علمنا ان كثيرا من الدول الشرقية[٢] قد استعارت بعض القوانين الاوربية فيكون معنى ذلك انها مدينة الى تراث القانون الرومانى .

---

(١) وهم «جاييس» و «بابنيان» و «البيان» و «بول» و «مودستين» .

(٢) ونكتفى ببعض الامثلة : القانون الفرنسى فى مصر والقوانين الاوربية فى تركية والصين واليابان .

٦٤٣

الادب والفكر والفن

لقد سبق ان نوهنا كيف ان الثقافة الرومانية قد تميزت بنتاج عناصر من الحضارة تعد اضافات مهمة الى التراث البشرى كنظام الامبراطورية وتنظيم الادارة والجيوش والقانون الرومانى والطرق الرومانية الشهيرة والقنوات الرومانية والحمامات الرومانية • ولكن مع ذلك كان للرومان فضل فى الادب والفكر والفنون الجميلة ، كان لها كذلك تأثير فى الحضارات البشرية ولا سيما فى الحضارة الاوربية •

وعندما اتسعت الامبراطورية واختلطت فيها الشعوب والحضارات والثقافات ، اتسع افق الرومان ، ونتج عن ذلك فقدان كثير من مآثر الرومان القديمة • وبوسعنا ان نقول بوجه عام ان المعين الاساسى للادب والفلسفة والعلم عند الرومان كان من حضارة الاغريق وبوجه خاص من الحضارة الاغريقية الهلنستية ، وهى الحضارة التى قلنا انها نتجت من التقاء الحضارة الاغريقية بحضارات الشرق القديم • ومع ذلك فبوسعنا ان نجد الطابع الرومانى الخاص والحياة الرومانية متمثلة فى نتاج الرومان الادبى حيث تمثل فيه الحياة الرومانية منذ اقدم ادوارها فى العهد الجمهورى الى تأسيس الامبراطورية واتساعها • ونوجز فيما يأتى بعض الاوجه البارزة من الفكر والفن عند الرومان •

الشعر اللاتينى :

لبداية الشعر اللاتينى علاقة متينة بالادب الاغريقى • ويبدو ذلك بوجه خاص فى اول نتاج الادب الرومانى الذى ظهر بالهام من هوميروس وبتأثير «التراجيدى» الاغريقية ، وهكذا كان اول نموذج للادب الرومانى الذى يمثله الشاعر «اينيوس» (Ennius ٢٣٩ — ١٦٩ ق٠م) • واستمر الشعراء اللاتين يحتذون امثلة الادب الاغريقى القديمة ، ويظهر ذلك فى روايات بعض الشعراء الكوميدية مثل «فلوطس» (Plautus) (٢٥٤ — ١٨٤ ق ٠ م) حيث اشتقت مثل هذه الروايات فنها وفكرتها من الكوميدى الاغريقية من

عهدها الحديث • واستعار شعراء الشعر «الغنائى» (Lyric) مثل «كاتلوس» (Catullus) و «هوراس» (Horace) (٦٥ – ٨ ق • م) الطرق الفنية المتبعة فى الشعر الاغريقى • واسس الشاعر اللاتينى «لوقريشيوس» (Lucretius) (٩٩ – ٥٥ ق • م) فلسفته على فلسفة «ابيقور» وعلمه على علم «ديموقريطس» (Democritus) وسار «فرجل» (Virgil) (٧٠ – ١٩ ق • م) على مآثر «ثيوقريطس» (Theocritus) فى «مختاراته»[١] •

ومع ذلك فان الشعراء اللاتين لم يقتصر امرهم على تقليد اسلافهم من الشعراء الاغريق ، بل جعلوا ما اقتبسوه جزءا خاصا بهم اى انهم تمثلوه ، واستعملوه فى تصوير الحياة الرومانية ، فاصابوا حظا من الابداع والاصالة جعلهم فى مصاف اسلافهم •

الشعر الفلسفى :

لعل أحسن مثال جاءنا عن هذا الضرب من الشعر الرومانى بعض النماذج التى تمثل لنا التغير الذى طرأ فى عهد قيصر ، وعلى رأس ذلك القصيدة الفلسفية المسماة «حول طبيعة الاشياء»[٢] لناظمها «لوقريشيوس» (٩٩ – ٥٥ ق• م) الذى تأثر بفلسفة «ابيقور» فعزم على تحرير العقول من الخوف من الموت وهو الخوف الذى عد مصدره من التعاليم الدينية ، وقد حاول بالفلسفة والعلم ان يبين انه ليس هناك وجود شخصى شعورى فيما بعد الموت وكان يعتقد بالفلسفة الذرية • ولقد كان هذا الشاعر الفلسفى مأخوذا باعتقاده الذى تمسك به كما يتمسك المرء باعتقاد دينى ، فقد اتخذ عبادة الطبيعة • ويهمنا بالنسبة الى آرائه تنبؤه باشياء مهمة كشف عنها العالم الحديث ، فى الانثروبولوجيا (علم الانسان) وفى الكيمياء والفيزياء • وامتاز الى ذلك بموهبة شعرية ملحوظة ، وانه فاق فى سعة خياله شعراء الرومان جميعهم •

---

(١) وهى قصائد تتضمن أحاديث ومحاورات (Dialogue) و (Eclogue) تجرى بين الرعاة •

(٢) De Rerum Natura (On The Nature of Things)

الشـعر الغنـــائى :

امتاز بهذا النوع من الشعر «كاتلوس» (٨٤ ــ ٥٤ ق٠ م) الذى عاصر «لوقريشيوس» وقد استطاع ان يصل بالشعر الى مستوى عال وامتاز بانه شاعر العاطفة والاحاسيس والحب • وقد هام بحب «كلودية» (Clodia) ، وكان عكس الشاعر هوراس الذى كان شاعر الحضر والعقل والرزانة • ويمثل الشاعر «هوراس» (٦٥ ــ ٨ ق٠ م) اكثر من غيره روح المجتمع الرومانى فى عهد اوغسطس ، ولا سيما حياة الطبقات الوسطى المثقفة والطبقة الحاكمة ، وتتجلى قيمة اشعار هوراس الاجتماعية فى اشعاره الانتقادية (Satires) وفى رسائله (Epistles) التى تمدنا بصورة جلية عن حياة الجيل الذى عاش فيه ، وتأثر بالفلسفة الرواقية وبالشعراء الذين اعتنقوها من الاغريق ، وقد اخذ بالفضيلة الارسطوطاليسية التى تدور على «الوسط الذهبى» وتتجلى فى هوراس عقائد الطبقات الوسطى والطبقات الحاكمة فى دعواهم بأنهم اصحاب رسالة هى حكم العالم • وكان هوراس من ناحية الفن والصنعة من الطبقة الاولى ، وان يكن دون الشاعر الاول فى اثارة القارىء ولكنه بدلا من ذلك يستطيع أن يشيع فيه السرور والطمأنينة الجميلة الناشئة من الحس بالجمال •

واودع فى بعض رسائله (فن الشعر) نقدا ضمنه ما ينبغى أن يكون عليه فن (الدراما) وقد حازت القواعد التى ذكرها فى هذه الرسالة فى عصر النهضة الاوربية تأثيرا فاق تأثير ارسطو فى كتابه (الشعر) • ومما جاء فى آرائه انه يلزم على الشاعر (ان يجمع بين المفيد النافع وبين الجميل) أى انه رأى أن يكون للشعر فائدة ، وعلى الرغم من اهمال كثير من النقاد لهذا المبدأ وتعلقهم بمبدأ (الفن للفن) الا انه لا يزال لنظرية هوراس اتباع كثيرون •

وكان يعاصر هوراس الشاعر «فرجل» (٧٠ ــ ١٩ ق٠ م) الذى اختلف فى مزاجه عن هوراس • وقد ترك لنا صورا لنواح اخرى من عصر اوغسطس الذى عاش فيه فنجده قد سحرته فكرة الامبراطورية وحلمها • وقد شغل

حياته كلها في فنه ، وقد سبق ان اشرنا الى ان اول نتاجه هو ما سميناه «المختارات» وهي اشعار تصور الحياة الريفية على لسان الرعاة ، تقليدا لاشعار «ثيوقريطس» (٣٠٠ - ٢٤٥ ق م) ثم اخرج قصيدة طويلة في وصف حياة الريف والمزارع[١] ، وصرف بقية حياته في كتابة ملحمته العظيمة عن رومة وهي «الانيادة»[٢] وقد جازاه اوغسطس ووهبه مزرعة عاش فيها وساعدته على التفرغ الى حياته الشعرية وتختلف ملحمته «الانيادة» عن الالياذة والاوديسة بكونها من تأليف شاعر معين كتبها لتخليد اوغسطس حامي فرجل وصديقه ، ولتمجيد مركز رومة العظيم وحقها في الحكم الامبراطوري • وكان فرجل عند اهل القرون الوسطى «الشاعر» كما كان عندهم ارسطو «الفيلسوف» وقد عزوا اليه نوعا من القوة الخارقة أو القوة السحرية ولا سيما نبوءته بميلاد المسيح من عذراء • واختاره دانتي مثالا ودليلا في كوميديته الالهية •

النثر اللاتيني :ـ

اثرت الخطابة في تطور فن النثر عند الرومان ، اذ صارت فنون البلاغة والبيان من مستلزمات فن الخطابة لبلوغ التأثير في السامعين • وفي حقل الخطابة ظهرت مواهب اعاظم الكتاب الرومان وعبقرياتهم • وكان شيشرون (Cicero) (١٠٦ - ٤٣ ق٠م) على رأس الخطباء في الايام الاخيرة من العهد الجمهوري ومنشأ عظمته وشهرته انه خلق لغة ادبية ممتازة وقد صرف هذا الكاتب العظيم اواخر ايامه في تأليف مجموعة من الرسائل تبحث في السياسة والفلسفة • وكانت الينابيع التي اخذ منها معظم مادته من مصادر اغريقية باستثناء بعض التآليف في فن الخطابة[٣] • ولعل اهم ما أسداه الى الادب اللاتيني انه اوجد تعابير ومفردات تستطيع أن تعبر عن الافكار المجردة

---

(١) وتسمى بـ (Georgics)

(٢) (Aeneid) نسبة الى البطل (Aneas) حيث تصف اسفار هذا البطل واتباعه من طروادة الى ايطالية بعد سقوط طروادة •

(٣) مثل De Oratore و Brutus

المأخوذة من الفكر اليوناني ، وصار بذلك واسطة لتعريف الفكر اليوناني الى الرومان ، ومن الرومان الى العصور التي تلت الرومان • وكان لاكتشاف بعض آثاره (رسائله) في عهد النهضة الاوربية تأثير عميق في اوربة حيث تعرفت بها على الحياة الاجتماعية التي عاش فيها «شيشرون» وقد بقيت اللغة اللاتينية لغة اوربة المتمدنة ما يزيد على الخمسة عشر قرنا ، وكان (شيشرون) طوال هذه الحقبة امام البلاغة والنثر اللاتيني •

ليفي (Livy ٥٩ ق • م ـ ١٧ م) :

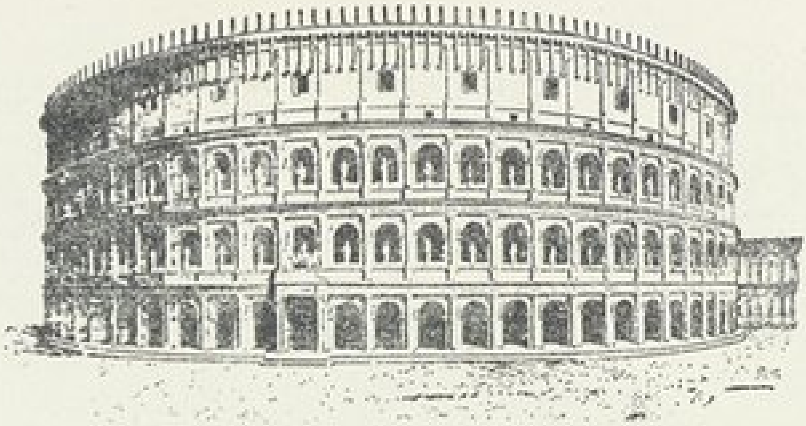
وكان ليفي أمام النثر اللاتيني في العهد الاوغسطي وقد كتب تأريخا مسهبا لرومة منذ تأسيسها ، وقد وصلنا منه ٣٥ كتابا تقدر بربع التأليف الاصلي • وليفي لا يعد مؤرخا بحسب مفهوم كلمة (المؤرخ) في العصر الحاضر • واذا قسناه بالمؤرخ الاغريقي (ثوسيدايدز) الفيناه اقل منه من ناحية التحقيق والنقد وعلى كل حال فان تأريخه قد اقتصر على تفسير روح الشعب والمجتمع دون تدوين حوادث ذلك المجتمع وانظمته • وقد كان متحمسا في اعتقاده بالمآثر الرومانية وامجاد هذه المآثر لذلك فقد رسم لنا تلك الامجاد بروح شاعر وليس بعقل عالم محقق •

تاسيتوس : (Tacitus ٥٥ ـ ١٢٠ م)

بوسعنا ان نعد «تاسيتوس» آخر فحول البلاغة والكتاب العظماء عند الرومان • وقد بدأ ببعض التآليف مثل حياة حميه الامبراطور (اكريكولا) (Agricola) وكذلك كتابه عن المانية ، ولكن هذه دون تآليفه الاخرى ولا سيما مؤلفيه التأريخين العظيمين(التواريخ)[1] والحوليات[1] اللذين الفهما من ٦٩ الى ٩٦ للميلاد وذكر فيهما أخبار حكم الاباطرة من بعد موت (اوغسطس) الى وفاة (نيرون) ، وتعد هذه التآليف من النتاج الفني الممتاز بالاضافة الى كونها تأريخا ، وقد امتاز هذان الكتابان بالاسلوب اللاذع •

---

(١) Histories و Annals



احد الملاعب المدرجة (Amphitheatre) فى رومة مما يعرف الآن باسم «كولوسيوم» (Colosseum)

ومما يقال فى الكتاب الذين جاؤا من بعد تاسيتوس أنهم مقلدون أكثر منهم مبدعون • وان العهد الفنى المجيد قد انتهى من بعده •

الفن الروماني :

١ ـ العمارة :

أخذ الرومان العقادة والقوس من الشرق[١] ، وصار القوس أساس العمارة الرومانية ، وقد مزجوا القوس والعقادة مزجا فنيا رائعا مع نظام العمد والافاريز وغير ذلك من أجزاء العمد والتجان (Capitals) التى أخذوها عن الاغريق • وقد بدأ الرومان منذ عهد اوغسطس فى تزيين عاصمتهم بأبنية جميلة تعبر عن عظمتهم وسلطانهم ، وهذا هو السبب الذى جعل اوغسطس يفتخر بقوله لقد وجدت رومة من الآجر فتركتها من الرخام • وتدل المبانى التى شيدها الرومان على النواحى التى اهتموا بها وعلى حاجاتهم ـ فالمبانى التى خلفوها فى العاصمة وفى مدن الاقاليم المهمة تنحصر بالدرجة الاولى فى المعابد والحمامات العامة والمحاكم وأبنية الملاهى والمسارح ، ومدارج الالعاب

---

(١) راجع أصل هذه الفنون العمارية فى تاريخ العراق القديم •

(Amphitheatre) ومع اختلاف هذه المبانى فى الوظيفة والغاية فقد كانت تتصف بأوصاف عامة من فن العمارة ، مما جعل المدينة الرومانية تتصف بالاتساق والتناسب الفنى • وعلى الرغم من ان الرومان كانوا مقتبسين فى فن العمارة غير مبدعين ولكن يجب ان نقر بما امتازوا به من المهارة الفائقة فى تكييف وتمثيل ما اقتبسوه الى حاجاتهم الخاصة ، وفى سيطرتهم على مادة البناء وأشكالها • والى ذلك كانت عمارتهم أضخم وأروع مما انتجه معلموهم الاغريق •

كان الرومان مهندسين أعظم منهم بنائين • ويظهر نبوغهم الهندسى ومهارتهم فى قبابهم الصغيرة[١] مثل قبة البانثيون وفى العقادات العجيبة فى «بسيليقة» قسطنطين[٢] • وقد استخدموا فى هذه المشاريع العظيمة مادة للبناء جديدة هى «الكونكريت» (الابرق) التى صارت باضافتها الى الآجر والحجر مادة جديدة ممتازة فى البناء • ومن مظاهر المهارة الهندسية الرومانية بناء الطرق الرومانية المشهورة والجسور والقناطر والقنوات والاسوار والحمامات • فقد أنشأوا شبكة من الطرق العظيمة فى جميع أنحاء الامبراطورية ، ولا يزال بعضها مستعملا حتى زماننا هذا • هذا ولا تنحصر آثار الابنية الرومانية فى ايطالية بل شملت أقطارا أخرى فى افريقية وسورية واليونان واسبانية وفرنسة وبريطانية وحتى فى المانية •

واشتهرت العمارة الرومانية بنوع من الابنية المدنية العامة اسمها «الفوروم» (Forum) وكانت هذه مواضع عامة للاجتماعات واقامة الاسواق والمحاكم ودوائر الدولة العامة • ونشأ الفوروم بالاصل بهيئة محل للاسواق العامة ثم تحول الى مركز المدينة المدنى للاجتماعات العامة والاغراض الاخرى التى

(١) وتدعى مثل هذه القباب (Cupola) كما فى قبة البانثيون •

(٢) (Basilica) • وكانت هذه بالاصل فى رومة القديمة قصرا ملوكيا ، ثم تطورت أخيرا فاصبحت قاعات تستعمل للمحاكم او للمجالس العامة وكذلك صارت طرازا فى بعض الكنائس المسيحية •

عددناها وكان يقام في مثل هذه المواضع تماثيل الاباطرة والقواد العظام والمنابر العامة لالقاء الخطب في أثناء الاجتماعات والاحتفالات • واختص كل امبراطور تقريبا ببناء من هذه الابنية من عهد اوغسطس فما بعد ، وبذ جميعها «فوروم» الامبراطور «تراجان» (٩٨ – ١١٧م) • ومن الجدير بالذكر عن هذا «الفوروم» ان المعمار الذي وضع خططه وتصميمه معمار من الشرق هو «ابولو دوروس» الدمشقي ، وانه يشبه في تصميمه المعبد المصري • فأول ما يجده الداخل الى ذلك البناء المهيب مدخل معقود من الاقواس «البواكي» يفضي الى ساحة مكشوفة فيها صفوف من العمد الفخمة من جهاتها الثلاث وفيها أجنحة عظمى دائرية ذات دكاكين ، ثم يدخل الى «البسيليقة» ذات الاعمدة الكثيرة ، ويليها معبد خصص لعبادة الامبراطور المؤله •

٢ ـ النحت :

ان معظم ما جاءنا من النحت الروماني نسخ من المنحوتات الاغريقية المشهورة أو من منحوتات العهد الهلنستي • والواقع ان معرفتنا ببعض القطع الاصلية اليونانية من هذه النسخ الرومانية • ومع ذلك فبوسعنا أن نجد الابداع والاصالة في بعض المواضيع الخاصة • ويظهر هذا الابداع في التماثيل «النصفية» (Bust) التي يظهر فيها التعبير الواقعي ، وهذه ميزة فنية لا تجدها في النحت الاغريقي ومثل ذلك يقال في تماثيل الاشخاص بوجه عام • وأبدع النحات الروماني كذلك في موضوع آخر هو الافاريز المنحوتة المتخذة للزينة في العمارة • ويظهر في هذا الحقل أيضا الفن الواقعي وكذلك استعمال النحت البارز (Relief) للزخرفة والزينة وقد وفق النحاتون في ذلك الى حد الاعجاب •

٣ ـ النقش : (Painting)

جاءتنا أمثلة للنقش الروماني من النقوش الجدارية (Frescoe) في البيوت الخاصة ولا سيما ما وجد في «بومبي» (Pompeii) • ومما يقال في النقش الروماني بوجه الاجمال انه مستعار من الفن الاغريقي من ناحية

الموضوع والطريقة ولما لم يأتنا من نقوش الاغريق شيء فيكون لنماذج النقش الروماني التي جاءتنا قيمة عظمى اذ منها نستطيع أن نعرف عن النقش عند الاغريق والرومان أمورا مهمة جدا أولها وأبرزها استعمال فن المنظور الذي سبقت الاشارة اليه في الكلام على حضارة العراق ومصر واستعمال الظلال لجعل الصور المنقوشة تتراءى كأنها ذات ثلاثة أبعاد ، وكذلك الموفقية في تناسب الالوان واتساقها ومراعاة النسبة والوحدة بين الاشكال مع المنظر العام، وكل هذه في الواقع مبادىء أساسية وصل اليها الفن الاغريقي • وقد زودتنا الآثار التي وجدت في (بومبي) بنماذج جميلة عن نتاج الفنون الفرعية الرومانية كسبك التماثيل من البرونز وقطع الاثاث الجميلة المتخذة للزخرفة. ومن الفنون الفرعية الجميلة ما انتجه الصاغة والجوهريون من القطع النفيسة التي تطلبتها اناقة الحياة الرومانية •

ونختتم هذا البحث الموجز في الفن الروماني بذكر أثر الفن الاتروسكي في الفن الروماني على الرغم من تأثر الرومان بالفن الاغريقي بدرجة كبيرة ويتجلى ذلك في البناء الاتروسكي في الحجارة على مبدأ القوس مما مكن العمارة الرومانية ان تنشأ مشاريع جبارة كالجسور والمعابد والقصور والمراسح وأقواس النصر • وبوسعنا أن نعد الهندسة العمارية عند الرومان مظهرا من مظاهر ما امتازوا به من الميل الى النظام والتنظيم اللذين يتجليان أيضا في القانون الروماني وفي تنظيم الحكومة والادارة ، وقد قرنت الهندسة العمارية بحب الزخرفة والزينة أي الجمع بين الهندسة والجمال ويظهر ذلك بوجه خاص في أبنية الحمامات الشهيرة التي امتازت بها العمارة الرومانية[١] •

---

(١) يستحسن ان ينبه الطالب الى مراجعة بعض الكتب للوقوف على أمثلة من الفن الروماني مثل كتاب

Helen Gardner: **Art Through The Ages** (1936), Chp. 7

مراجع مختارة عن القســـــم الخامس

(1) **Cambridge Ancient History.**
(2) Will Durant, **The Life of Greece** (1939).
(3) Goltz, **The Aegean Civilization** (1925).
(4) **The Legacy of Greece** (1942).
(5) Franel, **Greece and Babylon** (1911).
(6) Hellen Gardner, **Art Through The Ages** (1936), 122 ff.
(7) E. A. Gardner, **The Art of Greece** (1925).
———, **Greece and the Aegean** (1934).
(8) ———, **A Handbook of Greek Sculpture** (1915).
(9) J. B. Bury, **History of Greece** (1931).
(10) Flickinger, **The Greek Theatre** (1918).
(11) T. R. Glover, **Democracy in the Ancient World** (1927).
(12) Sir, T. Heath, **History of Greek Mathematics** (1921).
(13) A. T. Murray, **Iliad** (Texts and trans).
(14) ———, **Odyssey** (Texts and trans).
(15) J. P. Mahaffy, **Social Life in Greece** (1925).
(16) H. Mc Clees, **Daily Life of the Greeks and the Romans** (1928).
(17) M. Nilssen, **History of Greek Religion** (1925).
(18) Zeller, **Outlines of the History of Greek Philosophy** (1931).
(19) **The Legacy of Rome** (1940).
(20) Showerman, **Rome and the Romans** (1931).
(21) Taylor, **Constitutional and Political History of Rome.**
(22) R. H. Barrow, **The Romans** (Pelican).
(23) Anderson & Spiers, **The Architecture of Ancient Rome** (1927).
(24) A. Man, **Pompeii. Its Life and Art** (1902).

(25) Will Durant, **Story of Philosophy** (1930).

(26) Poland et al, **The Culture of Ancient Greece and Rome** (1926).

(27) Rostovtzeff, **A History of the Ancient World,** 2 vols. (1926 — 27).

(28) Norwood & Duff, **The Writers of Greece and Rome** (1926).

(29) Zimmern, **The Greek Commonwealth** (1924).